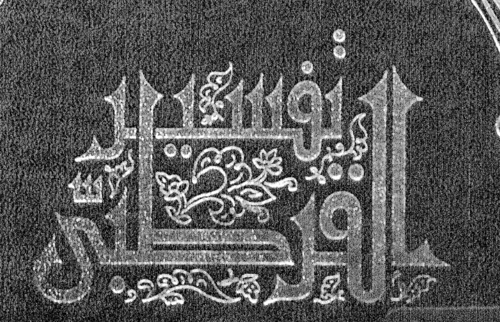




لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري


تفسير القرطبي

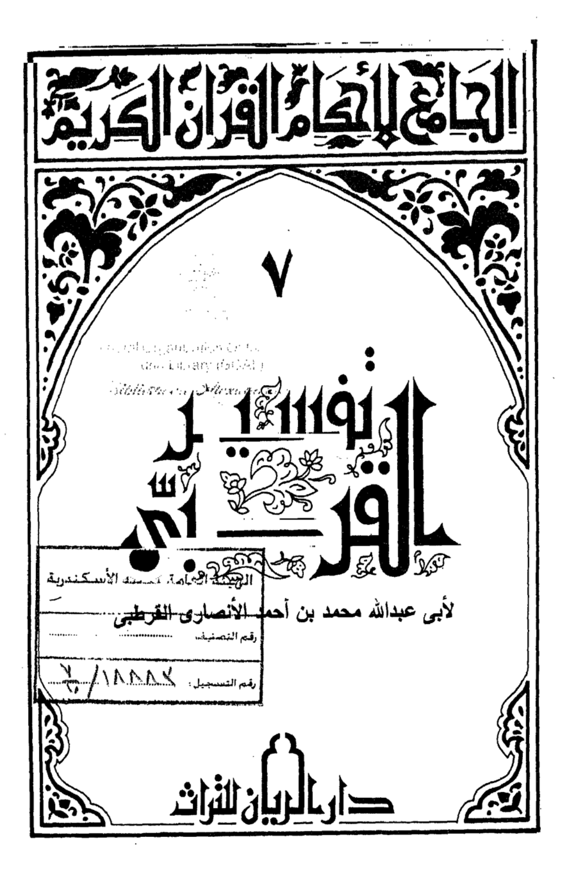
طبعة خاصة

بتصريح من دار الشعب

يطلب من : دار الريان للتراث

● دار الريان للتراث ١٧٧ شارع الهرم . ت : ٥٣٦٥٩٩

● مصر الجديدة: ٢٠ شارع الاندلس . ت : ٢٥٩١٨٩٢/ ٢٥٩١٨٩١


الجامع لأحكام القرآن الكريم
٧
تفسير القرطبي
لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي
دار الريان للتراث


بسم الله الرحمن الرحيم

الذي يحاسبون فيه على أعمالهم . « للناس » قال ابن عباس : المراد بالناس هنا المشركون بدليل قوله تعالى : « إلا ٱستمعوه وهم يلعبون » إلى قوله : « أفتأتون السحر وأنتم تبصرون » . وقيل : الناس عموم و إن كان المشار إليه فى ذلك الوقت كفار قريش ؛ يدل على ذلك ما بعد من الآيات ؛ ومن علم اقتراب الساعة قصر أمله ، وطابت نفسه بالتوبة ، ولم يركن إلى الدنيا ، فكأن ما كان لم يكن إذا ذهب ، وكل آت قريب ، والموت لا محالة آت ؛ وموت كل إنسان قيام ساعته ؛ والقيامة أيضا قريبة بالإضافة إلى ما مضى من الزمان ، فما بقى من الدنيا أقل مما مضى . وقال الضحاك : معنى « ٱقترب للناس حسابهم » أى عذابهم يعنى أهل مكة ؛ لأنهم ٱستبطئوا ما وعدوا به من العذاب تكذيبا ، وكان قتلهم يوم بدر . النحاس : ولا يجوز فى الكلام ٱقترب حسابهم للناس ؛ لئلا يتقدّم مضمر على مظهر لا يجوز أن ينوى به التأخير.

﴿ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ ٱبتداء وخبر . ويجوز النصب فى غير القرآن على الحال . وفيه وجهان : أحدهما — « وهم فى غفلة معرضون » يعنى بالدنيا عن الآخرة . الثانى — عن التأهب للحساب وعما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . وهذه الواو عند سيبويه بمعنى « إذ » وهى التى يسميها النحويون واو الحال ؛ كما قال الله تبارك وتعالى : « يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم »

قوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ﴾ « محدث » نعت لـ « ذكر » . وأجاز الكسائى والفراء « محدثا » بمعنى ما يأتيهم محدثا ؛ نصب على الحال . وأجاز الفراء أيضا رفع « محدث » على النعت للذكر ؛ لأنك لو حذفت « من » رفعت ذكرا ؛ أى ما يأتيهم ذكر من ربهم محدث ؛ يريد فى النزول وتلاوة جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان ينزل سورة بعد سورة ، وآية بعد آية ، كما كان ينزله الله تعالى عليه فى وقت بعد وقت ؛ لا أن القرآن مخلوق . وقيل : الذكر ما يذكرهم به النبى صلى الله عليه وسلم و يعظهم به . وقال : « من ربهم » لأن النبى صلى الله عليه وسلم لا ينطق إلا بالوحى ، فوعظ النبى صلى الله عليه وسلم وتحذيره ذكر ، وهو محدث ؛ قال الله تعالى : « فذكّر إنما أنت مذكّر » . و يقال : فلان فى مجلس

الذكر. وقيل : الذكر الرسول نفسه؛ قاله الحسين بن الفضل بدليل ما فى سياق الآية « هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » ولو أراد بالذكر القرآن لقال : هل هذا إلا أساطير الأولين؛ ودليل هذا التأويل قوله تعالى : « وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ. وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم. وقال : « قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا. رَسُولًا » . ﴿ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ، أو القرآن من النبى صلى الله عليه وسلم أو من أمته . ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ الواو واو الحال يدل عليه « لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ » ومعنى « يَلْعَبُونَ » أى يلهون . وقيل : يشتغلون؛ فإن حمل تأويله على اللهو احتمل ما يلهون به وجهين : أحدهما — بلذاتهم . الثانى — بسماع ما يتلى عليهم. وإن حمل تأويله على الشغل احتمل ما يتشاغلون به وجهين : أحدهما — بالدنيا لأنها لعب؛ كما قال الله تعالى : « إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ». الثانى — يتشاغلون بالقدح فيه، والاعتراض عليه. قال الحسن : كلما جدد لهم الذكر استمروا على الجهل. وقيل : يستمعون القرآن مستهزئين .

قوله تعالى : ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ أى ساهية قلوبهم، معرضة عن ذكر الله ، متشاغلة عن التأمل والتفهم؛ من قول العرب : لَهِيتُ عن ذكر الشيء إذا تركته وسلوت عنه ألهى لُهِيًّا ولِهْيَانًا . و « لاهية » نعت تقدم الاسم ، ومن حق النعت أن يتبع المنعوت فى جميع الإعراب ، فإذا تقدم النعت الاسم انتصب كقوله : « خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ » و « وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا » و « لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ » قال الشاعر :

لِعَزَّةَ مُوحِشًا طَلَلُ * يَلُوحُ(١) كَأَنَّهُ خِلَلُ

أراد : طلل موحش . وأجاز الكسائى والفراء « لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ » بالرفع بمعنى قلوبهم لاهية . وأجاز غيرهما الرفع على أن يكون خبرا بعد خبر وعلى إضمار مبتدأ . وقال الكسائى : ويجوز أن يكون المعنى ؛ إلا استمعوه لاهية قلوبهم . ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى تناجوا فيما بينهم بالتكذيب، ثم بين من هم فقال : « الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى الذين أشركوا؛ فـ « الذين ظلموا » بدل من الواو فى « أسروا » وهو عائد على الناس المتقدم ذكرهم؛ ولا يوقف على هذا

(١) هو كثير عزة ، أى تلوح آثاره وتتبين تبين الوشى فى خلل السيوف ، وهى أغشية الأغماد ؛ واحدتها خلة .

القول على « النجوى » . قال المبرّد وهو كقولك : إن الذين في الدار انطلقوا بنو عبد الله فبنو بدل من الواو في انطلقوا . وقيل : هو رفع على الذم ، أي هم الذين ظلموا . وقيل : على حذف القول ، التقدير : يقول الذين ظلموا وحذف القول ، مثل « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » . واختار هذا القول النحاس ، قال : والدليل على صحة هذا الجواب أن بعده « هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » . وقول رابع : يكون منصوبا بمعنى أعني الذين ظلموا . وأجاز الفراء أن يكون خفضا بمعنى اقترب للناس الذين ظلموا حسابهم ؛ ولا يوقف على هذا الوجه على « النجوى » و يوقف على الوجوه المتقدمة الثلاثة قبله ؛ فهذه خمسة أقوال . وأجاز الأخفش الرفع على لغة من قال : أكلوني البراغيث ؛ وهو حسن ؛ قال الله تعالى : « ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ » . وقال الشاعر :

بك نال النِّضالُ دون المساعى * فاهتدينَ النِّبالُ للأغراض

وقال آخر :[1] ولكنْ دِيافيٌّ أبوه وأمُّهُ * بحَوْرانَ يَعْصِرْنَ السَّليطَ أقاربُهْ

وقال الكسائي : فيه تقديم وتأخير ، مجازه : والذين ظلموا أسروا النجوى . أبو عبيدة : « أسروا » هنا من الأضداد ؛ فيحتمل أن يكونوا أخفوا كلامهم ، ويحتمل أن يكونوا أظهروه وأعلنوه .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ أي تناجوا بينهم وقالوا : هل هذا الذكر الذي هو الرسول ، أو هل هذا الذي يدعوكم إلا بشر مثلكم ، لا يتميز عنكم بشيء ، يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق كما تفعلون . وما علموا أن الله عز وجل بين أنه لا يجوز أن يرسل إليهم إلا بشرا ليتفهموا ويعلمهم . ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ ﴾ أي إن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم سحر ، فكيف تجيئون إليه وتتبعونه ؟ فأطلع الله نبيه عليه السلام على ما تناجوا به . و« السحر » في اللغة كل مموه لا حقيقة له ولا صحة . ﴿ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أنه إنسان مثلكم مثل : « وأنتم تعقلون » لأن العقل البصر بالأشياء . وقيل : المعنى ؛ أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر . وقيل : المعنى ؛ أفتعدلون إلى الباطل وأنتم تعرفون الحق ؛ ومعنى الكلام التوبيخ .

(١) هو الفرزدق يهجو عمرو بن عفراء . ودياف : موضع بالجزيرة ؛ وهم نبط الشام . والسليط : الزيت .

قوله تعالى : قَـٰلَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ(١) رَبِّى يَعْلَمُ القَوْلَ فِى السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ أى لا يخفى عليه شىء مما يقال فى السماء والأرض . وفى مصاحف أهل الكوفة « قَالَ رَبِّى » أى قال محمد ربى يعلم القول؛ أى هو عالم بما تناجيتم به . وقيل : إن القراءة الأولى أولى ؛ لأنهم أسروا هذا القول فأظهر الله عز وجل عليه نبيه صلى الله عليه وسلم، وأمره أن يقول لهم هذا؛ قال النحاس : والقراءتان صحيحتان وهما بمنزلة الآيتين، وفيهما من الفائدة أن النبى صلى الله عليه وسلم أُمر وأنه قال كما أُمر .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ قال الزجاج : أى قالوا الذى يأتى به أضغاث أحلام . وقال غيره : أى قالوا هو أخلاط كالأحلام المختلطة ؛ أى أهاويل رآها فى المنام؛ قال معناه مجاهد وقتادة؛ ومنه قول الشاعر :

* كضغث حُلْمٍ غُرَّ منه حَالِمُه *

وقال القتبى : إنها الرؤيا الكاذبة ؛ وفيه قول الشاعر :

أحاديثُ طَسْمٍ أو سرابٌ بفدفدٍ * تَرَقْرَقُ للسَّارى وأضغاثُ حالمِ

وقال اليزيدى : الأضغاث ما لم يكن له تأويل . وقد مضى هذا فى «يوسف»(٢) . فلما رأوا أن الأمر ليس كما قالوا انتقلوا عن ذلك فقالوا : « بل افتراه » ثم انتقلوا عن ذلك فقالوا : « بل هو شاعر » أى هم متحيّرون لا يستقرون على شىء : قالوا مرة سحر ، ومرة أضغاث أحلام، ومرة افتراه، ومرة شاعر . وقيل : أى قال فريق إنه ساحر، وفريق إنه أضغاث أحلام ؛ وفريق إنه افتراه ، وفريق إنه شاعر . والافتراء الاختلاق ؛ وقد تقدم .

(١) «قل» على الأمر قراءة «نافع» . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٠٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ أي كما أرسل موسى بالعصا وغيرها من الآيات ومثل ناقة صالح . وكانوا عالمين بأن القرآن ليس بسحر ولا رؤيا ولكن قالوا : ينبغي أن يأتي بآية نقترحها ؛ ولم يكن لهم الاقتراح بعد ما رأوا آية واحدة . وأيضا إذا لم يؤمنوا بآية هي من جنس ما هم أعلم الناس به ، ولا مجال للشبهة فيها فكيف يؤمنون بآية غيرها ، ولو أبرأ الأكمه والأبرص لقالوا : هذا من باب الطبّ ، وليس ذلك من صناعتنا ؛ وإنما كان سؤالهم تعنتا إذ كان الله أعطاهم من الآيات ما فيه كفاية . وبين الله عز وجل أنهم لو كانوا يؤمنون لأعطاهم ما سألوه لقوله عز وجل : « وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ قال ابن عباس : يريد قوم صالح وقوم فرعون . ﴿ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ يريد كان في علمنا هلاكها . ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ يريد يصدقون ؛ أي فما آمنوا بالآيات فاستؤصلوا ، فلو رأى هؤلاء ما اقترحوا لما آمنوا ؛ لما سبق من القضاء بأنهم لا يؤمنون أيضا ؛ وإنما تأخر عقابهم لعلمنا بأن في أصلابهم من يؤمن . و « من » زائدة في قوله : « مِنْ قَرْيَةٍ » كقوله : « فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَى إِلَيْهِمْ ﴾ هذا رد عليهم في قولهم : « هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » وتأنيس لنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أي لم يرسل قبلك إلا رجالا .

نوحي » بالياء قراءة نافع .

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يريد أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، قاله سفيان . وسماهم أهل الذكر؛ لأنهم كانوا يذكرون خبر الأنبياء مما لم تعرفه العرب . وكان كفار قريش يراجعون أهل الكتاب فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن زيد : أراد بالذكر القرآن؛ أى فاسئلوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن؛ قال جابر الجعفى : لما نزلت هذه الآية قال على رضى الله عنه نحن أهل الذكر . وقد ثبت بالتواتر أن الرسل كانوا من البشر؛ فالمعنى لا تبدءوا بالإنكار وبقولكم ينبغى أن يكون الرسول من الملائكة، بل ناظروا المؤمنين ليبينوا لكم جواز أن يكون الرسول من البشر . والملك لا يسمى رجلا؛ لأن الرجل يقع على ماله ضد من لفظه؛ تقول : رجل وامرأة، ورجل وصبى؛ فقوله : « إِلَّا رِجَالًا » من بنى آدم . وقرأ حفص وحمزة والكسائى « نُوحِى إِلَيْهِمْ » .

مسألة — لم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها، وأنهم المراد بقول الله عز وجل : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » وأجمعوا على أن الأعمى لابد له من تقليد غيره ممن يثق بميزه بالقبلة إذا أشكلت عليه؛ فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لا بد له من تقليد عالمه، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا؛ لجهلها بالمعانى التى منها يجوز التحليل والتحريم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ الضمير فى « جعلناهم » للأنبياء؛ أى لم نجعل الرسل قبلك خارجين عن طباع البشر لا يحتاجون إلى طعام وشراب . ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ يريد لا يموتون . وهذا جواب لقولهم : « مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » وقولهم : « مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ » . و« جسدا » اسم جنس؛ ولهذا لم يقل أجسادا . وقيل : لم يقل أجسادا؛ لأنه أراد وما جعلنا كل واحد منهم جسدا . والجسد البدن؛ تقول منه : تجسّد كما تقول من الجسم تجسّم . والجسد أيضا الزعفران أو نحوه من الصّبغ، وهو الدم أيضا؛ قال النابغة :

* وما هُرِيق على الأنصاب من جسد (١) *

(١) صدر البيت : * فلا لعمر الذى مسحت كعبته *
أقسم بالله أولا ثم بالدماء التى كانت تصب فى الجاهلية على الأنصاب .

وقال الكلبي : والجسد هو المتجسد الذي فيه الروح يأكل ويشرب ؛ فعلى مقتضى هذا القول يكون ما لا يأكل ولا يشرب جسما . وقال مجاهد : الجسد ما لا يأكل ولا يشرب ؛ فعلى مقتضى هذا القول يكون ما يأكل ويشرب نفسا ؛ ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ ﴾ يعني الأنبياء ؛ أي بإنجائهم ونصرهم وإهلاك مكذبيهم . ﴿ وَمَنْ نَشَاءُ ﴾ أي الذين صدقوا الأنبياء . ﴿ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي المشركين .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا ﴾ يعني القرآن . ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ رفع بالابتداء والجملة في موضع نصب لأنها نعت لكتاب ؛ والمراد بالذكر هنا الشرف ؛ أي فيه شرفكم ، مثل « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » . ثم نبههم بالاستفهام الذي معناه التوقيف فقال عز وجل : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . وقيل : فيه ذكركم أي ذكر أمر دينكم ؛ وأحكام شرعكم ، وما تصيرون إليه من ثواب وعقاب ، أفلا تعقلون هذه الأشياء التي ذكرناها ؟! وقال مجاهد : « فِيهِ ذِكْرُكُمْ » أي حديثكم . وقيل : مكارم أخلاقكم ، ومحاسن أعمالكم . وقال سهل بن عبدالله : العمل بما فيه حياتكم .

قلت : وهذه الأقوال بمعنى والأول يعمها ؛ إذ هي شرف كلها ، والكتاب شرف لنبينا عليه السلام ؛ لأنه معجزته ، وهو شرف لنا إن عملنا بما فيه ، دليله قوله عليه السلام : " القرآن حجة لك أو عليك " .

قوله تعالى : وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوٓا إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ يريد مدائن كانت باليمن . وقال أهل التفسير والأخبار : إنه أراد أهلَ حَضُور(١) وكان بعث إليهم نبي آسمه شعيب بن ذي مَهْدَم ، وقبر شعيب هذا باليمن بجبل يقال له ضَنَن(٢) كثير الثلج ، وليس بشعيب صاحب مدين ؛ لأن قصة حَضُور قبل مدة عيسى عليه السلام ، وبعد مئين من السنين من مدة سليمان عليه السلام ، وأنهم قتلوا نبيهم وقتل أصحاب الرّس في ذلك التاريخ نبيا لهم آسمه حنظلة بن صفوان ، وكانت حَضُور بأرض الحجاز من ناحية الشام ، فأوحى الله إلى أرميا أن آيت بختنصر فأعلمه أني قد سلطته على أرض العرب ، وأني منتقم بك منهم ، وأوحى الله إلى أرميا أن آحمل مَعَدّ بن عدنان على البراق إلى أرض العراق ؛ كي لا تصيبه النقمة والبلاء معهم ، فإني مستخرج من صلبه نبيا في آخر الزمان آسمه محمد ، فحمل مَعَدّا وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، فكان مع بني إسرائيل إلى أن كبر وتزوج امرأة آسمها معانة ؛ ثم إن بختنصر نهض بالجيوش ، وكمن للعرب في مكان — وهو أول من آتخذ المكامن فيما ذكروا — ثم شنّ الغارات على حَضُور فقتل وسَبَى وخرّب العامر ، ولم يترك بحَضُور أثرا ، ثم آنصرف راجعا إلى السواد . و « كَمْ » في موضع نصب بـ « قصمنا » . والقَصْم الكسر ؛ يقال : قَصمتُ ظهر فلان وانقصمت سنّه إذا آنكسرت ، والمعنيّ به ها هنا الإهلاك . وأما الفَصْم (بالفاء) فهو الصدع في الشيء من غير بينونة ، قال الشاعر(٣) :

كأنّه دُمْلُجٌ من فِضّةٍ نَبَهٌ * في مَلْعَبٍ من عَذَارَى الحيّ مَفْصُومُ

ومنه الحديث "فيُفْصِم عنه وإن جبينه ليتفصّد عرقا". وقوله : « كَانَتْ ظَالِمَةً » أي كافرة ؛ يعني أهلها . والظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وهم وضعوا الكفر موضع الإيمان . ﴿ وَأَنْشَأْنَا ﴾ أي أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاكهم ﴿ قَوْماً آخَرِينَ ﴾ . ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا ﴾ أي رأوا عذابنا ؛ يقال : أحسست منه ضعفا . وقال الأخفش : « أحسّوا » خافوا وتوقعوا . ﴿ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أي يهربون ويفرّون . والركض العدو بشدة الوطء . والركض

(١) وتروى حضوراء (بالألف الممدودة) . (٢) كذا في الأصل . (٣) هو ذو الرمة ، يذكر غزالا شبهه وهو نائم بدملج فضة قد طرح ونسي . ونبه : أي منسيّ نسيته العذارى في الملعب .

تحريك الرِّجل ؛ ومنــه قوله تعالى : « ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ » وركضت الفرس برجلي آستحثثته لبعدو ثم كثر حتى قيــل رَكض الفرسُ إذا عَدَا وليس بالأصــل ، والصواب رُكض الفرسُ على ما لم يسمّ فاعله فهــو مركوض . ﴿ لَا تَرْكُضُوا ﴾ أى لا تفروا . وقيــل : إن الملائكة نادتهم لمــا آنهزموا آستهزاء بهم وقالت : « لا تركضوا » . ﴿ وَٱرْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ أى إلى نعمكم التى كانت سبب بطركم ، والمترف المتنعم ؛ يقال : أترف على فلان أى وُسّع عليــه فى معاشه . وإنمــا أترفهم الله عز وجل كما قال : « وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَــا » ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ أى لعلكم تُسألون شيئا من دنياكم ؛ آستهزاء بهــم ؛ قاله قتادة . وقيل : المعــنى « لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ » عمــا نزل بكم من العقوبة فتخبرون به . وقيــل : المعنى « لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ » أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبــل نزول البأس بكم ؛ قيــل لهم ذلك آستهزاء وتقريعا وتوبيخا . ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا ﴾ لمــا قالت لهم الملائكة : « لا تركضوا » ونادت بالثارات الأنبياء ! ولم يروا شخصا يكلمهم عرفوا أن الله عز وجل هو الذى سلط عليهم عدوهم بقتلهم النبي الذى بعث فيهم ، فعند ذلك قالوا . ﴿ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ فاعترفوا بأنهــم ظلموا حين لا ينفع الاعتراف . ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ أى لم يزالوا يقولون : « يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » . ﴿ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا ﴾ أى بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل ؛ قاله مجاهد . وقال الحسن : أى بالعــذاب . ﴿ خَامِدِينَ ﴾ أى ميتين . والخمــود الهمود كخمود النار إذا طفئت فشبه خمود الحياة بخمود النار، كما يقال لمن مات قد طفئ تشبيها بانطفاء النار .

قوله تعــالى : وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ أى عبثا و باطلا ؛ بل للتنبيه على أن لها خالقا قادرا يجب ٱمتثال أمره، وأنه يجازى المسيء والمحسن ؛ أى ما خلقنا السماء والأرض ليظلم بعض النـاس بعضا ، و يكفر بعضهـم ، و يخالف بعضهم ما أمر به ثم يموتوا ولا يجازوا ، ولا يؤمروا فى الدنيا بحسن ولا ينهوا عن قبيح . وهـذا اللعب المنفى عن الحكيم ضده الحكمة .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ لمـا ٱعتقد قـوم أن له ولدا قال : « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِـذَ لَهْوًا » واللهو المرأة بلغـة اليمن ؛ قاله قتـادة . وقال عقبة بن أبى جَسْرَة — وجاء طاوس وعطاء ومجاهد يسألونه عن قوله تعالى : « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا » — فقال : اللهو الزوجة ؛ وقاله الحسن . وقال ابن عباس : اللهو الولد ؛ وقاله الحسن أيضا . قال الجوهرى : وقد يكنى باللهو عن الجماع .

قلت : ومنه قول ٱمرئ القيس :

أَلَا زَعمتْ بَسْبَاسَةُ اليومَ أنَّنِى * كَبِرتُ وأَلَّا يُحسِنَ اللَّهْوَ أمثالِى

و إنما سمى الجماع لهوا لأنه ملهى للقلب، كما قال(١) :

* وفيهنّ مَلْهًى للصديق ومَنْظَرُ *

الجوهرى : وقوله تعالى «لو أردنا أن نتخذ لهوا » قالوا ٱمرأة ، و يقال : ولدا . ﴿ لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾ أى من عندنا لا من عندكم . قال ٱبن جريج : من أهل السماء لا من أهل الأرض . قيل : أراد الرد على من قال إن الأصنام بنات الله ؛ أى كيف يكون منحوتكم ولدا لنا . وقال ابن قتيبة : الآية رد على النصارى ، ﴿ إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ قال قتادة ومقاتل وابن جريج والحسن : المعنى ما كنا فاعلين ؛ مثل « إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ » أى ما أنت إلا نذير . و «إن» بمعنى الجحد وتم الكلام عند قوله : «لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا » . وقيل : إنه على معنى الشرط ؛ أى إن كنا فاعلين ذلك ولكن لسنا بفاعلين ذلك لاستحالة أن يكون لنا ولد ؛ إذ لو كان ذلك لم نخلق جنة ولا

(١) هو زهير بن أبى سلمى ، والبيت من معلقته وتمامه :

* أنيقٌ لعينِ النّاظرِ المتوسّمِ *

نارا ولاموتا ولا بعثا ولا حسابا . وقيل : لو أردنا أن نتخذ ولدا على طريق التبني لاتخذناه من عندنا من الملائكة . ومال إلى هذا قوم ؛ لأن الإرادة قد تتعلق بالتبني فأما اتخاذ الولد فهو محال ، والإرادة لا تتعلق بالمستحيل ، ذكره القشيري .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ القذف الرمي ؛ أي نرمي بالحق على الباطل . ﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ أي يقهره ويهلكه . وأصل الدمغ شجّ الرأس حتى يبلغ الدماغ ، ومنه الدامغة . والحق هنا القرآن ، والباطل الشيطان في قول مجاهد ؛ قال : وكل ما في القرآن من الباطل فهو الشيطان . وقيل : الباطل كذبهم ووصفهم الله عز وجل بغير صفاته من الولد وغيره . وقيل : أراد بالحق الحجة ، وبالباطل شبههم . وقيل : الحق المواعظ ، والباطل المعاصي ؛ والمعنى متقارب . والقرآن يتضمن الحجة والموعظة . ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أي هالك وتالف ؛ قاله قتادة . ﴿ وَلَكُمُ الْوَيْلُ ﴾ أي العذاب في الآخرة بسبب وصفكم الله بما لا يجوز وصفه . وقال ابن عباس : الويل واد في جهنم ؛ وقد تقدم[(1)] . ﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ أي مما تكذبون ؛ عن قتادة ومجاهد ؛ نظيره « سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ » أي بكذبهم . وقيل : مما تصفون الله به من المحال وهو اتخاذه سبحانه الولد .

قوله تعالى : وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي ملكا وخلقا فكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبده وخلقه . ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ يعني الملائكة الذين ذكرتم أنهم بنات الله . ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي لا يأنفون ﴿ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ والتذلل له . ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أي يعيون ؛ قاله قتادة . مأخوذ من الحسير وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب ؛ [يقال] : حسر البعير يحسر حُسورا أعيا وكَلّ ، واستحسر وتحسر مثله ؛ وحسرته أنا حسرا يتعدى ولا يتعدى ؛

(١) راجع جـ ٢ ص ٧ وما بعدها طبعة ثانية .

وأحسرته أيضا فهو حسير. وقال ابن زيد : لا يملون . ابن عباس : لا يستنكفون . وقال أبو زيد: لا يكلّون . وقيل: لا يفشلون؛ ذكره ابن الأعرابى؛ والمعنى واحد . ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أى يصلون ويذكرون الله وينزهونه دائما . ﴿ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ أى لا يضعفون ولا يسأمون، يلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النَّفَس . قال عبد الله بن الحرث سألت كعبا فقلت : أما لهم شغل عن التسبيح؟ أما يشغلهم عنه شيء؟ فقال : من هذا؟ فقلت : من بنى عبد المطلب؛ فضمنى إليه وقال: يا بن أخى هل يشغلك شيء عن النفس؟ ! إن التسبيح لهم بمنزلة النَّفَس . وقد استدل بهذه الآية من قال: إن الملائكة أفضل من بنى آدم . وقد تقدّم(١) والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴾ قال المفضل : مقصود هذا الاستفهام الجحد ، أى لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء . وقيل : « أم » بمعنى « هل » أى هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى . ولا تكون « أم » هنا بمعنى بل؛ لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقدر « أم » مع الاستفهام فتكون « أم » المنقطعة فيصح المعنى ؛ قاله المبرد . وقيل : « أم » عطف على المعنى أى أفخلقنا السماء والأرض لعبا ، أم هذا الذى أضافوه إلينا من عندنا فيكون لهم موضع شبهة ؟ أو هل ما اتخذوه من الآلهة فى الأرض يحيى الموتى فيكون موضع شبهة ؟ . وقيل : « لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » ثم عطف عليه بالمعاتبة، وعلى هذين التأويلين تكون « أم » متصلة . وقرأ الجمهور « يُنْشِرُونَ » بضم الياء وكسر الشين من أنشر الله الميت فنُشِر أى أحياه فحيى . وقرأ الحسن بفتح الياء؛ أى يحيون ولا يموتون .

قوله تعالى : لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ أى لو كان فى السموات والأرضين آلهـة غير الله معبودون لفسدتا . قال الكسائى وسيبويه : « إلّا » بمعنى غير فلما جعلت إلا فى موضع غير أعرب الأسم الذى بعدها بإعراب غيره كما قال :

وكلُّ أخٍ مفارِقُه أخـوهُ * لَعَمْرُ أبيكَ إلّا الفَرْقَدانِ

وحكى سيبويه : لوكان معنا رجل إلا زيد لهلكنا . وقال الفراء : « إلا » هنا فى موضع سوى ، والمعنى : لوكان فيهما آلهة سوى الله لفسد أهلها . وقال غيره : أى لوكان فيهما إلهان لفسد التدبير؛ لأن أحدهما إن أراد شيئا والآخر ضده كان أحدهما عاجزا . وقيل : معنى « لَفَسَدَتَا » أى خربتا وهلك من فيهما بوقوع التنازع بالاختلاف الواقع بين الشركاء . ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ نزّه نفسه وأمر العباد أن ينزهوه عن أن يكون له شريك أو ولد .

قوله تعالى : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ قاصمة للقدرية وغيرهم . قال ابن جريج : المعنى لا يسأله الخلق عن قضائه فى خلقه وهو يسأل الخلق عن عملهم؛ لأنهم عبيد . بيّن بهذا أنّ من يسأل غدا عن أعماله كالمسيح والملائكة لا يصلح للإلهية . وقيل : لا يؤاخذ على أفعاله وهم يؤاخذون . وروى عن على رضى الله عنه أن رجلا قال له يا أمير المؤمنين : أيحب ربنا أن يعصى ؟ قال : أفيعصى ربنا قهرا ؟ قال : أرأيت إن منعنى الهدى ومنحنى الردى أأحسن إلى أم أساء ؟ قال : إن منعك حقك فقد أساء ، وإن منعك فضله فهو فضله يؤتيـه من يشاء . ثم تلا الآية « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » . وعن ابن عباس قال : لمـا بعث الله عز وجل موسى وكلمه ، وأنزل عليه التوراة ، قال : اللهم إنك رب عظيم ، لو شئت أن تطاع لأطعت ، ولو شئت ألا تعصى ما عُصيت ، وأنت تحب أن تطاع وأنت فى ذلك تُعصى فكيف هذا يارب ؟ فأوحى الله إليه : إنى لا أسأل عما أفعل وهم يسألون .

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ أعاد التعجب فى اتخاذ الآلهـة من دون الله مبالغة فى التوبيخ ؛ أى صفتهم كما تقـدم فى الإنشاء والإحياء ، فتكون « أم » بمعنى هل على ما تقدم ، فليأتوا بالبرهان على ذلك . وقيل : الأول احتجاج من حيث المعقول؛ لأنه قال : « هُمْ يُنْشِرُونَ » ويحيون الموتى؛ هيهات ! والثانى احتجاج بالمنقول ، أى هاتوا برهانكم من

هذه الجهة، ففي أي كتاب نزل هذا ؟! في القرآن، أم في الكتب المنزلة على سائر الأنبياء ؟!
﴿ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ ﴾ بإخلاص التوحيد في القرآن ﴿ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ في التوراة والإنجيل، وما أنزل الله من الكتب؛ فانظروا هل في كتاب من هـذه الكتب أن الله أمر باتخاذ آلهـة سواه ؟ فالشرائع لم تختلف فيما يتعلق بالتوحيد، وإنما اختلفت في الأوامر والنواهي . وقال قتادة : الإشارة إلى القرآن؛ المعنى : « هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ » بما يلزمهم من الحلال والحرام « وَذِكْرُ مَن قَبْلِي » من الأمم ممن نجا بالإيمان وهلك بالشرك . وقيل : « ذِكْرُ مَن مَّعِيَ » بمالهم من الثواب على الإيمان والعقاب على الكفر « وَذِكْرُ مَن قَبْلِي » من الأمم السالفة فيما يفعل بهم في الدنيا، وما يفعل بهم في الآخرة . وقيل : معنى الكلام الوعيد والتهديد، أي افعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء . وحكى أبو حاتم : أن يحيى بن يعمر وطلحة بن مُصَرِّف قرأا « هـذا ذِكْرٌ مِنْ مَعِي وذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي » بالتنوين وكسر الميم، وزعم أنه لا وجه لهذا . وقال أبو إسحق الزجاج في هذه القراءة : المعنى؛ هذا ذكرٌ مما أنزل إليَّ ومما هو معي وذكرٌ من قبلي . وقيـل : ذكرٌ كائن من قبلي، أي جئت بما جاءت به الأنبياء من قبلي .
﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ﴾ وقرأ ابن مُحيصن والحسن « الحقُّ » بالرفع بمعنى هو الحقُّ وهذا هو الحقُّ . وعلى هـذا يوقف على « لا يعلمون » ولا يوقف عليه على قراءة النصب .
﴿ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ أي عن الحق وهو القرآن، فلا يتأملون حجة التوحيد .

قوله تعـالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْـهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَىٰ[1] إِلَيْهِ ﴾ . وقرأ حفص وحمزة والكسائي « نوحي إليه » بالنون؛ لقوله : « أرسلنا » . ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ أي قلنا للجميع لا إله إلا الله؛ فأدلة العقل شـاهدة أنه لا شريك له، والنقل عن جميـع الأنبياء موجود، والدليل إما معقول وإما منقول . وقال قتادة : لم يرسل نبي إلا بالتوحيد، والشرائع مختلفة في التوراة والإنجيل والقرآن، وكل ذلك على الإخلاص والتوحيد .

(١) « يُوحَى » بالياء قراءة « نافع » .

قوله تعالى : وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ نزلت فى خزاعة حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، وكانوا يعبدونهم طمعا فى شفاعتهم لهم . وروى معمر عن قتادة قال قالت اليهود — قال معمر فى روايته — أو طوائف من الناس : خاتن إلى الجن والملائكة من الجن ، فقال الله عز وجل : « سبحانه » تنزيها له . ﴿ بَلْ عِبَادٌ ﴾ أى بل هم عباد ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴾ أى ليس كما زعم هؤلاء الكفار . ويجوز النصب عند الزجاج على معنى بل اتخذ عبادا مكرمين . وأجازه الفراء على أن يرده على ولد ، أى بل لم نتخذهم ولدا ، بل اتخذناهم عبادا مكرمين . والولد هاهنا للجمع ، وقد يكون الواحد والجمع ولدا . ويجوز أن يكون لفظ الولد للجنس ، كما يقال لفلان مال . ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾ أى لا يقولون حتى يقول ، ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم . ﴿ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ أى بطاعته وأوامره . ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى يعلم ما عملوا وماهم عاملون ؛ قاله ابن عباس . وعنه أيضا : « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » الآخرة « وَمَا خَلْفَهُمْ » الدنيا ؛ ذكر الأول الثعلبى ، والثانى القشيرى . ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ قال ابن عباس : هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله . وقال مجاهد : هم كل من رضى الله عنه ، والملائكة يشفعون غدا فى الآخرة كما فى صحيح مسلم وغيره ، وفى الدنيا أيضا ؛ فإنهم يستغفرون للؤمنين ولمن فى الأرض ، كما نص عليه التنزيل على ما يأتى . ﴿ وَهُم ﴾ يعنى الملائكة ﴿ مِّنْ خَشْيَتِهِۦ ﴾ يعنى من خوفه ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ أى خائفون لا يأمنون مكره .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ ﴾ قال قتادة والضحاك وغيرهما : عنى بهذه الآية إبليس حيث ادعى الشركة ، ودعا إلى عبادة نفسه وكان من الملائكة ، ولم يقل أحد من الملائكة إني إله غيره . وقيل : الإشارة إلى جميع الملائكة ، أي فذلك القائل ﴿ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ . وهذا دليل على أنهم و إن أكرموا بالعصمة فهم متعبَّدون ، وليسوا مضطرين إلى العبادة كما ظنه بعض الجهال . وقد استدل ابن عباس بهذه الآية على أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل أهل السماء . وقد تقدم في «البقرة»(١) . ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ أي كما جزينا هذا بالنار فكذلك نجزي الظالمين الواضعين الألوهية والعبادة في غير موضعهما .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قراءة العامة « أَوَلَمْ » بالواو . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وشبل بن عباد « أَلَمْ يَرَ » بغير واو ، وكذلك هو في مصحف مكة . « أَوَلَمْ يَرَ » بمعنى يعلم . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ قال الأخفش : « كانتا » لأنهما صنفان ، كما تقول العرب : هما لقاحان أسودان ، وكما قال الله عز وجل : « إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا » قال أبو إسحق : « كانتا » لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد بسماء ، ولأن السموات كانت سماء واحدة ، وكذلك الأرضون . وقال : «رتقا»

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٦١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ولم يقل رتقين؛ لأنه مصدر، والمعنى كانتا ذواتى رتق . وقرأ الحسن « رَتَقًا » بفتح التاء. قال عيسى بن عمر : هو صواب وهى لغة . والرتق السد ضد الفتق ، وقد رتقت الفتق أرتقه فارتتق أى التأم، ومنه الرتقاء للمنضمة الفرج . قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة : يعنى أنها كانت شيئا واحدا ملترقتين ففصل الله بينهما بالهواء . وكذلك قال كعب : خلق الله السموات والأرض بعضها على بعض ثم خلق ريحا بوسطها ففتحها بها ، وجعل السموات سبعا والأرضين سبعا . وقول ثان قاله مجاهد والسدى وأبو صالح : كانت السموات مؤتلفة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات ، وكذلك الأرضين كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبعا . وحكاه القتبى فى عيون الأخبار له ، عن إسمعيل بن أبى خالد فى قول الله عز وجل : «أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا» قال : كانت السماء مخلوقة وحدها والأرض مخلوقة وحدها ، ففتق من هذه سبع سموات ، ومن هذه سبع أرضين ؛ خلق الأرض العليا فجعل سكانها الجن والإنس ، وشق فيها الأنهار وأنبت فيها الأثمار ، وجعل فيها البحار وسماها رعاء ، عرضها مسيرة خمسمائة عام ؛ ثم خلق الثانية مثلها فى العرض والغلظ وجعل فيها أقواما ، أفواههم كأفواه الكلاب وأيديهم أيدى الناس ، وآذانهم آذان البقر وشعورهم شعور الغنم ، فإذا كان عند اقتراب الساعة ألقتهم الأرض إلى يأجوج ومأجوج ، واسم تلك الأرض الدكماء ، ثم خلق الأرض الثالثة غلظها مسيرة خمسمائة عام ، ومنها هواء إلى الأرض . الرابعة خلق فيها ظلمة وعقارب لأهل النار مثل البغال السود ، ولها أذناب مثل أذناب الخيل الطوال ، يأكل بعضها بعضا فتسلط على بنى آدم . ثم خلق الله الخامسة [مثلها] (١) فى الغلظ والطول والعرض فيها سلاسل وأغلال وقيود لأهل النار . ثم خلق الله الأرض السادسة واسمها ماد ، فيها حجارة سُود بُهْم ، ومنها خلقت تربة آدم عليه السلام ، تبعث تلك الحجارة يوم القيامة وكل حجر منها كالطود العظيم ، وهى من كبريت تعلق فى أعناق الكفار فتشتعل حتى تحرق وجوههم وأيديهم ، فذلك قوله عز وجل : «وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» ثم خلق الله الأرض السابعة واسمها عربية وفيها جهنم ، فيها بابان اسم

(١) زيادة يقتضيها السياق .

الواحد سجين والآخر الفَلَق، فأما سجين فهو مفتوح وإليه ينتهى كتاب الكفار، وعليه يعرض أصحاب المائدة وقوم فرعون ، وأما الفَلَق فهو مغلق لا يفتح إلى يوم القيامة . وقد مضى فى «البقرة» (1) أنها سبع أرضين بين كل أرضَين مسيرة خمسمائة عام، وسيأتى له فى آخر «الطلاق» (2) زيادة بيان إن شاء الله تعالى . وقول ثالث قاله عكرمة وعطية وابن زيد وابن عباس أيضا فيما ذكر المهدوى : إن السموات كانت رتقا لا تمطر، والأرض كانت رتقا لا تنبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات؛ نظيره قوله عز وجل : « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ . وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ » . واختار هذا القول الطبرى؛ لأن بعده « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » .

قلت : وبه يقع الاعتبار مشاهدة ومعاينة؛ ولذلك أخبر بذلك فى غير ما آية ؛ ليدل على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء . وقيل :

يهونُ عليهم إذا يغضبو * نَ سخطُ العداة وإرغامُها
ورَتْق الفُتوق وفَتْق الرُّتو * ق ونَقْضُ الأمور وإبرامُها

وفى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ ثلاث تأويلات : أحدها ـــ أنه خلق كل شىء من الماء؛ قاله قتادة . الثانى ـــ حفظ حياة كل شىء بالماء . الثالث ـــ وجعلنا من ماء الصلب كل شىء حىّ؛ قاله قطرب . « وجعلنا » بمعنى خلقنا . وروى أبو حاتم البستى فى المسند الصحيح له من حديث أبى هريرة قال : قلت يا رسول الله ! إذا رأيتك طابت نفسى، وقرّت عينى؛ أنبئنى عن كل شىء؛ قال : "كل شىء خلق من الماء" الحديث ؛ قال أبو حاتم قول أبى هريرة : « أنبئنى عن كل شىء » أراد به عن كل شىء خلق من الماء، والدليل على صحة هذا جواب المصطفى إياه حيث قال : "كل شىء خلق من الماء" وإن لم يكن مخلوقا . وهذا احتجاج آخر سوى ما تقدم من كون السموات والأرض رتقا . وقيل : الكل قد يذكر بمعنى البعض كقوله : « وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ »

(1) راجع جـ ١ ص ٢٥٨ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .
(2) فى تفسير قوله تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات ... الخ » آية ١٢

وقوله : « تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ » والصحيح العموم، لقوله عليه السلام : "كل شيء خلق من الماء" والله أعلم . ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى أفلا يصدقون بما يشاهدون ، وأن ذلك لم يكن بنفسه، بل لمكوّن كوّنه ، ومدبر أوجده ، ولا يجوز أن يكون ذلك المكوّن محدثا .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أى جبالا ثوابت . ﴿ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ أى لئلا تميد بهم، ولا تتحرك ليتم القرار عليها ؛ قاله الكوفيون . وقال البصريون : المعنى كراهية أن تميد . والميد التحرك والدوران . يقال : ماد رأسه ؛ أى دار . وقد مضى فى «النحل»[1] مستوفى . ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا ﴾ يعنى فى الرواسى ؛ عن ابن عباس . والفجاج المسالك . والفجّ الطريق الواسع بين الجبلين . وقيل : وجعلنا فى الأرض فجاجا أى مسالك ؛ وهو اختيار الطبرى ؛ لقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أى يهتدون إلى السير فى الأرض . « سُبُلًا » تفسير الفجاج ؛ لأن الفج قد يكون طريقا نافذا مسلوكا وقد لا يكون . وقيل : ليهتدوا بالاعتبار بها إلى دينهم .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾ أى محفوظا من أن يقع ويسقط على الأرض ؛ دليله قوله تعالى : « وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » . وقيل : محفوظا بالنجوم من الشياطين ؛ قاله الفراء . دليله قوله تعالى : « وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ » . وقيل : محفوظا من الهدم والنقض، وعن أن يبلغه أحد بحيلة . وقيل : محفوظا فلا يحتاج إلى عماد . وقال مجاهد : مرفوعا . وقيل : محفوظا من الشرك والمعاصى . ﴿ وَهُمْ ﴾ يعنى الكفار ﴿ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ قال مجاهد يعنى الشمس والقمر . وأضاف الآيات إلى السماء لأنها مجعولة فيها ، وقد أضاف الآيات إلى نفسه فى مواضع ، لأنه الفاعل لها . بين أن المشركين غفلوا عن النظر فى السموات وآياتها ، من ليلها ونهارها ، وشمسها وقمرها، وأفلاكها ورياحها وسحابها، وما فيها من قدرة الله تعالى ، إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أن لها صانعا قادرا واحدا فيستحيل أن يكون له شريك

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ ذكَّرهم نعمة أخرى : جعل لهم الليل ليسكنوا فيه، والنهار ليتصرفوا فيه لمعايشهم . ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أي وجعل الشمس آية النهار، والقمر آية الليل؛ لتعلم الشهور والسنون والحساب، كما تقدم في « سبحان »[1] بيانه . ﴿ كُلٌّ ﴾ يعني من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار ﴿ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أي يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء . قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا » ويقال للفرس الذي يمد يده في الجري سابح . وفيه من النحو أنه لم يقل : يسبحن ولا تسبح؛ فمذهب سيبويه : أنه لما أخبر عنهن بفعل من يعقل وجعلهن في الطاعة بمنزلة من يعقل، أخبر عنهن بالواو والنون . ونحوه قال الفراء . وقد تقدم هذا المعنى في « يوسف »[2] . وقال الكسائي : إنما قال : « يسبحون » لأنه رأس آية ، كما قال الله تعالى : « نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ » ولم يقل منتصرون . وقيل : الجري للفلك فنسب إليها . والأصح أن السيارة تجري في الفلك، وهي سبعة أفلاك دون السموات المطبقة، التي هي مجال الملائكة وأسباب الملكوت ، فالقمر في الفلك الأدنى، ثم عُطَارِد، ثم الزُّهَرة، ثم الشمس، ثم المِرِّيخ، ثم المُشْتَري، ثم زُحَل ، والثامن فلك البروج، والتاسع الفلك الأعظم . والفلك واحد أفلاك النجوم . قال أبو عمرو : ويجوز أن يجمع على فُعْل مثل أَسَد وأُسْد وخَشَب وخُشْب . وأصل الكلمة من الدوران ، ومنه فَلْكة المغزل؛ لاستدارتها . ومنه قيل : فَلَّك ثديُ المرأة تفليكا ، وتَفَلَّك استدار . وفي حديث ابن مسعود : تركت فرسي كأنه يدور في فلك . كأنه لدورانه شبهه بفلك السماء الذي تدور عليه النجوم . قال ابن زيد : الأفلاك مجاري النجوم والشمس والقمر . قال : وهي بين السماء والأرض . وقال قتادة : الفلك استدارة في السماء تدور بالنجوم مع ثبوت السماء . وقال مجاهد : الفلك كهيئة حديد الرحى وهو قطبها . وقال الضحاك : فلكها مجراها وسرعة مسيرها . وقيل : الفلك موج مكفوف ومجرى الشمس والقمر فيه؛ والله أعلم .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٩ ص ١٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ أى دوام البقاء فى الدنيا نزلت حين قالوا : نتربص بمحمد ريب المنون . وذلك أن المشركين كانوا يدفعون نبوّته ويقولون : شاعر نتربص به ريب المنون، ولعله يموت كما مات شاعر بنى فلان؛ فقال الله تعالى: قد مات الأنبياء من قبلك، وتولى الله دينه بالنصر والحياطة، فهكذا نحفظ دينك وشرعك . ﴿ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ أى أفهم؛ مثل قول الشاعر(١) :

رَفَوْنى وقالوا ياخُوَيْلِدُ لا تُرَعْ * فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

أى أهم! فهو آستفهام إنكار . وقال الفرّاء : جاء بالفاء ليدل على الشرط؛ لأنه جواب قولهم سيموت . ويجوز أن يكون جىء بها؛ لأن التقدير فيها : أفهم الخالدون إن متّ! قال الفرّاء: ويجوز حذف الفاء وإضمارها؛ لأن « هم » لا يتبين فيها الإعراب . أى إن مت فهم يموتون أيضا، فلا شماتة فى الإماتة . وقرئ « مِتّ » و « مُتّ » بكسر الميم وضمها لغتان .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ تقدم فى « آل عمران »(٢) ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ « فِتْنَةً » مصدر على غير اللفظ . أى نختبركم بالشدّة والرخاء والحلال والحرام؛ فننظر كيف شكركم وصبركم . ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أى للجزاء بالأعمال .

قوله تعالى : وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾

---

(١) هو أبو خراش الهذلى . ورفاه سكنه من الرعب؛ يقول : سكنونى . آعتبر بمشاهدة الوجوه، وجعلها دليلا على ما فى النفوس .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٩٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ أي ما يتخذونك . والهزء السخرية ؛ وقد تقدم . وهم المستهزئون المتقدمو الذكر في آخر سورة « الحجر »[1] في قوله : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » . كانوا يعيبون من جحد إلهية أصنامهم وهم جاحدون لإلهية الرحمن؛ وهذا غاية الجهل . ﴿ أَهَذَا الَّذِي ﴾ أي يقولون : أهذا الذي ؟ فأضمر القول وهو جواب « إذا » وقوله : « إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا » كلام معترض بين «إذا» وجوابه . ﴿ يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ أي بالسوء والعيب . ومنه قول عنترة :

لا تذكري مُهري وما أطعمتُه * فيكون جلدُك مثلَ جلدِ الأجْرَبِ[2]

أي لا تعيبي مهري . ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ أي بالقرآن . ﴿ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ « هم » الثانية توكيد كفرهم؛ أي هم الكافرون مبالغة في وصفهم بالكفر .

قوله تعالى : خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ أي رُكِّب على العَجَلة فخلق عَجُولا ؛ كما قال الله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ » أي خلق الإنسان ضعيفا . ويقال : خلق الإنسان من الشر أي شريرا إذا بالغت في وصفه به . ويقال : إنما أنت ذهاب ومجيء . أي ذاهب جائي . أي طبع الإنسان العجلة، فيستعجل كثيرا من الأشياء وإن كانت مضرة . ثم قيل : المراد بالإنسان آدم عليه السلام . قال سعيد بن جبير والسدي : لما دخل الروح في عيني

(١) راجع جـ ١٠ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) قاله لامرأة له من بجيلة كانت تلومه في فرس كان يؤثره على خيله ويطعمه ألبان إبله .

آدم عليه السلام نظر فى ثمار الجنة، فلما دخل جوفه اشتهى الطعام، فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة . فذلك قوله : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » . وقيل : خلق آدم يوم الجمعة فى آخر النهار، فلما أحيا الله رأسه استعجل، وطلب تتميم نفخ الروح فيه قبل غروب الشمس؛ قاله الكلبي ومجاهد وغيرهما . وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعانى : العَجَل الطين بلغة حِمْير . وأنشدوا :

* والنخلُ يَنبتُ بين الماءِ والعَجَلِ[1] *

وقيل : المراد بالإنسان الناس كلهم . وقيل المراد : النضر بن الحرث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار فى تفسير ابن عباس؛ أى لا ينبغى لمن خلق من الطين الحقير أن يستهزئ بآيات الله ورسله . وقيل : إنه من المقلوب؛ أى خلق العجل من الإنسان . وهو مذهب أبى عبيدة . النحاس . وهذا القول لا ينبغى أن يجاب به فى كتاب الله؛ لأن القلب إنما يقع فى الشعر اضطرارا كما قال[2] :

* كان الزِّناءُ فَرِيضةَ الرَّجْمِ *

ونظيره هذه الآية : « وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا » وقد مضى فى « سبحان »[3] . ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ هذا يقوى القول الأول، وأن طبع الإنسان العَجَلة، وأنه خلق خلقا لا يتمالك، كما قال عليه السلام، حسب ما تقدم فى « سبحان » . والمراد بالآيات ما دل على صدق محمد عليه السلام من المعجزات، وما جعله له من العاقبة المحمودة . وقيل : ماطلبوه من العذاب، فأرادوا الاستعجال وقالوا : « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » ؟ وما علموا أن لكل شيء أجلا مضروبا . نزلت فى النضر بن الحرث . وقوله : « إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ » . وقال الأخفش سعيد : معنى « خلق الإنسان من عجل » أى قيل له كن فكان؛ فمعنى « فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ » على هذا القول أنه من يقول للشيء كن فيكون، لا يعجزه إظهار ما استعجلوه من الآيات . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ أى الموعود، كما يقال : الله رجاؤنا أى مرجونا . وقيل : معنى « الوعد » هنا الوعيد، أى الذي يعدنا من العذاب . وقيل : القيامة . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يا معشر المؤمنين .

(١) صدر البيت : * والنبع فى الصخرة الصماء منبته *

(٢) البيت للجعدى وصدره : * كانت فريضة ما تقول كما *

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٦ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ العلم هنا بمعنى المعرفة فلا يقتضى مفعولا ثانيا مثـل « لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » . وجواب « لو » محـذوف ، أى لو علموا الوقت الذى ﴿ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ وعرفوه لمـا استعجلوا الوعيد . وقال الزجاج : أى لعلموا صدق الوعد . وقيـل : المعنى لو علموه لمـا أقاموا على الكفر ولآمنوا . وقال الكسائى : هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة، أى لو علموه علم يقـين لعلموا أن الساعة آتية . ودل عليه ﴿ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً ﴾ أى فجأة يعنى القيامة . وقيل: العقوبة. وقيل : النار فلا يتمكنون من حيلة ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ . قال الجوهرى : بهته بهتا أخذه بغتة، قال الله تعالى : « بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ » . وقال الفراء : « فتبهتهم » أى تحيرهم، يقال : بهته يبهته إذا واجهه بشىء يحيره . وقيل : فتفجأهم . ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ أى صرفها عن ظهورهم . ﴿ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ أى لا يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَـدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُـلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ هـذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتعزية له . يقول: إن آستهزأ بك هؤلاء، فقد آستهزئ برسل من قبلك، فاصبر كما صبروا. ثم وعده النصر فقال: ﴿ فَحَاقَ ﴾ أى أحاط ودار ﴿ بِالَّذِينَ ﴾ كفروا و﴿ سَخِرُوا مِنْهُمْ ﴾ وهزءوا بهم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى جزاء آستهزائهم .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْـلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِـم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُـمْ ءَالِهَـةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَـا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ ﴾ أي يحرسكم ويحفظكم . والكلاءة الحراسة والحفظ ؛ كلاه الله كِلاء (بالكسر) أي حفظه وحرسه . يقال : اذهب في كِلاءة الله ؛ واكتلأت منهم أي احترست ، قال الشاعر هو ابن هَرْمة :

إنّ سليمى والله يكلؤها * ضنَّت بشيء ما كان يرزؤها

وقال آخر : * أنختُ بعيري واكتلأتُ بعينه *(١)

وحكى الكسائي والفراء «قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ» بفتح اللام وإسكان الواو . وحكيا « مَنْ يَكْلاكُمْ» على تخفيف الهمزة في الوجهين ، والمعروف تحقيق الهمزة وهي قراءة العامة . فأما «يكلاكُمْ» فخطأ من وجهين فيما ذكره النحاس : أحدهما — أن بدل الهمزة إنما يكون في الشعر . والثاني — أنهما يقولان في الماضي كَلَيْتُهُ ، فينقلب المعنى ؛ لأن كَلَيْته أوجعت كليته ، ومن قال لرجل : كَلَاك الله فقد دعا عليه بأن يصيبه الله بالوجع في كُلْيته .

ثم قيل : مخرج اللفظ مخرج الاستفهام والمراد به النفي . وتقديره : قل لا حافظ لكم ﴿ بِاللَّيْلِ ﴾ إذا نمتم ﴿ وَ ﴾ بـ ﴿ النَّهَارِ ﴾ إذا قمتم وتصرفتم في أموركم . ﴿ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ﴾ أي من عذابه وبأسه ؛ كقوله تعالى : « فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ » أي من عذاب الله . والخطاب لمن اعترف منهم بالصانع ؛ أي إذا أقررتم بأنه الخالق ، فهو القادر على إحلال العذاب الذي تستعجلونه . ﴿ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي عن القرآن . وقيل : عن مواعظ ربهم . وقيل : عن معرفته . ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ لاهون غافلون .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ المعنى : ألهم والميم صلة . ﴿ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ﴾ أي من عذابنا . ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يعني الذين زعم هؤلاء الكفار أنهم ينصرونهم لا يستطيعون ﴿ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فكيف ينصرون عابديهم . ﴿ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ قال ابن عباس : يُمنعون . وعنه : يُجارون ؛ وهو اختيار الطبري . تقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان ؛ أي مجير منه ؛ قال الشاعر :

يُنادي بأعلى صوته متعوِّذًا * ليُصحَبَ منها والرِّماحُ دَوَاني

(١) هو كعب بن زهير ؛ وعجزه : * وآمرت نفسي أي أمري أفعل *

وروى معمر عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : « يُنْصَرُونَ » أى يحفظون . قتادة : أى لا يصحبهم الله بخير، ولا يجعل رحمته صاحبا لهم .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : يريد أهل مكة . أى بسطنا لهم ولآبائهم فى نعيمها و﴿ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ فى النعمة فظنوا أنها لا تزول عنهم، فاغتروا وأعرضوا عن تدبر حجج الله عز وجل . ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أى بالظهور عليها لك يا محمد أرضا بعد أرض ، وفتحها بلدا بعد بلد مما حول مكة ؛ قال معناه الحسن وغيره . وقيل : بالقتل والسبى؛ حكاه[1] الكلبى . والمعنى واحد . وقد مضى فى « الرعد »[2] الكلام فى هذا مستوفى . ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ يعنى كفار مكة بعد أن نقصنا من أطرافهم؛ بل أنت تغلبهم وتظهر عليهم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾ أى أخوفكم وأحذركم بالقرآن . ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ ﴾ أى من أصم الله قلبه، وختم على سمعه، وجعل على بصره غشاوة، عن فهم الآيات وسماع الحق . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى ومحمد بن السَّمَيقع « وَلَا يُسْمَعُ » بياء مضمومة وفتح الميم على مالم يسم فاعله « الصُّمُّ » رفعا أى إن الله لا يُسمعهم . وقرأ ابن عامر والسلمى أيضا ، وأبو حيوة ويحيى بن الحرث «وَلَا تُسْمِعُ» بتاء مضمومة وكسر الميم «الصُّمَّ» نصبا ؛ أى إنك يا محمد « لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ » ؛ فالخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم . ورد هذه القراءة بعض أهل اللغة ، وقال : وكان يجب أن يقول : إذا ما تنذرهم . قال النحاس: وذلك جائز؛ لأنه قد عرف المعنى .

(١) فى نسخة : « حكاه الثعلبى » . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٣٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : طرف . قال قتادة : عقوبة . ابن كيسان : قليل وأدنى شيء؛ مأخوذة من نفح المسك . قال[1] :

وعَمْرةُ من سَرَواتِ النِّساء * تَنفَحُ بالمسـك أردانُها

ابن جريج : نصيب؛ كما يقال : نفح فلان لفلان من عطائه ، إذا أعطاه نصيبا من المال . قال الشاعر[2] :

لمّا أتيتك أرجو فضلَ نائلكم * نفحْتني نَفْحةً طابتْ لها العرَبُ

أى طابت لها النفس . والنفحة فى اللغة الدفعة اليسيرة ؛ فالمعنى ولئن مسهم أقل شيء من العذاب . ﴿ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أى متعدين فيعترفون حين لا ينفعهم الاعتراف.

قوله تعالى : وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ الموازين جمع ميزان . فقيل : إنه يدل بظاهره على أن لكل مكلَّف ميزانا توزن به أعماله ، فتوضع الحسنات فى كفة ، والسيئات فى كفة . وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد ، يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله ؛ كما قال :

مَلِكٌ تقومُ الحادثاتُ لعَدْلِه * فلكلِّ حادثةٍ لها ميزانُ

ويمكن أن يكون ميزانا واحدا عبر عنه بلفظ الجمع . وخرج اللالكائى الحافظ أبو القاسم فى سننه عن أنس يرفعه : " إن ملَكا موكّلا بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتى الميزان فإن رجح نادى الملك بصوت يُسمع الخلائق سَعِد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا وإن خفَّ نادى الملك شَقِى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا " . وخرج عن حذيفة رضى الله عنه قال : " صاحب الميزان يوم القيامة جبريل عليه السلام " . وقيل : للميزان كفتان وخيوط ولسان والشاهين ؛ فالجمع يرجع إليها . وقال مجاهد وقتادة والضحاك : ذكر الميزان مَثَل وليس ثَمّ

(١) هو قيس بن الخطيم الأنصارى . (٢) هو الرماح بن ميادة مدح به الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

ميزان وإنما هو العدل . والذى وردت به الأخبار وعليه السواد الأعظم القول الأول . وقد مضى فى «الأعراف»[1] بيان هذا، وفى «الكهف» أيضا . وقد ذكرناه فى كتاب «التذكرة» مستوفى والحمد لله . و «القسط» العدل أى ليس فيها بخس ولا ظلم كما يكون فى وزن الدنيا . و «القِسْطَ» صفة الموازين ووحد لأنه مصدر؛ يقال : ميزان قسط، وميزانان قسط، وموازين قسط . مثل رجال عدل ورضًا . وقرأت فرقة «القِصْطَ» بالصاد . ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أى لأهل يوم القيامة . وقيل : المعنى فى يوم القيامة . ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أى لا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد فى إساءة مسىء . ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ قرأ نافع وشيبة وأبو جعفر «مِثْقَالُ حَبَّةٍ» بالرفع هنا؛ وفى «لقمان» على معنى إن وقع أو حضر؛ فتكون كان تامة ولا تحتاج إلى خبر . الباقون «مِثْقَالَ» بالنصب على معنى وإن كان العمل أو ذلك الشىء مثقالَ . ومثقال الشىء ميزانه من مثله . ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ مقصورة الألف قراءة الجمهور أى أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها ولها . يجاء بها أى بالحبة ولو قال به أى بالمثقال لجاز . وقيل : مثقال الحبة ليس شيئا غير الحبة فلهذا قال «أَتَيْنَا بِهَا» . وقرأ مجاهد وعكرمة «آتَيْنَا» بالمد على معنى جازينا بها . يقال : آتى يؤاتى مؤاتاة . ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ أى محاسبين على ما قدموه من خير وشر . وقيل : «حاسبين» إذ لا أحد أسرع حسابا منا . والحساب العدّ . روى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها : أن رجلا قعد بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إن لى مملوكين يكذبوننى ويخوننى ويعصوننى وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم ؟ قال : "يُحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافا لا لك ولا عليك وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك وإن كان عقابك فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل" قال : فتنحى الرجل فجعل يبكى ويهتف . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أما تقرأ كتاب الله تعالى «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا»" فقال الرجل : والله يارسول الله ما أجد لى ولهؤلاء شيئا خيرا من مفارقتهم، أشهدك أنهم أحرار كلهم . قال حديث غريب .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٦٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً ﴾ وحكى عن ابن عباس وعكرمة « الْفُرْقَانَ ضِيَاءً » بغير واو على الحال . وزعم الفراء أن حذف الواو والمجيء بها واحد، كما قال الله عز وجل : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا » أى حفظا . ورد عليه هذا القول الزجاج . قال : لأن الواو تجيء لمعنى فلا تزاد . قال : وتفسير «الفرقان» التوراة ؛ لأن فيها الفرق بين الحرام والحلال . قال : « وَضِيَاءً » مثل « فِيهِ هُدًى وَنُورٌ » وقال ابن زيد : « الفرقان » هنا هو النصر على الأعداء ؛ دليله قوله تعالى : « وما أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ » يعنى يوم بدر . قال الثعلبي : وهذا القول أشبه بظاهر الآية ، لدخول الواو فى الضياء ؛ فيكون معنى الآية : ولقد آتينا موسى وهرون النصر والتوراة التى هى الضياء والذكر . ﴿ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ أى غائبين ؛ لأنهم لم يروا الله تعالى ، بل عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم ربا قادرا ، يجازى على الأعمال فهم يخشونه فى سرائرهم ، وخلواتهم التى يغيبون فيها عن الناس . ﴿ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ ﴾ أى من قيامها قبل التوبة . ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ أى خائفون وجلون . ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ يعنى القرآن ﴿ أَفَأَنْتُمْ لَهُ ﴾ يامعشر العرب ﴿ مُنْكِرُونَ ﴾ وهو معجز لا تقدرون على الإتيان بمثله . وأجاز الفراء «وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكًا أَنْزَلْنَاهُ » بمعنى أنزلناه مباركا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ

وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ قال الفراء : أى أعطيناه هداه . ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أى من قبل النبوة ؛ أى وفقناه للنظر والاستدلال ، لما جنّ عليه الليل فرأى النجم والشمس والقمر . وقيل : « مِن قَبْلُ » أى من قبل موسى وهرون . والرشد على هذا النبوة . وعلى الأول أكثر أهل التفسير ؛ كما قال ليحيى : « وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » . وقال القرظي : رشده صلاحه . ﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ أى إنه أهل لإتياء الرشد وصالح للنبوة .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ قيل : المعنى أى اذكر حين قال لأبيه ؛ فيكون الكلام قد تم عند قوله : « وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ » . وقيل : المعنى ؛ « وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ » فيكون الكلام متصلا ولا يوقف على قوله : « عالمين » . « لأبيه » وهو آزر ﴿ وَقَوْمِهِ ﴾ نمرود ومن آتبعه . ﴿ مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِيلُ ﴾ أى الأصنام . والتمثال آسم موضوع للشيء المصنوع مشبها بخلق من خلق الله تعالى . يقال : مثّلت الشيء بالشيء أى شبّهته به . واسم ذلك الممثّل تمثال . ﴿ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ أى مقيمون على عبادتها . ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ أى نعبدها تقليدا لأسلافنا . ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى في خسران بعبادتها ؛ إذ هي جمادات لا تنفع ولا تضر ولا تعلم . ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أى أجاءٍ أنت بحق فيما تقول ؟ ﴿ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ أى لاعب مازح . ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى لست بلاعب ، بل ربكم والقائم بتدبيركم خالق السموات والأرض . ﴿ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾ أى خلقهن وأبدعهن . ﴿ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أى على أنه رب السموات والأرض . والشاهد يبين الحكم ؛ ومنه « شَهِدَ اللَّهُ » بيّن الله ؛ فالمعنى : وأنا أبيّن بالدليل ما أقول .

قوله تعالى : وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ أخبر أنه لم يكتف بالمحاجة باللسان بل كسر أصنامهم فعل واثق بالله تعالى، موطن نفسه على مقاساة المكروه فى الذب عن الدين . والتاء فى « تَاللَّهِ » تختص فى القسم باسم الله وحده، والواو تختص بكل مظهر، والباء بكل مضمر ومظهر . قال الشاعر :[1]

تالله يبقى على الأيام ذو حيد * بمشمخر به الظيان والآس

وقال ابن عباس : أى وحرمة الله لأكيدن أصنامكم، أى لأمكرن بها . والكيد المكر . كاده يكيده كيدا ومكيدة، وكذلك المكايدة؛ وربما سمى الحرب كيدا؛ يقال : غزا فلان فلم يلق كيدا ، وكل شيء تعالجه فأنت تكيده . ﴿ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ أى منطلقين ذاهبين . وكان لهم فى كل سنة عيد يجتمعون فيه، فقالوا لإبراهيم : لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا — روى ذلك عن ابن مسعود على ما يأتى بيانه فى « والصافات »[2] — فقال إبراهيم فى نفسه : « تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ » . قال مجاهد وقتادة : إنما قال ذلك إبراهيم فى سر من قومه، ولم يسمعه إلا رجل واحد وهو الذى أفشاه عليه . والواحد يخبر عنه بخبر الجمع إذا كان ما أخبر به مما يرضى به غيره . ومثله « يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ » . وقيل : إنما قاله بعد خروج القوم، ولم يبق منهم إلا الضعفاء فهم الذين سمعوه . وكان إبراهيم احتال فى التخلف عنهم بقوله : « إِنِّي سَقِيمٌ » أى ضعيف عن الحركة .

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا ﴾ أى فتاتا . والجذ الكسر والقطع؛ جذذت الشيء كسرته وقطعته . والجذاذ والجُذاذ ما كسر منه، والضم أفصح من كسره . قاله الجوهرى . الكسائى : ويقال لحجارة الذهب جُذاذ؛ لأنها تكسر . وقرأ الكسائى والأعمش وابن محيصن « جِذَاذًا » بكسر الجيم؛ أى كسرا وقطعا جمع جَذيذ وهو الهشيم، مثل خَفيف وخِفاف وظَريف وظِراف . قال الشاعر :

جَذَّذ الأصنامَ فى مِحرابها * ذاك فى الله العلىّ المقتدر

(١) هو مالك بن خالد الخناعى الهذلى . وحيد هنا (كعنب) : كل نتوء فى الجبل . والمشمخر : الجبل العالى . والظيان : ياسمين البر . والمعنى : لا يبقى .   (٢) فى تفسير قوله تعالى : « فراغ إلى آلهتهم ... الخ . » الآيات : ٩١ و ٩٢ و ٩٣ .

الباقون بالضم ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . [مثل][1] الحُطام والرُّفات الواحدة جُذَاذة . وهذا هو الكيد الذى أقسم به ليفعلنه بها . وقال : « فجعلهم » ؛ لأن القوم اعتقدوا فى أصنامهم الإلهيــة . وقرأ ابن عباس وأبو نهيك وأبو السمال « جَذَاذًا » بفتح الجيم ، والفتح والكسر لغتــان كالحَصاد والحِصاد . أبو حاتم : الفتــح والكسر والضم بمعنى ؛ حكاه قطــرب . ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ ﴾ أى عظيم الآلهة فى الخلق فإنه لم يكسره . وقال السدى ومجاهــد : ترك الصنم الأكبر وعلّق الفاس الذى كسر به الأصنام فى عنقه ؛ ليحتج به عليهم . ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أى إلى إبراهيم ودينه ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ إذا قامت الحجة عليهم . وقيل : « لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ » أى إلى الصنم الأكبر « يَرْجِعُونَ » فى تكسيرها .

قوله تعــالى : قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ المعنى لمــا رجعوا من عيدهم ورأوا ما أحدث بآلهتهم ، قالوا على جهة البحث والإنكار : « مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ » . وقيل : « من » ليس آستفهاما ، بل هو ابتداء وخبره « لمن الظالمين » . أى فاعل هذا ظالم . والأول أصح لقوله : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ وهذا هو جواب « مَنْ فَعَلَ هذا » . والضمير فى « قالوا » للقوم الضعفاء الذين سمعوا إبراهيم ، أو الواحد على ما تقدّم . ومعنى « يذكرهم » يعيبهم و يسبهم فلعله الذى صنع هــذا . واختلف النــاس فى وجه رفع إبراهيم ؛ فقــال الزجاج : يرتفع على معنى يقال له هو إبراهيم ؛ فيكون [خبر مبتدإ][2] محذوف ، والجملة محكية . قال : و يجوز أن يكون رفعا على النــداء وضمه بناء ، وقام له مقام ما لم يسم فاعله . وقيل : رفعه على أنه مفعول ما لم يسم فاعله ؛ على أن يجعل إبراهيم غير دال على الشخص ، بل يجعل النطق به دالا على بناء هذه اللفظة . أى يقال له هذا القول وهذا اللفظ ، كما تقول

(١) فى الأصل : «أى» وهو تحريف . (٢) فى الأصل : «فيكون مبتدأ وخبره محذوف» وهو تحريف .

زيد وزن فَعْل، أو زيد ثلاثة أحرف ، فلم تدل بوجه على الشخص ، بل دللت بنطقك على نفس اللفظة . وعلى هـذه الطريقة تقول : قلت إبراهيم ، ويكون مفعولا صحيحا نزلته منزلة قول وكلام؛ فلا يتعذر بعد ذلك أن يبني الفعل فيه للفعول . هذا اختيار ابن عطية في رفعه . وقال الأستاذ أبو الحجاج الأشبيلي الأعلم : هو رفع على الإهمـال . قال ابن عطية : لمـا رأى وجوه الرفع كأنها لا توضح المعنى الذي قصدوه ، ذهب إلى رفعه بغير شيء، كما قد يرفع التجرد والعرو عن العوامل الابتـداء . والفتى الشاب والفتاة الشابة . وقال ابن عباس : ما أرسل الله نبيا إلا شابا . ثم قرأ « سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ » .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ ﴾ فيه مسئلة واحدة ، وهي :

أنه لمـا بلغ الخبر نمرود وأشراف قومه ، كرهوا أن يأخذوه بغـير بينة ، فقالوا : ائتوا به ظاهرا بمرأى من الناس حتى يروه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ عليه بما قال ، ليكون ذلك حجة عليه . وقيل : « لعلهم يشهدون » عقابه فلا يقـدم أحد على مثل ما أقدم عليه . أو لعل قوما « يشهدون » بأنهم رأوه يكسر الأصنام ، أو « لعلهـم يشهدون » طعنه على آلهتهم ؛ ليعلموا أنه يستحق العقاب .

قلت : وفي هذا دليل على أنه كان لا يؤاخذ أحد بدعوى أحد فيما تقدّم؛ لقوله تعالى : « فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ » وهكذا الأمر في شرعنا ولا خلاف فيه .

قوله تعـالى : قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَـا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ــ لمـا لم يكن السماع عاما ولا ثبتت الشهادة ، استفهموه هل فعـل أم لا ؟ وفي الكلام حذف فجاء إبراهيم حين أتى به فقالوا : أأنت فعلت هذا بالآلهة ؟ فقال لهم إبراهيم على جهة الاحتجاج عليهم : ﴿ بَلْ فَعَـلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ أي إنه غار وغضب من أن يعبد هو

ويعبد الصغار معه ففعل هــذا بها لذلك ، إن كانوا ينطقون فاسألوهم . فعلق فعــل الكبير بنطق الآخرين ، تنبيها لهم على فساد اعتقادهم . كأنه قال : بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء . وفي الكلام تقديم على هذا التأويل في قوله : ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ . وقيل : أراد بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون . بين أن من لا يتكلم ولا يعلم لا يستحق أن يعبد . وكان قــوله من المعاريض ، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب . أي سلوهم إن نطقــوا فإنهم يصدقون ، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل . وفي ضمن هذا الكلام اعتراف بأنه هو الفاعل وهــذا هو الصحيح لأنه عدده على نفسه ، فدل أنه خرج مخرج التعريض . وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله ، كما قال إبراهيم لأبيه : « يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ » ــ الآية ــ فقال إبراهيم : « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَــذَا » ليقولوا إنهم لا ينطقــون ولا ينفعــون ولا يضرون ، فيقــول لهم فلم تعبدونهم ؟ فتقوم عليهم الحجــة منهم ، ولهذا يجوز عند الأمة فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من ذات نفسه ، فإنه أقرب في الحجة وأقطع للشبهة ، كما قال لقومه : « هَذَا رَبِّي » وهذه أختي و « إِنِّي سَقِيمٌ » و « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَــذَا » وقرأ ابن السميقع « بل فَعَلَّهُ » بتشديد اللام بمعنى فلعل الفاعل كبيرهم . وقال الكسائي : الوقف عند قوله « بل فعله » أي فعــله من فعــله ، ثم يبتدئ « كبيرهم هذا » . وقيل : أي لم ينكرون أن يكون فعله كبيرهم ؟ فهذا إلزام بلفظ الخبر . أي من اعتقد عبادتها يلزمه أن يثبت لهــا فعلا ، والمعنى : بل فعله كبيرهم فيما يلزمكم .

الثانيــــة ــ روى البخاري ، ومسلم والترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لم يكذب إبراهيم النبي في شيء قط إلا في ثلاث قوله « إني سقيم » وقوله لسارة أختي وقوله « بل فعله كبيرهم » " لفظ الترمذي . وقال : حديث حسن صحيح . ووقع في الإسراء في صحيح مسلم ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنــه في قصــة إبراهيم قال : وذكر قوله في الكوكب « هذا ربي » . فعلى هذا تكون الكذبات أربعا إلا أن الرسول عليه السلام قد نفى تلك بقوله : " لم يكذب إبراهيم النبي قط إلا في ثلاث كذبات ثنتين في ذات الله قــوله

« إنى سقيم » وقوله « بل فعله كبيرهم » وواحدة فى شأن سارة " الحديث لفظ مسلم .
وإنما لم يعد عليه قوله فى الكوكب : « هذا ربى » كذبة وهى داخلة فى الكذب؛ لأنه — والله أعلم — كان حين قال ذلك فى حال الطفولة ، وليست حالة تكليف . أو قال لقومه مستفهما لهم على جهة التوبيخ والإنكار، وحذفت همزة الاستفهام. أو على طريق الاحتجاج على قومه: تنبيها على أن ما يتغير لا يصلح للربوبية. وقد تقدمت هذه الوجوه كلها فى «الأنعام»[1] مبينة والحمد لله .

الثالثة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : فى هذا الحديث نكتة عظمى تقصم الظهر؛ وهى أنه عليه السلام قال : " لم يكذب إبراهيم إلا فى ثلاث كذبات ثنتين ماحَلَ بهما عن دين الله وهما قوله « إنى سقيم » وقوله « بل فعله كبيرهم »" ولم يعد [قوله][2] هذه أختى فى ذات الله تعالى وإن كان دفع بها مكروها ، ولكنه لما كان لإبراهيم عليه السلام فيها حظ من صيانة فراشه وحماية أهله ، لم يجعلها فى ذات الله؛ وذلك لأنه لا يجعل فى جنب الله وذاته إلا العمل الخالص من شوائب الدنيا ، والمعاريض التى ترجع إلى النفس إذا خلصت للدين كانت لله سبحانه ، كما قال : « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » . وهذا لو صدر منا لكان لله ، لكن منزلة إبراهيم اقتضت هذا . والله أعلم .

الرابعة — قال علماؤنا : الكذب هو الإخبار عن الشىء بخلاف ما هو عليه . والأظهر أن قول إبراهيم فيما أخبر عنه عليه السلام كان من المعاريض ، وإن كانت معاريض وحسنات وحججا فى الخلق ودلالات ، لكنها أثرت فى الرتبة ، وخفضت عن محمد المنزلة ، واستحيا منها قائلها ، على ما ورد فى حديث الشفاعة ؛ فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم إجلالا لله ؛ فإن الذى كان يليق بمرتبته فى النبوة والخُلَّة ، أن يصدع بالحق ويصرح بالأمر كيفما كان ، ولكنه رخص له فقبل الرخصة فكان ما كان من القصة ؛ ولهذا جاء فى حديث الشفاعة " إنما اتخذت خليلا من وراءَ وراءَ " بنصب وراء فيهما على البناء كخمسة عشر ، وكما قالوا

(١) راجع ج ٧ ص ٢٥ ما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) الزيادة من « أحكام القرآن » لابن العربى .

جارِي بَيْتَ بَيْتَ . ووقع فى بعض نسخ مسلم " من وراءُ من وراءُ " بإعادة من ، وحينئذ لا يجوز البناء على الفتح ، وإنما يبنى كل واحد منهما على الضم ؛ لأنه قطع عن الإضافة ونوى المضاف كقبل وبعد ، وإن لم ينو المضاف أعرب ونون غير أن وراء لا ينصرف ؛ لأن ألفه للتأنيث ؛ لأنهم قالوا فى تصغيرها وريئة؛ قال الجوهرى : وهى شاذة . فعلى هذا يصح الفتح فيهما مع وجود « مِن » فيهما . والمعنى إنى كنت خليلا متأخرا عن غيرى . ويستفاد من هذا أن الخُلّة لم تصح بكمالها إلا لمن صح له فى ذلك اليوم المقام المحمود كما تقدم. وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته ، المتفطن لصحة حجة خصمه . ﴿ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى بعبادة من لا ينطق بلفظة ، ولا يملك لنفسه لحظة ، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس ، من لا يرد عن رأسه الفأس .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ﴾ أى عادوا إلى جهلهم وعبادتهم فقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ ف﴿ قَالَ ﴾ قاطعا لما به يهذون ، ومفحما لهم فيما يتقولون ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَكُمْ ﴾ أى النتن لكم ﴿ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . وقيل : « نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ » أى طأطئوا رءوسهم خجلا من إبراهيم ، وفيه نظر ؛ لأنه لم يقل نكسوا رءوسهم ، بفتح الكاف بل قال « نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ » أى ردوا على ما كانوا عليه فى أول الأمر ، وكذا قال ابن عباس ، قال : أدركهم الشقاء فعادوا إلى كفرهم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ ﴾ لما انقطعوا بالحجة أخذتهم عزة بإثم وانصرفوا إلى طريق الغَشْم والغلبة وقالوا حرّقوه . روى أن قائل هذه المقالة هو رجل من الأكراد من أعراب فارس ؛ أي من باديتها ؛ قاله ابن عمر ومجاهد وابن جريج . ويقال : اسمه هيزر (١) فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة . وقيل : بل قاله ملكهم نمرود . ﴿ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾ بتحريق إبراهيم لأنه يسبها ويعيبها . وجاء في الخبر : أن نمرود بنى صرحا طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا . قال ابن إسحق : وجمعوا الحطب شهرا ثم أوقدوها ، واشتعلت واشتدت ، حتى أن كان الطائر ليمر بجنباتها فيحترق من شدة وهجها . ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مغلولا . ويقال : إن إبليس صنع لهم المنجنيق يومئذ . فضجت السموات والأرض ومن فيهن من الملائكة وجميع الخلق ، إلا الثقلين ضجة واحدة : ربنا ! إبراهيم ليس في الأرض أحد يعبدك غيره يُحرَّق فيك فأذنْ لنا في نُصرته . فقال الله تعالى : « إن استغاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له في ذلك وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه » فلما أرادوا إلقاءه في النار ، أتاه خُزّان الماء — وهو في الهواء — فقالوا : يا إبراهيم إن أردت أخمدنا النار بالماء . فقال : لا حاجة لي إليكم . وأتاه ملك الريح فقال : لو شئت طيرت النار . فقال : لا . ثم رفع رأسه إلى السماء فقال : « اللهم أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الأرض ليس أحد يعبدك غيري حسبي الله ونعم الوكيل » . وروى أبيّ بن كعب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم " إن إبراهيم حين قيدوه ليلقوه في النار قال لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك " قال : ثم رموا به في المنجنيق من مضرب شاسع ، فاستقبله جبريل ؛ فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : « أما إليك فلا » . فقال جبريل : فاسأل ربك . فقال : « حسبي من سؤالي علمه بحالي » . فقال

(١) وقيل : اسمه « هيزن » كما في تاريخ الطبري وتفسيره . وقيل : « هيون » .

الله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ قال بعض العلماء : جعل الله فيها بردا يرفع حرها ، وحرا يرفع بردها ، فصارت سلاما عليه . قال أبو العالية : ولو لم يقل « بَرْدًا وَسَلَامًا » لكان بردها أشد عليه من حرها ، ولو لم يقل « على إبراهيم » لكان بردها باقيا على الأبد . وذكر بعض العلماء : أن الله تعالى أنزل زربية[1] من الجنة فبسطها في الجحيم ، وأنزل الله ملائكة : جبريل وميكائيل وملك البرد وملك السلامة . وقال علي وابن عباس : لو لم يتبع بردها سلاما لمات إبراهيم من بردها ، ولم تبق يومئذ نار إلا طفئت ظنت أنها تعنى . قال السدي : وأمر الله كل عود من شجرة أن يرجع إلى شجره ويطرح ثمرته . وقال كعب وقتادة : لم تحرق النار من إبراهيم إلا وثاقه . فأقام في النار سبعة أيام لم يقدر أحد أن يقرب من النار ، ثم جاءوا فإذا هو قائم يصلي . وقال المنهال بن عمرو قال إبراهيم : « ما كنت أياما قط أنعم مني في الأيام التي كنت فيها في النار » . وقال كعب وقتادة والزهري : ولم تبق يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار إلا الوزغ فإنها كانت تنفخ عليه ؛ فلذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها وسماها فويسقة . وقال شعيب الجبائي : ألقي إبراهيم في النار وهو ابن ست عشرة سنة . وقال ابن جريج : ألقي إبراهيم في النار وهو ابن ست وعشرين سنة . ذكر الأول الثعلبي ، والثاني الماوردي ؛ فالله أعلم . وقال الكلبي : بردت نيران الأرض جميعا فما أنضجت كراعا ، فرآه نمرود من الصرح وهو جالس على السرير يؤنسه ملك الظل . فقال : نعم الربّ ربك ! لأقربن له أربعة آلاف بقرة وكفّ عنه .

قوله تعالى : وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾

---

(١) الزربية : الطنفسة ، وقيل : البساط ذو الخمل ، وزاياها مثلثة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا ﴾ أى أراد نمرود وأصحابه أن يمكروا به ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ فى أعمالهم، ورددنا مكرهم عليهم بتسليط أضعف خلقنا. قال ابن عباس[1] : سلط الله عليهم أضعف خلقه البعوض ، فما برح نمرود حتى رأى عظام أصحابه وخيله تلوح، أكلت لحومهم وشربت دماءهم، ووقعت واحدة فى منخره فلم تزل تأكل إلى أن وصلت دماغه، وكان أكرم الناس عليه الذى يضرب رأسه بمرزبة من حديد. فأقام بهذا نحوا من أربعمائة سنة.

قوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ يريد نجينا إبراهيم ولوطا إلى أرض الشام وكانا بالعراق، وكان [إبراهيم][2] عليه السلام عمه؛ قاله ابن عباس . وقيل : لها مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها؛ ولأنها معادن الأنبياء . والبركة ثبوت الخير، ومنه برك البعير إذا لزم مكانه فلم يبرح . وقال ابن عباس : الأرض المباركة مكة . وقيل : بيت المقدس؛ لأن منها بعث الله أكثر الأنبياء، وهى أيضا كثيرة الخصب والنمو، عذبة الماء، ومنها يتفرق فى الأرض . قال أبو العالية : ليس ماء عذب إلا يهبط من السماء إلى الصخرة التى ببيت المقدس، ثم يتفرق فى الأرض . ونحوه عن كعب الأحبار . وقيل : الأرض المباركة مصر .

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ أى زيادة؛ لأنه دعا فى إسحق وزيد فى يعقوب من غير دعاء فكان ذلك نافلة؛ أى زيادة على ما سأل؛ إذ قال : « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » . ويقال لولد الولد نافلة؛ لأنه زيادة على الولد . ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ أى وكلا من إبراهيم وإسحق ويعقوب جعلناه صالحا عاملا بطاعة الله . وجعلهم صالحين إنما يتحقق بخلق الصلاح والطاعة لهم، وبخلق القدرة على الطاعة، ثم ما يكتسبه العبد فهو مخلوق لله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أى رؤساء يقتدى بهم فى الخيرات وأعمال الطاعات . ومعنى « بِأَمْرِنَا » أى بما أنزلنا عليهم من الوحى والأمر والنهى؛ فكأنه قال يهدون بكتابنا . وقيل : المعنى يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إياهم بإرشاد الخلق، ودعائهم إلى التوحيد . ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾ أى أن يفعلوا الطاعات . ﴿ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ أى مطيعين .

---

(١) سبق أن نبهنا على أن ابن عباس يكذب عليه بعض الرواة . (٢) فى الأصل : « لوط » وهو تحريف .

قوله تعالى : وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى . ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ «لوطا» منصوب بفعل مضمر دل عليه الثانى ؛ أى وآتينا لوطا آتيناه . وقيل . أى واذكر لوطا . والحكم النبوّة ، والعلم المعرفة بأمر الدين وما يقع به الحكم بين الخصوم . وقيل : «عِلْمًا» فهما ، والمعنى واحد . ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ﴾ يريد سَدُوم . ابن عباس : كانت سبع قرى ، قلب جبريل عليه السلام ستة وأبقى واحدة للوط وعياله ، وهى زُغَر التى فيها الثمر من كُورة فلسطين إلى حد السراة ؛ ولها قرى كثيرة إلى حد بحر الحجاز . وفى الخبائث التى كانوا يعملونها قولان : أحدهما ـ اللواط على ما تقدم . والثانى ـ الضراط ؛ أى كانوا يتضارطون فى ناديهم ومجالسهم . وقيل : الضراط وحذف الحصى وسيأتى . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ أى خارجين عن طاعة الله ، والفسوق الخروج وقد تقدم . ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ﴾ فى النبوّة . وقيل : فى الإسلام . وقيل : الجنة . وقيل : عنى بالرحمة إنجاءه من قومه ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ ﴾ أى واذكر نوحا إذ نادى ؛ أى دعا . « مِنْ قَبْلُ » أى من قبل إبراهيم ولوط على قومه ، وهو قوله : «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» وقال لما كذبوه : «أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ» . ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ أى من الغرق . والكرب الغم الشديد « وَأَهْلَهُ » أى المؤمنين منهم . ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ قال أبو عبيدة : « من » بمعنى على . وقيل : المعنى فانتقمنا له « مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » . ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى الصغير منهم والكبير .

قوله تعالى : وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾

فيه ست وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ أى وآذكرهما إذ يحكمان ، ولم يرد بقوله « إذ يحكمان » الاجتماع فى الحكم وإن جمعهما فى القول ، فإن حكمين على حكم واحد لا يجوز . وإنما حكم كل واحد منهما على انفراده ، وكان سليمان الفاهم لها بتفهيم الله تعالى إياه . ﴿ فِى ٱلْحَرْثِ ﴾ اختلف فيه على قولين : فقيل : كان زرعا ؛ قاله قتادة . وقيل : كرما نبتت عناقيده ؛ قاله ابن مسعود وشريح . و « الحرث » يقال فيهما ، وهو فى الزرع أبعد من الاستعارة .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾ أى رعت فيه ليلا ؛ والنفش الرعى بالليل . يقال : نفشت بالليل ، وهملت بالنهار، إذا رعت بلا راع . وأنفشها صاحبها . وإبل نُفَّاش . وفى حديث عبد الله بن عمرو : الحبة فى الجنة مثل كرش البعير يبيت نافشا ؛ أى راعيا؛ حكاه الهروى . وقال ابن سيده : لا يقال الهمل فى الغنم ، وإنما هو فى الإبل .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ دليل على أن أقل الجمع آثنان . وقيل : المراد الحاكمان والمحكوم عليه ؛ فلذلك قال « لحكمهم » .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ أى فهمناه القضية والحكومة ، فكنى عنها إذ سبق ما يدل عليها . وفضل حكم سليمان حكم أبيه فى أنه أحرز أن يبقى كل واحد منهما على متاعه ، وتبقى نفسه طيبة بذلك ؛ وذلك أن داود عليه السلام رأى أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث . وقالت فرقة : بل دفع الغنم إلى صاحب الحرث ، والحرث إلى صاحب الغنم . قال ابن عطية : فيشبه على القول الواحد أنه رأى الغنم تقاوم الغلة التى أفسدت . وعلى القول

للثانى رآها تقاوم الحرث والغلة؛ فلما خرج الخصمان على سليمان وكان يجلس على الباب الذى يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخر فقال: بم قضى بينكما نبى الله داود ؟ فقالا : قضى بالغنم لصاحب الحرث . فقال لعل الحكم غير هذا انصرفا معى . فأتى أباه فقال : يا نبى الله إنك حكمت بكذا وكذا و إنى رأيت ما هو أرفق بالجميع . قال : وما هو ؟ قال : ينبغى أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بألبانها وسمونها وأصوافها، وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه ، فإذا عاد الزرع إلى حاله التى أصابته الغنم فى السنة المقبلة ، رد كل واحد منهما ماله إلى صاحبه . فقال داود : وفقت يا بنى لا يقطع الله فهمك . وقضى بما قضى به سليمان ؛ قال معناه ابن مسعود ومجاهد وغيرهما . قال الكلبى : قوم داود الغنم والكرم الذى أفسدته الغنم فكانت القيمتان سواء، فدفع الغنم إلى صاحب الكرم . وهكذا قال النحاس؛ قال : إنما قضى بالغنم لصاحب الحرث ؛ لأن ثمنها كان قريبا منه . وأما فى حكم سليمان فقد قيل : كانت قيمة ما نال من الغنم وقيمة ما أفسدت الغنم سواء أيضا .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ تأول قوم أن داود عليه السلام لم يخطئ فى هذه النازلة ، بل فيها أوتى الحكم والعلم . وحملوا قوله : « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » على أنه فضيلة له على داود وفضيلته راجعة إلى داود، والوالد تسره زيادة ولده عليه . وقالت فرقة : بل لأنه لم يصب العين المطلوبة فى هذه النازلة ، و إنما مدحه الله بأن له حكما وعلما يرجع إليه فى غير هذه النازلة . وأما فى هذه فأصاب سليمان وأخطأ داود عليهما الصلاة والسلام ، ولا يمتنع وجود الغلط والخطأ من الأنبياء كوجوده من غيرهم ، لكن لا يقرون عليه ، و إن أقر عليه غيرهم . ولما هدم الوليد كنيسة دمشق كتب إليه ملك الروم : إنك هدمت الكنيسة التى رأى أبوك تركها، فإن كنت مصيبا فقد أخطأ أبوك، و إن كان أبوك مصيبا فقد أخطأت أنت ؛ فأجابه الوليد « وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا » . وقال قوم : كان داود وسليمان — عليهما السلام — نبيين يقضيان بما يوحى إليهما ، فحكم داود بوحى ، .

وحكم سليمان بوحي نسخ الله به حكم داود، وعلى هذا « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » أي بطريق الوحي الناسخ لما أوحى إلى داود، وأمر سليمان أن يبلغ ذلك داود، ولهذا قال : « وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا » . هذا قول جماعة من العلماء ومنهم ابن فورك . وقال الجمهور : إن حكمهما كان باجتهاد وهي :

السادسة — واختلف العلماء في جواز الاجتهاد على الأنبياء فمنعه قوم ، وجوزه المحققون ، لأنه ليس فيه استحالة عقلية ؛ لأنه دليل شرعي فلا إحالة أن يستدل به الأنبياء ، كما لو قال له الله سبحانه وتعالى : إذا غلب على ظنك كذا فاقطع بأن ما غلب على ظنك هو حكمي فبلغه الأمة ؛ فهذا غير مستحيل في العقل . فإن قيل : إنما يكون دليلا إذا عدم النص وهم لا يعدمونه . قلنا : إذا لم ينزل الملك فقد عدم النص عندهم ، وصاروا في البحث كغيرهم من المجتهدين عن معاني النصوص التي عندهم . والفرق بينهم وبين غيرهم من المجتهدين أنهم معصومون عن الخطأ ، وعن الغلط ، وعن التقصير في اجتهادهم ، وغيرهم ليس كذلك . كما ذهب الجمهور في أن جميع الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون عن الخطأ والغلط في اجتهادهم . وذهب أبو علي ابن أبي هريرة من أصحاب الشافعي إلى أن نبينا صلى الله عليه وسلم مخصوص منهم في جواز الخطأ عليهم ، وفرق بينه وبين غيره من الأنبياء أنه لم يكن بعده من يستدرك غلطه ، ولذلك عصمه الله تعالى منه ، وقد بُعث بعد غيره من الأنبياء من يستدرك غلطه . وقد قيل : إنه على العموم في جميع الأنبياء ، وأن نبينا وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم في تجويز الخطأ على سواء إلا أنهم لا يقرون على إمضائه ، فلم يعتبر فيه استدراك من بعدهم من الأنبياء . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سألته امرأة عن العدّة فقال لها : "اعتدّي حيث شئت" ثم قال لها : "امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله" . وقال له رجل : أرأيت إن قُتلت صبرا محتسبا أيحجزني عن الجنة شيء ؟ فقال : "لا" ثم دعاه فقال : "إلا الدَّين كذا أخبرني جبريل عليه السلام" .

السابعة — قال الحسن : لولا هذه الآية لرأيت القضاة هلكوا، ولكنه تعالى أثنى على سليمان بصوابه ، وعذر داود باجتهاده . وقد اختلف الناس في المجتهدين في الفروع إذا

آختلفوا ؛ فقالت فرقة : الحق فى طرف واحد عند الله ، وقد نصب على ذلك أدلة ، وحمل المجتهدين على البحث عنها ، والنظر فيهـا ، فمن صادف العين المطلوبة فى المسئلة فهو المصيب على الإطلاق ، وله أجران أجر فى الآجتهاد وأجر فى الإصابة ، ومن لم يصادفها فهـو مصيب فى آجتهاده مخطئ فى أنه لم يصب العين فله أجر وهو غير معذور . وهـذا سليمان قد صادف العين المطلوبة ، وهى التى فهم . ورأت فرقة أن العالم المخطئ لا إثم عليه فى خطئه وإن كان غير معذور . وقالت فرقة : الحق فى طرف واحد ولم ينصب الله تعالى عليه دلائل [بل][1] وكل الأمر إلى نظر المجتهدين فمن أصابه أصاب ومن أخطأ فهو معذور مأجور ، ولم يتعبد بإصابته العين بل تعبـدنا بالآجتهاد فقط . وقال جمهور أهل السنة وهو المحفوظ عن مالك وأصحابه رضى الله عنهم : إن الحق فى مسائل الفروع فى الطرفين ، وكل مجتهـد مصيب ، والمطلوب إنمـا هو الأفضل فى ظنه ، وكل مجتهد قد أداه نظره إلى الأفضل فى ظنه ؛ والدليل على هذه المقالة أن الصحابة فمن بعـدهم قرر بعضهم خلاف بعض ، ولم ير أحد منهم أن يقع الآحتمال على قوله دون قول مخالفه . ومنه ردّ مالك رحمـه الله للمنصور أبى جعفر عن حمل الناس على « الموطأ » ؛ فإذا قال عالم فى أمر حلال فذلك هو الحق فيما يختص بذلك العالم عند الله تعالى وبكل من أخذ بقوله ، وكذا فى العكس . قالوا : وإن كان سليمان عليـه السلام فهم القضية المثلى والتى هى أرجح فالأولى ليست بخطإ ، وعلى هذا يحملون قوله عليه السلام : "إذا آجتهد العالم فأخطأ" أى فأخطأ الأفضل .

الثامنـــة — روى مسلم وغيره عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال : " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر " هكذا لفظ الحديث فى كتاب مسلم " إذا حـكم فاجتهد " فبدأ بالحكم قبل الاجتهاد ، والأمر بالعكس ؛ فإن الاجتهاد مقدّم على الحكم ، فلا يجوز الحكم قبل الاجتهاد بالإجماع . وإنمـا معنى هذا الحديث : إذا أراد أن يحكم ، كما قال : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ » فعند

(١) زيادة يقتضيها السياق .

ذلك أراد أن يجتهد فى النازلة . ويفيد هذا صحة ما قاله الأصوليون : إن المجتهد يجب عليه أن يجدد نظرا عند وقوع النازلة، ولا يعتمد على اجتهاده المتقدم لإمكان أن يظهر له ثانيا خلاف ما ظهر له أولا، اللهم إلا أن يكون ذاكرا لأركان اجتهاده، مائلا إليه، فلا يحتاج إلى استئناف نظر فى أمارة أخرى .

التاسعة — إنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالما بالاجتهاد والسنن والقياس، وقضاء من مضى؛ لأن آجتهاده عبادة ولا يؤجر على الخطأ بل يوضع عنه الإثم فقط، فأما من لم يكن محلا للاجتهاد فهو متكلف لا يعذر بالخطإ فى الحكم، بل يخاف عليه أعظم الوزر . يدل على ذلك حديثه الآخر؛ رواه أبو داود : "القضاة ثلاثة" الحديث . قال ابن المنذر : إنما يؤجر على آجتهاده فى طلب الصواب لا على الخطأ، ومما يؤيد هذا قوله تعالى : « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » الآية . قال الحسن : أثنى على سليمان ولم يذم داود .

العاشرة — ذكر أبو التمام المالكى أن مذهب مالك أن الحق فى واحد من أقاويل المجتهدين، وليس ذلك فى أقاويل المختلفين، وبه قال أكثر الفقهاء . قال : وحكى آبن القاسم أنه سأل مالكا عن آختلاف الصحابة، فقال: مخطئ ومصيب، وليس الحق فى جميع أقاويلهم . وهذا القول قيل : هو المشهور عن مالك وإليه ذهب محمد بن الحسين . واحتج من قال هذا بحديث عبد الله بن عمرو؛ قالوا : وهو نص على أن فى المجتهدين وفى الحاكمين مخطئا ومصيبا؛ قالوا : والقول بأن كل مجتهد مصيب يؤدى إلى كون الشيء حلالا حراما، وواجبا ندبا . وآحتج أهل المقالة الأولى بحديث ابن عمر .

قال : نادى فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم انصرف من الأحزاب " ألا لا يصلينّ أحدٌ العصر إلا فى بنى قُرَيظة " فتخوّف ناس فوت الوقت فصلوا دون بنى قُريظة، وقال الآخرون : لا نصلى إلا حيث أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن فاتنا الوقت، قال : فما عنف واحدا من الفريقين؛ قالوا : فلو كان أحد الفريقين مخطئا لعيّنه النبي صلى الله عليه وسلم . ويمكن أن يقال : لعله إنما سكت عن تعيين المخطئين لأنه غير آثم بل مأجور،

فاستغنى عن تعيينه . والله أعلم . ومسئلة الاجتهاد طويلة متشعبة ، وهذه النبذة التى ذكرناها كافية فى معنى الآية ، والله الموفق للهداية .

الحادية عشرة ــ ويتعلق بالآية فصل آخر : وهو رجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاده إلى اجتهاد آخر أرجح من الأول ؛ فإن داود عليه السلام فعل ذلك . وقد اختلف فى ذلك علماؤنا رحمهم الله تعالى ؛ فقال عبد الملك ومُطَرِّف فى «الواضحة» : ذلك له ما دام فى ولايته ؛ فأما إن كانت ولاية أخرى فليس له ذلك ، وهو بمنزلة غيره من القضاة . وهذا هو ظاهر قول مالك رحمه الله فى «المدونة» . وقال سحنون فى رجوعه من اجتهاد فيه قول إلى غيره مما رآه أصوب ليس له ذلك ؛ وقاله ابن عبد الحكم . قالا : ويستأنف الحكم بما قوى عنده . قال سحنون : إلا أن يكون نسى الأقوى عنده فى ذلك الوقت ، أو وهم فحكم بغيره فله نقضه ؛ وأما إن حكم بحكم هو الأقوى عنده فى ذلك الوقت ثم قوى عنده غيره بعد ذلك فلا سبيل إلى نقض الأول ؛ قاله سحنون فى كتاب ابنه . وقال أشهب فى كتاب ابن المواز : إن كان رجوعه إلى الأصوب فى مال فله نقض الأول ، وإن كان فى طلاق أو نكاح أو عتق فليس له نقضه .

قلت : رجوع القاضى عما حكم به إذا تبين له أن الحق فى غيره ما دام فى ولايته أولى . وهكذا فى رسالة عمر إلى أبى موسى رضى الله عنهما ؛ رواها الدارقطنى ، وقد ذكرناها فى « الأعراف » ولم ينفصل ؛ وهى الحجة لظاهر قول مالك . ولم يختلف العلماء أن القاضى إذا قضى تجوزا وبخلاف أهل العلم فهو مردود ، وإن كان على وجه الاجتهاد ؛ فأما أن يتعقب قاض حكم قاض آخر فلا يجوز ذلك له ؛ لأن فيه مضرة عظمى من جهة نقض الأحكام ، وتبديل الحلال بالحرام ، وعدم ضبط قوانين الإسلام ، ولم يتعرض أحد من العلماء لنقض ما رواه الآخر ، وإنما كان يحكم بما ظهر له .

الثانية عشرة ــ قال بعض الناس : إن داود عليه السلام لم يكن أنفذ الحكم وظهر له ما قال غيره . وقال آخرون : لم يكن حكما وإنما كانت فتيا

قلت : وهكذا تؤول فيما رواه أبو هريرة عنه عليه السلام أنه قال : بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت هذه لصاحبتها : إنما ذهب بابنك أنت ، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك ، فتحاكمتا إلى داود ، فقضى به للكبرى ، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه ، فقال : آئتونى بالسكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى : لا — يرحمك الله — هو ابنها ، فقضى به للصغرى ، قال أبو هريرة : إن سمعت بالسكين قط إلا يومئذ ، ما كنا نقول إلا المُدْية ، أخرجه مسلم . فأما القول بأن ذلك من داود فتيا فهو ضعيف ، لأنه كان النبي — صلى الله عليه وسلم — وفتياه حكم . وأما القول الآخر فيبعد ، لأنه تعالى قال : « إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ » فبين أن كل واحد منهما كان قد حكم . وكذا قوله فى الحديث : فقضى به للكبرى ، يدل على إنفاذ القضاء و إنجازه . ولقد أبعد من قال : إنه كان من شرع داود أن يحكم به للكبرى من حيث هى كبرى ، لأن الكبر والصغر طرد محض عند الدعاوى كالطول والقصر والسواد والبياض وذلك لا يوجب ترجيح أحد المتداعيين حتى يحكم له أو عليه لأجل ذلك . وهو مما يقطع به من فهم ما جاءت به الشرائع . والذى ينبغى أن يقال : إن داود عليه السلام إنما قضى به للكبرى لسبب اقتضى عنده ترجيح قولها ، ولم يذكر فى الحديث تعيينه إذ لم تدع حاجة إليه ، فيمكن أن الولد كان بيدها ، وعلم عجز الأخرى عن إقامة البينة ، فقضى به لها إبقاء لما كان على ما كان . وهذا التأويل أحسن ما قيل فى هذا الحديث . وهو الذى تشهد له قاعدة الدعاوى الشرعية التى يبعد اختلاف الشرائع فيها . لا يقال : فإن كان داود قضى بسبب شرعى فكيف ساغ لسليمان نقض حكمه ، فالجواب : أن سليمان عليه السلام لم يتعرض لحكم أبيه بالنقض ، و إنما احتال حيلة لطيفة ظهر له بسببها صدق الصغرى ، وهى أنه لما قال : هات السكين أشقه بينكما ، قالت الصغرى : لا ، فظهر له من قرينة الشفقة فى الصغرى ، وعدم ذلك فى الكبرى ، مع ما عساه انضاف إلى ذلك من القرائن ما حصل له العلم بصدقها فحكم لها . ولعله كان ممن سوغ له أن يحكم بعلمه . وقد ترجم النسائى على هذا الحديث « حكم الحاكم بعلمه » . وترجم له أيضا « السعة للحاكم أن يقول

للشيء الذى لا يفعله أفعلُ ليستبين الحق » . وترجم له أيضا « نقض الحاكم لا يحكم به غيره ممن هو مثله أو أجلّ منه » . ولعل الكبرى اعترفت بأن الولد للصغرى عند ما رأت من سليمان الحزم والجد فى ذلك، فقضى بالولد للصغرى؛ ويكون هذا كما إذا حكم الحاكم باليمين، فلما مضى ليحلف حضر من استخرج من المنكر ما أوجب إقراره، فإنه يحكم عليه بذلك الإقرار قبل اليمين وبعدها، ولا يكون ذلك من باب نقض الحكم الأول، لكن من باب تبدّل الأحكام بحسب تبدّل الأسباب . والله أعلم . وفى هذا الحديث من الفقه أن الأنبياء سوغ لهم الحكم بالاجتهاد؛ وقد ذكرناه . وفيه من الفقه استعمال الحكام الحيل التى تستخرج بها الحقوق، وذلك يكون عن قوّة الذكاء والفطنة، وممارسة أحوال الخلق؛ وقد يكون فى أهل التقوى فراسة دينية، وتوسمات نورية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . وفيه الحجة لمن يقول : إن الأم تُستلحق؛ وليس مشهور مذهب مالك، وليس هذا موضع ذكره . وعلى الجملة فقضاء سليمان فى هذه القصة تضمنها مدحه تعالى له بقوله : « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » .

الثالثة عشرة — قد تقدّم القول فى الحرث والحكم فى هذه الواقعة فى شرعنا : أن على أصحاب الحوائط حفظ حيطانهم وزروعهم بالنهار، ثم الضمان فى المثل بالمثليات، وبالقيمة فى ذوات القيم . والأصل فى هذه المسئلة فى شرعنا ما حكم به نبينا صلى الله عليه وسلم فى ناقة البراء بن عازب . رواه مالك عن ابن شهاب عن حرام بن سعد بن مُحَيِّصة : أن ناقة للبراء دخلت حائط رجل فأفسدت فيه، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن على أهل الحوائط حفظها بالليل، وأن ما أفسدت المواشى بالليل ضامن[1] على أهلها . هكذا رواه جميع الرواة مرسلا . وكذلك رواه أصحاب ابن شهاب عن ابن شهاب، إلا ابن عيينة فإنه رواه عن الزهرى عن سعيد وحرام بن سعد بن مُحيِّصة : أن ناقة؛ فذكر مثله بمعناه . ورواه ابن أبى ذئب عن ابن شهاب أنه بلغه أن ناقة البراء دخلت حائط قوم؛ مثل حديث مالك سواء، إلا أنه لم يذكر حرام بن سعد بن محيصة ولا غيره . قال أبو عمر : لم يصنع ابن أبى ذئب

---

(١) ضامن بمعنى مضمون .

شيئا؛ إلا أنه أفسد إسناده . ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن حرام بن محيصة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يتابع عبد الرزاق على ذلك وأنكروا عليه قوله عن أبيه . ورواه آبن جريج عن آبن شهاب قال : حدثنى أبو أمامة بن سهل بن حنيف أن ناقة دخلت فى حائط قوم فأفسدت؛ فجعل الحديث لآبن شهاب عن أبى أمامة ، ولم يذكر أن الناقة كانت للبراء . وجائز أن يكون الحديث عن ابن شهاب عن ابن مُحَيِّصة ، وعن سعيد بن المسيّب، وعن أبى أمامة — والله أعلم — فحدّث به عمن شاء منهم على ما حضره وكلهم ثقات . قال أبو عمر : وهذا الحديث و إن كان مرسلا فهو حديث مشهور أرسله الأئمة، وحدّث به الثقات ، وآستعمله فقهاء الحجاز وتلقوه بالقبول ، و جرى فى المدينة العمل به، وحسبك باستعمال أهل المدينة وسائر أهل الحجاز لهذا الحديث .

الرابعة عشرة — ذهب مالك و جمهور الأئمة إلى القول بحديث البراء، وذهب أبو حنيفة وأصحابه و جماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ ، وأن البهائم إذا أفسدت زرعا فى ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شيء، وأدخل فسادها فى عموم قوله صلى الله عليه وسلم : "جُرح العجماء جُبَار" فقاس جميع أعمالها على جرحها . و يقال : إنه ما تقدم أبا حنيفة أحد بهذا القول ، ولا حجة له ولا لمن آتبعه فى حديث العجماء ، وكونه ناسخا لحديث البراء ومعارضا له ؛ فإن النسخ شروطه معدومة ، والتعارض إنما يصح إذا لم يمكن آستعمال أحدهما إلا بنفى الآخر؛ وحديث "العجماء جرحها جبار" عموم متفق عليه ، ثم خص منه الزرع والحوائط بحديث البراء؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لو جاء عنه فى حديث واحد : العجماء جرحها جبار نهارا لا ليلا وفى الزرع والحوائط والحرث ، لم يكن هذا مستحيلا من القول؛ فكيف يجوز أن يقال فى هذا متعارض؟ ! و إنما هذا من باب العموم والخصوص على ما هو مذكور فى الأصول .

الخامسة عشرة — إن قيل : ما الحكمة فى تفريق الشارع بين الليل والنهار، وقد قال الليث بن سعد : يضمن أرباب المواشى بالليل والنهار كل ما أفسدت ، ولا يضمن أكثر من قيمة الماشية ؟ قلنا : الفرق بينهما واضح ، وذلك أن أهل المواشى لهم ضرورة إلى إرسال

مواشيهم ترعى بالنهار، والأغلب عندهم أن من عنده زرع يتعاهده بالنهار و يحفظه ممن أراده، بجعل حفظ ذلك بالنهار على أهل الزروع؛لأنه وقت التصرف فى المعاش، كما قال الله سبحانه وتعالى : «وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا» فإذا جاء الليل فقد جاء الوقت الذى يرجع كل شيء إلى موضعه وسكنه ؛ كما قال الله تعالى : « مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ » وقال : « وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا » و يرد أهل المواشى مواشيهم إلى مواضعهم ليحفظوها، فإذا فرط صاحب الماشية فى ردها إلى منزله، أو فرط فى ضبطها وحبسها عن الانتشار بالليل حتى أتلفت شيئا فعليه ضمان ذلك، فجرى الحكم على الأوفق الأسمح، وكان ذلك أرفق بالفريقين، وأسهل على الطائفتين، وأحفظ للمالين،وقد وضح الصبح لذى عينين، ولكن لسليم الحاسدين،وأما قول الليث : لا يضمن أكثر من قيمة الماشية ، فقد قال أبو عمر : لا أعلم من أين قال هذا الليث بن سعد، إلا أن يجعله قياسا على العبد الجانى لا يفتك بأكثر من قيمته، ولا يلزم سيده فى جنايته أكثر من قيمته، وهذا ضعيف الوجه؛ كذا قال فى «التمهيد» وفى « الاستذكار » فخالف الحديث فى "العجماء جرحها جبار" وخالف ناقة البراء، وقد تقدمه إلى ذلك طائفة من العلماء منهم عطاء . قال ابن جريج قلت لعطاء : الحرث تصيبه الماشية ليلا أو نهارا؟ قال : يضمن صاحبها و يغرم . قلت : كان عليه حظرا أو لم يكن ؟ قال : نعم ! يغرم . قلت : ما يغرم ؟ قال : قيمة ما أكل حماره ودابته وماشيته . وقال معمر عن ابن شُبْرُمَة : يُقَوَّم الزرع على حاله التى أصيب عليها دراهم . وروى عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما : يضمن رب الماشية ليلا أو نهارا، من طرق لا تصح .

السادسة عشرة — قال مالك : ويقوم الزرع الذى أفسدت المواشى بالليل على الرجاء والخوف . قال : والحوائط التى تحرس والتى لا تحرس، والمحظر عليها وغير المحظر سواء، يغرم أهلها ما أصابت بالليل بالغا ما بلغ، وإن كان أكثر من قيمتها . قال : وإذا انفلتت دابة بالليل فوطئت على رجل نائم لم يغرم صاحبها شيئا ، و إنما هذا فى الحائط والزرع والحرث ؛ ذكره عنه ابن عبد الحكم . وقال ابن القاسم : ما أفسدت الماشية بالليل فهو فى مال ربها ،

وإن كان أضعاف ثمنها؛ لأن الجناية من قبله إذ لم يربطها ، وليست الماشية كالعبيد؛ حكاه سحنون وأصبغ وأبو زيد عن ابن القاسم .

السابعـــة عشرة — ولا يستأنى بالزرع أن ينبت أو لا ينبت كما يفعل فى سنّ الصغير . وقال عيسى عن ابن القاسم : قيمته لو حل بيعه . وقال أشهب وابن نافع فى المجموعة عنه : وإن لم يبد صلاحه . ابن العربى : والأوّل أقوى لأنها صفته فتقوّم كما يقوم كل متلف على صفته .

الثامنـــة عشرة — لو لم يقض للفسد له بشىء حتى نبت وأنجبر فإن كان فيه قبل ذلك منفعة رعى أو شىء ضمن تلك المنفعة ، وإن لم تكن فيــه منفعة فلا ضمان . وقال أصبغ : يضمن ؛ لأن التلف قد تحقق والجبر ليس من جهته فلا يعتد له به .

التاســـعة عشرة — وقع فى كتاب ابن سحنون أن الحديث إنما جاء فى أمثال المدينة التى هى حيطان محدقة ، وأما البلاد التى هى زروع متصلة غير مُحْظَرة ، وبساتين كذلك ، فيضمن أرباب النَّعم ما أفسدت من ليـل أو نهار ؛ كأنه ذهب إلى أن ترك تثقيف الحيوان فى مثل هذه البلاد تعدّ ؛ لأنها ولا بد تفسد . وهذا جنوح إلى قول الليث .

الموفيـــة عشرين — قال أصبغ فى المدينة : ليس لأهل المواشى أن يخرجوا مواشيهم إلى قرى الزرع بغير ذوّاد ؛ فركب العلماء على هـــذا أن البقعة لا تخـلو أن تكون بقعة زرع ، أو بقعة سرح ، فإن كانت بقعة زرع فلا تدخلها ماشية إلا ماشية تجتاح ، وعلى أربابها حفظها ، وما أفسدت فصاحبها ضامن ليـلا أو نهارا ؛ وإن كانت بقعة سرح فعلى صاحب الذى حرّثه فيها حفظه ، ولا شىء على أرباب المواشى .

الحـادية والعشرون — المواشى على قسمين : ضوارى وحريسة وعليهما قسمها مالك . فالضوارى هى المعتادة للزرع والثمار ، فقال مالك : تُغرّب وتباع فى بلد لا زرع فيــه ؛ رواه ابن القاسم فى الكتاب وغيره . قال ابن حبيب : وإن كره ذلك ربهـا ، وكذلك قال مالك فى الدابة التى ضريت فى إفساد الزرع : تغرّب وتباع . وأما ما يستطاع الاحتراس منه فـلا يؤمر صاحبه بإخراجه .

الثانيــة والعشرون — قال أصبغ : النحل والحمام والإوز والدجاج كالماشية، لا يمنع صاحبها من اتخاذها وإن [ضريت](1)، وعلى أهـل القرية حفظ زروعهم . قال ابن العربى : وهذه رواية ضعيفة لا يلتفت إليها من أراد أن يجد ما ينتفع به مما لا يضر بغيره مُكِّن منه، وأما انتفاعه بما يتخذه بإضراره بأحد فلا سبيل إليه . قال عليـه السلام : "لا ضرر ولا ضرار" وهذه الضوارى عن ابن القاسم فى المدينة لاضمان على أربابها إلا بعد التقدم . ابن العربى : وأرى الضمان عليهم قبل التقدم إذا كانت ضوارى .

الثالثــة والعشرون — ذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الشعبى أن شاة وقعت فى غزل حائك فاختصموا إلى شُرَيح ، فقال الشَّعبى : آنظروه فإنه سيسألهم ليـلا وقعت فيه أو نهارا ؛ ففعل . ثم قال : إن كان بالليل ضمن، وإن كان بالنهار لم يضمن، ثم قرأ شريح « إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ » قال : والنَّفْش بالليل والهَمَل بالنهار .

قلت : ومن هـذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : "العجماء جرحها جبار" الحديث . وقال ابن شهاب : والجبار الهدر، والعجماء البهيمة ، قال علماؤنا : ظاهر قوله : "العجماء جرحها جبار" أن ماانفردت البهيمة بإتلافه لم يكن فيه شىء، وهذا مجمع عليه . فلو كان معها قائد أو سائق أو راكب فحملها أحدهم على شىء فأتلفته لزمه حكم المتلف؛ فإن كانت جنـاية مضمونة بالقصاص وكان الحمل عمدا كان فيه القصاص ولا يختلف فيه؛ لأن الدابة كالآلة . وإن كان عن غير قصد كانت فيه الدية على العـاقلة . وفى الأموال الغرامة فى مال الجانى .

الرابعـة والعشرون — واختلفوا فيمن أصابته برجلها أو ذنبها، فلم يضمّن مالك والليث والأوزاعى صاحبها ، وضمّنـه الشافعى وابن أبى ليـلى وآبن شُبْرُمـة . واختلفوا فى الضارية فجمهورهم أنها كغيرها، ومالك وبعض أصحابه يضمنونه .

الخامســة والعشرون — روى سفيان بن حسين عن الزهرى عن سعيد بن المسيّب عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الرِّجل جبار" قال الدار قطنى : لم يروه

(1) فى الأصل : «أضرت» . والتصويب من «الموطأ» .

غير سفيان بن حسين ولم يتابع عليه، وخالفه الحفاظ عن الزهري منهم مالك وابن عيينة ويونس ومعمر وابن جريج والزبيدي وعقيل وليث بن سعد، وغيرهم كلهم رووه عن الزهري فقالوا: " العجماء جبار والبئر جبار والمعدن جبار " ولم يذكروا الرِّجل وهو الصواب . وكذلك روى أبو صالح السمان، وعبد الرحمن الأعرج، ومحمد بن سيرين، ومحمد بن زياد وغيرهم عن أبي هريرة، ولم يذكروا فيه " والرِّجل جبار " وهو المحفوظ عن أبي هريرة .

السادسة والعشرون — قوله : " والبئر جُبار " قد روى موضعه " والنار" قال الدارقطني: حدّثنا حمزة بن القاسم الهاشمي حدّثنا حنبل بن إسحق قال سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول في حديث عبد الرزاق: حديث أبي هريرة " والنار جبار" ليس بشيء لم يكن في الكتاب باطل ليس هو بصحيح ، حدّثنا محمد بن مخلد حدّثنا إسحق بن إبراهيم بن هانئ قال سمعت أحمد بن حنبل يقول : أهل اليمن يكتبون النار النير ويكتبون البير؛ يعني مثل ذلك . وإنما لقن عبد الرزاق " النار جبار ". وقال الرمادي : قال عبد الرزاق قال معمر لا أراه إلا وَهْما. قال أبو عمر : روى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " النار جُبار " وقال يحيى بن معين : أصله البئر ولكن معمرا صحّفه . قال أبو عمر : لم يأت ابن معين على قوله هذا بدليل، وليس هكذا ترد أحاديث الثقات . ذكر وكيع عن عبد العزيز بن حصين عن يحيى بن يحيى الغساني قال : أحرق رجل ساقي قَرَاح(1) له فخرجت شررة من نار حتى أحرقت شيئا لجاره . قال: فكتب فيه إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ابن حصين فكتب إليّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " العجماء جبار " وأرى أن النار جبار . وقد روى " والسائمة جبار " بدل العجماء فهذا ما ورد في ألفاظ هذا الحديث ولكل معنى لفظ صحيح مذكور في شرح الحديث وكتب الفقه .

قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ قال وهب : كان داود يمر بالجبال مسبحا والجبال تجاوبه بالتسبيح، وكذلك الطير. وقيل: كان داود إذا وجد فترة أمر الجبال فسبحت

---

(1) قراح : مزرعة .

حتى ينشق، ولهذا قال : «وسخرنا» أي جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح . وقيل : إن سيرها معه تسبيحها ، والتسبيح مأخوذ من السباحة ؛ دليله قوله تعالى : « يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ » . وقال قتادة : « يُسَبِّحْنَ » يصلين معه إذا صلى ، والتسبيح الصلاة . وكل محتمل . وذلك فعل الله تعالى بها ؛ ذلك لأن الجبال لا تعقل فتسبيحها دلالة على تنزيه الله تعالى عن صفات العاجزين والمحدثين .

قوله تعالى : وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ يعني اتخاذ الدروع بإلانة الحديد له ، واللبوس عند العرب السلاح كله ؛ درعا كان أو جوشنا أو سيفا أو رمحا . قال الهذلي (١) يصف رمحا :

وَمَعِي لَبُوسٌ لِلْبَئِيسِ كَأَنَّهُ * رَوْقٌ بِجَبْهَةِ ذِي نِعَاجٍ مُجْفِلِ

واللبوس كل ما يلبس ، وأنشد ابن السكيت (٢) :

الْبَسْ لِكُلِّ حَالَةٍ لَبُوسَهَا * إِمَّا نَعِيمَهَا وَإِمَّا بُوسَهَا

وأراد الله تعالى هنا الدرع ، وهو بمعنى الملبوس نحو الركوب والحلوب . قال قتادة : أول من صنع الدروع داود . وإنما كانت صفائح ، فهو أول من سردها وحلقها .

الثانيــة ـ قوله تعالى : ﴿لِيُحْصِنَكُمْ﴾ (٣) ليحرزكم . ﴿مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي من حربكم . وقيل : من السيف والسهم والرمح ، أي من آلة بأسكم فحذف المضاف . ابن عباس : « مِنْ بَأْسِكُمْ » من سلاحكم . الضحاك : من حرب أعدائكم . والمعنى واحد . وقرأ الحسن

(١) هو أبو كبير الهذلي ، واسمه عامر بن الحليس من قصيدة أولها :

أزهير هل عن شيبة من معدل * أم لا سبيل إلى الشباب الأول

والبئيس : الشجاع . والروق : القرن . وذو نعاج : يعني ثورا ؛ والنعاج : البقر من الوحش .

(٢) البيت لبيهس الفزاري . (٣) « ليحصنكم » بالياء قراءة نافع .

وأبو جعفر وابن عامر وحفص وروح « لِتُحْصِنَكُمْ » بالتاء ردا على الصنعة . وقيل: على اللبوس والمنعة التي هي الدروع . وقرأ شيبة وأبو بكر والمفضل ورويس وابن أبي إسحق «لِنُحْصِنَكُمْ» بالنون لقوله : « وَعَلَّمْنَاهُ » . وقرأ الباقون بالياء جعلوا الفعل للبوس؛ أو يكون المعنى ليحصنكم الله . ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ أي على تيسير نعمة الدروع لكم . وقيل : « هَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ » بأن تطيعوا رسولي .

الثالثة — هذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب ، وهو قول أهل العقول والألباب ، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء ، فالسبب سنة الله في خلقه فمن طعن في ذلك فقد طعن في الكتاب والسنة ، ونسب من ذكرنا إلى الضعف وعدم المنة . وقد أخبر الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع ، وكان أيضا يصنع الخوص ، وكان يأكل من عمل يده ، وكان آدم حراثا ، ونوح نجارا ، ولقمان خياطا ، وطالوت دباغا . وقيل : سقاء ؛ فالصنعة يكفّ بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها عن نفسه الضرر والباس . وفي الحديث : « إن الله يحب المؤمن المحترف الضعيف المتعفّف ويبغض السائل الملحف » . وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «الفرقان»[(١)] . وقد تقدم في غير ما آية ، وفيه كفاية والحمد لله .

قوله تعالى : وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة؛ أي شديدة الهبوب . يقال منه : عصفت الريحُ أي اشتدت فهي ريح عاصفٌ وعصُوف . وفي لغة بني أسد : أعصفت الريحُ فهي مُعْصِف ومُعْصِفة . والعَصْف التِّبن فسمي به شدة الريح ؛

(١) راجع المسألة الثالثة من تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين ... الخ » آية ٢٠ من السورة المذكورة .

لأنها تعصفه بشدة تطيرها . وقرأ عبد الرحمن الأعرج والسُّلَمى وأبو بكر « وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ » برفع الحاء على القطع مما قبله ؛ والمعنى ولسليمان تسخير الريح ؛ ابتداء وخبر . ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ يعنى الشام . يروى أنها كانت تجرى به وبأصحابه إلى حيث أراد ، ثم ترده إلى الشام . وقال وهب : كان سليمان بن داود إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير، وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سريره . وكان امرأ غزّاء لا يقعد عن الغزو ؛ فإذا أراد أن يغزو أمر بخُشُب فمدت ورفع عليها الناس والدواب وآلة الحرب ، ثم أمر العاصف فأقلت ذلك ، ثم أمر الرخاء فمرت به شهرا فى رواحه وشهرا فى غدوه ، وهو معنى قوله تعالى : « تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ » . والرخاء اللينة . ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ أى بكل شىء عملنا عالمين بتدبيره .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ أى وسخرنا له من يغوصون ؛ يريد تحت الماء ، أى يستخرجون له الجواهر من البحر . والغَوْص النزول تحت الماء ، وقد غاص فى الماء ، والهاجم على الشىء غائص . والغوّاص الذى يغوص فى البحر على اللؤلؤ ، وفعله الغِياصة . ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أى سوى ذلك من الغَوْص ؛ قاله الفراء . وقيل : يراد بذلك المحاريب والتماثيل وغير ذلك مما يسخّرهم فيه . ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ أى لأعمالهم . وقال الفراء : حافظين لهم من أن يفسدوا أعمالهم ، أو يهيجوا أحدا من بنى آدم فى زمان سليمان . وقيل : «حافظين» من أن يهربوا أو يمتنعوا . أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره . وقد قيل : إن الحمام والنورة والطواحين والقوارير والصابون من استخراج الشياطين .

قوله تعالى : وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ أى واذكر أيوب إذ نادى ربه . ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ أى نالنى فى بدنى ضرّ وفى مالى وأهلى . قال ابن عباس : سمى أيوب لأنه آب إلى الله تعالى فى كل حال . وُروى أن أيوب عليه السلام كان رجلا من الروم ذا مال عظيم ، وكان برًّا تقيًّا رحيما بالمساكين ، يكفل الأيتام والأرامل ، ويكرم الضيف ، ويبلغ ابن السبيل ، شاكرا لأنعم الله تعالى ، وأنه دخل مع قومه على جبار عظيم فخاطبوه فى أمر ، فجعل أيوب يلين له فى القول من أجل زرع كان له فامتحنه الله بذهاب ماله وأهله ، وبالضرفى جسمه حتى تناثر لحمه وتدود جسمه ، حتى أخرجه أهل قريته إلى خارج القرية ، وكانت امرأته تخدمه . قال الحسن : مكث بذلك تسع سنين وستة أشهر . فلما أراد الله أن يفرج عنه قال الله تعالى له : « ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » فيه شفاؤك ، وقد وهبت لك أهلك ومالك وولدك ومثلهم معهم . وسيأتى فى « ص »[1] ما للمفسرين فى قصة أيوب من تسليط الشيطان عليه ، والرد عليهم إن شاء الله تعالى . واختلف فى قول أيوب : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » على خمسة عشر قولا : الأول — أنه وثب ليصلى فلم يقدر على النهوض فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » إخبارا عن حاله ، لا شكوى لبلائه ؛ رواه أنس مرفوعا . الثانى — أنه إقرار بالعجز فلم يكن منافيا للصبر . الثالث — أنه سبحانه أجراه على لسانه ليكون حجة لأهل البلاء بعده فى الإفصاح بما يترل بهم . الرابع — أنه أجراه على لسانه إلزاما له فى صفة الآدمى فى الضعف عن تحمل البلاء . الخامس — أنه انقطع الوحى عنه أربعين يوما فخاف هجران ربه فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » . وهذا قول جعفر بن محمد . السادس — أن تلامذته الذين كانوا يكتبون عنه لما أفضت حاله إلى ما انتهت إليه محوا ما كتبوا عنه ، وقالوا : ما لهذا عند الله قدر ؛ فاشتكى الضر فى ذهاب الوحى والدين من أيدى الناس . وهذا مما لم يصح سنده . والله أعلم ؛ قاله ابن العربى . السابع — أن دودة سقطت من لحمه فأخذها وردها فى موضعها فعقرته فصاح « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » فقيل : أعلينا تتصبر . قال ابن العربى : وهذا بعيد جدا

(١) راجع تفسير قوله تعالى : « واذكر عبدنا أيوب ... الخ » آية ٤١

مع أنه يفتقر إلى نقل صحيح، ولا سبيل إلى وجوده . الثامن ـ أن الدود كان يتناول بدنه فصبر حتى تناولت دودة قلبه وأخرى لسانه ، فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » لاشتغاله عن ذكر الله . قال ابن العربى : وما أحسن هذا لو كان له سند ولم تكن دعوى عريضة . التاسع ـ أنه أبهم عليه جهة أخذ البلاء له هل هو تأديب ، أو تعذيب ، أو تخصيص ، أو تمحيص ، أو ذُخر أو طهر ، فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » أى ضرّ الإشكال فى جهة أخذ البلاء . قال ابن العربى : وهذا غلو لا يحتاج إليه . العاشر ـ أنه قيل له سل الله العافية فقال : أقمت فى النعيم سبعين سنة وأقيم فى البلاء سبع سنين وحينئذ أسأله فقال : « مسَّنِيَ الضُّرُّ » . قال ابن العربى : وهذا ممكن ولكنه لم يصح فى إقامته مدةً خبرٌ ولا فى هذه القصة . الحادى عشر ـ أن ضره قول إبليس لزوجه اسجدى لى فخاف ذهاب الإيمان عنها فتهلك ويبقى بغير كافل . الثانى عشر ـ لما ظهر به البلاء قال قومه : قد أضر بنا كونه معنا وقذره فليخرج عنا ، فأخرجته امرأته إلى ظاهر البلد ، فكانوا إذا خرجوا رأوه وتطيروا به وتشاءموا برؤيته ، فقالوا : ليبعد بحيث لا نراه . فخرج إلى بعد من القرية ، فكانت امرأته تقوم عليه وتحمل قوته إليه . فقالوا : إنها تتناوله وتخالطنا فيعود بسببه ضره إلينا . فأرادوا قطعها عنه ، فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » . الثالث عشر ـ قال عبد الله بن عبيد بن عمير : كان لأيوب أخوان فأتياه فقاما من بعيد لا يقدران أن يدنوا منه من نتن ريحه ، فقال أحدهما : لو علم الله فى أيوب خيرا ما ابتلاه بهذا البلاء ، فلم يسمع شيئا أشد عليه من هذه الكلمة ، فعند ذلك قال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » ثم قال : «اللهم إن كنت تعلم أنى لم أبت شبعان قط وأنا أعلم مكان جائع فصدقنى » فنادى مناد من السماء « أن صدق عبدى » وهما يسمعان فخرا ساجدين . الرابع عشر ـ أن معنى « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » من شماتة الأعداء ، ولهذا قيل له : ما كان أشد عليك فى بلائك؟ قال شماتة الأعداء . قال ابن العربى : وهذا ممكن فإن الكليم قد سأله أخوه العافية من ذلك فقال : « إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ » . الخامس عشر ـ أن امرأته كانت ذات ذوائب فعرفت حين منعت أن تتصرف لأحد بسببه

ما تعود به عليه ، فقطعت ذوائبها واشترت بها ممن يصلها قوتا وجاءت به إليه ، وكان يستعين بذوائبها فى تصرفه وتنقله ، فلما عدمها وأراد الحركة فى تنقله لم يقدر قال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » . وقيل : إنها لما اشترت القوت بذوائبها جاءه إبليس فى صفة رجل وقال له : إن أهلك بغت فأخذت وحلق شعرها . فحلف أيوب أن يجلدها ؛ فكانت المحنة على قلب المرأة أشد من المحنة على قلب أيوب .

قلت : وقول سادس عشر — ذكره ابن المبارك : أخبرنا يونس بن يزيد عن عقيل عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوما أيوب النبى صلى الله عليه وسلم وما أصابه من البلاء ؛ الحديث . وفيه أن بعض إخوانه ممن صابره ولازمه قال : يا نبى الله لقد أعجبنى أمرك وذكرته إلى أخيك وصاحبك . أنه قد ابتلاك بذهاب الأهل والمال وفى جسدك ، منذ ثمانية عشرة سنة حتى بلغت ماترى ؛ ألا يرحمك فيكشف عنك ! لقد أذنبت ذنبا ما أظن أحدا بلغه ! فقال أيوب عليه السلام : « ما أدرى ما يقولان غير أن ربى عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتزاعمان وكل يحلف بالله — أو على النفر يتزاعمون — فأنقلب إلى أهلى فأكفر عن أيمانهم إرادة ألا يأثم أحد ذكره ولا يذكره أحد إلا بالحق » فنادى ربه ﴿ أَنِّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ وإنما كان دعاؤه عرضا عرضه على الله تبارك وتعالى يخبره بالذى بلغه ، صابرا لما يكون من الله تبارك وتعالى فيه . وذكر الحديث . وقول سابع عشر — سمعته ولم أقف عليه أن دودة سقطت من جسده فطلبها ليردها إلى موضعها فلم يجدها فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » لما فقد من أجر ألم تلك الدودة ، وكان أراد أن يبقى له الأجر موفرا إلى وقت العافية ، وهذا حسن إلا أنه يحتاج إلى سند . قال العلماء : ولم يكن قوله « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » جزعا ؛ لأن الله تعالى قال : « إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا » بل كان ذلك دعاء منه ، والجزع فى الشكوى إلى الخلق لا إلى الله تعالى ، والدعاء لا ينافى الرضا . قال الثعلبى سمعت أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول : حضرت مجلسا غاصا بالفقهاء والأدباء فى دار السلطان ، فسئلت عن هذه الآية بعد إجماعهم على أن قول أيوب كان شكاية وقد قال الله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا »

فقلت : ليس هذا شكاية وإنما كان دعاء ؛ بيانه ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ والإجابة تتعقب الدعاء لا الاشتكاء . فأستحسنوه وارتضوه . وسئل الجنيد عن هذه الآية فقال : عرّفه فاقة السؤال ليمنّ عليه بكرم النّوال .

قوله تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ قال مجاهد وعكرمة قيل لأيوب صلى الله عليه وسلم : قد آتيناك أهلك فى الجنة فإن شئت تركناهم لك فى الجنة وإن شئت آتيناكهم فى الدنيا . قال مجاهد : فتركهم الله عز وجل له فى الجنة وأعطاه مثلهم فى الدنيا . قال النحاس : والإسناد عنهما بذلك صحيح .

قلت : وحكاه المهدوى عن ابن عباس . وقال الضحاك : قال عبد الله بن مسعود كان أهل أيوب قد ماتوا إلا أمرأته فأحياهم الله عز وجل فى أقل من طرف البصر ، وآتاه مثلهم معهم . وعن ابن عباس أيضا : كان بنوه قد ماتوا فأحيوا له وولد له مثلهم معهم . وقاله قتادة وكعب الأحبار والكلبي وغيرهم . قال ابن مسعود : مات أولاده وهم سبعة من الذكور وسبعة من الإناث فلما عوفى نشروا له ، وولدت أمرأته سبعة بنين وسبع بنات . الثعلبي : وهذا القول أشبه بظاهر الآية .

قلت : لأنهم ماتوا ٱبتلاء قبل آجالهم حسب ما تقدم بيانه فى سورة « البقرة »(1) فى قصة « الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ » . وفى قصة السبعين الذين أخذتهم الصعقة فماتوا ثم أحيوا(2) ؛ وذلك أنهم ماتوا قبل آجالهم ، وكذلك هنا والله أعلم . وعلى قول مجاهد وعكرمة يكون المعنى : « وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ » فى الآخرة « وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ » فى الدنيا . وفى الخبر : إن الله بعث إليه جبريل عليه السلام حين ركض برجله على الأرض ركضة فظهرت عين ماء حار ، وأخذ بيده ونفضه نفضة فتناثرت عنه الديدان ، وغاص فى الماء غوصة فنبت لحمه وعاد إلى منزله ، ورد الله عليه أهله ومثلهم معهم ، ونشأت سحابة على قدر قواعد داره فأمطرت ثلاثة أيام بلياليها جرادا من ذهب . فقال له جبريل : أشبعت ؟ فقال : ومن

(1) راجع جـ ٣ ص ٢٣٠ طبعة أولى وثانية .
(2) راجع جـ ١ ص ٤٠٤ ثانية أو ثالثة وجـ ٧ ص ٢٩٥ طبعة أولى أو ثانية .

يتسبع من الله! فضل. فأوحى الله إليه : قد أثنيت عليك بالصبر قبل وقوعك في البلاء و بعده، ولولا أني وضعت تحت كل شعرة منك صبرا ما صبرت . ﴿ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ أي فعلنا ذلك به رحمة من عندنا . وقيل : ابتليناه ليعظم ثوابه غدا . ﴿ وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ أي وتذكيرا للعباد؛ لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وصبره عليه ومحنته له وهو أفضل أهل زمانه وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا نحو ما فعل أيوب، فيكون هذا تنبيها لهم على إدامة العبادة، واحتمال الضرر . واختلف في مدة إقامته في البلاء ؛ فقال ابن عباس : كانت مدة البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال . وهب : ثلاثين سنة . الحسن سبع سنين وستة أشهر . قلت : وأصح من هذا والله أعلم ثماني عشرة سنة ؛ رواه ابن شهاب عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره ابن المبارك وقد تقدم .

قوله تعالى : وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ ﴾ وهو أخنوخ وقد تقدم ﴿ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ أي واذكرهم . وخرج الترمذي الحكيم في « نوادر الأصول » وغيره من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كان في بني إسرائيل رجل يقال له ذو الكفل لا يتورع من ذنب عمله فاتبع امرأة فأعطاها ستين دينارا [على أن يطأها][1] فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت و بكت فقال ما يبكيك قالت من هذا العمل والله ما عملته قط قال أأكرهتك قالت لا ولكن حملني عليه الحاجة قال اذهبي فهو لك والله لا أعصي الله بعدها أبدا ثم مات من ليلته فوجدوا مكتوبا على باب داره إن الله قد غفر لذي الكفل" وخرجه أبو عيسى الترمذي أيضا . ولفظه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين — حتى عد سبع مرات — [لم أحدث به][2] ولكني سمعته أكثر من ذلك؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "كان

(١) الزيادة من « الدر المنثور » . (٢) الزيادة من صحيح الترمذي .

ذو الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت فقال ما يبكيك أأكرهتك قالت لا ولكنه عمل ما عملته قط وما حملنى عليه إلا الحاجة فقال تفعلين أنت هذا وما فعلته اذهبى فهى لك وقال والله لا أعصى الله بعدها أبدا فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه إن الله قد غفر لذى الكفل " قال: حديث حسن . وقيل إن اليسع لما كبر قال : لو استخلفت رجلا على الناس حتى أنظر كيف يعمل . فقال : من يتكفل لى بثلاث : بصيام النهار وقيام الليل وألا يغضب وهو يقضى ؟ فقال رجل من ذرية العيص : أنا ؛ فرده ثم قال مثلها من الغد؛ فقال الرجل : أنا ؛ فاستخلفه فوفى فأثنى الله عليه فسمى ذا الكفل ؛ لأنه تكفل بأمر ؛ قاله أبو موسى ومجاهد وقتادة . وقال عمرو بن عبد الرحمن بن الحرث وقال أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم : إن ذا الكفل لم يكن نبيا، ولكنه كان عبدا صالحا فتكفل بعمل رجل صالح عند موته ،وكان يصلى لله كل يوم مائة صلاة فأحسن الله الثناء عليه. وقال كعب ؛ كان فى بنى إسرائيل ملك كافر فمر ببلاده رجل صالح فقال : والله إن خرجت من هذه البلاد حتى أعرض على هذا الملك الإسلام . فعرض عليه فقال : ما جزائى؟ قال : الجنة ــ ووصفها له ــ قال : من يتكفل لى بذلك ؟ قال : أنا ؛ فأسلم الملك وتخلى عن المملكة وأقبل على طاعة ربه حتى مات ، فدفن فأصبحوا فوجدوا يده خارجة من القبر وفيها رقعة خضراء مكتوب فيها بنور أبيض: إن الله قد غفر لى وأدخلنى الجنة ووفى عن كفالة فلان ؛ فأسرع الناس إلى ذلك الرجل بأن يأخذ عليهم الإيمان، ويتكفل لهم بما تكفل به للملك ، ففعل ذلك فآمنوا كلهم فسمى ذا الكفل . وقيل : كان رجلا عفيفا يتكفل بشأن كل إنسان وقع فى بلاء أو تهمة أو مطالبة فينجيه الله على يديه . وقيل: سمى ذا الكفل لأن الله تعالى تكفل له فى سعيه وعمله بضعف عمل غيره من الأنبياء الذين كانوا فى زمانه . والجمهور على أنه ليس بنبي . وقال الحسن : هو نبى قبل إلياس . وقيل : هو زكريا بكفالة مريم . ﴿ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ أى على أمر الله والقيام بطاعته واجتناب معاصيه . ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ﴾ أى فى الجنة ﴿ إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ ﴾ أى وآذكر « ذَا النُّون » وهو لقب ليونس بن متى لابتلاع النون إياه . والنون الحوت. وفى حديث عثمان رضى الله عنه أنه رأى صبيا مليحا فقال : دَسّموا نُونَته كى لاتصيبه العين . روى ثعلب عن ابن الأعرابى : النّونة النقبة التى تكون فى ذقن الصبى الصغير ، ومعنى دسّموا سوّدوا . ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا ﴾ قال الحسن والشعبى وسعيد بن جبير: مغاضبا لربه عز وجل. واختاره الطبرى والقتبى واستحسنه المهدوى، وروى عن ابن مسعود. وقال النحاس: وربما أنكر هذا من لايعرف اللغة وهو قول صحيح. والمعنى: مغاضبا من أجل ربه ، كما تقول : غضبت لك أى من أجلك . والمؤمن يغضب لله عز وجل إذا عُصى . وأكثر أهل اللغة يذهب إلى أن قول النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة : "آشترطى لهم الولاء" من هذا . وبالغ القتبى فى نصرة هـذا القول . وفى الخبر فى وصف يونس : إنه كان ضيق الصدر فلما حمل أعباء النبوّة تفسّخ تحتها تفسّخ الرُّبَع (١) تحت الحمل الثقيل ، فمضى على وجهه مضى الآبق النادّ. وهذه المغاضبة كانت صغيرة . ولم يغضب على الله ولكن غضب لله إذ رفع العذاب عنهم . وقال ابن مسعود : أبق من ربه أى من أمر ربه حتى أمره بالعود إليهم بعد رفع العـذاب عنهم . فإنه كان يتوعد قومه بنزول العذاب فى وقت معلوم ، وخرج من عندهم فى ذلك الوقت، فأظلهم العذاب فتضرعوا فرفع عنهم ولم يعلم يونس بتوبتهم؛ فلذلك ذهب مغاضبا وكان من حقه ألا يذهب إلا بإذن محدّد. وقال الحسن : أمره الله تعالى بالمسير إلى قومه فسأل أن ينظر ليتأهب ، فأعجله الله حتى سأل أن يأخذ نعلا ليلبسها فلم يُنظر، وقيل له : الأمر أعجل من ذلك — وكان فى خلقه ضيق — فخرج مغاضبا لربه؛ فهذا قول وقول

(١) الربع : ما ولد من الإبل فى الربيع .

النحاس أحسن ما قيل فى تأويله . أى خرج مغاضبا من أجل ربه ، أى غضب على قومه من أجل كفرهم بربه . وقيل : إنه غاضب قومه حين طال عليه أمرهم وتعنتهم فذهب فارا بنفسه ، ولم يصبر على أذاهم وقد كان الله أمره بملازمتهم والدعاء ، فكان ذنبه خروجه من بينهم من غير إذن من الله . روى معناه عن ابن عباس والضحاك ، وأن يونس كان شابا ولم يحمل أثقال النبوة ؛ ولهذا قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : « وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ » . وعن الضحاك أيضا خرج مغاضبا لقومه ؛ لأن قومه لما لم يقبلوا منه وهو رسول من الله عز وجل كفروا بهذا فوجب أن يغاضبهم ، وعلى كل أحد أن يغاضب من عصى الله عز وجل . وقالت فرقة منهم الأخفش : إنما خرج مغاضبا للملك الذى كان على قومه . قال ابن عباس : أراد شعيا النبى والملك الذى كان فى وقته اسمه حزقيا أن يبعثوا يونس إلى ملك نينوى ، وكان غزا بنى إسرائيل وسبى الكثير منهم ليكلمه حتى يرسل معه بنى إسرائيل ، وكان الأنبياء فى ذلك الزمان يوحى إليهم ، والأمر والسياسة إلى ملك قد اختاروه ، فيعمل على وحى ذلك النبى ؛ وكان أوحى الله لشعيا : أن قل لحزقيا الملك أن يختار نبيا قويا أمينا من بنى إسرائيل فيبعثه إلى أهل نينوى فيأمرهم بالتخلية عن بنى إسرائيل فإنى ملق فى قلوب ملوكهم وجبابرتهم التخلية عنهم . فقال يونس لشعيا : هل أمرك الله بإخراجى ؟ قال : لا . قال : فهل سمانى لك ؟ قال : لا . قال فهاهنا أنبياء أمناء أقوياء . فألحوا عليه فخرج مغاضبا للنبى والملك وقومه ، فأتى بحر الروم وكان من قصته ما كان ؛ فابتلى ببطن الحوت لتركه أمر شعيا ؛ ولهذا قال الله تعالى : « فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ » والمليم من فعل ما يلام عليه . وكان ما فعله إما صغيرة أو ترك الأولى . وقيل : خرج ولم يكن نبيا فى ذلك الوقت ولكن أمره ملك من ملوك بنى إسرائيل أن يأتى نينوى ؛ ليدعو اهلها بأمر شعيا فأنف أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحد غير الله ، فخرج مغاضبا للملك ؛ فلما نجا من بطن الحوت بعثه الله إلى قومه فدعاهم وآمنوا به . وقال القشيرى : والأظهر أن هذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه ، وبعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلهم ؛ فإنه كره رفع العذاب عنهم .

قلت : هذا أحسن ما قيل فيه على ما يأتى بيانه فى « والصافات »[1] إن شاء الله تعالى . وقيل : إنه كان من أخلاق قومه قتل من جربوا عليه الكذب فخشى أن يقتل فغضب ، وخرج فارًا على وجهه حتى ركب فى سفينة فسكنت ولم تجر . فقال أهلها : أفيكم آبق ؟ فقال : أنا هو . وكان من قصته ما كان ، وآبتلى ببطن الحوت تمحيصا من الصغيرة كما قال فى أهل أحد : « حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ » إلى قوله : « وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا » فمعاصى الأنبياء مغفورة ، ولكن قد يجرى تمحيص ويتضمن ذلك زجرا عن المعاودة . وقول رابع : إنه لم يغاضب ربه ، ولا قومه ، ولا الملك ، وأنه من قولهم غضب إذا أنف . وفاعل قد يكون من واحد ؛ فالمعنى أنه لما وعد قومه بالعذاب وخرج عنهم تابوا وكشف عنهم العذاب ، فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك فخرج آبقا . وينشد هذا البيت :

* وأغضب أن تُهجى تميم بدارم *

أى آنف . وهذا فيه نظر ؛ فإنه يقال لصاحب هذا القول : إن تلك المغاضبة وإن كانت من الأنفة ، فالأنفة لابد أن يخالطها الغضب وذلك الغضب وإن دق على من كان ؟! وأنت تقول لم يغضب على ربه ولا على قومه ! .

قوله تعالى : ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ قيل : معناه آستزله إبليس ووقع فى ظنه إمكان ألا يقدر الله عليه بمعاقبته . وهذا قول مردود مرغوب عنه ؛ لأنه كفر . روى عن سعيد بن جبير حكاه عنه المهدوى ، والثعلبى عن الحسن . وذكر الثعلبى وقال عطاء وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه : فظن أن لن نضيّق عليه . قال الحسن : هو من قوله تعالى : « اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » أى يضيق . وقوله : « وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ » .

قلت : وهذا الأشبه بقول سعيد والحسن . وقَدَر وقُدِر وقَتَر وقُتِر بمعنى ، أى ضُيّق وهو قول ابن عباس فيما ذكره الماوردى والمهدوى . وقيل : هو من القدر الذى هو القضاء والحكم ؛ أى فظن أن لن نقضى عليه بالعقوبة ؛ قاله قتادة ومجاهد والفراء . مأخوذ من القدر وهو الحكم

(١) فى تفسير قوله تعالى : « وإن يونس لمن المرسلين ... » الآيات ١٣٩ وما بعدها .

دون القدرة والاستطاعة . وروى عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، أنه قال في قول الله عز وجل : « فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ » هو من التقدير ليس من القدرة، يقال منه : قدّر الله لك الخير يقدره قدرا، بمعنى قدر الله لك الخير . وأنشد ثعلب :

فليست عشيات اللوى برواجع ٭ لنا أبدًا ما أورق السَّلَم النضرُ

ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى ٭ تباركت ما تقدِر يقعْ ولك الشكرُ

يعني ما تقدّره وتقضي به يقع . وعلى هذين التأويلين العلماء . وقرأ عمر بن عبد العزيز والزهري : « فَظَنَّ أَنْ لَنْ نُقَدِّرَ عَلَيْهِ » بضم النون وتشديد الدال من التقدير . وحكى هذه القراءة الماوردي عن ابن عباس . وقرأ عبيد بن عمير وقتادة والأعرج : «أَنْ لَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِ» بضم الياء مشددا على الفعل المجهول . وقرأ يعقوب وعبد الله بن أبي إسحق والحسن وابن عباس أيضا « يُقْدَرَ عَلَيْهِ » بياء مضمومة وفتح الدال مخففا على الفعل المجهول . وعن الحسن أيضا « فَظَنَّ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ » . الباقون « نَقْدِرَ » بفتح النون وكسر الدال وكله بمعنى التقدير .

قلت : وهذان التأويلان تأولها العلماء في قول الرجل الذي لم يعمل خيرا قط لأهله إذا مات فحرقوه "فوالله لئن قدر الله علي" الحديث فعلى التأويل الأول يكون تقديره : والله لئن ضيق الله علي وبالغ في محاسبتي وجزائي على ذنوبي ليكونن ذلك، ثم أمر أن يحرق بإفراط خوفه . وعلى التأويل الثاني : أي لئن كان سبق في قدر الله وقضائه أن يعذب كل ذي جرم على جرمه ليعذبني الله على إجرامي وذنوبي عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين غيري . وحديثه خرجه الأئمة في الموطأ وغيره . والرجل كان مؤمنا موحدا . وقد جاء في بعض طرقه "لم يعمل خيرا إلا التوحيد" وقد قال حين قال الله تعالى : لم فعلت هذا؟ قال : من خشيتك يا رب . والخشية لا تكون إلا لمؤمن مصدق؛ قال الله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » .

وقد قيل : إن معنى « فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ » الاستفهام وتقديره : أفظن؛ فحذف ألف الاستفهام إيجازا؛ وهو قول سليمان[1] [أبو] المعتمر . وحكى القاضي منذر بن سعيد : أن بعضهم قرأ « أفظن » بالألف .

(١) في الأصل « سليمان بن المعتمر » وهو تحريف والتصويب من « تهذيب التهذيب » .

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ » اختلف العلماء في جمع الظلمات ما المراد به ؛ فقالت فرقة منهم ابن عباس وقتادة : ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الحوت. وذكر ابن أبي الدنيا حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحق عن عمرو بن ميمون قال حدّثنا عبد الله بن مسعود في بيت المال قال : لما ابتلع الحوت يونس عليه السلام أهوى به إلى قرار الأرض، فسمع يونس تسبيح الحصى فنادى في الظلمات ظلمات ثلاث : ظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل، وظلمة البحر « أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » « فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ » كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس عليه ريش. وقالت فرقة منهم سالم بن أبي الجعد : ظلمة البحر، وظلمة حوت التقم الحوت الأول. ويصح أن يعبر بالظلمات عن جوف الحوت الأول فقط؛ كما قال : « فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ » وفي كل جهاته ظلمة فجمعها سائغ. وذكر الماوردي : أنه يحتمل أن يعبر بالظلمات عن ظلمة الخطيئة، وظلمة الشدّة، وظلمة الوحدة. وروى : أن الله تعالى أوحى إلى الحوت : « لا تؤذ منه شعرة فإني جعلت بطنك سجنه ولم أجعله طعامك » وروى : أن يونس عليه السلام سجد في جوف الحوت حين سمع تسبيح الحيتان في قعر البحر. وذكر ابن أبي الدنيا حدثنا العباس بن يزيد العبدي حدثنا إسحق (١) ابن إدريس حدثنا جعفر بن سليمان عن عوف عن سعيد بن أبي الحسن قال : لما التقم الحوت يونس عليه السلام ظن أنه قد مات فطول رجليه فإذا هو لم يمت فقام إلى عادته يصلي فقال في دعائه : « واتخذت لك مسجدا حيث لم يتخذه أحد ». وقال أبو المعالي : قوله صلى الله عليه وسلم "لا تفضلوني على يونس بن متى" المعنى فإني لم أكن وأنا في سدرة المنتهى بأقرب إلى الله منه، وهو في قعر البحر في بطن الحوت. وهذا يدل على أن الباري سبحانه وتعالى

(١) كذا في الأصل ؛ ولعله « عبد الله بن إدريس » فإن عبد الله المذكور حدث عنه العبدي كما في « تهذيب التهذيب ».

ليس فى جهة . وقد تقدّم هـذا المعنى فى « البقرة » و « الأعراف » . « أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » يريد فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبر عليهم . وقيل : فى الخروج من غير أن يؤذن له . ولم يكن ذلك من الله عقوبة ؛ لأن الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا، و إنما كان ذلك تمحيصا . وقد يؤدّب من لا يستحق العقاب كالصبيان ؛ ذكره المـاوردى . وقيل : من الظالمين فى دعائى على قومى بالعذاب . وقد دعا نوح على قومه فلم يؤاخذ . وقال الواسطى فى معنـاه : نزه ربه عن الظلم وأضاف الظلم إلى نفســه ٱعترافا وٱستحقاقا . ومثل هذا قول آدم وحواء : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » إذ كانا السبب فى وضعهما أنفسهما فى غير الموضع الذى أنزلا فيه .

الثانيـــة ــ روى أبو داود عن سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "دعاء ذى النون فى بطن الحوت « لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » لم يدع به رجل مسلم فى شىء قط إلا ٱستجيب له" وقد قيل : إنه اسم الله الأعظم . ورواه سعد عن النبى صلى الله عليه وسلم . وفى الخبر : فى هذه الآية شرط الله لمن دعاه أن يجيبه كما أجابه وينجيه كما أنجاه، وهو قوله : « وَكَذَٰلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ » وليس هاهنا صريح دعاء و إنمـا هو مضمون قوله : « إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » فاعترف بالظلم فكان تلويحا .

قوله تعـالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم . وذلك قوله : « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » وهذا حفظ من الله عز وجل لعبده يونس رعى له حق تعبده، وحفظ زمام ما سلف له من الطاعة . وقال الأستاذ أبو إسحق : صحب ذو النون الحوت أياما قلائل فإلى يوم القيامة يقال له ذو النون، فما ظنك بعبد عبده سبعين سنة يبطل هذا عنده! لا يظن به ذلك . « مِنَ الْغَمِّ » أى من بطن الحوت .

قوله تعـالى : « وَكَذَٰلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ » قراءة العامة بنونين من أنجى ينجى . وقرأ ابن عامر « نُجِّى » بنون واحدة وجيم مشددة وتسكين الياء على الفعل المـاضى وإضمار المصدر أى وكذلك نُجِّى النجاءُ المؤمنين، كما تقول : ضُرِب زيدا بمعنى ضُرِب الضربُ زيدا، وأنشد :

ولو وَلَدتْ قُفَيْرةُ جروَ كَلْبٍ * لَسُبَّ بذلك الجـرو الكلابا

أراد لَسُبّ السبُّ بذلك الجرو . وسكنت ياؤه على لغة من يقول بَقِي ورَضِي فلا يحرك الياء.
وقرأ الحسن « وَذَرُوا مَا بَقِي مِنَ الرِّبَا » استثقالا لتحريك ياء قبلها كسرة . وأنشد :

نَمَّــر الشَّيبُ لِمَّتِي تَنْمِــيرًا * وَحَدَا بِي إلى القُبور البعــيرَا

ليتَ شِعْرِي إذا القيامةُ قامتْ * ودُعِي بالحساب أين المصيرَا

سكن الياء في دعي استثقالا لتحريكها وقبلها كسرة وفاعل حدا المشيب؛ أي وحدا المشيبُ البعير؛ ليت شعري المَصير أين هو. هـذا تأويل الفراء وأبي عبيد وثعلب في تصويب هذه القراءة . وخطأها أبو حاتم والزجاج وقالوا : هو لحن؛ لأنه نصب اسم ما لم يسم فاعله؛ وإنما يقال: نُجِّي المؤمنون. كما يقال: كُرِّم الصالحون . ولا يجوز ضُرِب زيدا بمعنى ضُرِب الضَّربُ زيدا؛ لأنه لا فائدة [فيه](٢) إذ كان ضُرِب يدل على الضرب . ولا يجوز أن يحتج بمثل ذلك البيت على كتاب الله تعالى. ولأبي عبيد قول آخر — وقاله القتبي — وهو أنه أدغم النون في الجيم. النحاس : وهـذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين؛ لبعد مخرج النون من مخـرج الجيم فلا تدغم فيها؛ ولا يجوز في « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ » « مَجَّاءَ بِالْحَسَنَةِ » قال النحاس : ولم أسمع في هذا أحسن من شيء سمعته من علي بن سليمان . قال: الأصل نُنجي فحذف إحدى النونين؛ لاجتماعهما كما تحذف إحدى التاءين؛ لاجتماعهما نحو قوله عز وجل: « وَلَا تَفَرَّقُوا » والأصل تتفرقوا . وقرأ محمد بن السَّمَيْقع وأبو العالية « وَكَذَلِكَ نَجَّى الْمُؤْمِنِينَ » أي نجى الله المؤمنين؛ وهي حسـنة .

قوله تعـالى : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠ ﴾

(١) قفيرة (كجهينة) : أم الفرزدق . والبيت لجرير من قصيدة يهجو بها الفرزدق .
(٢) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

قوله تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ أى واذكر زكريا . وقد تقدم فى «آل عمران»(١) ذكره . ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ أى منفردا لا ولد لى وقد تقدم . ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ أى خير من يبقى بعد كل من يموت؛ وإنما قال «وأنت خير الوارثين» لما تقدم من قوله : « يَرِثُنِي » أى أعلم أنك لا تضيع دينك، ولكن لا تقطع هذه الفضيلة التى هى القيام بأمر الدين عن عقبى . كما تقدم فى « مريم » بيانه .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ أى أجبنا دعاءه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى ﴾ . تقدم ذكره مستوفى : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين : إنها كانت عاقرا فجعلت ولودا . وقال ابن عباس وعطاء : كانت سيئة الخلق، طويلة اللسان، فأصلحها الله فجعلها حسنة الخلق .

قلت : ويحتمل أن تكون جمعت المعنيين فجعلت حسنة الخلق ولودا . ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ يعنى الأنبياء المسمين فى هذه السورة ﴿ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ . وقيل : الكناية راجعة إلى زكريا وامرأته ويحيى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ أى يفزعون إلينا فيدعوننا فى حال الرخاء وحال الشدة . وقيل : المعنى يدعون وقت تعبدهم وهم بحال رغبة ورجاء ورهبة وخوف، لأن الرغبة والرهبة متلازمان . وقيل : الرَّغَب رفع بطون الأكف إلى السماء، والرَّهَب رفع ظهورها؛ قاله خصيف؛ وقال ابن عطية : وتلخيص هذا أن عادة كل داع من البشر أن يستعين بيديه فالرغب من حيث هو طلب يحسن منه أن يوجه باطن الراح نحو المطلوب منه، إذ هو موضع إعطاء أو بها يتملك، والرهب من حيث هو دفع مضرة يحسن معه طرح ذلك، والإشارة إلى ذهابه وتوقيه بنفض اليد ونحوه .

الثانيــة — روى الترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه فى الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه وقد مضى فى « الأعراف(٢)

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٢٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الاختلاف في رفع الأيدي ، وذكرنا هذا الحديث وغيره هناك . وعلى القول بالرفع فقد اختلف الناس في صفته وإلى أين؟ فكان بعضهم يختار أن يبسط كفيه رافعهما حذو صدره وبطونهما إلى وجهه ؛ روى عن ابن عمر وابن عباس . وكان عليّ يدعو بباطن كفيه ؛ وعن أنس مثله ، وهو ظاهر حديث الترمذي . وقوله صلى الله عليه وسلم : " إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها وامسحوا بها وجوهكم " . وروى عن ابن عمر وابن الزبير برفعهما إلى وجهه ، واحتجوا بحديث أبي سعيد الخدري ؛ قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة فجعل يدعو وجعل ظهر كفيه مما يلي وجهه ، ورفعهما فوق ثدييه وأسفل من منكبيه . وقيل : حتى يحاذي بهما وجهه وظهورهما مما يلي وجهه . قال أبو جعفر الطبري والصواب أن يقال : إن كل هذه الآثار المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم متفقة غير مختلفة المعاني ، وجائز أن يكون ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم لاختلاف أحوال الدعاء كما قال ابن عباس : إذا أشار أحدكم بإصبع واحد فهو الإخلاص ، وإذا رفع يديه حذو صدره فهو الدعاء ، وإذا رفعهما حتى يجاوز بهما رأسه وظاهرهما مما يلي وجهه فهو الابتهال . قال الطبري وقد روىْ قتادة عن أنس قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بظهر كفيه وباطنهما . و « رَغَبًا وَرَهَبًا » منصوبان على المصدر ؛ أي يرغبون رغبا ويرهبون رهبا . أو على المفعول من أجله ؛ أي للرغب والرهب . أو على الحال . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « وَيَدْعونَا » بنون واحدة . وقرأ الأعمش بضم الراء وإسكان الغين والهاء مثل السُّقْم والبُخْل ، والعُدْم والضُّر لغتان . وابن وثاب والأعمش أيضا « رَغْبًا وَرَهْبًا » بالفتح في الراء والتخفيف في الغين والهاء ، وهما لغتان مثل نَهْر ونَهَر وصَخْر وصَخَر . ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو . ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ أي متواضعين خاضعين .

قوله تعالى : وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أى واذكر مريم التى أحصنت فرجها . وإنما ذكرها وليست من الأنبياء ليتم ذكر عيسى عليه السلام ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ولم يقل آيتين لأن معنى الكلام : وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتهما آية للعالمين . وقال الزجاج : إن الآية فيهما واحدة ؛ لأنها ولدته من غير فحل ؛ وعلى مذهب سيبويه التقدير: وجعلناها آية للعالمين وجعلنا ابنها آية للعالمين ثم حذف . وعلى مذهب الفراء : وجعلناها آية للعالمين وابنها ؛ مثل قوله جل ثناؤه : «وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ» . وقيل : إن من آياتها أنها أول امرأة قبلت فى النذر فى المتعبد . ومنها أن الله عز وجل غذاها برزق من عنده لم يجره على يد عبد من عبيده . وقيل : إنها لم تلقم ثديا قط . «وَأَحْصَنَتْ» يعنى عفت فامتنعت من الفاحشة . وقيل : إن المراد بالفرج فرج القميص ؛ أى لم تعلق بثوبها ريبة ؛ أى إنها طاهرة الأثواب . وفروج القميص أربعة : الكمان والأعلى والأسفل . قال السهيلى : فلا يذهبن وهمك إلى غير هذا ؛ فإنه من لطيف الكناية لأن القرآن أنزه معنىً ، وأوزن لفظا ، وألطف إشارة ، وأحسن عبارة من أن يريد مايذهب إليه وهم الجاهل ، لا سيما والنفخ من روح القدس بأمر القدوس ، فأضف القدس إلى القدوس ، ونزه المقدسة المطهرة عن الظن الكاذب والحدس . ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾ يعنى أمرنا جبريل حتى نفخ فى درعها ، فأحدثنا بذلك النفخ المسيح فى بطنها . وقد مضى هذا فى « النساء »(١) و « مريم » فلا معنى للإعادة . ﴿ آيَةً ﴾ أى علامة وأعجوبة للخلق ، وعلما لنبوة عيسى ، ودلالة على نفوذ قدرتنا فيما نشاء .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ لما ذكر الأنبياء قال : هؤلاء كلهم مجتمعون على التوحيد ؛ فالأمة هنا بمعنى الدين الذى هو الإسلام ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . فأما المشركون فقد خالفوا الكل . ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ ﴾ أى إلهكم وحدى . ﴿ فَاعْبُدُونِ ﴾ أى أفردونى بالعبادة . وقرأ عيسى بن عمر وابن أبى إسحق « إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ واحدة » ورواها

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

حسين عن أبي عمرو . الباقون «أُمَّةً وَاحِدَةً» بالنصب على القطع بمجيء النكرة بعد تمام الكلام؛ قاله الفراء . الزجاج : انتصب « أُمَّةً » على الحال ؛ أي في حال اجتماعها على الحق ؛ أي هذه أمتكم ما دامت أمة واحدة واجتمعتم على التوحيد؛ فإذا تفرقتم وخالفتم فليس من خالف الحق من جملة أهل الدين الحق ؛ وهو كما تقول : فلان صديق عفيفا أي ما دام عفيفا فإذا خالف العفة لم يكن صديق . وأما الرفع فيجوز أن يكون على البدل من «أمتكم» أو على إضمار مبتدا ؛ أي إن هذه أمتكم ، هذه أمة واحدة . أو يكون خبرا بعد خبر . ولو نصبت « أمتكم » على البدل من « هذه » لجاز و يكون « أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ » خبر « إن » .

قوله تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ أي تفرقوا في الدين؛ قاله الكلبي . الأخفش : اختلفوا فيه . والمراد المشركون؛ ذمّهم لمخالفة الحق، واتخاذهم آلهة من دون الله . قال الأزهري : أي تفرقوا في أمرهم ؛ فنصب « أَمْرَهُمْ » بحذف « في » . فالمنقطع على هذا لازم وعلى الأول متعد . والمراد جميع الخلق ؛ أي جعلوا أمرهم في أديانهم قطعا وتقسموه بينهم ، فمن موحد ، ومن يهودي ، ومن نصراني ، ومن عابد ملك أو صنم . ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ أي إلى حكمنا فنجازيهم .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ « من » للتبعيض لا للجنس إذ لا قدرة للمكلف أن يأتي بجميع الطاعات فرضها ونفلها؛ فالمعنى : من يعمل شيئا من الطاعات فرضا أو نفلا وهو موحّد مسلم . وقال ابن عباس : مصدقا بمحمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ أي لا جحود لعمله ؛ أي لا يضيع جزاؤه ولا يغطى . والكفر ضدّه الإيمان . والكفر أيضا جحود النعمة، وهو ضدّ الشكر . وقد كفره كفورا وكفرانا . وفي حرف ابن مسعود « فَلَا كُفْرَ لِسَعْيِهِ » . ﴿ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ لعمله حافظون . نظيره « أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى » أي كل ذلك محفوظ ليجازي به .

قوله تعالى : وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ قراءة زيد بن ثابت وأهل المدينة « وَحَرَامٌ » وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وأهل الكوفة « وَحِرْمٌ » ورويت عن على وابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم . وهما لغتان مثل حِلّ وحَلَال . وقد روى عن ابن عباس وسعيد بن جبير « وَحَرِمَ » بفتح الحاء والميم وكسر الراء . وعن ابن عباس أيضا وعكرمة وأبى العالية « وَحَرُمَ » بضم الراء وفتح الحاء والميم . وعن ابن عباس أيضا « وَحَرَمَ » وعنه أيضا « وَحَرَّمَ » ، « وَحُرِّمَ » . وعن عكرمة أيضا « وَحَرِمٌ » . وعن قتادة ومطر الوراق « وَحَرْمٌ » تسع قراءات . وقرأ السلمى « عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْتُهَا » . واختلف فى « لا » فى قوله : « لَا يَرْجِعُونَ » فقيل : هى صلة ؛ روى ذلك عن ابن عباس ، واختاره أبو عبيد ؛ أى وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك . وقيل : ليست بصلة ، وإنما هى ثابتة ، ويكون الحرام بمعنى الواجب ؛ أى وجب على قرية ؛ كما قالت الخنساء :

وَإِنَّ حَرَامًا لَا أَرَى الدَّهْرَ بَاكِيًا * عَلَى شَجْوِهِ إِلَّا بَكَيْتُ عَلَى صَخْرِ

تريد أخاها ؛ فـ « لا » ثابتة على هذا القول . قال النحاس : والآية مشكلة ومن أحسن ما قيل فيها وأجله مارواه ابن عيينة وابن عُلَيّة وهشيم وابن إدريس ومحمد بن فضيل وسليمان بن حيان ومعلّى عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : « وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا » قال : وجب أنهم لا يرجعون ؛ قال : لا يتوبون . قال أبو جعفر : واشتقاق هذا بيّن فى اللغة ، وشرحه : أن معنى حُرِّم الشىء حُظِر ومُنِع منه ، كما أن معنى أُحل أبيح ولم يمنع منه ، فإذا كان « حَرَامٌ » و « حِرْمٌ » بمعنى واجب فمعناه أنه قد ضيق الخروج

منه ومنع فقد دخل فى باب المحظور بهذا؛ فأما قول أبى عبيد : إن « لا » زائدة فقد رده عليه جماعة؛ لأنها لا تزاد فى مثل هذا الموضع، ولا فيا يقع فيه إشكال، ولو كانت زائدة لكان التأويل بعيدا أيضا؛ لأنه إن أراد وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا إلى الدنيا فهذا ما لا فائدة فيه، وإن أراد التوبة فالتوبة لا تُحرّم . وقيل : فى الكلام إضمار أى وحرام على قرية حكمنا باستئصالها، أو بالختم على قلوبها أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون أى لا يتوبون؛ قاله الزجاج وأبو على؛ و «لا» غير زائدة . وهذا هو معنى قول ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ تقدّم القول فيهم . وفى الكلام حذف؛ أى حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج، مثل « وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ » . ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ قال ابن عباس : من كل شرف يُقبلون؛ أى لكثرتهم ينسلون من كل ناحية . والحدب ما ارتفع من الأرض، والجمع الحِداب، مأخوذ من حدبة الظهر؛ قال عَنْتَرة :

فما رعشت يداى ولا آزدهانى * تواتُرهم إلىّ من الحِداب

وقيل : «يَنسِلُونَ» يخرجون؛ ومنه قول آمرئ القيس :

* فَسُلِّى ثيابى من ثيابك تَنْسُلِ *[1]

وقيل : يسرعون؛ ومنه قول النابغة[2] :

عَسَلانَ الذئب أمسَى قارِبًا[3] * بَرَدَ الليلُ عليه فنَسَلْ

يقال: عَسَل الذئبُ يَعسِل عَسَلا وعَسَلانا إذا أعنق وأسرع . وفى الحديث : "كَذَبَ عليك العَسَلَ" أى عليك بسرعة المشى . وقال الزجاج : والنَّسَلان مشية الذئب إذا أسرع؛ يقال : نسل فلان فى العدو يَنْسُل بالكسر والضم نَسْلا ونُسولا ونَسَلانا؛ أى أسرع . ثم قيل فى الذين ينسلون من كل حدب : إنهم يأجوج ومأجوج، وهو الأظهر؛ وهو قول ابن مسعود وابن عباس . وقيل : جميع الخلق؛ فإنهم يحشرون الى أرض الموقف، وهم يسرعون من كل

(١) البيت من معلقته وصدره : * وإن تك قد ساءتك منى خليقة *

(٢) وقيل : هو لبيد، كما فى « اللسان » مادة « عسل » . (٣) القارب : السائر ليلا .

صوب . وقرئ فى الشواذ « وَهُمْ مِنْ كُلِّ جَدَثٍ يَنْسِلُونَ » أخذا من قوله : « فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » . وحكى هـذه القراءة المهدوى عن ابن مسعود والثعلبي عن مجاهد وأبى الصهباء .

قوله تعالى : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ يعنى القيامة . وقال الفراء والكسائى وغيرهما : الواو زائدة مقحمة ، والمعنى: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق «فاقْتَرَبَ» جواب « إذا » . وأنشد الفراء[1] :

* فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى *

أى انتحى ، والواو زائدة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ » أى للجبين ناديناه . وأجاز الكسائى أن يكون جواب « إذا » « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا » ويكون قوله : « وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ » معطوفا على الفعـل الذى هو شرط . وقال البصريون : الجـواب محذوف والتقـدير : قالوا يا ويلنا ؛ وهو قول الزجاج ، وهو قول حسن . قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » المعنى : قالوا ما نعبدهم ، وحذف القول كثير .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ ﴾ «هى» ضمير الأبصار ، والأبصار المذكورة بعـدها تفسير لها ، كأنه قال : فإذا أبصار الذين كفروا شخصت عند مجىء الوعد . وقال الشاعر :

لَعَمْرُ أبيها لا تقـول ظَعِينتى * ألَا فَرَّ عَنِّى مالكُ بن أبى كعب

فكنى عن الظعينة فى أبيها ثم أظهرها . وقال الفراء : « هى » عماد ، مثل « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ » . وقيل : إن الكلام تم عند قوله : «هى» التقدير : فإذا هى ، بمعنى القيامة بارزة واقعة ؛ أى من قربها كأنها آتية حاضرة ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ على تقديم الخبر على الابتداء ؛ أى أبصار الذين كفروا شاخصة من هذا اليوم ؛ أى من هوله لا تكاد تطرف ؛ يقولون : يا ويلنا إنا كنا ظالمين بمعصيتنا ، ووضعنا العبادة فى غير موضعها .

---

(١) البيت لامرئ القيس وهو من معلقته ، وتمامه :

* بنا بطن خبت ذى قفاف عقنقل *

قوله تعالى : إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ قال ابن عباس : آية لا يسألنى الناس عنها! لا أدرى أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوها فلا يسألون عنها؛ فقيل: وما هى؟ قال: « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ » لما أنزلت شقّ على كفار قريش، وقالوا : شتم آلهتنا، وأتوا ابن الزِّبعرى وأخبروه، فقال : لو حضرتُه لرددتُ عليه . قالوا : وما كنت تقول؟ قال : كنتَ أقول له : هذا المسيح تعبده النصارى واليهود تعبد عزيرا أفهما من حصب جهنم؟ فعجبت قريش من مقالته، ورأوا أن محمدا قد خُصِم؛ فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » وفيه نزل « وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا » يعنى ابن الزبعرى « إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ » بكسر الصاد؛ أى يضجون؛ وسيأتى(١) .

الثانيـــة — هذه الآية أصل فى القول بالعموم وأن له صيغا مخصوصة، خلافا لمن قال : ليست له صيغة موضوعة للدلالة عليه، وهو باطل بما دلت عليه هذه الآية وغيرها؛ فهذا عبدُ الله بن الزِّبعرى قد فهم « ما » فى جاهليته جميع من عبد، ووافقه على ذلك قريش وهم العرب الفصحاء، واللسن البلغاء، ولو لم تكن للعموم لما صح أن يستثنى منها، وقد وجد ذلك فهى للعموم وهذا واضح .

الثالثـــة — قراءة العامة بالصاد المهملة؛ أى إنكم يا معشر الكفار والأوثان التى تعبدونها من دون الله وقود جهنم؛ قاله ابن عباس . وقال مجاهد وعكرمة وقتادة : حطبها . وقرأ على ابنُ أبى طالب وعائشة رضوان الله عليهما «حَطَبُ جَهَنَّمَ» بالطاء . وقرأ ابن عباس «حَضَبُ» بالضاد المعجمة؛ قال الفراء : يريد الحصب . قال : وذكر لنا أن الحضب فى لغة أهل

---

(١) فى تفسير آية ٥٧ من سورة « الزخرف » .

ابمن الحطب ، وكل ما هيجت به النار وأوقدتها به فهو حَضَب ؛ ذكره الجوهرى . والموقد مِحْضب . وقال أبو عبيدة فى قوله تعالى : « حَصَبُ جَهَنَّمَ » كل ما ألقيته فى النار فقد حصبتها به . ويظهر من هذه الآية أن الناس من الكفار وما يعبدون من الأصنام حطب لجهنم . ونظير هذه الآية قوله تعالى : « فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ » . وقيل : إن المراد بالحجارة حجارة الكبريت ، على ما تقدم فى « البقرة »(١) وأن النار لا تكون على الأصنام عذابا ولا عقوبة ؛ لأنها لم تذنب ، ولكن تكون عذابا على من عبدها : أول شيء بالحسرة ، ثم تجمع على النار فتكون نارها أشد من كل نار ، ثم يعذبون بها . وقيل : تحمى فتلصق بهم زيادة فى تعذيبهم . وقيل : إنما جعلت فى النار تبكيتا لعبادتهم .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ أى فيها داخلون . والخطاب للمشركين عبدة الأصنام ؛ أى أنتم واردوها مع الأصنام . ويجوز أن يقال : الخطاب للأصنام وعبدتها ؛ لأن الأصنام وإن كانت جمادات فقد يخبر عنها بكنايات الآدميين . وقال العلماء : لا يدخل فى هذا عيسى ولا عزير ولا الملائكة صلوات الله عليهم ؛ لأن « ما » لغير الآدميين . فلو أراد ذلك لقال : « ومن » . قال الزجاج : ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم .

قوله تعالى : لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا ﴾ أى لو كانت الأصنام آلهة لما ورد عابدوها النار . وقيل : ما وردها العابدون والمعبودون ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ أى لهؤلاء الذين وردوا النار من الكفار والشياطين ؛ فأما الأصنام فعلى الخلاف فيها ؛ هل يحييها الله تعالى ويعذبها حتى يكون لها زفير أو لا ؟ قولان : والزفير صوت نفس المغموم يخرج من القلب . وقد تقدم فى « هود »(٢) . ﴿ وَهُمْ فِيهَا

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .
(٢) راجع جـ ٩ ص ٧٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

لَا يَسْمَعُونَ ﴾ قيل : فى الكلام حذف ، والمعنى وهم فيها لا يسمعون شيئا ، لأنهم يحشرون صما ، كما قال الله تعالى : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا » . وفى سماع الأشياء رَوْح وأنس ، فمنع الله الكفار ذلك فى النار . وقيل : لا يسمعون ما يسرهم ، بل يسمعون صوت من يتولى تعذيبهم من الزبانية . وقيل : إذا قيل لهم « ٱخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » يصيرون حينئذ صما بكما ؛ كما قال ابن مسعود : إذا بقى من يخلد فى النار فى جهنم جعلوا فى توابيت من نار ، ثم جعلت التوابيت فى توابيت أخرى فيها مسامير من نار ، فلا يسمعون شيئا ، ولا يرى أحد منهم أن فى النار من يعذب غيره .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى ﴾ أى الجنة ﴿ أُولَئِكَ عَنْهَا ﴾ أى عن النار ﴿ مُبْعَدُونَ ﴾ فمعنى الكلام الاستثناء ، ولهذا قال بعض أهل العلم : « إن » ها هنا بمعنى « إلا » وليس فى القرآن غيره . وقال محمد بن حاطب : سمعت على بن أبى طالب رضى الله عنه يقرأ هذه الآية على المنبر « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى » فقال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : " إن عثمان منهم " .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ أى حس النار وحركة لهبها . والحسيس والحس الحركة . وروى ابن جريج عن عطاء قال قال أبو راشد الحرورى لابن عباس : « لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا » فقال ابن عباس : أمجنون أنت ؟ فأين قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » وقوله تعالى : « فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ » وقوله : « إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا » . ولقد كان من دعاء من مضى : اللهم أخرجنى من النار سالما ، وأدخلنى الجنة فائزا . وقال أبو عثمان النهدى :

على الصراط حيات تلسع أهل النار فيقولون : حَسّ حَسّ . وقيل : إذا دخل أهل الجنة لم يسمعوا حسّ أهل النار وقبل ذلك يسمعون ؛ فالله أعلم . ﴿وَهُمْ فِيمَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ أى دائمون وهم فيما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين . وقال : « وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ » .

قوله تعالى : ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ وقرأ أبو جعفر وابن محيصن « لَا يُحْزِنُهُمْ » بضم الياء وكسر الزاى . الباقون بفتح الياء وضم الزاى . قال اليزيدى : حزنه لغة قريش ، وأحزنه لغة تميم ، وقد قرئ بهما . والفزع الأكبر أهوال يوم القيامة والبعث ؛ عن ابن عباس . وقال الحسن : هو وقت يؤمر بالعباد إلى النار . وقال ابن جريج وسعيد بن جبير والضحاك : هو إذا أطبقت النار على أهلها ، وذبح الموت بين الجنة والنار . وقال ذو النون المصرى : هو القطيعة والفراق . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : "ثلاثة يوم القيامة فى كثيب من المسك الأذفر ولا يحزنهم الفزع الأكبر رجل أمّ قوما محتسبا وهم له راضون ورجل أذّن لقوم محتسبا ورجل ابتلى برق فى الدنيا فلم يشغله عن طاعة ربه" . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : مررت برجل يضرب غلاما له ، فأشار إلى الغلام ، فكلمت مولاه حتى عفا عنه ؛ فلقيت أبا سعيد الخدرى فأخبرته ، فقال : يا بن أخى ! من أغاث مكروبا أعتقه الله من النار يوم الفزع الأكبر" سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ﴾ أى تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم : ﴿هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ . وقيل : تستقبلهم ملائكة الرحمة عند خروجهم من القبور . عن ابن عباس : « هَـٰذَا يَوْمُكُمْ » أى و يقولون لهم ؛ فحذف . « ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ » فيه الكرامة .

قوله تعالى : يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ (١٠٤)

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ قرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح والأعرج والزهرى « تُطْوَى » بتاء مضمومة « السَّمَاءُ » رفعا على ما لم يسم فاعله . مجاهد « يطوى »

على معنى يطوى الله السماء . الباقون « نَطْوِى » بنون العظمة . وانتصاب « يوم » على البدل من الهاء المحذوفة فى الصلة ؛ التقدير : الذى كنتم توعدونه يوم نطوى السماء . أو يكون منصوبا بـ « نعيد » من قوله : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » . أو بقوله : « لا يحزنهم » أى لا يحزنهم الفزع الأكبر فى اليوم الذى نطوى فيه السماء . أو على إضمار واذكر ، وأراد بالسماء الجنس ؛ دليله : « وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » . ﴿ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتَّابِ ﴾ (١) قال ابن عباس ومجاهد : أى كطى الصحيفة على ما فيها ؛ فاللام بمعنى « على » . وعن ابن عباس أيضا اسم كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بالقوى ؛ لأن كُتّاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفون ليس هذا منهم ، ولا فى أصحابه مَنْ اسمه السِّجل . وقال ابن عباس أيضا وابن عمر والسدى : « السِّجل » ملك ، وهو الذى يطوى كتب بنى آدم إذا رفعت إليه . ويقال : إنه فى السماء الثالثة ، ترفع إليه أعمال العباد ، يرفعها إليه الحفظة الموكلون بالخلق فى كل خميس واثنين ، وكان من أعوانه فيما ذكروا هاروت وماروت . والسجل الصك ، وهو اسم مشتق من السِّجالة وهى الكتابة ؛ وأصلها من السَّجْل وهو الدلو ؛ تقول : ساجلت الرجل إذا نزعت دلوا ونزع دلوا ، ثم استعيرت فسميت المكاتبة والمراجعة مساجلة . وقد سَجَّل الحاكم تسجيلا . وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب :

مَنْ يُسَاجِلْنِى يُساجِلْ ماجدًا * يَملأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَبْ (٢)

ثم بنى هذا الاسم على فِعِلّ مثل حِبِرّ وطِمِرّ وبِلِىّ . وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير « كَطَىِّ السُّجُلِّ » بضم السين والجيم وتشديد اللام . وقرأ الأعمش وطلحة « كَطَىِّ السَّجْلِ » بفتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام . قال النحاس : والمعنى واحد إن شاء الله تعالى . والتمام عند قوله : « لِلْكِتَابِ » . والطى فى هذه الآية يحتمل معنيين : أحدهما — الدَّرْج الذى هو ضد النشر ؛ قال الله تعالى : « وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » . والثانى — الإخفاء والتعمية والمحو ؛ لأن الله تعالى يمحو ويطمس رسومها ويكدر نجومها .

---

(١) « الكتاب » بالإفراد قراءة نافع . (٢) الكرب : حبل يشد على عراقى الدلو ثم يثنى ثم يثلث ليكون هو الذى يلى الماء فلا يعفن الحبل الكبير .

قال الله تعالى : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ » « وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ » . « لِلْكِتَابِ » وتم الكلام . وقراءة الأعمش وحفص وحمزة والكسائى ويحيى وخلف : « لِلْكُتُبِ » جمعا ثم آستأنف الكلام فقال : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ أى نحشرهم حفاة عراة غرلا كما بُدئوا فى البطون . وروى النسائى عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يحشر الناس يوم القيامة عُراة غُرْلا أول الخلق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ــ ثم قرأ ــ « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » " أخرجه مسلم ايضا عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه بموعظة فقال : " يأيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حُفاة عُراة غُرْلا « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » ألا و إن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام " وذكر الحديث . وقد ذكرنا هذا الباب فى كتاب « التذكرة » مستوفى . وذكر سفيان الثورى عن سلمة بن كهيل عن أبى الزعراء عن عبد الله بن مسعود قال : يرسل الله عز وجل ماء من تحت العرش كمَنِىّ الرجال فتنبت منه لُحمانهم وجسمانهم كما تنبت الأَرْضُ بالثرى . وقرأ « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » . وقال ابن عباس : المعنى نهلك كل شىء ونفنيه كما كان أول مرة(١)؛ وعلى هذا فالكلام متصل بقوله : « يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ » أى نطويها فنعيدها إلى الهلاك والفناء فلا تكون شيئا . وقيل : نفنى السماء ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها و زوالها ؛ كقوله : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » والقول الأول أصح وهو نظير قوله : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » وقوله عز وجل : « وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » . ﴿ وَعْدًا ﴾ نصب على المصدر؛ أى وعدنا وعدا ﴿ عَلَيْنَا ﴾ إنجازه والوفاء به أى من البعث والإعادة؛ ففى الكلام حذف . ثم أكد ذلك بقوله جل ثناؤه : ﴿ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ قال الزجاج : معنى « إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » إنا كنا قادرين على ما نشاء . وقيل : « إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » أى ما وعدنا كم وهو كما قال : « كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا » . وقيل : « كان » للإخبار بما سبق من قضائه . وقيل : صلة .

(١) هذا القول يحتاج إلى تدبر كما قال الألوسى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ ﴾ الزبور والكتاب واحد ؛ ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل زبور . زَبرت أى كتبت وجمعه زُبُر . وقال سعيد بن جبير : « الزّبور » التوراة والإنجيل والقرآن . ﴿ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ الذى فى السماء ﴿ أَنَّ الْأَرْضَ ﴾ أرض الجنة ﴿ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ رواه سفيان عن الأعمش عن سعيد بن جبير . الشعبي : «الزّبور» زبور داود ، و « الذكر » توراة موسى عليه السلام . مجاهد وابن زيد : « الزّبور » كتب الأنبياء عليهم السلام ، و « الذّكر » أم الكتاب الذى عند الله فى السماء . وقال ابن عباس : « الزّبور » الكتب التى أنزلها الله من بعد موسى على أنبيائه ، و « الذكر » التوراة المنزلة على موسى . وقرأ حمزة «فِي الزُّبُورِ» بضم الزاى جمع زِبْر . « أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أحسن ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير ؛ لأن الأرض فى الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم . وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقال مجاهد وأبو العالية : ودليل هذا التأويل قوله تعالى : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ » وعن ابن عباس : أنها الأرض المقدسة . وعنه أيضا : أنها أرض الأمم الكافرة ترثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالفتوح . وقيل : إن المراد بذلك بنو إسرائيل ؛ بدليل قوله تعالى : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » وأكثر المفسرين على أن المراد بالعباد الصالحين أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقرأ حمزة «عِبَادِي الصَّالِحُونَ» بتسكين الياء . ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا ﴾ أى فيما جرى ذكره فى هذه السورة من الوعظ والتنبيه . وقيل : إن فى القرآن ﴿ لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ قال أبو هريرة وسفيان الثورى : هم أهل الصلوات الخمس . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : «عابدين» مطيعين . والعابد المتذلل الخاضع . قال القشيرى : ولا يبعد أن يدخل فيه كل عاقل ؛ لأنه من حيث الفطرة متذلل للخالق ، وهو بحيث لو تأمل القرآن واستعمله لأوصله ذلك إلى الجنة . وقال ابن عباس أيضا : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يصلون الصلوات الخمس ويصومون شهر رمضان . وهذا هو القول الأول بعينه .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان محمد صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع الناس فمن آمن به وصدّق به سعد ، ومن لم يؤمن به سلم مما لحق الأمم من الخسف والغرق . وقال ابن زيد : أراد بالعالمين المؤمنين خاصة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ فلا يجوز الإشراك به . ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أى منقادون لتوحيد الله تعالى ؛ أى فأسلموا ؛ كقوله تعالى : « فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ » أى انتهوا .

قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أى إن أعرضوا عن الإسلام ﴿ فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ أى أعلمتكم على بيان أنا وإياكم حرب لا صلح بيننا ؛ كقوله تعالى : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ » أى أعلمهم أنك نقضت العهد نقضا ، أى استويت أنت وهم فليس لفريق عهد ملتزم فى حق الفريق الآخر . وقال الزجاج : المعنى أعلمتكم بما يوحى إلىّ على استواء فى العلم به ، ولم أظهر لأحد شيئا كتمته عن غيره . ﴿ وَإِنْ أَدْرِي ﴾ « إن » نافية بمعنى « ما » أى وما أدرى . ﴿ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ يعنى أجل يوم القيامة لا يدريه أحد لا نبى مرسل ولا ملك مقرّب ؛ قاله ابن عباس . وقيل : آذنتكم بالحرب ولكنى لا أدرى متى يؤذن لى فى محاربتكم .

قوله تعالى : إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ أى من الشرك وهو المجازى عليه . ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ ﴾ أى لعل الإمهال ﴿ فِتْنَةٌ لَّكُمْ ﴾ أى اختبار ليرى كيف صنيعكم

وهو أعلم . ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ قيل : إلى انقضاء المدّة . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى بني أمية في منامه يلون الناس، فخرج الحَكَمُ من عنده فأخبر بني أمية بذلك؛ فقالوا له : ارجع فسله متى يكون ذلك . فأنزل الله تعالى « وَإِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ » « وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » يقول لنبيه عليه السلام قل لهم ذلك .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ(١) رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ ختم السورة بأن أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بتفويض الأمر إليه وتوقع الفرج من عنده ، أي احكم بيني وبين هؤلاء المكذّبين وانصرني عليهم . روى سعيد عن قتادة قال : كانت الأنبياء تقول : « رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ » فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقول : « رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ » فكان إذا لقي العدو يقول وهو يعلم أنه على الحق وعدوه على الباطل « رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ » أي اقض به . وقال أبو عبيدة : الصفة هاهنا أقيمت مقام الموصوف والتقدير : رب احكم بحكمك الحق . و«رب» في موضع نصب؛ لأنه نداء مضاف . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وابن محيصن «قُلْ رَبُّ احْكُمْ بِالْحَقِّ» بضم الباء . قال النحاس : وهذا لحن عند النحويين؛ لا يجوز عندهم رجلُ أقبلْ؛ حتى تقول يارجلُ أقبلْ أو ما أشبهه . وقرأ الضحاك وطلحة ويعقوب «قَالَ رَبِّي أَحْكَمُ بِالْحَقِّ» بقطع الألف مفتوحة الكاف والميم مضمومة . أي قال محمد ربي أحكمُ بالحق من كل حاكم . وقرأ الجحدري « قُلْ رَبِّي أَحْكَمَ » على معنى أحكم الأمور بالحق . ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ أي تصفونه من الكفر والتكذيب . وقرأ المفضل والسلمي «عَلَى مَا يَصِفُونَ» بالياء على الخبر . الباقون بالتاء على الخطاب .

---

(١) « قل » على صفة الأمر قراءة نافع .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحج

وهى مكية، سوى ثلاث آيات : قوله تعالى « هذانِ خَصْمانِ »(١) إلى تمام ثلاث آيات؛ قاله ابن عباس ومجاهد . وعن ابن عباس أيضا أنهن أربع آيات، إلى قوله «عذابَ الحريق». وقال الضحاك وابن عباس أيضا : هى مدنية — وقاله قتادة — إلا أربع آيات : «وَمَا أَرْسَلْنَا(٢) مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ — الى — عذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ » فهن مكيات . وعدّ النقاش ما نزل بالمدينة عشرَ آيات . وقال الجمهور : السورة مختلطة، منها مكىّ ومنها مدنىّ . وهذا هو الأصح ؛ لأن الآيات تقتضى ذلك، لأن « يأيها النـاس» مكىّ، و « يأيها الذين آمنوا » مدنىّ . الغَزْنَوىّ : وهى من أعاجيب السُّوَر، نزلت ليلا ونهارا، سَفَرا وحَضَرا، مكيًّا ومدنيًّا، سِلْميًّا وحَرْبيًّا، ناسخا ومنسوخا، مُحْكَمًا ومتشابها، مختلف العدد .

قلت : وجاء فى فضلها ما رواه الترمذىّ وأبو داود والدّارَقُطْنِىّ عن عقبة بن عامر قال قلت : يا رسول الله، فُضِّلت سورة الحج بأن فيها سجدتين؟ قال : "نعم، ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما" . لفظ الترمذىّ . وقال : هذا حديث حسن ليس إسناده بالقوىّ .

واختلف أهل العلم فى هذا؛ فروى عن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — وابن عمر أنهما قالا : فُضِّلت سورة الحج بأن فيها سجدتين . وبه يقول ابن المبارك والشافعىّ وأحمد وإسحاق . ورأى بعضهم أن فيها سجدة واحدة ؛ وهو قول سفيان الثَّوْرِىّ . روى الدّارَقُطْنِىّ عن عبد الله بن ثعلبة قال : رأيت عمر بن الخطاب سجد فى الحج سجدتين؛ قلت فى الصبح ؟ قال فى الصبح .

---

(١) آية ١٩ وما بعدها . (٢) آية ٥٢ وما بعدها .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ ﴾

روى الترمذيّ عن عِمْران بن حُصين أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما نزلت «يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم — إلى قوله — ولكنّ عذاب الله شديد». قال: أنزلت عليه هذه الآية وهو في سفر فقال : "أتدرون أيّ يوم ذلك"؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم؛ قال: "ذاك يوم يقول الله لآدم ابعث بَعْثَ النار قال يا ربّ وما بعثُ النار قال تسعمائةٍ وتسعةٌ وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة". فأنشأ المسلمون يبكون؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قارِبُوا وسَدِّدوا فإنه لم تكن نُبُوَّةٌ قطُّ إلا كان بين يديها جاهلية — قال — فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن تمّت وإلا كَمَلت من المنافقين وما مَثَلُكم والأُمَمَ إلا كمَثَل الرَّقْمة(١) في ذراع الدابة أو كالشّامَة(٢) في جنب البعير — ثم قال — إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة — فكبّروا؛ ثم قال — إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة — فكبّروا؛ ثم قال — إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة" فكبروا . قال : لا أدري قال الثلثين أم لا . قال : هذا حديث حسن صحيح، قد روى من غير وجه عن الحسن عن عِمران بن حُصين . وفيه : فيئس القوم حتى ما أبْدَوْا بضاحكة، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اعملوا وأبشروا فوالذى نفسي بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء إلا كثّرتاه يأجوج ومأجوج ومن مات من بني آدم وبني إبليس" قال : فسُرِّيَ عن القوم بعضُ الذى يجدون؛ فقال : "اعملوا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشّامة في جنب البعير أو كالرَّقْمة في ذراع الدابة" قال : هذا حديث حسن صحيح . وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخُدْريّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يقول الله تعالى يا آدم فيقول لَبَّيْكَ وسَعْدَيْك والخيرُ في يديك — قال — يقول أخرِج بَعْثَ النار قال وما بعث النار قال من كل ألف تسعمائةٍ وتسعةٌ وتسعين(٣) قال فذاك

(١) الرقمة : الهنة الناتئة في ذراع الدابة . (٢) الشامة : علامة تخالف البدن الذى هي فيه .

(٣) في بعض النسخ : « تسعمائة وتسعة وتسعون » فالنصب على المفعولية ، والرفع على الخبرية .

حين يَشيبُ الصغير وتَضع كلُّ ذات حمل حملها وترى الناس سُكارَى وما هم بسكارَى ولكن عذاب الله شديد". قال: فاشتدّ ذلك عليهم؛ قالوا: يا رسول الله، أيُّنا ذلك الرجل؟ فقال: "أبشروا فإن من يأجوجَ ومأجوجَ ألفًا ومنكم رجل". وذكر الحديث بنحو ما تقدّم في حديث عمران بن حُصين. وذكر أبو جعفر النحاس قال: حدّثنا أحمد بن محمد بن نافع قال حدّثنا سلمة قال حدّثنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال « يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم — إلى — ولكن عذابَ الله شديد » قال: نزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو في مَسير له، فرفع بها صوته حتى ثاب إليه أصحابه فقال: "أتدرون أيَّ يوم هذا هذا يوم يقول الله عز وجل لآدم صلى الله عليه وسلم يا آدم قم فابعث بَعْثَ أهل النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة". فكَبُر ذلك على المسلمين؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "سَدِّدُوا وقارِبوا وأبشروا فوالذي نفسي بيده ما أنتم في الناس إلا كالشّامَة في جنب البعير أو كالرَّقْمة في ذراع الحمار وإن معكم خليقتين ما كانتا مع شيء إلا كثّرتاه يأجوج ومأجوج ومن هلك من كفرة الجن والإنس".

قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ المراد بهذا النداء المكلّفون؛ أي اخشوه في أوامره أن تتركوها، ونواهيه أن تُقدموا عليها. والاتقاء: الاحتراس من المكروه؛ وقد تقدّم في أوّل « البقرة »(١) القولُ فيه مستوفًى، فلا معنى لإعادته. والمعنى: احترسوا بطاعته عن عقوبته.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ الزلزلة شدّة الحركة؛ ومنه « وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ »(٢). وأصل الكلمة من زَلّ عن الموضع؛ أي زال عنه وتحرّك. وزلزل الله قدمَه؛ أي حرّكها. وهذه اللفظة تستعمل في تهويل الشيء. وقيل: هي الزلزلة المعروفة التي هي إحدى شرائط الساعة، التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة؛ هذا قول الجمهور. وقد قيل: إن هذه الزلزلة تكون في النصف من شهر رمضان، ومن بعدها طلوع الشمس من مغربها؛ فالله أعلم.

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٦١ طبعة ثانية أو ثالثة. (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٣ طبعة أولى أو ثانية

قوله تعالى : يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ الهاء في « تَرَوْنَهَا » عائدة عند الجمهور على الزلزلة ؛ ويقوّى هذا قولُه عز وجل « تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا » . والرضاع والحمل إنما هو في الدنيا . وقالت فرقة : الزلزلة في يوم القيامة ، واحتجوا بحديث عِمران بن حُصين الذي ذكرناه ، وفيه : " أتدرون أيّ يوم ذلك ... " الحديث . وهو الذي يقتضيه سياق مُسْلم في حديث أبي سعيد الخُدْرِيّ .

قوله : ﴿ تَذْهَلُ ﴾ أي تشتغل ؛ قاله قُطْرُب . وأنشد :

ضَرْبًا[1] يُزِيل الهام عن مَقِيلِهِ ۞ ويُذهِل الخليلَ عن خليلِهِ

وقيل تنسى . وقيل تلهو . وقيل تسلو ؛ والمعنى متقارب . ﴿ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ قال المبرّد : « ما » بمعنى المصدر ؛ أي تذهل عن الإرضاع . قال : وهذا يدل على أن هذه الزلزلة في الدنيا ؛ إذ ليس بعد البعث حَمْل وإرضاع . إلا أن يقال : من ماتت حاملا تُبعث حاملا فتضع حملها للهَوْل . ومن ماتت مُرضِعة بُعثت كذلك . ويقال : هذا كما قال الله عز وجل : « يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا »[2] . وقيل : تكون مع النفخة الأولى . وقيل : تكون مع قيام الساعة ، حتى يتحرك الناس من قبورهم في النفخة الثانية . ويحتمل أن تكون الزلزلة في الآية عبارةً عن أهوال يوم القيامة ، كما قال تعالى : « مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا »[3] . وكما قال عليه السلام : " اللهم اهزمهم وزلزلهم " . وفائدة ذكر هَوْل ذلك اليوم التحريضُ على التأهب له والاستعداد بالعمل الصالح . وتسمية الزلزلة بـ « شيء » إما لأنها

(١) في الأصول : « بضرب » والتصويب عن سيرة ابن هشام . وقبله :

نحن قتلناكم على تأويله ۞ كما قتلناكم على تنزيله

والرجز لعبد الله بن رواحة ، ارتجزه وهو يقود ناقة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة في عمرة القضاء . (راجع سيرة ابن هشام) . (٢) آية ١٧ سورة المزمل . (٣) آية ٢١٤ سورة البقرة .

حاصلة متيقّن وقوعها ، فيستسهل لذلك أن تسمّى شيئا وهي معدومة ؛ إذ اليقين يشبه الموجودات . وإما على المآل ؛ أي هي إذا وقعت شيء عظيم . وكأنه لم يطلق الاسم الآن ، بل المعنى أنها إذا كانت فهي إذًا شيء عظيم ؛ ولذلك تذهل المراضع وتسكر الناس ؛ كما قال : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ﴾ أي من هولها ومما يدركهم من الخوف والفزع . ﴿ وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ﴾ من الخمر . وقال أهل المعاني : وترى الناس كأنهم سكارى . يدلّ عليه قراءة أبي زُرْعة هَرِم بن عمرو بن جرير بن عبد الله « وتُرَى النَّاسَ » بضم التاء ؛ أي تظن ويخيّل إليك . وقرأ حمزة والكسائي « سَكْرَى » بغير ألف . الباقون « سُكَارَى » وهما لغتان لجمع سكران ؛ مثل كَسْلَى وكُسَالَى . والزلزلة : التحريك العنيف . والذهول : الغفلة عن الشيء بطروء[1] ما يشغَل عنه من همّ أو وجع أو غيره . قال ابن زيد : المعنى تترك ولدها للكرب الذي نزل بها .

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ قيل : المراد النضر بن الحارث، قال : إن الله عز وجل غيرُ قادر على إحياء من قد بَلِيَ وعاد ترابا . ﴿ وَيَتَّبِعُ ﴾ أي في قوله ذلك . ﴿ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴾ متمرد . ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ ﴾ قال قتادة ومجاهد : أي من تولّى الشيطان . ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى

(١) في الأصول : « بطريان » .

ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ — إلى قوله — مُسَمًّى ﴾ فيه اثنتا عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ ﴾ هذا احتجاج على العالم بالبداءة الأولى . وقوله : « إن كنتم في ريب » متضمنه التوقيف . وقرأ الحسن بن أبي الحسن « البَعَث » بفتح العين ؛ وهي لغة في « البَعْث » عند البصريين . وهي عند الكوفيين بتخفيف « بَعَث » . والمعنى : يأيها الناس إن كنتم في شك من الإعادة . ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم ﴾ أي خلقنا أباكم الذي هو أصل البشر ، يعني آدم عليه السلام ﴿ مِّن تُرَابٍ ﴾ . ﴿ ثُمَّ ﴾ خلقنا ذريته ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ وهو المنيّ ؛ سُمّي نطفة لقلّته ، وهو القليل من الماء ، وقد يقع على الكثير منه ؛ ومنه الحديث " حتى يسير الراكب بين النُّطفتين لا يخشى جَوْرا " . أراد بحر المشرق وبحر المغرب . والنَّطْف : القطر . نَطَف يَنْطِف ويَنْطُف . وليلة نَطوفة دائمة القطر . ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ وهو الدّم الجامد . والعَلَق الدم العَبِيط ؛ أي الطَّرِيّ . وقيل : الشديد الحمرة . ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ وهي لحمة قليلة قدرُ ما يمضغ ؛ ومنه الحديث " ألا وإنّ في الجسد مُضْغة " . وهذه الأطوار أربعة أشهر . قال ابن عباس : وفي العشر بعد الأشهر الأربعة يُنفخ فيه الروح ؛ فذلك عدّة المتوفَّى عنها زوجها ، أربعة أشهر وعشر .

الثانية — روى يحيى بن زكرياء بن أبي زائدة حدّثنا داود عن عامر عن علقمة عن ابن مسعود وعن ابن عمر أن النطفة إذا استقرت في الرّحم أخذها مَلَك بكفّه فقال : « يا ربّ ذكر أم أنثى ، شقيّ أم سعيد ، ما الأجل والأثر[1] ، بأيّ أرض تموت ؟ فيقال له انطلق إلى أمّ

(1) الأثر : الأجل ؛ وسمي به لأنه يتبع العمر .

الكتاب فإنك تجد فيها قصة هـذه النطفة ، فينطلق فيجد قصتهـا فى أم الكتاب ، فتخلق فتأكل رزقها وتطأ أثرها فإذا جاء أجلها قُبضت فدفنت فى المكان الذى قُدّر لهـا ؛ ثم قرأ عامر « يَا أَيُّهَـا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ » . وفى الصحيح عن أنس بن مالك ــ ورفع الحديث ــ قال : " إن الله قد وكّل بالرحم مَلَكا فيقول أى ربِّ نطفةٌ . أى ربّ عَلقة . أى ربّ مُضْـغَة . فإذا أراد الله أن يقضى خلقا قال قال الملك أى ربّ ذكر أو أنثى شقىّ أو سعيد . فما الرزق فما الأجل . فيكتب كذلك فى بطن أمه " . وفى الصحيح أيضا عن حُذيفـة بن أسِـيد الغِفارىّ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : " إذا مرّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليـلة بعث الله إليها ملَكا فصوّرها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمهـا وعظامها ثم يقول أى ربّ أذكر أم أنثى ... " وذكر الحديث . وفى الصحيح عن عبدالله بن مسعود قال : حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسـلم وهو الصادق المصـدوق " إنّ أحدكم يُجمـع خلقه فى بطن أمّه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك عَلَقة مثلَ ذلك ثم يكون مُضْغة مثلَ ذلك ثم يُرسَل المَلَك فينفخ فيه الروحَ ويُؤمر بأربع كلمات بكَتْب رزقه وأجله وعمله وشقِىٌّ أو سعيد ... " الحديث . فهذا الحديث مفسِّر للأحاديث الأول ؛ فإنّ فيـه : " يُجمع خلق أحدكم فى بطن أمّه أربعين يوما نطفة ثم أربعين يوما علقة ثم أربعين يوما مضغة ثم يُبعث الملكُ فينفخ فيه الروح " فهـذه أربعة أشهر وفى العشر ينفخ الملك الروح ، وهذه عدّة المتوفَّى [عنهـا زوجها] كما قال ابن عباس . وقوله " إن أحدَكم يُجمع خلقه فى بطن أمّه " قد فسّره ابن مسعود ، سئل الأعمش : ما يجمع فى بطن أمّه ؟ فقال : حدّثنـا خَيْثمة قال قال عبد الله : إذا وقعت النطفة فى الرحم فأراد الله أن يخلق منهـا بشرا طارت فى بشرة المرأة تحت كل ظفر وشـعر ثم تمكث أربعين يوما ثم تصير دما فى الرّحم ؛ فذلك جمعها ، وهذا وقت كونها علقة .

الثالثـة ــ نسبة الخلق والتصوير للمَلَك نسبة مجازية لا حقيقية ، وأن ما صـدر عنه فعلٌ ما فى المضغة كان عنـد التصوير والتشكيل بقدرة الله وبخلقه واختراعه ؛ ألا تراه سبحانه

قد أضاف إليه الخلقة الحقيقية ، وقطع عنها نسب جميع الخليقة فقال : « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ »[1] . وقال : « ولقد خلقنا الإنسانَ من سُلَالةٍ من طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فى قَرَارٍ مَكِينٍ»[2] . وقال : « يأيها النـاس إن كنتم فى رَيْبٍ من البَعْث فإنا خلقناكم من تُرَاب ثم من نطفة » . وقال تعالى : «هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن»[3] . ثم قال : «وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ»[4] . وقال : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تَقْوِيم »[5] . وقال : « خَلَقَ الإنسانَ من عَلَقٍ »[6] . إلى غير ذلك من الآيات ، مع ما دلّت عليه قاطعات البراهين أن لا خالق لشىء من المخلوقات إلا ربّ العالمين . وهكذا القول فى قوله : " ثم يُرسَـل الملك فينفخ فيـه الروح " أى أنّ النفخ سببٌ خلق الله فيها الروح والحياة . وكذلك القول فى سائر الأسباب المعتادة ؛ فإنه بإحداث الله تعالى لا بغيره . فتأمل هـذا الأصل وتمسك به ، ففيه النجاة من مذاهب أهل الضلال الطبعيين[7] وغيرهم .

الرابعـــة ــ لم يختلف العلماء أن نفخ الروح فيه يكون بعد مائة وعشرين يوما ، وذلك تمـام أربعة أشهر ودخوله فى الخامس ؛ كما بيناه بالأحاديث . وعليه يعوّل فيما يحتاج إليه من الأحكام فى الاستلحاق عند التنازع ، وفى وجوب النفقات على حمل المطلقات ؛ وذلك لتيقّنه بحركة الجنين فى الجوف . وقد قيل : إنه الحكمة فى عِدّة المرأة من الوفاة بأربعة أشهر وعشر ، وهذا الدخول فى الخامس يحقق براءة الرّحم ببلوغ هذه المدّة إذا لم يظهر حمل .

الخامســة ــ النطفة ليست بشىء يقينا ، ولا يتعلّق بها حكم إذا ألقتها المرأة إذا لم تجتمع فى الرحم ، فهى كما لو كانت فى صلب الرجل ؛ فإذا طرحتـه علقة فقـد تحققنا أن النطفة قد استقرت واجتمعت واستحالت إلى أوّل أحوال ما يُتحقق به أنه ولد . وعلى هذا فيكون وضع العلقة فما فوقها من المضغة وضع حمـل ، تبرأ به الرّحم ، وتنقضى به العدّة ، ويثبت به لها حكم أم الولد . وهذا مذهب مالك رضى الله عنه وأصحابه . وقال الشافعىّ رضي الله عنه :

(١) آية ١١ سورة الأعراف . (٢) آية ١٢ سورة المؤمنون . (٣) آية ٢ سورة التغابن .
(٤) آية ٦٤ سورة غافر . (٥) آية ٤ سورة التين . (٦) آية ٢ سورة العلق .
(٧) فى الأصل : « الطبائع » .

لا اعتبار بإسقاط العَلَقة ، و إنما الاعتبار بظهور الصورة والتخطيط ؛ فإن خَفِيَ التخطيط وكان لها فقولان بالنقل والتخريج ، والمنصوص أنه تنقضى به العدّة ولا تكون أمّ ولد . قالوا : لأن العدّة تنقضى بالدّم الجارى ، فبغيره أولى .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ قال الفرّاء : «مخلقة» تامّة الخَلْق ، «وغيرِ مخلقة» السّقط . وقال ابن الأعرابيّ : «مخلّقة» قد بدأ خلقها ، «وغير مخلقة» لم تصوّر بعد . ابن زيد : المخلقة التى خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين ، وغير مخلقة التى لم يخلق فيها شىء . قال ابن العربى : إذا رجعنا إلى أصل الاشتقاق فإن النطفة والعلقة والمضغة مخلّقة ؛ لأن الكلّ خلقُ الله تعالى ، وإن رجعنا إلى التصوير الذى هو منتهى الخلقة كما قال الله تعالى : «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ» فذلك ما قال ابن زيد .

قلت : التخليق من الخلق ، وفيه معنى الكثرة ، فما تتابع عليه الأطوار فقد خُلق خلقا بعد خلق ، وإذا كان نطفة فهو مخلوق ؛ ولهذا قال الله تعالى : «ثم أنشأناه خلقا آخر» والله أعلم . وقد قيل : إن قوله «مخلّقة وغيرِ مخلقة» يرجع إلى الولد بعينه لا إلى السقط ؛ أى منهم من يتم الربّ سبحانه مضغته فيخلق له الأعضاء أجمع ، ومنهم من يكون خَديجا ناقصا غير تمام . وقيل : المخلقة أن تلد المرأة لتمام الوقت . ابن عباس : المخلقة ما كان حيًّا ، وغير المخلقة السقط . قال :

أفى غير المخلقة البكاء * فأين الحزم ويحك والحياء

السابعة — أجمع العلماء على أن الأَمَة تكون أمّ ولد بما تسقطه من ولدٍ تامّ الخلق . وعند مالك والأوزاعيّ وغيرهما بالمضغة كانت مخلقةً أو غير مخلقة . قال مالك : إذا علم أنها مضغة . وقال الشافعى وأبو حنيفة : إن كان قد تبيّن له شىء من خلق بنى آدم أصبع أو عين أو غير ذلك فهى له أمّ ولد . وأجمعوا على أن المولود إذا آستهلّ صارخا يصلّى عليه ؛ فإن لم يستهِل صارخا لم يصلّ عليه عند مالك وأبى حنيفة والشافعى وغيرهم . وروى عن ابن عمر أنه يصلى عليه ؛ وقاله ابن المسيّب وابن سيرين وغيرهما . وروى عن المغيرة بن شعبة أنه

كان يأمر بالصلاة على السقط ، ويقول سموهم واغسلوهم وكفنوهم وحنطوهم ؛ فإن الله أكرم بالإسلام كبيركم وصغيركم ، ويتلو هذه الآية « فإنا خلقناكم من تراب ـ إلى ـ وغير مخلقة » . قال ابن العربي : لعل المغيرة بن شعبة أراد بالسقط ما تبين خلقه فهو الذى يسمى ، وما لم يتبين خلقه فلا وجود له . وقال بعض السلف : يصلى عليه متى نفخ فيه الروح وتمت له أربعة أشهر . وروى أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إذا استهل المولود ورث " . الاستهلال : رفع الصوت ؛ فكل مولود كان ذلك منه أو حركة أو عطاس أو تنفس فإنه يورث لوجود ما فيه من دلالة الحياة . وإلى هذا ذهب سفيان الثورى والأوزاعى والشافعى . قال الخطابى : وأحسنه قول أصحاب الرأى . وقال مالك : لا ميراث له وإن تحرك أو عطس ما لم يستهل . وروى عن محمد بن سيرين والشعبى والزهرى وقتادة .

الثامنة ـ قال مالك رضى الله عنه : ما طرحته المرأة من مضغة أو علقة أو ما يعلم أنه ولد إذا ضرب بطنها ففيه الغرة (١) . وقال الشافعى : لا شىء فيه حتى يتبين من خلقه . قال مالك : إذا سقط الجنين فلم يستهل صارخا ففيه الغرة . وسواء تحرك أو عطس فيه الغرة أبدا ، حتى يستهل صارخا ففيه الدية كاملة . وقال الشافعى رضى الله عنه وسائر فقهاء الأمصار : إذا علمت حياته بحركة أو بعطاس أو باستهلال أو بغير ذلك مما تستيقن به حياته ففيه الدية .

التاسعة ـ ذكر القاضى إسماعيل أن عدة المرأة تنقضى بالسقط الموضوع ، واحتج عليه بأنه حمل ، وقال قال الله تعالى : « وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » (٢) . قال القاضى إسماعيل : والدليل على ذلك أنه يرث أباه ، فدل على وجوده خلقا وكونه ولدا وحملا . قال ابن العربى : ولا يرتبط به شىء من هذه الأحكام إلا أن يكون مخلقا .

قلت : ما ذكرناه من الاشتقاق وقوله عليه الصلاة والسلام : " إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه " يدل على صحة ما قلناه ، ولأن مسقطة العلقة والمضغة يصدق على المرأة إذا

(١) الغرة عند الفقهاء : ما بلغ ثمنه نصف عشر الدية من العبيد والإماء . (٢) آية ٤ سورة الطلاق .

ألقته أنها كانت حاملا وضعت ما استقر في رحمها، فيشملها قوله تعالى «وَأُولَاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» . ولأنها وضعت مبدأ الولد عن نطفة متجسدا كالمخطط ، وهذا بين .

العاشرة — روى ابن ماجه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا خالد بن مخلد حدثنا يزيد عن عبد الملك النوفلي عن يزيد بن رومان عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لسقط أقدمه بين يدي أحب إلي من فارس أخلفه [خلفي][1] " . وأخرجه الحاكم في معرفة علوم الحديث له عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة فقال : " أحب إلي من ألف فارس أخلفه ورائي " .

الحادية عشرة — ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ يريد : كمال قدرتنا بتصريفنا أطوار خلقكم . ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ﴾ قرئ بنصب «نقر» و «نخرج» ، رواه أبو حاتم عن أبي زيد عن المفضل عن عاصم قال قال أبو حاتم : النصب على العطف . وقال الزجاج : «نقر» بالرفع لا غير؛ لأنه ليس المعنى : فعلنا ذلك لنقر في الأرحام ما نشاء ، وإنما خلقهم عز وجل ليدلهم على الرشد والصلاح . وقيل : المعنى لنبين لهم أمر البعث؛ فهو اعتراض بين الكلامين . وقرأت هذه الفرقة بالرفع «ونقرُّ» ؛ المعنى : ونحن نقر . وهي قراءة الجمهور . وقرئ : «ويقر» و «يخرجكم» بالياء ، والرفع على هذا سائغ . وقرأ ابن وثاب «ما نِشاء» بكسر النون . والأجل المسمى يختلف بحسب جنين جنين؛ فثَم من يسقط وثَم من يكمل أمره ويخرج حيا . وقال «ما نشاء» ولم يقل من نشاء لأنه يرجع إلى الحمل؛ أي يقر في الأرحام ما نشاء من الحمل ومن المضغة وهي جماد فكنى عنها بلفظ ما .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي أطفالا ؛ فهو اسم جنس وأيضا فإن العرب قد تسمي الجمع باسم الواحد؛ قال الشاعر :

يلحينني في حبها ويلمنني * إن العواذل ليس لي بأمير

(١) زيادة عن سنن ابن ماجه .

ولم يقل أصراء . وقال المبرد : وهو اسم يستعمل مصدرا كالرضا والعدل، فيقع على الواحد والجمع؛ قال الله تعالى : « أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ »(١) . وقال الطبرى : وهو نصب على التمييز، كقوله تعالى : « فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا »(٢) . وقيل : المعنى ثم نخرج كل واحد منكم طفلا . والطفل يطلق من وقت انفصال الولد إلى البلوغ . وولد كل وحشية أيضا طفل . ويقال : جارية طِفْلٌ، وجاريتان طِفْل وجوارٍ طِفْلٌ، وغلامٌ طفلٌ، وغلمان طفل . ويقال أيضا : طِفْلٌ وطِفْلة وطِفْلان وطِفْلتان وأطفال . ولا يقال : طِفْلات . وأطفلت المرأة صارت ذات طفل . والمُطْفِلة : الظبية معها طفلها، وهى قريبة عهد بالنتاج . وكذلك الناقة ، [والجمع] مَطافِلُ ومطافيل . والطَّفْل (بالفتح فى الطاء) الناعم؛ يقال : جارية طَفْلة أى ناعمة ، وبنان طَفْل . وقد طَفَّل الليل إذا أقبل ظلامه . والطَّفَل (بالتحريك) : بعد العصر إذا طَفَلت الشمس للغروب . والطَّفَل (أيضا) : مطر؛ قال :

* لِوَهْدٍ جاده طَفَلُ الثُّرَيَّا(٣) *

﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ قيل : إن « ثم » زائدة كالواو فى قوله « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا »(٤) ؛ لأن ثم من حروف النسق كالواو . « أَشُدَّكُم » كمال عقولكم ونهاية قُواكم . وقد مضى فى « الأنعام »(٥) بيانه . ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ أى أخسه وأدونه ، وهو الهرم والخَرَف حتى لا يعقل؛ ولهذا قال : ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ . كما قال فى سورة يس : « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ »(٦) . وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول : " اللّهمّ إنى أعوذ بك من البُخْل وأعوذ بك من الجُبْن وأعوذ بك أن أُرَدّ إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر " . أخرجه النَّسائىّ عن سعد ، وقال : وكان يعلمهنّ بَنيه كما يعلّم المُكْتِبُ(٧) الغلمان . وقد مضى فى النحل(٨) هذا المعنى .

---

(١) آية ٣١ سورة النور . (٢) آية ٤ سورة النساء . (٣) الوهد والوهدة : المطمئن من الأرض، والمكان المنخفض كأنه حفرة. (٤) آية ٧٣ سورة الزمر . (٥) راجع ج ٧ ص ١٣٤ (٦) آية ٦٨ (٧) المكتب : المعلم . (٨) راجع ج ١٠ ص ١٤٠

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ ذكر دلالة أقوى على البعث فقال فى الأوّل : « فإنا خلقناكم من تراب » فخاطب جمعا . وقال فى الثانى : « وترى الأرض » فخاطب واحدا ؛ فانفصل اللفظ عن اللفظ ، ولكن المعنى متصل من حيث الاحتجاج على منكرى البعث . ﴿ هَامِدَةً ﴾ يابسة لا تنبت شيئا ؛ قاله ابن جُريج . وقيل : دارسة . والهمود الدروس . قال الأعشى :

قالت قُتيلةُ ما لجسمك شاحبًا * وأرى ثيابَك باليات هُمَّدا

الهَرَوِىّ : « هامدة » أى جافة ذات تراب . وقال شَمِر : يقال : هَمَد شجر الأرض إذا بَلِىَ وذهب . وهمدت أصواتهم إذا سكنت . وهمود الأرض ألا يكون فيها حياة ولا نبت ولا عود ولم يصبها مطر . وفى الحديث : " حتى كاد يَهْمُد من الجوع " أى يهلك . يقال : هَمَد الثوب يَهْمُد إذا بَلِىَ . وهَمَدت النار تَهْمُد .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ﴾ أى تحركت . والاهتزاز : شدّة الحركة ؛ يقال : هَزَزْت الشىء فاهتز ؛ أى حركته فتحرك . وهَزّ الحادى الإبل هزيزا فاهتزت هى إذا تحركت فى سيرها بحُدائه . واهتز الكوكب فى انقضاضه . وكوكب هازٌّ . فالأرض تهتز بالنبات ؛ لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض إزالة خفية ؛ فسماه اهتزازا مجازا . وقيل : اهتز نباتها ؛ فحذف المضاف ؛ قاله المبرّد . واهتزازه شدّة حركته ؛ كما قال الشاعر :

تَثَنَّى إذا قامت وتهتزّ إن مشت * كما اهتز غصن البان فى ورق خُضْر

والاهتزاز فى النبات أظهر منه فى الأرض . ﴿ وَرَبَتْ ﴾ أى ارتفعت وزادت . وقيل : انتفخت ؛ والمعنى واحد ، وأصله الزيادة . رَبَا الشىء يربو رُبُوًّا أى زاد ؛ ومنه الربا والرّبوة . وقرأ يزيد بن القَعْقاع وخالد بن الياس « وَرَبَأَتْ » أى ارتفعت حتى صارت بمنزلة الربيئة ، وهو الذى يحفظ القوم على شىء مُشْرِف ؛ فهو رابئ وربيئة على المبالغة . قال امرؤ القيس :

بعثنا ربيئًا قبل ذاك مُخَمَّلًا * كذئب الغضا يمشي الضَّراء ويتّقي (١)

﴿ وأنبتت ﴾ أي أخرجت . ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي لون . ﴿ بَهِيجٍ ﴾ أي حسن ؛ عن قتادة ، أي يُبهج من يراه . والبَهْجة الحُسْن ؛ يقال : رجل ذو بَهجة . وقد بَهُج (بالضم) بَهاجة وبَهجة فهو بهيج . وأبهجني أعجبني بحسنه ؛ ولما وصف الأرض بالإنبات دلّ على أن قوله : « اهتزت وربت » يرجع إلى الأرض لا إلى النبات . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٧ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ لما ذكر افتقار الموجودات إليه وتسخيرها على وَفْق اقتداره واختياره في قوله : « يأيها الناس إن كُنتم في رَيْبٍ من البعث — إلى قوله — بهيج » . قال بعد ذلك : « ذلك بأن الله هو الحَقُّ وأَنَّهُ يُحْيِ الموتى وأنَّهُ على كُلِّ شيْءٍ قَديرٌ . وأن الساعة آتِيَةٌ لا رَيْبَ فيها وأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ » . فنبّه سبحانه وتعالى بهذا على أن كل ما سواه وإن كان موجودا حقا فإنه لا حقيقة له من نفسه ؛ لأنه مسخَّر مصرَّف . والحق الحقيقيّ : هو الموجود المطلق الغنيّ المطلق ؛ وأن وجود كلّ ذي وجود عن وجوب وجوده ؛ ولهذا قال في آخر السورة : « وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ » (٢) . والحق الموجود الثابت الذي لا يتغيّر ولا يزول ، وهو الله تعالى . وقيل : ذو الحق على عباده . وقيل : الحق بمعنى (٣) في أفعاله . وقال الزجاج : « ذلك » في موضع رفع ؛ أي الأمر ما وُصف لكم وبُيّن . ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ أي لأن الله هو الحق . قال : ويجوز أن يكون

---

(١) المخمل : الذي يخمل نفسه ، أي يسترها ويخفيها لئلا يشعر به الصيد . والغضى : الشجر ، والعرب تقول : أخبث الذئاب ذئب الغضى ؛ وإنما صار كذلك لأنه لا يباشر الناس إلا اذا أراد أن يُغير . والضراء (بالفتح والمد) : الشجر الملتف في الوادي يستر من دخل فيه . وفلان يمشي الضراء : اذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر .

(٢) آية ٦٢ .   (٣) في بعض نسخ الأصل « وقيل الحق أي بمعنى كذا في أفعاله » .

« ذلك » نصبا ؛ أى فعل الله ذلك بأنه هو الحق . ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى ﴾ أى بأنه ﴿ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى و بأنه قادر على ما أراد . ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴾ عطف على قوله : « ذلك بأن الله هو الحق » من حيث اللفظ، وليس عطفا فى المعنى ؛ إذ لا يقال فعل الله ما ذكر بأن الساعة آتية ، بل لا بد من إضمار فعل يتضمنه؛ أى وليعلموا أن الساعة آتية ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أى لا شك . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ يريد للثواب والعقاب .

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ أى نيّر بيّن الحجة . نزلت فى النضر بن الحارث . وقيل : فى أبى جهل بن هشام؛ قاله ابن عباس . والمُعظم على أنها نزلت فى النضر بن الحارث كالآية الأولى ، فهما فى فريق واحد ، والتكرير للمبالغة فى الذم ؛ كما تقول للرجل تذمه وتوبّخه : أنت فعلت هذا ! أنت فعلت هذا ! ويجوز أن يكون التكرير لأنه وصفه فى كل آية بزيادة؛ فكأنه قال : إن النضر بن الحارث يجادل فى الله بغير علم و يتّبع كلّ شيطان مريد ، والنضر بن الحارث يجادل فى الله من غير علم ومن غير هُدًى وكتاب منير ؛ ليُضل عن سبيل الله . وهو كقولك : زيد يشتمنى وزيد يضربنى ؛ وهو تكرار مفيد ؛ قاله القشيرى . وقد قيل : نزلت فيه بضعَ عشرة آية . فالمراد بالآية الأولى إنكاره البعث ، و بالثانية إنكاره النبوّة ، وأن القرآن منزل من جهة الله . وقد قيل : كان من قول النضر بن الحارث أن الملائكة بنات الله ، وهذا جدال فى الله تعالى . « مَنْ » فى موضع رفع بالابتداء . والخبر فى قوله : «ومِنَ الناس» . ﴿ ثانِىَ عِطْفِهِ ﴾ نصب على الحال . ويتأوّل على معنيين : أحدهما — روى عن ابن عباس أنه قال : هو النضر بن الحارث

لَوَى عنقه مَرَحًا وتعظُّماً . والمعنى الآخر ـ وهو قول الفراء ـ أن التقدير: ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ثانى عطفه ، أى مُعْرِضا عن الذكر ؛ ذكره النحاس . وقال مجاهد وقتادة : لاوياً عنقه كفرا . ابن عباس : مُعْرِضا عما يُدْعَى إليه كفرا . والمعنى واحد . وروى الأوزاعىّ عن مَخْلد بن حسين عن هشام بن حسان عن ابن عباس فى قوله عز وجل : « ثانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عن سبيلِ الله » قال : هو صاحب البدعة . المبرّد : العِطْف ما انثنى من العنق . وقال المفضّل : والعطف الجانب؛ ومنه قولهم : فلان ينظر فى أعطافه؛ أى فى جوانبه . وعِطْفَا الرجل من لَدُنْ رأسه إلى وَرِكِه . وكذلك عِطْفَا كل شىء جانباه . ويقال : ثَنَى فلان عنى عِطفه إذا أعرض عنك . فالمعنى : أى هو معرض عن الحق فى جِداله ومُوَلٍّ عن النظر فى كلامه؛ وهو كقوله تعالى : « وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا »(١) . وقوله تعالى : « لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ »(٢) . وقوله : « أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ »(٣) . وقوله : « ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى »(٤) . ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى عن طاعة الله تعالى . وقرئ « لِيَضِلَّ » بفتح الياء . واللام لام العاقبة ؛ أى يجادل فيضل؛ كقوله تعالى : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا »(٥) أى فكان لهم كذلك . ونظيره « إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ . لِيَكْفُرُوا »(٦) . ﴿ لَهُ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾ أى هوان وذلّ بما يجرى له من الذكر القبيح على ألسنة المؤمنين إلى يوم القيامة؛ كما قال : « وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ »(٧) الآية . وقوله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ » . وقيل : الخزى ها هنا القتل ؛ فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم قتل النضر بن الحارث يوم بدر صبراً؛ كما تقدّم فى آخر الأنفال . ﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أى نار جهنم . ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ أى يقال له فى الآخرة إذا دخل النار : ذلك العذاب بما قدمت يداك من المعاصى والكفر . وعبّر باليد عن الجملة؛ لأن اليد التى تفعل وتبطش للجملة . و « ذلك » بمعنى هذا ، كما تقدّم فى أول البقرة(٨) .

---

(١) آية ٧ سورة لقمان . (٢) آية ٥ سورة المنافقون . (٣) آية ٨٣ سورة الإسراء .
(٤) آية ٣٣ سورة القيامة . (٥) آية ٨ سورة القصص . (٦) آية ٥٤ سورة النحل .
(٧) آية ١٠ سورة القلم . (٨) راجع جـ ١ ص ١٥٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (١١)

قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ «من» في موضع رفع بالابتداء، والتمام «انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ» على قراءة الجمهور «خَسِرَ» . وهذه الآية خبر عن المنافقين. قال ابن عباس: يريد شيبة بن ربيعة كان قد أسلم قبل أن يظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلما أوحى إليه ارتد شيبة بن ربيعة . وقال أبو سعيد الخُدْرِيّ : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله؛ فتشاءم بالإسلام فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: أقِلْنِي ! فقال: "إن الإسلام لا يُقال" فقال: إني لم أصب في ديني هذا خيرا ! ذهب بصري ومالي وولدي ! فقال: "يا يهوديّ إن الإسلام يَسْبِك الرجال كما تَسْبِك النارُ خَبَثَ الحديد والفضة والذهب"؛ فأنزل الله تعالى «ومن الناس من يعبد الله على حَرْف» . وروى إسرائيل عن أبي حُصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «ومن الناس من يعبد الله على حَرْف» قال : كان الرجل يَقْدَم المدينة فإن ولدت امرأته غلاما ونُتِجت خيله قال هذا دين صالح؛ فإن لم تلد امرأته ولم تُنْتَج خيله قال هذا دين سَوْء . وقال المفسرون : نزلت في أعراب كانوا يقدَمون على النبيّ صلى الله عليه وسلم فيُسلمون؛ فإن نالوا رخاء أقاموا، وإن نالتهم شدّة ارتدّوا . وقيل نزلت في النضر بن الحارث . وقال ابن زيد وغيره : نزلت في المنافقين . ومعنى ﴿ عَلَى حَرْفٍ ﴾ على شكّ ؛ قاله مجاهد وغيره . وحقيقته أنه على ضعف في عبادته، كضعف القائم على حرف مضطرب فيه . وحرفُ كل شيء طَرَفُه وشَفِيره وحدّه؛ ومنه حرف الجبل، وهو أعلاه المحدّد . وقيل : « على حرف» أي على وجه واحد، وهو أن يعبده على السرّاء دون الضرّاء؛ ولو عبدوا الله على الشكر في السراء والصبر على الضراء لما عبدوا الله على حرف . وقيل : « على حرف » على شرط ؛ وذلك أن شيبة بن ربيعة قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم قبل أن يظهر أمره : أُدعُ لي ربّك أن يرزقني مالا وإبلا

وخيلا وولدا حتى أومن بك وأعدل إلى دينك؛ فدعا له فرزقه الله عز وجل ما تمنّى؛ ثم أراد الله عز وجل فتنته واختباره وهو أعلم به فأخذ منه ما كان رزقه بعد أن أسلم فارتد عن الإسلام فأنزل الله تبارك وتعالى فيه : « ومن الناس مَن يعبد الله على حَرْف » يريد شرط . وقال الحسن : هو المنافق يعبد الله بلسانه دون قلبه . وبالجملة فهذا الذى يعبد الله على حَرْف ليس داخلا بكليّته؛ وبين هذا بقوله : ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ﴾ صحةُ جسم ورخاء معيشة رَضيَ وأقامَ على دينه . ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ أى خلاف ذلك مما يختبر به ﴿ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ أى ارتدّ فرجع إلى وجهه الذى كان عليه من الكفر . ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ قرأ مجاهد وحميد بن قيس والأعرج والزهرى وابن أبى إسحاق — وروى عن يعقوب — «خاسِرَ الدنيا» بألف، نصبا على الحال، وعليه فلا يوقف على «وجهه» . وخسرانه الدنيا بأن لا حظّ له فى غنيمة ولا ثناء، والآخرة بأن لا ثواب له فيها .

قوله تعالى : يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢)

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى هذا الذى يرجع إلى الكفر يعبد الصنم الذى لا ينفع ولا يضر . ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ قال الفراء : الطويل .

قوله تعالى : يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣)

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ﴾ أى هذا الذى انقلب على وجهه يدعو مَن ضَرّه أدنى من نفعه؛ أى فى الآخرة لأنه بعبادته دخل النار، ولم ير منه نفعا أصلا، ولكنه قال : ضره أقرب من نفعه ترفيعا للكلام ؛ كقوله تعالى : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »(١) . وقيل : يعبدونهم توهّم أنهم يشفعون لهم غدًا؛ كما قال الله تعالى :

(١) آية ٢٤ سورة سبأ .

« وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ »[1] وقال تعالى : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى »[2] . وقال الفرّاء والكسائى والزجاج : معنى الكلام القسم والتأخير ؛ أى يدعو والله لمن ضره أقرب من نفعه . فاللام مقدّمة فى غير موضعها . و «مَن» فى موضع نصب بـ « يدعو » واللام جواب القَسَم . و «ضَرُّه» مبتدأ و « أقْرَبُ» خبره . وضعّف النحاس تأخير اللام وقال : وليس لِلّام من التصرّف ما يوجب أن يكون فيها تقديم ولا تأخير .

قلت : حق اللام التقديم وقد تؤخّر ؛ قال الشاعر :

خالِى لأنتَ ومَن جَرِيرٌ خالُه * ينـلِ العَلَاءَ ويُكْرِمِ الأخوالا

أى لخالى أنت ؛ وقد تقدم . النحاس : وحكى لنا علىّ بن سليمان عن محمد بن يزيد قال : فى الكلام حذف ؛ والمعنى يدعو لمن ضره أقرب من نفعه إلهًا . قال النحاس : وأحسب هذا القول غلطا على محمد بن يزيد ؛ لأنه لا معنى له ، لأن ما بعد اللام مبتدأ فلا يجوز نصب إله ، وما أحسب مذهب محمد بن يزيد إلا قول الأخفش ، وهو أحسن ما قيل فى الآية عندى ، والله أعلم ، قال : «يدعو» بمعنى يقول . و « من » مبتدأ وخبره محذوف ، والمعنى يقول لمن ضره أقرب من نفعه إلهُهُ .

قلت : وذكر هذا القول القشيرىّ رحمه الله عن الزجاج والمهدوىّ عن الأخفش ، وكمّل إعرابه فقال : «يدعو » بمعنى يقول ، و «من» مبتدأ ، و «ضره» مبتدأ ثان ، و « أقربُ » خبره ، والجملة صلة « مَن » ، وخبر « مَن » محذوف ، والتقدير يقول لمن ضره أقرب من نفعه إلهه ؛ ومثله قول عنترة :

يدعون عَنْتَرُ والرّماحُ كأنها * أشْطانُ بئر فى لَبان الأدْهَمِ[3]

قال القشيرى : والكافر الذى يقول الصنم معبودى لا يقول ضَرُّه أقربُ من نفعه ؛ ولكن المعنى يقول الكافر لمن ضره أقرب من نفعه فى قول المسلمين معبودى و إلهى . وهو كقوله

(١) آية ١٨ سورة يونس . (٢) آية ٣ سورة الزمر . (٣) الأشطان : جمع شطن ، وهو حبل البئر . واللبان (بفتح اللام) : الصدر . والأدهم : الفرس . يريد أن الرماح فى صدر هذا الفرس بمنزلة حبال البئر من الدلاء ؛ لأن البئر إذا كانت كثيرة الجرفة اضطربت الدلو فيها فيجعل لها حبلان لئلا تضطرب . (عن شرح المعلقات) .

تعالى : « يَأَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ »[1] ؛ أى يأيها الساحر عند أولئك الذين يدعونك ساحرا . وقال الزجاج : يجوز أن يكون « يدعو » فى موضع الحال ، وفيه هاء محذوفة ؛ أى ذلك هو الضلال البعيد يدعوه ، أى فى حال دعائه إياه ؛ ففى « يدعو » هاء مضمرة ، ويوقف على هذا على « يدعو » . وقوله : « لَمَنْ ضَرُّه أقربُ مِن نفعِه » كلام مستأنف مرفوع بالابتداء ، وخبره « لَبِئْسَ الْمَوْلَى » ، وهذا لأن اللام لليمين والتوكيد فجعلها أول الكلام . قال الزجاج : ويجوز أن يكون « ذلك » بمعنى الذى ، ويكون فى محل النصب بوقوع « يدعو » عليه ؛ أى الذى هو الضلال البعيد يدعو ؛ كما قال : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى » أى ما الذى . ثم قوله « لَمَنْ ضَرُّه » كلام مبتدأ ، و « لَبِئْسَ الْمَوْلَى » خبر المبتدأ ؛ وتقدير الآية على هذا : يدعو الذى هو الضلال البعيد ؛ قدّم المفعول وهو الذى ؛ كما تقول : زيدا يضرب ؛ واستحسنه أبو على . وزعم الزجاج أن النحويين أغفلوا هذا القول ؛ وأنشد :

عَدَسْ ما لعبّادٍ عليكِ إمارةٌ * نَجَوْتِ وهذا تَحْمِلِين طَلِيقُ[2]

أى والذى . وقال الزجاج أيضا والفرّاء : يجوز أن يكون « يدعو » مكررة على ما قبلها ، على جهة تكثير هذا الفعل الذى هو الدعاء ، ولا تُعدّيه إذ قد عدّيته أولا ؛ أى يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره يدعو ؛ مثل ضربت زيدا ضربت ، ثم حذفت يدعو الآخرة اكتفاء بالأولى . قال الفراء : ويجوز « لِمَنْ ضَرُّه » بكسر اللام ؛ أى يدعو إلى من ضره أقرب من نفعه ، قال الله عز وجل : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » أى إليها . وقال الفراء أيضا والقفّال : اللام صلة ؛ أى يدعو من ضره أقرب من نفعه ؛ أى يعبده . وكذلك هو فى قراءة عبد الله بن مسعود . ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى﴾ أى فى التناصر ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ أى المعاشر والصاحب والخليل . مجاهد : يعنى الوثن .

(١) آية ٤٩ سورة الزخرف . (٢) هذا البيت أول أبيات ليزيد بن ربيعة بن مفرّغ الحميرى . وعدس : زجر للبغل ليسرع . وعباد هو ابن زياد أخو عبيد الله بن زياد الذى قاتل الحسين بن على رضى الله عنهما فى كربلاء . هجا ابن مفرّغ هذا عبادا لحقد عليه وجفاء ؛ فأخذه أخوه عبيد الله وحبسه وعذبه ، فلما طال حبسه دخل أهل اليمن الى معاوية فشفعوا فيه فأطلق سراحه . (راجع ترجمته فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وخزانة الأدب للبغدادى فى الشاهد الثالث بعد الثلثمائة والثامن والعشرين بعد الأربعمائة) .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ لما ذكر حال المشركين وحال المنافقين والشياطين ذكر حال المؤمنين فى الآخرة أيضا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ أى يثيب من يشاء و يعذب من يشاء ؛ فللمؤمنين الجنة بحكم وعده الصدق و بفضله ، وللكافرين النار بما سبق من عدله ؛ لا أن فعل الرب معال بفعل العبيد .

قوله تعالى : مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ قال أبو جعفر النحاس : من أحسن ما قيل فيها أن المعنى من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذى أوتيه . ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ أى فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء . ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ أى ثم ليقطع النصر إن تهيأ له . ﴿ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ﴾ وحيلته ما يغيظه من نصر النبيّ صلى الله عليه وسلم . والفائدة فى الكلام أنه إذا لم يتهيأ له الكيد والحيلة بأن يفعل مثل هـذا لم يصل إلى قطع النصر . وكذا قال ابن عباس : إن الكناية فى « ينصره الله » ترجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وهو وإن لم يجر ذكره فجميع الكلام دال عليه ؛ لأن الإيمان هو الإيمان بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، والانقلاب من الدين انقلاب عن الدّين الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أى من كان يظن ممن يعادى محمدا صلى الله عليه وسلم ومَن يعبد الله على حَرْف أنا لا ننصر محمدا فليفعل كذا وكذا . وعن ابن عباس أيضا أن الهاء تعود على « من » والمعنى : من كان يظن أن الله لا يرزقه فليختنق ، فليقتل نفسه ؛ إذ لا خير فى حياة تخلو من عَوْن الله . والنصر على هذا القول الرزق ؛

تقول العرب : من ينصرنى نصره الله؛ أى من أعطانى أعطاه الله . ومن ذلك قول العرب : أرض منصورة؛ أى ممطورة . قال الفقعسى[1] :

وانك لا تعطى امرأ فـــوق حقه * ولا تملك الشق الذى الغيث ناصره

وكذا روى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : « من كان يظن أن لن ينصره الله » أى لن يرزقه. وهو قول أبى عبيدة . وقيل : إن الهاء تعود على الدين؛ والمعنى : من كان يظن أن لن ينصر الله دينه . ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ ﴾ أى بحبل . والسبب ما يتوصل به إلى الشيء . ﴿إلى السماء﴾ إلى سقف البيت . ابن زيد : هى السماء المعروفة . وقرأ الكوفيون « ثم ليقطع » بإسكان اللام . قال النحاس : وهذا بعيد فى العربية؛ لأن « ثم » ليست مثل الواو والفاء، لأنها يوقف عليها وتنفرد . وفى قراءة عبد الله « فليقطعه ثم لينظر هل يُذهبن كيدُه ما يغيظ » . قيل : « ما » بمعنى الذى؛ أى هل يذهبن كيده الذى يغيظه ، فحذف الهاء ليكون أخف . وقيل : « ما » بمعنى المصدر؛ أى هل يذهبن كيدُه غيظَه .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ ﴾ أى وكذلك أن الله ﴿ يَهْدِى مَنْ يُرِيدُ ﴾ ، علّق وجود الهداية بإرادته؛ فهو الهادى لا هادى سواه .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ اليهود، وهم المنتسبون إلى ملة موسى عليه السلام . ﴿ والصَّابِئِينَ ﴾ هم قوم يعبدون النجوم .

(١) فى الأصول الفقيمى . والتصويب عن تفسير الطبرى .

﴿ والنّصارَى ﴾ هم المنتسبون إلى ملّة عيسى . ﴿ والمَجُوسَ ﴾ هم عَبَدة النيران القائلين أن للعالم أصلين : نور وظلمة . قال قتادة : الأديان خمسة، أربعة للشيطان وواحد للرحمن . وقيل : المجوس في الأصل النجوس لتديّنهم باستعمال النجاسات؛ والميم والنون يتعاقبان كالغيم والغين، والأيم والأين . وقد مضى في البقرة هذا كله مستوفًى[1] . ﴿ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ هم العرب عبدة الأوثان . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي يقضي ويحكم؛ فللكافرين النار، وللمؤمنين الجنة . وقيل : هذا الفصل بأن يعرّفهم المحقّ من المبطل بمعرفة ضرورية، واليوم يتميز المحق عن المبطل بالنظر والاستدلال . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي من أعمال خلقه وحركاتهم وأقوالهم، فلا يعزُب عنه شيء منها ، سبحانه ! وقوله « إن الله يفصل بينهم » خبر « إن » في قوله « إن الذين آمنوا »؛ كما تقول : إن زيدا إن الخير عنده . وقال الفراء : ولا يجوز في الكلام إن زيدا إن أخاه منطلق؛ وزعم أنه إنما جاز في الآية لأن في الكلام معنى المجازاة؛ أي من آمن ومن تهوّد أو تنصّر أو صبا يفصل بينهم ، وحسابهم على الله عز وجل . وردّ أبو إسحاق على الفراء هذا القول، واستقبح قوله : لا يجوز إن زيدا إن أخاه منطلق؛ قال : لأنه لا فرق بين زيد وبين الذين و« إن » تدخل على كل مبتدأ فتقول إن زيدا هو منطلق، ثم تأتي بإنّ فتقول : إن زيدا إنه منطلق . وقال الشاعر :

إن الخليفة إن الله سَرْبَله * سربال عزّ به تُرجى[2] الخواتيم

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) ويروى : « ترجى » بالزاي والجيم؛ والازجاء السوق . والخواتيم جمع الخاتام لغة في الخاتم . يريد أن سلاطين الآفاق يرسلون إليه خواتيمهم خوفا منه فيضاف ملكهم إلى ملكه . وهذا البيت من قصيدة لجرير يمدح بها عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك . (عن خزانة الأدب) .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ هذه رؤية القلب؛ أى ألم تر بقلبك وعقلك. وتقدّم معنى السجود فى «البقرة»(١)، وسجود الجماد فى «النحل»(٢). ﴿ وَالشَّمْسُ ﴾ معطوفة على «مَن». وكذا ﴿ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾. ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ وهذا مشكل من الإعراب، كيف لم ينصب ليعطف ما عمل فيه الفعل على ما عمل فيه الفعل؛ مثل « وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »(٣)؟ فزعم الكسائى والفراء أنه لو نصب لكان حسنا ، ولكن ٱختير الرفع لأن المعنى وكثير أبى السجود؛ فيكون ابتداء وخبرا، وتم الكلام عند قوله «وكثير من الناس». ويجوز أن يكون معطوفا ، على أن يكون السجود التذلّل والانقيادَ لتدبير الله عز وجل من ضعف وقوة وصحة وسقم وحسن وقبح، وهذا يدخل فيه كل شيء. ويجوز أن ينتصب على تقدير: وأهان كثيرا حق عليه العذاب، ونحوه. وقيل: تم الكلام عند قوله « والدوابّ » ثم ٱبتدأ فقال «وكثير من الناس» فى الجنة «وكثير حق عليه العذاب». وكذا روى عن ابن عباس أنه قال: المعنى وكثير من الناس فى الجنة وكثير حق عليه العذاب؛ ذكره ابن الأنبارى. وقال أبو العالية: مافى السموات نجم ولا قمر ولا شمس إلا يقع ساجدا لله حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيرجع من مطلعه. قال القُشَيرى: وورد هذا فى خبر مسند فى حق الشمس؛ فهذا سجود حقيقى، ومن ضرورته تركيب الحياة والعقل فى هذا الساجد.

قلت: الحديث المسند الذى أشار إليه خرجه مسلم، وسيأتى فى سورة « يٰس » عند قوله تعالى: « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا »(٤). وقد تقدم فى البقرة معنى السجود لغة ومعنًى.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ أى من أهانه بالشقاء والكفر لا يقدر أحد على دفع الهوان عنه. وقال ابن عباس: إن من تهاون بعبادة الله صار إلى النار. ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ يريد أن مصيرهم إلى النار فلا اعتراض لأحد عليه. وحكى الأخفش والكسائى والفراء « وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فما له من مُكْرَم » أى إكرام.

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩١ طبعة ثانية أو ثالثة. (٢) راجع جـ ١٠ ص ١١٢
(٣) آية ٣١ سورة الإنسان. (٤) آية ٣٨.

قوله تعالى : هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١)

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ خرّج مسلم عن قيس بن عُبَاد قال : سمعت أبا ذرّ يقسم قسماً إنّ «هذان خصمان اختصموا في ربهم» إنها نزلت في الذين بَرَزُوا يوم بدر : حمزةُ وعليٌّ وعبيدةُ بن الحارث رضي الله عنهم وعتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة والوليدُ بن عتبة . وبهذا الحديث ختم مسلم رحمه الله كتابه . وقال ابن عباس : نزلت هذه الآيات الثلاث على النبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة في ثلاثة نفر من المؤمنين وثلاثة نفر كافرين ؛ وسمّاهم ، كما ذكر أبو ذر . وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : إني لأول من يجثو للخصومة بين يدي الله يوم القيامة ؛ يريد قصته في مبارزته هو وصاحباه ؛ ذكره البخاري . وإلى هذا القول ذهب هلال بن يَساف وعطاء بن يَسار وغيرهما . وقال عكرمة : المراد بالخصمين الجنة والنار ؛ اختصمتا فقالت النار : خلقني لعقوبته . وقالت الجنة خلقني لرحمته .

قلت : وقد ورد بتخاصم الجنة والنار حديثٌ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "احتجت الجنة والنار فقالت هذه يدخلني الجبارون والمتكبرون وقالت هذه يدخلني الضعفاء والمساكين فقال الله تعالى لهذه أنت عذابي أعذب بك من أشاء وقال لهذه أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها" . خرّجه البخاري ومسلم والترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وقال ابن عباس أيضا : هم أهل الكتاب قالوا للمؤمنين نحن أولى بالله منكم ، وأقدم منكم كتابا ، ونبيّنا قبل نبيّكم . وقال المؤمنون : نحن أحق بالله منكم ، آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل إليه من كتاب ، وأنتم تعرفون نبينا وتركتموه وكفرتم به حسدا ؛ فكانت هذه خصومتهم ، وأنزلت فيهم هذه الآية . وهذا قول قتادة ، والقول الأول أصح رواه البخاري عن حجّاج بن مِنْهال عن هُشَيم عن أبي هاشم عن أبي مِجْلز عن

قيس بن عُباد عن أبى ذر ، ومسلمٌ عن عمرو بن زُرَارة عن هُشيم ، ورواه سليمان التيمىّ عن أبى مِجْلَز عن قيس بن عُباد عن علىّ قال : فينا نزلت هذه الآية وفى مبارزتنا يوم بدر « هذان خصمان اختصموا فى ربهم — إلى قوله — عذاب الحريق » . وقرأ ابن كثير « هذانّ خصمان » بتشديد النون من « هذان » . وتأول الفراء الخصمين على أنهما فريقان أهل دينين ، وزعم أن الخصم الواحد المسلمون والآخر اليهود والنصارى ، اختصموا فى دين ربهم ؛ قال : فقال «اختصموا» لأنهم جمع ، قال : ولو قال «اختصما» لجاز . قال النحاس : وهذا تأويل من لا دراية له بالحديث ولا بكتب أهل التفسير ؛ لأن الحديث فى هذه الآية مشهور ، رواه سفيان الثَّوْرى وغيره عن أبى هاشم عن أبى مِجْلَز عن قيس بن عُباد قال : سمعت أبا ذَرٍّ يُقسم قَسَمًا إن هذه الآية نزلت فى حمزة وعلىّ وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وعتبة وشيبة ابنى ربيعة والوليد بن عتبة . وهكذا روى أبو عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس . وفيه قول رابع أنهم المؤمنون كلهم والكافرون كلهم من أى ملة كانوا ؛ قاله مجاهد والحسن وعطاء بن أبى رَبَاح وعاصم بن أبى النَّجُود والكلبى . وهذا القول بالعموم يجمع المنزل فيهم وغيرهم . وقيل : نزلت فى الخصومة فى البعث والجزاء ؛ إذ قال به قوم وأنكره قوم . ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى من الفرق الذين تقدم ذكرهم . ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ﴾ أى خيطت وسُوِّيت ، وشبهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب . وقوله ﴿ قُطِّعَتْ ﴾ أى تقطع لهم فى الآخرة ثياب من نار ؛ وذُكر بلفظ الماضى لأن ما كان من أخبار الآخرة فالموعود منه كالواقع المحقق ؛ قال الله تعالى : « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلتَ للناس[1] » أى يقول الله تعالى . ويحتمل أن يقال قد أعدت الآن تلك الثياب لهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار . وقال سعيد بن جبير : « من نار » من نحاس ؛ فتلك الثياب من نحاس قد أذيبت وهى السرابيل المذكورة فى « قِطْرٍ آنٍ[2] » وليس فى الآنية شيء إذا حمى

(١) آية ١١٦ سورة المائدة . (٢) أى فى قوله تعالى : « سرابيلهم من قطران » آية ٥٠ سورة إبراهيم . فقد قرئ « من قطرآن » والقطر : النحاس والصفر المذاب . والآنى الذى انتهى إلى حره . راجع ج ٩ ص ٣٨٥

يكون أشدّ حرًّا منه . وقيـل : المعنى أن النار قد أحاطت بهم كإحاطة الثياب المقطوعة إذا لبسوها عليهم؛ فصارت من هـذا الوجه ثيابا لأنها بالإحاطة كالثياب ؛ مثل « وَجَعَلْنَا اللَّيلَ لِبَاسًا »(١) . ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ أى المـاء الحار المُغْلَى بنـار جهنم . وروى الترمذىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم قال : " إن الحميم لَيُصَبّ على رءوسهم فينفذ الحميم حتى يَخْلُص إلى جوفه فيَسْلِت ما فى جوفه حتى يَمْرُق من قدميـه وهو الصَّهْر ثم يعاد كما كان " . قال : حديث حسن صحيح غريب . ﴿ يُصْهَرُ ﴾ يذاب . ﴿ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ ﴾ والصَّهر إذابة الشحم . والصُّهارة ما ذاب منـه ؛ يقال : صَهَرْت الشىء فآنصهر ؛ أى أذبته فذاب ، فهو صهير . قال ابن أحمر يصف فرخ قَطاة :

تَرْوِى لَقًى أُلْقِىَ فى صَفْصَفٍ * تَصْهَرُهُ الشمسُ فما يَنْصَهِرْ(٢)

أى تذيبه الشمس فيصبر على ذلك . ﴿ وَالْجُلُودُ ﴾ أى وتُحرق الجلود ، أو تُشوى الجلود ؛ فإن الجلود لا تذاب ، ولكن يُضَمّ فى كل شىء ما يليق به ؛ فهو كما تقول : أتيته فأطعمنى ثريدا ، إى والله ولبنا قارصا(٣) ؛ أى وسقانى لبنا . وقال الشاعر :

* عَلَفتها تبنـا وماء باردا *

﴿ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ أى يُضربون بها ويدفعون ؛ الواحدة مِقْمَعة ، ومِقْمَع أيضا كالمِحْجَن ، يضرب به على رأس الفيل . وقد قَمَعته إذا ضربته بهـا . وقمعته وأقمعته بمعنًى ؛ أى قهرته وأذللتـه فآنقمع . قال ابن السِّكيت : أقمعت الرجلَ عنّى إقمـاعا إذا طلع عليـك فرددته عنك . وقيل : المَقامع المطارق ، وهى المرازب أيضا . وفى الحديث " بيد كل مَلَك من خَزَنة جهنم مِرْزَبَة لها شُعبتان فيضرب الضربة فيهوى بها سبعين ألفا " . وقيل : المقامع سياط من نار ، وسُمّيت بذلك لأنها تقمع المضروب ؛ أى تذلّله .

---

(١) آية ١٠ سورة النبأ . (٢) تروى : تسوق إليه الماء ، أى تصيره كالراوية . واللقى (بالفتح) : الشىء الملق لهوانه . والصفصف : المستوى من الأرض . (٣) القارص : الحامض من ألبان الإبل خاصة . وقيل : القارص اللبن الذى يحذى اللسان ، ولم يخصص .

قوله تعالى : كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ أى من النار . ﴿ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ بالضرب بالمقامع . وقال أبو ظبيان : ذُكر لنا أنهم يحاولون الخروج من النار حين تجيش بهم وتفور فتُلْقِي من فيها إلى أعلى أبوابها فيريدون الخروج فتعيدهم الخزان إليها بالمقامع . وقيل : إذا اشتد غمهم فيها فرّوا ، فمن خَلَص منهم إلى شَفِيرها أعادتهم الملائكة فيها بالمقامع ، ويقولون لهم ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أى المُحْرِق ، مثلُ الأليم والوجيع . وقيل : الحريق الاسم من الاحتراق . تحرق الشيء بالنار واحترق ، والاسم الحُرْقة والحريق . والذَّوْق : مماسّةٌ يحصل معها إدراك الطعم ، وهو هنا توسّع ، والمراد به إدراكهم الألم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ لمّا ذكر أحد الخصمين وهو الكافر ذكر حال الخصم الآخر وهو المؤمن . ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ « مِن » صِلَة (١) . والأساور جمع أَسْوِرة ، وأسورة واحدها سِوار ؛ وفيه ثلاث لغات : ضم السين وكسرها و إسوار . قال المفسرون : لما كانت الملوك تلبَس فى الدنيا الأساور والتِّيجان جعل الله ذلك لأهل الجنة ، وليس أحد من أهل الجنة إلا وفى يده ثلاثة أسورة : سوار من ذهب ، وسوار من فضة ، وسوار من لؤلؤ . قال هنا وفى فاطر (٢) :

(١) هـذا على مذهب الأخفش والكوفيين الذين يجيزون زيادة « من » فى الإيجاب . أما الذين لا يجيزون زيادتها فى الإيجاب فقال بعضهم إنها للتبعيض ، و بعضهم إنها للابتداء ، و بعضهم إنها بيانية . (راجع البحر المحيط وروح المعانى فى الكلام عن هذه الآية) .

(٢) آية ٣٣

« مِنْ أساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ولُؤلُؤًا » وقال فى سورة الإنسان (١) : « وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ » .
وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة سمعت خليلى صلى الله عليه وسلم يقول : " تبلغ الحِلْية
من المؤمن حيث يبلغ الوضوء " . وقيل : تُحَلَّى النساء بالذهب والرجال بالفضة . وفيه نظر،
والقرآن يرده . ﴿ وَلُؤْلُؤًا ﴾ قرأ نافع وابن القَعْقاع وشيبة وعاصم هنا وفى سورة الملائكة
« لؤلؤًا » بالنصب، على معنى ويُحَلَّون لؤلؤا؛ واستدلوا بأنها مكتوبة فى جميع المصاحف هنا
بالف . وكذلك قرأ يعقوب والجَحْدَرى وعيسى بن عمر بالنصب هنا والخفض فى « فاطر »
اتباعا للمصحف، ولأنها كتبت ها هنا بالف وهناك بغير ألف (٢) . الباقون بالخفض فى الموضعين.
وكان أبو بكر لا يهمز « اللؤلؤ » فى كل القرآن؛ وهو ما يُستخرج من البحر من جوف
الصَّدَف . قال القُشَيرى : والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ؛ ولا يبعد أن يكون فى الجنة سوار
من لؤلؤ مُصْمَت (٣) .

قلت : وهو ظاهر القرآن بل نصه . وقال ابن الأنبارى : من قرأ «ولؤلؤ» بالخفض
وقف عليه ولم يقف على الذهب . وقال السِّجِستانى : من نصب « اللؤلؤ » فالوقف الكافى
« من ذهب » ؛ لأن المعنى ويحلون لؤلؤا . قال ابن الأنبارى : وليس كما قال، لأنا إذا
خفضنا «اللؤلؤ» نسقناه على لفظ الأساور، وإذا نصبناه نسقناه على تأويل الأساور؛ وكأنا
قلنا : يحلون فيها أساور ولؤلؤا، فهو فى النصب بمنزلته فى الخفض، فلا معنى لقطعه من الأول.

قوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ أى وجميع ما يلبسونه من فُرُشهم ولباسهم وستورهم
حرير، وهو أعلى مما فى الدنيا بكثير . وروى النَّسائى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه
وسلم قال : "من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ومن شرب الخمر فى الدنيا لم يشربه
فى الآخرة ومن شرب فى آنية الذهب والفضة لم يشرب فيها فى الآخرة — ثم قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم — لباس أهل الجنة وشراب أهل الجنة وآنية أهل الجنة " . فإن قيل :
قد سوّى النبى صلى الله عليه وسلم بين هذه الأشياء الثلاثة وأنه يحرمها فى الآخرة؛ فهل يحرمها

(١) آية ٢١ (٢) الذى فى المصحف طبعة الحكومة المصرية أنها بالألف فى الموضعين .
(٣) المصمت : الذى لا يخالطه غيره .

اذا دخل الجنة ؟ قلنا : نعم! إذا لم يتب منها حُرِمها فى الآخرة وإن دخل الجنة، لاستعجاله ما حرم الله عليه فى الدنيا . لا يقال : إنما يُحْرَم ذلك فى الوقت الذى يعذَّب فى النار أو بطول مقامه فى الموقف ، فأما اذا دخل الجنة فلا ؛ لأن حرمان شيء من لذّات الجنة لمن كان فى الجنة نوع عقوبةٍ ومؤاخذةٍ ، والجنة ليست بدار عقوبة ، ولا مؤاخذة فيها بوجه . فإنا نقول : ما ذكرتموه محتمل ، لولا ما جاء ما يدفع هذا الاحتمال ويردّه من ظاهر الحديث الذى ذكرناه . وما رواه الأئمة من حديث ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "من شرب الخمر فى الدنيا ثم لم يتب منها حُرِمها فى الآخرة" . والأصل التمسك بالظاهر حتى يرد نصّ يدفعه؛ بل قد ورد نصّ على صحة ما ذكرناه، وهو ما رواه أبو داود الطيالسيّ فى مسنده : حدّثنا هشام عن قتادة عن داود السرّاج عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو" . وهذا نص صريح وإسناده صحيح . فإن كان "وإن دخل الجنة لبسه أهلُ الجنة ولم يلبسه هو" من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فهو الغاية فى البيان ، وإن كان من كلام الراوى على ما ذكر فهو أعلم بالمقال وأقعد بالحال ، ومثله لا يقال بالرأى ، والله أعلم . وكذلك "من شرب الخمر ولم يتب" و "من استعمل آنية الذهب والفضة" وكما لا يشتهى منزلة من هو أرفع منه ، وليس ذلك بعقوبة ، كذلك لا يشتهى خمر الجنة ولا حريرها ولا يكون ذلك عقوبة . وقد ذكرنا هذا كله فى كتاب التذكرة مستوفى، والحمد لله، وذكرنا فيها أن شجر الجنة وثمارها يتفتق عن ثياب الجنة ، وقد ذكرناه فى سورة الكهف (1) .

قوله تعالى : وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ أى أُرشدوا إلى ذلك . قال ابن عباس : يريد لا إله إلا الله والحمد لله . وقيل : القرآن، ثم قيل : هذا فى الدنيا، هُدُوا إلى الشهادة،

(1) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٧

وقراءة القرآن . ﴿ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ أي إلى صراط الله . وصراط الله : دينه وهو الإسلام . وقيل : هُدُوا في الآخرة إلى الطّيب من القول، وهو الحمد لله؛ لأنهم يقولون غدا الحمد لله الذي هدانا لهذا، الحمد لله الذي أذهب عنا الحَزَن؛ فليس في الجنة لَغْوٌ ولا كذب فما يقولونه فهو طيب القول . وقد هُدُوا في الجنة إلى صراط الله، إذ ليس في الجنة شيء من مخالفة أمر الله . وقيل : الطيب من القول ما يأتيهم من الله من البشارات الحسنة . ﴿ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ أي إلى طريق الجنة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢٥)

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ ﴾ أعاد الكلام إلى مشركي العرب حين صَدّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبِيَة، وذلك أنه لم يُعلم لهم صَدّ قبل ذلك الجمع؛ إلا أن يريد صدّهم لأفراد من الناس . فقد وقع ذلك في صدر المبعث . والصد : المنع؛ أي وهم يصدون . وبهذا حسن عطف المستقبل على الماضي . وقيل : الواو زائدة «ويصدون» خبر «إنّ» . وهذا مفسد للمعنى المقصود، وإنما الخبر محذوف مقدّر عند قوله « والباد » تقديره : خسروا إذ هلكوا . وجاء «ويصدون» مستقبلا إذ هو فعل يُديمونه؛ كما جاء قوله تعالى : «الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله»(١)؛ فكأنه قال : إن الذين كفروا من شأنهم الصدّ . ولو قال إن الذين كفروا وصدوا لجاز . قال النحاس : وفي كتابي عن أبي إسحاق قال وجائز أن يكون — وهو الوجه — الخبر « نُذقه من عذاب أليم » . قال أبو جعفر : وهذا غلط؛ ولست أعرف ما الوجه فيه؛ لأنه جاء بخبر « إنّ » جزما، وأيضا

(١) آية ٢٨ سورة الرعد .

فإنه جواب الشرط، ولو كان خبر « إن » لبقى الشرط بلا جواب، ولا سيما والفعل الذى فى الشرط مستقبل فلا بُدّ له من جواب .

الثانيــة ـ قوله تعالى : ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ قيل : إنه المسجد نفسه، وهو ظاهر القرآن ؛ لأنه لم يذكر غيره . وقيـل : الحرم كله ؛ لأن المشركين صدّوا رسول الله صلى الله عليه وسـلم وأصحابه عنه عامَ الحديبية ، فنزل خارجا عنه ؛ قال الله تعالى : « وصـدّوكم عن المسـجد الحرام » وقال : « سُبْحَانَ الذى أَسْرَى بعبده لَيْلًا من المسـجد الحرام »[1] . وهذا صحيح ، لكنه قصد هنا بالذكر المهمّ المقصود من ذلك .

الثـالثـــة ـ قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ ﴾ أى للصلاة والطواف والعبادة ؛ وهو كقوله تعـالى : « إنّ أَوّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّـاسِ »[2] . ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيـهِ وَالْبَادِ ﴾ العاكف : المقيم الملازم . والبادى : أهل البادية ومن يَقْدَم عليهم . يقول : سواء فى تعظيم حرمته وقضاء النّسك فيه الحاضرُ والذى يأتيه من البلاد ؛ فليس أهـل مكة أحقّ من النازح إليه . وقيـل : إن المساواة إنمـا هى فى دُوره ومنازله ، ليس المقيم فيهـا أولى من الطارئ عليها . وهذا على أن المسجد الحرام الحَرَم كله ؛ وهذا قول مجاهد ومالك ؛ رواه عنه ابن القاسم . ورُوى عن عمر وابن عباس وجماعة إلى أن القادم له النزول حيث وُجِد ، وعلى رب المنزل أن يؤوِيَه شاء أو أبى . وقال ذلك سفيان الثورىّ وغيره ، وكذلك كان الأمر فى الصدر الأوّل ، كانت دورهم بغير أبواب حتى كثرت السرقة ؛ فاتخذ رجل بابا فأنكر عليه عمر وقال : أتغلق بابا فى وجه حاج بيت الله ؟ فقال : إنمـا أردت حفظ متاعهم من السرقة ؛ فتركه فاتخذ الناس الأبواب . وروى عن عمـر بن الخطاب رضى الله عنه أيضـا أنه كان يأمر فى الموسم بقلع أبواب دور مكة ، حتى يدخلها الذى يقـدم فينزل حيث شاء ، وكانت الفساطيط تضرب فى الدور . وروى عن مالك أن الدور ليست كالمسجد ولأهلها الامتناع منها والاستبداد ؛ وهذا هو العمل اليوم . وقال بهذا جمهور من الأمة .

---

(١) آية ٢٥ سورة الفتح . (٢) آية ٩٦ سورة آل عمران .

وهذا الخلاف يُبْنَى على أصلين : أحدهما أن دور مكة هل هى ملك لأربابها أم للناس .
والخلاف سببان : أحدهما هل فتح مكة كان عَنْوة فتكون مغنومة ، لكن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يقسمها وأقرها لأهلها ولمن جاء بعدهم ؛ كما فعل عمر رضى الله عنه بأرض السّواد وعفا لهم عن الخراج كما عفا عن سَبْيهم واسترقاقهم إحسانا إليهم دون سائر الكفار فتبقى على ذلك لا تُباع ولا تُكْرَى ، ومن سبق إلى موضع كان أولى به . وبهذا قال مالك وأبو حنيفة والأوزاعيّ . أو كان فتحها صلحا — وإليه ذهب الشافعيّ — فتبقى ديارهم بأيديهم ؛ وفى أملاكهم يتصرفون كيف شاءوا . وروى عن عمر أنه اشترى دار صَفْوان بن أمية بأربعة آلاف وجعلها سجنا ، وهو أوّل من حبس فى السجن فى الإسلام ، على ما تقدّم بيانه فى آية المحاربين من سورة «المائدة»(١) . وقد روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم حَبس فى تُهمة . وكان طاوس يكره السجن بمكة ويقول : لا ينبغى لبيت عذابٍ أن يكون فى بيت رحمة .

قلت : الصحيح ما قاله مالك ، وعليه تدل ظواهر الأخبار الثابتة بأنها فتحت عَنوة . قال أبو عبيد : ولا نعلم مكة يشبهها شيء من البلاد . وروى الدّارقُطْنيّ عن علقمة بن نَضْلة قال : توفّىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما وما تُدْعَى رِباع مكة إلا السوائب ؛ من احتاج سَكَن ومن استغنى أسكن . وزاد فى رواية : وعثمان . وروى أيضا عن علقمة بن نَضْلة الكنانيّ قال : كانت تدعَى بيوت مكة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما السوائب ، لا تباع ؛ من احتاج سَكَن ومن آستغنى أسكن . وروى أيضا عن عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله تعالى حرم مكة فحرام بيع رباعها وأكل ثمنها — وقال — من أكل من أجر بيوت مكة شيئا فإنما يأكل نارا" . قال الدارقطنى : كذا رواه أبو حنيفة مرفوعا ووَهِم فيه ، ووهم أيضا فى قوله عبيد الله بن أبى يزيد(٢) وإنما هو ابن أبى زياد القداح ، والصحيح أنه موقوف ، وأسند الدار قطنيّ أيضا عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مكة مُناخ لا تُباع رِباعها ولا تؤاجر

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٥٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) أحد رجال سند الحديث .

بيوتها". وروى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يارسول الله، ألا آبنى لك بمنًى بيتا أو بناء يُظلك من الشمس؟ فقال : "لا، إنما هو مُناخ من سبق إليه" . وتمسك الشافعى رضى الله عنه بقوله تعالى : «الذين أُخرِجوا من ديارهم» فأضافها إليهم . وقال عليه السلام يوم الفتح : "من أغلق بابه فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن" .

الرابعــة ـ قرأ جمهور الناس «سواء» بالرفع، وهو على الابتداء، و«العاكف» خبره. وقيل : الخبر « سواء » وهو مقدم؛ أى العاكف فيه والبادى سواء؛ وهو قول أبى علىّ، والمعنى : الذى جعلناه للناس قِبلة أو متعبَّدًا العاكفُ فيه والبادِى سواء . وقرأ حفص عن عاصم «سواءً» بالنصب . وهى قراءة الأعمش . وذلك يحتمل أيضا وجهين : أحدهما ـ أن يكون مفعولا ثانيا لجعل، ويرتفع « العاكف » به لأنه مصدر، فأعمِل عَمَل آسم الفاعل لأنه فى معنى مستوٍ . والوجه الثانى ـ أن يكون حالا من الضمير فى جعلناه . وقرأت فرقة «سواء» بالنصب « العاكِفِ » بالخفض، و « البادى » عطفا على الناس؛ التقدير : الذى جعلناه للناس العاكِفِ والبادِى. وقراءة ابن كَثير فى الوقف والوصل بالياء، ووقف أبو عمرو بغير ياء ووصل بالياء . وقرأ نافع بغير ياء فى الوصل والوقف . وأجمع الناس على الاستواء فى نفس المسجد الحرام، واختلفوا فى مكة؛ وقد ذكرناه .

الخامســة ـ ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ شرط، وجوابه «نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» . والإلحاد فى اللغة : الميل؛ إلا أن الله تعالى بيّن أن الميل بالظلم هو المراد . واختلف فى الظلم؛ فروى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس « ومن يرد فيه بإلحادٍ بظُلم » قال : الشرك . وقال عطاء : الشرك والقتل . وقيل : معناه صَيْد حمامه، وقطع شجره، ودخوله غير محرِم . وقال ابن عمر : كنا نتحدث أن الإلحاد فيه أن يقول الإنسان : لا والله ! و بلى والله ! وكلّا والله ! ولذلك كان له فسطاطان، أحدهما فى الحِل والآخر فى الحَرَم؛ فكان إذا أراد الصلاة دخل فسطاط الحَرَم، و إذا أراد بعض شأنه دخل فسطاط الحِلّ، صيانةً للحَرَم عن قولهم كلّا والله و بلى والله، حين عظّم الله الذنب فيه . وكذلك كان لعبد الله بن عمرو بن العاص فسطاطان أحدهما

فى الحِل والآخر فى الحرم ، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم فى الحِلّ ، وإذا أراد أن يصلّى صلّى فى الحرم ، فقيل له فى ذلك فقال : إن كنا لنتحدّث أن من الإلحاد فى الحرم أن نقول كلا والله و بلى والله ، والمعاصى تضاعف بمكة كما تضاعف الحسنات ، فتكون المعصية معصيتين ، إحداهما بنفس المخالفة والثانية بإسقاط حُرمة البلد الحرام ؛ وهكذا الأشهر الحُرُم سواء ، وقد تقدّم . وروى أبو داود عن يَعْلَى بن أمية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "احتكار الطعام فى الحرم إلحاد فيه" . وهو قول عمر بن الخطاب . والعموم يأتى على هذا كله .

السادسة — ذهب قوم من أهل التأويل منهم الضحاك وابن زيد إلى أن هذه الآية تدل على أن الإنسان يعاقَب على ما ينويه من المعاصى بمكة وإن لم يعمله . وقد رُوى نحو ذلك عن ابن مسعود وابن عمر قالوا : لو همّ رجل بقتل رجل بهذا البيت وهو (بِعَدَن أَبْيَن) (١) لعذّبه الله .

قلت : هذا صحيح ، وقد جاء هذا المعنى فى سورة «نٓ والقلم» مبيّناً ، على ما يأتى بيانه هناك إن شاء الله تعالى .

السابعة — الباء فى « بِإلحاد » زائدة كزيادتها فى قوله تعالى : « تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ » (٢) ؛ وعليه حملوا قول الشاعر :

نحن بنو جَعْدة أصحاب الفَلَج (٣) * نضرب بالسيف ونرجو بالفَرَج

أراد : نرجو الفرج . وقال الأعشى :

* ضمنت برزق عيالنا أرماحُنا *

أى رزق . وقال آخر (٤) :

ألم يأتيك والأنباءُ تَنْمِى * بما لاقت لَبُون بنى زياد

---

(١) عدن : مدينة مشهورة واقعة بالقرب من مدخل البحر الأحمر ، وتضاف الى « أبين » وهو مخلاف عدن .

(٢) آية ٢٠ سورة المؤمنون . (٣) الفلج (بتحريك ثانيه) : موضع لبنى جعدة بن قيس بنجد ، وهو فى أعلى بلاد قيس (راجع معجم ما استعجم وكتاب خزانة الأدب فى الشاهد التاسع والثمانين بعد السبعمائة) .

(٤) القائل هو قيس بن زهير العبسى ، شاعر جاهلى . وهو من قصيدة دالية قالها فيما كان شجر بينه وبين الربيع ابن زياد العبسى . (راجع خزانة الأدب فى الشاهد السادس والثلاثين بعد الستمائة) .

أى ما لاقت، والباء زائدة، وهو كثير . وقال الفراء: سمعت أعرابيا وسألته عن شيء فقال: أرجو بذاك، أى أرجو ذاك . وقال الشاعر :

بوادٍ يمانٍ يُنبت الشثَّ صدرُه * وأسفلُه بالمَرْخ والشَّبَهانِ (١)

أى المرخ. وهو قول الأخفش، والمعنى عنده : ومن يرد فيه إلحادا بظلم . وقال الكوفيون : دخلت الباء لأن المعنى بأن يلحد، والباء مع أن تدخل وتحذف . ويجوز أن يكون التقدير : ومن يرد الناس فيه بإلحاد . وهذا الإلحاد والظلم يجمع جميع المعاصى من الكفر إلى الصغائر؛ فلعظم حرمة المكان توعّد الله تعالى على نية السيئة فيه . ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب عليها إلا فى مكة . هذا قول ابن مسعود وجماعةٍ من الصحابة وغيرهم، وقد ذكرناه آنفا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أى واذكر إذ بوأنا لإبراهيم؛ يقال : بوّأته منزلا وبوّأت له . كما يقال: مكّنتك ومكّنت لك؛ فاللام فى قوله : « لإبراهيم» صلة للتأكيد؛ كقوله : « رَدِفَ لَكُم (٢) »، وهذا قول الفراء . وقيل : « بوّأنا لإبراهيم مكان البيت » أى أريناه أصله ليبنيَه ، وكان قد درَس بالطوفان وغيره ، فلما جاءت مدّة إبراهيم عليه السلام أمره الله ببنيانه ، فجاء إلى موضعه وجعل يطلب أثرا، فبعث الله ريحا فكشفت عن أساس آدم عليه السلام، فرتّب قواعده عليه؛ حسبما تقدم بيانه فى « البقرة (٣) » . وقيل: « بوّأنا » نازلة منزلة فعل يتعدّى باللام؛ كنحو جعلنا، أى جعلنا لإبراهيم مكان البيت مبوّأً . وقال الشاعر :

كم من أخٍ لى ماجدٍ * بوّأته بيدىّ لَحْدَا (٤)

---

(١) الشث : شجر طيب الريح مرّ الطعم يدبغ به . والمرخ : شجر كثير النار . والشبهان : نبت شائك له ورد لطيف أحمر . (٢) آية ٧٢ سورة النمل . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٢٢ طبعة ثانية .

(٤) البيت من قصيدة لعمرو بن معديكرب الزبيدى .

الثانيــة — ﴿ أَنْ لَا تُشْرِكْ ﴾ هي مخاطبة لإبراهيم عليه السلام في قول الجمهور . وقرأ عكرمة « أن لا يُشْرِك » باليـاء، على نقل معنى القول الذي قيل له . قال أبو حاتم : ولا بدّ من نصب الكاف على هـذه القراءة ، بمعنى لئلا يشرك . وقيـل : إن « أن » مخففة من الثقيلة . وقيـل مفسرة . وقيل زائدة ؛ مثل « فلما أن جاء البشير»(١) . وفي الآية طعن على من أشرك من قُطّان البيت ؛ أي هـذا كان الشرط على أبيكم فمَـن بعده وأنتم ، فلم تفُوا بل أشركتم . وقالت فرقة : الخطاب من قوله « أن لا تشرك » لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ وأمِر بتطهير البيت والأذان بالحج . والجمهـور على أن ذلك لإبراهيم ؛ وهـو الأصح . وتطهير البيت عام في الكفر والبدع وجميع الأنجاس والدماء . وقيل : عنى به التطهير عن الأوثان ؛ كما قال تعالى : «فآجتنبوا الرِّجْسَ من الأوثان»(٢) ؛ وذلك أن جُرْهُمًا والعمالقة كانت لهم أصنام في محل البيت وحوله قبل أن يبنيه إبراهيم عليه السلام . وقيل : المعنى نزّه بيتي عن أن يعبد فيه صنم . وهذا أمر بإظهار التوحيد فيه . وقد مضى ماللعلماء في تنزيه المسجد الحرام وغيره من المساجد بما فيه كفاية في سورة « براءة »(٣) . والقائمون هم المصلون . وذكر تعالى من أركان الصلاة أعظمها، وهو القيام والركوع والسجود .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (٢٧)

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ قرأ جمهور الناس « وأذِّن » بتشديد الذال . وقرأ الحسن بن أبي الحسن وابن مُحَيْصِن « وآذن » بتخفيف الذال ومدّ الألف . ابن عطية : وتصحّف هذا عَلَى ابن جِنّي، فإنه حكى عنهما « وأذن » على أنه فعل ماض ، وأعرب عَلَى ذلك بأن جعله عطفا على «بوّأنا»(٤) . والأذان الإعلام، وقد تقدّم في «براءة» .

(١) آية ٩٦ سورة يوسف . (٢) آية ٣٠ من هذه السورة . (٣) راجع جـ ٨ ص ١٠٤ طبعة أولى أو ثانيـة . (٤) جـ ٨ ص ٦٩

الثانيــة ـ لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، وقيل له : أذّن في الناس بالحج، قال : يارَبّ ! وما يبلغ صوتى؟ قال : أذّن وعليّ الإبلاغ ؛ فصعد إبراهيم خليل الله جبل أبى قُبيس وصاح : يأيها الناس! إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة ويجيركم من عذاب النار، فحُجّوا؛ فأجابه من كان فى أصلاب الرجال وأرحام النساء : لَبَّيْكَ اللَّهُمّ لَبَّيْك! فمن أجاب يومئذ حج على قدر الإجابة، إن أجاب مرّةً فمرّة، وإن أجاب مرتين فمرّتين؛ وجرت التلبية على ذلك؛ قاله ابن عباس وابن جبير. وروى عن أبى الطُّفيل قال قال لى ابن عباس : أتدرى ما كان أصل التلبية؟ قلت لا! قال : لما أمر إبراهيم عليه السلام أن يؤذّن فى الناس بالحج خفضت الجبال رءوسها ورُفعت له القرى؛ فنادى فى الناس بالحج فأجابه كل شيء : لَبَّيْكَ اللَّهُمّ لَبَّيْك. وقيل: إن الخطاب لإبراهيم عليه السلام تمّ عند قوله « السجود »، ثم خاطب الله عز وجل محمدا عليه الصلاة والسلام فقال «وأذّن فى الناس بالحج»؛ أى أعلمهم أن عليهم الحج. وقول ثالث ـ إن الخطاب من قوله «أن لا تشرك» مخاطبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم. وهذا قول أهل النظر؛ لأن القرآن أنزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم، فكل ما فيه من المخاطبة فهى له إلا أن يدل دليل قاطع على غير ذلك. وهاهنا دليل آخر يدل على أن المخاطبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو « أن لا تشرك بى » بالتاء، وهذا مخاطبة لمشاهد، وإبراهيم عليه السلام غائب؛ فالمعنى على هذا : وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت فجعلنا لك الدلائل على توحيد الله تعالى وعلى أن إبراهيم كان يعبد الله وحده. وقرأ جمهور الناس « بالحج » بفتح الحاء. وقرأ ابن أبى إسحاق فى كل القرآن بكسرها. وقيل : إن نداء إبراهيم من جملة ما أمر به من شرائع الدين. والله أعلم.

الثالثــة ـ قوله تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ وعده إجابة الناس إلى حج البيت ما بين راجل وراكب، وإنما قال « يأتوك » وإن كانوا يأتون الكعبة لأن المنادى إبراهيم، فمن أتى الكعبة حاجا فكأنما أتى إبراهيم؛ لأنه أجاب نداءه، وفيه تشريف إبراهيم. ابن عطية : « رجالا » جمع راجل مثل تاجر وتجار، وصاحب وصحاب. وقيل : الرجال

جمع رَجْل، والرَّجْل جمع راجل؛ مثل تجار وتجر وتاجر، وصحاب وصحب وصاحب . وقد يقال في الجمع : رُجّال، بالتشديد؛ مثل كافر وكفار . وقرأ ابن أبي إسحاق وعكرمة « رُجَالا » بضم الراء وتخفيف الجيم ، وهو قليل في أبنية الجمع ، و رويت عن مجاهد . وقرأ مجاهد «رُجَالَى» على وزن فُعَالَى؛ فهو مثل كسالى . قال النحاس : في جمع راجل خمسة أوجه، رُجّال مثل رُكّاب، وهو الذي روى عن عكرمة،ورجال مثل قيام، ورَجْلة، ورَجْل، ورَجّالة . والذي روى عن مجاهد رُجَالًا غير معروف ، والأشبه به أن يكون غير منون مثل كُسالى وسُكارى ؛ ولو نُوِّن لكان على فُعالٍ، وفُعَالٌ في الجمع قليل . وقدم الرجال على الرُّكبان في الذكر لزيادة تعبهم في المشي . ﴿ وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ ﴾ لأن معنى « ضامر » معنى ضوامر . قال الفراء : ويجوز « يأتي » على اللفظ . والضامر : البعير المهزول الذي أتعبه السفر؛ يقال : ضَمُرَ يَضْمُر ضُمورا ؛ فوصفها الله تعالى بالمآل الذي انتهت عليه إلى مكة . وذكر سبب الضمور فقال : « يأتين مِن كُلِّ فَجٍّ عميقٍ » أي أثّر فيها طول السفر. وردّ الضمير إلى الإبل تكرمة لها لقصدها الحج مع أربابها ؛ كما قال : « والعادياتِ ضَبْحًا » في خيل الجهاد تكرمة لها حين سعت في سبيل الله .

الرابعة — قال بعضهم : إنما قال «رجالا» لأن الغالب خروج الرجال إلى الحج دون الإناث؛ فقوله « رجالا » من قولك : هذا رجل؛ وهذا فيه بعد؛ لقوله «وعلى كل ضامر» يعني الركبان ، فدخل فيه الرجال والنساء . ولما قال تعالى « رجالا » وبدأ بهم دل ذلك على أن حج الراجل أفضل من حج الراكب . قال ابن عباس : ما آسى على شيء فاتني إلا أن لا أكون حججت ماشيا ، فإني سمعت الله عز وجل يقول «يأتوك رجالا» . وقال ابن أبي نجيح : حج إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ماشيَيْن . وقرأ أصحاب ابن مسعود « يأتون » وهي قراءة ابن أبي عبلة والضحاك، والضمير للناس .

الخامسة — لا خلاف في جواز الركوب والمشي، واختلفوا في الأفضل منهما؛ فذهب مالك والشافعي في آخرين إلى أن الركوب أفضل، اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولكثرة

النفقة ولتعظيم شعائر الحج بأهبة الركوب . وذهب غيرهم إلى أن المشي أفضل لما فيه من المشقّة على النفس ، ولحديث أبي سعيد قال : حجّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة ، وقال : "اربطوا أوساطكم بأزركم" ومشى خلط الهرولة[1] ؛ خرّجه ابن ماجه في سننه . ولا خلاف في أن الركوب عند مالك في المناسك كلّها أفضل ؛ للاقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم .

السادسة ـ استدلّ بعض العلماء بسقوط ذكر البحر من هذه الآية على أن فرض الحج بالبحر ساقط . قال مالك في الموّازيّة : لا أسمع للبحر ذكرا ، وهذا تأنس ، لا أنه يلزم من سقوط ذكره سقوط الفرض فيه ؛ وذلك أن مكة ليست في ضفّة بحر فيأتيها الناس في السفن ، ولا بد لمن ركب البحر أن يصير في إتيان مكة إما راجلا وإما على ضامر ، فإنما ذكرت حالتا الوصول ؛ وإسقاط فرض الحج بمجرد البحر ليس بالكثير ولا بالقويّ . فأما إذا اقترن به عدوّ وخوف أو هول شديد أو مرض يلحق شخصا ، فمالك والشافعيّ وجمهور الناس على سقوط الوجوب بهذه الأعذار ، وأنه ليس بسبيل يستطاع . قال ابن عطية : وذكر صاحب الاستظهار في هذا المعنى كلاما ، ظاهره أن الوجوب لا يسقط بشيء من هذه الأعذار ؛ وهذا ضعيف .

قلت : وأضعف من ضعيف ، وقد مضى في « البقرة » بيانه . والفجّ : الطريق الواسعة ، والجمع فجاج . وقد مضى في « الأنبياء »[2] . والعميق معناه البعيد . وقراءة الجماعة « يأتين » . وقرأ أصحاب عبد الله « يأتون » وهذا للركبان و « يأتين » للجمال ؛ كأنه قال : وعلى إبل ضامرة يأتين ﴿ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ أي بعيد ؛ ومنه بئر عميقة أي بعيدة القعر ؛ ومنه :

* وقاتم الأعماق خاوي المخترق[3] *

---

(١) خلط الهرولة (بالكسر) أي شيئا مخلوطا بالهرولة ، بأن يمشي حينا ويهرول حينا أو معتدلا .

(٢) راجع جـ ١١ ص ٢٨٥ (٣) هذا أول أرجوزة من أراجيز رؤبة بن العجاج ، وبعده :

* مشتبه الأعلام لماع الخفق *

السابعـــة — واختلفوا فى الواصل إلى البيت ، هل يرفع يديه عنـد رؤيته أم لا ؟ فروى أبو داود قال : سـئل جابر بن عبـد الله عن الرجل يرى البيت ويرفع يديه فقـال : ما كنت أرى أن أحدا يفعل هذا إلا اليهود ، وقد حججنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نكن نفعله . وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ترفع الأيدى فى سبع مواطن افتتاح الصلاة واستقبال البيت والصّفا والمَرْوَة والموقفين والجمرتين" . وإلى حديث ابن عباس هـذا ذهب الثورىّ وابن المبارك وأحمـد وإسحاق وضعفوا حديث جابر؛ لأن مهاجرا المكىّ راوية مجهول . وكان ابن عمر يرفع يديه عند رؤية البيت . وعن ابن عباس مثله .

قوله تعـالى : لِيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

فيه ثلاث وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ لِيَشْهَدُوا ﴾ أى أذّن بالحج يأتوك رجالا وركبانا ليشهدوا ؛ أى ليحضروا . والشهود الحضور . ﴿ مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ أى المناسك؛ كعرفات والمَشْعَر الحرام . وقيل المغفرة . وقيـل التجارة . وقيل هو عموم ؛ أى ليحضروا منافع لهم، أى ما يرضى الله تعالى من أمر الدنيا والآخرة؛ قاله مجاهد وعطاء واختاره ابن العربى؛ فإنه يجمع ذلك كله من نسـك وتجارة ومغفرة ومنفعة دنيا وأخرى . ولا خلاف فى أن المراد بقوله : « ليس عليكم جُناح أن تبتغوا فضْلاً من ربكم »[١] التجارة .

الثـانيـــة — ﴿ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ ﴾ قد مضى فى « البقرة » الكلام فى الأيام المعلومات والمعدودات[٢] . والمراد بذكر اسم الله ذكر التسمية عند الذبح والنحر؛ مثل

(١) راجع جـ ٢ ص ٤١٣ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٣ ص ١

قولك : باسم الله والله أكبر، اللهم منك ولك . ومثل قولك عند الذبح « إن صلاتِي ونسكِي »[(١)] الآية . وكان الكفار يذبحون على أسماء أصنامهم، فبيّن الرب أن الواجب الذبح على اسم الله؛ وقد مضى فى « الأنعام »[(٢)] .

الثالثة — واختلف العلماء فى وقت الذبح يوم النحر؛ فقال مالك رضى الله عنه : بعد صلاة الإمام وذبحه ؛ إلا أن يؤخر تأخيرا يتعدّى فيه فيسقط الاقتداء به . وراعى أبو حنيفة الفراغ من الصلاة دون ذبح . والشافعىّ دخول وقت الصلاة ومقدار ما توقع فيه مع الخطبتين؛ فاعتبر الوقت دون الصلاة . هذه رواية المُزَنىّ عنه، وهو قول الطبرىّ . وذكر الربيع عن البُوَيْطىّ قال قال الشافعىّ : ولا يذبح أحد حتى يذبح الإمام إلا أن يكون ممن لا يذبح، فإذا صلى وفرغ من الخطبة حلّ الذبح . وهذا كقول مالك . وقال أحمد : إذا انصرف الإمام فاذبح . وهو قول إبراهيم . وأصح هذه الأقوال قول مالك؛ لحديث جابر بن عبد الله قال : صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر بالمدينة، فتقدّم رجال فنحروا وظنّوا أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قد نحر، فأمر النبىّ صلى الله عليه وسلم من كان نحر أن يعيد بنحرٍ آخر، ولا ينحروا حتى ينحر النبىّ صلى الله عليه وسلم . خرجه مسلم والترمذىّ وقال : وفى الباب عن جابر وجُنْدَب وأنس وعُوَيْمر بن أشقر وآبن عمر وأبى زيد الأنصارىّ، وهذا حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم ألا يضحّى بالمصر حتى يصلى الإمام . وقد احتج أبو حنيفة بحديث البَرَاء ، وفيه : "ومن ذبح بعد الصلاة فقد تمّ نُسُكُه وأصاب سنة المسلمين" . خرجه مسلم أيضا . فعلّق الذبح على الصلاة ولم يذكر الذبح ؛ وحديث جابر يقيّده . وكذلك حديث البراء أيضا، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أول ما نبدأ به فى يومنا هذا أن نصلى ثم نرجع فننحر فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا" الحديث . وقال أبو عمر بن عبد البر : لا أعلم خلافا بين العلماء أن من ذبح قبل الصلاة وكان من أهل المصر أنه غير مُضَحٍّ؛ لقوله عليه السلام : "من ذبح قبل الصلاة فتلك شاة لحم" .

---

(١) آية ١٦٢ سورة الأنعام . (٢) راجع جـ ٧ ص ٧٢

الرابعـــة — وأما أهل البوادى ومن لا إمام له فمشهور مذهب مالك يتحرى وقت ذبح الإمام، أو أقرب الأئمة إليه . وقال ربيعة وعطاء فيمن لا إمام له : إن ذبح قبل طلوع الشمس لم يجزه، ويجزيه إن ذبح بعده . وقال أهل الرأى : يجزيهم من بعد الفجر . وهو قول ابن المبارك، ذكره عنه الترمذىّ . وتمسكوا بقوله تعالى : «وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأنعامِ » ، فأضاف النحر إلى اليوم . وهل اليوم من طلوع الفجر أو من طلوع الشمس، قولان . ولا خلاف أنه لا يجزى ذبح الأضحيّة قبل طلوع الفجر من يوم النحـــر .

الخامســـة — واختلفوا كم أيام النحر؟ فقال مالك : ثلاثة ، يوم النحر ويومان بعده . وبه قال أبو حنيفة والثورىّ وأحمد بن حنبل، وروى ذلك عن أبى هريرة وأنس بن مالك من غير اختلاف عنهما . وقال الشافعىّ : أربعة، يوم النحر وثلاثة بعده . وبه قال الأوزاعىّ، وروى ذلك عن علىّ رضى الله عنه وابن عبـاس وابن عمر رضى الله عنهـم، وروى عنهم أيضا مثل قول مالك وأحمد . وقيـل : هو يوم النحر خاصـة وهو العاشر من ذى الحجة ؛ وروى عن ابن سـيرين . وعن سعيد بن جُبير وجابر بن زيد أنهما قالا : النحر فى الأمصار يوم واحد وفى منًى ثلاثة أيام . وعن الحسن البصرىّ فى ذلك ثلاث روايات : إحداها كما قال مالك ، والثانية كما قال الشافعىّ ، والثالثة إلى آخر يوم من ذى الحجة، فإذا أهـل هلال المحرم فلا أَضْحَى .

قلت : وهو قول سليمان بن يسار وأبى سلمة بن عبـد الرحمن ، ورويا حديثا مرسـلا مرفوعا خرجه الدَّارَقُطْنىّ : الضحايا إلى هلال ذى الحجة ؛ ولم يصح ، ودليلنا قوله تعـالى : «فى أيام معلوماتٍ » الآيةَ، وهـذا جمع قِلة ؛ لكن المتيقن منه الثلاثة، وما بعد الثلاثة غير متيقن فلا يعمل به . قال أبو عمر بن عبد البر : أجمع العلماء على أن يوم النحر يوم أَضْحَى ، وأجمعوا أن لا أضحى بعـد انسلاخ ذى الحجة، ولا يصح عندى فى هذه إلا قولان : أحدهما — قول مالك والكوفيين . والآخر — قول الشافعىّ والشاميين ؛ وهذان القولان مرويان

عن الصحابة فلا معنى للاشتغال بما خالفهما ؛ لأن ما خالفهما لا أصل له في السنة ولا في قول الصحابة ، وما خرج عن هذين فمتروك لها . وقد روى عن قتادة قول سادس ، وهو أن الأضحى يوم النحر وستة أيام بعده ؛ وهذا أيضا خارج عن قول الصحابة فلا معنى له .

السادسة ـ واختلفوا في ليالي النحر هل تدخل مع الأيام فيجوز فيها الذبح أولا ؛ فروى عن مالك في المشهور أنها لا تدخل فلا يجوز الذبح بالليل . وعليه جمهور أصحابه وأصحاب الرأي ؛ لقوله تعالى : « ويذكروا اسم الله في أيام » فذكر الأيام ، وذكر الأيام دليل على أن الذبح في الليل لا يجوز . وقال أبو حنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور : الليالي داخلة في الأيام ويجزى الذبح فيها . وروى عن مالك وأشهب نحوه ، ولأشهب تفريق بين الهدى والضحية ، فأجاز الهدى ليلا ولم يجز الضحية ليلا .

السابعة ـ قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم ﴾ أي على ذبح ما رزقهم . ﴿ من بهيمة الأنعام ﴾ والأنعام هنا الإبل والبقر والغنم . وبهيمة الأنعام هي الأنعام ؛ فهو كقولك صلاة الأولى ، ومسجد الجامع .

الثامنة ـ ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ أمر معناه الندب عند الجمهور . ويستحب للرجل أن يأكل من هديه وأضحيته وأن يتصدق بالأكثر ، مع تجويزهم الصدقة بالكل وأكل الكل . وشذت طائفة فأوجبت الأكل والإطعام بظاهر الآية ، ولقوله عليه السلام : " فكلوا وادخروا وتصدقوا " . قال الكيا : قوله تعالى « فكلوا منها وأطعموا » يدل على أنه لا يجوز بيع جميعه ولا التصدق بجميعه .

التاسعة ـ دماء الكفارات لا يأكل منها أصحابها . ومشهور مذهب مالك رضى الله عنه أنه لا يأكل من ثلاث : جزاء الصيد ، ونذر المساكين وفدية الأذى ، ويأكل مما سوى ذلك إذا بلغ محله ، واجبا كان أو تطوعا . ووافقه على ذلك جماعة من السلف وفقهاء الأمصار .

العاشرة . فإن أكل مما منع منه فهل يغرم قدر ما أكل أو يغرم هديا كاملا ؛ قولان في مذهبنا ، وبالأول قال ابن الماجشون . قال ابن العربي : وهو الحق ، لا شيء عليه غيره .

وكذلك لو نذر هَـدْيًا للساكين فيأكل منه بعـد أن بلغ مَحِلّه لا يَغْرَم إلا ما أكل — خلافا للدوّنة — لأن النحر قد وقع، والتعدّى إنما هو على اللحم، فيغرم قدر ما تعدّى فيه .

قوله تعـالى : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ يدل على وجوب إخراج النـذر إن كان دَمًا أو هَدْيًا أو غيره، ويدل ذلك على أن النذر لا يجـوز أن يأكل منه وفاء بالنذر ، وكذلك جزاء الـ . وفدية الأذى ؛ لأن المطلوب أن يأتى به كاملا من غير نقص لحم ولا غيره، فإن أكل من ذلك كان عليه هَدْىٌ كامل . والله أعلم .

الحادية عشرة — هل يَغْرَم قيمة اللحم أو يغرم طعاما؛ ففى كتاب محمـد عن عبـد الملك أنه يغرم طعاما . والأول أصح؛ لأن الطعام إنمـا هو فى مقابلة الهدْى كله عند تعذره عبادة، وليس حكم التعدى حكم العبادة .

الثانيـة عشرة — فإن عَطِب من هذا الهـَدْى المضمون الذى هو جزاء الصيد وفدية الأذى ونذر المساكين شىء قبـل مَحِلّه أكل منه صاحبه وأطعم منه الأغنيـاء والفقراء ومن أحب، ولا يبيع من لحمـه ولا جلده ولا من قلائده شيئا . قال إسماعيل بن إسحـاق : لأن الهدى المضمون إذا عَطِب قبـل أن يبلغ مَحِلّه كان عليـه بدله؛ ولذلك جاز أن يأكل منه صاحبه ويطعم . فإذا عطِب الهدى التطوع قبل أن يبلغ محله لم يجز أن يأكل منه ولا يُطعم؛ لأنه لمـا لم يكن عليه بدله خيف أن يفعل ذلك بالهَدْي وينحر من غير أن يعطَب، فاحتيط على الناس، وبذلك مضى العمل . وروى أبو داود عن ناجية الأسلمى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معه بهَدْى وقال : " إن عطِب منها شىء فانحره ثم اصبغ نعله فى دمه ثم خَلِّ بينه وبين النـاس " . وبهذا الحديث قال مالك والشافعىّ فى أحد قوليه . وأحمـد وإسحاق وأبو ثَوْر وأصحاب الرأى ومن اتبعهم فى الهدى التطوع : لا يأكل منها سائقها شيئا، ويخلّى بينها وبين النـاس يأكلونها . وفى صحيح مسلم : " ولا تأكل منهـا أنت ولا أحد من أهل رفقتك" . وبظاهر هذا النهى قال ابن عباس والشافعىّ فى قوله الآخر، واختاره ابن المنذر، فقالا : لا يأكل منها ولا أحد من أهل رفقته . قال أبو عمر : قوله عليه السلام "ولا يأكل منها أحد ولا أحد من أهل رفقتك " لا يوجد إلا فى حديث ابن عباس . وليس ذلك

فى حديث هشام بن عروة عن أبيه عن ناجية. وهو عندنا أصح من حديث ابن عباس، وعليه العمل عند الفقهاء. ويدخل فى قوله عليه السلام: " خلّ بينها و بين الناس " أهلُ رفقته وغيرُهم. وقال الشافعىّ وأبو ثور: ماكان من الهَدْى أصله واجبا فلا يأكل منه، وماكان تطوعا ونسكا أكل منه وأهدى وادّخر وتصدّق. والمتعة والقِران عنده نسك. ونحوه مذهب الأوزاعىّ. وقال أبو حنيفة وأصحابه: يأكل من هَدْى المتعة والتطوّع، ولا يأكل مما سوى ذلك مما وجب بحكم الإحرام. وحكى عن مالك: لا يأكل من دم الفساد. وعلى قياس هذا لا يأكل من دم الجبر؛ كقول الشافعىّ والأوزاعى. تمسّك مالك بأن جزاء الصيد جعله الله للمساكين بقوله تعالى: « أو كفارةٌ طعامُ مساكينَ »[(1)]. وقال فى فِدْية الأذَى: « فَفِدْيةٌ مِن صِيامٍ أو صدقةٍ أو نسك »[(2)]. وقال صلى الله عليه وسلم لكعب بن عُجْرة: " أطعم ستة مساكين مُدَّيْن لكل مسكين أو صُمْ ثلاثة أيام أو انسك شاة ". ونذر المساكين مصرّح به، وأما غير ذلك من الهدايا فهو باق على أصل قوله: « والبُدْنَ جعلناها لكم مِن شعائرِ الله ـ إلى قوله ـ فكلوا منها ». وقد أكل النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلىّ رضى الله عنه من الهدى الذى جاء به وشربا من مَرَقه، وكان عليه السلام قارنا فى أصح الأقوال والروايات؛ فكان هديه على هذا واجبا، فما تعلق به أبو حنيفة غير صحيح. والله أعلم.

وإنما أذن الله سبحانه من الأكل من الهدايا لأجل أن العرب كانت لا ترى أن تأكل من نسكها، فأمر الله سبحانه وتعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بمخالفتهم؛ فلا جَرم كذلك شَرع وبلّغ، وكذلك فعل حين أهدى وأحرم صلى الله عليه وسلم.

الثالثة عشرة ـ ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قال بعض العلماء: قوله تعالى « فكلوا منها » ناسخ لفعلهم؛ لأنهم كانوا يحرمون لحوم الضحايا على أنفسهم ولا يأكلون منها ـ كما قلناه فى الهدايا ـ فنسخ الله ذلك بقوله: « فكلوا منها »، وبقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: "من ضحّى فليأكل من أضحيّته" ولأنه عليه السلام أكل من أضحيّته وهديه. وقال الزهرىّ: من السنة أن تأكل أوّلا من الكبد.

(1) آية ٩٥ سورة المائدة. (2) آية ١٩٦ سورة البقرة.

الرابعة عشرة — ذهب أكثر العلماء إلى أنه يستحب أن يتصدّق بالثلث ويطعم الثلث ويأكل هو وأهله الثلث . وقال ابن القاسم عن مالك : ليس عندنا فى الضحايا قسم معلوم موصوف، قال مالك فى حديثه : وبلغنى عن ابن مسعود، وليس عليه العمل. روى الصحيح وأبو داود قال : ضحّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة ثم قال : "يا ثَوْبان ، أصلح لحم هذه الشاة" قال : فما زلت أطعمه منها حتى قدم المدينة . وهذا نص فى الفرض . واختلف قول الشافعيّ ؛ فمرة قال : يأكل النصف ويتصدّق بالنصف لقوله تعالى : « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » فذكر شخصين . وقال مرة : يأكل ثلثا ويهدى ثلثا ويطعم ثلثا؛ لقوله تعالى : « فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا القانِعَ والمُعْتَرَّ » فذكر ثلاثة .

الخامسة عشرة — المسافر يخاطب بالأضحيّة كما يخاطب بها الحاضر؛ إذ الأصل عموم الخطاب بها، وهو قول كافة العلماء . وخالف فى ذلك أبو حنيفة والنَّخَعيّ، وروى عن عليّ؛ والحديث حجة عليهم . واستثنى مالكٌ من المسافرين الحاج بمِنًى، فلم ير عليه أضحية ؛ وبه قال النخعيّ . وروى ذلك عن الخليفتين أبى بكر وعمر وجماعة من السلف رضى الله عنهم؛ لأن الحاج إنما هو مخاطب فى الأصل بالهَدْى ، فإذا أراد أن يضحى جعله هديا ، والناس غير الحاج إنما أمروا بالأضحية ليتشبهوا بأهل مِنًى فيحصل لهم حظ من أجرهم .

السادسة عشرة — اختلف العلماء فى الادّخار على أربعة أقوال. روى عن عليّ وابن عمر رضيَ الله عنهما من وجه صحيح أنه لا يدّخر من الضحايا بعد ثلاث . ورو ياه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وسيأتى . وقالت جماعة : ما روى من النهى عن الادّخار منسوخ ؛ فيدّخر إلى أى وقت أحبّ . وبه قال أبو سعيد الخُدْرى وبُريدة الأسلمى . وقالت فرقة : يجوز الأكل منها مطلقا. وقالت طائفة : إن كانت بالناس حاجة إليها فلا يدّخر؛ لأن النهى إنما كان لعلة وهى قوله عليه السلام : "إنما نهيتكم من أجل الدّافّة التى دفّت"(١) ولما ارتفعت ارتفع المنع المتقدّم لارتفاع موجبه، لا لأنه منسوخ . وتنشأ هنا مسألة أصولية وهى :

(١) الدافة : القوم يسيرون جماعة سيرا ليس بالشديد . والدافة : قوم من الأعراب يريدون المصر؛ يريد أنهم قوم قدموا المدينة عند الأضحى ، فنهاهم عن ادخار لحوم الأضاحى ليفرقوها ويتصدقوا بها فينتفع أولئك القادمون بها . (ابن الأثير).

• السابعة عشرة ـــ وهى الفرق بين رفع الحكم بالنسخ ورفعه لارتفاع علته . اعلم أن المرفوع بالنسخ لا يُحكم به أبدا ، والمرفوع لارتفاع علته يعود الحكم لعود العلة؛ فلو قدم على أهل بلدة ناس محتاجون فى زمان الأضحى ، ولم يكن عند أهل ذلك البلد سعة يسدون بها فاقتهم إلا الضحايا لتعين عليهم ألا يدخروها فوق ثلاث كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم .

الثامنة عشرة ـــ الأحاديث الواردة فى هذا الباب بالمنع والإباحة صحاح ثابتة . وقد جاء المنع والإباحة معا، كما هو منصوص فى حديث عائشة وسَلَمة بن الأكوع وأبى سعيد الخُدْرى رواها الصحيح . وروى الصحيح عن أبى عبيد مَوْلَى ابن أزهر أنه شهد العيد مع عمر بن الخطاب قال : ثم صليت العيد مع على بن أبى طالب رضى الله عنه؛ قال : فصلّى لنا قبل الخطبة ثم خطب الناس فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهاكم أن تأكلوا لحوم نسككم فوق ثلاث ليال فلا تأكلوها . وروى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى أن تؤكل لحوم الأضاحى فوق ثلاث . قال سالم : فكان ابن عمر لا يأكل لحوم الأضاحى فوق ثلاث له وروى أبو داود عن نُبيشة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنا كنا نهيناكم عن لحومها فوق ثلاث لكى تَسَعكم جاء الله بالسعة فكلوا وادخروا واتَّجِروا ألا إن هذه الأيام أيامُ أكل وشرب وذكرٍ لله عز وجل" . قال أبو جعفر النحاس : وهذا القول أحسن ما قيل فى هذا حتى تتفق الأحاديث ولا تتضاد، ويكون قول أمير المؤمنين على بن أبى طالب وعثمانُ محصور؛ لأن الناس كانوا فى شدة محتاجين، ففعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدمت الدافّة . والدليل على هذا ما حدثنا إبراهيم بن شريك قال : حدثنا أحمد قال حدثنا ليث قال حدثنى الحارث بن يعقوب عن يزيد بن أبى يزيد عن امرأته أنها سألت عائشة رضى الله عنها عن لحوم الأضاحى فقالت : قدم علينا على بن أبى طالب من سفر فقدمنا إليه منه، فأبى أن يأكل حتى يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله فقال : "كُل من ذى الحجة إلى ذى الحجة" . وقال الشافعى : من قال بالنهى عن الادخار بعد ثلاث لم يسمع الرخصة . ومن قال بالرخصة مطلقا لم يسمع النهى عن الادخار . ومن قال بالنهى

والرخصة سمعهما جميعا فعمل بمقتضاهما . والله أعلم . وسيأتى فى سورة « الكوثر » الاختلافُ فى وجوب الأضحيّة وندبيّتها وأنها ناسخة لكل ذبح تقدّم، إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ « الفقير » من صفة البائس، وهو الذى ناله البؤس وشدّة الفقر؛ يقال : بَئِس يبأس بأسا إذا افتقر؛ فهو بائس . وقد يستعمل فيمن نزلت به نازلةُ دهرٍ وإن لم يكن فقيرا؛ ومنه قوله عليه السلام : " لكن البائس سعد بن خَوْلة "[1] . ويقال : رجل بَئِيسٌ أى شديد . وقد بَؤُس يبؤس بأسا إذا اشتدّ؛ ومنه قوله تعالى : « وأَخَذْنَا الذينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ »[2] أى شديد . وكلما كان التصدق بلحم الأضحيّة أكثر كان الأجر أوفر . وفى القدر الذى يجوز أكله خلاف قد ذكرناه؛ فقيل النصف؛ لقوله : « فكُلُوا ، وأطعموا » وقيل الثلثان؛ لقوله : " ألا فكُلُوا وادّخروا وأْتجروا " أى اطلبوا الأجر بالإطعام . واختلف فى الأكل والإطعام؛ فقيل واجبان . وقيل مستحبان . وقيل بالفرق بين الأكل والإطعام؛ فالأكل مستحب والإطعام واجب؛ وهو قول الشافعىّ .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ أى ثم ليقضوا بعد نحر الضحايا والهدايا ما بقى عليهم من أمر الحج؛ كالحَلْق ورَمْى الجمار وإزالة شَعث ونحوه . قال ابن عرفة : أى ليزيلوا عنهم أدرانهم . وقال الأزهرىّ : التَّفَث الأخذ من الشارب وقص الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة؛ وهذا عند الخروج من الإحرام . وقال النضر بن شُميل : التفث فى كلام العرب إذهاب الشَّعَث، وسمعت الأزهرى يقول : التفث فى كلام العرب لا يعرف إلا من قول ابن عباس وأهل التفسير . وقال الحسن : هو إزالة قشف الإحرام . وقيل : التفث مناسك الحج كلّها ؛ رواه ابن عمر وابن عباس . قال ابن العربىّ : لو صح عنهما لكان حجة لشرف الصحبة والإحاطة باللغة ؛ قال : وهذه اللفظة غريبة لم يجد أهل العربية فيها شعرا ولا أحاطوا بها خبرا ؛ لكنى تتبعت التفث لغةً فرأيت أبا عبيدة مَعْمر بن المُثَنَّى قال :

---

(١) رثى له النبىّ صلى الله عليه وسلم أن مات بمكة . يعنى فى الأرض التى هاجر منها . (راجع ترجمته فى كتاب الاستيعاب) . (٢) آية ١٦٥ سورة الأعراف .

إنه قص الأظفار وأخذ الشارب وكل ما يحرم على المحرم إلا النكاح . قال : ولم يجئ فيه شعر يحتج به . وقال صاحب العين : التفث هو الرمي والحلق والتقصير والذبح وقص الأظفار والشارب والإبط . وذكر الزجاج والفراء نحوه ، ولا أراه أخذوه إلا من قول العلماء . وقال قُطْرُب : تفث الرجل إذا كثر وسخه . قال أمية بن أبي الصلت :

حَفُّوا رءوسهمُ لم يحلقوا تفثاً * ولم يَسُلُّوا لهم قَمْلاً وصِئبانا

وما أشار إليه قُطْرب هو الذي قاله ابن وهب عن مالك ، وهو الصحيح في التفث . وهذه صورة إلقاء التفث لغة ؛ وأما حقيقته الشرعية فإذا نحر الحاج أو المُعْتَمِر هَدْيه وحلق رأسه وأزال وسخه وتطهر وتنقّى ولبس فقد أزال تفثه ووفَّى نذره ؛ والنذر ما لزم الإنسان وآلتزمه .

قلت : ما حكاه عن قُطْرب وذكر من الشعر قد ذكره في تفسيره الماوردي ، وذكر بيتا آخر فقال :

قَضَوْا تَفَثاً ونَحْباً(١) ثم ساروا * إلى نَجْد وما انتظروا عليًّا

وقال الثعلبي : وأصل التفث في اللغة الوسخ ؛ تقول العرب للرجل تستقذره : ما أتفثك ؛ أي ما أوسخك وأقذرك . قال أمية بن أبي الصلت :

ساخين(٢) آباطهم لم يقذفوا تفثاً * وينزعوا عنهمُ قَمْلاً وصِئبانا

الماوردي : قيل لبعض الصلحاء ما المعنيّ في شعث المحرِم ؟ قال : ليشهد الله تعالى منك الإعراض عن العناية بنفسك فيعلم صدقك في بذلها لطاعته .

الحادية والعشرون ــ ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ أمروا بوفاء النذر مطلقا إلا ما كان معصية ؛ لقوله عليه السلام : " لا وفاء لنذر في معصية الله " ، وقوله : " من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه " . ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ الطواف المذكور في هذه الآية هو طواف الإفاضة الذي هو من واجبات الحج . قال الطبري : لا خلاف بين المتأولين في ذلك .

---

(١) من معاني النحب : الحاجة والنذر . (٢) ساخين : تاركين .

الثانية والعشرون ــ للحج ثلاثة أطواف : طواف القُدوم ، وطواف الإفاضة ، وطواف الوَداع . قال إسماعيل بن إسحاق : طواف القدوم سُنّة ، وهو ساقط عن المراهق وعن المكيّ وعن كل من يُحرِم بالحج من مكة . قال : والطواف الواجب الذي لا يسقط بوجه من الوجوه ، وهو طواف الإفاضة الذي يكون بعد عرَفة ؛ قال الله تعالى : « ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بالبيت العتيق » . قال : فهذا هو الطواف المفترض في كتاب الله عز وجل ، وهو الذي يحل به الحاج من إحرامه كله . قال الحافظ أبو عمر : ما ذكره إسماعيل في طواف الإفاضة هو قول مالك عند أهل المدينة ، وهي رواية ابن وهب وابن نافع وأشهب عنه . وهو قول جمهور أهل العلم من فقهاء أهل الحجاز والعراق . وقد روى ابن القاسم وابن عبد الحكم عن مالك أن طواف القدوم واجب . وقال ابن القاسم في غير موضع من المدونة ورواه أيضا عن مالك : الطواف الواجب طواف القادم مكة . وقال : من نسي الطواف في حين دخوله مكة أو نسي شوطا منه ، أو نسي السّعْي أو شوطا منه حتى رجع إلى بلده ثم ذكره ، فإن لم يكن أصاب النساء رجع إلى مكة حتى يطوف بالبيت ويركع ويسعى بين الصفا والمروة ، ثم يُهْدِي . وإن أصاب النساء رجع فطاف وسَعَى ، ثم اعتمر وأهدى . وهذا كقوله فيمن نسي طواف الإفاضة سواء . فعلى هذه الرواية الطوافان جميعا واجبان ، والسّعْيُ أيضا . وأما طواف الصَّدَر وهو المسمى بطواف الوداع فروى ابن القاسم وغيره عن مالك فيمن طاف طواف الإفاضة على غير وضوء : أنه يرجع من بلده فيفيض إلا أن يكون تطوّع بعد ذلك . وهذا مما أجمع عليه مالك وأصحابه ، وأنه يجزيه تطوعه عن الواجب المفترض عليه من طوافه . وكذلك أجمعوا أن من فعل في حجه شيئا تطوّع به من عمل الحج ، وذلك الشيء واجب في الحج قد جاز وقته ، فإن تطوّعه ذلك يصير للواجب لا للتطوع ؛ بخلاف الصلاة . فإذا كان التطوع ينوب عن الفرض في الحج كان الطواف لدخول مكة أحْرى أن ينوب عن طواف الإفاضة ، إلا ما كان من الطواف بعد رَمْي جمرة العَقَبة يوم النحر أو بعده للوداع . ورواية ابن عبد الحكم عن مالك بخلاف ذلك ؛ لأن فيها أن طواف

الدخول مع السعي ينوب عن طواف الإفاضة لمن رجع إلى بلده مع الهدى، كما ينوب طواف الإفاضة مع السعي لمن لم يَطُف ولم يَسْعَ حين دخوله مكة مع الهدى أيضا عن طواف القدوم . ومن قال هذا قال : إنما قيل لطواف الدخول واجب ولطواف الإفاضة واجب لأن بعضهما ينوب عن بعض، ولأنه قد روى عن مالك أنه يرجع من نسى أحدهما من بلده على ما ذكرنا ، ولأن الله عز وجل لم يفترض على الحاج إلا طوافا واحدا بقوله : « وأَذِّنْ فِي النّاسِ بِالحج » ، وقال في سياق الآية : « وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ العَتِيقِ » والواو عندهم في هذه الآية وغيرها لا توجب رتبة إلا بتوقيف . وأسند الطبري عن عمرو بن أبي سلمة قال : سألت زهيرا عن قوله تعالى : «وليطوّفوا بالبيت العتيق» فقال : هو طواف الوداع . وهذا يدل على أنه واجب ، وهو أحد قولي الشافعي ؛ لأنه عليه السلام رخص للحائض أن تَنْفِر دون أن تطوفه ، ولا يرخّص إلا في الواجب .

الثالثة والعشرون ـ اختلف المتأولون في وجه صفة البيت بالعتيق ؛ فقال مجاهد والحسن : العتيق القديم . يقال : سيف عتيق ، وقد عَتُق أي قَدُم ؛ وهذا قول يَعْضُده النظر . وفي الصحيح "أنه أول مسجد وُضع في الأرض" . وقيل عتيقا لأن الله أعتقه من أن يتسلط عليه جبار بالهوان إلى انقضاء الزمان ؛ قال معناه ابن الزبير ومجاهد . وفي الترمذي عن عبد الله بن الزبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما سُمّيَ البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار" قال : هذا حديث حسن صحيح ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا . فإن ذكر ذاكر الحجّاجَ بن يوسف ونَصبه المَنْجَنِيق على الكعبة حتى كسرها قيل له : إنما أعتقها عن كفار الجبابرة ؛ لأنهم إذا أتَوْا بأنفسهم متمردين ولحرمة البيت غير معتقدين ، وقصدوا الكعبة بالسوء فعُصمت منهم ولم تنلها أيديهم ، كان ذلك دلالة على أن الله عز وجل صرفهم عنها قسرا . فأما المسلمون الذين اعتقدوا حرمتها فإنهم إن كَفُّوا عنها لم يكن في ذلك من الدلالة على منزلتها عند الله مثل ما يكون منها في كف الأعداء ؛ فقصر الله تعالى هذه الطائفة عن الكف بالنهي والوعيد ، ولم يتجاوزه إلى الصرف بالإلجاء والاضطرار ،

وجعل الساعة موعدهم، والساعة أدهى وأمرّ . وقالت طائفة: سمّي عتيقا لأنه لم يُملك موضعه قط . وقالت فرقة : سمى عتيقا لأن الله عز وجل يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب . وقيل : سمى عتيقا لأنه أعتق من غرق الطوفان؛ قاله ابن جُبير . وقيل : العتيق الكريم . والعتق الكرم . قال طَرفة يصف أذن الفرس :

مُؤَلَّلَتان تَعْـرِف العِتْـقَ فيهـما * كسامِعَتَيْ مذعورة وسط رَبْرَبِ (١)

وعِتْق الرقيق : الخروج من ذُلّ الرق إلى كرم الحرية . ويحتمل أن يكون العتيق صفة مدح تقتضي جودة الشيء؛ كما قال عمر : حملت على فرس عتيق؛ الحديث . والقول الأول أصح للنظر والحديث الصحيح . قال مجاهد : خلق الله البيت قبل الأرض بألفي عام، وسمى عتيقا لهذا؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

فيه ثماني مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ يحتمل أن يكون في موضع رفع بتقدير : فرضُكم ذلك ، أو الواجب ذلك . ويحتمل أن يكون في موضع نصب بتقدير : امتثلوا ذلك؛ ونحو هذه الإشارة البليغة قول زهير :

هـذا وليس كمن يَعْيَا بخُطّتـه * وسْطَ النَّدِيّ إذا ما قائل نطقا

---

(١) المؤلل : المحدد . والربرب : القطيع من بقر الوحش؛ وقيل الظباء . وهذه الرواية في البيت مخالفة لما في ديوانه ومعلقته . والرواية فيهما :

مؤللتان تعرف العتق فيهما * كسامعتي شاة بحومل مفرد

ويريد بالشاة هنا الثور الوحشي .

والحرمات المقصودة هنا هى أفعال الحج المشار إليها فى قوله : « ثم لْيَقْضُوا تَفَثَهم ولْيُوفُوا نذورهم » ؛ ويدخل فى ذلك تعظيم المواضع؛ قاله ابن زيد وغيره . ويجمع ذلك أن نقول : الحرمات امتثال الأمر من فرائضه وسننه . وقوله : ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ أى التعظيم خير له عند ربه من التهاون بشيء منها . وقيل : ذلك التعظيم خير من خيراته يُنتفع به ، وليست للتفضيل وإنما هى عِدَة بخير .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ ﴾ أن تأكلوها ؛ وهى الإبل والبقر والغنم . ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أى فى الكتاب من المحرمات؛ وهى المَيْتة والمَوْقُوذة وأخواتها. ولهذا اتصال بأمر الحج؛ فإن فى الحج الذبح ، فبيّن ما يحلّ ذبحه وأكل لحمه . وقيل: « إلا ما يتلى عليكم » غيرَ مُحِلِّى الصيد وأنتم حرم .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ الرجس : الشيء القذر . والوَثَن : التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة ونحوها ، وكانت العرب تنصبها وتعبدها . والنصارى تنصب الصليب وتعبده وتعظمه فهو كالتمثال أيضا . وقال عَدِيّ ابن حاتم : أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب من ذهب فقال : " ألقِ هذا الوثن عنك " أى الصليب ؛ وأصله من وَثَن الشيء أى أقام فى مقامه . وسمى الصنم وَثَنًا لأنه ينصب ويركز فى مكان فلا يبرح عنه . يريد اجتنبوا عبادة الأوثان؛ روي عن ابن عباس وابن جُرَيج . وسماها رجسا لأنها سببُ الرجز وهو العذاب . وقيل : وصفها بالرجس، والرجس النجس فهى نجسة حكما . وليست النجاسة وصفا ذاتيا للاعيان وإنما هى وصف شرعيّ من أحكام الإيمان، فلا تُزال إلا بالإيمان كما لا تجوز الطهارة إلا بالماء .

الرابعــة ــ ﴿ مِن ﴾ فى قوله : « مِنَ الأوثانِ » قيل : إنها لبيان الجنس، فيقع نهيه عن رجس الأوثان فقط، ويبقى سائر الأرجاس نهيها فى غير هذا الموضع . ويحتمل أن تكون لابتداء الغاية؛ فكأنه نهاهم عن الرجس عاما ثم عيّن لهم مبدأه الذى منه يلحقهم ، إذ عبادة الوثنُ جامعة لكل فساد ورجس . ومن قال إن «من» للتبعيض، قلب معنى الآية وأفسده .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ والزور : الباطل والكذب . وسمى زورا لأنه أميل عن الحق؛ ومنه «تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ»، ومدينةٌ زوراء؛ أى مائلة . وكل ما عدا الحق فهو كذب و باطل وزُور . وفى الخبر أنه عليه السلام قام خطيبا فقال : " عَدَلت شهادةُ الزور الشركَ بالله " قالها مرتين أو ثلاثا . يعنى أنها قد جُمعت مع عبادة الوثن فى النهى عنها .

السادســة — هذه الآية تضمّنت الوعيد على الشهادة بالزور، وينبغى للحاكم إذا عثر على الشاهد بالزور أن يعزّره وينادى عليــه ليُعرف لئلا يغترّ بشهادته أحد . ويختلف الحكم فى شهادته إذا تاب؛ فإن كان من أهل العدالة المشهور بها المبرّز فيها لم تقبل؛ لأنه لا سبيل إلى علم حاله فى التوبة؛ إذ لا يستطيعُ أن يفعل من القربات أكثر ممــا هو عليه . وإن كان دون ذلك فشمّر فى العبادة وزادت حاله فى التُّقَى قبل شهادته . وفى الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن من أكبر الكبائر الإشراكَ بالله وعقوقَ الوالدين وشهادةَ الزور وقول الزور" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا فجلس فما زال يكررها حتى قلنا لَيْتَه سكت .

السابعــة — ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ ﴾ معناه مستقيمين أو مسـلمين مائلين إلى الحق . ولفظة « حنفاء » من الأضداد تقع على الاستقامة وتقع على الميل . و « حنفاء » نصب على الحال . وقيلَ : « حنفاء » حجاجا؛ وهذا تخصيص لا حجة معه .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى هو يوم القيامة بمنزلة من لا يملك لنفســه نفعا ولا يدفع عن نفســه ضرا ولا عذابا؛ فهو بمنزلة من خرّ من السماء، فهو لا يقدر أن يدفع عن نفســه . ومعنى ﴿ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ﴾ أى تقطعه بمخالبها . وقيــل : هذا عند خروج روحه وصعود الملائكة بهــا إلى سماء الدنيا، فلا يُفتح لها فيرمى بهــا إلى الأرض؛ كما فى حديث البَرَاء، وقد ذكرناه فى التــذكرة . والسحيق : البعيد؛ ومنه قوله تعالى : «فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ»[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام : "فسُحْقًا فسحقا".

(١) آية ١١ سورة الملك .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه . قيل : يكون فى موضع رفع بالابتداء ، أى ذلك أمر الله . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على خبر ابتداء محذوف . ويجوز أن يكون فى موضع نصب ، أى آتّبعوا ذلك .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ ٱللَّهِ ﴾ الشعائر جمع شعيرة ، وهو كل شىء لله تعالى فيه أمر أشعر به وأعلم ؛ ومنه شعار القوم فى الحرب ؛ أى علامتهم التى يتعارفون بها . ومنه إشعار البدنة وهو الطعن فى جانبها الأيمن حتى يسيل الدم فيكون علامة ، فهى تسمى شعيرة بمعنى المشعورة . فشعائر الله أعلام دينه لا سيما ما يتعلق بالمناسك . وقال قوم : المراد هنا تسمين البُدْن والاهتمام بأمرها والمغالاة بها ؛ قاله آبن عباس ومجاهد وجماعة . وفيه إشارة لطيفة ، وذلك أن أصل شراء البُدْن ربما يحمل على فعل ما لا بدّ منه ، فلا يدل على الإخلاص ، فإذا عظمها مع حصول الإجزاء بما دونه فلا يظهر له عمل إلا تعظيم الشرع ؛ وهو من تقوى القلوب . والله أعلم .

الثالثــة ــ الضمير فى « إنها » عائد على الفعلة التى يتضمنها الكلام ، ولو قال فإنه لجاز . وقيل إنها راجعة إلى الشعائر ؛ أى فإن تعظيم الشعائر ، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه ، فرجعت الكناية إلى الشعائر .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ قرئ « القلوب » بالرفع على أنها فاعلة بالمصدر الذى هو « تقوى » وأضاف التقوى إلى القلوب[(1)] لأن حقيقة التقوى فى القلب ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام فى صحيح الحديث : " التقوى هاهنا " وأشار إلى صدره .

الخامســة ــ قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ يعنى البُدْن من الركوب والدّرّ والنّسل والصوف وغير ذلك ، إذا لم يبعثها ربها هَدْيًا ، فإذا بعثها فهو الأجل المسمّى ؛ قاله آبن عباس .

(1) فى الأصول : « وأضاف إلى القلب » .

فإذا صارت بُدْنًا هَدْيًا فالمنافع فيها أيضا ركوبها عند الحاجة، وشربُ لبنها بعد رِيّ فصيلها. وفي الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بَدَنة فقال: "اركبها" فقال: إنها بدنة. فقال: "اركبها" قال: إنها بدنة. قال: "اركبها وَيْلَكَ" في الثانية أو الثالثة. وروى عن جابر بن عبد الله وسئل عن ركوب الهَدْي فقال: سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: "اركبها بالمعروف إذا أُلجئت إليها حتى تجد ظَهْرًا". والأجل المسمّى على هذا القول نحرها؛ قاله عطاء بن أبي رَبَاح.

السادسة — ذهب بعض العلماء إلى وجوب ركوب البدنة لقوله عليه الصلاة والسلام: "اركبها". وممن أخذ بظاهره أحمد وإسحاق وأهل الظاهر. وروى ابن نافع عن مالك: لا بأس بركوب البَدَنة ركوبا غيرَ فادح. والمشهور أنه لا يركبها إلا إن اضطر إليها لحديث جابر فإنه مقيّد والمقيّد يقضي على المطلق. وبنحو ذلك قال الشافعيّ وأبو حنيفة. ثم إذا ركبها عند الحاجة نزل؛ قاله إسماعيل القاضي. وهو الذي يدل عليه مذهب مالك، وهو خلاف ما ذكره ابن القاسم أنه لا يلزمه النزول، وحجته إباحة النبيّ صلى الله عليه وسلم له الركوب فجاز له استصحابه. وقوله: "إذا أُلجئت إليها حتى تجد ظهرا" يدل على صحة ما قاله الإمام الشافعيّ وأبو حنيفة رضي الله عنهما، وما حكاه إسماعيل عن مذهب مالك. وقد جاء صريحا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة وقد جهد، فقال: "اركبها". وقال أبو حنيفة والشافعيّ: إن نَقَصها الركوب المباح فعليه قيمة ذلك ويتصدّق به.

السابعة — قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ يريد أنها تنتهي إلى البيت، وهو الطواف. فقوله: «مَحِلّها» مأخوذ من إحلال المحرم. والمعنى أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورَمْي الجمار والسّعي ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق. فالبيت على هذا التأويل مراد بنفسه؛ قاله مالك في الموطأ. وقال عطاء: ينتهي إلى مكة. وقال الشافعيّ: إلى الحرم. وهذا بناء على أن الشعائر هي البُدْن، ولا وجه لتخصيص الشعائر مع عمومها وإلغاء خصوصية ذكر البيت. والله أعلم.

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ لما ذكر تعالى الذبائح بيّن أنه لم يُخل منها أمة ، والأمة القوم المجتمعون على مذهب واحد؛ أى ولكل جماعة مؤمنة جعلنا منسكا . والمنسك الذبح وإراقة الدم ؛ قاله مجاهد . يقال : نَسَك إذا ذبح يَنْسُك نَسْكا . والذبيحة نسيكة، وجمعها نُسُك؛ ومنه قوله تعالى : «أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ»(1) . والنسك أيضا الطاعة . وقال الأزهرى فى قوله تعالى « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جعلنا مَنْسَكًا » : إنه يدل على موضع النحر فى هذا الموضع ؛ أراد مكان نَسْك . ويقال : مَنْسَك ومَنْسِك، لغتان ، وقرئ بهما . قرأ الكوفيون إلا عاصما بكسر السين ، الباقون بفتحها . وقال الفراء : المَنْسَك فى كلام العرب الموضع المعتاد فى خير أو شر . وقيل مناسك الحج لترداد الناس إليها من الوقوف بعرفة ورمى الجمار والسعى . وقال ابن عرفة فى قوله « ولكل أمة جعلنا مَنْسَكًا » : أى مذهبا من طاعة الله تعالى ؛ يقال : نَسَك نَسْك(2) قومه إذا سلك مذهبهم . وقيل : منسكا عيدا ؛ قاله الفراء . وقيل حجا ؛ قاله قتادة . والقول الأول أظهر؛ لقوله تعالى : ﴿ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ أى على ذبح ما رزقهم . فأمر تعالى عند الذبح بذكره وأن يكون الذبح له؛ لأنه رازق ذلك . ثم رجع اللفظ من الخبر عن الأمم إلى إخبار الحاضرين بما معناه : فالإله واحد لجميعكم ، فكذلك الأمر فى الذبيحة إنما ينبغى أن تخلص له .

قوله تعالى : ﴿ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ معناه لحقه ولوجهه ولإنعامه آمنوا وأسلموا . ويحتمل أن يريد الاستسلام؛ أى له أطيعوا وانقادوا .

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ المخبت : المتواضع الخاشع من المؤمنين . والخَبْت ا المنخفض من الأرض ؛ أى بشرهم بالثواب الجزيل . قال عمرو بن أوس : المخبتون الذين لا يظلمون، وإذا ظُلموا لم يَنْتصروا(3) . وقال مجاهد فيما روى عنه سفيان عن ابن أبى نجيح : المخبتون المطمئنون بأمر الله عز وجل .

(1) آية ١٩٦ سورة البقرة . (2) مثلثة النون ؛ وبضمتين . (3) الانتصار : الانتقام .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى خافت وحذرت مخالفته . فوصفهم بالخوف والوَجَل عند ذكره ، وذلك لقوة يقينهم ومراعاتهم لربهم ، وكأنهم بين يديه ، ووصفهم بالصبر وإقامة الصلاة وإدامتها . وروى أن هذه الآية قولَه : « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ » نزلت فى أبى بكر وعمر وعلىّ رضوان الله عليهم . وقرأ الجمهور «الصلاةِ» بالخفض على الإضافة ، وقرأ أبو عمرو « الصلاةَ » بالنصب على توهّم النون ، وأن حذفها للتخفيف لطول الاسم . وأنشد سيبويه :

* الحافظُو عورةَ العشيرة[1] ... *

الثانيــة — هذه الآية نظير قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وجِلت قلوبُهم وإذا تُلِيت عليهم آياتُه زادتْهم إيماناً وعلى ربهم يتوكّلون[2] » ، وقوله تعالى : «اللهُ نَزَّلَ أحسنَ الحديث كتاباً مُتشابهاً مَثانِىَ تَقْشَعِرُّ منه جُلودُ الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم ثم تَلِينُ جُلودُهم وقلوبُهم إلى ذِكرِ اللهِ[3] » . هذه حالة العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته ؛ لا كما يفعله جهال العوامّ والمبتدعة الطَّغام من الزعيق والزئير ، ومن النُّهاق الذى يشبه نُهاق الحمير ؛ فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وَجْد وخشوع : إنك لم تبلغ أن تساوى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حال أصحابه فى المعرفة بالله تعالى والخوف منه والتعظيم لجلاله ؛ ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهمَ عن الله والبكاءَ خوفا من الله . وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه ؛ ومن لم يكن كذلك فليس على هَدْيهم ولا على طريقتهم ؛ قال الله تعالى : « وإذا سَمِعُوا ما أُنزل إلى الرسول تَرَى أعْيُنَهم

---

(١) البيت بتمامه : الحافظو عورة العشيرة لا * يأتيهم من ورائنا نَطَفُ

(٢) آية ٢ سورة الأنفال . (٣) آية ٢٣ سورة الزمر .

تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يقولون رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مع الشَّاهِدِينَ»(١) . وبهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم ؛ فمن كان مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنّ ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسّهم حالا ، والجنون فنون . روى الصحيح عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى أَحْفَوْه(٢) فى المسألة ، فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال : "سلونى لا تسألونى عن شىء إلا بيّنته لكم ما دمت فى مقامى هذا " فلما سمع ذلك القومُ أَرَمُّوا(٣) ورهبوا أن يكون بين [يدى](٤) أمرٍ قد حضر . قال أنس : فجعلت ألتفت يمينا وشمالا فإذا كل إنسان لافّ رأسه فى ثوبه يبكى . وذكر الحديث . وقد مضى القول فى هذه المسألة بأشبعَ من هذا فى سورة « الأنفال(٥) » والحمد لله .

قوله تعالى : وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾

فيها عشر مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَالْبُدْنَ ﴾ وقرأ ابن أبى إسحاق « والبُدُن » لغتان ؛ واحدتها بَدَنة . كما يقال : ثمرة وثُمُر وثُمْر ، وخشبة وخُشُب وخُشْب . وفى التنزيل « وكان له ثُمُر » وقرئ « ثُمْر » لغتان . وسميت بَدَنة لأنها تَبْدُن ، والبدانة السِّمن . وقيل : إن هذا الاسم خاص بالإبل . وقيل : البُدْن جمع « بَدَن » بفتح الباء والدال . ويقال : بَدُن الرجل (بضم الدال) إذا سَمِن . وبدّن (بتشديدها) إذا كبِر وأسنّ . وفى الحديث " إنى قد بدنت " أى كبِرت وأسننت . وروى "بَدُنْت" وليس له معنى ؛ لأنه خلاف صفته صلى الله عليه وسلم ، ومعناه كثرة اللحم . يقال : بَدُن الرجل يبدُن بُدْنا و بَدانة فهو بادن ؛ أى ضخم .

---

(١) آية ٨٣ سورة المائدة . (٢) أى أكثروا عليه . وأحفى فى السؤال والحف بمعنى ألح . (٣) ارم الرجل : سكت ، فهو مرم . (٤) الزيادة عن صحيح مسلم . (٥) راجع جـ ٧ ص ٣٦٦ طبعة أولى أو ثانية .

الثانيــة — اختلف العلماء فى البُدْن هل تطلق على غير الإبل من البقر أم لا ؛ فقال ابن مسعود وعطاء والشافعيّ : لا . وقال مالك وأبو حنيفة : نعم . وفائدة الخلاف فيمن نذر بَدَنة فلم يجد البدنة أو لم يقدر عليها وقدر على البقرة ؛ فهل تجزيه أم لا ؛ فعلى مذهب الشافعيّ وعطاء لا تجزيه . وعلى مذهب مالك تجزيه . والصحيح ما ذهب إليه الشافعيّ وعطاء؛ لقوله عليه السلام فى الحديث الصحيح فى يوم الجمعة : "من راح فى الساعة الأولى فكأنما قرّب بدنة ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة" الحديث . فتفريقه عليه السلام بين البقرة والبَدَنة يدلّ على أن البقرة لا يقال عليها بدنة ؛ والله أعلم . وأيضا قوله تعالى : « فإذا وَجَبَتْ جُنُوبُها » يدل على ذلك؛ فإن الوصف خاص بالإبل . والبقر يضجع ويذبح كالغنم ؛ على ما يأتى . ودليلنا أن البدنة مأخوذة من البدانة وهو الضخامة ، والضخامة توجد فيهما جميعا . وأيضا فإن البقرة فى التقرب إلى الله تعالى بإراقة الدم بمنزلة الإبل ؛ حتى تجوز البقرة فى الضحايا عن سبعة كالإبل . وهذا حجة لأبى حنيفة حيث وافقه الشافعيّ على ذلك، وليس ذلك فى مذهبنا . وحكى ابن شجرة أنه يقال فى الغنم بدنة ، وهو قول شاذ . والبُدْن هى الإبل التى تُهْدَى إلى الكعبة . والهَدْى عامّ فى الإبل والبقر والغنم .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ ﴾ نصٌّ فى أنها بعض الشعائر . وقوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ يريد به المنافع التى تقدم ذكرها . والصواب عمومه فى خير الدنيا والآخرة .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ أى انحروها على اسم الله . و « صوافّ » أى قد صفّت قوائمها . والإبل تُنحر قياما معقولة . وأصل هذا الوصف فى الخيل؛ يقال : صَفَن الفرس فهو صافن إذا قام على ثلاث قوائم وثَنَى سُنْبُك الرابعة ؛ والسُّنبك طرف الحافر . والبعير إذا أرادوا نحره تُعقل إحدى يديه فيقوم على ثلاث قوائم وقرأ الحسن والأعرج ومجاهد وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعريّ «صَوافِيَ» أى خوالص لله عز وجل لا يشركون به فى التسمية على نحرها أحدا . وعن الحسن أيضا «صوافٍ» بكسر الفاء وتنوينها مخفّفةً ، وهى بمعنى التى قبلها ، لكن حذفت الياء تخفيفا على غير قياس

و « صوافَّ » قراءة الجمهور بفتح الفاء وشدها ؛ من صفّ يَصُفّ . و واحد صوافّ صافة ، و واحد صوافى صافية . وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأبو جعفر محمد بن على «صوافن» بالنون جمع صافنة . ولا يكون واحدها صافنا ؛ لأن فاعلا[1] لا يجمع على فواعل إلا فى حروف مختصة لا يقاس عليها ؛ وهى فارس وفوارس ، وهالك وهوّالك ، وخالف وخوالف[2] . والصافنة هى التى قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب . ومنه قوله تعالى : « الصّافِنَاتُ الجِيادُ[3] » . وقال عمرو بن كلثوم :

تركنا الخيلَ عاكفةً عليه * مقلَّدةً أعنَّتَها صُفُونا

ويروى :

تظل جياده نَوْحًا عليه * مقلَّدةً أعنَّتَها صفونا

وقال آخر :

ألِف الصُّفون فما يزال كأنه * مما يقوم على الثلاث كسيرا

وقال أبو عمرو الجَرْمىّ : الصافن عرق فى مقدم الرجل ، فإذا ضرب على الفرس رفع رجله . وقال الأعشى :

وكلّ كُمَيت كجذع السَّحو * ق يَرْنو القِناء إذا ما صَفَنْ

الخامسة ــ قال ابن وهب : أخبرنى ابن أبى ذئب أنه سأل ابن شهاب عن الصوافّ فقال : تقيّدها ثم تصفها . وقال لى مالك بن أنس مثله . وكافة العلماء على استحباب ذلك ؛ إلا أبا حنيفة والثّورىّ فإنهما أجازا أن تنحر باركة وقياما . وشذّ عطاء فخالف واستحب نحرها باركة . والصحيح ما عليه الجمهور ؛ لقوله تعالى : « فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا » معناه سقطت بعد نحرها ؛ ومنه وَجَبت الشمس . وفى صحيح مسلم عن زياد بن جُبير أن ابن عمر أتى على رجل وهو ينحر بَدَنته باركةً فقال : ابعثها قائمة مقيَّدة سنةَ نبيِّكم صلى الله عليه وسلم . و روى أبو داود عن أبى الزبير عن جابر ، وأخبرنى عبد الرحمن بن سابط أن النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابَه كانوا ينحرون البَدَنة معقولة اليسرى قائمةً على ما بقى من قوائمها .

(١) «فاعل» الذى لا يجمع على «فواعل» اذا كان وصفا لمذكر عاقل ؛ أما «صافن» فليس وصفا لعاقل .
(٢) فى شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك أنها فارس وناكس وهالك وغائب وشاهد .   (٣) آية ٣١ سورة ص .

السادسة — قال مالك : فإن ضَعُف إنسان أو تخوّف أن تنفلت بَدَنته فلا أرى بأسا أن ينحرها معقولة . والاختيار أن تُنحر الإبل قائمة غير معقولة ؛ إلا أن يتعذر ذلك فتعقل ولا تُعَرْقَب إلا أن يخاف أن يضعف عنها ولا يقوى عليها . ونحرها باركة أفضل من أن تعرقب . وكان ابن عمر يأخذ الحربة بيده في عنفوان أَيْده فينحرها في صدرها ويخرجها على سنامها ، فلما أسنّ كان ينحرها باركة لضعفه ، ويمسك معه الحربة رجل آخر ، وآخر بخطامها . وتضجع البقر والغنم .

السابعة — ولا يجوز النحر قبل الفجر من يوم النحر بإجماع . وكذلك الأضحية لا تجوز قبل الفجر . فإذا طلع الفجر حل النحر بمِنًى ، وليس عليهم انتظار نحر إمامهم ؛ بخلاف الأضحية في سائر البلاد . والمنحر مِنًى لكل حاج ، ومكة لكل معتمر . ولو نحر الحاج بمكة والمعتمرُ بمنًى لم يَحْرَج واحد منهما ، إن شاء الله تعالى .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ يقال : وجبت الشمس إذا سقطت ، ووجب الحائط إذا سقط . قال قيس بن الخَطِيم

أطاعت بنو عوف أميرا نهاهمُ * عن السِّلْم حتى كان أوّل واجب

وقال أَوْس بن حَجَر :

ألم تكسف الشمسُ والبدرُ وال * كواكبُ للجبلِ الواجب (١)

فقوله تعالى : «فإذا وجبت جُنُوبُها» يريد إذا سقطت على جنوبها ميتة . كنّى عن الموت بالسقوط على الجنب كما كنّى عن النحر والذبح بقوله تعالى : « فاذكروا اسم الله عليها » . والكنايات في أكثر المواضع أبلغ من التصريح . قال الشاعر

فتركته جَزَرَ السباع يَنُشْنَه * ما بين قُلّة رأسه والمِعْصَم (٢)

---

(١) هذه رواية البيت كما في ديوانه . وروايته في الأصول :

ألم تكسف الشمس ضوء النهار * والبدر للجبل الواجب

ويريد بالجبل : فضالة بن كلدة ، وهو من قصيدة يرثيه بها ، وفيها :

هلك فضالة لا تستوي الـ * ـفقود ولا خلة الذاهب

(٢) البيت من معلقة عنترة . والجزر : جمع جزرة ، وهي الشاة والناقة تذبح وتنحر

وقال عنترة : * وضربت قَرْنَى كبشها فتجدّلا * (١)

أى سقط مقتولا إلى الجدالة، وهى الأرض؛ ومثله كثير. والوُجوب للجَنْب بعد النحر علامة نزف الدم وخروج الروح منها، وهو وقت الأكل، أى وقت قرب الأكل؛ لأنها إنما تبتدأ بالسلخ وقطع شىء من الذبيحة ثم يطبخ. ولا تسلخ حتى تَبْرُد لأن ذلك من باب التعذيب؛ ولهذا قال عمر رضى الله عنه : لا تعجلوا الأنفس أن تزهق.

التاسعة — قوله تعالى : ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمر معناه الندب. وكل العلماء يستحب أن يأكل الإنسان من هَدْيه، وفيه أجر وامتثال؛ إذ كان أهل الجاهلية لا يأكلون من هَدْيهم كما تقدم. وقال أبو العباس بن سُرَيْج : الأكل والإطعام مستحبان، وله الاقتصار على أيهما شاء. وقال الشافعى : الأكل مستحب والإطعام واجب، فإن أطعم جميعها أجزاه وإن أكل جميعها لم يجزه، وهذا فيما كان تطوعا؛ فأما واجبات الدماء فلا يجوز أن يأكل منها شيئا حسبما تقدم بيانه.

العاشرة — قوله تعالى : ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ قال مجاهد وإبراهيم والطبرى : قوله « وأطعموا » أمر إباحة. و « القانع » السائل. يقال : قَنَع الرجل يَقْنَع قنوعا إذا سأل، بفتح النون فى الماضى وكسرها فى المستقبل (٢)، يقنع قناعة فهو قَنِع، إذا تعفف واستغنى ببلغته ولم يسأل؛ مثل حمد يحمَد، قناعة وقنعا وقنعانا؛ قاله الخليل. ومن الأول قول الشماخ :

لَمَالُ المرء يُصلِحه فيُغنِى ❊ مَفاقِرَه أعفُّ من القنوع

وقال ابن السِّكِّيت : من العرب من ذكر القُنوع بمعنى القناعة، وهى الرضا والتعفف وترك المسألة. وروى عن أبى رجاء أنه قرأ « وأطعموا القَنِع » ومعنى هذا مخالف للأول.

---

(١) هذا صدر بيت، وعجزه كما فى ديوانه :

* وحملت مهرى وسطها فمضاها *

(٢) هذه اللغة لم نجدها فى المعاجم، على أن فى العبارة ها هنا اضطرابا. والذى فى كتب اللغة أنه يقال : قنع الرجل يقنع (بفتح النون فيهما) قنوعا إذا سأل. وقنع يقنع (بكسر النون فى الماضى وفتحها فى المستقبل) قناعة وقنعا وقنعانا — كما ذكر المؤلف — إذا رضى. راجع معاجم اللغة.

يقال : قَنِـع الرجل فهو قَنِـع إذا رضى . وأما المعترّ فهو الذى يُطيف بك يطلب ما عندك، سائلا كان أو ساكتا . وقال محمد بن كعب القُـرَظِىّ ومجاهد وإبراهيم والكلبىّ والحسن بن أبى الحسن : المعترّ المعترض من غير سؤال . قال زهير :

على مُكْثِريهم رزقُ من يعتريهمُ * وعنـد المُقِلّين السماحةُ والبَـذْلُ

وقال مالك : أحسن ما سمعت أن القانع الفقـير، والمعتر الزائر . وروى عن الحسن أنه قرأ « والمعترِىَ » ومعناه كمعنى المعتر . يقال : اعترّه واعتراه وعرّه وعراه إذا تعرّض لما عنده أو طلبه؛ ذكره النحاس .

قوله تعالى : لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٧)

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا ﴾ قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يضرّجون البيت بدماء البُدْن ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك فنزلت الآية . والنَّيل لا يتعلق بالبارئ تعالى ، ولكنه عبّر عنـه تعبيرا مجازيا عن القبول ، المعنى : لن يصـل إليه . وقال ابن عباس : لن يصعد إليه . ابن عيسى : لن يقبل لحومها ولا دماءها ، ولكن يصل إليـه التقوى منكم ؛ أى ما أريد به وجهه ، فذلك الذى يقبله ويُرفع إليه ويسمعه ويُثيب عليـه ؛ ومنه الحديث " إنما الأعمال بالنيات " . والقراءة « لن ينال الله » و « يناله » بالياء فيهما . وعن يعقوب بالتاء فيهما ، نظرا إلى اللحوم .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ مَنّ سبحانه علينا بتذليلها وتمكيننا من تصريفها وهى أعظم منا أبدانا وأقوى منا أعضاء ، ذلك ليعلم العبد أن الأمور ليست على ما تظهر إلى العبـد من التدبير ، وإنمـا هى بحسب ما يريدها العزيز القـدير ، فيغلِب الصغيرُ الكبيرَ ليعلم الخلق أن الغالب هو الله الواحد القهار فوق عباده .

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ ذكر سبحانه ذكر آسمه عليها في الآية قبلها فقال عزّ من قائل : « فَآذكروا آسم الله عليها » ، وذكر هنا التكبير . وكان ابن عمر رضى الله عنهما يجمع بينهما إذا نحر هديه فيقول : بآسم الله والله أكبر ؛ وهذا من فقهه رضى الله عنه . وفى الصحيح عن أنس قال : ضحّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين(١) أقرنين . قال : ورأيته يذبحهما بيده ، ورأيته واضعا قدمه على صفاحهما(٢) ، وسمّى وكبّر .

وقد آختلف العلماء فى هذا ؛ فقال أبو ثور : التسمية متعيّنة كالتكبير فى الصلاة ؛ وكافّة العلماء على آستحباب ذلك . فلو قال ذكرا آخر فيه آسم من آسماء الله تعالى وأراد به التسمية جاز . وكذلك لو قال : الله أكبر فقط ، أو لا إله إلا الله ؛ قاله ابن حبيب . فلو لم يرد التسمية لم يجزِ عن التسمية ولا تؤكل ؛ قاله الشافعى ومحمد بن الحسن . وكره كافة العلماء من أصحابنا وغيرهم الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم عند التسمية فى الذبح أو ذكره ، وقالوا : لا يذكر هنا إلا الله وحده . وأجاز الشافعىّ الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم عند الذبح .

الرابعة ــ ذهب الجمهور إلى أن قول المضحّى : اللّهمّ تقبل منى ؛ جائز . وكره ذلك أبو حنيفة ؛ والحجة عليه ما رواه الصحيح عن عائشة رضى الله عنها ، وفيه : ثم قال "باسم الله اللّهمّ تقبّل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد" ثم ضحّى به . وآستحب بعضهم أن يقول ذلك بنص الآية « رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »(٣) . وكره مالك قولهم : اللهم منك وإليك ، وقال : هذه بدعة . وأجاز ذلك ابن حبيب من أصحابنا والحسن ؛ والحجة لهما ما رواه أبو داود عن جابر بن عبد الله قال : ذبح النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الذبح كبشين أقرنين مَوْجُوءَيْن(٤) أملحين ، فلما وجّههما قال : "إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السموات والأرضَ حَنِيفًا ــ وقرأ إلى قوله : وأنا أوّلُ المسلمين ــ اللّهمّ منك ولك عن محمد وأمته بآسم الله والله أكبر" ثم ذبح . فلعلّ مالكا لم يبلغه هذا الخبر ، أو لم يصح عنده ، أو رأى العمل يخالفه . وعلى هذا يدل قوله : إنه بدعة . والله أعلم .

---

(١) الأملح : الذى بياضه أكثر من سواده . وقيل : النقى البياض . (٢) الصفاح (بكسر الصاد) : الجوانب ؛ المراد الجانب الواحد من وجه الأضحية ، وإنما ثنّى إشارة الى أنه فعل ذلك فى كل منهما .
(٣) آية ١٢٧ سورة البقرة . (٤) أى خصيين .

الخامســـة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ رُوى أنها نزلت فى الخلفاء الأربعة؛ حسبما تقدّم فى الآية التى قبلها . فأما ظاهر اللفظ فيقتضى العموم فى كل محسن .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

روى أنها نزلت بسبب المؤمنين لما كثروا بمكة وآذاهم الكفار وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة؛ أراد بعض مؤمنى مكة أن يقتل مَن أمكنه من الكفار و يغتال و يغدر ويحتال؛ فنزلت هذه الآية إلى قوله : « كفور » . فوعد فيها سبحانه بالمدافعة ونهى أفصح نهى عن الخيانة والغدر . وقد مضى فى «الأنفال»[1] التشديد فى الغدر؛ وأنه "يُنصب للغادر لواء عند آسته بقدر غَدْرته يقال هذه غَدْرة فلان" . وقيل : المعنى يدفع عن المؤمنين بأن يديم توفيقهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم؛ فلا تقدر الكفار على إمالتهم عن دينهم ؛ وإن جرى إكراه فيعصمهم حتى لا يرتدوا بقلوبهم . وقيل : يدفع عن المؤمنين بإعلائهم بالحجة . ثم قتل كافر مؤمنا نادر ، وإنْ فيدفع الله عن ذلك المؤمن بأن قبضه إلى رحمته . وقرأ نافع «يُدافع» « ولولا دِفاع » . وقرأ أبو عمرو وابن كثير « يدفع » « ولولا دفع » . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى « يدافع » « ولولا دفع الله » . و يدافع بمعنى يدفع؛ مثل عاقبت اللص ، وعافاه الله؛ والمصدر دفعا . وحكى الزهراوى أن « دِفاعا » مصدر دفع؛ كحسب حِسابا .

قوله تعالى : أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

فيه مسألتان :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ﴾ قيل : هذا بيان قوله « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » أى يدفع عنهم عوائل الكفار بأن يبيح لهم القتال و ينصرهم؛ وفيه إضمار، أى

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٣ طبعة أولى أو ثانية .

أذن للذين يَصْلُحون للقتال في القتال؛ فحذف لدلالة الكلام على المحذوف . وقال الضحاك : استأذن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال الكفار إذ آذوهم بمكة؛ فأنزل الله «إن الله لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كفور» فلما هاجر نزلت «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا» . وهذا ناسخ لكل ما في القرآن من إعراض وترك صفح . وهي أول آية نزلت في القتال(١) . قال ابن عباس وابن جبير : نزلت عند هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وروى النَّسائيّ والترمذيّ عن ابن عباس قال : لما أخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ليهلكنّ؛ فأنزل الله تعالى «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نَصْرِهم لقدير» فقال أبو بكر : لقد علمت أنه سيكون قتال . فقال : هذا حديث حسن . وقد روى غير واحد عن سفيان عن الأعمش عن مسلم البَطِين عن سعيد بن جُبير مرسلا، ليس فيه : عن ابن عباس .

الثانيــة ــ في هذه الآية دليل على أن الإباحة من الشرع، خلافا للمعتزلة؛ لأن قوله : « أذن » معناه أبيح؛ وهو لفظ موضوع في اللغة لإباحة كل ممنوع . وقد تقدّم هذا المعنى في «البقرة» وغير موضع . وقرئ «أُذِن» بفتح الهمزة؛ أي أذن الله . «يقاتِلون» بكسر التاء أي يقاتلون عدوّهم . وقرئ « يقاتَلون » بفتح التاء؛ أي يقاتلهم المشركون وهم المؤمنون . ولهذا قال : « بأنهم ظلموا » أي أخرجوا من ديارهم .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾

---

(١) يلاحظ أن الذي تقدّم في الجزء الثاني ص ٣٤٧ طبعة ثانية عند قوله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله ... » خلاف ما هنا .

فيه سبع مسائل[1] :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِم ﴾ هـذا أحد ما ظلموا به ؛ وإنما أخرجوا لقولهم : ربنا الله وحده . فقوله : « إلا أن يقولوا ربنا الله » استثناء منقطع ؛ أى لكن لقولهم ربنا الله ؛ قاله سيبويه . وقال الفراء يجوز أن تكون فى موضع خفض ، يقدرها مردودة على الباء ؛ وهو قول أبى إسحاق الزجاج ، والمعنى عنده : الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا بأن يقولوا ربنا الله ؛ أى أخرجوا بتوحيدهم ، أخرجهم أهل الأوثان . و «الذين أخرجوا » فى موضع خفض بدلا من قوله : « لِلذين يقاتلون » .

الثانيــة — قال ابن العربى : قال علماؤنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذن له فى الحرب ولم تحل له الدماء ؛ إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل مدة عشرة أعوام ؛ لإقامة حجة الله تعالى عليهم ، ووفاء بوعده الذى امتن به بفضله فى قوله : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »[2] . فاستمر الناس فى الطغيان وما استدلوا بواضح البرهان ، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم عن بلادهم ؛ فمنهم من فر إلى أرض الحبشة ، ومنهم من خرج إلى المدينة ، ومنهم من صبر على الأذى . فلما عتت قريش على الله تعالى وردوا أمره وكذبوا نبيه عليه السلام ، وعذبوا من آمن به ووحده وعبده ، وصدق نبيه عليه السلام واعتصم بدينه ، أذن الله لرسوله فى القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم ، وأنزل «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا — إلى قوله — الأمور» .

الثالثــة — فى هــذه الآية دليل على أن نسبة الفعل الموجود من الملجأ المكره إلى الذى ألجأه وأكرهه ؛ لأن الله تعالى نسب الإخراج إلى الكفار ، لأن الكلام فى معنى تقدير الذنب وإلزامه . وهذه الآية مثل قوله تعالى : « إذ أخرجه الذين كفروا » والكلام فيهما واحد ؛ وقد تقدم فى « براءة »[3] والحمد لله .

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله ذكر ثمانى مسائل . (٢) آية ١٥ سورة الاسراء .
(٣) راجع جـ ٨ ص ١٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

الرابعــة ــ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أى لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء ، لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما بيّنته أرباب الديانات من مواضع العبادات ، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة . فالجهاد أمر متقدّم فى الأمم ، وبه صلَحت الشرائع واجتمعت المتعبَّدات ؛ فكأنه قال : أذن فى القتال ، فليقاتل المؤمنون . ثم قوّى هذا الأمر فى القتال بقوله : « ولولا دَفْعُ اللهِ النـاسَ » الآية ؛ أى لولا القتال والجهاد لتُغُلِّب على الحق فى كل أمة . فمن استبشع من النصـارى والصابئين الجهاد فهو مناقض لمذهبه ؛ إذ لولا القتال لما بقى الدِّين الذى يذبّ عنه . وأيضـا هذه المواضع التى اتخذت قبل تحريفهم وتبديلهم وقبل نسخ تلك الملل بالإسلام إنما ذكرت لهذا المعنى ؛ أى لولا هذا الدفع لهدم فى زمن موسى الكنائس ، وفى زمن عيسى الصوامع والبيع ، وفى زمن محمد عليه السلام المساجد . ﴿ لَهُدِّمَتْ ﴾ من هدمت البناء أى نقضته فانهدم .

قال ابن عطية : هذا أصوب ما قيل فى تأويل الآية . وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : ولولا دفع الله بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الكفارَ عن التابعين فمن بعدهم . وهذا وإن كان فيه دفع قوم بقوم إلا أن معنى القتال أليق ؛ كما تقدم . وقال مجاهد : لولا دفع الله ظلم قوم بشهادة العدول . وقالت فرقة : ولولا دفع الله ظلم الظَّلمة بعدل الولاة . وقال أبو الدَّرداء : لولا أن الله عز وجل يدفع بمن فى المساجد عمن ليس فى المساجد ، وبمن يغزو عمن لا يغزو ، لأتاهم العذاب . وقالت فرقة : ولولا دفع الله العـذاب بدعاء الفضلاء والأخيار إلى غير ذلك من التفصيل المفسِّر لمعنى الآية ؛ وذلك أن الآية ولا بد تقتضى مدفوعا من الناس ومدفوعا عنه ، فتأمله .

الخامســة ــ قال ابن خُوَيْزمَنْداد : تضمّنت هـذه الآية المنع من هدم كنائس أهل الذمة وبيعهم وبيوت نيرانهم ، ولا يُتركون أن يحدثوا ما لم يكن ، ولا يزيدون فى البنيان لا سَعة ولا ارتفاعا ، ولا ينبغى للمسلمين أن يدخلوها ولا يصلوا فيها ، ومتى أحدثوا زيادة وجب نقضها . وينقض ما وجد فى بلاد الحرب من البيع والكنائس . وإنما لم ينقض

ما فى بلاد الإسلام لأهل الذمة ؛ لأنها جرت مجرى بيوتهم وأموالهم التى عاهدوا عليها فى الصيانة . ولا يجوز أن يمكّنوا من الزيادة لأن فى ذلك إظهارَ أسباب الكفر . وجائز أن ينقض المسجد ليعاد بنيانه ؛ وقد فعل ذلك عثمان رضى الله عنه بمسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم .

السادسة — قرئ «لهدمت» بتخفيف الدال وتشديدها . ﴿صَوَامِعُ﴾ جمع صَوْمعة ، وزنها فَوْعلة ، وهى بناء مرتفعٌ حديدُ الأعلى ؛ يقال : صمّع الثريدة أى رفع رأسها وحدّده . ورجل أصمع القلب أى حادّ الفطنة . والأصمع من الرجال الحديد القول . وقيل : هو الصغير الأذن من الناس وغيرهم . وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى وبعبّاد الصابئين — قاله قتادة — ثم استعمل فى مئذنة المسلمين . والبِيَع جمع بيعة ، وهى كنيسة النصارى . وقال الطبريّ : قيل هى كنائس اليهود ؛ ثم أدخل عن مجاهد ما لا يقتضى ذلك . ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ قال الزجاج والحسن : هى كنائس اليهود ؛ وهى بالعبرانية صَلُوتا . وقال ابو عبيدة : الصلوات بيوت تبنى للنصارى فى البرارى يصلون فيها فى أسفارهم ، تسمّى صلوتا فعرّبت فقيل صلوات . وفى « صلوات » تسع قراءات ذكرها ابن عطية : صُلْوات ، صَلْوات ، صِلْوات ، صُلُولى على وزن فعولى ، صُلُوب بالباء بواحدة جمع صليب ، صُلُوث بالثاء المثلثة على وزن فُعول ، صُلُوات بضم الصاد واللام وألف بعد الواو ، صُلُوثا بضم الصاد واللام وقصر الألف بعد الثاء المثلثة ، [صِلْوِيثا بكسر الصاد وإسكان اللام وواو مكسورة بعدها ياء بعدها ثاء منقوطة بثلاث بعدها ألف](١) . وذكر النحاس : وروى عن عاصم الجَحْدَرِيّ أنه قرأ « وصُلُوب » . وروى عن الضحاك «وَصلُوث» بالثاء معجمة بثلاث ؛ ولا أدرى أفتح الصاد أم ضمها .

قلت : فعلى هذا تجىء هنا عشر قراءات . وقال ابن عباس : الصلوات الكنائس . أبو العالية : الصلوات مساجد الصابئين . ابن زيد : هى صلوات المسلمين تنقطع إذا دخل عليهم العدوّ وتهدم المساجد ؛ فعلى هذا استعير الهدم للصلوات من حيث تُعطّل ، أو أراد موضع صلوات فحذف المضاف . وعلى قول ابن عباس والزجاج وغيرهم يكون الهدم

---

(١) ما بين المربعات عبارة أبى حيان . والذى فى الأصل : صلوثيا بكسر الصاد والثاء المثلثة .

حقيقة . وقال الحسن : هدم الصلوات تركها . قُطْرُب : هي الصوامع الصغار ولم يسمع لها واحد . وذهب خَصِيف إلى أن القصد بهذه الأسماء تقسيم متعبدات الأمم . فالصوامع للرهبان، والبِيَع للنصارى، والصلوات لليهود، والمساجد للمسلمين . قال ابن عطية : والأظهر أنها قصد بها المبالغة في ذكر المتعبَّدات . وهذه الأسماء تشترك الأمم في مسمياتها، إلا البيعة فإنها مختصة بالنصارى في لغة العرب . ومعاني هذه الأسماء هي في الأمم التي لها كتاب على قديم الدهر . ولم يذكر في هذه الآية المجوس ولا أهل الإشراك ؛ لأن هؤلاء ليس لهم ما يجب حمايته ، ولا يوجد ذكر الله إلا عند أهل الشرائع . وقال النحاس : « يُذْكَرُ فيها ٱسْمُ ٱللَّهِ » الذي يجب في كلام العرب على حقيقة النظر أن يكون « يُذْكَرُ فيها ٱسْمُ ٱللَّهِ » عائدا على المساجد لا على غيرها؛ لأن الضمير يليها . ويجوز أن يعود على « صوامع » وما بعدها ؛ ويكون المعنى وقت شرائعهم وإقامتهم الحق .

السابعة — فإن قيل : لم قدمت مساجد أهل الذمة ومصلياتهم على مساجد المسلمين؟ قيل : لأنها أقدم بناء . وقيل لقربها من الهدم وقرب المساجد من الذكر ؛ كما أخر السابق في قوله : « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ »[1] .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ أي من ينصر دينه ونبيه . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ ﴾ أي قادر . قال الخطابي : القوي يكون بمعنى القادر، ومن قوي على شيء فقد قدر عليه . ﴿ عَزِيزٌ ﴾ أي جليل شريف ؛ قاله الزجاج . وقيل الممتنع الذي لا يرام ؛ وقد بيناهما في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾

قال الزجاج : ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ في موضع نصب ردًّا على « مَن » ، يعني في قوله : « وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُ » . وقال غيره : « الذين » في موضع خفض ردًّا على قوله : « أُذِنَ لِلَّذِينَ

(١) آية ٣٢ سورة فاطر .

يقاتلون » ، ويكون « الذين إن مكناهم في الأرض » أربعةً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن في الأرض غيرهم . وقال ابن عباس : المراد المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان . وقال قتادة : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقال عكرمة : هم أهل الصلوات الخمس . وقال الحسن وأبو العالية : هم هذه الأمة إذا فتح الله عليهم أقاموا الصلاة . وقال ابن أبي نجيح : يعني الولاة . وقال الضحاك : هو شرط شرطه الله عز وجل على من آتاه الملك ؛ وهذا حسن . قال سهل بن عبد الله : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على السلطان وعلى العلماء الذين يأتونه . وليس على الناس أن يأمروا السلطان ؛ لأن ذلك لازم له واجب عليه ، ولا يأمروا العلماء فإن الحجة قد وجبت عليهم .

قوله تعالى : وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾

هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتعزيةٌ ؛ أي كان قبلك أنبياء كُذِّبوا فصبروا إلى أن أهلك الله المكذِّبين ، فاقتد بهم واصبر . ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾ أي كذبه فرعون وقومُه . فأما بنو إسرائيل فما كذبوه ، فلهذا لم يعطفه على ما قبله فيكون وقومُ موسى . ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي أخرت عنهم العقوبة . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ فعاقبتهم . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ استفهام بمعنى التغيير ؛ أي فانظر كيف كان تغييري ما كانوا فيه من النعم بالعذاب والهلاك ، فكذلك أفعل بالمكذبين من قريش . قال الجوهري : النكير والإنكار تغيير المنكر ، والمنكر واحد المناكير .

قوله تعالى : فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أى أهلكنا أهلها . وقد مضى فى «آل عمران»[1] الكلام فى كأين . ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أى بالكفر . ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ تقدم فى الكهف[2] . ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ قال الزجاج : «وبئرٍ معطلةٍ» معطوف على «من قريةٍ» أى ومن أهل قرية ومن أهل بئر . والفراء يذهب إلى أن «وبئرٍ» معطوف على «عروشها» . وقال الأصمعى : سألت نافع بن أبى نعيم أيهمز البئر والذئب ؟ فقال : إن كانت العرب تهمزهما فآهمزهما . وأكثر الرواة عن نافع بهمزهما ؛ إلا ورشا فإن روايته عنه بغير همز فيهما ، والأصل الهمز . ومعنى «معطلةٍ» متروكة ؛ قاله الضحاك . وقيل : خالية من أهلها لهلاكهم . وقيل : غائرة الماء . وقيل : معطلة من دلائها وأرشيتها ؛ والمعنى متقارب . ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ قال قتادة والضحاك ومقاتل : رفيع طويل . قال عدى بن زيد :

شاده مَرْمَرًا وجَلَّله كِلْ ... سًا فللطير فى ذُراه وُكُور

أى رفعه . وقال سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومجاهد : مجصص ؛ من الشِّيد وهو الجِصّ . قال الراجز[3] :

لا تحسبَنِّى و إن كنت امرأ غَمِرًا ... كحيّة الماء بين الطين والشِّيد

وقال امرؤ القيس

* ولا أُطُمًا إلا مَشِيدًا بجَنْدَلِ *

وقال ابن عباس : «مشيد» أى حصين ؛ وقاله الكلبى . وهو مَفْعِل بمعنى مفعول كمبيع بمعنى مبيوع . وقال الجوهرى : والمشيد المعمول بالشيد . والشيد (بالكسر) : كل شىء طلّيت به الحائط من جص أو بلاط ، وبالفتح المصدر . تقول : شاده يَشيده شَيْدا جَصّصه . والمشيَّد (بالتشديد) المطول . وقال الكسائى : «المشيد» للواحد ، من قوله تعالى : «وقصرٍ مَشيدٍ» ، والمشيّد للجمع ، من قوله تعالى : «فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ» . وفى الكلام مضمر

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٢٨ طبعة أولى أو ثانية .   (٢) راجع جـ ١٠ ص ٤١٠   (٣) البيت للشماخ ، كما فى اللسان . والغمر (بفتح الغين وكسر الميم) لغة فى الغمر (بضم الغين وسكون الميم) وهو الغر الذى لم يجرب الأمور .
(٤) هذا عجز البيت ، وصدره : * وتيماء لم يترك بها جذع نخلة *

محذوف تقديره : وقصر مشيد مثلها معطل . ويقال : إن هـذه البئر والقصر بحضرموت معروفان، فالقصر مشرف على قُلّة جبل لا يرتقَى إليه بحال ، والبئر فى سفحه لا تُقِرّ الريح شيئا سقط فيـه إلا أخرجته . وأصحاب القصور ملوك الحضر ، وأصحاب الآبار ملوك البوادى ؛ أى فأهلكنا هؤلاء وهؤلاء . وذكر الضحاك وغيره فيما ذكر الثعلبىّ وأبو بكر محمـد بن الحسن المقرئ وغيرهما أن البئر الرّس ، وكانت بعـدن باليمن بحضرَمَوْت ، فى بلد يقال له حَضُور ، نزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح ، ونجوْا من العذاب ومعهم صالح ، فمـات صالح فسُمّىَ المكان حضرموت ؛ لأن صالحا لمـا حضره مات فبنَوْا حضور وقعدوا على هذه البئر ، وأمّروا عليهم رجلا يقال له العلس بن جلاس بن سويد ، فيما ذكر الغزنوى . الثعلبى : جلهس بن جلاس ، وكان حسن السيرة فيهم عاملا عليهم ، وجعلوا وزيره سنحاريب بن سوادة ، فأقاموا دهرا وتناسلوا حتى كثروا ، وكانت البئر تسقى المدينة كلها وباديتها وجميعَ ما فيها من الدواب والغنم والبقر وغير ذلك ؛ لأنها كانت لها بكرات كثيرة منصوبة عليها ، ورجال كثيرون موكلون بها ، وأبازن (بالنون) من رخام وهى شبه الحياض كثيرة تملأ للناس ، وأخر للدواب ، وأخر للبقر ، وأخر للغنم . والقُوّام يسقون عليها بالليـل والنهار يتداولون ، ولم يكن لهم ماء غيرها . وطال عمر المـلك الذى أمّروه ، فلما جاءه الموت طُلِىَ بدهن لتبقى صورته لا تتغير ، وكذلك كانوا يفعلون إذا مات منهـم الميت وكان ممن يكرم عليهم . فلما مات شق ذلك عليهـم ورأوا أن أمرهم قد فسد ، وضجوا جميعا بالبكاء ، واغتنمها الشيطان منهم فدخل فى جثة الملك بعد موته بأيام كثيرة ، فكلمهم وقال : إنى لم أمت ولكن تغيبت عنـكم حتى أرى صنيعكم ؛ ففرحوا أشدّ الفرح وأمر خاصته أن يضربوا له حجابا بينه وبينهم ويكلمهم من ورائه لئـلا يعرف المـوت فى صورته . فنصبوا صنمـا من وراء الحجـاب لا يأكل ولا يشرب . وأخبرهم أنه لا يموت أبدا وأنه إلههم ؛ فذلك كله يتكلم به الشيطان على لسانه ، فصدّق كثير منهم وارتاب بعضهم ، وكان المؤمن المكذب منهم أقلّ من المصـدّق له ، وكلما تكلم ناصح لهم زُجر وقُهر ، فأصفقوا[1] على عبادته ، فبعث الله إليهم نبيًّا كان الوحى ينزل عليه فى النوم دون اليقظة ، كان اسمه

(١) أصفقوا على الأمر : اجتمعوا عليه .

حنظلة بن صفوان ، فأعلمهم أن الصورة صنم لا روح له ، وأن الشيطان قد أضلهم ، وأن الله لا يتمثل بالخلق ، وأن الملك لا يجوز أن يكون شريكا لله ، ووعظهم ونصحهم وحذرهم سطوة ربهم ونقمته ؛ فآذوه وعادوه وهو يتعهدهم بالموعظة ولا يُغبهم بالنصيحة ، حتى قتلوه في السوق وطرحوه في بئر ؛ فعند ذلك أصابتهم النقمة ، فباتوا شباعا رُواء من الماء وأصبحوا والبئر قد غار ماؤها وتعطل رشاؤها ، فصاحوا بأجمعهم وضج النساء والولدان ، وضجت البهائم عطشا ؛ حتى عمهم الموت وشملهم الهلاك ، وخلفتهم في أرضهم السباع ، وفي منازلهم الثعالب والضباع ، وتبدلت جناتهم وأموالهم بالسدر(١) وشوك العضاه(٢) والقتاد(٣) ، فلا يسمع فيها إلا عزيف الجن وزئير الأسد ، نعوذ بالله من سطواته ، ومن الإصرار على ما يوجب نقماته .

قال السهيلي . وأما القصر المشيد فقصر بناه شداد بن عاد بن إرم ، لم يبن في الأرض مثله — فيما ذكروا وزعموا — وحاله أيضا كحال هذه البئر المذكورة في إيحاشه بعد الأنيس ، وإقفاره بعد العمران ، وإن أحدا لا يستطيع أن يدنو منه على أميال ؛ لما يسمع فيه من عزيف الجن والأصوات المنكرة بعد النعيم والعيش الرغد وبهاء الملك وانتظام الأهل كالسلك فبادوا وما عادوا ؛ فذكرهم الله تعالى في هذه الآية موعظة وعبرة وتذكرة ، وذكرا وتحذيرا من مغبة المعصية وسوء عاقبة المخالفة ؛ نعوذ بالله من ذلك ونستجير به من سوء المآل . وقيل : إن الذي أهلكهم بختنصر على ما تقدم في سورة « الأنبياء » في قوله : « وكم قصمنا من قرية »(٤) . فتعطلت بئرهم وخربت قصورهم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾

---

(١) السدر من الشجر ، وهو سدران : أحدهما برى لا ينتفع بثمره ولا يصلح ورقه للغسول وثمره عفص لا يسوغ في الحلق ، والعرب تسميه الضال . والسدر الثاني : ينبت على الماء ، وثمره النبق وورقه غسول . (٢) العضاه : كل شجر يعظم وله شوك ؛ واحدها عضاهة وعضهة وعضة . (٣) القتاد : شجر صلب له شوك كالإبر .

(٤) راجع جـ ١١ ص ٢٧٤

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ يعني كفار مكة فيشاهدوا هذه القرى ليتعظوا ، ويحذروا عقاب الله أن ينزل بهم كما نزل بمن قبلهم . ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ أضاف العقل إلى القلب لأنه محله كما أن السمع محله الأذن . وقد قيل : إن العقل محله الدماغ ؛ وروى عن أبي حنيفة ، وما أراها عنه صحيحة . ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ﴾ قال الفراء : الهاء عماد ، ويجوز أن يقال فإنه ، وهي قراءة عبد الله بن مسعود ، والمعنى واحد ، التذكير على الخبر ، والتأنيث على الأبصار أو القصة ؛ أي فإن الأبصار لا تعمى ، أو فإن القصة . ﴿ لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ﴾ أي أبصار العيون ثابتة لهم . ﴿ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ أي عن درك الحق والاعتبار . وقال قتادة : البصر الناظر جعل بُلْغة ومنفعة ، والبصر النافع في القلب . وقال مجاهد : لكل عين أربع أعين ؛ يعني لكل إنسان أربع أعين : عينان في رأسه لدنياه ، وعينان في قلبه لآخرته ؛ فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم يضره عماه شيئا ، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئا . وقال قتادة وابن جُبير : نزلت هذه الآية في ابن أم مكتوم الأعمى . قال ابن عباس ومقاتل : لما نزل « ومن كان في هذه أعمى »[1] قال ابن أم مكتوم : يا رسول الله ، فأنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى ؟ فنزلت « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » . أي من كان في هذه أعمى بقلبه عن الإسلام فهو في الآخرة في النار .

قوله تعالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ نزلت في النضر بن الحارث ، وهو قوله : « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » . وقيل : نزلت في أبي جهل بن هشام ، وهو قوله : « اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ » . ﴿ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أي في إنزال العذاب . قال الزجاج : استعجلوا العذاب فأعلمهم الله أنه لا يفوته شيء ؛ وقد نزل بهم في الدنيا يوم بدر .

(١) آية ٧٢ سورة الإسراء .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : يعنى من الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض . عكرمة : يعنى من أيام الآخرة؛ أعلمهم الله إذ استعجلوه بالعذاب فى أيام قصيرة أنه يأتيهم به فى أيام طويلة . قال الفرّاء : هذا وعيدلهم بامتداد عذابهم فى الآخرة؛ أى يوم من أيام عذابهم فى الآخرة ألف سنة . وقيل : المعنى وإن يوما فى الخوف والشدّة فى الآخرة كألف سنة من سنى الدنيا فيها خوف وشدة ؛ وكذلك يوم النعيم قياسا . وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى « مما يعدّون » بالياء المثناة تحت ، وآختاره أبو عبيد لقوله : « ويستعجلونك » . والباقون بالتاء على الخطاب ، وآختاره أبو حاتم .

قوله تعالى : وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾ أى أمهلتها مع عتوها . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ أى بالعذاب . ﴿ وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾

قوله تعالى : قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ يعنى أهل مكة . ﴿ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ أى منذر مخوِّف . وقد تقدّم فى البقرة الإنذار فى أوّلها . ﴿ مُبِينٌ ﴾ أى أبيّن لكم ما تحتاجون إليه من أمر دينكم . ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ يعنى الجنة . ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا ﴾ أى فى إبطال آياتنا . ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ أى مغالبين مشاقّين؛ قاله ابن عباس . الفرّاء : معاندين . وقال عبد الله بن الزبير : مثبِّطين عن الإسلام . وقال

الأخفش : معاندين مسابقين . الزجاج : أى ظانين أنهم يعجزوننا لأنهم ظنوا أن لا بعث ، وظنوا أن الله لا يقدر عليهم ؛ وقاله قتادة . وكذلك معنى قراءة ابن كثير وأبى عمرو «مُعَجِّزِين» بلا ألف مشددا . ويجوز أن يكون معناه أنهم يعجزون المؤمنين فى الإيمان بالنبيّ عليه السلام و بالآيات؛ قاله السُّدّى . وقيل : أى يَنْسُبون من اتبع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى العجز؛ كقولهم : جهّلته وفسّقته . ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿تَمَنَّى﴾ أى قرأ وتلا . و ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ﴾ أى قراءته وتلاوته . وقد تقدم فى البقرة[1] . قال ابن عطية : وجاء عن ابن عباس أنه كان يقرأ «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيٍّ ولا مُحَدَّث» ذكره مَسْلَمة بن القاسم بن عبد الله، ورواه سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس . قال مسلمة : فوجدنا المُحَدَّثين[2] معتصمين بالنبوّة — على قراءة ابن عباس — لأنهم تكلموا بأمور عالية من أنباء الغيب خَطَرات، ونطقوا بالحكمة الباطنة فأصابوا فيما تكلموا وعُصموا فيما نطقوا؛ كعمر بن الخطاب فى قصة سارية[3]، وما تكلم به من البراهين العالية .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٥ طبعة ثانية . (٢) المحدثون (بفتح الدال وتشديدها) قال ابن الأثير : انهم الملهمون ، والملهم هو الذى يلقى فى نفسه الشيء فيخبر به حدسا وفراسة ، وهو نوع يختص به الله عز وجل من يشاء من عباده الذين اصطفى مثل عمر؛ كأنهم حدّثوا بشيء فقالوه . (٣) هو سارية بن زنيم بن عبد الله . وكان من قصته أن عمر رضى الله عنه أمّره على جيش وسيّره الى فارس سنة ثلاث وعشرين ، فوقع فى خاطر سيدنا عمر وهو يخطب يوم الجمعة أن الجيش المذكور لاقى العدوّ وهم فى بطن واد وقد هموا بالهزيمة ، وبالقرب منهم جبل ، فقال فى أثناء خطبته : يا سارية ، الجبلَ الجبلَ ! ورفع صوته ، فألقاه الله فى سمع سارية فانحاز بالناس الى الجبل وقاتلوا العدوّ من جانب واحد ، ففتح الله عليهم . (راجع ترجمته فى كتب الصحابة)

قلت : وقد ذكر هذا الخبر أبو بكر الأنباريّ في كتاب الردّ له ، وقد حدّثني أبي رحمه الله حدّثنا عليّ بن حرب حدّثنا سفيان بن عُيينة عن عمرو عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ ولا مُحدَّث » قال أبو بكر : فهذا حديث لا يؤخذ به على أن ذلك قرآن . والمحدَّث هو الذي يوحى إليه في نومه ؛ لأن رؤيا الأنبياء وَحْيٌ .

الثانيـــة — قال العلماء : إن هـذه الآية مشكلة من جهتين : إحداهما — أن قوما يرون أن الأنبياء صلوات الله عليهم فيهم مرسلون وفيهم غير مرسلين . وغيرهم يذهب إلى أنه لا يجوز أن يقال نبيّ حتى يكون مرسلا . والدليل على صحة هذا قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نَبِيّ » فأوجب للنبيّ صلى الله عليه وسلم الرسالة . وأن معنى «نَبِيّ» أنبأ عن الله عز وجل ، ومعنى أنبأ عن الله عز وجل الإرسال بعينه . وقال الفراء : الرسول الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل عليه السـلام إليه عِيانا ، والنبيّ الذي تكون نبوّته إلهـاما أو مناما ؛ فكل رسول نبيٌّ وليس كلّ نبيّ رسولا . قال المهدويّ : وهذا هو الصحيح ، أن كلّ رسـول نبيٌّ وليس كل نبيّ رسـولا . وكذا ذكر القاضي عِياض في كتاب الشفا قال : والصحيح والذي عليه الجمّ الغفير أن كلّ رسول نبيّ وليس كل نبيّ رسولا ؛ واحتج بحديث أبي ذرّ ، وأن الرسل من الأنبياء ثلثمائة وثلاثة عشر ، أولهم آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم . والجهة الأخرى التي فيها الإشكال وهي :

الثالثـــة — الأحاديث المرويّة في نزول هذه الآية ، وليس منها شيء يصح . وكان مما تموّه به الكفار على عوامّهم قولهم : حق الأنبيـاء ألا يعجزوا عن شيء ، فلم لا يأتينا محمد بالعذاب وقد بالغنا في عداوته ؟ وكانوا يقولون أيضا : ينبغي ألا يجرى عليهم سَهْوٌ وغلط ؛ فبيّن الرب سبحانه أنهم بَشَر ، والآتي بالعذاب هو الله تعـالى على ما يريد ، ويجوز على البشر السهو والنسيان والغلط إلى أن يُحكم الله آياته ويَنْسخ حِيَل الشيطان . روى اللّيث عن يونس عن الزهريّ عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى » فلمـا بلغ « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى »

بها فقال : " إن شفاعتهم تُرتجى " فلقيه المشركون والذين فى قلوبهم مرض فسلّموا عليه وفرحوا ؛ فقال : " إن ذلك من الشيطان " فأنزل الله تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ » الآية . قال النحاس : وهذا حديث منقطع وفيه هذا الأمر العظيم . وكذا حديث قتادة وزاد فيه "وإنهنّ لهنّ الغرانيق العُلا" . وأقطعُ من هذا ما ذكره الواقدي عن كثير بن زيد عن المطلب بن عبد الله قال : سجد المشركون كلهم إلا الوليد بن المغيرة فإنه أخذ ترابا من الأرض فرفعه إلى جبهته وسجد عليه ، وكان شيخا كبيرا . ويقال إنه أبو أُحَيحة سعيد بن العاص ؛ حتى نزل جبريل عليه السلام فقرأ عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : "ما جئتك به"! وأنزل الله «لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا»(١) . قال النحاس : وهذا حديث منكر منقطع ولا سيما من حديث الواقدي . وفى البخاري أن الذى أخذ قبضة من تراب ورفعها إلى جبهته هو أمية بن خلف . وسيأتى تمام كلام النحاس على الحديث — إن شاء الله — آخر الباب . قال ابن عطية : وهذا الحديث الذى فيه هى الغرانيق العلا وقع فى كتب التفسير ونحوها ، ولم يدخله البخاري ولا مسلم ، ولا ذكره فى علمى مصنّف مشهور ؛ بل يقتضى مذهب أهل الحديث أن الشيطان ألقى ، ولا يعيّنون هذا السبب ولا غيره . ولا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة ؛ بها وقعت الفتنة . ثم اختلف الناس فى صورة هذا الإلقاء ؛ فالذى فى التفاسير وهو مشهور القول أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تكلم بتلك الألفاظ على لسانه . وحدّثنى أبى رضى الله عنه أنه لقِىَ بالشرق من شيوخ العلماء والمتكلمين من قال : هذا لا يجوز على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم فى التبليغ ، وإنما الأمر أن الشيطان نطق بلفظ أسمعه الكفارَ عند قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : «أفرأيتم اللاتَ والعزّى . ومناةَ الثالثة الأُخرى» ، وقرّب صوته من صوت النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى التبس الأمر على المشركين ، وقالوا : محمد قرأها . وقد روى نحو هذا التأويل عن الإمام أبى المعالى . وقيل : الذى ألقى شيطانُ الإنس ؛ كقوله عز وجل : «والغَوا فيه»(٢) . قتادة : هو ما تلاه ناعسا .

(١) آية ٧٤ سورة الإسراء . (٢) آية ٢٦ سورة فصلت .

وقال القاضي عياض في كتاب الشفا بعد أن ذكر الدليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وأن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه، لا قصدا ولا عمدا ولا سهوا وغلطا : اعلم أكرمك الله أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين : أحدهما — في توهين أصله، والثاني على تسليمه . أما المأخذ الأول فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه بسند سليم متصل ثقة؛ وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم . قال أبو بكر البزار : وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل يجوز ذكره؛ إلا ما رواه شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب، الشك في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بمكة... وذكر القصة . ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير . وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس؛ فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه الذي ذكرناه، الذي لا يوثق به ولا حقيقة معه . وأما حديث الكلبي فما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه؛ كما أشار إليه البزار رحمه الله . والذي منه في الصحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ «والنجم» بمكة فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس؛ هذا توهينه من طريق النقل .

وأما المأخذ الثاني فهو مبني على تسليم الحديث لو صح . وقد أعاذنا الله من صحته، ولكن على كل حال فقد أجاب أئمة المسلمين عنه بأجوبة؛ منها الغث والسمين . والذي يظهر ويترجح في تأويله على تسليمه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلا، ويفصل الآي تفصيلا في قراءته؛ كما رواه الثقات عنه، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات، محاكيا نغمة النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار، فظنوها من قول النبي صلى الله عليه وسلم وأشاعوها .

ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله ، وتحققهم من حال النبيّ صلى الله عليه وسلم في ذم الأوثان وعَيْبها ما عُرف منه ؛ فيكون ما روى من حزن النبيّ صلى الله عليه وسلم لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة ، وقد قال الله تعالى : «وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيّ » الآية (١) .

قلت : وهذا التأويل أحسن ما قيل في هذا . وقد قال سليمان بن حرب : إن « في » بمعنى عند ؛ أي ألقى الشيطان في قلوب الكفار عند تلاوة النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ كقوله عز وجل : « وَلَبِثْتَ فِينَا » (٢) أي عندنا . وهذا هو معنى ما حكاه ابن عطية عن أبيه عن علماء الشرق ، وإليه أشار القاضي أبو بكر بن العربي ، وقال قبله : إن هذه الآية نص في غرضنا ، دليل على صحة مذهبنا ، أصل في براءة النبيّ صلى الله عليه وسلم مما ينسب إليه أنه قاله ؛ وذلك أن الله تعالى قال : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ إلا إذا تمنّى ألقى الشيطانُ في أمنيّته » أي في تلاوته . فأخبر الله تعالى أن من سنته في رسله وسيرته في أنبيائه إذا قالوا عن الله تعالى قولا زاد الشيطان فيه من قبل نفسه كما يفعل سائر المعاصي . تقول : ألقيت في الدار كذا وألقيت في الكيس كذا ؛ فهذا نص في الشيطان أنه زاد في الذي قاله النبيّ صلى الله عليه وسلم ، لا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تكلم به . ثم ذكر معنى كلام عياض إلى أن قال : وما هُدي لهذا إلا الطبري لجلالة قدره وصفاء فكره وسَعة باعه في العلم ، وشدّة ساعده في النظر ؛ وكأنه أشار إلى هذا الغرض ، وصوّب على هذا المرمى ، وقرطس بعدما ذكر في ذلك روايات كثيرة كلها باطل لا أصل لها ، ولو شاء ربك لما رواها أحد ولا سطرها ، ولكنه فعال لما يريد .

وأما غيره من التأويلات فما حكاه قوم أن الشيطان أكرهه حتى قال كذا فهو محال ؛ إذ ليس للشيطان قدرة على سلب الإنسان الاختيار ، قال الله تعالى مخبرا عنه : « وما كان لي عليكم من سُلطانٍ إلا أن دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُم لي » (٣) ؛ ولو كان للشيطان هذه القدرة لما بقي لأحد

(١) راجع كتاب الشفا للقاضي عياض جـ ٢ ص ١١٦ ، ١٢١ طبع الآستانة .
(٢) آية ١٨ سورة الشعراء . (٣) آية ٢٢ سورة إبراهيم .

من بني آدم قوة في طاعة ، ومن توهم أن للشيطان هذه القوة فهو قول الثنوية والمجوس في أن الخير من الله والشر من الشيطان . ومن قال جرى ذلك على لسانه سهوا قال : لا يبعد أنه كان سمع الكلمتين من المشركين وكانتا على حفظه فجرى عند قراءة السورة ما كان في حفظه سهوا ؛ وعلى هذا يجوز السهو عليهم ولا يُقَرّون عليه ، وأنزل الله عز وجل هذه الآية تمهيدا لعذره وتسلية له ؛ لئلا يقال : إنه رجع عن بعض قراءته ، وبيّن أن مثل هذا جرى على الأنبياء سهوا ، والسهو إنما ينتفي عن الله تعالى ، وقد قال ابن عباس : إن شيطانا يقال له الأبيض كان قد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة جبريل عليه السلام وألقى في قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم : تلك الغرانيق العلا ، وأن شفاعتهن لتُرتجى . وهذا التأويل وإن كان أشبه مما قبله فالتأويل الأول عليه المعوّل ، فلا يُعدل عنه إلى غيره لاختيار العلماء المحققين إياه ، وضعفُ الحديث مُغْنٍ عن كل تأويل ، والحمد لله . ومما يدل على ضعفه أيضا وتوهينه من الكتاب قوله تعالى : « وإن كادوا لَيَفْتِنُونَك »(1) الآيتين ؛ فإنهما تردّان الخبر الذي رووه ؛ لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ، وأنه لولا أن ثبّته لكان يركن إليهم . فمضمون هذا ومفهومه أن الله تعالى عَصَمه من أن يفترى وثبته حتى لم يركن إليهم قليلا فكيف كثيرا ، وهم يروُون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم ، وأنه قال عليه الصلاة والسلام : افتريت على الله وقلت مالم يقل . وهذا ضد مفهوم الآية ، وهي تضعّف الحديث لو صح ؛ فكيف ولا صحة له . وهذا مثل قوله تعالى : « ولولا فضلُ الله عليك ورحمتُه لَهَمّتْ طائفة منهم أن يُضلوك وما يُضلون إلا أنفُسَهم وما يَضُرّونك من شيء »(2) .

قال القُشَيْرِيّ : ولقد طالبته قريش وثقيف إذ مرّ بآلهتهم أن يُقبل بوجهه إليها ، ووعدوه بالإيمان به إن فعل ذلك ، فما فعل ! ولا كان ليفعل ! قال ابن الأنباري : ما قارب الرسول ولا رَكَن . وقال الزجاج : أي كادوا ، ودخلت إن واللام للتأكيد . وقد قيل : إن معنى « تمنّى » حدّث ، لا « تلا » . روى عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عز وجل « إلا إذا تمنى » قال : إلا إذا حدّث « ألقى الشيطان في أمنيته » قال : في حديثه « فينسخ

(1) آية ٧٣ سورة الاسراء . (2) آية ١١٣ سورة النساء .

ٱللهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ » قال : فيبطل الله ما يلقى الشيطان . قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فى الآية وأعلاه وأجله . وقد قال أحمد بن محمد بن حنبل بمصر صحيفةً فى التفسير، رواها على بن أبى طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا . والمعنى عليه : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا حدّث نفسه ألقى الشيطان فى حديثه على جهة الحِيْطة فيقول : لو سألتَ الله عز وجل أن يغنمك ليتسع المسلمون؛ و يعلم الله عز وجل أن الصلاح فى غير ذلك ؛ فيبطل ما يلقى الشيطان كما قال ابن عباس رضى الله عنهما . وحكى الكسائى والفراء جميعا « تمنى » إذا حدّث نفسه؛ وهذا هو المعروف فى اللغة . وحكيا أيضا « تمنى » إذا تلا . وروى عن ابن عباس أيضا وقاله مجاهد والضحاك وغيرهما . وقال أبو الحسن بن مهدى : ليس هذا التمنى من القرآن والوحى فى شىء ، و إنما كان النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا صفرت يداه من المال ، ورأى ما بأصحابه من سوء الحال ، تمنّى الدنيا بقلبه ووسوسة الشيطان . وذكر المهدوىّ عن ابن عباس أن المعنى : إذا حدّث ألقى الشيطان فى حديثه ؛ وهو اختيار الطبرى .

قلت : قوله تعالى : ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ الآية ، يردّ حديث النفس، وقد قال ابن عطية : لا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة ، بها وقعت الفتنة ؛ فالله أعلم . قال النحاس : ولو صح الحديث واتصل إسناده لكان المعنى فيه صحيحا، و يكون معنى سها أسقط، و يكون تقديره : أفرأيتم اللاتَ والعُزّى ، وتم الكلام، ثم أسقط (والغرانيق العلا) يعنى الملائكة (فإن شفاعتهم) يعود الضمير على الملائكة . وأما من روى : فإنهن الغرانيق العلا ، ففى روايته أجوبة ؛ منها أن يكون القول محذوفا كما تستعمل العرب فى أشياء كثيرة ، و يجوز أن يكون بغير حذف ، و يكون توبيخا ؛ لأن قبله « أفرأيتم » و يكون هذا احتجاجا عليهم ؛ فإن كان فى الصلاة فقد كان الكلام مباحا فى الصلاة . وقد روى فى هذه القصة أنه كان مما يقرأ : أفرأيتم اللات والعُزّى . ومناة الثالثة الأخرى . والغرانقة العلا . وأن شفاعتهن لترتجى . روى معناه عن مجاهد . وقال الحسن : أراد بالغرانيق العلا الملائكة؛ و بهذا فسر الكلبىّ الغرانقة أنها الملائكة . وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون [أن] الأوثان والملائكة بنات

الله» كما حكى الله تعالى عنهم ، وردّ عليهم في هذه السورة بقوله « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى » فأنكر الله كل هذا من قولهم . ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح ؛ فلما تأوله المشركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتهم ولبّس عليهم الشيطان بذلك ، نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللّتين وجد الشيطان بهما سبيلا للتلبيس ، كما نُسخ كثير من القرآن ، ورفعت تلاوته . قال القُشَيرى : وهذا غير سديد ؛ لقوله « فينسخ الله ما يلقى الشيطان » أى يبطله ، وشفاعة الملائكة غير باطلة . ﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ « عليم » بما أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ، « حكيم » فى خلقه .

قوله تعالى : لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً ﴾ أى ضلالة . ﴿ لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى شرك ونفاق . ﴿ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ فلا تلين لأمر الله تعالى . قال الثعلبى : وفى الآية دليل على أن الأنبياء يجوز عليهم السهو والنسيان والغلط بوسواس الشيطان أو عند شغل القلب حتى يغلط ، ثم يُنَبَّهُ ويرجع إلى الصحيح ؛ وهو معنى قوله : « فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ » . ولكن إنما يكون الغلط على حسب ما يغلط أحدنا ، فأما ما يضاف إليه من قولهم : تلك الغرانيق العلا ، فكذب على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن فيه تعظيم الأصنام ، ولا يجوز ذلك على الأنبياء ، كما لا يجوز أن يقرأ بعض القرآن ثم ينشد شعرا ويقول : غلطت وظننته قرآنا . ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أى الكافرين لفى خلاف وعصيان ومشاقة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم . وقد تقدّم فى « البقرة »(١) والحمد لله وحده .

قوله تعالى : وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

(١) راجع جـ ٢ ص ١٤٣ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أى من المؤمنين . وقيل : أهل الكتاب ﴿ أَنَّهُ ﴾ أى أن الذى أحكم من آيات القرآن هو ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى تخشع وتسكن . وقيل : تخلص . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قرأ أبو حيوة « وإن الله لهادٍ الذين آمنوا » بالتنوين . ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى يثبتهم على الهداية .

قوله تعالى : وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ﴾ يعنى فى شك من القرآن ؛ قاله ابن جُرَيج . وغيره : من الدين ؛ وهو الصراط المستقيم . وقيل : مما ألقى الشيطان على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقولون : ما باله ذكر الأصنام بخير ثم ارتد عنها . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلمي « فى مُرْيَةٍ » بضم الميم . والكسر أعرف ؛ ذكره النحاس . ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ أى القيامة . ﴿ بَغْتَةً ﴾ أى فجأة . ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ قال الضحاك : عذاب يوم لا ليلة له وهو يوم القيامة . النحاس : سمى يوم القيامة عقيما لأنه ليس يُعقب بعده يوما مثله ؛ وهو معنى قول الضحاك . والعقيم فى اللغة عبارة عمن لا يكون له ولد ؛ ولما كان الولد يكون بين الأبوين وكانت الأيام تتوالى قبلُ وبعدُ ، جعل الاتباع فيها بالبعدية كهيئة الولادة . ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقيم . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : المراد عذاب يوم بدر ، ومعنى عقيم لا مثل له فى عظمه ؛ لأن الملائكة قاتلت فيه . ابن جُرَيج : لأنهم لم يُنظروا فيه إلى الليل ، بل قتلوا قبل المساء فصار يوما لا ليلة له . وكذلك يكون معنى قول الضحاك أنه يوم القيامة ؛ لأنه لا ليلة له . وقيل : لأنه لم يكن فيه رأفة ولا رحمة ، وكان عقيما من كل خير ؛ ومنه قوله تعالى : « إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ »(1) أى التى لا خير فيها ولا تأتى بمطر ولا رحمة .

(1) آية ٤١ سورة الذاريات .

قوله تعالى : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٥٦) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ يعنى يوم القيامة هو لله وحده لا منازع له فيه ولا مدافع . والملك هو اتساع المقدور لمن له تدبير الأمور . ثم بين حكمه فقال : ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جَنَّاتِ النعيم . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فأولئك لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾

قلت : وقد يحتمل أن تكون الإشارة بـ « يومئذ » ليوم بدر ، وقد حكم فيه بإهلاك الكافر وسعادة المؤمن ؛ وقد قال عليه السلام لعمر : " وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم " .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ﴾

أفرد ذكر المهاجرين الذين ماتوا وقُتلوا تفضيلا لهم وتشريفا على سائر الموتى .

وسبب نزول هذه الآية أنه لما مات بالمدينة عثمان بن مَظْعُون وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس : من قُتل فى سبيل الله أفضلُ ممن مات حَتْف أنفه ؛ فنزلت هذه الآية مُسَوِّيَةً بينهم ، وأن الله يرزق جميعهم رزقا حسنا . وظاهر الشريعة يدل على أن المقتول أفضل . وقد قال بعض أهل العلم : إن المقتول فى سبيل الله والميتَ فى سبيل الله شهيد ؛ ولكن للمقتول مَزِيّة ما أصابه فى ذات الله . وقال بعضهم : هما سواء ؛ واحتج بالآية ، وبقوله تعالى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ

أجره على الله » ، وبحديث أم حرام؛ فإنها صرعت عن دابتها فماتت ولم تُقتل فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أنت من الأولين"، وبقول النبيّ صلى الله عليه وسلم في حديث عبد الله ابن عَتِيك : " من خرج من بيته مهاجرا في سبيل الله فخرّ عن دابته فمات أو لدغته حية فمات أو مات حَتْفَ أنفه فقد وقع أجره على الله ومن مات قَعْصًا[2] فقد استوجب المآب ". وذكر ابن المبارك عن فضالة بن عبيد في حديث ذكر فيه رجلين أحدهما أصيب في غَزاة بِمَنْجَنِيق فمات والآخر مات هناك؛ فجلس فضالة عند الميت فقيل له : تركت الشهيد ولم تجلس عنده؟ فقال : ما أبالي من أيّ حفرتيهما بُعثت؛ ثم تلا قوله تعالى : « والذين هاجروا في سبيل الله ثم قُتلوا أو ماتوا » الآية كلها . وقال سليمان بن عامر : كان فضالة برُودِس أميرا على الأرباع فخُرِج بجنازتي رجلين أحدهما قتيل والآخر متوفَّى؛ فرأى ميل الناس مع جنازة القتيل إلى حفرته؛ فقال : أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل! فوالذي نفسي بيده ما أبالي من أيّ حفرتيهما بُعثت، اقرءوا قوله تعالى : « والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا » . كذا ذكره الثعلبي في تفسيره، وهو معنى ما ذكره ابن المبارك . واحتج من قال : إن للمقتول زيادة فضل بما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل : أيّ الجهاد أفضل؟ قال : " من أُهريق دمُه وعُقِر جواده " . وإذا كان من أهريق دمه وعقر جواده أفضلَ الشهداء عُلم أنه من لم يكن بتلك الصفة مفضول . قرأ ابن عامر وأهل الشام « قُتّلوا » بالتشديد على التكثير . الباقون بالتخفيف . ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ﴾ أي الجنان . قراءة أهل المدينة « مَدخلا » بفتح الميم ؛ أي دخولا . وضمها الباقون ؛ وقد مضى في « سبحان »[3] . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ قال ابن عباس : عليم بنياتهم ، حليم عن عقابهم .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

(١) آية ١٠٠ سورة النساء . (٢) القعص : أن يضرب الإنسان فيموت مكانه . وأراد بوجوب المآب حسن المرجع بعد الموت . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣١٢

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ ﴾ « ذلك » في موضع رفع ؛ أي ذلك الأمر الذي قصصنا عليك . قال مقاتل : نزلت في قوم من مشركي مكة لقوا قومًا من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم فقالوا : إن أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم ؛ فناشدهم المسلمون ألا يقاتلوهم في الشهر الحرام ؛ فأبى المشركون إلا القتال ، فحملوا عليهم فثبت المسلمون ونصرهم الله على المشركين؛ وحصل في أنفس المسلمين من القتال في الشهر الحرام شيء ؛ فنزلت هذه الآية . وقيل : نزلت في قوم من المشركين ، مثّلوا بقوم من المسلمين قتلوهم يوم أُحد فعاقبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثله . فمعنى « من عاقب بمثل ما عوقب به » أي من جازى الظالم بمثل ما ظلمه؛ فسمّى جزاء العقوبة عقوبة لاستواء الفعلين في الصورة ؛ فهو مثل « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » (1) . ومثل « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » (2) . وقد تقدم . ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ﴾ أي بالكلام والإزعاج من وطنه ؛ وذلك أن المشركين كذبوا نبيّهم وآذَوْا من آمن به وأخرجوه وأخرجوهم من مكة ، وظاهروا على إخراجهم . ﴿ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾ أي لينصرنّ الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ فإن الكفار بغوا عليهم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ أي عفا عن المؤمنين ذنوبهم وقتالهم في الشهر الحرام وستر .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ أي ذلك الذي قصصت عليك من نصر المظلوم هو بأني أنا الذي أولج الليل في النهار فلا يقدر أحد على ما أقدر عليه ؛ أي من قدر على هذا قدر على أن ينصر عبده . وقد مضى في « آل عمران » (3) معنى يولج الليل في النهار . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ يسمع الأقوال ويبصر الأفعال ، فلا يعزُب عنه مثقالُ ذرة ولا دبيب نملة إلا يعلمها ويسمعها ويبصرها .

---

(1) آية ٤٠ سورة الشورى . (2) آية ١٩٤ سورة البقرة . (3) راجع جـ ٤ ص ٥٦

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ (٦٢)

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ أى ذو الحق ؛ فدينه الحق وعبادته حق . والمؤمنون يستحقون منه النصر بحكم وعده الحق . ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ أى الأصنام التى لا استحقاق لها فى العبادات . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر « وأن ما تدعون » بالتاء على الخطاب ، واختاره أبو حاتم . الباقون بالياء على الخبر هنا وفى لقمان[1]، واختاره أبو عبيد . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ ﴾ أى العالى على كل شىء بقدرته ، والعالى عن الأشباه والأنداد، المقدس عما يقول الظالمون من الصفات التى لا تليق بجلاله . ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ أى الموصوف بالعظمة والجلال وكبر الشأن . وقيل : الكبير ذو الكبرياء . والكبرياء عبارة عن كمال الذات ؛ أى له الوجود المطلق أبدا وأزلا ، فهو الأول القديم ، والآخر الباقى بعد فناء خلقه .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣)

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ دليل على كمال قدرته ؛ أى من قَدَر على هذا قَدَر على إعادة الحياة بعد الموت ؛ كما قال الله عز وجل : « فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ » . ومثله كثير . « فَتُصْبِحُ » ليس بجواب فيكون منصوبا ، وإنما هو خبر عند الخليل وسيبويه . قال الخليل : المعنى انتبه ! أنزل الله من السماء ماء فكان كذا وكذا ؛ كما قال :

ألم تسأل الرَّبْعَ القَوَاءَ فَيَنْطِقُ ❊ وهل تُخْبِرَنْكَ اليومَ بَيْدَاءُ سَمْلَقُ[2]

---

(١) آية ٣٠ (٢) البيت لجميل بن عبد الله صاحب بثينة . والقواء (بفتح القاف) : القفر . والبيداء : القفر أيضا ، الذى يبيد من سلك فيه . والسملق (بفتح السين وسكون الميم وفتح اللام) : الأرض التى لا تنبت ؛ وهى السهلة المستوية (شواهد العينى) .

معناه قد سألته فنطق . وقيل آستفهام تحقيق؛ أي قد رأيت، فتأمل كيف تصبح ! أو عطف لأن المعنى ألم تر أن الله ينزل . وقال الفراء : « ألم تر» خبر؛ كما تقول في الكلام : اعلم أن الله عز وجل ينزل من السماء ماء . ﴿ فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ أي ذات خضرة؛ كما تقول : مُبْقِلة ومُسْبِعة؛ أي ذات بقل وسباع . وهو عبارة عن استعجالها إثر نزول الماء بالنبات واستمرارها كذلك عادة . قال ابن عطية : وروي عن عكرمة أنه قال : هذا لا يكون إلا بمكة وتهامة . ومعنى هذا : أنه أخذ قوله « فتصبح » مقصودا به صباح ليلة المطر، وذهب إلى أن ذلك الاخضرار يتأخر في سائر البلاد ، وقد شاهدت هذا [في] السوس الأقصى نزل المطر ليلا بعد قحط أصبحت تلك الأرض الرملة التي نسفتها الرياح قد اخضرت بنبات ضعيف رقيق . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ قال ابن عباس : « خبير » بما ينطوي عليه العبد من القنوط عند تأخير المطر . « لطيف » بأرزاق عباده . وقيل : لطيف باستخراج النبت من الأرض ، خبير بحاجتهم وفاقتهم .

قوله تعالى : لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ خلقا وملكا، وكل محتاج إلى تدبيره وإتقانه . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ فلا يحتاج إلى شيء، وهو المحمود في كل حال .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ذكر نعمة أخرى ، فأخبر أنه سخر لعباده ما يحتاجون إليه من الدواب والشجر والأنهار . ﴿ وَالْفُلْكَ ﴾ أي وسخر لكم الفلك في حال جريها . وقرأ أبو عبد الرحمن الأعرج « والفلكُ » رفعا على الابتداء وما بعده خبره .

الباقون بالنصب نسقا على قوله « ما فى الأرض » . ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ ﴾ أى كراهية أن تقع . وقال الكوفيون : لئلا تقع . وإمساكه لها خلق السكون فيها حالا بعد حال . ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ أى إلا بإذن الله لها بالوقوع ، فتقع بإذنه ، أى بإرادته وتخليته . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ أى فى هذه الأشياء التى سخرها لهم .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ ﴾ أى بعد أن كنتم نطفًا . ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند انقضاء آجالكم . ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أى للحساب والثواب والعقاب . ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ أى لجحود لما ظهر من الآيات الدالة على قدرته ووحدانيته . قال ابن عباس : يريد الأسود ابن عبد الأسد وأبا جهل بن هشام والعاص بن هشام وجماعة من المشركين . وقيل : إنما قال ذلك لأن الغالب على الإنسان كفر النعم ؛ كما قال تعالى : «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ»(١) .

قوله تعالى : لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ أى شرعا . ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ أى عاملون به . ﴿ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ ﴾ أى لا ينازعنك أحد منهم فيما يُشرع لأمتك ؛ فقد كانت الشرائع فى كل عصر . وروت فرقة أن هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار فى أمر الذبائح ، وقولهم للؤمنين : تأكلون ما ذبحتم ولا تأكلون ما ذبح الله من الميتة ، فكان ما قتل الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم بسكاكينكم ؛ فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة . وقد مضى هذا فى « الأنعام »(٢) والحمد لله . وقد تقدم فى هذه السورة ما للعلماء فى قوله تعالى « مَنْسَكًا »(٣) . وقوله : « هم ناسكوه » يعطى أن المَنْسك المصدر ، ولو كان الموضع لقال هم ناسكون فيه .

(١) آية ١٣ سورة سبأ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٧٢ (٣) ص ٥٨ من هذا الجزء .

وقال الزجاج : « فلا يُنازِعُنّك فى الأمر » أى فلا يجادلنّك ؛ ودلّ على هذا « وإن جادَلُوكَ » . ويقال : قد نازعوه فكيف قال فلا ينازعنك ؛ فالجواب أن المعنى فلا تنازعهم أنت . نزلت الآية قبل الأمر بالقتال ؛ تقول : لا يضاربنك فلان فلا تضارب به أنت ؛ فيجرى هذا فى باب المفاعلة . ولا يقال : لا يضربنك زيد وأنت تريد لا تضرب زيدا . وقرأ أبو مجلز « فلا يَنْزِعنّك فى الأمر » أى لا يستخلفنك ولا يغلبنك عن دينك . وقراءة الجماعة من المنازعة . ولفظ النهى فى القراءتين للكفار ، والمراد النبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أى إلى توحيده ودينه والإيمان به . ﴿ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى ﴾ أى دين . ﴿ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى قويم لا اعوجاج فيه .

قوله تعالى : وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَادَلُوكَ ﴾ أى خاصموك يا محمد ؛ يريد مشركى مكة . ﴿ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يريد من تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ عن ابن عباس . وقال مقاتل : هذه الآية نزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وهو فى السماء السابعة لما رأى من آيات ربّه الكبرى ؛ فأوحى الله إليه « وإنْ جادلوك » بالباطل فدافعهم بقولك « الله أعلم بما تعملون » من الكفر والتكذيب ؛ فأمره الله تعالى بالإعراض عن مماراتهم صيانةً له عن الاشتغال بتعنّتهم ؛ ولا جواب لصاحب العناد . ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ يريد بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وقومه . ﴿ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ يريد فى خلافكم آياتى ، فتعرفون حينئذ الحق من الباطل .

مسألة — فى هذه الآية أدبٌ حَسَنٌ علّمه الله عباده فى الردّ على من جادل تعنّتا ومراء ألا يجاب ولا يناظر ويُدفع بهذا القول الذى علمه الله لنبيّه صلى الله عليه وسلم . وقد قيل : إن هذه الآية منسوخة بالسيف ؛ يعنى السكوت عن مخالفه والاكتفاء بقوله : « الله يحكم بينكم » .

قوله تعالى : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى وإذ قد علمت يا محمد هذا وأيقنت فاعلم أنه يعلم أيضا ما أنتم مختلفون فيه فهو يحكم بينكم . وقد قيل : إنه استفهام تقرير للتنبير . ﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتابٍ ﴾ أى كل ما يجرى فى العالم فهو مكتوب عند الله فى أم الكتاب . ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ أى إن الفصل بين المختلفين على الله يسير . وقيل : المعنى إن كتاب القلم الذى أمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة على الله يسير

قوله تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ يريد كفار قريش . ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً ﴾ أى حجة وبرهانا . وقد تقدم فى « آل عمران »(1) . ﴿ وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ﴾ أى الغضب والعبوس . ﴿ يَكادُونَ يَسْطُونَ ﴾ أى يبطشون . والسطوة شدة البطش ؛ يقال : سطا به يسطو إذا بطش به ؛ كان ذلك بضرب أو بشتم ، وسطا

(1) راجع ج ٤ ص ٢٣٢

عليه . ﴿ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ . وقال ابن عباس : يسطون يبسطون إليهم أيديهم . محمد بن كعب : أى يقعون بهم . الضحاك : أى يأخذونهم أخذاً باليد ، والمعنى واحد . وأصل السَّطو القهر . والله ذو سطوات ؛ أى أخذات شديدة . ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ ﴾ أى أكره من هذا القرآن الذى تسمعون هو النار ؛ فكأنهم قالوا : ما الذى هو شر ؛ فقيل هو النار . وقيل : أى هل أنبئكم بشر مما يلحق تالى القرآن منكم هو النار ؛ فيكون هذا وعيداً لهم على سطواتهم بالذين يتلون القرآن . ويجوز فى « النار » الرفع والنصب والخفض ؛ فالرفع على هو النار ، أو هى النار . والنصب بمعنى أعنى ، أو على إضمار فعل مثل الثانى ، أو يكون محمولا على المعنى ؛ أى أعرفكم بشر من ذلكم النار . والخفض على البدل . ﴿ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فى القيامة . ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى الموضع الذى يصيرون إليه وهو النار .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ هذا متصل بقوله : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً » . وإنما قال « ضُرِبَ مَثَلٌ » لأن حجج الله تعالى عليهم بضرب الأمثال أقربُ إلى أفهامهم . فإن قيل : فأين المثل المضروب ؛ ففيه وجهان : الأول ـ قال الأخفش : ليس ثَمَّ مثل ، وإنما المعنى ضربوا لى مثلا فاستمعوا قولهم ؛ يعنى أن الكفار جعلوا لله مثلا بعبادتهم غيره ؛ فكأنه قال جعلوا لى شبيها فى عبادتى فاستمعوا خبر هذا الشبه . الثانى ـ قول القُتَبىّ : وأن المعنى يأيها الناس ، مَثَلُ من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق ذبابا وإن سلبها الذباب شيئا لم تستطع أن تستنقذه منه . وقال النحاس : المعنى ضرب الله عز وجل ما يُعبد من دونه مثلا ، قال : وهذا من أحسن ما قيل فيه ؛ أى بيّن الله لكم شبها

ولمعبودكم . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قراءة العامة « تدعون » بالتاء . وقرأ السُّلَمِيّ وأبو العالية ويعقوب « يدعون » باليـاء على الخبر . والمراد الأوثان الذين عبدوهم من دون الله ، وكانت حول الكعبة ، وهى ثلاثمائة وستون صنما . وقيل : السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله عز وجل . وقيل : الشياطين الذين حملوهم على معصية الله تعالى؛ والأول أصوب « ﴿ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا ﴾ الذباب اسم واحد للذكر والأنثى ، والجمع القليل أذبة والكثير ذِبّان ؛ على مثل غُراب وأغْرِبة وغِربان؛ وسُمّى به لكثرة حركته . الجوهرى : والذباب معروف الواحدة ذُبابة ، ولا تقل ذِبّانة . والمِذَبّة ما يُذَبّ به الذباب . وذُبَاب أسنان الإبل حدّها . وذُباب السيف طَرَفه الذى يضرب به . وذباب العين إنسانها . والذُّبَابة البقية من الدَّين . وذَبَّب النهـار إذا لم يبق منـه إلا بقية . والتذبذب التحرك . والذَّبْذَبة نَوْس الشيء المعلّق فى الهواء . والذَّبْذَب الذكر لتردّده . وفى الحديث "مَن وُقِى شَرّ ذَبْذَبِه".[وهذا مما لم يذكره ، أعنى قوله : وفى الحـديث][(1)] . ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ الاستنقاذ والإنقاذ التخليص . قال ابن عباس : كانوا يطلون أصنامهم بالزعفران فتجف فيأتى فيختلسه . وقال السُّدّى : كانوا يجعلون للأصنام طعاما فيقع عليه الذباب فيأكله . ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ قيـل : الطالب الآلهةُ والمطلوب الذباب . وقيل بالعكس . وقيل : الطالب عابدُ الصنم والمطلوبُ الصنم ؛ فالطالب يطلب إلى هذا الصنم بالتقرب إليه ، والصنم المطلوب إليه . وقد قيل : « وإنْ يَسْلُبْهم الذبابُ شيئا » راجع إلى ألمه فى قرص أبدانهم حتى يسلبهم الصبر لها والوقار معها . وخصّ الذباب لأربعـة أمور تخصه : لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته ؛ فإذا كان هذا الذى هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوه من دون الله عز وجل على خلق مثله ودفع أذيّته فكيف يجـوز أن يكونوا آلهة معبودين وأربابا مطاعين . وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان .

قوله تعـالى : مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

(1) ما بين المربعين غير واضح المعنى . وما نقله المؤلف رحمه الله عن الجوهرى مذكور كله فى الصحاح الى قوله : « ... شر ذبذبه » .

قوله تعالى : ﴿ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أى ما عظّموه حق عظمته ؛ حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له . وقد مضى فى « الأنعام »(١) . ﴿ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ تقدم .

قوله تعالى : ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ ختم السورة بأن الله اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم لتبليغ الرسالة ؛ أى ليس بعثه محمدا أمرا بديعًا . وقيل : إن الوليد بن المغيرة قال : أو أنزل عليه الذكر من بيننا ؛ فنزلت الآية . وأخبر أن الاختيار إليه سبحانه وتعالى . ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوال عباده ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بمن يختاره من خلقه لرسالته . ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ يريد ما قدموا . ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ يريد ما خلفوا؛ مثل قوله فى يس : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا »(٢) يريد ما بين أيديهم « وآثارهم » يريد ما خلفوا . ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ تقدم فى أول السورة أنها فضلت بسجدتين، وهذه السجدة الثانية لم يرها مالك وأبو حنيفة من العزائم؛ لأنه قرن الركوع بالسجود، وأن المراد بها الصلاةُ المفروضة ؛ وخصّ الركوع والسجود تشريفا للصلاة . وقد مضى القول فى الركوع والسجود مبيّنا فى «البقرة»(٣) والحمد لله وحده .

قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ أى امتثلوا أمره . ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾ نَدْب فيما عدا الواجبات التى صح وجوبها من غير هذا الموضع .

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٦ (٢) آية ١٢ سورة يس . (٣) راجع جـ ١ ص ٣٤٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ ﴾ قيل : عنى به جهاد الكفار . وقيل : هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به ، والانتهاء عن كل ما نهى الله عنه ؛ أي جاهدوا أنفسكم في طاعة الله وردّوها عن الهوى، وجاهدوا الشيطان في ردّ وسوسته ، والظَّلَمة في رد ظلمهم ، والكافرين في ردّ كفرهم . قال ابن عطية : وقال مقاتل وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى : «فٱتقوا الله ما ٱستطعتم»(١) . وكذا قال هبة الله : إن قوله «حَقَّ جهاده» وقوله في الآية الأخرى : « حَقَّ تُقاتِهِ » منسوخ بالتخفيف إلى الاستطاعة في هذه الأوامر . ولا حاجة إلى تقدير النسخ ؛ فإن هذا هو المراد من أوّل الحكم ؛ لأن « حق جهاده » ما ارتفع عنه الحرج . وقد روى سعيد بن المسيّب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خيرُ دينكم أيْسَره " . وقال أبو جعفر النحاس : وهذا مما لا يجوز أن يقع فيه نسخ ؛ لأنه واجب على الإنسان ، كما روى حَيْوَة بن شُرَيح يرفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " المجاهد من جاهد نفسه لله عز وجل" . وكما روى أبو غالب عن أبي أمامة أن رجلا سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم : أيّ الجهاد أفضل؟ عند الجمرة الأولى فلم يجبه، ثم سأله عند الجمرة الثانيـة فلم يجبه، ثم سأله عند جمرة العقبة؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أين السائل"؟ فقال : أنا ذا؛ فقال عليه السلام : "كلمةُ عَدْل عند سلطان جائر" .

(١) آية ١٦ سورة التغابن .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ ﴾ أى اختاركم للذبّ عن دينه والتزام أمره؛ وهذا تأكيد للأمر بالمجاهدة، أى وجب عليكم أن تجاهدوا لأن الله اختاركم له .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أى من ضِيق . وقد تقدّم فى « الأنعام »[(1)] . وهذه الآية تدخل فى كثير من الأحكام؛ وهى مما خص الله بها هذه الأمة . روى معمر عن قتادة قال : أعطيتْ هذه الأمة ثلاثا لم يُعْطَها إلا نبى : كان يقال للنبى اذهب فلا حرج عليك، وقيل لهذه الأمة : « وما جعل عليكم فى الدّين من حرج » . والنبىّ شهيد على أمته، وقيل لهذه الأمة : « لتكونوا شُهَداءَ على الناس » . ويقال للنبى : سَلْ تُعْطَه، وقيل لهذه الأمة : « ادعونى أستجبْ لكم » .

الثانيــة ـــ واختلف العلماء فى هذا الحَرَج الذى رفعه الله تعالى؛ فقال عكرمة : هو ما أحلّ من النساء مَثْنَى وثلاثَ ورُباع، وما ملكتْ يمينك . وقيل : المراد قصر الصلاة، والإفطارُ للمسافر، وصلاةُ الإيماء لمن لا يقدر على غيره، وحطُّ الجهاد عن الأعمى والأعرج والمريض والعَدِيم الذى لا يجد ما ينفق فى غزوه، والغَرِيم ومن له والدان، وحَطّ الإصْر الذى كان على بنى إسرائيل . وقد مضى تفصيل أكثر هذه الأشياء[(2)] . وروى عن ابن عباس والحسن البصرى أن هذا فى تقديم الأهِلّة وتأخيرها فى الفطر والأضحى والصوم؛ فإذا أخطأت الجماعة هلال ذى الحجة فوقفوا قبل يوم عرفة بيوم أو وقفوا يوم النحر أجزأهم، على خلاف فيه بيناه فى كتاب المقتبس فى شرح موطأ مالك بن أنس رضى الله عنه . وما ذكرناه هو الصحيح فى الباب . وكذلك الفطر والأضحى؛ لما رواه حماد بن زيد عن أيوب عن محمد بن المُنْكَدِر عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فِطركم يوم تُفْطِرون وأضحاكم يوم تضحون " . خرجه أبو داود والدَّارَقُطْنىّ، ولفظه ما ذكرناه . والمعنى : باجتهادكم من غير حرج يلحقكم . وقد روى الأئمة أنه عليه السلام سئل يوم النحر عن أشياء، فما يسأل عن

(1) راجع جـ ٧ ص ٨٠ . (٢) راجع جـ ٣ ص ٤٣٠، جـ ٧ ص ٣٠٠

أمر مما ينسى المرء أو يجهل من تقديم الأمور بعضها قبل بعض وأشباهها إلا قال فيها : « افعل ولا حرج » .

الثالثـــة — قال العلماء : رفع الحرج إنما هو لمن استقام على منهاج الشرع ، وأما السلابة والسراق وأصحاب الحدود فعليهم الحرج ، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدين ، وليس في الشرع أعظم حرجا من إلزام ثبوت رجل لاثنين في سبيل الله تعالى ؛ ومع صحة اليقين وجودة العزم ليس بحرج .

قوله تعالى : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ ﴾ قال الزجاج : المعنى اتبعوا ملة أبيكم . الفراء : انتصب على تقدير حذف الكاف ؛ كأنه قال كملة . وقيل : المعنى وافعلوا الخير فعل أبيكم ؛ فأقام الفعل مقام الملة . وإبراهيم هو أبو العرب قاطبة . وقيل : الخطاب لجميع المسلمين ، وإن لم يكن الكل من ولده ؛ لأن حرمة إبراهيم على المسلمين كحرمة الوالد على الولد . ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ قال ابن زيد والحسن : « هو » راجع إلى إبراهيم ؛ والمعنى : هو سماكم المسلمين من قبل النبي صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَفِي هَٰذَا ﴾ أي وفي حكمه أن من اتبع محمدا صلى الله عليه وسلم فهو مسلم . قال ابن زيد : وهو معنى قوله : « رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ »[(1)] . قال النحاس : وهذا القول مخالف لقول عظماء الأمة . روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : سماكم الله عز وجل المسلمين من قبل ، أي في الكتب المتقدمة وفي هذا القرآن ؛ قاله مجاهد وغيره . ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ﴾ أي بتبليغه إياكم . ﴿ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ أن رسلهم قد بلغتهم ؛ كما تقدم في « البقرة »[(2)] . ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾[(3)] تقدم مستوفى والحمد لله .

---

(١) آية ١٢٨ سورة البقرة . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٥٤ طبعة ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٦٤ ، ٣٤٣ طبعة ثانية أو ثالثة . و جـ ٤ ص ١٥٦

سورة المؤمنون

مكية كلها في قول الجميع

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ (٢) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ (٤) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ (٧) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ (١٠) ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (١١)

فيه تسع مسائل :

الأولى – قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ روى البيهقي من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لما خلق الله جنة عدن وغرس أشجارها بيده قال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون » . وروى النسائي عن عبد الله بن السائب قال : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فصلى في قبل الكعبة ، فخلع نعليه فوضعهما عن يساره فافتتح سورة المؤمنين ، فلما جاء ذكر موسى أو عيسى عليهما السلام أخذته سعلة فركع . خرجه مسلم بمعناه . وفي الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه الوحي سمع عند وجهه كدوي النحل ؛ وأنزل عليه يوما فمكثنا ساعة فسري عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه وقال : « اللهم زدنا ولا تنقصنا وارضنا وارض عنا – ثم قال –

أنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة — ثم قرأ — قد أفلح المؤمنون " حتى ختم عشر آيات ؛ صححه ابن العربي . وقال النحاس : معنى " من أقامهن " من أقام عليهن ولم يخالف ما فيهن ؛ كما تقول : فلان يقوم بعمله . ثم نزل بعد هذه الآيات فرض الوضوء والحج فدخل معهن . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « قد أُفْلِح المؤمنون » بضم الألف على الفعل المجهول ؛ أى أُبْقُوا فى الثواب والخير . وقد مضى فى أول « البقرة » معنى الفلاح لغةً ومعنًى (١) ، والحمد لله وحده .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ خَاشِعُونَ ﴾ روى المُعْتَمِر عن خالد عن محمد بن سيرين قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم ينظر إلى السماء فى الصلاة ؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية « الذين هم فى صلاتهم خاشعون » . فجعل رسول الله صلّى الله عليه وسلم ينظر حيث يسجد . وفى رواية هُشيم : كان المسلمون يلتفتون فى الصلاة وينظرون حتى أنزل الله تعالى « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » ؛ فأقبلوا على صلاتهم وجعلوا ينظرون أمامهم . وقد تقدم ما للعلماء فى حكم المصلّى إلى حيث ينظر فى « البقرة » عند قوله « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الحرام » (٢) . وتقدم أيضا معنى الخشوع لغة ومعنى فى البقرة أيضا عند قوله تعالى : « وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِين » (٣) . والخشوع محله القلب ؛ فإذا خشع خشعت الجوارح كلّها لخشوعه ؛ إذ هو مَالِكُها ، حسبما بيّناه أوّل البقرة . وكان الرجل من العلماء إذا أقام الصلاة وقام إليها يهاب الرحمنَ أن يمدّ بصره إلى شىء وأن يحدّث نفسه بشىء من الدنيا . وقال عطاء : هو ألّا يعبث بشىء من جسده فى الصلاة . وأبصر النبيّ صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال : " لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه " . وقال أبو ذرّ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الرحمة تواجهه فلا يحركن الحصى " . رواه الترمذى . وقال الشاعر :

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٨١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٥٨ طبعة ثانية .

(٣) راجع جـ ١ ص ٣٧٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

ألا في الصلاة الخيرُ والفضل أجمعُ * لأن بها الآرابَ[1] لله تخضعُ
وأوّل فرض من شريعة ديننا * وآخر ما يبقى إذا الدِّين يُرفع
فمن قام للتكبير لاقته رحمة * وكان كعبد بابَ مولاه يَقْرَعُ
وصار لربّ العرش حين صلاته * نجيًّا فيا طُوباه لو كان يخشع

وروى أبو عمر أن الجَوْنيّ قال : قيل لعائشة ما كان خُلُق رسول الله صلّى الله عليه وسلم ؟ قالت : أتقرءون سورة المؤمنين ؟ قيل نعم . قالت : اقرءوا ؛ فقرئ عليها « قد أفلح المؤمنون ـ حتى بلغ ـ يحافظون » . وروى النَّسائيّ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلحظ فى صلاته يمينا وشمالا ، ولا يلوى عنقه خلف ظهره . وقال كعب بن مالك فى حديثه الطويل : ثم أصلي قريبا منه ـ يعني من النبيّ صلى الله عليه وسلم ـ وأسارقه النظر ، فإذا أقبلتُ على صلاتى نظر إليّ وإذا التفتّ نحوه أعرض عنى ... الحديث ؛ ولم يأمره بإعادة .

الثالثة ـ اختلف الناس فى الخشوع ، هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها ومكملاتها على قولين . والصحيح الأول ، ومحله القلب ، وهو أول علم يرفع من الناس ؛ قاله عُبادة بن الصامت ، رواه الترمذى من حديث جُبير بن نُفير عن أبى الدرداء ، وقال : هذا حديث حسن غريب . وقد خرجه النَّسائى من حديث جبير بن نفير أيضا عن عوف بن مالك الأشجعيّ من طريق صحيحة . قال أبو عيسى : ومعاوية[2] بن صالح ثقة عند أهل الحديث ، ولا نعلم أحدا تكلم فيه غير يحيي بن سعيد القطّان .

قلت : معاوية بن صالح أبو عمرو ويقال أبو عمر الحضرمى الحمصى قاضي الأندلس ، سئل عنه أبو حاتم الرازى فقال : صالح الحديث ، يُكتب حديثه ولا يحتج به . واختلف فيه قول يحيي بن معين ، ووثقه عبد الرحمن بن مهدى وأحمد بن حنبل وأبو زُرْعة الرازى ، واحتج به مسلم فى صحيحه . وتقدم فى « البقرة » معنى اللغو والزكاة فلا معنى للإعادة[3] . وقال

(١) الآراب : جمع الإرب (بكسر فسكون) وهو العضو . (٢) هو أحد رجال سند الحديث المتقدم .
(٣) راجع ج ١ ص ٣٤٣ ، ج ٣ ص ٩٩

الضحاك : إن اللغو هنا الشرك . وقال الحسن : إنه المعاصي كلها . فهذا قول جامع يدخل فيه قول من قال : هو الشرك ؛ وقولُ من قال هو الغناء ؛ كما روى مالك بن أنس عن محمد آبن المُنْكَدِر، على ما يأتي في « لُقمان » بيانه . ومعنى « فاعلون » أي مؤدّون ؛ وهي فصيحة ، وقد جاءت في كلام العرب . قال أُميّة بن أبي الصَّلْت :

المطعمون الطعام في السنة الأزْ * مة والفاعلون للزّكَوات

الرابعــة ـ قوله تعالى : ﴿ والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ قال ابن العربي : « من غريب القرآن أن هـذه الآيات العشر عامّةٌ في الرجال والنساء ، كسائر ألفاظ القرآن التي هي محتملة لهم فإنها عامة فيهم، إلا قوله «والذين هم لفروجهم حافظون» فإنما خاطب بها الرجال خاصة دون الزوجات؛ بدليل قوله : «إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم». وإنما عُرف حفظ المرأة فرجها من أدلة أخر كآيات الإحصان عموما وخصوصا وغير ذلك من الأدلّة» .

قلت : وعلى هذا التأويل في الآية فلا يحلّ لآمرأة أن يطأها مَن تملكه إجماعا من العلماء؛ لأنها غير داخلة في الآية ، ولكنها لو أعتقته بعد ملكها له جاز له أن يتزوجها كما يجوز لغيره عند الجمهور . وروى عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة والشَّعْبِيّ والنَّخَعِيّ أنها لو أعتقته حين ملكته كانا على نكاحهما . قال أبو عمر : ولا يقول هذا أحد من فقهاء الأمصار؛ لأن تملكها عندهم يبطل النكاح بينهما ، وليس ذلك بطلاق وإنما هو فسخ للنكاح ؛ وأنها لو أعتقته بعد ملكها له لم يراجعها إلا بنكاح جديد ولو كانت في عدّة منه .

الخامســة ـ قال محمد بن عبد الحَكَم : سمعت حَرْملة بن عبد العزيز قال : سألت مالكا عن الرجل يَجْلِد عُمَيرة ، فتلا هـذه الآية « والذين هم لفروجهم حافظون ـ إلى قوله ـ العادون » . وهذا لأنهم يَكْنُون عن الذَّكَر بعُمَيرة؛ وفيه يقول الشاعر :

إذا حَلَلْتَ بوادٍ لا أنيس به * فاجلد عُمَيرة لا داءٌ ولا حَرَجُ

ويسميه أهـل العراق الاستمناء، وهو استفعال من المَنِيّ . وأحمد بن حنبل على ورعه يجوّزه ، ويحتج بأنه إخراج فضلة من البدن فجاز عند الحاجة؛ أصله القَصْد والحجامة . وعامة

العلماء على تحريمه . وقال بعض العلماء : إنه كالفاعل بنفسه ، وهى معصية أحدثها الشيطان وأجراها بين الناس حتى صارت قيلة ، و ياليتها لم تُقل . ولو قام الدليل على جوازها لكان ذو المروءة يُعرض عنها لدناءتها . فإن قيل : إنها خير من نكاح الأَمَة ؛ قلنا : نكاح الأمة ولو كانت كافرة على مذهب بعض العلماء خير من هذا ، وإن كان قد قال به قائل أيضا ، ولكن الاستمناء ضعيف فى الدليل عارٌ بالرجل الدنىء فكيف بالرجل الكبير .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ ﴾ قال الفراء : أى من أزواجهم اللاتى أحل الله لهم لا يجاوزون . ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ فى موضع خفض معطوفة على « أزواجهم » و « ما » مصدرية . وهذا يقتضى تحريم الزنى وما قلناه من الاستمناء ونكاح المُتْعة ؛ لأن المتمتَّع بها لا تجرى مجرى الزوجات ، لا ترث ولا تورث ، ولا يلحق به ولدها ، ولا يخرج من نكاحها بطلاق يستأنف لها . وإنما يخرج بانقضاء المدّة التى عُقدت عليها وصارت كالمستأجَرة . ابن العربى : إن قلنا إن نكاح المتعة جائز فهى زوجة إلى أجل ينطلق عليها اسم الزوجية . و إن قلنا بالحق الذى أجمعت عليه الأمة من تحريم نكاح المتعة لما كانت زوجة فلم تدخل فى الآية .

قلت : وفائدة هذا الخلاف هل يجب الحد ولا يلحق الولد كالزنى الصريح أو يدفع الحد للشبهة و يلحق الولد ؛ قولان لأصحابنا . وقد كان للمتعة فى التحليل والتحريم أحوال ؛ فمن ذلك أنها كانت مباحة ثم حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم زَمَنَ خَيْبَر ، ثم حللها فى غزاة الفتح ، ثم حرمها بعدُ ؛ قاله ابن خُوَيْزمَنْدَاد من أصحابنا وغيرُه ، و إليه أشار ابنُ العربى ، وقد مضى فى « النساء » القول فيها مستوفًى (١) .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ فسمّى من نكح ما لا يحل عاديا ، وأوجب عليه الحد لعدوانه ، واللائط عادٍ قرآنا ولغة ، بدليل قوله تعالى : « بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ » وكما تقدم فى « الأعراف » (٢) ؛ فوجب أن يقام الحد عليهم ، وهذا ظاهر لا غبار عليه .

(١) راجع جـ ٥ ص ١٢٩ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٤٢ وما بعدها .

قلت : فيه نظر ، ما لم يكن جاهلا او متأولا ، و إن كان الإجماع منعقدا على أن قوله تعالى : « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ » خصّ به الرجال دون النساء ؛ فقد روى مَعْمَر عن قتادة قال : تسرّرت امرأة غلامها ؛ فذُكر ذلك لعمر فسألها : ما حملك على ذلك ؟ قالت : كنت أراه يحلّ لي بملك يميني كما يحل للرجل المرأة بملك اليمين ؛ فآستشار عمر في رَجْمها أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : تأوّلتْ كتاب الله عزّ وجلّ على غير تأويله ، لا رجم عليها . فقال عمر : لا جَرَم! والله لا أُحلّك لحرّ بعده أبدا . عاقبها بذلك ودرأ الحدّ عنها ، وأمر العبد ألّا يقربها . وعن أبي بكر بن عبد الله أنه سمع أباه يقول : أنا حضرت عمر بن عبد العزيز جاءته آمرأة بغلام لها وَضِيء فقالت : إني استسررته فمنعني بنو عمي عن ذلك ، و إنما أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطؤها ؛ فآنْه عني بني عمي ؛ فقال عمر : أتزوّجتِ قبله ؟ قالت نعم ؛ قال : أما والله لولا منزلتك من الجهالة لرجمتك بالحجارة ، ولكن اذهبوا به فبيعوه إلى من يخرج به إلى غير بلدها . و « وَرَاءَ » بمعنى سوى ، وهو مفعول بـ « آبتغى » أي من طلب سوى الأزواج والولائد المملوكة له . وقال الزجاج : أي فمن ابتغى ما بعد ذلك ؛ فمفعول الابتغاء محذوف ، و « وَرَاءَ » ظرف . و « ذَلِكَ » يشار به إلى كل مذكور مؤنثا كان أو مذكرا . ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي المجاوزون الحدّ ؛ من عدا أي جاوز الحدّ وجازه .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ قرأ الجمهور « لأماناتهم » بالجمع . وابن كثير بالإفراد . والأمانة والعهد يجمع كلّ ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولا وفعلا . وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغيرَ ذلك ؛ وغاية ذلك حفظه والقيام به . والأمانة أعم من العهد ، وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد .

التاسعة — قرأ الجمهور « صَلَوَاتِهِمْ » وحمزة والكسائي « صلاتهم » بالإفراد ؛ وهذا الإفراد اسم جنس فهو في معنى الجمع . والمحافظة على الصلاة إقامتها والمبادرة إليها أوائلَ

أوقاتها ، و إتمام ركوعها وسجودها . وقد تقدم فى « البقرة » مستوفًى . ثم قال : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ أى من عمل بما ذكر فى هذه الآيات فهم الوارثون؛ أى يرثون منازل أهل النار من الجنة . وفى الخبر عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم "إن الله تعالى جعل لكل إنسان مسكنا فى الجنة ومسكنا فى النار فأما المؤمنون فيأخذون منازلهم ويرثون منازل الكفار ويجعل الكفار فى منازلهم فى النار" . خرجه ابن ماجه بمعناه . عن أبى هريرة أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى: « أولئك هم الوارثون » " . إسناده صحيح . ويحتمل أن يسمى الحصول على الجنة وراثة من حيث حصولها دون غيرهم ، فهو اسم مستعار على الوجهين . والفردوس رَبْوة الجنة وأوسطها وأفضلها . خرّجه الترمذىّ من حديث الرُّبَيِّع بنت النضر أم حارثة، وقال: حديث حسن صحيح . وفى حديث مسلم "فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تُفجّر أنهار الجنة" . قال أبو حاتم محمد بن حِبّان : قوله صلى الله عليه وسلم "فإنه أوسط الجنة" يريد أن الفردوس فى وسط الجنان فى العرض وهو أعلى الجنة؛ يريد فى الارتفاع . وهذا كله يصحح قول أبى هريرة : إن الفردوس جبل الجنة التى تتفجر منه أنهار الجنة . واللفظة فيما قال مجاهد : رُومية عُرّبت . وقيل : هى فارسية عربت . وقيل حبشية ؛ وإن ثبت ذلك فهو وفاق بين اللغات . وقال الضحاك : هو عربىّ وهو الكَرْم ؛ والعرب تقول للكروم فراديس . ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فأنّث على معنى الجنة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ الإنسان هنا آدم عليه الصلاة والسلام؛ قاله قتادة وغيره، لأنه آستُلّ من الطين . ويجيء الضمير في قوله : « ثم جعلناه » عائدا على ابن آدم ، وإن كان لم يُذكر لشهرة الأمر؛ فإن المعنى لا يصلح إلا له . نظير ذلك « حتى توارت بالحجاب »[1] . وقيل : المراد بالسلالة ابن آدم؛ قاله ابن عباس وغيره . والسلالة على هذا صفوة الماء، يعني المنيّ . والسلالة فُعالة من السَّل وهو استخراج الشيء من الشيء؛ يقال : سللت الشعر من العجين، والسيف من الغمد فآنسل؛ ومنه قوله :

* فسُلِّي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ[2] *

فالنطفة سُلالة، والولد سَليل وسُلالة؛ عنى به الماء يُسَلّ من الظهر سَلًّا . قال الشاعر :

فجاءت به عَضْبَ الأديم غَضَنْفَرًا * سلالةَ فَرْجٍ كان غيرَ حصينِ[3]

وقال آخر :

وما هِنْدُ إلا مُهْرَةٌ عربيّة * سليلةُ أفراسٍ تجلّلها بَغْلُ[4]

وقوله « من طين » أي أن الأصل آدم وهو من طين .

قلت : أي من طين خالص؛ فأما ولده فهو من طين ومنيّ، حسبما بيناه في أول سورة الأنعام[5] . وقال الكلبيّ : السلالة الطين إذا عصرته انسلّ من بين أصابعك؛ فالذي يخرج هو السُّلالة .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ نُطْفَةً ﴾ قد مضى القول في النُّطفة والعَلَقة والمضغة وما في ذلك من الأحكام في أول الحج[6]، والحمد لله على ذلك .

الثالثــة — قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ آختلف الناس في الخلق الآخر؛ فقال ابن عباس والشّعبيّ وأبو العالية والضحاك وابن زيد : هو نفخ الروح فيه بعد أن كان

---

(١) آية ٣٢ سورة ص . (٢) هذا عجز بيت من معلقة امرئ القيس . وصدره :

* وإن تك قد ساءتك مني خليقة *

(٣) البيت لحسان بن ثابت . (٤) نسب صاحب لسان العرب هذا البيت لهند بنت النعمان (مادة سلل) . وتجللها : علاها . وقوله « بغل » قال ابن بري : وذكر بعضهم أنها تصحيف، وأن صوابه « نغل » بالنون وهو الخسيس من الناس والدواب؛ لأن البغل لا ينسل . (٥) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ . (٦) راجع ص ٦ من هذا الجزء .

جمادا . وعن ابن عباس : خروجه إلى الدنيا . وقال قتادة عن فرقة : نبات شعره . الضحاك : خروج الأسنان ونباتُ الشعر . مجاهد : كمال شبابه ؛ وروى عن ابن عمر . والصحيح أنه عام فى هذا وفى غيره من النطق والإدراك وحسن المحاولة وتحصيل المعقولات إلى أن يموت .

الرابعــة ـ قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ يروى أن عمر بن الخطاب لمـا سمع صدر الآية إلى قوله « خلقا آخر » قال فتبارك الله أحسن الخالقين ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هكذا أنزلت " . وفى مسند الطَّيَالِسِيّ : ونزلت « ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين » الآية ؛ فلمـا نزلت قلت أنا : تبارك الله أحسن الخالقين ؛ فنزلت « تبارك الله أحسن الخالقين » . ويروى أن قائل ذلك معاذ بن جَبَل . وروى أن قائل ذلك عبد الله بن أبى سَرْح ، وبهـذا السبب ارتد وقال : آتى بمثل ما يأتى محمد ؛ وفيـه نزل « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » على ما تقدم بيانه فى «الأنعام»[1] . وقوله تعالى «تبارك» تفاعل من البركة . ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ أتقن الصانعين . يقال لمن صنع شيئا خَلَقه ؛ ومنه قول الشاعر :

ولأنت تفرى ما خلقتَ وبعـ * ـضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِى[2]

وذهب بعض الناس إلى نفى هـذه اللفظة عن الناس وإنمـا يضاف الخلق إلى الله تعالى . وقال ابن جُرَيج : إنمـا قال « أحسن الخالقين » لأنه تعـالى قد أذن لعيسى عليه السـلام أن يخلق ؛ واضطرب بعضهم فى ذلك . ولا تُنْفَى اللفظة عن البشر فى معنى الصنع ؛ وإنمـا هى منفية بمعنى الاختراع والإيجاد من العدم .

مسئلة[3] ـ من هذه الآية قال ابن عباس لعمر حين سأل مشيخة الصحابة عن ليلة القدر فقالوا : الله أعلم ؛ فقال عمر : ما تقول يا ابن عباس؟ فقـال : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى خلق السموات سبعا والأرضين سبعا ، وخلق ابن آدم من سبع وجعل رزقه فى سبع ، فأراها

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩ (٢) البيت لزهير بن أبى سلمى يمدح هرم بن سنان . والفرى : القطع .
(٣) ذكر المؤلف أن المسائل خمس ، ولم يذكر إلا أربعا ؛ ولعل هذه المسألة هى الخامسة .

فى ليلة سبع وعشرين . فقال عمر رضى الله عنه : أعجزكم[1] أن تأتوا بمثـل ما أتى هذا الغـلام الذى لم تجتمع شئون رأسه . وهذا الحديث بطوله فى مسند ابن أبى شيبة . فأراد ابن عباس « خلق ابن آدم من سبع » بهذه الآية[2] ، وبقوله « وجعل رزقه فى سبع » قوله[3] « فأنبتنا فيها حبًّا . وعنبًا وقضبًا . وزيتونًا ونخلًا . وحدائق غلبًا . وفاكهةً وأبًّا » الآية . السبع منهـا لابن آدم ، والأبّ للأنعام . والقَضْبُ يأكله ابن آدم ويسمن منه النساء ؛ هـذا قول . وقيل : القَضْب البقول لأنها تُقْضَبُ ؛ فهى رزق ابن آدم . وقيل : القَضْب والأبّ للأنعام ، والستّ الباقية لابن آدم ، والسابعة هى للأنعام ؛ إذ هى من أعظم رزق ابن آدم .

قوله تعالى : ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ أى بعد الخلق والحياة . النحاس : ويقال فى هذا المعنى لمـائتون . ثم أخبر بالبعث بعد الموت فقال : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ .

قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ قال أبو عبيدة : أى سـبع سموات . وحكى عنه أنه يقال : طارقتُ الشىء ، أى جعلت بعضـه فوق بعض ؛ فقيـل للسموات طرائق لأن بعضها فوق بعض . والعرب تسمّى كلّ شىء فوق شىء طَرِيقة . وقيل : لأنها طرائق الملائكة . ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ قال بعض العلماء : أى عن خلق السماء . وقال أكثر المفسرين : أى عن الخلق كلهم من أن تسقط عليهم فتهلكهم .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى « وما كنا عن الخلق غافلين » أى فى القيام بمصالحه وحفظه ؛ وهو معنى الحىّ القيوم ؛ على ما تقدم[4] .

(١) فى الدرر المنثور : « أعجزتم أن تقولوا كما قال هذا الغلام » . (٢) كذا فى الأصول ، وسياق الكلام يقتضى أن تكون العبارة هكذا : فأراد ابن عباس بقوله « خلق ابن آدم من سبع هذه الآية ... » الخ .
(٣) آية ٢٧ وما بعدها سورة عبس . (٤) راجع ج ٣ ص ٢٧١

قوله تعالى : وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ هذه الآية من نعم الله تعالى على خلقه ومما امتنّ به عليهم ؛ ومن أعظم المنن المـاءُ الذى هو حياة الأبدان ونماء الحيوان . والمـاءُ المنزل من السماء على قسمين : هـذا الذى ذكر الله سبحانه وتعالى وأخبر بأنه استودعه فى الأرض، وجعله فيها مختزنا لسقى الناس يجدونه عند الحاجة إليـه؛ وهو ماء الأنهار والعيون وما يستخرج من الآبار . وروى عن ابن عباس وغيره أنه إنمـا أراد الأنهار الأربعة : سَيْحان وجَيْحان ونيـل مصر والفُرات . وقال مجاهـد : ليس فى الأرض ماء إلا وهو من السماء . وهـذا ليس على إطـلاقه، وإلا فالأُجاج ثابت فى الأرض، فيمكن أن يقيِّد قوله بالمـاء العذب ، ولا محالة أن الله تعالى قد جعل فى الأرض ماء وأنزل من السماء ماء . وقد قيـل : إن قوله « وأنزلنا من السماء ماء » إشارةٌ إلى المـاء العـذب، وأن أصله من البحر، رفعـه الله تعالى بلطفه وحسن تقديره من البحر إلى السماء، حتى طاب بذلك الرفع والتصعيد؛ ثم أنزله إلى الأرض لِيُنتفع به، ولو كان الامر إلى ماء البحر لمـا انتفع به من ملوحته .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ أى على مقدار مصلح، لأنه لو كثر أهلك؛ ومنـه قوله تعـالى : « وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ »[(1)] . ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ يعنى المـاء المختزن . وهذا تهـديد ووعيد؛ أى فى قدرتنـا إذهابه وتغويره، ويهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم؛ وهذا كقوله تعـالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ــ أى غائرا ــ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ »[(2)] .

الثالثــة ــ ذكر النحاس : قرئ على أبى يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن يونس عن جامع بن سوادة قال : حدّثنا سعيد بن سابق قال حدّثنا مسلمة بن علىّ عن مقاتل بن حيان

(١) آية ٢١ سورة الحجر . (٢) آية ٣٠ سورة الملك .

عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أنزل الله عز وجل من الجنة إلى الأرض خمسة أنهار سَيْحون وهو نهر الهند وجَيْحون وهو نهر بَلْخ ودجْلة والفُرات وهما نهرا العراق والنيل وهو نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة فى أسفل درجة من درجاتها على جناحى جبْريل عليه السلام فاستودعها الجبال وأجراها فى الأرض وجعل فيها منافع للناس فى أصناف معايشهم وذلك قوله جل ثناؤه : « وأنزلنا من السماء ماء بقدرٍ فأسكناه فى الأرض» فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله عز وجل جبريل فرفع من الأرض القرآن والعلم وجميع الأنهار الخمسة فيرفع ذلك إلى السماء فذلك قوله تعالى : «وإنا على ذهاب به لقادرون» فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدين والدنيا ".

الرابعـــة — كل ما نزل من السماء مختزنا كان أو غير مختزن فهو طاهر مطهر يغتسل به ويتوضأ منه ؛ على ما يأتى فى «الفرقان»(١) بيانه .

قوله تعالى : فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فأنشأنا﴾ أى جعلنا ذلك سبب النبات ، وأوجدناه به وخلقناه . وذكر تعالى النخيل والأعناب لأنها ثمرة الحجاز بالطائف والمدينة وغيرهما ؛ قاله الطبرى . ولأنها أيضا أشرف الثمار ؛ فذكرها تشريفا لها وتنبيها عليها . ﴿ لكم فيها ﴾ أى فى الجنات . ﴿ فواكه ﴾ من غير الرطب والعنب . ويحتمل أن يعود على النخيل والأعناب خاصّة إذ فيها مراتب وأنواع ؛ والأول أعم لسائر الثمرات .

الثانيـــة — من حلف ألا يأكل فاكهة ؛ ففى الرواية عندنا يحنث بالباقلاء الخضراء وما أشبهها . وقال أبو حنيفة : لا يحنث بأكل القثّاء والخيار والجزر ؛ لأنها من البقول لا من الفاكهة . وكذلك الجوز واللوز والفستق ؛ لأن هذه الأشياء لا تُعدّ من الفاكهة .

(١) فى قوله تعالى : «وهو الذى أرسل الرياح بُشْرًا بين يدى رحمته ...» آية ٤٨

وإن أكل تفاحا أو خوخا أو مشمشا أو تينا أو إجّاصا يحنث . وكذلك البِطّيخ ؛ لأن هذه الأشياء كلها تؤكل على جهة التفكّه قبل الطعام وبعده؛ فكانت فاكهة . وكذلك يابس هذه الأشياء إلا البِطّيخ اليابس لأن ذلك لا يؤكل إلا فى بعض البلدان . ولا يحنث بأكل البطيخ الهندى لأنه لا يعدّ من الفواكه . وإن أكل عنبا أو رمّانا أو رطبا لا يحنث . وخالفه صاحباه فقالا يحنث؛ لأن هذه الأشياء من أعز الفواكه، وتؤكل على وجه التنعم . والإفراد لها بالذكر فى كتاب الله عز وجل لكمال معانيها؛ كتخصيص جبريل وميكائيل من الملائكة . واحتج أبو حنيفة بأن قال : عطف هذه الأشياء على الفاكهة مرة فقال « فيهما فاكهة ونخل ورمّان »[1] ومرة عطف الفاكهة على هذه الأشياء فقال : « وفاكهةً وأبًّا » والمعطوف غير المعطوف عليه ، ولا يليق بالحكمة ذكر الشىء الواحد بلفظين مختلفين فى موضع المنّة . والعنب والرمان يُكتفى بهما فى بعض البلدان فلا يكون فاكهة؛ ولأن ما كان فاكهة لا فرق بين رطبه ويابسه، ويابسُ هذه الأشياء لا يعد فاكهة فكذلك رطبها .

قوله تعالى : وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ (٢٠)

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَشَجَرَةً ﴾ شجرة عطف على جنات ، وأجاز الفراء الرفع لأنه لم يظهر الفعل ، بمعنى وثَمّ شجرة ؛ ويريد بها شجرة الزيتون . وأفردها بالذكر لعظيم منافعها فى أرض الشام والحجاز وغيرهما من البلاد ، وقلّة تعاهدها بالسّقى والحفر وغير ذلك من المراعاة فى سائر الأشجار . ﴿ تَخْرُجُ ﴾ فى موضع الصفة . ﴿ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ ﴾ أى أنبتها الله فى الأصل من هذا الجبل الذى بارك الله فيه . وطورُ سَيْناء من أرض الشام وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام؛ قاله ابن عباس وغيره ، وقد تقدّم فى البقرة والأعراف[2] . والطور الجبل فى كلام العرب . وقيل : هو مما عُرّب من كلام العجم . وقال ابن زيد : هو جبل

(١) آية ٦٨ سورة الرحمن . (٢) راجع ج ٢ ص ٤٣٦ ؛ ج ٧ ص ٢٧٨

بيت المقدس ممدود من مصر إلى أَيْلة[1] . واختُلف فى سَيْناء ؛ فقال قتادة : معناه الحسَن ؛ و يلزم على هذا التأويل أن يُنَوَّن الطور على النعت . وقال مجاهد : معناه مبارك . وقال معمر عن فرقة : معناه شجر؛ و يلزمهم أن ينونوا الطور . وقال الجمهور : هو اسم الجبل؛ كما تقول جبل أُحُد . وعن مجاهد أيضا : سَيْناء حجـر بعينه أضيف الجبل إليه لوجوده عنده . وقال مقاتل : كل جبل يحمل الثمار فهو سيناء ؛ أى حسن . وقرأ الكوفيون بفتح السين على وزن فَعْلاء، وفعلاء فى كلام العرب كثير؛ يمنع من الصرف فى المعرفة والنكرة؛ لأن فى آخرها ألف التأنيث، وألفُ التأنيث ملازمة لما هى فيه، وليس فى الكلام فِعلاء، ولكن من قرأ سِيناء بكسر السين جعله فعلالا؛ فالهمزة فيه كهمزة حِرباء ، ولم يصرف فى هـذه الآية لأنه جعل آسم بقعة . وزعم الأخفش أنه آسم أعجمى .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ قرأ الجمهور « تَنبت » بفتح التاء وضم الباء، والتقدير: تنبت ومعها الدهن ؛ كما تقول : خرج زيد بسـلاحه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم التاء وكسر الباء . واختلف فى التقدير على هذه القراءة؛ فقال أبو علىّ الفارسى: التقدير تنبت جناها وسعه الدهن؛ فالمفعول محذوف . وقيل : الباء زائدة؛ مثـلُ « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » وهذا مذهب أبى عبيدة . وقال الشاعر :

* نضرب بالسيف ونرجو بالفَـرَج *

وقال آخـــر :

هنّ الحرائر لا رَبّاتُ أَخْمرة[2] * سود المحاجر لا يقرأن بالسُّوَر

ونحو هـذا قاله أبو علىّ أيضا ؛ وقد تقـدّم . وقيـل : نبت وأنبت بمعنًى ؛ فيكون المعنى كما مضى فى قراءة الجمهور، وهو مذهب الفراء وأبى إسحاق، ومنه قول زُهير :

* ... حتى إذا أنبت البَقْلُ *

---

(١) أيلة : تعرف اليوم باسم «العقبة» .   (٢) كذا فى الأصول ولسان العرب مادة «سور» بالخاء المعجمة ، وأورده صاحب خزانة الأدب بالحاء المهملة ، قال : «والأحمرة جمع حمار (بالحاء المهملة) جمع قلة ، وخص الحمير لأنها رُذال المال وشره ... وقال صحف الدماميتى هذه الكلمة بالخاء المعجمة ، وقال والأخمرة جمع خمار، وهو ما تستر به المرأة رأسها» . (راجع الشاهد الخامس بعد السبعمائة من الخزانة)

والأصمعى ينكر أنبت، ويتّهم قصيدة زهير التى فيها :

رأيتُ ذوى الحاجاتِ حَوْلَ بيوتهم ، قَطِينًا بها حتى إذا أنبت البقل

أى نبت . وقرأ الزُّهْرِى والحسن والأعرج « تُنْبَت بالدهن » برفع التاء ونصب الباء . قال ابن جنّى والزجاج: هى باء الحال؛ أى تُنْبَت ومعها دهنها . وفى قراءة ابن مسعود : «تخرج بالدهن» وهى باء الحال . ابنُ دَرَسْتَوَيْه : الدهن الماء اللين؛ تنبت من الإنبات . وقرأ زِرّ بن حُبَيْش « تُنْبِت ـــ بضم التاء وكسر الباء ـــ الدهن » بحذف الباء ونصبه . وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب «بالدهان» . والمراد من الآية تعديد نعمة الزيت على الإنسان، وهى من أركان النعم التى لا غنًى بالصحة عنها . ويدخل فى معنى الزيتون شجر الزيت كله على اختلافه بحسب الأقطار .

الثالثة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَصِبْغٍ للآكِلِين ﴾ قراءة الجمهور . وقرأت فرقة «وأصباغ» بالجمع . وقرأ عامر بن عبد قيس «ومتاعا»؛ ويراد به الزيت الذى يصطبغ به الأكل؛ يقال : صِبغ وصِباغ ؛ مثل دِبْغ ودِباغ ، ولِبس ولِباس . وكل إدام يؤتدم به فهو صِبغ ؛ حكاه الهَرَوِىّ وغيره . وأصل الصِّبغ ما يلوّن به الثوب، وشبّه الإدام به لأن الخبز يلوّن بالصِّبغ إذا غُمس فيه . وقال مقاتل : الأُدْم الزيتون ، والدهن الزيت . وقد جعل الله تعالى فى هذه الشجرة أُدْمًا ودُهْنًا ؛ فالصِّبغ على هذا الزيتونُ .

الرابعة ـــ لا خلاف أن كل ما يصطبغ فيه من المائعات كالزيت والسمن والعسل والرُّبّ والخلّ وغير ذلك من الأمراق أنه إدام . وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخل فقال : "نعم الإدام الخل" رواه تسعة من الصحابة، سبعة رجال وامرأتان . وممن رواه فى الصحيح جابر وعائشة وخارجة وعمر وابنه عبيد الله وابن عباس وأبو هريرة وسَمُرة بن جُنْدب وأنس وأم هانئ .

الخامسة ـــ واختلف فيما كان جامدا كاللحم والتمر والزيتون وغير ذلك من الجوامد؛ فالجمهور أن ذلك كله إدام؛ فمن حلف ألا يأكل إداما فأكل لحما أو جبنا حنث . وقال أبو حنيفة : لا يحنث؛ وخالفه صاحباه . وقد روى عن أبى يوسف مثل قول أبى حنيفة . والبقل ليس بإدام فى قولهم جميعا . وعن الشافعى فى التمر وجهان؛ والمشهور أنه ليس بإدام لقوله فى التنبيه .

وقيل يحنث ؛ والصحيح أن هذا كله إدام . وقد روى أبو داود عن يوسف بن عبد الله بن سلّام قال : رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم أخذ كسرة من خبز شعير فوضع عليها تمرة فقال : "هذه إدام هذه" . وقال صلى الله عليه وسلم : "سيّد إدام الدنيا والآخرة اللحم" . ذكره أبو عمر . وترجم البخاري (باب الإدام) وساق حديث عائشة ؛ ولأن الإدام مأخوذ من المؤادمة وهي الموافقة ، وهذه الأشياء توافق الخبز فكان إداما . وفي الحديث عنه عليه السّلام : "ائتدموا ولو بالمـاء" . ولأبي حنيفة أن حقيقة الإدام الموافقة في الاجتماع على وجه لا يقبل الفصل ؛ كالخل والزيت ونحوهما ، وأمّا اللحم والبيض وغيرهما لا يوافق الخبز بل يجاوزه كالبطيخ والتمر والعنب . والحاصل : أن كل ما يحتاج في الأكل إلى موافقة الخبز كان إداما ، وكل ما لا يحتاج ويؤكل على حدة لا يكون إداما ، والله أعلم

السادســة — روى الترمذي من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كُلُوا الزيت وٱدّهنوا به فإنه من شجرة مباركة" . هذا حديث لا يعرف إلا من حديث عبد الرزاق ، وكان يضطرب فيه ، فربما يذكر فيه عن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وربما رواه على الشك فقال : أحسبه عن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وربما قال : عن زيد بن أسلم عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال مقاتل : خُصّ الطّور بالزيتون لأن أوّل الزيتون نبت منها . وقيـل : إن الزيتون أوّل شجرة نبتت في الدنيا بعد الطوفان . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ

ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى
بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا
جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟
إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ تقدم القول فيهما فى «النحل»(1) والحمد لله. وفى هود(2) قصة السفينة ونوح، وركوب البحر فى غير موضع(3).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أى وعلى الأنعام فى البر. ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ فى البحر. ﴿تُحْمَلُونَ﴾ وإنما يحمل فى البر على الإبل فيجوز أن ترجع الكناية إلى بعض الأنعام. وروى أن رجلا ركب بقرة فى الزمان الأول فأنطقها الله تعالى معه فقالت: إنا لم نخلق لهذا! وإنما خلقت للحرث.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ قرئ بالخفض ردًّا على اللفظ، وبالرفع ردا على المعنى. وقد مضى فى «الأعراف»(4).

قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أى يسودكم ويشرف عليكم بأن يكون متبوعا ونحن له تبع. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أى لو شاء الله ألا يعبد شىء سواه لجعل رسوله ملكا. ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أى بمثل دعوته. وقيل: ما سمعنا بمثله بشرا؛ أى برسالة ربه. ﴿فِى آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ أى فى الأمم الماضية؛ قاله ابن عباس. والباء فى «بهذا» زائدة؛ أى ما سمعنا هذا كائنا فى آبائنا الأولين، ثم عطف بعضهم على بعض فقالوا ﴿إِنْ هُوَ﴾

(1) راجع جـ ١٠ ص ١٢٨، ٨٩ (2) راجع جـ ٩ ص ٣٠
(3) راجع جـ ٢ ص ١٩٥ طبعة ثانية. (4) راجع جـ ٧ ص ٢٣٣

يعنون نوحا ﴿ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أي جنون لا يدرى ما يقول . ﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي انتظروا موته . وقيل : حتى يستبين جنونه . وقال الفراء : ليس يراد بالحين هاهنا وقت بعينه . إنما هو كقوله : دعه إلى يوم مّا . فقال حين تمادوا على كفرهم : ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ أى انتقم ممن لم يطعنى ولم يسمع رسالتى . ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ أى أرسلنا إليه رسلا من السماء ﴿ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ ﴾ على ما تقدّم بيانه .

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْلُكْ فِيهَا ﴾ أى أدخل فيها واجعل فيها ؛ يقال : سلكته فى كذا وأسلكته فيه إذا أدخلته . قال عبد مناف بن ربع الهذلى :

حتى إذا أسلكوهم فى قُتائدةٍ * شَلًّا كما تَطْرد الجَمّالةُ الشُّرُدا [1]

﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ قرأ حفص « من كلٍّ » بالتنوين، الباقون بالإضافة ؛ وقد ذكر[2] . وقال الحسن : لم يحمل نوح فى السفينة إلا ما يلد و يبيض، فأما البق والذباب والدود فلم يحمل شيئا منها ، وإنما خرج من الطين . وقد مضى القول فى السفينة والكلام فيها مستوفًى ، والحمد لله .

قوله تعالى : فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ ﴾ أى علوت . ﴿ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾ راكبين ﴿ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى احمدوا الله على تخليصه إياكم . ﴿ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ومن الغرق . والحمد لله : كلمة كل شاكر لله . وقد مضى فى الفاتحة بيانه .

قوله تعالى : وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا ﴾ قراءة العامة « مُنْزَلا » بضم الميم وفتح الزاى ، على المصدر الذى هو الإنزال؛ أى أنزلنى إنزالا مباركا . وقرأ زِرّ بن حُبيش وأبو بكر

---

(١) قتائدة : موضع بعينه . والشل : الطرد . والشرد : جمع شرود . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٤

عن عاصم والمفضل « مَنزِلا » بفتح الميم وكسر الزاى على الموضع؛ أى أنزلنى موضعا مباركا . الجوهرى : المَنْزَل (بفتح الميم والزاى) النزول وهو الحلول؛ تقول : نزلت نزولا ومَنْزَلا . وقال :

أأنْ ذكّرتك الدارُ مَنْزَلَها جُمْلُ * بكيتَ فدمعُ العين مُنْحَدرٌ سَجْلُ

نصب «المَنْزَل» لأنه مصدر[1] . وأنزله غيره وآستنزله بمعنى . ونزله تنزيلا؛ والتنزيل أيضا الترتيب . قال ابن عباس ومجاهد : هذا حين خرج من السفينة؛ مثل قوله تعالى : « اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ »[2] . وقيل : حين دخلها؛ فعلى هذا يكون قوله «مباركا» يعنى بالسلامة والنجاة .

قلت : وبالجملة فالآية تعليم من الله عز وجل لعباده إذا ركبوا وإذا نزلوا أن يقولوا هذا؛ بل وإذا دخلوا بيوتهم وسلّموا قالوا . وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه كان إذا دخل المسجد قال : اللهم أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين .

قوله تعالى : إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى فى أمر نوح والسفينة وإهلاك الكافرين . ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ أى دلالات على كمال قدرة الله تعالى، وأنه ينصر أنبياءه ويهلك أعداءهم . ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ أى ما كنا إلا مبتلين الأمم قبلكم؛ أى مختبرين لهم بإرسال الرسل إليهم ليظهر المطيع والعاصى فيتبيّن للملائكة حالهم؛ لا أن يستجد الرب علما . وقيل : أى نعاملهم معاملة المختبرين . وقد تقدم هذا المعنى فى « البقرة »[3] وغيرها . وقيل : « وإن كنا » أى وقد كنا .

قوله تعالى : ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾

(١) يلاحظ أن « منزلها » بالنصب مفعول ثان لذكرتك ، و « جمل » فاعل بالمصدر ، وهو المنزل .
(٢) آية ٤٨ سورة هود .   (٣) راجع ج ٢ ص ١٧٣ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى من بعد هلاك قوم نوح . ﴿ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ قيل : هم قوم عاد . ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ يعنى هودا؛ لأنه ما كانت أمة أنشئت فى إثر قوم نوح إلا عاد . وقيل : هم قوم ثمود «فأرسلنا فيهم رسولا» يعنى صالحا . قالوا : والدليل عليه قوله تعالى آخر الآية «فأخذتهم الصيحة»؛ نظيرها : «وأخذ الذين ظلموا الصيحة»(١) .

قلت : وممن أُخذ بالصيحة أيضا أصحاب مدين قومُ شعيب، فلا يبعد أن يكونوا هم، والله أعلم . ﴿مِنْهُمْ﴾ أى من عشيرتهم، يعرفون مولده ومنشأه ليكون سكونهم إلى قوله أكثر.

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ ﴾ أى الأشراف والقادة والرؤساء . ﴿ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ ﴾ يريد بالبعث والحساب . ﴿ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى وسّعنا عليهم نعم الدنيا حتى بطِروا وصاروا يؤتون بالتُّرْفة، وهى مثل التُّحفة . ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ فلا فضل له عليكم لأنه محتاج إلى الطعام والشراب كأنتم . وزعم الفراء أن معنى «ويشرب مما تشربون» على حذف مِن؛ أى مما تشربون منه؛ وهذا لا يجوز عند البصريين ولا يحتاج إلى حذف ألبتّة؛ لأن «ما» إذا كان مصدرا لم يحتج إلى عائد، فإن جعلتها بمعنى الذى حذفت المفعول ولم يحتج إلى إضمار مِن . ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ يريد لمغبونون بترككم آلهتكم واتّباعكم إياه

(١) آية ٦٧ سورة هود

من غير فضيلة له عليكم . ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ أى مبعوثون من قبوركم . و « أنّ » الأولى فى موضع نصب بوقوع « يعدكم » عليها ، والثانية بدل منها ؛ هذا مذهب سيبويه . والمعنى : أيعدكم أنكم مخرجون إذا متم . قال الفراء : وفى قراءة عبد الله «أيعدكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون» ؛ وهو كقولك : أظن إن خرجت أنك نادم . وذهب الفراء والجَرْمى وأبو العباس المبرد إلى أن الثانية مكررة للتوكيد ، لما طال الكلام كان تكريرها حسنا . وقال الأخفش : المعنى أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما يحدث إخراجكم ؛ فـ « أنّ» الثانية فى موضع رفع بفعل مضمر ؛ كما تقول : اليوم القتال ، فالمعنى اليوم يحدث القتال . وقال أبو إسحاق : ويجوز « أيعدكم إنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما إنكم مخرجون » ؛ لأن معنى «أيعدكم» أيقول إنكم .

قوله تعالى : هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾

قال ابن عباس : هى كلمة للبعد ؛ كأنهم قالوا بعيد ما توعدون ؛ أى أن هذا لا يكون ما يذكر من البعث . وقال أبو علىّ : هى بمنزلة الفعل ؛ أى بَعُد ما توعدون . وقال ابن الأنبارى : وفى « هيهات » عشر لغات : هيهاتَ لك (بفتح التاء) وهى قراءة الجماعة . وهيهاتِ لك (بخفض التاء) ؛ ويروى عن أبى جعفر بن القعقاع . وهيهاتٍ لك (بالخفض والتنوين) يروى عن عيسى بن عمر . وهيهاتُ لك (برفع التاء) ؛ الثعلبى : وبها قرأ نصر بن عاصم وأبو العالية . وهيهاتٌ لك (بالرفع والتنوين) وبها قرأ أبو حَيْوَة الشامى ؛ ذكره الثعلبى أيضا . وهيهاتًا لك (بالنصب والتنوين) قال الأحوص :

تذكّرت أياما مضَيْن من الصِّبا * وهيهات هيهاتًا إليك رجوعها

واللغة السابعة : أيهات أيهات ؛ وأنشد الفراء :

فأيهاتَ أيهاتَ العقيقُ ومن به * وأيهات خِلٌّ بالعقيق نواصله

قال المهدوىّ : وقرأ عيسى الهَمْدانى « هيهاتْ هيهاتْ » بالإسكان . قال ابن الأنبارى . ومن العرب من يقول « أيهان » بالنون ، ومنهم من يقول « أيها » بلا نون . وأنشد الفراء :

ومن دُونِيَ الأعيان والقِنْعِ كله * وكُتْمَانُ أيْهَا ما أشتَّ وأبْعَدَا[1]

فهذه عشر لغات . فمن قال «هيهاتَ» بفتح التاء جعله مثل أين وكيف . وقيل : لأنهما أداتان مركبتان مثل خمسة عشر وبعلبكّ ورام هرمز، وتقف على الثانى بالهاء، كما تقول : خمس عشره وسبع عشره . وقال الفراء : نصبُها كنصب ثُمَّتَ ورُبَّتَ، ويجوز أن يكون الفتح إتباعا للألف والفتحة التى قبلها . ومن كسره جعله مثل أمسِ وهؤلاءِ . قال :

* وهيهاتِ هيهاتِ إليكَ رجوعها *

قال الكسائى : ومن كسر التاء وقف عليها بالهاء، فيقول هيهاه . ومن نصبها وقف بالتاء وإن شاء بالهاء . ومن ضمها فعلى مثل منذُ وقطُّ وحيثُ . ومن قرأ «هيهات» بالتنوين فهو جمعٌ ذهب به إلى التنكير، كأنه قال بُعْدًا بُعْدًا . وقيل : خُفِض ونوّن تشبيها بالأصوات بقولهم : غاقٍ وطاقٍ . وقال الأخفش : يجوز فى « هيهات » أن تكون جماعة فتكون التاء التى فيها تاء الجميع التى للتأنيث . ومن قرأ « هيهاتٍ » جاز أن يكون أخلصها آسما معربا فيه معنى البعد، ولم يجعله اسما للفعل فيبنيَه . وقيل : شبه التاء بتاء الجمع، كقوله تعالى : « فإذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ » . قال الفراء : وكأنى أستحب الوقف على التاء؛ لأن من العرب من يخفض التاء على كل حال؛ فكأنها مثل عرفات وملكوت وما أشبه ذلك . وكان مجاهد وعيسى بن عمر وأبو عمرو بن العلاء والكسائى وابن كثير يقفون عليها « هيهاه » بالهاء . وقد روى عن أبى عمرو أيضا أنه كان يقف على «هيهات» بالتاء، وعليه بقية القراء لأنها حرف . قال ابن الأنبارى : من جعلهما حرفا واحدا لا يفرد أحدهما من الآخر، وقف على الثانى بالهاء ولم يقف على الأول؛ فيقول : هيهات هيهاه، كما يقول خمس عشره، على ما تقدم . ومن نوى إفراد أحدهما من الآخر وقف فيهما جميعا بالهاء والتاء؛ لأن أصل الهاء تاء .

قوله تعالى : إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾

(١) الأعيان والقنع وكيان، كلها مواضع . وفى بعض الاصول بدل « الأعيان » الأعيار . وكذا فى اللسان مادة أيه . وفى مادة هيه «الأعراض» والكل مواضع .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ « هى » كناية عن الدنيا ؛ أى ما الحياة إلا ما نحن فيه لا الحياة الآخرة التى تعدنا بعد البعث . ﴿ نموت ونحيا ﴾ يقال : كيف قالوا نموت ونحيا وهم لا يقرون بالبعث؟ ففى هذا أجوبة ؛ منها أن يكون المعنى : نكون مواتا ، أى نُطَفا ثم نحيا فى الدنيا . وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أى إن هى إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت ؛ كما قال : « واسجدى واركعى » . وقيل : « نموت » يعنى الآباء ، « ونحيا » يعنى الأولاد . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ بعد الموت .

قوله تعالى : إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ﴾ يعنون الرسول . ﴿ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ ﴾ أى اختلق . ﴿ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ . قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ تقدم . ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ أى عن قليل ، و « ما » زائدة مؤكدة . ﴿ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ على كفرهم ، واللام لام القسم ؛ أى والله ليصبحن . ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ فى التفاسير : صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة واحدة مع الريح التى أهلكهم الله تعالى بها فماتوا عن آخرهم . ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ أى هلكى هامدين كغُثاء السيل ، وهو ما يحمله من بالى الشجر من الحشيش والقصب مما يبس وتفتت . ﴿ فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى هلاكا لهم . وقيل بُعْدًا لهم من رحمة الله ؛ وهو منصوب على المصدر . ومثله سَقْيًا له ورَعْيًا .

قوله تعالى : ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى من بعد هلاك هؤلاء . ﴿ قُرُونًا ﴾ أى أمما . ﴿ آخَرِينَ ﴾ قال ابن عباس : يريد بنى إسرائيل ؛ وفى الكلام حذف : فكذبوا أنبياءهم فأهلكناهم . ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ « من » صلة ؛ أى ما تسبق أمة الوقت المؤقت لها ولا تتأخره ؛ مثل قوله تعالى : « فإذا جاء أَجَلُهُمْ لا يستأخرون ساعة ولا يَسْتَقْدِمون » . ومعنى ﴿ تَتْرَى ﴾ تتواتر، ويتبع بعضهم بعضا ترغيبا وترهيبا . قال الأصمعى : واترتُ كتبى عليه أتبعتُ بعضها بعضا ؛ إلا أن بين كل واحد منها وبين الآخر مهلة . وقال غيره : المواترة التتابع بغير مهلة . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « تترًى » بالتنوين على أنه مصدر أدخل فيه التنوين على فتح الراء ؛ كقولك : حَمْدًا وشكرا ؛ فالوقف على هذا على الألف المعوّضة من التنوين . ويجوز أن يكون ملحقا بجعفر، فيكون مثل أرْطًى وعَلْقًى ؛ كما قال :

* يَسْتَنّ فى عَلْقًى وفى مُكُور *

فإذا وقف على هذا الوجه جازت الإمالة ، على أن ينوى الوقف على الألف الملحقة . وقرأ ورش بين اللفظتين ؛ مثل سكرى وغضبى، وهو اسم جمع ؛ مثل شتّى وأسرى . وأصله وَتْرى من المواترة والتواتر، فقلبت الواو تاء؛ مثل التقوى والتكلان وتُجاه ونحوها . وقيل : هو الوتر وهو الفرد ؛ فالمعنى أرسلناهم فَرْدًا فردا . النحاس : وعلى هذا يجوز « تِتْرًا » بكسر التاء الأولى ، وموضعها نصب على المصدر ؛ لأن معنى « ثم أرسلنا » واترنا . ويجوز أن يكون فى موضع الحال أى متواترين . ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا ﴾ أى بالهلاك . ﴿ وجعلناهم أَحَادِيثَ ﴾ جمع أحدوثة وهى ما يتحدث به ؛ كأعاجيب جمع أعجوبة ، وهى ما يتعجب منه . قال الأخفش : إنما يقال هذا فى الشر « جعلناهم أحاديث » ولا يقال فى الخير ؛ كما يقال : صار فلان حديثا أى عبرة ومثلا ؛ كما قال فى آية أخرى : « فجعلناهم أحاديثَ ومزّقناهم كلَّ ممزّق »[1] .

قلت : وقد يقال فلانٌ حديثٌ حَسَن ، إذا كان مقيّدا بذكر ذلك ؛ ومنه قول ابن دُريد :

وإنما المرء حديث بعده * فكن حديثا حسنا لمن وَعَى

(١) آية ١٩ سورة سبأ .

قوله تعالى : ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُون بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ تقدم[1] . ومعنى ﴿عَالِينَ﴾ متكبرين قاهرين لغيرهم بالظلم ؛ كما قال تعالى : « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ »[2] . ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ الآية ، تقدم أيضا . ومعنى ﴿مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ أي بالغرق في البحر .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ؛ وخصّ موسى بالذكر لأن التوراة أنزلت عليه في الطور ، وهارون خليفة في قومه . ولو قال « ولقد آتيناهما » جاز ؛ كما قال : « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان »[3] .

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ تقدم في « الأنبياء »[4] القول فيه . ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ الربوة المكان المرتفع من الأرض ؛ وقد تقدم في « البقرة »[5] . والمراد بها هاهنا في قول أبي هريرة فلسطين . وعنه أيضا الرملة[6] ؛ وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس وابن المسيّب وابن سلّام : دمشق . وقال كعب وقتادة : بيت المقدس . قال كعب : وهي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا . قال :

فكنت هَمِيدا تحت رَمْس بربوة * تعاورني ريحٌ جنوبٌ وشَمْأَلُ

(١) راجع ج ٩ ص ٩٣ (٢) آية ٤ سورة القصص (٣) آية ٤٨ سورة الأنبياء
(٤) راجع ج ١١ ص ٢٣٧ (٥) راجع ج ٣ ص ٣١٥
(٦) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين وكانت قصبتها قد خربت الآن ، وكانت رباطا للمسلمين .

وقال ابن زيد : مصر . وروى سالم الأفطس عن سعيد بن جُبير «وآويناهما إلى ربوة» قال : النشز من الأرض . ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أى مستوية يُستقر عليها . وقيل : ذات ثمار ، ولأجل الثمار يستقر فيها الساكنون . ﴿وَمَعِينٍ﴾ ماء جارٍ ظاهر للعيون . يقال : مَعين ومُعُن ؛ كما يقال : رغيف ورُغُف ؛ قاله على بن سليمان . وقال الزجاج : هو الماء الجارى فى العيون ؛ فالميم على هذا زائدة كزيادتها فى مبيع ، وكذلك الميم زائدة فى قول من قال إنه الماء الذى يرى بالعين . وقيل : إنه فعيل بمعنى مفعول . قال على بن سليمان : يقال مَعَن الماء إذا جرى فهو معين ومَعْيُون . ابن الأعرابى : معن الماء يَمْعَن مُعونا إذا جرى وسهل، وأمعن أيضا وأمعنته ، ومياه مُعُنان .

قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال «يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم» وقال تعالى «يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم» — ثم ذكر[1] — الرجلُ[2] يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ومَطْعَمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذِىَ بالحرام فأنى يستجاب لذلك" .

الثانية — قال بعض العلماء : والخطاب فى هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه أقامه مقام الرسل ؛ كما قال : «الذين قال لهم الناس»[3] يعنى نُعيم بن مسعود . وقال

(١) هذه الجملة من كلام الراوى ، والضمير فيه للنبي صلى الله عليه وسلم . (٢) الرجل ، بالرفع مبتدأ ، مذكور على وجه الحكاية من لفظ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ويجوز أن ينصب على أنه مفعول « ذكر » .
(٣) راجع ج ٤ ص ٢٧٩

الزجاج : هذه مخاطبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، ودلّ الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا ؛ أى كلوا من الحلال . وقال الطبرىّ : الخطاب لعيسى عليه السلام ؛ روى أنه كان يأكل من غزل أمه . والمشهور عنه أنه كان يأكل من بقل البرّيّة . ووجه خطابه لعيسى ما ذكرناه من تقديره لمحمد صلى الله عليه وسلم تشريفا له . وقيل : إن هذه المقالة خوطب بها كل نبيّ ؛ لأن هذه طريقتهم التى ينبغى لهم الكون عليها . فيكون المعنى : وقلنا يأيها الرسل كلوا من الطيبات ؛ كما تقول لتاجر : يا تجار ينبغى أن تجتنبوا الربا ؛ فأنت تخاطبه بالمعنى . وقد اقترن بذلك أن هـذه المقالة تصلح لجميع صنفه ، فلم يخاطبوا قطّ مجتمعين صلوات الله عليهم أجمعين ، وإنما خوطب كل واحد فى عصره . قال الفـراء : هو كما تقول للرجل الواحد : كُفُّوا عنا أذاكم .

الثالثـة ـ سوّى الله تعالى بين النبيّين والمؤمنين فى الخطاب بوجوب أكل الحلال وتجنب الحرام ، ثم شمل الكل فى الوعيد الذى تضمنه قوله تعالى : « إِنّى بِمَا تعملون عليم » صلى الله على رسله وأنبيائه . وإذا كان هـذا معهم فما ظن كل الناس بأنفسهم . وقد مضى القول فى الطيبات والرزق فى غير موضع(١) ، والحمد لله . وفى قوله عليه السلام "يمد يديه" دليل على مشروعية مدّ اليدين عند الدعاء إلى السماء ؛ وقد مضى الخلاف فى هذا والكلام فيه والحمد لله(٢) . وقوله عليه السلام "فأنّى يستجاب لذلك" على جهة الاستبعاد ؛ أى أنه ليس أهلا لإجابة دعائه لكن يجوز أن يستجيب الله له تفضلا ولطفا وكرما .

قوله تعالى : وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٧ طبعة ثانيـة أو ثالثـة ، وجـ ٧ ص ١٩٨ طبعة أولى أو ثانيـة .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣

فيـــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ المعنى : هذا الذى تقدم ذكره هو دينكم وملتكم فالتزموه . والأمة هنا الدين، وقد تقدم محامله[1]؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ[2] » أى على دين . وقال النابغة :

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً * وهــل يأثمَنْ ذو أمّة وهو طائع

الثانيـــة — قرئ « وإن هذه » بكسر « إنّ » على القطع، وبفتحها وتشديد النون . قال الخليـــل : هى فى موضع نصب لما زال الخافض؛ أى أنا عالم بأن هـــذا دينكم الذى أمرتكم أن تؤمنوا به . وقال الفراء : « أنّ » متعلقة بفعل مضمر تقديره : واعلموا أن هذه أمتكم . وهى عنـــد سيبويه متعلقة بقوله « فاتقون » ؛ والتقدير فاتقون لأن أمتكم واحدة . وهـــذا كقوله تعـــالى : « وأنّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً[3] » ؛ أى لأن المساجد لله فلا تدعوا معه غيره . وكقوله : « لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ » ؛ أى فليعبدوا ربّ هذا البيت لإيلاف قريش .

الثالثـــة — وهـــذه الآية تقوّى أن قوله تعـــالى : « يأيها الرسل » إنمـــا هو مخاطبة لجميعهم، وأنه بتقدير حضورهم . وإذا قدرت « يأيها الرسل » مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم فلق[4] اتصال هذه الآية واتصال قوله « فتقطعوا » . أما أن قوله « وأنا ربكم فاتقون » وإن كان قيل للأنبياء فأممهم داخلون فيه بالمعنى؛ فيحسن بعد ذلك اتصال . ﴿ فَتَقَطَّعُوا ﴾ أى افترقوا، يعنى الأمم؛ أى جعـــلوا دينهم أديانا بعد ما أمروا بالاجتماع . ثم ذكر تعالى أن كلا منهم معجب برأيه وضلالته وهذا غاية الضلال .

الرابعـــة — هـــذه الآية تنظر إلى قوله صلى الله عليه وسـلم : " ألا إنّ من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتيـــن وسبعين ملّة وإن هـــذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة " الحديث . خرّجه أبو داود، ورواه

(١) راجع جـ ٢ ص ١٢٧ طبعة ثانية وجـ ٣ ص ٣٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٢٢ وما بعدها سورة الزخرف . (٣) آية ١٨ سورة الجن . (٤) كذا فى نسخ الأصل . والمعنى المراد واضح؛ وهو أن هذا التقدير يقلق ويقطع الاتصال بين الاثنين .

الترمذي وزاد : قالوا ومن هي يا رسول الله؟ قال : "ما أنا عليه وأصحابي" خرّجه من حديث عبد الله بن عمرو . وهـذا يبيّن أن الافتراق المحذر منه في الآية والحديث إنما هو في أصول الدين وقواعده، لأنه قد أطلق عليها مللًا، وأخبر أن التمسك بشيء من تلك الملل موجب لدخول النار . ومثل هذا لا يقال في الفروع، فإنه لا يوجب تعديد الملل ولا عذاب النار؛ قال الله تعالى : «لِكُلٍّ جعلنا مِنكُمْ شِرْعَةً ومِنْهَاجاً»(١) .

قوله تعالى : ﴿ زُبُرًا ﴾ يعني كتبا وضعوها وضلالات ألفوها؛ قاله ابن زيد . وقيل : إنهم فرّقوا الكتب فاتبعت فرقةٌ الصحفَ وفرقة التوراة وفرقة الزبور وفرقة الإنجيل، ثم حرّف الكلّ وبدّل؛ قاله قتادة . وقيل : أخذ كل فريق منهم كتابا آمن به وكفر بما سواه ، و « زُبُرًا » بضم الباء قراءة نافع، جمع زبور . والأعمش وأبو عمرو بخلاف عنه « زُبَرًا » بفتح الباء، أي قطعا كقطع الحديد؛ كقوله تعالى : « آتُوني زُبَرَ الحديد »(٢) . ﴿ كُلُّ حِزْبٍ ﴾ أي فريق وملّة . ﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ أي عندهم من الدين . ﴿ فَرِحُونَ ﴾ أي معجبون به . وهذه الآية مثال لقريش خاطب محمدا صلى الله عليه وسلم في شأنهم متصلا بقوله ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْـرَتِهِمْ ﴾ أي فذر هؤلاء الذين هم بمنزلة من تقدم، ولا يضيق صدرك بتأخير العذاب عنهم؛ فلكل شيء وقت . والغَمْرة في اللغة ما يَغْمُرك ويعلوك ؛ وأصله الستر؛ ومنه الغِمْر الحقد لأنه يغطّي القلب . والغَمْر الماء الكثير لأنه يغطي الأرض . وغَمْـرُ الرداء الذي يشمل الناس بالعطاء؛ قال :

غَمْـرُ الرداء إذا تبسّم ضاحكا * غَلِقتْ لضَحْكته رِقابُ المـالِ

المراد هنا الحَيْرة والغفلة والضلالة . ودخل فلان في غِمار الناس، أي في زحمتهم . وقوله تعالى: ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ قال مجاهد : حتى الموت، فهو تهديد لا توقيت؛ كما يقال : سيأتي لك يوم .

قوله تعـالى : أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

(١) آية ٤٨ سورة المائدة . (٢) آية ٩٦ سورة الكهف .

قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ . « ما » بمعنى الذى ؛ أى أيحسبون يا محمد أن الذى نعطيهم فى الدنيا من المال والأولاد هو ثواب لهم ، إنما هو استدراج وإملاء ، ليس إسراعا فى الخيرات . وفى خبر « أنّ » ثلاثة أقوال ، منها أنه محذوف . وقال الزجاج : المعنى نسارع لهم به فى الخيرات ؛ وحذفت به . وقال هشام الضرير قولا دقيقا ؛ قال : «أنما» هى الخيرات ؛ فصار المعنى : نسارع لهم فيه ، ثم أظهر فقال «فى الخيرات» ، ولا حذف فيه على هذا التقدير . ومذهب الكسائى أن « أنما » حرف واحد فلا يحتاج إلى تقدير حذف ، ويجوز الوقف على قوله «وبنين» . ومن قال « أنما » حرفان فلابد من ضمير يرجع من الخبر إلى اسم «أنّ» ولم يتم الوقف على « وبنين » . وقال السَّخْتِيانى : لا يحسن الوقف على «وبنين» ؛ لأن «يحسبون» يحتاج إلى مفعولين ، فتمام المفعولين «فى الخيرات» . قال ابن الأنبارى : وهذا خطأ ؛ لأن « أنّ » كافية من اسم أن وخبرها ولا يجوز أن يؤتى بعد « أن » بمفعول ثان . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِى وعبد الرحمن بن أبى بكرة «يسارع» بالياء ، على أن يكون فاعله إمدادنا . وهذا يجوز أن يكون على غير حذف ؛ أى يسارع لهم الإمداد . ويجوز أن يكون فيه حذف ، ويكون المعنى يسارع الله لهم . وقرئ « يسارَع لهم فى الخيرات » وفيه ثلاثة أوجه : أحدها على حذف به . ويجوز أن يكون يسارَع الامدادُ . ويجوز أن يكون « لهم » اسم ما لم يسم فاعله ؛ ذكره النحاس . قال المهدوى : وقرأ الحر النحوى « نسرع لهم فى الخيرات » وهو معنى قراءة الجماعة . قال الثعلبى : والصواب قراءة العامة ؛ لقوله « نمدهم » . ﴿ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أن ذلك فتنة لهم واستدراج .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ لما فرغ من ذكر الكفرة وتوعدهم عقب ذلك بذكر المؤمنين المسارعين فى الخيرات ووعدهم ، وذكر ذلك بأبلغ صفاتهم . و ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ خائفون وجلون مما خوفهم الله تعالى . ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ قال الحسن : يؤتون الإخلاص ويخافون ألا يقبل منهم . وروى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية «والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة» قالت عائشة : أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : "لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم أولئك الذين يسارعون فى الخيرات" . وقال الحسن : لقد أدركنا أقواما كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم أشفق منكم على سيئاتكم أن تعذبوا عليها . وقرأت عائشة رضى الله عنها وابن عباس والنخعي «والذين يأتون ما أتوا» مقصورا من الإتيان . قال الفراء . ولو صحت هذه القراءة عن عائشة لم تخالف قراءة الجماعة ؛ لأن الهمز من العرب من يلزم فيه الألف فى كل الحالات إذا كتب ؛ فيكتب سُئل الرجل بألف بعد السين ، ويستهزئون بألف بين الزاى والواو ، وشيءٌ وشيء بألف بعد الياء ، فغير مستنكر فى مذهب هؤلاء أن يكتب «يؤتون» بألف بعد الياء ، فيحتمل هذا اللفظ بالبناء على هذا الخط قراءتين «يؤتون ما آتوا» و «يأتون ما أتوا» . وينفرد ما عليه الجماعة باحتمال تأويلين : أحدهما – والذين يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقة وقلوبهم خائفة . والآخر – والذين يؤتون الملائكة الذين يكتبون الأعمال على العباد ما آتوا وقلوبهم وجلة ؛ فحُذف مفعولٌ فى هذا الباب لوضوح معناه ؛ كما حذف فى قوله عز وجل : «فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ»(1) المعنى يعصرون السمسم والعنب ؛ فاختزل المفعول لوضوح تأويله . ويكون الأصل فى الحرف على هجائه الموجود فى الإمام «يأتون» بألف مبدلة من الهمزة فكتبت الألف

(1) آية ٤٩ سورة يوسف .

واوا لتآخي حروف المد واللين في الخفاء ؛ حكاه ابن الأنباري . قال النحاس : المعروف من قراءة ابن عباس « والذين يأتون ما أتوا » وهي القراءة المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن عائشة رضي الله عنها ، ومعناها يعملون ما عملوا ؛ كما روي في الحديث . والوجل نحو الإشفاق والخوف ؛ فالتقي والتائب خوفه أمر العاقبة وما يطلع عليه بعد الموت . وفي قوله ﴿ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ تنبيه على الخاتمة . وفي صحيح البخاري "وإنما الأعمال بالخواتيم" . وأما المخلِّط فينبغي له أن يكون تحت خوف من أن ينفَّذ عليه الوعيد بتخليطه . وقال أصحاب الخواطر : وَجَل العارف من طاعته أكثر وجلا من وجله من مخالفته ؛ لأن المخالفة تمحوها التوبة ، والطاعة تطلب بتصحيح الفرض . ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أي لأنهم ، أو من أجل أنهم إلى ربهم راجعون .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ (٦١)

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ أي في الطاعات ، كي ينالوا بذلك أعلى الدرجات والغرفات . وقرئ « يُسْرِعون » في الخيرات ، أي يكونوا سراعا إليها . ويسارعون على معنى يسابقون من سابقهم إليها ؛ فالمفعول محذوف . قال الزجاج : يسارعون أبلغ من يسرعون .

﴿ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ أحسن ما قيل فيه : أنهم يسبقون إلى أوقاتها . ودلّ بهذا أن الصلاة في أول الوقت أفضل ؛ كما تقدم في « البقرة »(١) . وكل من تقدم في شيء فهو سابق إليه ، وكل من تأخر عنه فقد سبقه وفاته ؛ فاللام في « لها » على هذا القول بمعنى إلى ؛ كما قال « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا » أي أوحى إليها . وأنشد سيبويه :

تجانف عن جوّ اليمامة ناقتي * وما قصدتْ من أهلها لسوائكا(٢)

وعن ابن عباس في معنى « وهم لها سابقون » سبقت لهم من الله السعادة ؛ فلذلك سارعوا في الخيرات . وقيل : المعنى وهم من أجل الخيرات سابقون .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٦٥ طبعة ثانية . (٢) البيت للأعشى . والتجانف : الانحراف .

قوله تعالى : وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ قد مضى في « البقرة »(1) وأنه ناسخ لجميع ما ورد في الشرع من تكليف ما لا يطاق . ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ﴾ أظهر ما قيل فيه : إنه أراد كتاب إحصاء الأعمال الذي ترفعه الملائكة ؛ وأضافه إلى نفسه لأن الملائكة كتبت فيه أعمال العباد بأمره ، فهو ينطق بالحق . وفي هذا تهديد وتأييس من الحيف والظلم . ولفظ النطق يجوز في الكتاب ؛ والمراد أن النبيين تنطق بما فيه . والله أعلم . وقيل : عنى اللوح المحفوظ ، وقد أثبت فيه كل شيء ، فهم لا يجاوزون ذلك . وقيل : الإشارة بقوله «ولدينا كتاب» القرآن ، فالله أعلم ، وكل محتمل والأول أظهر .

قوله تعالى : بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَٰذَا ﴾ قال مجاهد : أي في غطاء وغفلة وعماية عن القرآن . ويقال : غمره الماء إذا غطاه . ونهر غَمْر يغطي من دخله . ورجل غمر يغمره آراء الناس(2) . وقيل : « غمرة » لأنها تغطي الوجه . ومنه دخل في غِمار الناس وخُمارهم ؛ أي فيما يغطيه من الجمع . وقيل : « بل قلوبهم في غمرة » أي في حيرة وعمى ؛ أي مما وصف من أعمال البر في الآيات المتقدمة ؛ قاله قتادة . أو من الكتاب الذي ينطق بالحق . ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ قال قتادة ومجاهد : أي لهم خطايا لا بد أن يعملوها من دون الحق . وقال الحسن وابن زيد : المعنى ولهم أعمال رديئة لم يعملوها من

(1) راجع جـ ٣ ص ٤٢٧ (2) كذا في الأصول . والذي في كتب اللغة : « ورجل غُمْر وغَمِر لا تجربة له بحرب ولا أمر ، ولم تحنكه التجارب » .

دون ما هم عليه، لابدّ أن يعملوها دون أعمال المؤمنين، فيدخلون بها النار، لما سبق لهم من الشقوة. ويحتمل ثالثا – أنه ظلم الخلق مع الكفر بالخالق؛ ذكره الماوردي. والمعنى متقارب. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ ﴾ يعني بالسيف يوم بدر؛ قاله ابن عباس. وقال الضحاك: يعني بالجوع حين قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "اللّهمّ اشدد وطأتك على مُضَر اللّهمّ اجعلها عليهم سنين كسني يوسف". فابتلاهم الله بالقحط والجوع حتى أكلوا العظام والميتة والكلاب والجيف، وهلك الأموال والأولاد. ﴿ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ أي يضجّون ويستغيثون. وأصل الجُؤار رفع الصوت بالتضرع كما يفعل الثور[(١)]. وقال الأعشى يصف بقرة:

فطافت ثلاثا بين يوم وليلة * وكان النكير أن تُضيف وتجأرا

قال الجوهري: الجؤار مثل الخوار؛ يقال: جأر الثور يجأر أي صاح. وقرأ بعضهم «عِجْلًا جَسَدًا لَهُ جُؤَار» حكاه الأخفش. وجأر الرجل إلى الله عز وجل تضرع بالدعاء. قتادة: يصرخون بالتوبة فلا تقبل منهم. قال:

يراوح من صلوات المَليك * فطَوْرًا سجودا وطَوْرًا جؤارا

وقال ابن جريج: «حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ» هم الذين قتلوا ببدر «إذا هم يَجْأَرُونَ» هم الذين بمكة؛ فجمع بين القولين المتقدمين، وهو حسن. ﴿ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا ﴾ أي من عذابنا. ﴿ لَا تُنصَرُونَ ﴾ لا تمنعون ولا ينفعكم جزعكم. وقال الحسن: لا تنصرون بقبول التوبة. وقيل: معنى هذا النهي الإخبار؛ أي إنكم إن تضرعتم لم ينفعكم.

قوله تعالى: قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

---

(١) راجع هامش ص ١١٥ من جـ ١٠

قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ﴾ الآيات يريد بها القرآن . ﴿ تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أى تقرأ . قال الضحاك : قبل أن تعذبوا بالقتل و ﴿ تَنْكِصُونَ ﴾ ترجعون وراءكم . مجاهد : تستأخرون ؛ وأصله أن ترجع القهقرى . قال الشاعر :

زعموا بأنهم[1] على سبل النجا * ة وإنما نُكُص على الأعقاب

وهو هنا استعارة للإعراض عن الحق . وقرأ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه « على أدباركم » بدل « على أعقابكم » ، « تنكصون » بضم الكاف . و ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ ﴾ حال ، والضمير فى « به » قال الجمهور : هو عائد على الحرم أو المسجد أو البلد الذى هو مكة ، وإن لم يتقدم له ذكر لشهرته فى الأمر ؛ أى يقولون نحن أهل الحرم فلا نخاف . وقيل : المعنى أنهم يعتقدون فى نفوسهم أن لهم بالمسجد والحرم أعظمَ الحقوق على الناس والمنازل ؛ فيستكبرون لذلك ، وليس الاستكبار من الحق . وقالت فرقة : الضمير عائد على القرآن من حيث ذكرت الآيات ؛ والمعنى : يُحدث لكم سماع آياتى كبرا وطغيانا فلا تؤمنوا به . قال ابن عطية : وهذا قول جيد . النحاس : والقول الأول أولى ، والمعنى : أنهم يفتخرون بالحرم ويقولون نحن أهل حرم الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ سامرا تهجرون ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ « سامرًا » نصب على الحال ، ومعناه سُمّارا . وهو الجماعة يتحدثون بالليل ، مأخوذ من السَّمَر وهو ظل القمر ؛ ومنه سُمرة اللون . وكانوا يتحدثون حول الكعبة فى سَمَر القَمر ؛ فسمّى التحدث به . قال الثورى : يقال لظل القمر السَّمَر ؛ ومنه السُّمْرة فى اللون . ويقال له : القَمْت ؛ ومنه قيل فاختة . وقرأ أبو رجاء « سُمّارا » وهو جمع سامر ؛ كما قال :

* ألستَ ترى السُّمارَ والنّاسَ أحوالى *[2]

(١) فى الأصول : « أنهم » والبيت لا يتزن إلا بدخول الباء ، وهى هنا زائدة ؛ كقول النابغة :

* زعم الغُدَاف بأن رحلتنا غدا *

(٢) هذا عجز بيت لامرئ القيس . وصدره :

* فقالت سباك الله إنك فاضحى *

وفى حديث قَيْلة : إذا جاء زوجها من السامر ؛ يعنى من القوم الذين يَسْمُرون بالليل ؛ فهو اسم مفرد بمعنى الجمع ، كالحاضر وهم القوم النازلون على الماء ، والباقر جمع البقر ، والجامل جمع الإبل ، ذكورتها و إناثها ؛ ومنه قوله تعالى : « ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا » أى أطفالا . يقال : قوم سَمْر وسُمَّر وسامر ، ومعناه سهر الليل ؛ مأخوذ من السَّمَر وهو ما يقع على الأشجار من ضوء القمر . قال الجوهرى : السامر أيضا السُّمّار ، وهم القوم الذين يَسْمُرون ؛ كما يقال للحاج حُجّاج ، وقول الشاعر :

* وسامرٍ طال فيه اللَّهْوُ والسَّمَرُ *

كأنه سمى المكان الذى يجتمع فيه للسمر بذلك . وقيل : وحّد سامرا وهو بمعنى السُّمّار ؛ لأنه وضع موضع الوقت ، كقول الشاعر :

مِن دونهم إن جئتَهم سَمَرًا * عَزْفُ القِيَانِ ومَجْلِسٌ غَمْرُ

فقال : سَمَرًا ، لأن معناه : إن جئتهم ليلا وجدتهم وهم يسمرون . وآبنا سَمير : الليل والنهار ؛ لأنه يُسْمَر فيهما ، يقال : لا أفعله ما سَمَر آبنا سمير أبدا . ويقال : السَّمير الدهر ، وآبناه الليل والنهار . ولا أفعله السَّمَرَ والقمرَ ؛ أى ما دام الناس يَسْمُرون فى ليلة قمراء . ولا أفعله سَمِيرَ الليالى . قال الشَّنْفَرى :

هنالك لا أرجو حياةً تَسُرُّنى * سَمِيرَ الليالى مُبْسَلًا بالجرائر

والسَّمار (بالفتح) اللبن الرقيق . وكانت العرب تجلس للسمر تتحدث ، وهذا أوجب معرفتها بالنجوم ؛ لأنها تجلس فى الصحراء فترى الطوالع من الغوارب . وكانت قريش تَسْمُر حول الكعبة مجالس فى أباطيلها وكفرها ، فعابهم الله بذلك . و « تهجرون » قرئ بضم التاء وكسر الجيم من أهجر ، إذا نطق بالفحش . وبنصب التاء وضم الجيم من هَجَر المريضُ إذا هَذَى . ومعناه : يتكلمون بهوس وسَيِّئ من القول فى النبيّ صلى الله عليه وسلم وفى القرآن ؛ عن ابن عباس وغيره .

الثانية — روى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : إنما كُرِه السمر حين نزلت هذه الآية « مستكبرين به سامرا تهجرون » ؛ يعنى أن الله تعالى ذم أقواما يَسْمُرون فى غير

طاعة الله تعالى ، إما فى هَذَيان وإما فى إذاية . وكان الأعمش يقول : إذا رأيت الشيخ ولم يكتب الحديث فاصفعه فإنه من شيوخ القمر ؛ يعنى يجتمعون فى ليالى القمر فيتحدثون بأيام الخلفاء والأمراء ولا يحسن أحدهم يتوضأ للصلاة .

الثالثـــة — روى مسلم عن أبى بَرْزَة قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسـلم يؤخر العشاء إلى ثلث الليل ويكره النوم قبلها والحديث بعدها . قال العلماء : أما الكراهية للنوم قبلها فلئلا يعرّضها للفوات عن كل وقتها أو أفضـل وقتها ؛ ولهذا قال عمر : فمن نام فلا نامت عينه ؛ ثلاثا . وممن كره النوم قبلها عمر وابنه عبـد الله وابن عباس وغيرهم ، وهو مذهب مالك . ورخص فيه بعضهم ، منهم عليّ وأبو موسى وغيرهم ؛ وهو مذهب الكوفيين . وشرط بعضهم أن يجعل معـه من يوقظه للصـلاة . وروى عن ابن عمر مثـله ، وإليه ذهب الطحاوى . وأما كراهية الحديث بعدها فلأن الصلاة قد كفرت خطاياه فينام على سلامة ، وقد ختم الكُتّاب صحيفته بالعبادة ؛ فإن هو سَمَر وتحدّث فيملؤها بالهَوَس ويجعل خاتمتها اللغو والباطل ، وليس هذا من فعل المؤمنين . وأيضا فإن السمر فى الحـديث مظنة غلبة النوم آخر الليل فينام عن قيام آخر الليل ، وربمـا ينام عن صـلاة الصبح . وقد قيل : إنمـا يكره السمر بعدها لمـا روى جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : « إياكم والسَّمَر بعد هَدْأة الرجل فإن أحدكم لا يدرى ما يبث الله تعالى من خلقه أغلقوا الأبواب وأوْكُوا السقاء وخَمّروا الإناء وأطفئوا المصابيح » . وروى عن عمر أنه كان يضرب الناس على الحديث بعد العشاء ، ويقول : أسمرًا أوّل الليـل ونوما آخره ! أريحوا كُتّابكم . حتى أنه روى عن ابن عمـر أنه قال : من قرض بيت شعر بعد العشاء لم تقبل له صلاة حتى يُصبح . وأسنده شدّاد بن أوس إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد قيل : إن الحكمة فى كراهية الحديث بعدها إنمـا هو لمـا أن الله تعالى جعل الليل سَكَنا ، أى يُسكن فيه ، فإذا تحدّث الإنسان فيه فقد جعله فى النهار الذى هو متصرف المعاش ؛ فكأنه قصـد إلى مخالفة حكمة الله تعالى التى أجرى عليها وجوده فقال « وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سُبَاتا وجعل النهار نُشُورا »[1] .

(1) آية ٤٧ سورة الفرقان .

الرابعة — هذه الكراهة إنما تختص بما لا يكون من قبيل القُرَب والأذكار وتعليم العلم، ومسامرة الأهل بالعلم و بتعليم المصالح وما شابه ذلك؛ فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن السلف ما يدل على جواز ذلك، بل على ندبيته . وقد قال البخاري : (باب السَّمَر في الفقه والخير بعد العشاء) وذكر أن قُرّة بن خالد قال : انتظرنا الحسن وراث[1] علينا حتى جاء قريبا من وقت قيامه، فجاء فقال : دعانا جيراننا هؤلاء . ثم قال أنس : انتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة حتى كان شطر الليل فجاء فصلى ثم خطبنا فقال : "إن الناس قد صَلّوا و إنكم لم تزالوا في صلاة ما انتظرتم الصلاة" . قال الحسن : فإن القوم لا يزالون في خير ما انتظروا الخير . قال : (باب السمر مع الضيف والأهل) وذكر حديث أبي بكر بن عبد الرحمن أن أصحاب الصُّفّة كانوا فقراء ... الحديث . أخرجه مسلم أيضا . وقد جاء في حراسة الثغور وحفظ العساكر بالليل من الثواب الجزيل والأجر العظيم ما هو مشهور في الأخبار . وقد مضى من ذلك جملة في آخر «آل عمران»[2] والحمد لله وحده .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ يعني القرآن؛ وهو كقوله تعالى : «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ»[3] . وسُمِّيَ القرآن قولا لأنهم خوطبوا به . ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ فأنكروه وأعرضوا عنه . وقيل : «أم» بمعنى بل؛ أي بل جاءهم ما لا عهد لآبائهم به ، فلذلك أنكروه وتركوا التدبر له . وقال ابن عباس : وقيل المعنى أم جاءهم أمان من العذاب ، وهو شيء لم يأت آباءهم الأولين فتركوا الأعز .

قوله تعالى : أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾

(١) راث : أبطأ . (٢) راجع جـ ٤ ص ٣٢٣ وما بعدها . (٣) آية ٨٢ سورة النساء .

هذا تستعمله العرب على معنى التوقيف والتقبيح ، فيقولون : الخير أحبّ إليك أم الشر؟ أى قد أخبرت الشر فتجنّبه . وقد عرفوا رسولهم وأنه من أهل الصدق والأمانة؛ ففى اتباعه النجاة والخير لولا العَنَت . قال سفيان : بلى ! قد عرفوه ولكنهم حسدوه !

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أى أم يحتجون فى ترك الإيمان به بأنه مجنون ، فليس هو هكذا ! لزوال أمارات الجنون عنه . ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ يعنى القرآن والتوحيد الحق والدّين الحق . ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ أى كلهم ﴿لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ حسدا وبغيًا وتقليدا .

قوله تعالى : وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ﴾ « الحق » هنا هو الله سبحانه وتعالى؛ قاله الأكثرون، منهم مجاهد وابن جُريج وأبو صالح وغيرهم . وتقديره فى العربية : ولو اتبع صاحب الحق؛ قاله النحاس . وقد قيل : هو مجاز ، أى لو وافق الحق أهواءهم؛ فجعل موافقته اتباعا مجازا؛ أى لو كانوا يكفرون بالرسل ويعصون الله عز وجل ثم لا يعاقَبون ولا يجازون على ذلك إمّا عجزا وإمّا جهلا لفسدت السموات والأرض . وقيل : المعنى ولو كان الحق ما يقولون من اتخاذ آلهة مع الله تعالى لتنافت الآلهة، وأراد بعضهم ما لا يريده بعض، فاضطرب التدبير وفسدت السموات والأرض، وإذا فسدتا فسد من فيهما . وقيل: « لو اتبع الحق أهواءهم» أى بما يهواه الناس ويشتهونه لبطل نظام العالَم؛ لأن شهوات الناس تختلف وتتضادّ، وسبيلُ الحق أن يكون متبوعا ، وسبيل الناس الانقياد للحق . وقيل : «الحق» القرآن ؛ أى لو نزل القرآن بما يحبون لفسدت السموات والأرض . ﴿وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ إشارة إلى من يعقل من ملائكة السموات وإنس الأرض وجنّها؛ الماوَرْدِيّ . وقال الكلْبيّ : يعنى وما بينهما من

خلق ؛ وهي قراءة ابن مسعود « لفسدت السموات والأرض وما بينهما » . فيكون على تأويل الكلبي وقراءةِ ابن مسعود محمولاً على فساد من يعقل وما لا يعقل من حيوان وجماد. وظاهر التنزيل في قراءة الجمهور يكون محمولا على فساد ما يعقل من الحيوان؛ لأن ما لا يعقل تابع لما يعقل في الصلاح والفساد، فعلى هذا ما يكون من الفساد يعود على من في السموات من الملائكة بأن جُعلت أربابا وهي مربوبة، وعُبدت وهي مستعبدة. وفساد الإنس يكون على وجهين: أحدهما — باتباع الهوى، وذلك مهلك. الثاني — بعبادة غير الله، وذلك كفر. وأما فساد ما عدا ذلك فيكون على وجه التبع ؛ لأنهم مدبَّرون بذوي العقول فعاد فساد المدبِّرين عليهم .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ ﴾ أي بما فيه شرفهم وعزهم ؛ قاله السُّدّي وسفيان . وقال قتادة : أي بما لهم فيه ذكر ثوابهم وعقابهم . ابن عباس : أي ببيان الحق وذكر ما لهم به حاجة من أمر الدين . ﴿ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ .

قوله تعالى : أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا ﴾ أي أجرا على ما جئتهم به؛ قاله الحسن وغيره . ﴿ فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ﴾ وقرأ حمزة والكسائي والأعمش ويحيى بن وثّاب « خراجا » بألف . الباقون بغير ألف . وكلهم قد قرءوا « فخراج » بالألف إلا ابن عامر وأبا حيوة فإنهما قرآ بغير الألف . والمعنى : أم تسألهم رزقا فرزق ربك خير . ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أي ليس يقدر أحد أن يرزق مثل رزقه ، ولا يُنعم مثل إنعامه . وقيل : أي ما يؤتيك الله من الأجر على طاعتك له والدعاء إليه خيرٌ من عَرَض الدنيا ، وقد عرضوا عليك أموالهم حتى تكون كأغنى رجل من قريش فلم تجبهم إلى ذلك ؛ قال معناه الحسن . والخَرْج والخراج واحد، إلا أن اختلاف الكلام أحسن؛ قاله الأخفش . وقال أبو حاتم : الخَرْج الجُعْل، والخراج العطاء.

المبرّد : الخرج المصدر ، والخراج الأسم . وقال النضر بن شميل : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخرج والخراج فقال : الخراج ما لزمك، والخَرْج ما تبرّعت به . وعنه أن الخَرْج من الرقاب ، والخراج من الأرض . ذكر الأول الثعلبيّ والثاني الماوردي .

قوله تعالى : وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى إلى دين قويم . والصراط فى اللغة الطريق ؛ فسُمّىَ الدّين طريقا لأنه يؤدّى إلى الجنة فهو طريق إليها . ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى بالبعث . ﴿ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾ قيل : هو مثل الأول . وقيل : إنهم عن طريق الجنة لناكبون حتى يصيروا إلى النار . نَكَب عن الطريق يَنْكُب نُكوبا إذا عدل عنه ومال إلى غيره ؛ ومنه نكبت الريح إذا لم تستقم على مَجْرًى . وشرّ الريح النَّكْباء .

قوله تعالى : وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ ﴾ أى لو رددناهم إلى الدنيا ولم ندخلهم النار وآمتحناهم ﴿ لَلَجُّوا فِى طُغْيَانِهِمْ ﴾ قال السُّدّى : فى معصيتهم . ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ قال الأعمش : يترددون . وقال ابن جُريج : «ولو رحمناهم» يعنى فى الدنيا « وكَشَفْنا ما بِهِم مِنْ ضُرٍّ » أى من قَحْط وجوع « لَلَجُّوا » أى لتمادَوْا « فى طُغْيانِهِمْ » وضلالتهم وتجاوزهم الحد « يَعْمَهُونَ » يتذبذبون ويخبطون .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ ﴾ قال الضحاك : بالجوع . وقيل : بالأمراض والحاجة والجوع . وقيل : بالقتل والجوع . ﴿ فَمَا ٱسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ أى ما خضعوا . ﴿ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أى ما يخشعون لله عز وجل فى الشدائد تصيبهم . قال ابن عباس : نزلت فى قصة ثُمَامة بن أُثَال لما أسرته السّرِيّة وأسلم وخَلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيله ، حال بين مكة وبين المِيرة وقال : والله لا يأتيكم من اليمامة حَبّةُ حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأخذ الله قريشا بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعِلْهِز ؛ قيل وما العلهز ؟ قال : كانوا يأخذون الصوف والوَبَر فيبلّونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه . فقال له أبو سفيان : أَنْشُدكَ اللهَ والرَّحِم ! أليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين ؟ قال " بلى " . قال : فوالله ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف ، وقتلت الأبناء بالجوع ؛ فنزل قوله « وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

قوله تعالى : حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قال عكرمة : هو باب من أبواب جهنم ، عليه من الخزنة أربعمائة ألف ، سودٌ وجوههم ، كالحةٌ أنيابهم ، قد قُلعت الرحمة من قلوبهم ؛ إذا بلغوه فتحه الله عز وجل عليهم . وقال ابن عباس : هو قتلهم بالسيف يوم بدر . مجاهد : هو القحط الذى أصابهم حتى أكلوا العِلْهِز من الجوع ؛ على ما تقدم . وقيل فتح مكة . ﴿ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أى يائسون متحيّرون لا يدرون ما يصنعون ، كالآيس من الفرج ومن كل خير . وقد تقدم فى « الأنعام »(١) .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٢٦

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ عرفهم كثرة نعمه وكمال قدرته . ﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ أي ما تشكرون إلا شكرا قليلا . وقيل : أي لا تشكرون ألبتة .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي أنشأكم وبثكم وخلقكم . ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي تجمعون للجزاء .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أي جعلهما مختلفين ؛ كقولك : لك الأجر والصلة ؛ أي إنك تؤجر وتوصل ؛ قاله الفراء . وقيل : اختلافهما نقصان أحدهما وزيادة الآخر . وقيل : اختلافهما في النور والظلمة . وقيل : تكررهما يوما بعد ليلة وليلة بعد يوم . ويحتمل خامسا : اختلاف ما مضى فيهما من سعادة وشقاء وضلال وهدى . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ كنه قدرته وربوبيته ووحدانيته ، وأنه لا يجوز أن يكون له شريك من خلقه ، وأنه قادر على البعث . ثم عيرهم بقولهم وأخبر عنهم أنهم

قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ هـذا لا يكون ولا يتصوّر . ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل مجىء محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم نر له حقيقة . ﴿ إِنْ هَـذَا ﴾ أى ما هـذا ﴿ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى أباطيلهم وتُرّهاتهم ؛ وقد تقدّم هـذا كله . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد جوابا لهم عما قالوه ﴿ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ﴾ يخـبر بربوبيته ووحدانيته وملكه الذى لا يزول ، وقدرته التى لا تحول ؛ فـ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ ولا بُدّ لهم من ذلك . فـ ﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى أفلا تتعظون وتعلمون أن من قدر على خلق ذلك ابتـداء فهو على إحياء الموتى بعـد موتهم قادر . ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ يريد أفلا تخافون حيث تجعلون لى ما تكرهون ؛ زعمتم أن الملائكة بناتى ، وكرهتم لأنفسكم البنات . ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يريد السموات وما فوقها وما بينهن ، والأرضين وما تحتهن وما بينهن ، وما لا يعلمه أحد إلا هو . وقال مجاهد : « ملكوت كلّ شىء » خزائن كل شىء . الضحاك : ملك كل شىء . والملكوت من صفات المبالغة كالجبروت والرّهبوت ؛ وقد مضى فى « الأنعام »(1) . ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ أى يَمنع ولا يُمنع منه . وقيل : « يُجير » يؤمّن من شاء . « ولا يُجَار عَلَيْه » أى لا يؤمّن من أخافه . ثم قيل : هذا فى الدنيا ؛ أى من أراد الله إهلاكه وخوفه لم يمنعه منه مانع ، ومن أراد نصره وأمنه لم يدفعه من نصره وأمنه دافع . وقيل : هـذا فى الآخرة ؛ أى لا يمنعـه من مستحق الثواب مانع ولا يدفعـه عن مستوجب العذاب دافع . ﴿ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ أى فكيف تخدعون وتصرفون عن طاعتـه وتوحيده . أو كيف يخيَّـل إليكم أن تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع ! والسحر هو التخييل . وكل هـذا احتجاج على العرب المقرين بالصانع . وقرأ أبو عمرو « سيقولون الله » فى الموضعين الأخيرين ؛ وهى قراءة أهل العراق . الباقون « لله » ، ولا خلاف فى الأول أنه « لله » ؛ لأنه جواب لـ « قل لمن الأرض ومن فيها » فلما تقدّمت اللام فى « لمن » رجعت فى الجواب . ولا خلاف أنه

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٣

مكتوب فى جميع المصاحف بغير ألف . وأما من قرأ « سيقولون الله » فلأن السؤال بغير لام فجاء الجواب على لفظه ، وجاء فى الأول « لله » لمّا كان السؤال باللام . وأما من قرأ « لله » باللام فى الأخيرين وليس فى السؤال لام فلأن معنى « قل من ربّ السموات السبع ورب العرش العظيم » : قل لمن السموات السبع ورب العرش العظيم . فكان الجواب « لله » ؛ حين قدرت اللام فى السؤال . وعلة الثالثة كعلة الثانية . وقال الشاعر :

إذا قيل من ربّ المزالف والقُرى * وربّ الجياد الجُرْد قلت لخالد (١)

أى لمن المزالف .

ودلت هذه الآيات على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم . وقد تقدم فى «البقرة» . ونبهت على أن من ابتدأ بالخلق والاختراع والإيجاد والإبداع هو المستحق للألوهية والعبادة .

قوله تعالى : بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالقول الصدق ، لا ما تقوله الكفار من إثبات الشريك ونفى البعث . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أن الملائكة بنات الله . فقال الله تعالى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ ﴾ « من » صلة . ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ ﴾ « من » زائدة ؛ والتقدير : ما اتخذ الله ولدا كما زعمتم ، ولا كان معه إله فيما خلق . وفى الكلام حذف ؛ والمعنى : لو كانت معه آلهة لانفرد كل إله بخلقه . ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أى ولغالب وطلب القوىّ الضعيف كالعادة بين الملوك ، وكان الضعيف المغلوب لا يستحق الإلهية . وهذا الذى يدل على نفى الشريك يدل على نفى الولد أيضا ؛ لأن الولد ينازع الأب فى الملك منازعة الشريك .

(١) المزالف : القرى التى بين البر والبحر ؛ الواحدة مزلفة . والأجرد من الخيل والدواب : القصير الشعر .

﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ تنزيها له عن الولد والشريك . ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيه وتقديس . وقرأ نافع وأبو بكر وحمزة والكسائى « عالمُ » بالرفع على الاستئناف ؛ أى هو عالم الغيب . الباقون بالجر على الصفة لله . وروى رُوَيس عن يعقوب « عالِمِ » إذا وصل خفضا . و « عالمُ » إذا ابتدأ رفعا .

قوله تعالى : قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾

علّمه ما يدعو به ؛ أى قل رب ، أى يارب إن أريتنى ما يوعدون من العذاب . ﴿ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى فى نزول العذاب بهم ، بل أخرجنى منهم . وقيل : النداء معترض ؛ و « ما » فى « إمّا » زائدة . وقيل : إن أصل إمّا إن ما ؛ فـ « إن » شرط و « ما » شرط ، فجمع بين الشرطين توكيدا ، والجواب « فلا تجعلنى فى القوم الظالمين » ؛ أى إذا أردت بهم عقوبة فأخرجنى منهم . وكان عليه السلام يعلم أن الله تعالى لا يجعله فى القوم الظالمين إذا نزل بهم العذاب ، ومع هذا أمره الربّ بهذا الدعاء والسؤال ليعظم أجره وليكون فى كل الأوقات ذاكرا لربّه تعالى .

قوله تعالى : وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾

نبّه على أن خلاف المعلوم مقدور ، وقد أراه الله تعالى ذلك فيهم بالجوع والسيف ، ونجّاه الله ومن آمن به من ذلك .

قوله تعالى : ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾ أمر بالصفح ومكارم الأخلاق ؛ فما كان منها لهذه الأمة فيما بينهم فهو محكم باقٍ فى الأمة أبدا . وما كان فيها من موادعة الكفار وترك التعرّض لهم والصفح عن أمورهم فمنسوخ بالقتال . ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ أى من الشرك والتكذيب . وهذا يقتضى أنها آية موادعة ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ الهمزات هى جمع هَمْزة . والهَمْز فى اللغة النَّخْس والدفع؛ يقال : هَمَزَه ولَمَزَه ونَخَسه دفعه . قال الليث : الهمز كلامٌ من وراء القَفَا ، واللَّمْزُ مواجهةً . والشيطان يوسوس فيهمس فى وسواسه فى صدر ابن آدم ؛ وهو قوله : « أعوذ بك من همزات الشياطين » أى نزغات الشياطين الشاغلة عن ذكر الله تعالى . وفى الحديث : كان يتعوّذ من همز الشيطان ولمزه وهمسه . قال أبو الهَيْثَم : إذا أسرّ الكلام وأخفاه فذلك الهمس من الكلام . وسمى الأسد هَمُوسا ؛ لأنه يمشى بخفة فلا يُسمع صوت وطئه . وقد تقدم فى « طه »[1] .

الثانيــة ـ أمر الله تعالى نبيّــه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالتعوّذ من الشيطان فى همزاته ، وهى سَوراتُ الغضب التى لا يملك الإنسان فيها نفســه ، وكأنها هى التى كانت تصيب المؤمنين مع الكفار فتقع المحادّة فلذلك اتصلت بهــذه الآية . فالنزغات وسورات الغضب الواردةُ من الشيطان هى المتعوَّذ منهــا فى الآية ؛ وقد تقــدم فى آخر « الأعراف »[2] بيانه مستوفًى ، وفى أول الكتاب أيضا[3] . وروى عن علىّ بن حرب بن محمــد الطائى حدّثنا سفيان عن أيوب عن محمد بن حِبّان أن خالدا كان يؤرّق من الليل؛ فذكر ذلك للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، فأمره أن يتعوّذ بكلمات الله التّامة من غضب الله وعقابه ومن شر عباده ومن همــزات الشياطين وأنْ يَحْضُرون . وفى كتاب أبى داود قال عمــر : وَهَمْزُه المُــوتَة ؛ قال ابن ماجه : المُوتَة يعنى الجنون . والتعوذ أيضــا من الجنون وَكِيد . وفى قراءة أُبَىّ « رَبِّ عائذًا بك من همزات الشياطين ، وعائذا بك أن يَحْضُرونِ » ؛ أى يكونوا معى فى أمورى ،

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٤٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧
(٣) راجع جـ ١ ص ٨٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

فإنهم إذا حضروا الإنسان كانوا معدّين للهمز ، وإذا لم يكن حضور فلا همز . وفى صحيح مسلم عن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتى يحضره عند طعامه فإذا سقطت من أحدكم اللقمة فليُمط ما كان بها من أذى ثم ليأكلها ولا يدعها للشيطان فإذا فرغ فليلعق أصابعه فإنه لا يدرى فى أى طعامه البركة" .

قوله تعالى : حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ عاد الكلام إلى ذكر المشركين ؛ أى قالوا « أئذا متنا — إلى قوله — إنْ هذا إلا أساطير الأولين » ، ثم احتج عليهم وذكّرهم قدرته على كل شيء ، ثم قال هم مصرّون على ذلك حتى إذا جاء أحدهم الموت تيقّن ضلالته وعاين الملائكة التى تقبض روحه ؛ كما قال تعالى : « وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ » (١) . ﴿ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ تمنّى الرجعة كى يعمل صالحا فيما ترك . وقد يكون القول فى النفس ؛ قال الله عز وجل : « وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ » (٢) . فأما قوله « ٱرْجِعُونِ » وهو مخاطب ربّه عز وجل ولم يقل « ارجعنى » جاء على تعظيم الذكر للمخاطب . وقيل : استغاثوا بالله عز وجل أولا ، فقال قائلهم : ربّ ، ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال : ارجعون إلى الدنيا ؛ قاله ابن جُريج . وقيل : إن معنى « ارجعون » على جهة التكرير ؛ أى ارجعنى ارجعنى ارجعنى وهكذا . قال المُزَنى فى قوله تعالى « أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ » قال : معناه ألْقِ ألْقِ . قال الضحاك : المراد به أهل الشرك .

قلت : ليس سؤال الرجعة مختصا بالكافر فقد يسألها المؤمن كما فى آخر سورة المنافقين على ما يأتى . ودلّت الآية على أن أحدا لا يموت حتى يعرف اضطرارا أهو من أولياء

(١) آية ٥٠ سورة الأنفال . (٢) آية ٨ سورة المجادلة .

الله أم من أعداء الله، ولولا ذلك لمـا سأل الرجعة، فيعلموا ذلك قبل نزول الموت وذواقه .
﴿ لَعَـلِّى أَعْمَلُ صَالِحًـا ﴾ قال ابن عباس : يريد أشهد أن لا إله إلا الله . ﴿ فِيمَا تَرَكْتُ ﴾
أى فيما ضيّعت وتركت العمل به من الطاعات . وقيل : «فيما تركت» من المـال فأتصدق .
و «لعلّ» تتضمن ترددا؛ وهذا الذى يسأل الرجعة قد استيقن العذاب، وهو يوطّن نفسه على
العمل الصالح قطعا من غير تردد . فالتردد يرجع إما إلى رده إلى الدنيا، وإما إلى التوفيق؛ أى
أعمل صالحا إن وفقتنى؛ إذ ليس على قطع من وجود القدرة والتوفيق لو رُدّ إلى الدنيا .
﴿ كَلَّا ﴾ هـذه كلمة ردّ؛ أى ليس الأمر على ما يظنه من أنه يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا،
بل هو كلام يطيح فى أدراج الريح . وقيـل : لو أجيب إلى ما يطلب لمـا وَفَّى بمـا يقول؛
كما قال : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَـا نُهُوا عَنْهُ »(١) . وقيل : « كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَـةٌ هُوَ قَائِلُهَا » ترجع
إلى الله تعالى؛ أى لا خلف فى خبره، وقد أخبر أنه لن يؤخر نفسا إذا جاء أجلها، وأخبر بأن
هذا الكافر لا يؤمن . وقيل : «إنها كلمة هو قائلها» عند الموت، ولكن لا تنفع . ﴿ وَمِنْ
وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ ﴾ أى ومن أمامهم وبين أيديهم . وقيل : من خلفهم . « بَرْزَخٌ » أى حاجز بين
الموت والبعث؛ قاله الضحاك ومجاهد وابن زيد . وعن مجاهد أيضا أن البرزخ هو الحاجز
بين الموت والرجوع إلى الدنيـا . وعن الضحاك : هو ما بين الدنيا والآخرة . ابن عباس :
حجاب . السدى : أجل . قتادة : بقية الدنيا . وقيـل : الإمهال إلى يوم القيامة؛ حكاه
ابن عيسى . الكلبى : هو الأجل ما بين النفختين، وبينهما أربعون سنة . وهـذه الأقوال
متقاربة . وكلّ حاجز بين شيئين فهو بَرْزَخ . قال الجوهرى : البرزخ الحاجز بين الشيئين .
والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث؛ فمن مات فقد دخل فى البرزخ .
وقال رجل بحضرة الشَّعْبىّ : رحم الله فلانا فقـد صار من أهل الآخرة ! فقال : لم يَصِر من
أهل الآخرة، ولكنه صار من أهـل البرزخ، وليس من الدنيا ولا من الآخرة . وأضيف
« يوم » إلى « يبعثون » لأنه ظرف زمان، والمراد بالإضافة المصدر .

(١) آية ٢٨ سورة الأنعام .

قوله تعالى : فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ (١٠١)

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ المراد بهذا النفخ النفخةُ الثانية . ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : لا يفتخرون بالأنساب فى الآخرة كما يفتخرون بها فى الدنيا ، ولا يتساءلون فيها كما يتساءلون فى الدنيا ؛ من أىّ قبيلة أنت ولا من أىّ نسب ، ولا يتعارفون لهَوْل ما أذهلهم . وعن ابن عباس أن ذلك فى النفخة الأولى حين يصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . وسأل رجل ابن عباس عن هذه الآية وقوله : « فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ »[(١)] فقال : لا يتساءلون فى النفخة الأولى ؛ لأنه لا يبقى على الأرض حىّ ، فلا أنساب ولا تساؤل . وأما قوله « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » فإنهم إذا دخلوا الجنة تساءلوا . وقال ابن مسعود : إنما عنى فى هذه الآية النفخة الثانية . وقال أبو عمر زاذان : دخلت على ابن مسعود فوجدت أصحاب الخير واليمنة قد سبقونى إليه ، فناديت بأعلى صوتى : يا عبد الله بن مسعود ! من أجل أنى رجل أعجمىّ أدنيت هؤلاء وأقصيتنى ! فقال : أُدْنُه ؛ فدنوت ؛ حتى ما كان بينى وبينه جليس فسمعته يقول : يؤخذ بيد العبد أو الأَمَة يوم القيامة فينصب على رءوس الأوّلين والآخرين ثم ينادى منادٍ : هذا فلان بن فلان ، من كان له حق فليأت إلى حقه ؛ فتفرح المرأة أن يدور لها الحق على أبيها أو على زوجها أو على أخيها أو على ابنها ؛ ثم قرأ ابن مسعود : « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » فيقول الربّ سبحانه وتعالى "آت هؤلاء حقوقهم" فيقول : يارب قد فنيت الدنيا فمن أين أوتيهم ؛ فيقول الرب للملائكة : "خذوا من حسناته فأعطوا كل إنسان بقدر طَلِبَته" وإن كان وليًّا لله فضلت من حسناته مثقال حبة من خردل فيضاعفها الله تعالى حتى يدخله بها الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود « إنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ

(١) آية ٥٠ سورة الصافات .

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا» [١] . وإن كان شقيا قالت الملائكة : ربِّ ! فنيت حسناته وبقي طالبون ؛ فيقول الله تعالى : "خذوا من أعمالهم فأضيفوها إلى سيئاته وصُكّوا له صكًّا إلى جهنّم" .

قوله تعالى : فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾

تقدم الكلام فيهما [٢] .

قوله تعالى : تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ ويقال «تنفح» بمعناه ؛ ومنه «وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ» [٣] . إلا أن «تلفح» أبلغ بأسا ؛ يقال : لفحته النار والسَّموم بحرها أحرقته . ولفحته بالسيف لفحة إذا ضربته به [ضربة] خفيفة . ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ قال ابن عباس : عابسون . وقال أهل اللغة : الكُلوح تكَشُّرٌ في عُبوس . والكالح : الذي قد تشمّرت شفتاه وبدت أسنانه . قال الأعشى :

وله المُقْدَمُ لا مِثْلَ له * ساعةَ الشِّدْقِ عن النّابِ كَلَحْ

وقد كَلَح الرجل كُلوحا وكُلاحا . وما أقبح كَلْحَتَه ؛ يراد به الفَمُ وما حواليه . ودهرٌ كالح أي شديد . وعن ابن عباس أيضا «وهم فيها كالحون» يريد كالذي كَلَح وتقلصت شفتاه وسال صديده . وقال ابن مسعود : ألم تر إلى الرأس المُشَيَّط بالنار، وقد بدت أسنانه وقلصت شفتاه . وفي الترمذيّ عن أبي سعيد الخُدْريّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "وهم فيها كالحون ــ قال ــ تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وَسَط رأسه وتسترخي شَفَتُه السفلى حتى تضرب سُرّته" قال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(١) آية ٤٠ سورة النساء . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٦٦ (٣) آية ٤٦ سورة الأنبياء .

قوله تعالى : قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم « شِقوتنا » وقرأ الكوفيون إلا عاصما « شقاوتنا » . وهذه القراءة مروية عن ابن مسعود والحسن . و يقال : شقاء وشقًا ، بالمد والقصر . وأحسن ما قيل فى معناه : غلبت علينا لذاتنا وأهواؤنا ؛ فسمى اللذات والأهواء شقوة ، لأنهما يؤدّيان إليها ، كما قال الله عز وجل : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا »[(١)] ؛ لأن ذلك يؤديهم إلى النار . وقيل : ما سبق فى علمك ، وكتب علينا فى أم الكتاب من الشقاوة . وقيل : حسن الظن بالنفس وسوءُ الظن بالخلق . ﴿ وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ أى كنا فى فعلنا ضالين عن الهدى . وليس هذا اعتذارا منهم إنما هو إقرار . و يدلّ على ذلك قولهم ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ طلبوا الرجعة إلى الدنيا كما طلبوها عند الموت . ﴿ فَإِنْ عُدْنَا ﴾ إلى الكفر ﴿ فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ لأنفسنا بالعَوْد إليه فيجابون بعد ألف سنة : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ أى ابْعُدوا فى جهنم ؛ كما يقال للكلب : اِخسأ ؛ أى ابْعُد . خسأت الكلب خَسْئًا طردته . وخسأ الكلبُ بنفسه خسوءا ؛ يتعدّى ولا يتعدى . وانخسأ الكلب أيضا . وذكر ابن المبارك قال : حدّثنا سعيد بن أبى عَرُوبة عن قتادة يذكره عن أبى أيوب عن عبد الله بن عمرو بن العاصى قال : إن أهل جهنم يَدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاما ، ثم يرد عليهم : إنكم ماكثون . قال : هانت والله دعوتهم على مالك وربِّ مالك . قال : ثم يدعون ربهم فيقولون : « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ » . قال : فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين . قال : ثم يرد عليهم اخسئوا فيها . قال : أفوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة ، وما هو إلا الزفير والشهيق فى نار جهنم .

(١) آية ١٠ سورة النساء .

فشبّه أصواتهم بصوت الحمير، أولها زفير وآخرها شهيق . خرجه الترمذى مرفوعا بمعناه من حديث أبى الدرداء . وقال قتادة : صوت الكفار فى النار كصوت الحمار، أوله زفير وآخره شهيق . وقال ابن عباس : يصير لهم نُباح كنباح الكلاب . وقال محمد بن كعب القُرَظى : بلغنى أو ذُكر لى أن أهل النار استغاثوا بالخزنة ... الخبر بطوله، ذكره ابن المبارك، وقد ذكرناه بكماله فى التذكرة، وفى آخره : ثم مكث عنهم ما شاء الله، ثم ناداهم « أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ » قال : فلما سمعوا صوته قالوا الآن يرحمنا ربنا فقالوا عند ذلك « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا » أى الكتاب الذى كتب علينا « وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ » فقال عند ذلك « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض ينبح بعضهم فى وجوه بعض، وأطبقت عليهم .

قوله تعالى : إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ﴾ الآية . قال مجاهد : هم بلال وخَبَّاب وصُهَيب، وفلان وفلان من ضعفاء المسلمين؛ كان أبو جهل وأصحابه يهزءون بهم . ﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا ﴾ بالضم قراءة نافع وحمزة والكسائى هاهنا وفى « ص »[(١)] . وكسر الباقون . قال النحاس : وفرّق أبو عمرو بينهما، فجعل المكسورة من جهة التهزّؤ، والمضمومة من جهة السُّخْرة، ولا يعرف هذا التفريق الخليلُ ولا سيبويه ولا الكسائىّ ولا الفراء . قال الكسائىّ : هما لغتان بمعنًى واحد؛ كما يقال : عُصِىّ وعِصِىّ، ولُجّى ولِجّى . وحكى الثعلبىّ عن الكسائىّ والفراء الفرقَ الذى ذكره أبو عمرو، وأن الكسر بمعنى الاستهزاء،

(١) فى آية ٦٣

والسخرية بالقول ، والضم بمعنى التسخير والاستعباد بالفعل . وقال المبرد : إنما يؤخذ التفريق بين المعانى عن العرب ، وأما التأويل فلا يكون . والكسر فى سخرى فى المعنيين جميعا ؛ لأن الضمة تستثقل فى مثل هذا . ﴿ حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى ﴾ أى اشتغلتم بالاستهزاء بهم عن ذكرى . ﴿ وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء بهم ، وأضاف الإنساء إلى المؤمنين لأنهم كانوا سببا لاشتغالهم عن ذكره ؛ وتعدّى شؤم استهزائهم بالمؤمنين إلى استيلاء الكفر على قلوبهم . ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ على أذاكم ، وصبروا على طاعتى . ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ قرأ حمزة والكسائى بكسر الهمزة على ابتداء المدح من الله تعالى لهم ، وفتح الباقون ؛ أى لأنهم هم الفائزون . ويجوز نصبه بوقوع الجزاء عليه ، تقديره : إنى جزيتهم اليوم الفوز بالجنة .

قلت : وينظر إلى معنى هذا قوله تعالى فى آخر المطفّفين : « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ » إلى آخر السورة ، على ما يأتى بيانه هناك إن شاء الله تعالى . ويستفاد من هذا : التحذيرُ من السّخرية والاستهزاء بالضعفاء والمساكين والاحتقار لهم ، والإزراء عليهم والاشتغال بهم فيما لا يعنى ، وأن ذلك مُبْعِد من الله عز وجل .

قوله تعالى : قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الْأَرْضِ ﴾ قيل : يعنى فى القبور . وقيل : هو سؤال لهم عن مدة حياتهم فى الدنيا ، وهذا السؤال للمشركين فى عَرَصات القيامة أو فى النار . ﴿ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ بفتح النون على أنه جمع مسلّم ، ومن العرب من يخفضها وينوّنها . ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ أنساهم شدّةُ العذاب مدّةَ مكثهم فى القبور . وقيل : لأن العذاب رفع عنهم بين النفختين فنسوا ما كانوا فيه من العذاب فى قبورهم . قال ابن عباس : أنساهم ما كانوا فيه من العذاب من النفخة الأولى إلى الثانية ؛ وذلك أنه ليس من أحد قتله نبيّ أو قتل نبيًّا

أو مات بحضرة نبىّ إلا عذب من ساعة يموت إلى النفخة الأولى ، ثم يُمسك عنه العذاب فيكون كالماء حتى يُنفخ الثانية . وقيل : استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا وفى القبور ورأوه يسيرا بالنسبة إلى ما هم بصدده . ﴿ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴾ أى سل الحُسّاب الذين يعرفون ذلك فإنا قد نسيناه ، أو فاسأل الملائكة الذين كانوا معنا فى الدنيا ؛ الأول قول قتادة ، والثانى قول مجاهد . وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى « قل كم لبثتم فى الأرض » على الأمر . ويحتمل ثلاثة معانٍ : أحدها — قولوا كم لبثتم ؛ فأخرج الكلام مخرج الأمر للواحد والمرادُ الجماعة ؛ إذ كان المعنى مفهوما . الثانى — أن يكون أمرًا للمَلَك ليسألهم يوم البعث عن قدر مكثهم فى الدنيا . أو أراد قل أيها الكافر كم لبثتم ، وهو الثالث . الباقون « قال كم » على الخبر ؛ أى قال الله تعالى لهم ، أو قالت الملائكة لهم كم لبثتم . وقرأ حمزة والكسائىّ أيضا ﴿ قل إن لبثتم إلا قليلا ﴾ الباقون « قال » على الخبر ، على ما ذكر من التأويل فى الأوّل ؛ أى ما لبثتم فى الأرض إلا قليلا ؛ وذلك أن مكثهم فى القبور وإن طال كان متناهيا . وقيل : هو قليل بالنسبة إلى مكثهم فى النار ؛ لأنه لا نهاية له . ﴿ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ أى مهملين كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب عليها ؛ مثل قوله تعالى : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى »(١) يريد كالبهائم مهملا لغير فائدة . قال الترمذىّ الحكيم أبو عبد الله محمد بن علىّ : إن الله تعالى خلق الخلق عبيدا ليعبدوه ، فيثيبهم على العبادة ويعاقبهم على تركها ، فإن عبدوه فهم اليوم له عبيد أحرار كرام من رق الدنيا ، ملوك فى دار الإسلام ؛ وإن رفضوا العبوديّة فهم اليوم عبيد أُبّاق سُقّاط لئام ، وغدًا أعداء فى السجون بين أطباق النيران . و « عَبَثًا » نصب على الحال عند سيبويه وقُطْرُب . وقال أبو عبيدة : هو نصب على المصدر أو لأنه مفعول له . ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ فتجازون بأعمالكم . قرأ حمزة والكسائىّ « تَرْجِعون » بفتح التاء وكسر الجيم من الرجوع .

(١) آية ٣٦ سورة القيامة .

قوله تعالى : فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ ﴾ أى تنزّه وتقدّس الله الملك الحق عن الأولاد والشركاء والأنداد، وعن أن يخلق شيئا عبثا أو سفها ؛ لأنه الحكيم . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَـرْشِ الكَرِيمِ ﴾ ليس فى القرآن غيرها . وقرأ ابن مُحَيْصن و روى عن ابن كثير « الكريمُ » بالرفع نعتا لله (١) .

قوله تعالى : وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ أى لا حجة له عليه ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ أى هو يعاقبه ويحاسبه . ﴿ إِنَّهُ ﴾ الهـاء ضمير الأمر والشأن . ﴿ لَا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ ﴾ وقرأ الحسن وقتادة « لا يَفْلَح » — بالفتح — من كذب وجحـد ما جئت به وكفر نعمتى . ثم أمر نبيّه عليه الصلاة والسلام بالاستغفار لتقتدى به الأمة . وقيل : أمره بالاستغفار لأمته . وأسند الثعلبيّ من حديث ابن لَهِيعة عن عبد الله بن هُبيرة عن حَنَش بن عبد الله الصنعانيّ عن عبد الله بن مسعود أنه مرّ بمصاب مبتلًى فقرأ فى أذنه « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا » حتى ختم السورة فَبرأ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ماذا قرأت فى أذنه "؟ فأخبره، فقال : " والذى نفسى بيده لو أن رجلا موقنا قرأها على جبل لزال " .

(١) فى روح المعانى : « الكريم بالرفع على أنه صفة الرب ، ويجوز أن يكون صفة العرش على القطع » .

سورة النور

مدنية بالإجماع

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١)

مقصود هذه السورة ذكر أحكام العفاف والستر . وكتب عمر رضي الله عنه إلى أهل الكوفة : علّموا نساءكم سورة النور . وقالت عائشة رضي الله عنها : لا تُنزلوا النساء الغُرَف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن سورة النور والغزل . ﴿ وَفَرَضْنَاهَا ﴾ قرئ بتخفيف الراء ؛ أي فرضنا عليكم وعلى من بعدكم ما فيها من الأحكام . وبالتشديد : أي أنزلنا فيها فرائض مختلفة . وقرأ أبو عمرو : « وفرّضناها » بالتشديد أي قطّعناها في الإنزال نُجُماً نُجُماً . والفرض القطع ؛ ومنه فُرْضة القوس . وفرائض الميراث وفرض النفقة . وعنه أيضا « فرّضناها » فصّلناها وبيّناها . وقيل : هو على التكثير ، لكثرة ما فيها من الفرائض . والسورة في اللغة اسم للمنزلة الشريفة ؛ ولذلك سُمّيت السورة من القرآن سورة . قال زهير[1] :

ألم تر أن الله أعطاك سورة * ترى كلّ مَلْك دونها يتذبذب

وقد مضى في مقدمة الكتاب القول فيها[2] . وقرئ « سورةٌ » بالرفع على أنها مبتدأ وخبرها « أنزلناها » ؛ قاله أبو عبيدة والأخفش . وقال الزجاج والفراء والمُبرّد . « سورةٌ » بالرفع لأنها خبر الابتداء ؛ لأنها نكرة ولا يبتدأ بالنكرة في كل موضع ، أي هذه سورة . ويحتمل أن يكون قوله « سورة » ابتداء وما بعدها صفة لها أخرجتها عن حد النكرة المحضة فحسن الابتداء لذلك ، ويكون الخبر في قوله « الزَّانِيَةُ والزَّانِي » . وقرئ « سورةً » بالنصب ، على تقدير أنزلنا سورة أنزلناها . وقال الشاعر[3] :

---

(١) كذا في الأصول . والمعروف أن هذا البيت للنابغة الذبياني من قصيدة يمدح بها النعمان و يعتذر .

(٢) راجع جـ١ ص ٦٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) هو الربيع بن ضبيع بن وهب (عن شرح الشواهد الكبرى للعيني) .

والذئبَ أخشاه إن مررتُ به * وحدِي وأخشى الرياحَ والمطرا

أو تكون منصوبة بإضمار فعل ؛ أى اتل سورة . وقال الفرّاء : هى حال من الهاء والألف ، والحال من المكنى يجوز أن يتقدم عليه .

قوله تعالى : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

فيه إحدى وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ والزَّانِي ﴾ كان الزنى فى اللغة معروفا قبل الشرع ، مثل اسم السرقة والقتل . وهو اسمٌ لوطء الرجل امرأة فى فرجها من غير نكاح ولا شبهة نكاح بمطاوعتها . وإن شئت قلت : هو إدخال فرج فى فرج مشتهًى طبعا محرّم شرعا ؛ فإذا كان ذلك وجب الحدّ . وقد مضى الكلام فى حدّ الزنى وحقيقته وما للعلماء فى ذلك . وهذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى اللتين فى سورة «النساء»[1] باتفاق .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ هذا حدّ الزانى الحر البالغ البكر ، وكذلك الزانية البالغة البكر الحرّة . وثبت بالسُّنة تغريب عام ؛ على الخلاف فى ذلك . وأما المملوكات فالواجب خمسون جلدة ؛ لقوله تعالى : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ »[2] وهذا فى الأَمَة ، ثم العبدُ فى معناها . وأما المُحْصَن من الأحرار فعليه الرَّجْم دون الجلد . ومن العلماء من يقول : يجلد مائة ثم يُرْجَم . وقد مضى هذا كله ممهَّدًا فى « النساء » فأغنى عن إعادته ، والحمد لله .

الثالثة — قرأ الجمهور «الزَّانِيَةُ والزَّانِي» بالرفع . وقرأ عيسى بن عمر الثقفيّ «الزانيةَ» بالنصب ، وهو أوجه عند سيبويه ؛ لأنه عنده كقولك : زيدا اضرب . ووجه الرفع عنده :

---

(١) راجع ج ٥ ص ٨٢ وما بعدها . (٢) آية ٢٥ سورة النساء .

خبر ابتداء[1]، وتقديره : فيما يتلى عليكم [حكم][2] الزانيـة والزانى . وأجمع الناس على الرفع وإن كان القياس عند سيبويه النصب . وأما الفرّاء والمبرد والزجاج فإن الرفع عندهم هو الأوجه ، والخبر فى قوله « فآجلدوا » ؛ لأن المعنى : الزانية والزانى مجلودان بحكم الله ؛ وهو قول جيد ، وهو قول أكثر النحاة . وإن شئت قدّرت الخبر : ينبغى أن يجلدا . وقرأ ابن مسعود « والزان » بغير ياء .

الرابعـــة ـــ ذكر الله سبحانه وتعالى الذّكر والأنثى ، والزانى كان يكفى منهما ؛ فقيل : ذكرهما للتأكيد ؛ كما قال تعالى : « والسّارقُ والسّارقةُ فآقطعوا أيديَهما » . ويحتمل أن يكون ذكرهما هنا لئلا يظن ظانّ أن الرجل لما كان هو الواطئ والمرأة محل ليست بواطئة فلا يجب عليها حدّ ؛ فذكرها رفعا لهذا الإشكال الذى أوقع جماعة من العلماء منهم الشافعىّ . فقالوا : لا كفارة على المرأة فى الوطء فى رمضان ؛ لأنه قال جامعت أهلى فى نهار رمضان ؛ فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : "كفِّر" . فأمره بالكفارة ، والمرأةُ ليست بجامعة ولا واطئة .

الخامســـة ـــ قُدّمت « الزانية » فى هذه الآية من حيث كان فى ذلك الزمان زنى النساء فاش ، وكان لإماء العرب وبغايا الوقت رايات ، وكنّ مجاهراتٍ بذلك . وقيل : لأن الزنى فى النساء أعرّ وهو لأجل الحبل أضر . وقيل : لأن الشهوة فى المرأة أكثر وعليها أغلب ؛ فصدّرها تغليظا لتردع شهوتها ، وإن كان قد رُكّب فيها حياء لكنها إذا زنت ذهب الحياء كله . وأيضا فإن العار بالنساء ألحق إذ موضوعهن الحجب[3] والصيانة فقدم ذكرهنّ تغليظا واهتماما .

السادســـة ـــ الألف واللام فى قوله « الزانية والزانى » للجنس ، وذلك يعطى أنها عامة فى جميع الزناة . ومن قال بالجلد مع الرجم قال : السُّـنة جاءت بزيادة حكم فيقام مع الجلد ، وهو قول إسحاق بن رَاهَوَيْه والحسن بن أبى الحسن ، وفعله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه بشُرَاحة ، وقد مضى فى « النساء »[4] بيانه . وقال الجمهور : هى خاصة فى البكرين ، واستدلوا على أنها غير عامّة بخروج العبيد والإماء منها .

(١) فى هذه العبارة تساهل ؛ فان التقدير الذى ذكره يقتضى أن يكون مبتدأ محذوف الخبر ، كما ذكر ذلك غير واحد من المفسرين . (٢) زيادة من كتب التفسير . (٣) فى الأصول : « الحجبة » . (٤) راجع جـ ٥ ص ٨٧

السابعــــة — نصّ الله سبحانه وتعالى [على] ما يجب على الزانيين إذا شهد بذلك عليهما ؛ على ما يأتى ، وأجمع العلماء على القول به . واختلفوا فيما يجب على الرجل يوجد مع المرأة فى ثوب واحد ؛ فقال إسحاق بن راهويه : يضرب كل واحد منهما مائة جلدة . وروى ذلك عن عمر وعلىّ ، وليس يثبت ذلك عنهما . وقال عطاء وسفيان الثورىّ : يؤدّبان . وبه قال مالك وأحمد ؛ على قدر مذاهبهم فى الأدب . قال ابن المنذر : والأكثر ممن رأيناه يرى على من وُجد على هذه الحال الأدب . وقد مضى فى « هود »(١) اختيار ما فى هذه المسئلة ، والحمد لله وحده .

الثامنــــة — قوله تعالى : ﴿ فَاجْلِدُوا ﴾ دخلت الفاء لأنه موضع أمر والأمرُ مضارع للشرط . وقال المبرّد : فيه معنى الجزاء ، أى إن زنى زانٍ فافعلوا به كذا ، ولهذا دخلت الفاء ؛ وهكذا « السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » .

التاســـعة — لا خلاف أن المخاطب بهذا الأمر الإمامُ ومن ناب منابه . وزاد مالك والشافعىّ : السادة فى العبيد . قال الشافعىّ : فى كل جلد وقطع . وقال مالك : فى الجلد دون القطع . وقيل : الخطاب للمسلمين ؛ لأن إقامة مراسم الدين واجبة على المسلمين ، ثم الإمام ينوب عنهم ؛ إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود .

العاشــرة — أجمع العلماء على أن الجلد بالسَّوْط يجب . والسَّوْط الذى يجب أن يجلد به يكون سوطا بين سَوْطين ، لا شديدا ولا ليّنا . وروى مالك عن زيد بن أسلم أن رجلا اعترف على نفسه بالزنى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسَوْط ، فأتى بسَوْط مكسور ، فقال : " فوق هذا " فأتى بسوط جديد لم تقطع ثمرته(٢) ، فقال : " دون هذا " فأتى بسوط قد رُكب به ولان(٣) . فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلد ... الحديث . قال أبو عمر : هكذا روى هذا الحديثَ مرسلا جميعُ

(١) كذا فى الأصول ، ولعله يريد سورة النساء . راجع المسألة الثانية جـ ٥ ص ٨٦

(٢) الثمرة : الطرف . يريد أن طرفه محدد لم تنكسر حدّته ولم يُخلق بعد .

(٣) يريد قد انكسرت حدّته ولم يخلق ولا بلغ من اللين مبلغا لا يألم من ضرب به . (راجع الموطأ كتاب الحدود) .

رواة الموطأ، ولا أعلمه يستند بهذا اللفظ بوجه من الوجوه، وقد روى معمر عن يحيى بن أبي كثير عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مثله سواء. وقد تقدّم في «المائدة» ضرب عمر قدامة[1] في الخمر بسوط تام. يريد وَسَطًا.

الحادية عشرة — اختلف العلماء في تجريد المجلود في الزنى؛ فقال مالك وأبو حنيفة وغيرهما: يجرّد، ويترك على المرأة ما يسترها دون ما يقيها الضرب. وقال الأوزاعيّ: الإمامُ مخيّر إن شاء جرّد وإن شاء ترك. وقال الشّعْبيّ والنَّخَعيّ: لا يجرّد، ولكن يترك عليه قميص. قال ابن مسعود: لا يحلّ في هذه الأمة تجريد ولا مدّ؛ وبه قال الثوريّ.

الثانية عشرة — اختلف العلماء في كيفية ضرب الرجال والنساء؛ فقال مالك: الرجل والمرأة في الحدود كلّها سواء، لا يقام واحد منهما؛ ولا يجزى عنده إلا في الظهر. وأصحاب الرأي والشافعي يرون أن يُجلد الرجل وهو واقف، وهو قول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وقال اللّيْث وأبو حنيفة والشافعيّ: الضرب في الحدود كلها وفي التعزير مجردا قائما غير ممدود؛ إلا حدّ القذف فإنه يضرب وعليه ثيابه. وحكاه المهدويّ في التحصيل عن مالك. وينزع عنه الحَشْوُ والفَرْو. وقال الشافعي: إن كان مدّه صلاحا مُدّ.

الثالثة عشرة — واختلفوا في المواضع التي تضرب من الإنسان في الحدود؛ فقال مالك: الحدود كلها لا تضرب إلا في الظهر، وكذلك التعزير. وقال الشافعيّ وأصحابه: يُتّقى الوجه والفرج وتضرب سائر الأعضاء؛ وروى عن عليّ. وأشار ابن عمر بالضرب إلى رِجْلَي أَمَة جلدها في الزنى. قال ابن عطية: والإجماع في تسليم الوجه والعورة والمَقَاتِل. واختلفوا في ضرب الرأس؛ فقال الجمهورُ: يُتّقى الرأس. وقال أبو يوسف: يضرب الرأس. وروى عن عمر وابنه فقالا: يضرب الرأس. وضرب عمر رضي الله عنه صَبِيغًا[2] في رأسه وكان تعزيرا لا حدًّا. ومن حجة مالك ما أدرك عليه الناس، وقوله عليه السلام: "البيّنةَ وإلا حَدٌّ في ظهرك" وسيأتي.

(١) في الأصول: «الجارود» وهو تحريف؛ لأن الذي ضربه سيدنا عمر رضي الله عنه هو قدامة بن مظعون؛ وقد ذكر المؤلف رحمه الله تعالى قصته في جـ ٦ ص ٢٩٧ فراجعه هناك؛ وراجع ترجمته في كتب الصحابة.

(٢) هو صبيغ (كأمير) بن عِسْل، كان يعنت الناس بالغوامض والسؤالات؛ فنفاه سيدنا عمر إلى البصرة.

الرابعــة عشرة ــ الضرب الذى يجب هو أن يكون مؤلما لا يجرح ولا يبضع ، ولا يخرج الضارب يده من تحت إبطه . وبه قال الجمهور ، وهو قول علىّ وابن مسعود رضى الله عنهما . وأُتى عمر رضى الله عنه برجل فى حدّ فأتى بسوط بين سوطين وقال للضارب : اضرب ولا يُرى إبطك ؛ وأعط كلّ عضو حقه . وأتى رضى الله عنه بشارب فقال : لأبعثنك إلى رجل لا تأخذه فيك هوادة ؛ فبعثه إلى مطيع بن الأسود العدوىّ فقال : إذا أصبحت الغد فاضربه الحد ؛ فجاء عمر رضى الله عنه وهو يضربه ضربا شديدا فقال : قتلت الرجل ! كم ضربتـه ؟ فقال ستين ؛ فقال : أَقِصّ عنه بعشرين . قال أبو عبيدة : « أَقِصّ عنه بعشرين » يقول : اجعل شدّة هذا الضرب الذى ضربته قصاصا بالعشرين التى بقيت ولا تضربه العشرين . وفى هـذا الحديث من الفقه أن ضرب الشـارب ضرب خفيف . وقد اختلف العلماء فى أشد الحدود ضربا وهى :

الخامســـة عشرة ــ فقال مالك وأصحابه والليث بن سعد : الضرب فى الحـدود كلها سـواء ، ضربٌ غير مُبرّح ، ضربٌ بين ضربين . وهو قول الشافعىّ رضى الله عنـه . وقال أبو حنيفة وأصحابه : التعزير أشدّ الضرب ؛ وضرب الزنى أشدّ من الضرب فى الخمر ، وضرب الشارب أشدّ من ضرب القذف . وقال الثّوْرىّ : ضرب الزنى أشـدّ من ضرب القذف ، وضرب القذف أشـدّ من ضرب الخمر . احتج مالك بورود التوقيف على عدد الجلدات ، ولم يَرِد فى شىء منها تخفيف ولا تثقيل عمن يجب التسليم له . احتج أبو حنيفة بفعل عمر ، فإنه ضرب فى التعزير ضربا أشد منه فى الزنى . احتج الثورىّ بأن الزنى لمـا كان أكثر عددا فى الجلدات استحال أن يكون القذف أبلغ فى النكاية . وكذلك الخمر ؛ لأنه لم يثبت فيه الحد إلا بالاجتهاد ، وسبيل مسائل الاجتهاد لا يقوى قوة مسائل التوقيف .

السادســـة عشرة ــ الحـدّ الذى أوجب الله فى الزنى والخمر والقذف وغير ذلك ينبغى أن يقام بين أيدى الحكام ، ولا يقيمه إلا فضـلاء الناس وخيارهم يختـارهم الإمام لذلك . وكذلك كانت الصحابة تفعل كلما وقع لهم شىء من ذلك ، رضى الله عنهم . وسبب ذلك أنه

قيام بقاعدة شرعيــة وقُرْبة تعبُّدية ، تجب المحافظة على فعلها وقدرها ومحلها وحالهـا ، بحيث لا يتُعدّى شيء من شروطها ولا أحكامها ؛ فإن دم المسلم وحرمته عظيمة ، فيجب مراعاته بكل ما أمكن . روى الصحيح عن حُضين[1] بن المنـذر أبي ساسان قال : شهدت عثمان بن عفان وأُتي بالوليد قد صـلى الصبح ركعتين ثم قال : أزيدكم ؟ فشهد عليه رجلان ، أحدهما حُمران أنه شرب الخمر، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ ؛ فقال عثمان : إنه لم يتقيأ حتى شربها ؛ فقال : يا عليّ قم فاجلده . فقال عليّ : قم يا حسن فاجلده . فقال الحسن : وَلِّ حارّها[2] من تولّى قارّها (فكأنه وَجَد عليه) فقال : يا عبد الله بن جعفر، قم فاجلده ؛ فجلده وعليّ يعد ... الحديث . وقد تقدم في المـائدة . فانظر قول عثمان للإمام عليّ : قم فاجلده .

السابعــة عشرة — نص الله تعالى على عدد الجلد في الزنى والقـذف ، وثبت التوقيف في الخمر على ثمـانين من فعل عمر في جميع الصحابة — على ما تقدم في المـائدة[3] — فلا يجوز أن يتُعدّى الحد في ذلك كله . قال ابن العربي : « وهذا ما لم يتتابع الناس في الشر ولا احلولت لهم المعاصي ، حتى يتخـذوها ضَراوة[4] ويعطفون عليها بالموادة فلا يتناهوا عن منكر فعلوه ؛ فحينئذ تتعيّن الشدّة ويزاد الحدّ لأجل زيادة الذنب . وقد أُتيَ عمر بسكران في رمضان فضربه مائة ؛ ثمـانين حدّ الخمر وعشرين لهتـك حرمة الشهر . فهكذا يجب أن تركّب العقوبات على تغليظ الجنايات وهتك الحرمات . وقد لعب رجل بصبيّ فضربه الوالي ثلثمائة سوط فلم يغيّر [ذلك[5]] مالك حين بلغه ، فكيف لو رأى زماننا هـذا بهتك الحرمات والاستهتار بالمعاصي ، والتظاهر بالمناكر وبيع الحدود واستيفاء العبيد لها في منصب القُضاة ، لمـات كمدا ولم يجالس أحدا ؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

---

(١) بحاء مهملة مضمومة وضاد معجمة . (٢) قال النووي في شرح هذا الحديث « الحار : الشديد المكروه ، والقار : البارد الهنيء الطيب . وهذا مثل من أمثال العرب ، معناه : وَلِّ شدّتها وأوساخها من تولّى هنيئها ولذاتهـا ؛ والضمير عائد الى الخلافة والولاية ؛ أي كما أن عثمان وأقاربه يتولون هنيء الخلافة ويختصون به يتولون نكدها وقاذوراتها ، ومعناه : ليتولّ هـذا الجلد عثمان بنفسه أو بعض خاصـة أقاربه الأدنين » .

(٣) راجع جـ ٦ ص ٢٩٧ (٤) الضراوة : العادة . (٥) زيادة عن ابن العربي .

قلت : ولهذا المعنى — والله أعلم — زيد فى حدّ الخمر حتى أنتهى إلى ثمانين . وروى الدّارَقُطْنِيّ « حدّثنا القاضى الحسين بن إسماعيل حدّثنا يعقوب بن إبراهيم الدَّوْرَقِيّ حدّثنا صفوان بن عيسى حدّثنا أسامة بن زيد عن الزهرىّ قال أخبرنى عبد الرحمن بن أزهر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حُنين وهو يتخلل الناس يسأل عن منزل خالد بن الوليد ، فأُتِى بسكران ، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن عنده فضربوه بما فى أيديهم . وقال : وحثّا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه التراب . قال : ثم أُتِىَ أبو بكر رضى الله عنه بسكران ، قال : فتوخّى الذى كان من ضربهم يومئذ ؛ فضرب أربعين . قال الزهرىّ : ثم أخبرنى حميد بن عبد الرحمن عن ٱبن وَبَرة الكلبى قال : أرسلنى خالد بن الوليد إلى عمر ، قال فأتيته ومعه عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلىّ وطلحة والزبير وهم معه متكئون فى المسجد فقلت : إن خالد بن الوليد أرسلنى إليك وهو يقرأ عليك السلام ويقول : إن الناس قد انهمكوا فى الخمر ! وتحاقروا العقوبة فيه ؛ فقال عمر : هم هؤلاء عندك فسَلْهم . فقال علىّ : نراه إذا سكر هذَى وإذا هذَى افترى وعلى المفترى ثمانون ؛ قال فقال عمر : أبلغ صاحبك ما قال . قال : فجلد خالد ثمانين وعمرُ ثمانين . قال : وكان عمر إذا أُتِى بالرجل الضعيف الذى كانت منه الذلّة ضربه أربعين . قال : وجلد عثمان أيضا ثمانين وأربعين » . ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : " لو تأخر الهلال لزدتكم " كالمُنَكِّل لهم حين أبَوْا أن ينتهوا . فى رواية " لو مُدّ لنا الشهر لواصلنا وصالا يَدَع المتعمّقون تعمّقهم "(1) . وروى حامد بن يحيى عن سفيان عن مِسْعَر عن عطاء بن أبى مَرْوان أن عليًّا ضرب النجاشىّ فى الخمر مائة جلدة ؛ ذكره أبو عمر ولم يذكر سببا .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ أى لا تمتنعوا عن إقامة الحدود شفقةً على المحدود ، ولا تخففوا الضرب من غير إيجاع ؛ هذا قول جماعة أهل التفسير . وقال الشَّعْبِىّ والنَّخَعِىّ وسعيد بن جُبير : « لا تأخذكم بهما رأفةٌ » قالوا

(1) الحديث ذكر فى صحيح مسلم فى (كتاب الصوم . باب النهى عن الوصال فى الصوم) . وصحيح البخارى فى (كتاب الاعتصام . باب ما يكره من التعمق والتنازع ... الخ) .

فى الضرب والجلد . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : إقامة حد بأرض خيرٌ لأهلها من مطر أربعين ليلة؛ ثم قرأ هذه الآية . والرأفة أرق الرحمة . وقرئ « رأفةٌ » بفتح الألف على وزن فَعَلة . وقرئ « رآفة » على وزن فَعالة؛ ثلاث لغات، وهى كلها مصادر ، أشهرها الأولى؛ من رَؤُف إذا رَق ورَحِم . ويقال : رأفة ورآفة؛ مثل كأْبة وكآبة . وقد رأَفْتُ به ورؤُفت به . والرءوف من صفات الله تعالى : العطوف الرحيم .

التاسعة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ أى فى حُكم الله؛ كما قال تعالى : « مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ »(1) أى فى حكمه . وقيل : « فى دين الله » أى فى طاعة الله وشرعه فيما أمركم به من إقامة الحدود . ثم قررهم على معنى التثبيت والحض بقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ . وهذا كما تقول لرجل تحضّه : إن كنت رجلا فافعل كذا ! أى هذه أفعال الرجال .

الموفية عشرين ــ قوله تعالى : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : لا يشهد التعذيب إلا من لا يستحق التأديب . قال مجاهد : رَجُل فما فوقه إلى ألف . وقال ابن زيد : لابدّ من حضور أربعة قياسا على الشهادة على الزنى ، وأن هذا باب منه؛ وهو قول مالك والليث والشافعى . وقال عكرمة وعطاء : لابدّ من اثنين؛ وهذا مشهور قول مالك، فرآها موضع شهادة . وقال الزهرى : ثلاثة؛ لأنه أقل الجمع . الحسن : واحد فصاعدا، وعنه عشرة . الربيع : ما زاد على الثلاثة . وحجة مجاهد قوله تعالى : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ »(2) ، وقوله : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ »(3) ، ونزلت فى تقاتل رجلين؛ فكذلك قوله تعالى : « وَلْيَشْهَدْ عذابَهما طائفةٌ من المؤمنين » . والواحد يسمى طائفة إلى الألف؛ وقاله ابن عباس وإبراهيم . وأمر أبو بَرْزة الأسلمىُّ بجارية له قد زنت وولدت فألقى عليها ثوبا، وأمر ابنه أن يضربها خمسين ضربة غير مُبرِّح ولا خفيف لكن مؤلم، ودعا جماعة ثم تلا « وليشهد عذابَهما طائفةٌ من المؤمنين » .

---

(1) آية ٧٦ سورة يوسف . (2) آية ١٢٢ سورة التوبة . (3) آية ٩ سورة الحجرات .

الحادية والعشرون — اختلف فى المراد بحضور الجماعة ، هل المقصود بها الإغلاظ على الزناة والتوبيخ بحضرة الناس ، وأن ذلك يُردع المحدود ، ومن شَهِده وحضره يتّعظ به ويزدجر لأجله ، ويَشيع حديثُه فيَعْتبر به مَن بعده ، أو الدعاء لهما بالتوبة والرحمة ؛ قولان للعلماء .

الثانية والعشرون (١) — روى عن حُذيفة رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "يا معاشر الناس آتقوا الزنى فإن فيه ستّ خصال ثلاثا فى الدنيا وثلاثا فى الآخرة فأما اللواتى فى الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر ويُنْقِص العمر وأما اللواتى فى الآخرة فيوجب السخط وسوء الحساب والخلود فى النار" . وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن أعمال أمتى تعرض علىّ فى كل جمعة مرتين فاشتد غضب الله على الزناة" . وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "إذا كان ليلة النصف من شعبان آطلع الله على أمتى فغفر لكل مؤمن لا يشرك بالله شيئا إلا خمسةً ساحرا أو كاهنا أو عاقا لوالديه أو مدمنَ خمر أو مصرًّا على الزنى" .

قوله تعالى : ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — اختلف العلماء فى معنى هذه الآية على ستة أوجه من التأويل :

الأول — أن يكون مقصد الآية تشنيعَ الزنى وتبشيعَ أمره ، وأنه محرّم على المؤمنين . واتصال هذا المعنى بما قبلُ حسن بليغ . ويريد بقوله « لا يَنْكِح » أى لا يطأ ؛ فيكون النكاح بمعنى الجماع . وردّد القصة مبالغة وأخذًا من كلا الطرفين ، ثم زاد تقسيم المشركة والمشرك من حيث الشرك أعم فى المعاصىّ من الزنى ؛ فالمعنى : الزانى لا يطأ فى وقت زناه إلا زانية من المسلمين ، أو من هى أخس منها من المشركات . وقد روى عن ابن عباس وأصحابه أن النكاح فى هذه الآية الوطء . وأنكر ذلك الزجاج وقال : لا يعرف النكاح فى كتاب الله تعالى إلا

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله ذكر أن المسائل إحدى وعشرون مسألة .

بمعنى التزويج . وليس كما قال ؛ وفي القرآن « حتى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ » وقد بيّنه النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه بمعنى الوطء، وقد تقدّم في « البقرة » [١] . وذكر الطبريّ ما يَنْحُو إلى هذا التأويل عن سعيد بن جبير وابن عباس وعكرمة، ولكن غير مخلص ولا مكمل . وحكاه الخطابيّ عن ابن عباس، وأن معناه الوطء؛ أي لا يكون زنًى إلا بزانيـة ، ويفيد أنه زنًى في الجهتين ؛ فهـــذا قول .

الثـانى — ما رواه أبو داود والترمذيّ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن مَرْثد ابن أبي مرثد كان يحمل الأسارى بمكة ، وكان بمكة بَغِيّ يقال لها « عَناق » وكانت صديقته ، قال : فجئت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله ، أنكِح عَناق ؟ قال : فسكت عني ؛ فنزلت « والزَّانِيَةُ لا ينكحها إلا زانٍ أو مُشْرِكٌ » ؛ فدعاني فقرأها عليّ وقال : " لا تنكحها " . لفظ أبي داود، وحديث الترمذي أكمل . قال الخطابيّ : هـذا خاص بهـذه المرأة إذ كانت كافرة ، فأما الزانية المسلمة فإن العقد عليها لا يفسخ .

الثـالث — أنها مخصوصة في رجل من المسلمين أيضا استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في نكاح امرأة يقال لها « أم مهزول » وكانت من بغايا الزانيات ، وشرطت أن تنفق عليه ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ قاله عمرو بن العاصي ومجاهد .

الرابـــع — أنها نزلت في أهل الصُّفّة ، وكانوا قوما من المهاجرين، ولم يكن لهم في المدينة مساكن ولا عشائر فنزلوا صُفّة المسجد ، وكانوا أربعمائة رجل يلتمسون الرزق بالنهار ويأوون إلى الصّفة بالليل ، وكان بالمدينة بغايا متعالنات بالفجور ، مخاصيب بالكِسْوة والطعام ؛ فهمّ أهـل الصفة أن يتزوّجوهنّ فيأووا إلى مساكنهنّ ويأكلوا من طعامهنّ وكسوتهنّ ؛ فنزلت هذه الآية صيانةً لهم عن ذلك ؛ قاله ابن أبي صالح .

الخـامس — ذكره الزجاج وغيره عن الحسن ، وذلك أنه قال : المراد الزاني المحـدودُ والزانيةُ المحدودة ، قال : وهذا حكم من الله ، فلا يجوز لزانٍ محدود أن يتزوّج إلا محدودة .

(١) راجع ج ٣ ص ١٤٦

وقال إبراهيم النَّخَعِيّ نحوه . وفى مصنّف أبى داود عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا ينكح الزانى المحدودُ إلا مثله " . وروى أن محدودا تزوج غير محدودة ففرّق على رضى الله عنه بينهما . قال ابن العربى : وهذا معنًى لا يصح نظرا كما لم يثبت نقلا ، وهل يصح أن يوقف نكاح من حُدّ من الرجال على نكاح من حُدّ من النساء ! فبأىّ أثر يكون ذلك ، وعلى أىّ أصل يقاس من الشريعة !

قلت — وحكى هذا القول الكِيَا عن بعض أصحاب الشافعى المتأخرين ، وأن الزانى إذا تزوج غير زانية فُرّق بينهما لظاهر الآية . قال الكِيَا : وإنْ هو عمل بالظاهر فيلزمه عليه أن يجوز للزانى التزوّج بالمشركة ، ويجوز للزانية أن تزوّج نفسها من مشرك ، وهذا فى غاية البعد ، وهو خروج عن الإسلام بالكلية ، وربما قال هؤلاء : إن الآية منسوخة فى المشرك خاصّةً دون الزانية .

السادس — أنها منسوخة ؛ روى مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيّب قال : « الزانى لا ينكح إلا زانيةً أو مشركةً والزانيةُ لا ينكحها إلا زانٍ أو مشركٌ » قال : نسخت هذه الآية التى بعدها « وأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُم »(١) ؛ وقاله ابن عمرو ، قال : دخلت الزانية فى أيامى المسلمين . قال أبو جعفر النحاس : وهذا القول عليه أكثر العلماء . وأهل الفُتْيا يقولون : إن من زنى بامرأة فله أن يتزوجها ولغيره أن يتزوجها . وهو قول ابن عمر وسالم وجابر ابن زيد وعطاء وطاوس ومالك بن أنس ، وهو قول أبى حنيفة وأصحابه . وقال الشافعىّ : القول فيها كما قال سعيد بن المسيّب ، إن شاء الله هى منسوخة . قال ابن عطية : وذِكْرُ الإشراك فى هذه الآية يضعف هذه المناحى . قال ابن العربىّ : والذى عندى أن النكاح لا يخلو أن يراد به الوطء كما قال ابن عباس أو العقد ؛ فإن أريد به الوطء فإن معناه : لا يكون زنًى إلا بزانية ، وذلك عبارة عن أن الوطأين من الرجل والمرأة زنًى من الجهتين ، ويكون تقدير الآية : وطءُ الزانية لا يقع إلا من زانٍ أو مشرك ؛ وهذا يؤثر عن ابن عباس ، وهو معنى صحيح .

(١) آية ٣٢ من هذه السورة .

فإن قيل : فإذا زنى بالغٌ بصبية ، أو عاقلٌ بمجنونة ، أو مستيقظٌ بنائمة فإن ذلك من جهة الرجل زنًى ؛ فهذا زانٍ نكح غير زانيـة ، فيخرج المراد عن بابه الذى تقدم . قلنا : هو زنًى من كل جهة ، إلا أن أحدهما سقط فيه الحـد والآخر ثبت فيه . وإن أريد به العقـد كان معناه : أن متزوج الزانية التى قد زنت ودخل بها ولم يستبرئها يكون بمنزلة الزانى ، إلا أنه لا حدّ عليه لاختلاف العلماء فى ذلك . وأما إذا عقد عليها ولم يدخل بها حتى يستبرئها فذلك جائز إجماعا. وقيل : ليس المراد فى الآية أن الزانى لا ينكح قطّ إلا زانية ؛ إذ قـد يتصوّر أن يتزوج غير زانيـة ، ولكن المعنى أن من تزوج بزانية فهو زان ؛ فكأنه قال : لا ينكح الزانيةَ إلا زانٍ ؛ فقلّب الكلام ، وذلك أنه لا ينكح الزانية إلا وهو راض بزناها ، وإنما يرضى بذلك إذا كان هو أيضا يزنى .

الثانيـــة — فى هذه الآية دليل على أن التزوج بالزانية صحيح . وإذا زنت زوجة الرجل لم يفسد النكاح ، وإذا زنى الزوج لم يفسد نكاحه مع زوجته ؛ وهذا على أن الآية منسوخة . وقيل إنها محكمة . وسيأتى .

الثالثـــة — روى أن رجلا زنى بامرأة فى زمن أبى بكر رضى الله عنه فجلدهما مائة جلدة ، ثم زوّج أحدهما من الآخر مكانه ، ونفاهما سنة . وروى مثل ذلك عن عمر وابن مسعود وجابر رضى الله عنهم . وقال ابن عباس : أوله سفاح وآخره نكاح . ومَثَلُ ذلك مَثَلُ رجل سَرَق من حائط ثمره ثم أتى صاحبَ البستان فاشترى منه ثمره ؛ فما سَرَق حرام وما اشترى حلال (١) . وبهذا أخذ الشافعىّ وأبو حنيفة ، ورأوا أن الماء لا حرمة له . وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : إذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها بعد ذلك فهما زانيان أبدا . وبهذا أخذ مالك رضى الله عنه ؛ فرأى أنه لا ينكحها حتى يستبرئها من مائه الفاسد ؛ لأن النكاح له حرمة ، ومن حرمته ألا يُصَبّ على ماء السِّفاح ؛ فيختلط الحرام بالحلال ، ويمتزج ماء المهانة بماء العـــزّة .

---

(١) عبارة ابن العربى كما فى أحكامه : « مثل رجل سرق ثمرة ثم اشتراها » .

الرابعــــة ــ قال ابن خُوَيْزِمَنْداد : من كان معروفاً بالزنى أو بغيره من الفسوق مُعْلِنًا به فتزوج إلى أهل بيت ستر وغرّهم من نفسه فلهم الخيار فى البقاء معه أو فراقه؛ وذلك كعَيْب من العيوب ، واحتج بقوله عليه السلام : " لا ينكح الزانى المجلودُ إلا مثله " . قال ابن خُوَيْزِمنداد : وإنما ذكر المجلود لاشتهاره بالفسق ، وهو الذى يجب أن يفرق بينه وبين غيره؛ فأما من لم يشتهر بالفسق فلا .

الخامســــة ــ قال قوم من المتقدمين : الآية محكمة غير منسوخة ، وعند هؤلاء : من زنى فسد النكاح بينه وبين زوجته ، وإذا زنت الزوجة فسد النكاح بينها وبين زوجها . وقال قوم من هؤلاء : لا ينفسخ النكاح بذلك ، ولكن يؤمر الرجل بطلاقها إذا زنت ، ولو أمسكها أثم ، ولا يجوز التزوج بالزانيــة ولا من الزانى ، بل لو ظهرت التوبة فحينئذ يجــوز النكاح .

السادســـة ــ ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى نكاح أولئك البغايا؛ فيزعم بعض أهل التأويل أن نكاح أولئك البغايا حرّمه الله تعالى على أمة محمد عليه السلام ، ومن أشهرهن عَنَاق .

السابعـــة ــ حرم الله تعالى الزنى فى كتابه؛ فحيثما زنى الرجل فعليه الحدّ . وهذا قول مالك والشافعيّ وأبى ثَوْر . وقال أصحاب الرأى فى الرجل المسلم إذا كان فى دار الحرب بأمان وزنى هنالك ثم خرج لم يحدّ . قال ابن المنذر : دار الحرب ودار الإسلام سواء ، ومن زنى فعليــه الحدّ؛ على ظاهر قوله « الزانيةُ والزانى فاجلدوا كلَّ واحد منهما مائةَ جلدة » .

قوله تعــالى : وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

فيه ست وعشرون مسئلة :

الأولى ــ هذه الآية نزلت فى القاذفين . قال سعيد بن جُبير: كان سببها ما قيل فى عائشة، أم المؤمنين رضى الله عنها . وقيل : بل نزلت بسبب القَذَفة عاماً لا فى تلك النازلة . وقال ابن المنذر : لم نجد فى أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرا يدل على تصريح القذف، وظاهر كتاب الله تعالى مستغنًى به ، دالًّا على القذف الذى يوجب الحدّ ، وأهل العلم على ذلك مجمعون .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ ﴾ يريد يسبُّون، وٱستعير له اسم الرَّمْى لأنه اذاية بالقول ؛ كما قال النابغة :

* وجرح اللسان كجرح اليد *

وقال آخر :

رَمَانِى بأمرٍ كنتُ منه ووالدى * بريئا ومن أجْلِ الطَّوِىّ رمانى (١)

ويسمّى قذفا؛ ومنه الحديث : إن ابن أُمَيَّة قذف امرأته بشريك بن السَّحماء ؛ أى رماها .

الثالثــة ــ ذكر الله تعالى فى الآية النساء من حيث هن أهم (٢)، ورميهن بالفاحشة أشنع وأنكى للنفوس . وقَذْفُ الرجال داخل فى حكم الآية بالمعنى، وإجماع الأمة على ذلك . وهذا نحو نصّه على تحريم لحم الخنزير ودخل شحمه وغضاريفه ، ونحو ذلك بالمعنى والإجماع . وحكى الزَّهراوىّ أن المعنى : والأنفس المحصنات ؛ فهى بلفظها تعم الرجال والنساء، ويدل على ذلك قوله : « والْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ » (٣) . وقال قوم : أراد بالمحصنات الفروج؛ كما قال تعالى : « والَّتِى أحْصَنَتْ فَرْجَهَا » (٤) فيدخل فيه فروج الرجال والنساء . وقيل : إنما ذكر المرأة الأجنبية إذا قُذفت ليعطف عليها قذف الرجل زوجته ؛ والله أعلم . وقرأ الجمهور « المحصَنَاتُ » بفتح الصاد، وكَسَرها يحيى بن وَثّاب . والمحصَنات العفائف فى هذا الموضع . وقد مضى فى « النساء » ذكر الإحصان (٥) ومراتبه . والحمد لله .

---

(١) البيت لابن أحمر . والطوى : البئر . (٢) فى الأصول : « من حيث هو أهم » . وعبارة البحر المحيط لأبى حيان أبين ، وهى : « وخص النساء بذلك وإن كان الرجال يشركونهن فى الحكم لأن القذف فيهن أشنع وأنكر للنفوس ، ومن حيث هن هوى الرجال » الخ . (٣) آية ٢٤ سورة النساء .
(٤) آية ٩١ سورة الأنبياء . (٥) راجع ج ٥ ص ١٢٩ وما بعدها .

الرابعة — للقذف شروط عند العلماء تسعة : شرطان فى القاذف، وهما العقل والبلوغ ؛ لأنهما أصلا التكليف، إذ التكليف ساقط دونهما . وشرطان فى الشيء المقذوف به، وهو أن يقذف بوطء يلزمه فيه الحد، وهو الزنى واللواط ؛ أو بنفيه من أبيه دون سائر المعاصى . وخمسة فى المقذوف، وهى العقل والبلوغ والإسلام والحرية والعفة عن الفاحشة التى رُمِى بها كان عفيفا من غيرها أم لا . وإنما شرطنا فى المقذوف العقل والبلوغ كما شرطناهما فى القاذف وإن لم يكونا من معانى الإحصان لأجل أن الحدّ إنما وضع للزجر عن الإذاية بالمضرة الداخلة على المقذوف، ولا مضرّة على من عدم العقل والبلوغ ؛ إذ لا يوصف اللواط فيهما ولا منهما بأنه زنى .

الخامسة — اتفق العلماء على أنه إذا صرح بالزنى كان قذفا ورَمْيًا موجبا للحد ، فإن عرّض ولم يُصرّح فقال مالك : هو قذف . وقال الشافعيّ وأبو حنيفة : لا يكون قذفا حتى يقول أردت به القذف . والدليل لما قاله مالك هو أن موضوع الحدّ فى القذف إنما هو لإزالة المعرّة التى أوقعها القاذف بالمقذوف ، فإذا حصلت المعرّة بالتعريض وجب أن يكون قذفا كالتصريح والمعوّل على الفهم ؛ وقد قال تعالى مخبرا عن شعيب : « إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ » أى السفيه الضال ؛ فعرّضوا له بالسب بكلام ظاهره المدح فى أحد التأويلات؛ حسبما تقدم فى هود[(1)] . وقال تعالى فى أبى جهل : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ »[(2)] . وقال حكاية عن مريم : « يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا »[(3)] ؛ فمدحوا أباها ونفَوْا عن أمها البغاء ، أى الزنى . وعرّضوا لمريم بذلك ؛ ولذلك قال تعالى : « وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا »[(4)] ، وكفرهم معروف ، والبهتان العظيم هو التعريض لها ؛ أى ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ، أى أنت بخلافهما وقد أتيت بهذا الولد . وقال تعالى : « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »[(5)] ؛ فهذا اللفظ قد فُهم منه أن المراد به أن الكفار على غير هدى، وأن الله تعالى ورسوله على الهُدى ؛ ففُهم من هذا التعريض ما يفهم من صريحه . وقد حبس عمر رضى الله عنه الحُطيئة لما قال :

(١) راجع جـ ٩ ص ٨٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٤٩ سورة الدخان .
(٣) آية ٢٨ سورة مريم . (٤) آية ١٥٦ سورة النساء . (٥) آية ٢٤ سورة سبأ .

دَعِ المَكارمَ لا ترحــل لبُغْيتها * واقعد فإنك أنت الطّاعِمُ الكاسِى

لأنه شبهه بالنساء فى أنهن يُطْعَمْن ويُسقين ويُكسون . ولما سمع قول النجاشىّ :

قبيلتــه لا يغدرون بذمة * ولا يظلمون الناس حبّة خردل

قال : ليت الخطّاب كذلك ؛ وإنمـا أراد الشاعر ضعف القبيلة ؛ ومثله كثير .

السادســة ـــ الجمهور من العلماء على أنه لا حدّ على من قذف رجلا من أهل الكتاب أو امرأة منهم . وقال الزهرىّ وسعيد بن المسيّب وابن أبى ليلى : عليه الحدّ إذا كان لها ولد من مسلم . وفيـه قول ثالث ـــ وهو أنه إذا قذف النصرانية تحت المسلم جُلِد الحدّ . قال ابن المنــذر : وجُلّ العلماء مجمعون وقائلون بالقول الأوّل ، ولم أدرك أحدا ولا لقيته يخالف فى ذلك . وإذا قذف النصرانىّ المسلمَ الحرّ فعليــه ما على المسلم ثمـانون جلدة ؛ لا أعلم فى ذلك خلافا .

السابعــة ـــ والجمهور من العلماء على أن العبد إذا قذف حُرًّا يجلد أربعين ؛ لأنه حدّ يتشطّر بالرق كحدّ الزنى . وروى عن ابن مسعود وعمر بن عبد العزيز وقبيصة بن ذؤيب يجلد ثمانين . وجلد أبو بكر بن محمد عبدا قذف حرا ثمـانين ؛ وبه قال الأوزاعىّ . احتج الجمهور بقول الله تعـالى : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَـةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ »(1) . وقال الآخرون : فهمنا هناك أن حدّ الزنى لله تعالى ، وأنه ربمـا كان أخفّ فيمن قلّت نعم الله عليـه ، وأفحش فيمن عظمت نعم الله عليه . وأما حدّ القذف فحق للآدمىّ وجب للجناية على عرض المقذوف ، والجنـاية لا تختلف بالرقّ والحرية . وربمـا قالوا : لو كان يختلف لذُكر كما ذُكر فى الزنى . قال ابن المنذر : والذى عليه علماء الأمصار القولُ الأوّل ، وبه أقول .

الثامنــة ـــ وأجمع العلماء على أن الحرّ لا يجلد للعبد إذا افترى عليه ؛ لتباين مرتبتهما ، ولقوله عليه السـلام : " من قذف مملوكه بالزنى أقيم عليــه الحدّ يوم القيامة إلا أن يكون كما قال " خرّجه البخارىّ ومسلم . وفى بعض طرقه : " من قذف عبده بزنًى ثم لم يُثبت أقيم

(1) آية ٢٥ سورة النساء .

عليه يوم القيامة الحدّ ثمانون" ذكره الدّارَقُطْنِيّ . قال العلماء : وإنما كان ذلك فى الآخرة لارتفاع المِلْك واستواء الشريف والوضيع والحرّ والعبد، ولم يكن لأحد فضل إلا بالتقوى ؛ ولما كان ذلك تكافأ الناس فى الحدود والحرمة ، واقْتُصّ من كل واحد لصاحبه إلا أن يعفو المظلوم عن الظالم . وإنما لم يتكافئوا فى الدنيا لئلا تدخل الداخلة على المالكين فى مكافأتهم لهم، فلا تصح لهم حرمة ولا فضل فى منزلة، وتبطل فائدة التسخير؛ حكمةٌ من الحكيم العليم، لا إله إلا هو .

التاسعة — قال مالك والشافعيّ : من قذف من يحسبه عبدا فإذا هو حر فعليه الحدّ ؛ وقاله الحسن البصريّ واختاره ابن المنذر . قال مالك : ومن قذف أم الولد حُدّ، وروى عن ابن عمر، وهو قياس قول الشافعيّ . وقال الحسن البصريّ : لا حدّ عليه .

العاشرة — واختلف العلماء فيمن قال لرجل : يا من وطئ بين الفخذين ؛ فقال ابن القاسم : عليه الحدّ؛ لأنه تعريض . وقال أشهب : لا حدّ فيه؛ لأنه نسبة إلى فعل لا يعدّ زنًى إجماعا .

الحادية عشرة — إذا رمى صبية يمكن وطؤها قبل البلوغ بالزنى كان قذفا عند مالك . وقال أبو حنيفة والشافعيّ وأبو ثور : ليس بقذف ؛ لأنه ليس بزنًى إذ لا حدّ عليها، ويعزّر . قال ابن العربيّ : والمسألة محتملة مشكلة، لكن مالك طلب(١) حماية عرض المقذوف ، وغيره راعى حماية ظهر القاذف ؛ وحمايةُ عرض المقذوف أولى ؛ لأن القاذف كشف ستره بطَرَف لسانه فلزمه الحدّ . قال ابن المنذر : وقال أحمد فى الجارية بنت تسع : يجلد قاذفها ، وكذلك الصبيّ إذا بلغ عشرا ضُرِب قاذفه . قال إسحاق : إذا قذف غلاما يطأ مثلُه فعليه الحدّ، والجارية إذا جاوزت تسعا مثل ذلك . قال ابن المنذر : لا يحدّ من قذف من لم يبلغ؛ لأن ذلك كذب، ويعزّر على الأذى . قال أبو عبيد : فى حديث عليّ رضى الله عنه أن آمرأة جاءته فذكرت أن زوجها يأتى جاريتها فقال : إن كنتِ صادقةً رجمناه وإن كنت كاذبة

(١) فى ابن العربى : «غلب» .

جلدناك . فقالت : رُدُّونى إلى أهلى غَيْرَى نَغِرَة[1] . قال أبو عبيد : فى هـذا الحديث من الفقه أن على الرجل إذا واقع جارية امرأته الحدّ .

وفيه أيضا إذا قذفه بذلك قاذف كان على قاذفه الحد ؛ ألا تسمع قوله : « وإن كنتِ كاذبة جلدناك » . ووجه هذا كله إذا لم يكن الفاعل جاهلا بما يأتى وبما يقول ، فإن كان جاهلا وادّعى شُبهة دُرِئ عنه الحدّ فى ذلك كله .

وفيه أيضا أن رجلا لو قذف رجلا بحضرة حاكم وليس المقذوف بحاضر أنه لا شىء على القاذف حتى يجىء فيطلب حدّه ؛ لأنه لا يدرى لعله يصدّقه ؛ ألا ترى أن عليًّا عليه السلام لم يعرض لها .

وفيه أن الحاكم إذا قُذف عنده رجل ثم جاء المقذوف فطلب حقه أخذه الحاكم بالحد بسماعه ؛ ألا تراه يقول : وإن كنتِ كاذبة جلدناك ؛ وهذا لأنه من حقوق الناس .

قلت : اختلف هل هو من حقوق الله أو من حقوق الآدميين ؛ وسيأتى . قال أبو عبيد : قال الأصمعى سألنى شعبة عن قوله «غَيْرَى نَغِرة» ؛ فقلت له : هو مأخوذ من نَغَر القِدْر ، وهو غليانها وفُوُرها ؛ يقال منه : نَغِرت تَنْغَر ، ونَغَرت تَنْغِر إذا غلت . فمعناه أنها أرادت أن جوفها يَغْلِى من الغيظ والغَيْرة لمّا لم تجد عنده ما تريد . قال : ويقال منه رأيت فلانا يتنغّر على فلان ؛ أى يغلى جوفه عليه غيظا .

الثانية عشرة ـ من قذف زوجة من أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم حُدّ حدّين ؛ قاله مسروق . قال ابن العربىّ : والصحيح أنه حدّ واحد ، لعموم قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ » الآية ، ولا يقتضى شرفُهن زيادة فى حدّ من قذفهن ؛ لأن شرف المنزلة لا يؤثّر فى الحدود ، ولا نقصها يؤثّر فى الحدّ بتنقيص . والله أعلم . وسيأتى الكلام فيمن قذف عائشة رضى الله عنها ، هل يقتل أم لا ؟

الثالثة عشرة ـ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ الذى يفتقر إلى أربعة شهداء دون سائر الحقوق هو الزنى ؛ رحمةً بعباده وسترا لهم . وقد تقدّم فى سورة النساء[2] .

(١) سيأتى الكلام على هذه الكلمة بعد قليل . (٢) راجع جـ ٥ ص ٨٢ طبعة أولى أو ثانية .

الرابعة عشرة — من شرط أداء الشهود الشهادة عند مالك رحمه الله أن يكون ذلك في مجلس واحد؛ فإن افترقت لم تكن شهادة . وقال عبد الملك : تقبل شهادتهم مجتمعين ومفترقين . فرأى مالك أن اجتماعهم تعبد؛ وبه قال ابن الحسن . ورأى عبد الملك أن المقصود أداء الشهادة واجتماعها وقد حصل؛ وهو قول عثمان البتّي وأبي ثور واختاره ابن المنذر لقوله تعالى : « ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ » وقوله : « فَإِنْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ » ولم يذكر مفترقين ولا مجتمعين .

الخامسة عشرة — فإن تمت الشهادة إلا أنهم لم يُعدَّلوا؛ فكان الحسن البصري والشعبي يريان أن لا حد على الشهود ولا على المشهود؛ وبه قال أحمد والنعمان ومحمد بن الحسن . وقال مالك : إذا شهد عليه أربعة بالزنى فإن كان أحدهم مسخوطا عليه أو عبدا يجلدون جميعا . وقال سفيان الثوري وأحمد وإسحاق في أربعة عميان يشهدون على امرأة بالزنى : يضربون .

السادسة عشرة — فإن رجع أحد الشهود وقد رُجم المشهود عليه في الزنى؛ فقالت طائفة : يَغْرَم ربع الدية ولا شيء على الآخرين . وكذلك قال قتادة وحماد وعكرمة وأبو هاشم ومالك وأحمد وأصحاب الرأي . وقال الشافعي : إن قال عمدت ليقتل؛ فالأولياء بالخيار إن شاءوا قتلوا وإن شاءوا عفوا وأخذوا ربع الدية، وعليه الحد . وقال الحسن البصري : يقتل، وعلى الآخرين ثلاثة أرباع الدية . وقال ابن سيرين : إذا قال أخطأت وأردت غيره فعليه الدية كاملة، وإن قال تعمدت قتل؛ وبه قال ابن شُبْرُمَة .

السابعة عشرة — واختلف العلماء في حد القذف هل هو من حقوق الله أو من حقوق الآدميين أو فيه شائبة منهما؛ الأول — قول أبي حنيفة . والثاني — قول مالك والشافعي . والثالث — قاله بعض المتأخرين . وفائدة الخلاف أنه إن كان حقا لله تعالى وبلغ الإمام أقامه وإن لم يطلب ذلك المقذوفُ، ونفعت القاذف التوبةُ فيما بينه وبين الله تعالى، ويتشطر فيه الحد بالرق كالزنى . وإن كان حقا للآدمي فلا يقيمه الإمام إلا بمطالبة المقذوف، ويسقط بعفوه، ولم تنفع القاذفَ التوبةُ حتى يحالله المقذوف .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ قراءة الجمهور على إضافة الأربعة إلى الشهداء . وقرأ عبد الله بن مسلم بن يسار وأبو زُرعة بن عمرو بن جرير «بأربعةٍ» (بالتنوين) «شُهَدَاءَ» . وفيه أربعة أوجه : يكون فى موضع جر على النعت لأربعة ، أو بدلا . ويجوز أن يكون حالا من نكرة أو تمييزا ؛ وفى الحال والتمييز نظر ؛ إذ الحال من نكرة ، والتمييز مجموع . وسيبويه يرى أنه تنوين العدد ، وتركُ إضافته إنما يجوز فى الشعر . وقد حسّن أبو الفتح عثمان ابن جنّى هذه القراءة وحبب(1) على قراءة الجمهور . قال النحاس : ويجوز أن يكون « شهداء » فى موضع نصب ؛ بمعنى ثم لم يحضروا أربعة شهداء .

التاسعة عشرة — حكم شهادة الأربعة أن تكون على معاينة يرَوْن ذلك كالمِرْوَد فى المُكْحُلة ؛ على ما تقدّم فى « النساء »(2) فى نص الحديث . وأن تكون فى موطن واحد ؛ على قول مالك . وإن آضطرب واحد منهم جُلد الثلاثة ؛ كما فعل عمر فى أمر المغيرة بن شعبة ؛ وذلك أنه شهد عليه بالزنى أبو بكرة نُفيع بن الحارث وأخوه نافع ؛ وقال الزهراوى : عبد الله بن الحارث ، وزياد أخوهما لأم وهو مستلحق معاوية ، وشبل بن معبد البَجَلى ، فلما جاءوا لأداء الشهادة وتوقف زياد ولم يؤدها ، جلد عمر الثلاثة المذكورين .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ فَٱجْلِدُوهُمْ ﴾ الجلد الضرب . والمجالدة المضاربة فى الجلود أو بالجلود ؛ ثم استعير الجلد لغير ذلك من سيف أو غيره ، ومنه قول قيس بن الخَطِيم :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا * كأن يَدى بالسيف مِخْراق لاعب

﴿ ثَمَانِينَ ﴾ نصب على المصدر . ﴿ جَلْدَةً ﴾ تمييز . ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴾ هذا يقتضى مدة أعمارهم ، ثم حكم عليهم بأنهم فاسقون ؛ أى خارجون عن طاعة الله عز وجل .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ فى موضع نصب على الاستثناء . ويجوز أن يكون فى موضع خفض على البدل . والمعنى ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا إلا الذين تابوا وأصلحوا من بعد القذف ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . فتضمنت الآية ثلاثة أحكام فى القاذف :

(1) وردت هذه الكلمة مضطربة فى نسخ الأصل ؛ ففى نسخة « بخبث » وفى أخرى « و ر ب ت » وفى رابعة « وجبيت » . (2) راجع ج ٥ ص ٨٣

جلده، وردّ شهادته أبدا ، وفسقه . فالاستثناء غير عامل فى جلده بإجماع ؛ إلا ما روى عن الشَّعْبيّ على ما يأتى . وعاملٌ فى فسقه بإجماع . واختلف الناس فى عمله فى ردّ الشهادة ؛ فقال شُريح القاضى وإبراهيم النَّخَعِيّ والحسن البصريّ وسفيان الثَّوْريّ وأبو حنيفة : لا يعمل الاستثناء فى ردّ شهادته ، وإنما يزول فسقه عند الله تعالى . وأما شهادة القاذف فلا تقبل ألبتة ولو تاب وأكذب نفسه ولا بحال من الأحوال . وقال الجمهور : الاستثناء عامل فى رد الشهادة ، فإذا تاب القاذف قُبلت شهادته ؛ وإنما كان ردها لعلة الفسق فإذا زال بالتوبة قبلت شهادته مطلقا قبل الحدّ وبعده ؛ وهو قول عامة الفقهاء . ثم اختلفوا فى صورة توبته ؛ فمذهب عمر بن الخطاب رضى الله عنه والشّعبيّ وغيره، أن توبته لا تكون إلا بأن يكذب نفسه فى ذلك القذف الذى حُدّ فيه . وهكذا فعل عمر؛ فإنه قال للذين شهدوا على المغيرة: من أكذب نفسه أَجَزْت شهادته فيما استقبل؛ ومن لم يفعل لم أجز شهادته؛ فأكذب الشِّبل بن معبد ونافع بن الحارث بن كَلَدة أنفسهما وتابا، وأبى أبو بكرة أن يفعل؛ فكان لا يقبل شهادته . وحكى هذا القول النحاس عن أهل المدينة . وقالت فرقة — منها مالك رحمه الله تعالى وغيره — : توبته أن يَصْلُح ويَحْسُن حاله وإن لم يرجع عن قوله بتكذيب ؛ وحسبه الندم على قذفه والاستغفارُ منه وترك العود إلى مثله ؛ وهو قول ابن جرير . ويروى عن الشّعبيّ أنه قال : الاستثناء من الأحكام الثلاثة، إذا تاب وظهرت توبته لم يُحدّ وقبلت شهادته وزال عنه التفسيق؛ لأنه قد صار ممن يُرْضَى من الشهداء؛ وقد قال الله عزّ وجل : « وإنى لَغَفّارٌ لمن تاب »[1] الآية .

الثانية والعشرون — اختلف علماؤنا رحمهم الله تعالى متى تسقط شهادة القاذف ؛ فقال ابن الماجِشُون : بنفس قذفه . وقال ابن القاسم وأشهب وسُحْنون : لا تسقط حتى يجلد، فإن مَنع من جلده مانعُ عفوٍ أو غيره لم تردّ شهادته . وقال الشيخ أبو الحسن اللَّخْميّ : شهادته فى مدة الأجل موقوفة؛ ورجّح القول بأن التوبة إنما تكون بالتكذيب فى القذف، وإلا فأيّ رجوع لعَدْل إن قذف وحُدّ وبقى على عدالته .

(١) آية ٨٢ سورة طـه .

الثالثة والعشرون — واختلفوا أيضا على القول بجواز شهادته بعد التوبة في أي شيء تجوز؛ فقال مالك رحمه الله تعالى: تجوز في كل شيء مطلقا؛ وكذلك كل من حُدّ في شيء من الأشياء؛ رواه نافع وابن عبد الحكم عن مالك، وهو قول ابن كنانة. وذكر الوَقَار[(1)] عن مالك أنه لا تقبل شهادته فيما حُدّ فيه خاصة، وتقبل فيما سوى ذلك؛ وهو قول مُطَرِّف وابنِ الماجِشُون. وروى العُتْبِيّ عن أَصْبَغ وسُحْنون مثله. قال سُحْنون: من حُدّ في شيء من الأشياء فلا تجوز شهادته في مثل ما حدّ فيه. وقال مُطَرِّف وابن الماجشون: من حدّ في قذف أو زنًى فلا تجوز شهادته في شيء من وجوه الزنى، ولا في قذف ولا لعان وإن كان عدلا؛ ورو ياه عن مالك. واتفقوا على ولد الزنى أن شهادته لا تجوز في الزنى.

الرابعة والعشرون — الاستثناء إذا تعقّب جُمَلا معطوفة عاد إلى جميعها عند مالك والشافعيّ وأصحابهما. وعند أبي حنيفة وجُلّ أصحابه يرجع الاستثناء إلى أقرب مذكور وهو الفسق؛ ولهذا لا تقبل شهادته؛ فإن الاستثناء راجع إلى الفسق خاصة لا إلى قبول الشهادة.

وسبب الخلاف في هذا الأصل سببان: أحدهما — هل هذه الجمل في حكم الجملة الواحدة للعطف الذي فيها، أو لكل جملة حكمُ نفسِها في الاستقلال وحرفُ العطف محسِّن لا مُشْرِك؛ وهو الصحيح في عطف الجمل؛ لجواز عطف الجمل المختلفة بعضها على بعض، على ما يعرف من النحو.

السبب الثاني — يشبه الاستثناء بالشرط في عوده إلى الجمل المتقدمة؛ فإنه يعود إلى جميعها عند الفقهاء، أولا يُشَبَّه به؛ لأنه من باب القياس في اللغة وهو فاسد على ما يعرف في أصول الفقه. والأصل أن كل ذلك محتمل ولا ترجيح، فتعيّن ما قاله القاضي من الوقف. ويتأيّد الإشكال بأنه قد جاء في كتاب الله عز وجل كلا الأمرين؛ فإن آية المحاربة فيها عود الضمير إلى الجميع باتفاق، وآية قتل المؤمن خطأ فيها ردّ الاستثناء إلى الأخيرة باتفاق، وآية القذف محتملة للوجهين، فتعيّن الوقف من غير مَيْن. قال علماؤنا: وهذا نظر

(1) الوقار (كسحاب): لقب زكريا بن يحيى الفقيه المصري.

كلى أصولى . ويترجح قول مالك والشافعي رحمهما الله من جهة نظر الفقه الجزئى بأن يقال : الاستثناء راجع إلى الفسق والنهى عن قبول الشهادة جميعا[1] إلا أن يفرق بين ذلك بخبر يجب التسليم له . وأجمعت الأمة على أن التوبة تمحو الكفر ، فيجب أن يكون ما دون ذلك أولى ؛ والله أعلم . قال أبو عبيد : الاستثناء يرجع إلى الجمل السابقة ؛ قال : وليس من نسب إلى الزنى بأعظم جرما من مرتكب الزنى ، ثم الزانى إذا تاب قبلت شهادته ؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ؛ وإذا قبل الله التوبة من العبد كان العباد بالقبول أولى ؛ مع أن مثل هذا الاستثناء موجود في مواضع من القرآن ؛ منها قوله تعالى : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله — إلى قوله — إلا الذين تابوا »[2] . ولا شك أن هذا الاستثناء إلى الجميع ؛ وقال الزجاج : وليس القاذف بأشد جرما من الكافر ، فحقه إذا تاب وأصلح أن تقبل شهادته . قال : وقوله « أبدا » أى ما دام قاذفا ؛ كما يقال : لا تقبل شهادة الكافر أبدا ؛ فإن معناه ما دام كافرا . وقال الشعبي للمخالف في هذه المسألة : يقبل الله توبته ولا تقبلون شهادته ! ثم إن كان الاستثناء يرجع إلى الجملة الأخيرة عند أقوام من الأصوليين فقوله : « وأولئك هم الفاسقون » تعليل لا جملة مستقلة بنفسها ؛ أى لا تقبلوا شهادتهم لفسقهم ، فإذا زال الفسق فلم لا تقبل شهادتهم . ثم توبة القاذف إكذابه نفسه ، كما قال عمر لقذفة المغيرة بحضرة الصحابة من غير نكير ، مع إشاعة القضية وشهرتها من البصرة إلى الحجاز وغير ذلك من الأقطار . ولو كان تأويل الآية ما تأوله الكوفيون لم يجز أن يذهب علم ذلك عن الصحابة ، ولقالوا لعمر : لا يجوز قبول توبة القاذف أبدا ، ولم يسعهم السكوت عن القضاء بتحريف تأويل الكتاب ؛ فسقط قولهم ، والله المستعان .

الخامسة والعشرون — قال القشيري : ولا خلاف أنه إذا لم يجلد القاذف بأن مات المقذوف قبل أن يطالب القاذف بالحد ، أو لم يرفع إلى السلطان ، أو عفا المقذوف ، فالشهادة مقبولة ؛ لأن عند الخصم في المسألة النهى عن قبول الشهادة معطوف على الجلد ؛ قال الله تعالى :

---

(١) عبارة الأصل : « الاستثناء راجع الى الفسق والتوبة جميعا ... » . والتصويب عن كتب الفقه .
(٢) آية ٣٣ سورة المائدة .

« فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا » . وعند هذا قال الشافعى : هو قبل أن يحد شر منه حين حد ، لأن الحدود كفارات فكيف ترد شهادته فى أحسن حاليه دون أخسهما .

قلت : هكذا قال ولا خلاف . وقد تقدم عن ابن الماجشون أنه بنفس القذف ترد شهادته . وهو قول الليث والأوزاعى والشافعى : ترد شهادته وإن لم يحد ؛ لأنه بالقذف يفسق ، لأنه من الكبائر فلا تقبل شهادته حتى تصح براءته بإقرار المقذوف له بالزنى أو بقيام البينة عليه .

السادسة والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ يريد إظهار التوبة . وقيل : وأصلحوا العمل . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث تابوا وقبل توبتهم .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)

فيه ثلاثون مسئلة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ ﴾ « أنفسهم » بالرفع على البدل . ويجوز النصب على الاستثناء ، وعلى خبر « يكن » . ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ ﴾ بالرفع قراءة الكوفيين على الابتداء والخبر ؛ أى فشهادة أحدهم التى تزيل عنه حد القذف أربع شهادات . وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو « أربعَ » بالنصب ؛ لأن معنى « فشهادةُ » أن يشهد ؛ والتقدير : فعليهم أن يشهد أحدهم أربعَ شهادات ، أو فالأمر أن يشهد أحدهم أربع شهادات ؛ ولا خلاف فى الثانى أنه منصوب بالشهادة . ﴿ وَالْخَامِسَةُ ﴾ رفع بالابتداء .

والخبر « أنّ » وصلتها ؛ ومعنى المخففة كمعنى المثقلة لأن معناها أنه . وقرأ أبو عبد الرحمن وطلحة وعاصم فى رواية حفص «والخامسةَ» بالنصب، بمعنى وتشهد الشهادة الخامسة . الباقون بالرفع على الابتداء، والخبر فى « أنّ لعنةَ اللهِ عليه » ؛ أى والشهادة الخامسة قوله لعنة الله عليه .

الثانيــة — فى سبب نزولهـا ، وهو ما رواه أبو داود عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبيّ صلى الله عليه وسلم بشَريك بن سَحْماء؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "البيّنةَ أو حدٌّ فى ظهرك" قال : يارسول الله ، إذا رأى أحدنا رجلا على امرأته يلتمس البينة ! فجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " البينةَ و إلا حَدٌّ فى ظهرك " فقال هلال : والذى بعثك بالحق إنى لصادق، ولَيُنْزِلَنّ الله فى أمرى ما يبرئ ظهرى من الحدّ ؛ فنزلت « والذين يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ » فقرأ حتى بلغ « مِنَ الصادِقِينَ » الحديث بكماله . وقيل : لمـا نزلت الآية المتقدمة فى الذين يرمون المحصنات وتناول ظاهرها الأزواجَ وغيرَهم قال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، إن وجدت مع امرأتى رجلا أمهله حتى آتى بأربعة ! والله لأضربنّه بالسيف غيرَ مُصْفَحٍ عنه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أتعجبون من غَيْرة سعدٍ لأنا أغيرُ منه واللهُ أغيرُ منى" . وفى ألفاظ سعد روايات مختلفة ، هذا نحو معناها . ثم جاء من بعد ذلك هلال بن أمية الواقفى فرمى زوجته بشَريك بن سَحْماء البَلَوِى على ما ذكرنا ، وعزم النبيّ صلى الله عليه وسلم على ضربه حدّ القذف؛ فنزلت هذه الآية عند ذلك ، فجمعهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد وتلاعنا ، فتلكّأت المرأة عند الخامسة لمـا وُعظت وقيل إنها موجبة[(١)]؛ ثم قالت : لا أفضح قومى سائرَ اليوم[(٢)]؛ فالْتَعَنَتْ ، وفرّق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما ، وولدت غلاما كأنه جَمَلٌ أَوْرَق[(٣)] — على النعت المكروه — ثم كان الغلام بعد ذلك أميرا بمصر ، وهو لا يعرف لنفسه أبًا . وجاء أيضا عُوَيمر العَجْلانىّ فرمى امرأته ولاعن . والمشهور أن نازلة هلال كانت قبلُ ، وأنها سبب الآية . وقيل : نازلة عُويمر بن أشقر كانت قبلُ ؛ وهو حديث صحيح مشهور خرّجه الأئمة .

(١) أى الشهادة الخامسة موجبة للعذاب الأليم ان كانت كاذبة . (٢) أريد باليوم الجنس ؛ أى جميع الأيام . (٣) الأورق من الإبل : الذى فى لونه بياض الى سواد .

قال أبو عبد الله بن أبي صُفْرة : الصحيح أن القاذف لزوجه عُويمر ، وهلال بن أمية خطأ .
قال الطبري : يستنكر قوله في الحديث هلال بن أمية : وإنما القاذف عويمر بن زيد بن الجد ابن العَجْلاني ، شهد أُحُدًا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، رماها بشَريك بن السَّحْماء ، والسَّحماء أمه ؛ قيل لها ذلك لسوادها ، وهو ابن عبدة بن الجد بن العَجْلاني ؛ كذلك كان يقول أهل الأخبار . وقيل : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم على الناس في الخطبة يوم الجمعة « والذين يَرْمُون المحصنات » فقال عاصم بن عَدِيّ الأنصاري : جعلني الله فداك ! لو أن رجلا منّا وجد على بطن آمرأته رجلا ؛ فتكلم فأخبر بما جرى جلد ثمانين ، وسماه المسلمون فاسقا فلا تقبل شهادته ؛ فكيف لأحدنا عند ذلك بأربعة شهداء ، وإلى أن يلتمس أربعة شهود فقد فرغ الرجل من حاجته ! فقال عليه السلام : "كذلك أُنزلت يا عاصم بن عَدِيّ" . فخرج عاصم سامعا مطيعا ؛ فاستقبله هلال بن أمية يسترجع ؛ فقال : ما وراءك ؟ فقال : شر ! وجدت شريك بن السحماء على بطن امرأتي خَولة يزني بها ؛ وخولة هذه بنت عاصم بن عدي ، كذا في هذا الطريق أن الذي وجد مع امرأته شريكا هو هلال بن أمية ، والصحيح خلافه حسبما تقدم بيانه .
قال الكلبي : والأظهر أن الذي وجد مع امرأته شريكا عُوَيمر العَجْلاني ؛ لكثرة ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لاعن بين العَجْلاني وامرأته . واتفقوا على أن هذا الزاني هو شريك ابن عبدة وأمه السحماء ، وكان عُويمر وخولةُ بنت قيس وشَريك بني عم عاصم ، وكانت هذه القصة في شعبان سنة تسع من الهجرة ، منصرَف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تَبُوك إلى المدينة ؛ قاله الطبري . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن عبد الله بن جعفر قال : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين لاعن بين عويمر العجلاني وامرأته ، مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غَزْوة تَبُوك ، وأنكر حملها الذي في بطنها وقال هو لابن السَّحْماء ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هات آمرأتك فقد نزل القرآن فيكما" ؛ فلاعن بينهما بعد العصر عند المنبر على خَمْل [1] . في طريقه الواقدي عن الضحاك بن عثمان عن عمران بن أبي أنس قال : سمعت عبد الله بن جعفر يقول ... فذكره .

(١) الخمل : هُدب القطيفة ونحوها مما ينسج وتفضل له فضول كخمل الطنفسة .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ عام فى كل رمى ، سواء قال : زنيت أو يازانية أو رأيتها تزنى ، أو هـذا الولد ليس منى ؛ فإن الآية مشتملة عليه . ويجب اللعان إن لم يأت بأربعة شهداء ؛ وهـذا قول جمهور العلماء وعامة الفقهاء وجماعة أهل الحديث . وقد روى عن مالك مثل ذلك . وكان مالك يقول : لا يلاعن إلا أن يقول : رأيتك تزنى ؛ أو ينفى حملا أو ولدا منها . وقول أبى الزناد ويحيى بن سعيد والبتى مثل قول مالك : إن الملاعنة لا تجب بالقذف ، وإنما تجب بالرؤية أو نفى الحمل مع دعوى الاستبراء ؛ هذا هو المشهور عنـد مالك ، وقاله ابن القاسم . والصحيح الأول لعموم قوله : « والذين يرمون أزواجهم » . قال ابن العربى : وظاهر القرآن يكفى لإيجاب اللعان بمجرد القذف من غير رؤية ؛ فلتعوّلوا عليه ، لا سيما وفى الحـديث الصحيح : أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " فاذهب فأت بها " ولم يكلفه ذكر الرؤية . وأجمعوا أن الأعمى يلاعن إذا قذف امرأته . ولو كانت الرؤية من شرط اللعان ما لاعن الأعمى ؛ قاله ابن عمر رضى الله عنهما . وقد ذكر ابن القصّار عن مالك أن لعـان الأعمى لا يصح إلا أن يقول : لمست فرجه فى فرجها . والحجة لمـالك ومن اتبعه ما رواه أبو داود عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء هـلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ، فجاء من أرضه عشاء فوجد عنـد أهله رجلا ، فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يَهِجْه حتى أصبح ، ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، إنى جئت أهلى عشاء فوجدت عندهم رجلا ، فرأيت بعينى وسمعت بأذنى ؛ فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء به واشتد عليه ؛ فنزلت « والذين يَرْمُونَ أزواجهم ولم يكن لهم شُهَدَاءُ إلا أَنْفُسُهُمْ » الآية ؛ وذكر الحـديث . وهو نص على أن الملاعنة التى قضى فيها رسول الله صلى الله عليه وسـلم إنما كانت فى الرؤية ، فلا يجب أن يُتعدّى ذلك . ومن قذف امرأته ولم يذكر رؤية حدّ ؛ لعموم قوله تعالى : « والذين يَرْمُون المُحْصَنات » .

الرابعــــة ــ إذا نفى الحمــل فإنه يلتعن ؛ لأنه أقوى من الرؤية ولا بدّ من ذكر عــدم الوطء والاستبراء بعده . واختلف علماؤنا في الاستبراء؛ فقال المغيرة ومالك في أحد قوليهما: يجزى في ذلك حَيْضة . وقال مالك أيضا : لا ينفيه إلا بثلاث حِيَض . والصحيح الأول؛ لأن براءة الرحم من الشُّغل يقع بها كما في استبراء الأَمَة ، وإنما راعَيْنا الثلاث حِيَض في العدد لحكم آخر يأتي بيانه في الطلاق إن شاء الله تعــالى . وحكى اللَّخْمِيّ عن مالك أنه قال مرة : لا يُنْفَى الولد بالاستبراء؛ لأن الحيض يأتي على الحمل . وبه قال أشهب في كتاب ابن المَوّاز؛ وقاله المغيرة . وقال : لا يُنْفَى الولد إلا بخمس سنين لأنه أكثر مدة الحمل على ما تقدّم .

الخامســــة ــ اللعان عندنا يكون في كل زوجين حرّين كانا أو عبدين، مؤمنَيْن أو كافرين، فاسقين أو عَدْلَين . وبه قال الشافعيّ . ولا لعان بين الرجل وأَمَته، ولا بينه وبين أم ولده . وقيل : لا ينتفي ولد الأمة عنه إلا بيمين واحدة ؛ بخــلاف اللعان . وقد قيل : إنه إذا نفى ولد أم الولد لاعن . والأول تحصيل مذهب مالك ، وهــو الصواب . وقال أبو حنيفة : لا يصح اللعان إلا من زوجين حُرّين مسلمين ؛ وذلك لأن اللعان عنده شهادة، وعندنا وعند الشافعيّ يمين، فكلّ من صحت يمينه صح قذفه ولعانه . واتفقوا على أنه لا بد أن يكونا مكلَّفَيْن . وفي قوله[1] : « وجد مع امرأته رجلا » دليل على أن الملاعنة تجب على كل زوجين؛ لأنه لم يخص رجلا من رجل ولا امرأة من امرأة، ونزلت آية اللعــان على هذا الجواب فقال : « والذين يَرْمُون أزواجهم » ولم يخص زوجا من زوج . وإلى هذا ذهب مالك وأهل المدينة؛ وهو قول الشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبي عبيد وأبي ثَوْر . وأيضا فإن اللعان يوجب فسخ النكاح فأشبه الطلاق؛ فكل من يجوز طلاقه يجوز لعانه . واللعان أيمان لا شهادات؛ قال الله تعــالى وهو أصــدق القائلين : « لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شهادتهما »[2] أي أيمــاننا . وقال تعالى : « إذا جاءك المنافقون قالوا نَشْهَدُ إنك لَرَسُولُ الله » . ثم قال تعالى : « اتّخذوا أَيْمَانَهُم جُنَّةً »[3] .

(١) أي قول عويمر ، أو غيره على الخلاف المتقدم . وفي الأصــول : « وفي قوله صــلى الله عليــه وسلم وجد ... الخ » وهو تحريف .
(٢) آية ١٠٧ سورة المائدة . راجع جـ ٦ ص ٣٥٩
(٣) آية ١٦ سورة المجادلة .

وقال عليه السلام: "لولا الأيمان لكان لي ولها شأن". وأما ما احتج به الثوري وأبو حنيفة فهي حجج لا تقوم على ساق؛ منها حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أربعة ليس بينهم لعان ليس بين الحر والأمة لعان وليس بين الحرة والعبد لعان وليس بين المسلم واليهودية لعان وليس بين المسلم والنصرانية لعان". أخرجه الدَّارَقُطْنِيّ من طرق ضعفها كلها. وروى عن الأوزاعي وابن جريج وهما إمامان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قوله، ولم يرفعه(١) إلى النبي صلى الله عليه وسلم. واحتجوا من جهة النظر أن الأزواج لما استثنوا من جملة الشهداء بقوله «ولم يكن لهم شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ» وجب ألا يلاعن إلا من تجوز شهادته. وأيضا فلو كانت يمينا ما رُدِّدت، والحكمة في ترديدها قيامها في الأعداد مقام الشهود في الزنى. قلنا: هذا يبطل بيمين القَسَامة فإنها تُكَرَّر وليست بشهادة إجماعا؛ والحكمة في تكرارها التغليظ في الفروج والدماء. قال ابن العربي: والفَيْصل في أنها يمين لا شهادة أن الزوج يحلف لنفسه في إثبات دعواه وتخليصه من العذاب، وكيف يجوز لأحد أن يدّعي في الشريعة أن شاهدا يشهد لنفسه بما يوجب حكما على غيره! هذا بعيد في الأصل معدوم في النظر.

السادسة — واختلف العلماء في ملاعنة الأخرس؛ فقال مالك والشافعي: يلاعن؛ لأنه ممن يصح طلاقه وظهاره وإيلاؤه، إذا فُهم ذلك عنه. وقال أبو حنيفة: لا يلاعن؛ لأنه ليس من أهل الشهادة، ولأنه قد ينطق بلسانه فينكر اللعان، فلا يمكننا إقامة الحدّ عليه. وقد تقدم هذا المعنى في سورة «مريم»(٢) والدليل عليه، والحمد لله.

السابعة — قال ابن العربي: رأى أبو حنيفة عموم الآية فقال: إن الرجل إذا قذف زوجته بالزنى قبل أن يتزوجها فإنه يلاعن؛ ونسي أن ذلك قد تضمّنه قوله تعالى: «والذين يرمون المحصنات» وهذا رماها محصنة غير زوجة؛ وإنما يكون اللعان في قذف يلحق فيه النسب، وهذا قذف لا يلحق فيه نسب فلا يوجب لعانا، كما لو قذف أجنبية.

---

(١) في سنن الدار قطني: «يرفعاه».	(٢) راجع جـ ١١ ص ١٠١ طبعة أولى أو ثانية.

الثامنة — إذا قذفها بعد الطلاق نظرت ؛ فإن كان هنالك نسب يريد أن ينفيه أو حمل يتبرأ منه لاعن و إلا لم يلاعن . وقال عثمان البتّى : لا يلاعن بحال لأنها ليست بزوجة . وقال أبو حنيفة : لا يلاعن فى الوجهين ؛ لأنها ليست بزوجة . وهذا ينتقض عليه بالقذف قبل الزوجية كما ذكرناه آنفا ، بل هذا أولى ؛ لأن النكاح قد تقدم وهو يريد الانتفاء من النسب وتبرئته من ولد يُلحق به فلا بُدّ من اللعان . وإذا لم يكن هنالك حمل يرجى ولا نسب يخاف تعلقه لم يكن للعان فائدة فلم يحكم به ، وكان قذفا مطلقا داخلا تحت عموم قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات » الآية ، فوجب عليه الحد وبطل ما قاله البتّى لظهور فساده .

التاسعة — لا ملاعنة بين الرجل وزوجته بعد انقضاء العدّة إلا فى مسئلة واحدة ، وهى أن يكون الرجل غائبا فتأتى امرأته بولد فى مغيبه وهو لا يعلم فيطلّقها فتنقضى عدّتها ، ثم يَقْدَم فينفيه فله أن يلاعنها هاهنا بعد العدّة . وكذلك لو قدم بعد وفاتها ونفى الولد لاعن لنفسه وهى ميتة بعد مدّة من العدّة ، ويرثها لأنها ماتت قبل وقوع الفرقة بينهما .

العاشرة — إذا انتفى من الحمل ووقع ذلك بشرطه لاعن قبل الوضع ؛ وبه قال الشافعى . وقال أبو حنيفة : لا يلاعن إلا بعد أن تضع ؛ لأنه يحتمل أن يكون ريحا أو داء من الأدواء . ودليلنا النص الصريح بأن النبى صلى الله عليه وسلم لاعن قبل الوضع ؛ وقال : " إن جاءت به كذا فهو لأبيه وإن جاءت به كذا فهو لفلان " فجاءت به على النعت المكروه .

الحادية عشرة — إذا قذف بالوطء فى الدبر [لزوجه] لاعن . وقال أبو حنيفة : لا يلاعن ؛ وبناه على أصله فى أن اللواط لا يوجب الحد . وهذا فاسد ؛ لأن الرمى به فيه معرّة وقد دخل تحت عموم قوله تعالى : « والذين يرمون أزواجهم » وقد تقدم فى « الأعراف (١) » و« المؤمنون (٢) » أنه يجب به الحد .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٣ وما بعدها . (٢) راجع ص ١٠٦ من هذا الجزء .

الثانية عشرة — قال ابن العربي : من غريب أمر هذا الرجل أنه [قال] [1] إذا قذف زوجته وأمها بالزنى : إنه إن حدّ للأم سقط حدّ البنت ، وإن لاعن للبنت لم يسقط حدّ الأم ؛ وهذا لا وجه له ، وما رأيت لهم [فيه] شيئا يحكى ، وهذا باطل جدا ؛ فإنه خص عموم الآية في البنت وهي زوجة بحد الأم من غير أثر ولا أصل قاسه عليه .

الثالثة عشرة — إذا قذف زوجته ثم زنت قبل التعانه فلا حدّ ولا لعان . وبهذا قال أبو حنيفة والشافعيّ وأكثر أهل العلم . وقال الثوري والمُزَنيّ : لايسقط الحدّ عن القاذف ؛ وزنى المقذوف بعد أن قُذف لايقدح في حصانته المتقدمة ولا يرفعها ؛ لأن الاعتبار الحصانةُ والعفة في حال القذف لابعده . كما لو قذف مسلما فارتد المقذوف بعد القذف وقبل أن يحدّ القاذف لم يسقط الحدّ عنه . وأيضا فإن الحدود كلّها معتبرة بوقت الوجوب لا وقت الإقامة . ودليلنا هو أنه قد ظهر قبل استيفاء اللعان والحدّ معنًى لو كان موجودا في الابتداء منع صحة اللعان ووجوب الحدّ ، فكذلك إذا طرأ في الثاني ؛ كما إذا شهد شاهدان ظاهرهما العدالة فلم يحكم الحاكم بشهادتهما حتى ظهر فسقهما بأن زنيا أو شربا خمرا فلم يجز للحاكم أن يحكم بشهادتهما تلك . وأيضا فإن الحكم بالعفة والإحصان يؤخذ من طريق الظاهر لا من حيث القطع واليقين ، وقد قال عليه السلام : "ظَهْرُ المؤمن حِمًى" ؛ فلا يحدّ القاذف إلا بدليل قاطع ، وبالله التوفيق .

الرابعة عشرة — من قذف امرأته وهي كبيرة لا تحمل تلاعنا ؛ هو لدفع الحدّ ، وهي لدرء العذاب . فإن كانت صغيرة لا تحمل لاعن هو لدفع الحدّ ولم تلاعن هي لأنها لو أقرّت لم يلزمها شيء . وقال ابن الماجِشُون : لاحدّ على قاذف مَن لم تبلغ . قال اللَّخْمِيّ : فعلى هذا لا لعان على زوج الصغيرة التي لا تحمل .

الخامسة عشرة — إذا شهد أربعة على امرأة بالزنى أحدهم زوجها فإن الزوج يلاعن وتُحَدّ الشهود الثلاثة ؛ وهو أحد قولي الشافعيّ . والقول الثاني أنهم لا يحدّون . وقال أبو حنيفة : إذا شهد الزوج والثلاثة ابتداءً قبلت شهادتهم وحُدّت المرأة . ودليلنا قوله

(١) زيادة عن ابن العربي .

تعالى : « والذين يرمون المحصنات » الآية . فأخبر أن من قذف محصنا ولم يأت بأربعة شهداء حُدّ؛ فظاهره يقتضي أن يأتي بأربعة شهداء سوى الرامي، والزوج رامٍ لزوجته فخرج عن أن يكون أحد الشهود . والله أعلم .

السادسة عشرة ــ إذا ظهر بامرأته حمل فترك أن ينفيه لم يكن له نفيه بعد سكوته . وقال شُريح ومجاهد : له أن ينفيه أبدا . وهذا خطأ؛ لأن سكوته بعد العلم به رِضًى به؛ كما لو أقرّ به ثم ينفيه فإنه لا يُقبل منه، والله أعلم .

السابعة عشرة ــ فإن أخّر ذلك إلى أن وضعت وقال : رجوت أن يكون ريحا ينفش أو تسقطه فأستريح من القذف؛ فهل لنفيه بعد وضعه مدة ما فإذا تجاوزها لم يكن له ذلك؛ فقد اختلف في ذلك، فنحن نقول : إذا لم يكن له عذر في سكوته حتى مضت ثلاثة أيام فهو راضٍ به ليس له نفيه؛ وبهذا قال الشافعي . وقال أيضا : متى أمكنه نفيه على ما جرت به العادة من تمكنه من الحاكم فلم يفعل لم يكن له نفيه من بعد ذلك . وقال أبو حنيفة : لا أعتبر مدّة . وقال أبو يوسف ومحمد : يعتبر فيه أربعون يوما، مدّة النفاس . قال ابن القصّار : والدليل لقولنا هو أن نفي ولده محرّم عليه، واستلحاق ولد ليس منه محرّم عليه، فلا بدّ أن يوسّع عليه لكي ينظر فيه ويفكّر، هل يجوز له نفيه أو لا . وإنما جعلنا الحدّ ثلاثة لأنه أوّل حدّ الكثرة وآخر حدّ القلة، وقد جعلت ثلاثة أيام يختبر بها حال المُصَرّاة[1]؛ فكذلك ينبغي أن يكون هنا . وأما أبو يوسف ومحمد فليس اعتبارهم بأولى من اعتبار مدّة الولادة والرضاع؛ إذ لا شاهد لهم في الشريعة، وقد ذكرنا نحن شاهدا في الشريعة من مدّة المُصَرّاة .

الثامنة عشرة ــ قال ابن القصار : إذا قالت امرأة لزوجها أو لأجنبيّ يازانيه ــ بالهاء ــ وكذلك الأجنبي لأجنبي، فلست أعرف فيه نصّا لأصحابنا، ولكنه عندي يكون قذفا وعلى قائله الحدّ، وقد زاد حرفا؛ وبه قال الشافعيّ ومحمد بن الحسن . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف :

(١) المصراة : الناقة أو البقرة أو الشاة تصرّ أخلافها ولا تحلب أياما حتى يجتمع اللبن في ضرعها، فاذا حلبها المشتري استغزرها . ومنه الحديث : "من اشترى مصراة فهو بخير النظرين" أي خير الأمرين له؛ إما إمساك المبيع أو رده .

لا يكون قذفا . واتفقوا أنه إذا قال لامرأته يازان أنه قذف . والدليل على أنه يكون فى الرجل قذفا هو أن الخطاب إذا فهم . ـه معناه ثبت حكمه ، سواء كان بلفظ أعجمى أو عربى . ألا ترى أنه إذا قال للمرأة زنيتَ (بفتح التاء) كان قذفا ؛ لأن معناه يفهم منه . ولأبى حنيفة وأبى يوسف أنه لما جاز أن يُخاطَب المؤنث بخطاب المذكر لقوله تعالى : «وقال نسوة» صلح أن يكون قوله يا زان للمؤنث قذفا . ولما لم يجز أن يؤنث فعل المذكر إذا تقدم عليه لم يكن لخطابه بالمؤنث حكم، والله أعلم .

التاسعة عشرة — يلاعن فى النكاح الفاسد زوجته لأنها صارت فراشا ويلحق النسب فيه بجرى اللعان عليه .

الموفية عشرين — اختلفوا فى الزوج إذا أبى من الالتعان ؛ فقال أبو حنيفة : لا حدّ عليه ؛ لأن الله تعالى جعل على الأجنبيّ الحدّ وعلى الزوج اللّعان ، فلما لم ينتقل اللعان إلى الأجنبى لم ينتقل الحدّ إلى الزوج ، ويسجن أبدا حتى يلاعن لأن الحدود لا تؤخر قياسا . وقال مالك والشافعيّ وجمهور الفقهاء : إن لم يلتعن الزوج حدّ ؛ لأن اللعان له براءة كالشهود للأجنبيّ ، فإن لم يأت الأجنبى بأربعة شهداء حدّ ، فكذلك الزوج إن لم يلتعن . وفى حديث العَجْلانيّ ما يدل على هذا ؛ لقوله : إن سكتُّ سكتُّ على غيظ وإن قتلتُ قُتلت وإن نطقتُ جُلدت .

الحادية والعشرون — واختلفوا أيضا هل للزوج أن يلاعن مع شهوده ؛ فقال مالك والشافعيّ : يلاعن كان له شهود أو لم يكن ؛ لأن الشهود ليس لهم عمل فى غير درء الحدّ ؛ وأما رفع الفراش ونفى الولد فلا بدّ فيه من اللعان . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إنما جعل اللعان للزوج إذا لم يكن له شهود غير نفسه ؛ لقوله تعالى : «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ» .

الثانية والعشرون — البداءة فى اللعان بما بدأ الله به ، وهو الزوج ؛ وفائدته دَرْء الحدّ عنه ونفى النسب منه ؛ لقوله عليه السلام : "البينة وإلا حَدٌّ فى ظهرك" . ولو بُدِئَ بالمرأة قبله لم يَجْز ؛ لأنه عكس ما رتّبه الله تعالى . وقال أبو حنيفة : يجزى . وهذا باطل ؛ لأنه

خلاف القرآن، وليس له أصل يرده إليه ولا معنًى يقوّى به ؛ بل المعنى لنا ؛ لأن المرأة إذا بدأت باللعان فتنفى ما لم يُثبت وهذا لا وجه له .

الثالثة والعشرون — وكيفية اللعان أن يقول الحاكم للملاعن : قل أشهد بالله لرأيتها تزنى ورأيت فرج الزانى فى فرجها كالمِرْود فى المكحلة وما وطئتها بعد رؤيتى . وإن شئت قلت : لقد زنت وماوطئتها بعد زناها . يردّد ماشاء من هذين اللفظين أربع مرات ؛ فإن نكل عن هذه الأيمان أو عن شيء منها حُدّ . وإذا نفى حملا قال : أشهد بالله لقد استبرأتها وما وطئتها بعدُ، وما هذا الحمل منى ؛ ويشير إليه ؛ فيحلف بذلك أربع مرات ويقول فى كل يمين منها : وإنى لمن الصادقين فى قولى هذا عليها . ثم يقول فى الخامسة «علىّ لعنةُ الله إنْ كُنتُ من الكاذبين» . وإن شاء قال : إن كنت كاذبا فيما ذكرت عنها . فإذا قال ذلك سقط عنه الحدّ وانتفى عنه الولد . فإذا فرغ الرجل من التعانه قامت المرأة بعده فحلفت بالله أربعة أيمان ؛ تقول فيها : أشهد بالله إنه لكاذب ، أو إنه لمن الكاذبين فيما آدعاه علىّ وذكر عنى . وإن كانت حاملا قالت : وإن حملى هذا منه . ثم تقول فى الخامسة : وعلىّ غضب الله إن كان صادقا ؛ أو إن كان من الصادقين فى قوله ذلك . ومن أوجب اللعان بالقذف يقول فى كل شهادة من الأربع : أشهد بالله إنى لمن الصادقين فيما رميت به فلانة من الزنى . ويقول فى الخامسة : علىّ لعنة الله إن كنت كاذبا فيما رميت به من الزنى . وتقول هى : أشهد بالله إنه لكاذب فيما رمانى به من الزنى . وتقول فى الخامسة : علىّ غضب الله إن كان صادقا فيما رمانى به من الزنى . وقال الشافعىّ : يقول الملاعن أشهد بالله إنى لمن الصادقين فيما رميت به زوجى فلانة بنت فلان ؛ ويشير إليها إن كانت حاضرة ؛ يقول ذلك أربع مرات ؛ ثم يوعظه الإمام ويذكره الله تعالى ويقول : إنى أخاف إن لم تكن صدقت أن تبوء بلعنة الله ؛ فإن رآه يريد أن يمضى على ذلك أمر من يضع يده على فيه ؛ ويقول : إن قولك وعلىّ لعنة الله إن كنت من الكاذبين موجبًا ؛ فإن أبى تركه يقول ذلك : لعنة الله علىّ إن كنت من الكاذبين فيما رميت به فلانة من الزنى . احتج بما رواه أبو داود عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رجلا حيث أمر المتلاعنَيْن أن يضع يده على فيه عند الخامسة يقول : إنها موجبة .

الرابعة والعشرون — اختلف العلماء فى حكم من قذف امرأته برجل سمّاه ، هل يحدّ أم لا ؛ فقال مالك : عليه اللعان لزوجته ، وحدّ للرمى . وبه قال أبو حنيفة ؛ لأنه قاذف لمن لم يكن له ضرورة إلى قذفه . وقال الشافعى : لا حدّ عليه ؛ لأن الله عز وجل لم يجعل على من رمى زوجته بالزنى إلا حدّا واحدا بقوله : « والذين يرمون أزواجهم » ، ولم يفرق بين من ذكر رجلا بعينه وبين من لم يذكر؛ وقد رمى العجلانىّ زوجته بشريك وكذلك هلال ابن أمية؛ فلم يحدّ واحد منهما . قال ابن العربى : وظاهر القرآن لنا ؛ لأن الله تعالى وضع الحدّ فى قذف الأجنبى والزوجة مطلقين ، ثم خص حدّ الزوجة بالخلاص باللعان وبقى الأجنبىّ على مطلق الآية . وإنما لم يحدّ العجلانىّ لشريك ولا هلال لأنه لم يطلبه ؛ وحدّ القذف لا يقيمه الإمام إلا بعد المطالبة إجماعا منا ومنه .

الخامسة والعشرون — إذا فرغ المتلاعنان من تلاعنهما جميعا تفرقا وخرج كل واحد منهما على باب من المسجد الجامع غير الباب الذى يخرج منه صاحبه؛ ولو خرجا من باب واحد لم يضر ذلك لعانهما . ولا خلاف فى أنه لا يكون اللعان إلا فى مسجد جامع تجمع فيه الجمعة بحضرة السلطان أو من يقوم مقامه من الحكام . وقد استحب جماعة من أهل العلم أن يكون اللعان فى الجامع بعد العصر . وتلتعن النصرانية من زوجها المسلم فى الموضع الذى تعظّمه من كنيستها مثل ما تلتعن به المسلمة .

السادسة والعشرون — قال مالك وأصحابه : وبتمام اللعان تقع الفرقة بين المتلاعنين؛ فلا يجتمعان أبدا ولا يتوارثان ، ولا يحل له مراجعتها أبدا لا قبل زوج ولا بعده ؛ وهو قول الليث بن سعد وزُفَر بن الهُذَيل والأوزاعىّ . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد بن الحسن : لا تقع الفرقة بعد فراغهما من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما؛ وهو قول الثورى؛ لقول ابن عمر : فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المتلاعنين ؛ فأضاف الفرقة إليه ؛ ولقوله عليه السلام : " لا سبيل لك عليها " . وقال الشافعىّ : إذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان فقد زال فراش امرأته؛ التعنت أو لم تلتعن . قال : وأما التعان المرأة فإنما هو لدرء الحدّ عنها لا غير؛ وليس لالتعانها فى زوال الفراش معنًى . ولما كان لعان الزوج ينفى

الولد ويسقط الحدّ رفع الفراش . وكان عثمان البَتّي لا يرى التلاعن ينقص شيئاً من عصمة الزوجين حتى يطلّق . وهذا قول لم يتقدمه إليه أحد من الصحابة؛ على أن البَتّي قد استحب للاعن أن يطلّق بعد اللعان، ولم يستحسنه قبل ذلك؛ فدلّ على أن اللعان عنده قد أحدث حكما . وبقول عثمان قال جابر بن زيد فيما ذكره الطبري، وحكاه النَّخَعيّ عن محمد بن أبي صُفْرة . ومشهور المذهب أن نفس تمام اللعان بينهما فرقة . واحتج أهل هذه المقالة بأنه ليس في كتاب الله تعالى إذا لاعن أو لاعنت يجب وقوع الفرقة، وبقول عُوَيْمِر : كذبتُ عليها إن أمسكتُها؛ فطلقها ثلاثا، قال : ولم ينكر النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك عليه ولم يقل له لم قلت هذا، وأنت لا تحتاج إليه؛ لأن باللعان قد طلقت . والحجة لمالك في المشهور ومن وافقه قولُه عليه السلام "لا سبيل لك عليها" . وهذا إعلام منه أن تمام اللعان رفع سبيله عنها وليس تفريقه بينهما باستئناف حكم، وإنما كان تنفيذا لما أوجب الله تعالى بينهما من المباعدة، وهو معنى اللعان في اللغة .

السابعة والعشرون ـــ ذهب الجمهور من العلماء أن المتلاعنَيْن لا يتناكحان أبدا، فإن أكذب نفسه جلد الحدّ ولحق به الولد، ولم ترجع إليه أبدا . وعلى هذا السنةُ التي لا شك فيها ولا اختلاف . وذكر ابن المنذر عن عطاء أن الملاعن إذا أكذب نفسه بعد اللعان لم يحدّ، وقال : قد تفرقا بلعنة من الله . وقال أبو حنيفة ومحمد : إذا أكذب نفسه جلد الحدّ ولحق به الولد، وكان خاطبا من الخطاب إن شاء؛ وهو قول سعيد بن المسيب والحسن وسعيد بن جبير وعبد العزيز بن أبي سلمة . وقالوا : يعود النكاح حلالا كما لحق به الولد؛ لأنه لا فرق بين شيء من ذلك . وحجة الجماعة قوله عليه السلام : "لا سبيل لك عليها"؛ ولم يقل إلا أن تكذب نفسك . وروى ابن إسحاق وجماعة عن الزهري قال : فمضت السنة أنهما إذا تلاعنا فُرّق بينهما فلا يجتمعان أبدا . ورواه الدَّارَقُطْنيّ، ورواه مرفوعا من حديث سعيد بن جبير عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "المتلاعنان إذا افترقا لا يجتمعان أبدا" . روى عن عليّ وعبد الله قالا : مضت السنة ألّا يجتمع المتلاعنان . عن عليّ : أبدا .

الثامنة والعشرون — اللعان يفتقر إلى أربعة أشياء :

عدد الألفاظ — وهو أربع شهادات على ما تقدم .

والمكان — وهو أن يقصد به أشرف البقاع بالبلدان، إن كان بمكة فعند الركن والمقام، وإن كان بالمدينة فعند المنبر، وإن كان ببيت المقدس فعند الصخرة، وإن كان في سائر البلدان ففي مساجدها، وإن كانا كافرين بُعث بهما إلى الموضع الذي يعتقدان تعظيمه، إن كانا يهوديين فالكنيسة، وإن كانا مجوسيين ففي بيت النار، وإن كانا لا دين لهما مثل الوثنيين فإنه يلاعن بينهما في مجلس حكمه .

والوقت — وذلك بعد صلاة العصر .

وجمع الناس — وذلك أن يكون هناك أربعة أنفس فصاعدا ؛ فاللفظ وجمع الناس مشروطان، والزمان والمكان مستحبان .

التاسعة والعشرون — من قال : إن الفراق لا يقع إلا بتمام التعانهما، فعليه لو مات أحدهما قبل تمامه ورثه الآخر . ومن قال : لا يقع إلا بتفريق الإمام فمات أحدهما قبل ذلك وتمام اللعان ورثه الآخر . وعلى قول الشافعي : إن مات أحدهما قبل أن تلتعن المرأة لم يتوارثا .

الموفية ثلاثين — قال ابن القصّار : تفريق اللعان عندنا ليس بفسخ ؛ وهو مذهب المدونة : فإن اللعان حكم تفريقه حكم تفريق الطلاق، ويعطى لغير المدخول بها نصف الصداق . وفي مختصر ابن الجلّاب : لا شيء لها ؛ وهذا على أن تفريق اللعان فسخ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو

عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَآءِ فَأُولَٰٓئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ
الْكَٰذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ
وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ
عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا
سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَٰتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨)
إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَٰحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ الشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ الشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ
بِالْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم
مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١)
وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا أُولِي الْقُرْبَىٰ
وَالْمَسَٰكِينَ وَالْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوٓا أَلَا تُحِبُّونَ
أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)

فيه ثمان وعشرون مسئلة (١) :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ « عُصْبَةٌ » خبر « إن » . ويجوز نصبها على الحال ، ويكون الخبر « لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ » .
وسبب نزولها ما رواه الأئمة من حديث الإفك الطويل فى قصة عائشة رضوان الله عليها ، وهو خبر صحيح مشهور ، أغنى اشتهاره عن ذكره ، وسيأتى مختصرا . وأخرجه البخارى تعليقا ، وحديثه أتم . قال : وقال أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ، وأخرجه أيضا عن محمد بن كثير عن أخيه سليمان من حديث مسروق عن أم رومان أم عائشة أنها قالت : لما رُميت عائشة خرت مغشيا عليها . وعن موسى بن إسماعيل من حديث أبى وائل قال : حدثنى مسروق بن الأجدع قال حدثتنى أم رومان وهى أم عائشة قالت : بينا أنا قاعدة أنا وعائشة إذ وَلَجت امرأة من الأنصار فقالت : فعل الله بفلان وفعل [بفلان] ! فقالت أم رومان : وما ذاك ؟ قالت ابنى فيمن حدث الحديث ! قالت : وما ذاك ؟ قالت كذا وكذا . قالت عائشة : سمع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت نعم . قالت : وأبو بكر ؟ قالت نعم ! فخرت مغشيا عليها ؛ فما أفاقت إلا وعليها حُمّى بنافض (٢) ، فطرحتُ عليها ثيابها فغطيتها ؛ فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال : " ما شأن هذه ؟ " فقلت : يا رسول الله ، أخذتها الحُمّى بنافض . قال : " فلعل فى حديث تُحُدِّث به " قالت نعم . فقعدت عائشة فقالت : والله ، لئن حلفتُ لا تصدقونى ! ولئن قلت لا تعذرونى ! مثلى ومثلكم كيعقوب وبنيه (٣) ، والله المستعان على ما تصفون . قالت : وانصرف ولم يقل شيئا ؛ فأنزل الله عذرها . قالت : بحمد الله لا بحمد أحد ولا بحمدك . قال أبو عبد الله الحميدى : كان بعض من لقينا من الحفاظ البغداديين يقول الإرسال فى هذا الحديث أبين ، واستدل على ذلك بأن أم رومان توفيت فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومسروق لم يشاهد النبى صلى الله عليه وسلم بلا خلاف . وللبخارى من حديث عبيد الله بن عبد الله بن أبى مليكة أن عائشة كانت تقرأ « إِذْ تَلِقُونَهُ

(١) يلاحظ أن المسائل سبع وعشرون . (٢) أى برعدة . (٣) اذ قال فى محنته : والله المستعان ... الخ .

بِأَلْسِنَتِكُمْ » وتقول : الوَلْق الكذب . قال ابن أبى مليكة : وكانت أعلمَ بذلك[1] من غيرها لأنه نزل فيها . قال البخاريّ : وقال معمر[2] بن راشد عن الزهرى : كان حديث الإفك فى غَزْوة المُرَيْسِيع . قال ابن إسحاق : وذلك سنة ستّ . وقال موسى بن عقبة : سنة أربع . وأخرج البخارى من حديث معمر عن الزُّهرى قال: قال لى الوليد بن عبد الملك : أبلغك أن عليًّا كان فيمن قَذَف ؟ قال : قلت لا ، ولكن قد أخبرنى رجلان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن عائشة قالت لهما : كان علىٌّ مُسَلِّمًا[3] فى شأنها ، وأخرجه أبو بكر الإسماعيلىّ فى كتابه المخرج على الصّحيح من وجه آخر من حديث معمر عن الزهرى ، وفيه : قال كنت عند الوليد بن عبد الملك فقال : الذى تولّى كِبْرَه منهم علىّ بن أبى طالب ؟ فقلت لا ، حدثنى سعيد بن المسيّب وعُروة وعلقمة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة كلّهم يقول سمعت عائشة تقول : والذى تولّى كبره عبدُ الله بن أبىّ . وأخرج البخارى أيضا من حديث الزهرى عن عروة عن عائشة : والذى تولّى كِبْرَه منهم عبدُ الله بن أبىّ .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ بِالْإِفْكِ ﴾ الإفك الكذب . والعصبة ثلاثة رجال ؛ قاله ابن عباس . وعنه أيضا من الثلاثة إلى العشرة . ابن عُيينة : أربعون رجلا . مجاهد : من عشرة إلى خمسة عشر . وأصلها فى اللغة وكلام العرب الجماعةُ الذين يتعصّب بعضهم لبعض . والخـير حقيقته ما زاد نفعه على ضره . والشرّ ما زاد ضره على نفعـه . وإنّ خيرا لا شرّ فيه هو الجنة . وشرًّا لا خير فيه هو جهـنم . فأما البلاء النازل على الأولياء فهو خير ؛ لأن ضرره من الألم قليل فى الدنيا ، وخيره هو الثواب الكثير فى الأخرى . فنبّه الله تعالى عائشة وأهلها وصفوان ، إذ الخطاب لهم فى قوله « لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » ؛ لرجحـان النفع والخير على جانب الشر .

الثالثـــة — لمـا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة معه فى غَزْوة بنى المُصْطَلِق وهى غزوة المُرَيْسِيع ، وقفل ودنا من المدينة آذن ليـلة بالرحيل قامت حين آذنوا بالرحيل

(١) أى بالذى تراءت به . (٢) الذى فى البخارى « النعمان بن راشد » . (٣) قوله : « مسلما » بكسر اللام المشددة من التسليم ؛ أى ساكتا فى شأنها . وقيل بفتح « اللام » من السلامة من الخوض فيه .

فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما فرغت من شأنها أقبلت إلى الرحل فلمست صدرها فإذا عقدٌ من جَزْع ظَفَارِ[1] قد آنقطع، فرجعت فالتمسته فحبسها ابتغاؤه، فوجدته وانصرفت فلم تجد أحدا، وكانت شابَّة قليلة اللحم، فرفع الرجال هَوْدجها ولم يشعروا بزوالها منه؛ فلما لم تجد أحدا اضطجعت في مكانها رجاءَ أن تُفتقد فيُرجع إليها، فنامت في الموضع ولم يوقظها إلا قول صَفْوان بن المُعَطَّل: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ وذلك أنه كان تخلف وراء الجيش لحفظ الساقة. وقيل: إنها استيقظت لاسترجاعه، ونزل عن ناقته وتنحَّى عنها حتى ركبت عائشة، وأخذ يقودها حتى بلغ بها الجيش في نَحْر الظَّهِيرة؛ فوقع أهل الإفك في مقالتهم، وكان الذي يُجتمع إليه فيه ويَسْتَوْشِيه[2] ويُشْعِلُه عبدُ الله بن أُبَيّ آبن سَلُول المنافق، وهو الذي رأى صفوان آخذا بزمام ناقة عائشة فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها، وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل. وكان من قالته حسان بن ثابت ومِسْطح بن أُثَاثة وحَمْنَة بنت جَحْش. هذا اختصار الحديث، وهو بكماله وإتقانه في البخاري ومسلم، وهو في مسلم أكمل. ولما بلغ صَفْوان قولُ حسان في الإفك جاء فضربه بالسيف ضربةً على رأسه وقال:

تَلَقَّ ذُبابَ السيفِ عني فإنني * غلامٌ إذا هُوجيتُ ليس بشاعرِ

فأخذ جماعة حسانَ ولَبَّبوه[3] وجاءوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم جرح حسان واستوهبه إيّاه. وهذا يدل على أن حسان ممن تولَّى الكِبْر؛ على ما يأتي والله أعلم.

وكان صفوان هذا صاحبَ ساقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته لشجاعته، وكان من خيار الصحابة. وقيل: كان حَصُورا لا يأتي النساء؛ ذكره ابن إسحاق من طريق عائشة. وقيل: كان له ابنان؛ يدل على ذلك حديثه المروي مع آمرأته، وقولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم في ابنيه: "لهما أشبه به من الغراب بالغراب". وقوله في الحديث: والله ما كَشَفْتُ كَنَف أنثى قطّ؛ يريد بزنًى. وقتل شهيدا رضي الله عنه في غزوة أرمينِيَة سنة تسع عشرة في زمان عمر، وقيل: ببلاد الروم سنة ثمان وخمسين في زمان معاوية.

(١) الجزع (بفتح الجيم وسكون الزاي): خرز معروف في سواده بياض كالعروق. وظفار (كقطام): مدينة باليمن.

(٢) يستوشيه: يستخرجه بالبحث والمسألة ثم يفشيه ويشيعه ويحركه.

(٣) لبب فلان فلانا، إذا أخذ بتلبيبه؛ أي جمع ثيابه عند صدره ونحره في الخصومة ثم جره.

الرابعة ـ قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ ما اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ ﴾ يعني ممن تكلم بالإفك . ولم يُسَمَّ من أهل الإفك إلا حسان ومِسْطَح وحَمْنَة وعبد الله ، وجُهل الغير ؛ قاله عروة بن الزبير ، وقد سأله عن ذلك عبد الملك بن مروان ، وقال : إلا أنهم كانوا عُصْبة ؛ كما قال الله تعالى . وفي مصحف حفصة « عصبة أربعة » .

الخامسة ـ قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ ﴾ وقرأ حُميد الأعرج ويعقوب « كُبْره » بضم الكاف . قال الفراء : وهو وجه جيد ؛ لأن العرب تقول : فلان تولى عُظْم كذا وكذا ؛ أي أكبره . روى عن عائشة أنه حسان ، وأنها قالت حين عَمِيَ : لعل العذاب العظيم الذي أوعده الله به ذهابُ بصره ؛ رواه عنها مسروق . وروى عنها أنه عبد الله بن أُبَيّ ؛ وهو الصحيح ، وقاله ابن عباس . وحكى أبو عمر بن عبد البر أن عائشة برأت حسان من الفرية ، وقالت : إنه لم يقل شيئا . وقد أنكر حسان أن يكون قال شيئا من ذلك في قوله :

حَصَانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بريبة * وتُصبح غَرْثَى من لُحوم الغوافل[1]

حليلةُ خير الناس دِينًا ومَنْصِبًا * نبيِّ الهدى والمكرمات الفواضل

عقيلةُ حَيٍّ من لُؤَيِّ بن غالب * كِرامِ المساعي مجدُها غيرُ زائل

مهذبةٌ قد طيَّب اللهُ خِيمَها[2] * وطهرها من كل شَيْن وباطل

فإن كان ما بُلِّغتِ أنِّيَ قلتُه * فلا رفعتْ سَوْطِي إليَّ أناملي

فكيف وَوُدِّي ما حييتُ ونُصْرتي * لآل رسول الله زَيْنِ المحافل

له رُتَبٌ عالٍ على الناس فضلُها * تقاصرُ عنها سَوْرة المتطاول

وقد روى أنه لما أنشدها : حصان رزان ؛ قالت له : لستَ كذلك ؛ تريد أنك وقعت في الغوافل . وهذا تعارض . ويمكن الجمع بأن يقال : إن حسانا لم يقل ذلك نصا وتصريحا ، ويكون عرَّض بذلك وأومأ إليه فنُسب ذلك إليه ؛ والله أعلم .

---

(١) الحصان : العفيفة . ورزان : ذات ثبات ووقار وعفاف . وغرثى : جائعة . ماتزن : ما تتهم . الغوافل جمع غافلة ؛ أي لا ترتع في أعراض الناس . (٢) الخيم (بالكسر) : الشيمة والطبيعة والخلق والأصل .

وقد اختلف الناس فيه هل خاض فى الإفك أم لا ، وهل جلد الحد أم لا ؛ فالله أعلم أىّ ذلك كان ، وهى المسألة :

السادسة — فروى محمد بن إسحاق وغيره أن النبىّ صلى الله عليه وسلم جلد فى الإفك رجلين وامرأة : مِسْطَحا وحسان وحَمْنة ، وذكره الترمذى . وذكر القشيرىّ عن ابن عباس قال : جلد رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أُبَىّ ثمانين جلدة ، وله فى الآخرة عذاب النار . قال القُشَيْرىّ : والذى ثبت فى الأخبار أنه ضرب ابن أُبَىّ وضرب حسان وحمنة ، وأما مِسْطح فلم يثبت عنه قذف صريح ، ولكنه كان يسمع ويشيع من غير تصريح . قال الماوردى وغيره : اختلفوا هل حدّ النبىّ صلى الله عليه وسلم أصحاب الإفك ؛ على قولين : أحدهما أنه لم يحدّ أحدا من أصحاب الإفك لأن الحدود إنما تقام بإقرار أو ببيّنة ، ولم يتعبّده الله أن يقيمها بإخباره عنها ؛ كما لم يتعبّده بقتل المنافقين ، وقد أخبره بكفرهم .

قلت : وهذا فاسد مخالف لنص القرآن ؛ فإن الله عز وجل يقول : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ » أى على صدق قولهم « فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً » .

والقول الثانى — أن النبىّ صلى الله عليه وسلم حدّ أهل الإفك عبدَ الله بن أُبَىّ ومِسْطح ابن أثاثة وحسان بن ثابت وحَمْنة بنت جحش ؛ وفى ذلك قال شاعر من المسلمين :

لقد ذاق حسّان الذى كان أهلَه * وحَمْنَةُ إذ قالوا هجيرًا ومِسْطَحُ
وابنُ سَلُولَ ذاق فى الحدّ خِزْية * كما خاض فى إفك من القول يُفْصِح
تعاطَوْا برجم الغيب زَوْجَ نَبِيِّهم * وسخطة ذى العرش الكريم فأبرحوا (١)
وآذَوْا رسولَ الله فيها فجُلِّلُوا * مخازِىَ تبقى عُمِّمُوها وفُضِّحوا
فصُبَّ عليهم مُحْصَدات كأنها * شآبيب قطر من ذُرَى المُزْن تَسْفَحُ

قلت : المشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذى حُدّ حسان ومِسْطح وحَمْنةُ ، ولم يُسمع بحدٍّ لعبدالله بن أُبَىّ . روى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما نزل عُذْرى قام النبىّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك ، وتلا القرآن ؛ فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين

(١) أى جاءوا بأمر مفرط فى الإثم .

والمرأة فضربوا حدهم، وسماهم : حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش وفى كتاب الطحاوى « ثمانين ثمانين » . قال علماؤنا . وإنما لم يحد عبد الله بن أبى لأن الله تعالى قد أعد له فى الآخرة عذابا عظيما؛ فلو حد فى الدنيا لكان ذلك نقصا من عذابه فى الآخرة وتخفيفا عنه مع أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشة رضى الله عنها وبكذب كل من رماها؛ فقد حصلت فائدة الحد، إذ مقصوده إظهار كذب القاذف وبراءة المقذوف؛ كما قال الله تعالى: «فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون». وإنما حد هؤلاء المسلمون ليكفر عنهم إثم ما صدر عنهم من القذف حتى لا يبقى عليهم تبعة من ذلك فى الآخرة، وقد قال صلى الله عليه وسلم فى الحدود "إنها كفارة لمن أقيمت عليه"؛ كما فى حديث عبادة بن الصامت . ويحتمل أن يقال : إنما ترك حد ابن أبى استئلافا لقومه واحتراما لابنه، وإطفاء لثائرة الفتنة المتوقعة من ذلك، وقد كان ظهر مبادئها من سعد بن عبادة ومن قومه؛ كما فى صحيح مسلم . والله أعلم.

السابعة ـ قوله تعالى : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ هذا عتاب من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين فى ظنهم حين قال أصحاب الإفك ما قالوا . قال ابن زيد : ظن المؤمنون أن المؤمن لا يفجر بأمه؛ قاله المهدوى . و« لولا » بمعنى هلا . وقيل : المعنى أنه كان ينبغى أن يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات الأمر على أنفسهم؛ فإن كان ذلك يبعد فيهم فذلك فى عائشة وصفوان أبعد . وروى أن هذا النظر السديد وقع من أبى أيوب الأنصارى وامرأته؛ وذلك أنه دخل عليها فقالت له : يا أبا أيوب، أسمعت ما قيل ! فقال نعم ! وذلك الكذب ! أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك ! قالت : لا والله ! قال : فعائشة والله أفضل منك؛ قالت أم أيوب نعم . فهذا الفعل ونحوه هو الذى عاتب الله تعالى عليه المؤمنين إذ لم يفعله[1] جميعهم .

الثامنة ـ قوله تعالى : ﴿بِأَنْفُسِهِمْ﴾ قال النحاس : معنى « بأنفسهم » بإخوانهم . فأوجب الله على المسلمين إذا سمعوا رجلا يقذف أحدا ويذكره بقبيح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه ويكذبوه . وتواعد من ترك ذلك ومن نقله .

(١) فى الأصول وتفسير ابن عطية : « عاتب الله تعالى على المؤمنين » .

قلت : ولأجل هـذا قال العلماء : إن الآية أصـل فى أن درجة الإيمـان التى حازها الإنسان، ومنزلة الصلاح التى حلّها المؤمن، ولُبْسة العفاف التى يستتر بها المسلم لا يزيلها عنه خبر محتمل وإن شاع، إذا كان أصله فاسدا أو مجهولا .

التاسعـــة — قوله تعـالى : ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْـهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ هـذا توبيخ لأهل الإفك . و « لولا » بمعنى هلّا؛ أى هـلّا جاءوا بأربعة شهـداء على ما زعموا من الافتراء . وهذا ردّ على الحكم الأوّل، وإحالة على الآية السابقة فى آية القذف .

العاشـــرة — قوله تعـالى : ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْـدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ أى هم فى حكم الله كاذبون . وقد يعجز الرجل عن إقامة البينة وهو صادق فى قذفه، ولكنه فى حكم الشرع وظاهر الأمر كاذب لا فى علم الله تعالى؛ وهو سبحانه إنمـا رتّب الحدود على حكمه الذى شرعه فى الدنيا لا على مقتضى علمه الذى تعلق بالإنسـان على ما هو عليه، فإنما يبنى على ذلك حكم الآخرة .

قلت : ومما يقوّى هذا المعنى ويَعْضُده ما خرّجه البخارىّ عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : أيها الناس إن الوَحْىَ قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنـا خيرا أَمِنّاه وقرّبناه؛ وليس لنا من سريرته شىء الله يحاسبه فى سريرته ، ومن أظهر لنا سوءا لم نؤمنه ولم نصدّقه، وإن قال إن سريرته حسنة . وأجمع العلماء أن أحكام الدنيا على الظاهر، وأن السرائر إلى الله عز وجل .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾(١) « فَضْلُ » رفع بالابتداء عند سيبويه، والخبر محذوف لا تظهره العرب . وحُذف جواب « لولا » لأنه قد ذُكر مثله بعدُ؛ قال الله عز وجل « ولولا فضل الله عليكم ورحمته » لمسّكم؛ أى بسبب ما قلتم فى عائشة عذابٌ عظيم فى الدنيا والآخرة . وهـذا عتاب من الله تعـالى بليغ، ولكنه برحمته ستر عليكم فى الدنيا ويرحم فى الآخرة من أتاه تائبا . والإفاضـة : الأخذ فى الحـديث؛ وهو الذى وقع عليه العتاب؛ يقال : أفاض القوم فى الحديث أى أخذوا فيه .

(١) يريد آية ١٠ وهى قوله تعالى : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم » .

الثانية عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ قراءة محمد بن السَّمَيْقَع بضم التاء وسكون اللام وضم القاف ؛ من الإلقاء ، وهذه قراءة بيّنة . وقرأ أُبَيّ وابن مسعود « إذ تتلقّونه » من التّلقّى ، بتاءين . وقرأ جمهور السبعة بحرف التاء الواحدة وإظهار الذال دون إدغام ؛ وهذا أيضا من التلقى . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بإدغام الذال فى التاء . وقرأ ابن كثير بإظهار الذال و إدغام التاء فى التاء ؛ وهذه قراءة قلقة ؛ لأنها تقتضى اجتماع ساكنين ، وليست كالإدغام فى قراءة من قرأ « فلا تناجّوا . ولا تنابزوا » لأن دونه الألف الساكنة ، وكونها حرف لين حسنت هنالك ما لا تحسن مع سكون الذال . وقرأ ابن يَعْمَر وعائشة رضى الله عنهما ــ وهم أعلم الناس بهذا الأمر ــ « إذ تَلِقُونه » بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف ؛ ومعنى هذه القراءة من قول العرب : وَلَق الرجل يَلِق وَلْقًا إذا كذب واستمر عليه ؛ فجاءوا بالمتعدّى شاهدا على غير المتعدّى . قال ابن عطية : وعندى أنه أراد إذ تلقون فيه ؛ فحذف حرف الجر فاتصل الضمير . وقال الخليل وأبو عمرو : أصل الوَلْق الإسراع ؛ يقال : جاءت الإبل تَلِق ؛ أى تسرع . قال :

لما رأوا جيشا عليهم قد طرق * جاءوا بأسراب من الشأم وَلِق

إن الحُصَيْن زَلِق وزُمَّلِق * جاءت به عَنْسٌ[1] من الشأم تَلِق

يقال : رجل زَلِق وزُمَلِق ؛ مثال هُدَبِد ، وزُمَالِق وزُمَّلِق (بتشديد الميم) وهو الذى ينزل قبل أن يجامع ؛ قال الراجز :

* إن الحُصين زَلِق وزُمَّلِق *

والوَلْق أيضا أخف الطعن . وقد وَلَقه يَلِقه وَلْقًا . يقال : وَلَقه بالسيف وَلَقات ، أى ضربات ؛ فهو مشترك .

الثالثة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ مبالغة و إلزام وتأكيد . والضمير فى « تَحْسَبُونَهُ » عائد على الحديث والخوض فيه والإذاعة له . و﴿ هَيِّنًا ﴾ أى شيئا يسيرا لا يلحقكم فيه إثم . ﴿ وهو عند الله ﴾ فى الوزر ﴿ عظيم ﴾ . وهذا مثل قوله عليه السلام فى حديث القبرين : " إنهما ليُعذَّبان وما يُعذَّبان فى كبير " أى بالنسبة إليكم .

(١) العنس : الناقة القوية .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ . يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ عتاب لجميع المؤمنين ؛ أى كان ينبغى عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه عليه الصلاة والسلام ، وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان؛ وحقيقة البهتان أن يقال فى الإنسان ما ليس فيه ، والغيبة أن يقال فى الإنسان ما فيه . وهذا المعنى قد جاء فى صحيح الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ثم وعظهم تعالى فى العودة إلى مثل هذه الحالة . و « أنْ » مفعول من أجله ، بتقدير : كراهية أن، ونحوه .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ توقيف وتوكيد ؛ كما تقول : ينبغى لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلا .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ﴾ يعنى فى عائشة ؛ لأن مثله لا يكون إلا نظير القول فى المقول عنه بعينه ، أو فيمن كان فى مرتبته من أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لما فى ذلك من إذاية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عرضه وأهله ؛ وذلك كفر من فاعله .

السابعة عشرة — قال هشام بن عمار سمعت مالكا يقول : من سبّ أبا بكر وعمر أدّب ، ومن سبّ عائشة قتل ؛ لأن الله تعالى يقول : « يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ؛ فمن سبّ عائشة فقد خالف القرآن ، ومن خالف القرآن قتل . قال ابن العربيّ : « قال أصحاب الشافعيّ من سبّ عائشة رضى الله عنها أدّب كما فى سائر المؤمنين ، وليس قوله « إن كنتم مؤمنين » فى عائشة [لأن ذلك](١) كفر ، وإنما هو كما قال عليه السلام : "لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه" . ولو كان سلب الإيمان فى سبّ من سبّ عائشة حقيقة لكان سلبه فى قوله : "لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن" حقيقة . قلنا : ليس كما زعمتم(٢) ؛ فإنّ(٣)

(١) زيادة عن ابن العربى . (٢) فى الأصول : « لئن كان كما زعمتم أن أهل » والتصويب عن ابن العربى . (٣) فى الأصول وابن العربى : « أن » بدون فاء .

أهل الإفك رَمَوْا عائشة المطهرة بالفاحشة فبرأها الله تعالى فكل من سبها بما برأها الله منه مكذّب لله ، ومن كذّب الله فهو كافر؛ فهذا طريق قول مالك[1]، وهى سبيل لامحة لأهل البصائر . ولو أن رجلا سبّ عائشة بغير ما برأها الله منه لكان جزاؤه الأدب[2] » .

الثامنة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ﴾ أى تفشو ؛ يقال : شاع الشىء شُيُوعا وشَيْعًا وشَيَعانا وشَيْعُوعة ؛ أى ظهر وتفرق . ﴿ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى فى المحصنين والمحصنات . والمراد بهذا اللفظ العام عائشةُ وصفوان رضى الله عنهما . والفاحشة : الفعل القبيح المُفْرِط القبح . وقيل : الفاحشة فى هذه الآية القولُ السيئُ . ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى الحدّ . وفى الآخرة عذاب النار؛ أى للمنافقين؛ فهو مخصوص. وقد بينا أن الحدّ للؤمنين كفارة . وقال الطبرى : معناه إن مات مُصرًّا غير تائب .

التاسعة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ أى يعلم مقدار عظم هذا الذنب والمجازاة عليه، و يعلم كل شىء . ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ روى من حديث أبى الدَّرْداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أيّما رجلٍ شَدّ عَضُدَ آمرئٍ من الناس فى خصومة لا علم له بها فهو فى سخط الله حتى ينزِع عنها . وأيّما رجل قال بشفاعته دون حدّ من حدود الله أن يقام فقد عاند الله حقا وأقدم على سخطه وعليه لعنة الله تتابع إلى يوم القيامة . وأيما رجل أشاع على رجل مسلم كلمةً وهو منها برىء يرى أن يَشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله تعالى أن يرميه بها فى النار ــ ثم تلا مصداقه من كتاب الله تعالى : ــ إن الذين يحبّون أن تَشيع الفاحشة فى الذين آمنوا " الآية .

الموفية عشرين ــ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ يعنى مسالكه ومذاهبه؛ المعنى : لا تسلكوا الطريق الذى يدعوكم إليها الشيطان . وواحد الخُطُوات خُطْوة ، وهو ما بين القدمين . والخَطْوة (بالفتح) المصدر؛ يقال : خَطَوتُ خَطْوة، وجمعها خَطَوات . وتخطّى إلينا فلان ؛ ومنه الحديث أنه رأى رجلا يَتخطّى رقابَ الناس يوم الجمعة .

---

(١) فى الأصول : « الآية » . (٢) فى الاصول : « ولو أن رجلا سب عائشة بعين ما برّأها الله منه لكان جزاؤه الكفر » . والتصويب عن ابن العربى .

وقرأ الجمهور « خُطُوات » بضم الطاء . وسكنها عاصم والأعمش . وقرأ الجمهور « مَا زكى » بتخفيف الكاف ؛ أي ما اهتدى ولا أسلم ولا عرف رُشْدا . وقيل : « ما زكى » أي ما صلح ؛ يقال : زَكَا يزكو زَكاء ؛ أي صلح . وشددها الحسن وأبو حَيْوة ؛ أي أن تزكيته لكم وتطهيره وهدايته إنما هي بفضله لا بأعمالكم . وقال الكسائي : « يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان » معترض ، وقوله « ما زكى منكم من أحدٍ أبدا » جواب لقوله أولا وثانيا « ولولا فضل الله عليكم » .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ الآية . المشهور من الروايات أن هذه الآية نزلت في قصة أبي بكر بن أبي قُحافة رضي الله عنه ومِسْطح بن أثاثة . وذلك أنه كان ابن بنت خالته وكان من المهاجرين البَدْرِيِّين المساكين . وهو مِسْطح بن أُثاثة ابن عَبّاد بن المطلب بن عبد مناف . وقيل : اسمه عَوف ، ومسطح لقب . وكان أبو بكر رضي الله عنه ينفق عليه لمسكنته وقرابته ؛ فلما وقع أمر الإفك وقال فيه مسطح ما قال ، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبدا ، فجاء مسطح فاعتذر وقال : إنما كنت أغشى مجالس حسان فأسمع ولا أقول . فقال له أبو بكر : لقد ضحكت وشاركت فيما قيل ؛ ومَرّ على يمينه ، فنزلت الآية . وقال الضحاك وابن عباس : إن جماعة من المؤمنين قطعوا منافعهم عن كل من قال في الإفك وقالوا : والله لا نصل من تكلم في شأن عائشة ؛ فنزلت الآية في جميعهم . والأول أصح ؛ غير أن الآية تتناول الأمة إلى يوم القيامة بألا يغتاظ ذو فضل وسَعة فيحلف ألا ينفع من هذه صفته غابر الدهر . روى الصحيح أن الله تبارك وتعالى لما أنزل « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم » العشر آيات ، قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره : والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة ؛ فأنزل الله تعالى « وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ — إلى قوله — أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ » . قال عبد الله بن المبارك : هذه أرْجَى آية في كتاب الله تعالى ؛ فقال أبو بكر : والله إني لأُحِبّ أن يغفر الله لي ؛ فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال : لا أنزعها منه أبدا .

الثانية والعشرون ـ فى هذه الآية دليل على أن القذف وإن كان كبيرا لا يُحبط الأعمال؛ لأن الله تعالى وصف مِسْطحا بعد قوله بالهجرة والإيمان؛ وكذلك سائر الكبائر؛ ولا يحبط الأعمال غير الشرك بالله، قال الله تعالى: « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ »(١).

الثالثة والعشرون ـ من حلف على شيء لا يفعله فرأى فعله أَوْلَى منه أتاه وكفّر عن يمينه، أو كفّر عن يمينه وأتاه؛ كما تقدم فى « المائدة »(٢). ورأى الفقهاء أن من حلف ألا يفعل سُنّة من السنن أو مندوبا وأبّد ذلك أنها جُرْحة فى شهادته؛ ذكره الباجى فى المنتقى.

الرابعة والعشرون ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ ﴾ « ولا يأتل » معناه يحلف؛ وزنها يفتعل، من الألِيّة وهى اليمين؛ ومنه قوله تعالى « لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ »؛ وقد تقدم فى « البقرة »(٣). وقالت فرقة: معناه يُقَصِّر؛ من قولك: أَلَوْتُ فى كذا إذا قصرت فيه؛ ومنه قوله تعالى « لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا »(٤).

الخامسة والعشرون ـ قوله تعالى: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ تمثيل وحجة؛ أى كما تحبون عفو الله عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم؛ وينظر إلى هذا المعنى قوله عليه السلام: "من لا يرحم لا يرحم".

السادسة والعشرون ـ قال بعض العلماء: هذه أرجى آية فى كتاب الله تعالى، من حيث لطف الله بالقذفة العصاة بهذا اللفظ. وقيل. أرجى آية فى كتاب الله عز وجل قوله تعالى: « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا »(٥). وقد قال تعالى فى آية أخرى: « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ »(٦)؛ فشرح الفضل الكبير فى هذه الآية، وبشر به المؤمنين فى تلك. ومن آيات الرجاء قوله تعالى: « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ »(٧) وقوله تعالى: « اللَّهُ لَطِيفٌ

(١) آية ٦٥ سورة الزمر. (٢) راجع ج ٦ ص ٢٦٤ وما بعدها. (٣) راجع ج ٣ ص ١٠٣
(٤) راجع ج ٤ ص ١٧٨ (٥) آية ٤٧ سورة الأحزاب. (٦) آية ٢٢ سورة الشورى.
(٧) آية ٥٣ سورة الزمر.

بعباده»[1] . وقال بعضهم : أرجى آية فى كتاب الله عز وجل : « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى »[2] ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضى ببقاء أحد من أمته فى النار .

السابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ أَنْ يُؤْتُوا ﴾ أى ألا يؤتوا ، فحذف « لا » ؛ كقول القائل : « فقلت يمين الله أبرحُ قاعدًا »[3]

ذكره الزجاج . وعلى قول أبى عبيدة لا حاجة إلى إضمار «لا» . ﴿ وَلْيَعْفُوا ﴾ من عفا الربع أى دَرَس ؛ فهو محْو الذنب حتى يعفو كما يعفو أثر الربع .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱلْمُحْصَنَاتِ ﴾ تقدم فى «النساء»[4] . وأجمع العلماء على أن حكم المحصنين فى القذف كحكم المحصنات قياسا واستدلالا ، وقد بيناه أول السورة والحمد لله . واختلف فيمن المراد بهذه الآية ؛ فقال سعيد بن جُبير : هى فى رُماة عائشة رضوان الله عليها خاصّةً . وقال قوم : هى فى عائشة وسائر أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عباس والضحاك وغيرهما . ولا تنفع التوبة . ومن قذف غيرهن من المحصنات فقد جعل الله له توبة ؛ لأنه قال : «والذين يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثم لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ — إلى قوله — إلا الَّذِينَ تابوا » فجعل الله لهؤلاء توبة ، ولم يجعل لأولئك توبة ؛ قاله الضحاك . وقيل : هذا الوعيد لمن أصرّ على القذف ولم يتب . وقيل : نزلت فى عائشة ، إلا أنه يراد بها كل من اتصف بهذه الصفة . وقيل : إنه عام لجميع الناس القذفة من ذكر وأنثى ؛ ويكون التقدير : إن الذين يرمون الأنفس المحصنات ؛ فدخل فى هذا المذكر والمؤنث ؛ واختاره النحاس . وقيل : نزلت فى مشركى مكة ؛ لأنهم يقولون للمرأة إذا هاجرت إنما خرجت لتفجُر .

(١) آية ١٩ سورة الشورى . (٢) آية ٥ سورة الضحى . (٣) هذا صدر بيت لامرئ القيس ، وتمامه
* ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى *

(٤) راجع جـ ٥ ص ١٤٠

الثانيــة : ﴿ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ قال العلماء : إن كان المراد بهذه الاية المؤمنين من القذفة فالمراد باللعنة الإبعاد وضربُ الحد واستيحاشُ المؤمنين منهم وهجْرهم لهم، وزوالهم عن رتبة العدالة والبعد عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين . وعلى قول من قال : هى خاصة لعائشة تترتب هذه الشدائد فى جانب عبد الله بن أُبَىّ وأشباهه . وعلى قول من قال : نزلت فى مشركى مكة فلا كلام، فإنهم مبعدون، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم؛ ومن أسلم فالإسلام يَجُبّ ما قبله . وقال أبو جعفر النحاس : من أحسن ما قيل فى تأويل هذه الآية إنه عام لجميع الناس القذفة من ذكر وأنثى ؛ ويكون التقدير : إن الذين يرمون الأنفس المحصنات ، فدخل فى هذا المذكر والمؤنث، وكذا فى الذين يرمون؛ إلا أنه غلب المذكر على المؤنث .

قوله تعالى : يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)

قراءة العامة بالتاء، واختاره أبو حاتم . وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة والكسائى وخلف «يشهد» بالياء، واختاره أبو عبيد؛ لأن الجار والمجرور قد حال بين الاسم والفعل، والمعنى : يوم تشهد ألسنة بعضهم على بعض بما كانوا يعملون من القذف والبهتان . وقيل : تشهد عليهم ألسنتهم ذلك اليوم بما تكلموا به . ﴿ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ ﴾ أى وتتكلم الجوارح بما عملوا فى الدنيا .

قوله تعالى : يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)

أى حسابهم وجزاؤهم . وقرأ مجاهد « يومئذ يُوفِّيهم اللهُ دينهم الحقُّ » برفع « الحق » على أنه نعت لله عز وجل . قال أبو عبيد : ولولا كراهة خلاف الناس لكان الوجه الرفع ؛ ليكون نعتا لله عز وجل ، وتكون موافقة لقراءة أُبَىّ، وذلك أن جرير بن حازم قال : رأيت فى مصحف أُبَىّ « يُوفِّيهم اللهُ الحقُّ دِينَهم » . قال النحاس : وهذا الكلام من أبى عبيد غير

عَرْضِي» ؛ لأنه احتج بما هو مخالف للسّواد الأعظم . ولا حجة أيضا فيه لأنه لو صح هذا أنه في مصحف أُبَيّ كذا جاز أن تكون القراءة : يومئذ يوفيهم الله الحق دينهم ، يكون «دينهم» بدلا من الحق . وعلى قراءة العامة « دِينَهُمُ الْحَقَّ » يكون « الحقّ » نعتا لدينهم ، والمعنى حسن ؛ لأن الله عزّ وجلّ ذكر المسيئين وأعلم أنه يجازيهم بالحق ؛ كما قال الله عزّ وجلّ : «وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ»(1) ؛ لأن مجازاة الله عزّ وجلّ للكافر والمسيء بالحق والعدل ، ومجازاته للمحسن بالإحسان والفضل . ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ اسمان من أسمائه سبحانه . وقد ذكرناهما في غير موضع ، وخاصّةً في الكتاب الأسنى .

قوله تعالى : ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

قال ابن زيد : المعنى الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون للخبيثات ، وكذا الطيّبات للطيّبين والطيّبون للطيّبات . وقال مجاهد وابن جُبير وعطاء وأكثر المفسرين : المعنى الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من القول ، وكذا الكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس ، والطيبون من الناس للطيبات من القول . قال النحاس في كتاب معاني القرآن : وهذا أحسن ما قيل في هذه الآية . ودلّ على صحة هذا القول « أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ » أي عائشة وصفوان مما يقول الخبيثون والخبيثات . وقيل : إن هذه الآية مبنية على قوله «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً» الآية ؛ فالخبيثات الزواني ، والطيبات العفائف ، وكذا الطيبون والطيبات . واختار هذا القول النحاس أيضا ، وهو معنى قول ابن زيد . ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ يعني به الجنس . وقيل : عائشة وصفوان ، بجمع ؛ كما قال : «فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ»(2) والمراد أخوان ؛ قاله الفراء .

---

(1) آية ١٧ سورة سبأ . (2) راجع جـ ٥ ص ٢

و ﴿ مُبَرَّءُونَ ﴾ يعنى منزهين مما رُمُوا به . قال بعض أهل التحقيق : إن يوسف عليه السلام لما رُمى بالفاحشة برّأه الله على لسان صبيّ فى المهد ، وإن مريم لما رُميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى صلوات الله عليه ، وإن عائشة لما رُميت بالفاحشة برّأها الله تعالى بالقرآن ؛ فما رضى لها ببراءة صبيّ ولا نبيّ حتى برّأها الله بكلامه من القذف والبهتان . وروى عن علىّ بن زيد بن جُدعان عن جدّته عن عائشة رضى الله عنها قالت : لقد أعطيت تسعا ما أعطيتهن امرأة : لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتى فى راحته حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوّجنى ، ولقد تزوّجنى بكرا وما تزوّج بكرا غيرى ، ولقد تُوفّى صلى الله عليه وسلم وإن رأسه لفى حجرى ، ولقد قُبر فى بيتى ، ولقد حفّت الملائكة بيتى ، وإن كان الوحى لينزل عليه وهو فى أهله فينصرفون عنه ، وإن كان لينزل عليه وأنا معه فى لحافه فما يُبيننى عن جسده ، وإنى لابنة خليفته وصديقه ، ولقد نزل عُذْرى من السماء ، ولقد خُلقتُ طيّبة وعند طيّب ، ولقد وُعدت مغفرة ورزقا كريما ؛ تعنى قوله تعالى « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهو الجنة .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

فيه سبع عشرة مسألة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا ﴾ لما خصّص الله سبحانه ابن آدم الذى كرّمه وفضّله بالمنازل وسترهم فيها عن الأبصار ، وملّكهم الاستمتاع بها على الانفراد ، وحجر على الخلق أن يطلعوا على ما فيها من خارج أو يلجوها من غير إذن أربابها ، أدّبهم بما يرجع إلى الستر عليهم لئلا يطلع أحد منهم على عورة . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " من اطّلع فى بيت قوم من غير إذنهم حلّ لهم أن يفقئوا عينه " . وقد اختلف فى تأويله ؛ فقال بعض العلماء : ليس هذا على ظاهره ،

فإن نقأ فعليه الضمان، والخبر منسوخ، وكان قبل نزول قوله تعالى : «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا» . ويحتمل أن يكون خرج على وجه الوعيد لا على وجه الحتم ، والخبر إذا كان مخالفا لكتاب الله تعالى لا يجوز العمل به . وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يتكلم بالكلام في الظاهر وهو يريد شيئا آخر؛ كما جاء في الخبر أن عباس بن مرداس لما مدحه قال لبلال : "قم فاقطع لسانه" وإنما أراد بذلك أن يدفع إليه شيئا، ولم يرد به القطع في الحقيقة . وكذلك هذا يحتمل أن يكون ذكر فَقْء العين والمراد أن يعمل به عمل حتى لا ينظر بعد ذلك في بيت غيره . وقال بعضهم : لا ضمان عليه ولا قصاص؛ وهو الصحيح إن شاء الله تعالى؛ لحديث أنس، على ما يأتي .

الثانية — سبب نزول هذه الآية ما رواه الطبري وغيره عن عَدِيّ بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت : يا رسول الله، إني أكون في بيتي على حال لا أحبّ أن يراني عليها أحد، لا والد ولا ولد فيأتي الأب فيدخل عليّ وإنه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع ؟ فنزلت الآية . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ، أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام ليس فيها ساكن ؛ فأنزل الله تعالى : «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ» .

الثالثة — مدّ الله سبحانه وتعالى التحريم في دخول بيت ليس هو بيتك إلى غاية هي الاستئناس، وهو الاستئذان . قال ابن وهب قال مالك : الاستئناس فيما نرى والله أعلم الاستئذان؛ وكذا في قراءة أُبَيّ وابن عباس وسعيد بن جُبير «حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا» . وقيل : إن معنى «تستأنسوا» تستعلموا؛ أي تستعلموا من في البيت . قال مجاهد : بالتنحنح أو بأي وجه أمكن ، ويتأنّى قدرَ ما يعلم أنه قد شُعِر به ، ويدخل إثْر ذلك . وقال معناه الطبري ؛ ومنه قوله تعالى : «فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا»[1] أي علمتم . وقال الشاعر :

آنستْ نَبْأة وأفزعها القنّـ * ـاص عصرًا وقد دنا الإمساء

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٦

قلت : وفي سنن ابن ماجه : حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدّثنا عبد الرحيم بن سليمان عن واصل ابن السائب عن أبي سَوْرة عن أبي أيوب الأنصاريّ قال قلنا : يارسول الله ، هذا السلام، فما الاستئذان؟ قال : "يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ويتنحنح ويؤذن أهل البيت" .

قلت : وهذا نص في أن الاستئناس غير الاستئذان؛ كما قال مجاهد ومن وافقه .

الرابعــــة ــ وروى عن ابن عبــاس وبعض الناس يقول عن سعيد بن جُبير « حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا » خطأ أو وَهَم من الكاتب ، إنما هو « حتى تستأذنوا » . وهذا غير صحيح عن ابن عباس وغيره؛ فإن مصاحف الإسلام كلها قد ثبت فيها « حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا » ، وصح الإجماع فيها من لَدُن مدّة عثمان ، فهي التي لا يجوز خلافها . وإطلاق الخطأ والوَهَم على الكاتب في لفظ أجمع الصحابة عليه قول لا يصح عن ابن عباس ؛ وقد قال عزّ وجلّ : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » ، وقال تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . وقد روى عن ابن عباس أن في الكلام تقديما وتأخيرا؛ والمعنى : حتى تسلّموا على أهلها وتستأنسوا ؛ حكاه أبو حاتم . قال ابن عطية : ومما يَنْفِي هذا القول عن ابن عباس وغيره أن « تستأنسوا » متمكنة في المعنى، بيِّنةُ الوجه في كلام العــرب . وقد قال عمر للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أستأنس يا رســول الله ؛ وعمر واقف على باب الغرفة ، الحديث المشهور . وذلك يقتضي أنه طلبَ الأنس به صلى الله عليــه وسلم، فكيف يخطّئ ابن عباس أصحاب الرسول في مثل هذا .

قلت : قد ذكرنا من حديث أبي أيوب أن الاستئناس إنما يكون قبل السلام ، وتكون الآية على بابها لا تقديم فيها ولا تأخير، وأنه إذا دخل سلّم . والله أعلم .

الخامســــة ــ السنّة في الاستئذان ثلاث مرات لا يزاد عليهــا . قال ابن وهب قال مالك : الاستئذان ثلاث، لا أحب أن يزيد أحد عليها، إلا من عَلِم أنه لم يُسمع، فلا أرى بأسا أن يزيد إذا استيقن أنه لم يَســمع . وصورة الاستئذان أن يقول الرجل : الســلام عليكم أأدخل ؛ فإن أُذن له دخل ، وإن أُمر بالرجوع انصرف ، وإن سُكت عنــه استأذن

ثلاثا ؛ ثم ينصرف من بعد الثلاث . و إنما قلنا : إن السنّة الاستئذان ثلاث مرات لا يزاد عليها لحديث أبي موسى الأشعريّ ، الذى استعمله مع عمر بن الخطاب وشهد به لأبى موسى أبو سعيد الخُدرىّ ، ثم أبيّ بن كعب . وهو حديث مشهور أخرجه الصحيح ، وهو نص صريح ؛ فإن فيه : فقال — يعنى عمر — مَا منعك أن تأتينا ؟ فقلت : أتيتُ فسلّمت على بابك ثلاث مرات فلم تَرد علىّ فرجعت ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع " . وأما ما ذكرناه من صورة الاستئذان فما رواه أبو داود عن رِبْعِىّ قال : حدّثنا رجل من بنى عامر استأذن على النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو فى بيت ، فقال : أَلِج ؟ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم لخادمه : " اخرج إلى هذا فعلّمه الاستئذان — فقال له — قل السلام عليكم أأدخل ". فسمعه الرجل فقال : السلام عليكم أأدخل ؟ فأذن له النبىّ صلى الله عليه وسلم فدخل . وذكره الطبرى وقال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأَمة له يقال لها « روضة » : " قولى لهذا يقول السلام عليكم أدخل ؟ " الحديث . وروى أن ابن عمر آذته الرمضاء يوما فأتى فسطاطا لامرأة من قريش فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فقالت المرأة : ادخل بسلام؛ فأعاد فأعادت، فقال لها : قولى ادخل . فقالت ذلك فدخل؛ فتوقف لما قالت: بسلام؛ لاحتمال اللفظ أن تريد بسلامك لا بشخصك .

السادسة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : إنما خُصّ الاستئذان بثلاث لأن الغالب من الكلام إذا كرر ثلاثا سُمِع وفُهِم؛ ولذلك كان النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى يُفْهمَ عنه ، و إذا سلّم على قوم سلّم عليهم ثلاثا . و إذا كان الغالب هذا ؛ فإذا لم يؤذن له بعد ثلاث ظهر أن ربّ المنزل لا يريد الإذن، أو لعلّه يمنعه من الجواب عنه عذر لا يمكنه قطعه ؛ فينبغى للستأذن أن ينصرف؛ لأن الزيادة على ذلك قد تقلق رب المنزل، وربما يضره الإلحاح حتى ينقطع عما كان مشغولا به ؛ كما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم لأبى أيوب حين استأذن عليه فخرج مستعجلا فقال: "لعلنا أعجلناك..." الحديث . وروى عقيل عن ابن شهاب قال : أما سنة التسليمات الثلاث فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى سعد

ابن عُبادة فقال : "السلام عليكم" فلم يردّوا، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "السلام عليكم" فلم يردّوا، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلما فَقَد سعدٌ تسليمَه عرف أنه قد انصرف؛ فخرج سعد في أثره حتى أدركه، فقال : وعليك السلام يا رسول الله، إنما أردنا أن نستكثر من تسليمك، وقد والله سمعنا؛ فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سعد حتى دخل بيته . قال ابن شهاب : فإنما أخذ التسليم ثلاثا من قِبَل ذلك؛ رواه الوليد ابن مسلم عن الأوزاعيّ قال : سمعت يحيى بن أبي كثير يقول حدثني محمد بن عبد الرحمن بن أسعد بن زُرارة [عن قيس بن سعد](١) قال : زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في منزلنا فقال : "السلام عليكم ورحمة الله" قال فردّ سعد ردًّا خفيا، قال قيس : فقلت ألا تأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال : ذره يكثر علينا من السلام ... الحديث، أخرجه أبو داود وليس فيه « قال ابن شهاب فإنما أخذ التسليم ثلاثا من قبل ذلك » . قال أبو داود : ورواه عمر بن عبد الواحد وابن سماعة عن الأوزاعيّ مرسلا لم يذكرا قيس بن سعد .

السابعــة ـ روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الاستئذان تَرْكُ العملَ به الناس . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وذلك لاتخاذ الناس الأبواب وقرعها؛ والله أعلم . روى أبو داود عن عبد الله بن بُسر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول : "السلام عليكم السلام عليكم" وذلك أن الدُّور لم يكن عليها يومئذ ستور .

الثامنــة ـ فإن كان الباب مردودا فله أن يقف حيث شاء منه ويستأذن، وإن شاء دقّ الباب؛ لما رواه أبو موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في حائط بالمدينة على قُفّ البئر(٢) فمدّ رجليه في البئر فدق الباب أبو بكر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ايذن له وبشره بالجنة" . هكذا رواه عبد الرحمن بن أبي الزناد وتابعه صالح بن كَيْسان ويونس بن يزيد؛ فرووه جميعا عن أبي الزناد عن أبي سلمة عن عبد الرحمن بن نافع

(١) زيادة عن سنن أبي داود يقتضيها السياق .
(٢) قف البئر : هو الدكة التي تجعل حولها . وأصل القف : ما غلظ من الأرض وارتفع .

من أبى موسى . وخالفهم محمد بن عمرو الليثى فرواه عن أبى الزناد عن أبى سلمة عن نافع ابن عبد الحارث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم كذلك؛ و إسناده الأوّل أصح، والله أعلم .

التاسعة — وصفة الدق أن يكون خفيفا بحيث يسمع ، ولا يعنُف فى ذلك؛ فقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كانت أبواب النبيّ صلى الله عليه وسلم تقرع بالأظافير؛ ذكره أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب فى جامعه .

العاشرة — روى الصحيحان وغيرهما عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : استأذنت على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "من هذا" ؟ فقلت أنا، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أنا أنا"! كأنه كره ذلك . قال علماؤنا : إنما كره النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك لأن قوله أنا لا يحصل بها تعريف، وإنما الحكم فى ذلك أن يذكر اسمه كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأبو موسى؛ لأن فى ذكر الاسم إسقاط كُلْفة السؤال والجواب . ثبت عن عمر بن الخطاب أنه أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو فى مَشْربة له فقال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليكم أيدخل عمر؟ وفى صحيح مسلم أن أبا موسى جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : السلام عليكم، هذا أبو موسى، السلام عليكم، هذا الأشعرى ... الحديث .

الحادية عشرة — ذكر الخطيب فى جامعه عن علىّ بن عاصم الواسطى قال : قدمت البصرة فأتيت منزل شعبة فدققت عليه الباب فقال : من هذا ؟ قلت أنا؛ فقال : يا هذا ! ما لى صديق يقال له أنا ؛ ثم خرج إلىّ فقال : حدّثنى محمد بن المُنْكَدِر عن جابر بن عبد الله قال : أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حاجة لى فطرقت عليه الباب فقال : "من هذا" ؟ فقلت أنا ؛ فقال : "أنا أنا"! كأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كره قولى هذا، أو قوله هذا. وذكر عن عمر بن شَبّة حدّثنا محمد بن سلام عن أبيه قال : دققت على عمرو بن عُبيد الباب فقال لى : من هذا؟ فقلت أنا؛ فقال : لا يعلم الغيب إلا الله . قال الخطيب : سمعت علىّ ابن المُحَسِّن القاضى يحكى عن بعض الشيوخ أنه كان إذا دُقّ بابُه فقال من ذا ؟ فقال الذى على الباب أنا، يقول الشيخ : أنا هَمٌّ دَقّ .

الثانية عشرة ــ ثم لكل قوم في الاستئذان عُرْفُهم في العبارة؛ كما رواه أبو بكر الخطيب مسندا عن أبي عبد الملك مولى أم مسكين بنت عاصم بن عمر بن الخطاب قال : أرسلتني مولاتي إلى أبي هريرة فجاء معي، فلما قام بالباب قال : أندر؟ قالت أندرون . وترجم عليه (باب الاستئذان بالفارسية) . وذكر عن أحمد بن صالح قال : كان الدَّراوَرْدِي من أهل أصبهان نزل المدينة، فكان يقول للرجل إذا أراد أن يدخل : أندرون، فلقبه أهل المدينة الدراوردي[1] .

الثالثة عشرة ــ روى أبو داود عن كَلَدة بن حنبل أن صفوان بن أُمَيّة بعثه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلبن وجَدَاية وضَغَابِيس[2] والنبيُّ صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة ، فدخلت ولم أسلم فقال : " ارجع فقل السلام عليكم " وذلك بعد ما أسلم صفوان بن أمية . وروى أبو الزبير عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من لم يبدأ بالسلام فلا تأذنوا له" . وذكر ابن جُريج أخبرني عطاء قال : سمعت أبا هريرة يقول : إذا قال الرجل أدخل؟ ولم يسلم فقل لا حتى تأتي بالمفتاح؛ فقلت السلام عليكم؟ قال نعم . وروى أن حذيفة جاءه رجل فنظر إلى ما في البيت فقال : السلام عليكم أأدخل؟ فقال حذيفة : أما بعينك فقد دخلت! وأما باستك فلم تدخل .

الرابعة عشرة ــ ومما يدخل في هذا الباب ما رواه أبو داود عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " رسولُ الرجلِ إلى الرجل إذْنُه " ؛ أي إذا أرسل إليه فقد أذن له في الدخول، يبينه قوله عليه السلام : " إذا دُعِيَ أحدكم [إلى طعام][3] فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن " . أخرجه أبو داود أيضا عن أبي هريرة .

الخامسة عشرة ــ فإن وقعت العين على العين فالسلام قد تعيّن ، ولا تُعَدّ رؤيته إذنا لك في دخولك عليه ، فإذا قضيت حق السلام لأنك الوارد عليه تقول : أدخل؟ فإن أذن لك وإلا رجعت .

---

(١) هو عبد العزيز بن محمد بن عبيد بن أبي عبيد . (راجع ترجمته في كتاب تهذيب التهذيب). (٢) الجداية : الذكر والأنثى من أولاد الظباء إذا بلغ ستة أشهر أو سبعة؛ بمنزلة الجدي من المعز. والضغابيس : القثاء؛ واحدها ضُغبوس. وقيل : هي نبت ينبت في أصول الثمام، يسلق بالخل والزيت ويؤكل . (٣) زيادة عن سنن أبي داود .

السادسة عشرة — هذه الأحكام كلها إنما هي في بيت ليس لك، فأما بيتك الذي تسكنه فإن كان فيه أهلك فلا إذن عليها، إلا أنك تسلّم إذا دخلت . قال قتادة : إذا دخلت بيتك فسلّم على أهلك، فهم أحق من سلمت عليهم . فإن كان فيه معك أمك أو أختك فقالوا: تنحنح وٱضرب برجلك حتى ينتبها لدخولك ؛ لأن الأهل لا حشمة بينك وبينها . وأما الأم والأخت فقد يكونا على حالة لا تحب أن تراهما فيها . قال ابن القاسم قال مالك : ويستأذن الرجل على أمه وأخته إذا أراد أن يدخل عليهما . وقد روى عطاء بن يسار أن رجلا قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أستأذن على أمي؟ قال "نعم" قال : إني أخدمها؟ قال : "استأذن عليها" فعاوده ثلاثا؛ قال "أتحب أن تراها عُريانة"؟ قال لا؛ قال: "فٱستأذن عليها" ذكره الطبري.

السابعة عشرة — فإن دخل بيت نفسه وليس فيه أحد؛ فقال علماؤنا : يقول السلام علينا ، من ربّنا التحيات الطيبات المباركات، لله السلام . رواه ابن وهب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وسنده ضعيف . وقال قتادة : إذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ فإنه يؤمر بذلك . قال : وذكر لنا أن الملائكة ترد عليهم . قال ابن العربي : والصحيح ترك السلام والاستئذان، والله أعلم .

قلت : قول قتادة حَسَن .

قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (٢٨)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا ﴾ الضمير في «تجدوا فيها» للبيوت التي هي بيوت الغير . وحكى الطبري عن مجاهد أنه قال : معنى قوله « فإن لم تجدوا فيها أحدا » أي لم يكن لكم فيها متاع . وضعّف الطبري هذا التأويل ، وكذلك هو في غاية الضعف؛ وكأن مجاهدا رأى أن البيوت غير المسكونة إنما تُدْخَل دون إذن إذا كان للداخل فيها متاع .

ورأى لفظة «المتاع» متاع البيت، الذى هو البُسُط والثياب؛ وهذا كله ضعيف . والصحيح أن هذه الآية مرتبطة بما قبلها والأحاديث؛ التقدير: يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا، فإن أذن لكم فادخلوا وإلا فآرجعوا؛ كما فعل عليه السلام مع سعد، وأبو موسى مع عمر رضى الله عنهما . فإن لم تجدوا فيها أحدا يأذن لكم فلا تدخلوها حتى تجدوا إذنا . وأسند الطبرى عن قتادة قال قال رجل من المهاجرين: لقد طلبت عمرى هذه الآية فما أدركتها أن أستأذن على بعض إخوانى فيقول لى آرجع فارجع وأنا مغتبط؛ لقوله تعالى: «هو أزكى لكم» .

الثانيــة ـ سواء كان الباب مغلقا أو مفتوحا؛ لأن الشرع قد أغلقه بالتحريم للدخول حتى يفتحه الإذن من ربه، بل يجب عليه أن يأتى البـاب ويحاول الإذن على صفة لا يطّلع منه على البيت لا فى إقباله ولا فى آنقلابه . فقد روى علماؤنا عن عمر بن الخطاب أنه قال: من ملأ عينيه من قاعة بيت فقد فَسَق . وروى الصحيح عن سهل بن سعد أن رجلا آطلع فى جُحْرٍ فى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم مِدْرًى[(1)] يرجل به رأسه؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو أعلم أنك تنظر لطَعَنْتُ به فى عينك إنما جعل الله الإذن من أجل البصر". وروى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لو أن رجلا آطلع عليك بغير إذن فخذفته[(2)] بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح".

الثالثــة ـ إذا ثبت أن الإذن شرط فى دخول المنزل فإنه يجوز من الصغير والكبير . وقد كان أنس بن مالك دون البلوغ يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك الصحابة مع أبنائهم وغلمانهم رضى الله عنهم . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى آخر السورة إن شاء الله تعالى .

الرابعــة ـ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ توعّدٌ لأهل التجسّس على البيوت وطلب الدخول على غفلة للمعاصى والنظر إلى ما لا يحل ولا يجوز، ولغيرهم ممن يقع فى محظور .

(١) المدرى والمدراة: شىء يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط وأطول منه يسرح به الشعر.
(٢) الخذف: رميك حصاة أو نواة تأخذها بين سبابتيك وترمى بها .

قوله تعالى : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

فيه مسألتان :

الأولى — رُوى أن بعض الناس لما نزلت آية الاستئذان تعمّق فى الأمر، فكان لا يأتى موضعا خَرِبا ولا مسكونا إلا سلّم واستأذن؛ فنزلت هذه الآية، أباح الله تعالى فيها رفع الاستئذان فى كل بيت لا يسكنه أحد؛ لأن العلة فى الاستئذان إنما هى لأجل خوف الكشفة على الحرمات؛ فإذا زالت العلة زال الحكم .

الثانيــة — اختلف العلماء فى المراد بهذه البيوت؛ فقال محمد بن الحنفيّة وقتادة ومجاهد: هى الفنادق التى فى طرق السابلة . قال مجاهد : لا يسكنها أحد بل هى موقوفة ليأوى إليها كل ابن سبيل ، وفيها متاع لهم ؛ أى استمتاع بمنفعتها . وعن محمد بن الحنفية أيضا أن المراد بها دور مكة ؛ ويبيّنه قول مالك . وهذا على القول بأنها غير متملّكة، وأن الناس شركاء فيها، وأن مكة أخذت عَنْوة . وقال ابن زيد والشَّعْبيّ : هى حوانيت القَيْسَاريّات . قال الشعبيّ : لأنهم جاءوا ببيوعهم فجعلوها فيها ، وقالوا للناس هَلُمّ . وقال عطاء : المراد بها الخِرَب التى يدخلها الناس للبول والغائط ؛ ففى هذا أيضا متاع . وقال جابر بن زيد : ليس يعنى بالمتاع الجهاز ، ولكن ما سواه من الحاجة؛ أما منزل ينزله قوم من ليل أو نهار، أو خَرِبة يدخلها لقضاء حاجة ، أو دار ينظر إليها، فهذا متاع وكلّ منافع الدنيا متاع . قال أبو جعفر النحاس : وهذا شرح حسن من قول إمام من أئمة المسلمين ، وهو موافق للغة . والمتاع فى كلام العرب : المنفعة ؛ ومنه أمتع الله بك . ومنه « فَمَتِّعُوهُنّ » .

قلت : واختاره أيضا القاضى أبو بكر بن العربيّ وقال : أما من فسّر المتاع بأنه جميع الانتفاع فقد طبّق المفصل وجاء بالفَيْصل، وبيّن أن الداخل فيها إنما هو لما له من الانتفاع؛ فالطالب يدخل فى الخانكات وهى المدارس لطلب العلم ، والساكن يدخل الخانات

وهي الفنادق ، أي الفنادق، والزّبون يدخل الدكان للابتياع ، والحاقن يدخل الخلاء للحاجة؛ وكلٌّ يؤتى على وجهه من بابه . وأما قول ابن زيد والشّعبيّ فقول ! وذلك أن بيوت القيْسَاريّات محظورة بأموال الناس ، غير مباحة لكل من أراد دخولها بإجماع، ولا يدخلها إلا من أذن له ربها، بل أربابها موكّلون بدفع الناس .

قوله تعالى : قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ وصل تعالى بذكر الستر ما يتعلّق به من أمر النظر؛ يقال : غضّ بصره يَغُضّه غضًّا؛ قال الشاعر :

فغُضّ الطّرْف إنك من نُمَيرٍ * فلا كَعْبًا بلغْتَ ولا كلابَا

وقال عنترة :

وأغض طرفي ما بدت لِيَ جارتي * حتى يواريَ جارتي مأواها

ولم يذكر الله تعالى ما يُغَض البصر عنه ويحفظ الفرج، غير أن ذلك معلوم بالعادة، وأن المراد منه المحرّم دون المحلّل . وفي البخاري : « وقال سعيد بن أبي الحسن للحسن إن نساء العجم يكشفن صُدورهن ورءوسهن؟ قال : أصرف بصرك؛ يقول الله تعالى « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ » وقال قتادة : عمّا لا يحلّ لهم؛ « وقل للمؤمنات يَغْضُضْنَ من أبْصَارِهِنّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنّ » خائنةَ الأعْيُن [من][١] النظر إلى ما نُهِيَ عنه » .

الثانية ـ قوله تعالى : ﴿مِن أَبْصَارِهِم﴾ « من » زائدة؛ كقوله « فما منكم من أحد عنه حاجِزين »[٢] . وقيل : « من » للتبعيض؛ لأن من النظر ما يباح . وقيل : الغض النقصان؛ يقال : غض فلان من فلان أي وضع منه؛ فالبصر إذا لم يمكّن من عمله فهو موضوع منه ومنقوص . ف « من » صلة للغض، وليست للتبعيض ولا للزيادة .

(١) زيادة عن صحيح البخاري . (٢) آية ٤٧ سورة الحاقة .

الثالثــة — البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعْمَرُ طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته . ووجب التحذير منه ، وغضّه واجب عن جميع المحرّمات، وكلّ ما يخشى الفتنة من أجله؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : " إياكم والجلوس على الطُّرُقات" فقالوا : يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بُدٌّ نتحدّث فيها . فقال : " فإذا أبيْتم إلا المجلس فأعطوا الطريقَ حقّه " قالوا : وما حقُّ الطريق يا رسول الله ؟ قال : " غَضُّ البصر وكفّ الأذى وردُّ السلام والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر". رواه أبو سعيد الخُدْرِيّ، خرّجه البخاريّ ومسلم . وقال صلى الله عليه وسلم لعليّ : " لا تُتبع النظرة النظرة فإنما لك الأُولى وليست لك الثانية " . وروى الأوزاعيّ قال : حدّثني هارون بن رِئاب أن غَزْوان وأبا موسى الأشعريّ كانا في بعض مَغازيهم، فكشفت جارية فنظر إليها غَزْوان، فرفع يَده فلطم عينه حتى نَفَرت[١]، فقال : إنك للحّاظة إلى ما يضرك ولا ينفعك؛ فلقيَ أبا موسى فسأله فقال : ظلمتَ عينك، فاستغفر الله وتُب ، فإن لها أوّل نظرة وعليها ما كان بعد ذلك . قال الأوزاعي : وكان غَزْوان ملك نفسه فلم يضحك حتى مات رضي الله عنه . وفي صحيح مسلم عن جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفُجَاءة ؛ فأمرني أن أصرف بصري . وهذا يقوّي قول من يقول : إن « من » للتبعيض؛ لأن النظرة الأولى لا تُمْلَك فلا تدخل تحت خطاب تكليف، إذ وقوعها لا يتأتّى أن يكون مقصودا، فلا تكون مكتسبة فلا يكون مكلفا بها؛ فوجب التبعيض لذلك ، ولم يقل ذلك في الفرج ؛ لأنها تُملك . ولقد كره الشعبيّ أن يُديم الرجل النظر إلى ابنته أو أمه أو أخته؛ وزمانُه خير من زماننا هذا ! ! وحرام على الرجل أن ينظر إلى ذاتِ محرّمة نظر شهوة يردّدها .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ أي يستروها عن أن يراها من لا يحلّ. وقيل : « ويحفظوا فروجهم » أي عن الزنى؛ وعلى هذا القول لو قال : « من فروجهم » لجاز . والصحيح أن الجميع مراد واللفظ عام . وروى بَهْز بن حكيم بن معاوية القُشَيْرِيّ عن أبيه عن جده قال : قلت يارسول الله ، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر ؟ قال : " احفظ

(١) نفرت العين وغيرها من الأعضاء تنفِر نفورا : هاجت وورِمت .

عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك " . قال : الرجل يكون مع الرجل ؟ قال : " إن استطعت ألا يراها فافعل " . قلت : فالرجل يكون خاليا ؟ فقال : " الله أحقُّ أن يُستحيا منه من الناس " . وقد ذكرت عائشة رضى الله عنها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وحالها معه فقالت : ما رأيت ذلك منه، ولا رأى ذلك منى .

الخامسة ـ بهذه الآية حرّم العلماء نصًّا دخول الحمام بغير مئزر . وقد روى عن ابن عمر أنه قال : أطْيَب ما أنفق الرجل درهم يعطيه للحمام فى خلوة . وصح عن ابن عباس أنه دخل الحمام وهو مُحرِم بالجحفه . فدخوله جائز للرجال بالمآزر، وكذلك النساء للضرورة كغسلهن من الحيض أو النفاس أو مرض يلحقهن ؛ والأَوْلَى بهن والأفضلُ لهن غسلهن إن أمكن ذلك فى بيوتهن ؛ فقد روى أحمد بن مَنيع حدّثنا الحسن بن موسى حدّثنا ابن لَهيعة حدّثنا زَبّان عن سهل بن معاذ عن أبيه عن أم الدَّرْداء أنه سمعها تقول : لقينى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خرجت من الحمام فقال : " من أين يا أمّ الدرداء " ؟ فقالت من الحمام ؛ فقال : " والذى نفسى بيده ما من آمرأة تضع ثيابها فى غير بيت أحد من أمّهاتها إلا وهى هاتكة كلّ ستر بينها وبين الرحمن عز وجل" . وخرّج أبو بكر البزّار عن طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "احذروا بيتا يقال له الحمام" . قالوا : يا رسول الله، ينقى الوسخ؟ قال : " فاستتروا " . قال أبو محمد عبد الحق : هذا أصح إسناد حديث فى هذا الباب؛ على أن الناس يرسلونه عن طاوس ، وأما ما خرّجه أبو داود فى هذا من الحظر والإباحة فلا يصح منه شىء لضعف الأسانيد؛ وكذلك ما خرّجه الترمذى .

قلت : أما دخول الحمام فى هذه الأزمان فحرام على أهل الفضل والدِّين؛ لغلبة الجهل على الناس واستسهالهم إذا توسّطوا الحمام رمى مآزرهم، حتى يُرَى الرجل البَهِىّ ذو الشيبة قائما منتصبا وسط الحمام وخارجه باديًا عن عورته ضامًّا بين فخذيه ولا أحد يغيّر عليه . هذا أمر بين الرجال فكيف من النساء ! لا سيّما بالديار المصرية إذ حماماتهم خالية عن المظاهر التى هى عن أعين الناس سواتر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم ! .

السادســة — قال العلماء : فإن استتر فليدخل بعشرة شروط :

الأول — ألا يدخل إلا بنية التداوى أو بنية التطهير عن الرُّحَضاء[1] .

الثانى — أن يعتمد أوقات الخلوة أو قلة الناس .

الثالث — أن يستر عورته بإزار صَفيق .

الرابع — أن يكون نظره إلى الأرض أو يستقبل الحائط لئلا يقع بصره على محظور .

الخامس — أن يُغيّر ما يرى من منكر برفق؛ يقول : استتر سترك الله !

السادس — إن دلّكه أحد لا يمكّنه من عورته ، من سرته إلى ركبته إلا امرأته أو جاريته . وقد اختلف فى الفخذين هل هما عورة أم لا .

السابع — أن يدخله بأجرة معلومة بشرط أو بعادة الناس .

الثامن — أن يصبّ الماء على قدر الحاجة .

التاسع — إن لم يقدر على دخوله وحده اتفق مع قوم يحفظون أديانهم على كرائه .

العاشر — أن يتذكر به جهنم . فإن لم يمكنه ذلك كله فليستتر وليجتهد فى غضّ البصر.

ذكر الترمذىّ أبو عبد الله فى نوادر الأصول من حديث طاوس عن عبد الله بن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اتقوا بيتا يقال له الحمام" . قيل : يا رسول الله، إنه يذهب به الوسخ ويذكّر النار؛ فقال : "إن كنتم لا بُدّ فاعلين فادخلوه مستترين" . وخرّج من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نِعم البيت يدخله الرجل المسلم بيتُ الحمام — وذلك لأنه إذا دخله سأل الله الجنة واستعاذ به من النار — وبئس البيتُ يدخله الرجل بيتُ العروس" . وذلك لأنه يرغّبه فى الدنيا وينسيه الآخرة . قال أبو عبد الله : فهذا لأهل الغفلة ، صيّر الله هذه الدنيا بما فيها سببا للذّكر لأهل الغفلة ليذكروا بها آخرتهم؛ فأما أهل اليقين فقد صارت الآخرة نُصب أعينهم فلا بيت حمّام يزعجه ولا بيت عروس

(١) الرحضاء : العرق فى أثر الحمى .

يستفزه، لقد دقّت الدنيا بما فيها من الصنفين والضربين فى جنب الاخرة، حتى أن جميع نعيم الدنيا فى أعينهم كُثارة الطعام من مائدة عظيمة ، وجميع شدائد الدنيا فى أعينهم كتفلة عوقب بها مجرم أو مسيء قد كان استوجب القتل أو الصلب من جميع عقوبات أهل الدنيا .

السابعة ــ قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ أى غضّ البصر وحفظ الفرج أطهر فى الدين وأبعد من دنس الأنام . ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ ﴾ أى عالم . ﴿ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ تهديد ووعيد .

قوله تعالى : وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)

قوله تعالى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ إلى قوله ﴿ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ فيه ثلاث وعشرون مسألة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ ﴾ خصّ الله سبحانه وتعالى الإناث هنا بالخطاب على طريق التأكيد؛ فإن قوله « قل للمؤمنين » يكفى؛ لأنه قول عام يتناول الذكر والأنثى من المؤمنين، حسب كل خطاب عام فى القرآن . وظهر التضعيف فى «يَغْضُضْنَ» ولم يظهر فى «يَغُضُّوا» لأن لام الفعل من الثانى ساكنة ومن الأول متحركة، وهما فى موضع

جزم جوابا . وبدأ بالغضّ قبل الفرج لأن البصر رائد للقلب ، كما أن الحُمّى رائد الموت .
وأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال :

ألم تر أن العين للقلب رائد * فما تألف العينان فالقلب آلف

وفى الخبر "النظر سَهْم من سهام إبليس مسموم فمن غضّ بصره أورثه الله الحلاوة فى قلبه" .
وقال مجاهد : إذا أقبلت المرأة جلس الشيطان على رأسها فزيّنها لمن ينظر، فإذا أدبرت جلس على عَجُزها فزيّنها لمن ينظر. وعن خالد بن أبى عمران قال . لا تُتْبِعنّ النظرة النظرة فربما نظر العبد نظرةً نَغِل(١) منها قلبُه كما يَنْغَل الأديم فلا يُنتفع به . فأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين والمؤمنات بغض الأبصار عما لا يحل؛ فلا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة، ولا المرأة إلى الرجل؛ فإن علاقتها به كعلاقته بها ؛ وقصدها منه كقصده منها . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله كتب على آبن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فالعينان تزنيان وزناهما النظر..." الحديث . وقال الزهرى فى النظر إلى التى لم تحض من النساء : لا يصلح النظر الى شيء منهن ممن يُشْتَهى النظرُ إليهن وإن كانت صغيرة . وكره عطاء النظر إلى الجوارى اللاتى يبعن بمكة إلا أن يريد أن يشترى . وفى الصحيحين عنه عليه السلام أنه صرف وجه الفضل عن الخَثْعَمِيّة حين سألته(٢) ، وطفق الفضل ينظر إليها .
وقال عليه السلام : "الغَيْرة من الإيمان والمِذاء من النفاق" . والمِذّاء هو أن يجمع الرجل بين النساء والرجال ثم يخلّيهم يُماذى بعضهم بعضا؛ مأخوذ من المَذْى . وقيل : هو إرسال الرجال إلى النساء؛ من قولهم : مَذَيْتُ الفرس إذا أرسلتَها تَرْعَى . وكلّ ذَكَر يَمْذى، وكلّ أنثى تَقْذى؛ فلا يحلّ لآمرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تبدى زينتها إلا لمن تحلّ له، أو لمن هى محرّمة عليه على التأبيد؛ فهو آمن أن يتحرك طبعه إليها لوقوع اليأس له منها .

---

(١) النغل (بالتحريك) : الفساد . ونغل الأديم إذا عفن وتهرّى فى الدباغ فينفسد ويهلك .

(٢) فى البخارى : «عن ابن عباس قال : كان الفضل رديف النبيّ صلى الله عليه وسلم فجاءت امرأة من خثعم فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه ، فجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر ؛ فقالت : فريضة الله أدركت أبى شيخا كبيرا لا يثبت على الراحلة أفأحج عنه؟ قال نعم» .

الثانيــة ـ روى الترمذى عن نَبْهان مولى أم سلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لهـا ولميمونة وقد دخل عليها ٱبن أم مَكْتُوم : "احتجبا" فقالتا : إنه أعمى؛ قال : "أفَعَمْيَاوَانِ أنتما ألستما تُبصرانه" . فإن قيل : هذا الحديث لا يصحّ عند أهل النقل لأن راويه عن أم سلمة نبهان مولاها وهو ممن لا يحتج بحديثه . وعلى تقدير صحته فإن ذلك منه عليه السلام تغليظ على أزواجه لحرمتهن كما غلظ عليهن أمر الحجاب؛ كما أشار إليه أبو داود وغيره من الأئمة . ويبقى معنى الحديث الصحيح الثابت وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر فاطمة بنت قيس أن تعتدّ فى بيت أم شَريك؛ ثم قال : "تلك ٱمرأة يغشاها أصحابى ٱعتدى عنـد ٱبن أم مَكْتُوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك ولا يراك" . قلنا : قـد استدلّ بعض العلماء بهـذا الحديث على أن المرأة يجوز لها أن تطلع من الرجل على ما لا يجوز للرجل أن يطلع من المرأة كالرأس ومعلّق القُرْط؛ وأما العورة فلا . فعلى هذا يكون مخصصا لعموم قوله تعالى: «وقل للمؤمنات يَغْضُضْنَ من أبصارهنّ »، وتكون « من » للتبعيض كما هى فى الآية قبلها . قال ابن العربى : وإنما أمرها بالانتقال من بيت أم شَريك إلى بيت ٱبن أم مكتوم لأن ذلك أوْلى بهـا من بقائها فى بيت أم شريك؛ إذ كانت أم شريك مؤثرة بكثرة الداخل إليها، فيكثر الرائى لها، وفى بيت ٱبن أم مكتوم لا يراها أحد؛ فكان إمساك بصرها عنه أقرب من ذلك وأوْلى، فرخص لها فى ذلك، والله أعلم .

الثالثــة ـ أمر الله سبحانه وتعـالى النساء بألا يبدين زينتهن للناظرين، إلا ما استثناه من الناظرين فى باقى الآية حذارا من الافتتان، ثم استثنى ما يظهر من الزينة؛ واختلف الناس فى قدر ذلك؛ فقال ابن مسعود : ظاهر الزينة هو الثياب . وزاد ابن جبير الوجه . وقال سعيد بن جبير أيضا وعطاء والأوزاعى : الوجه والكفان والثياب . وقال ابن عباس وقتادة والمِسْوَر بن مَخْرَمة : ظاهر الزينة هو الكحل والسّوار والخضاب إلى نصف الذراع والقِرطة والفَتَخ[1]؛ ونحو هذا فمباح أن تُبديه المرأة لكل من دخل عليها من النّاس . وذكر الطبرى عن

(١) الفتخ (بفتحتين جمع الفتخة) : خواتيم كبار تلبس فى الأيدى .

قتادة في معنى نصف الذراع حديثا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وذكر آخر عن عائشة رضي الله عنها عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إذا عركت[1] أن تظهر إلا وجهها و يديها إلى هاهنا " وقبض على نصف الذراع . قال ابن عطية : ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بألا تُبدى وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لابدّ منه ، أو إصلاح شأن ونحو ذلك . فـ«ـما ظهر» على هذا الوجه مما تؤدّى إليه الضرورة في النساء فهو المعفوّ عنه .

قلت : هذا قول حسن ، إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورَهما عادةً وعبادةً وذلك في الصلاة والحج ، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما . يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لها : " يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرَى منها إلا هذا " وأشار إلى وجهه وكفّيه . فهذا أقوى في جانب الاحتياط ؛ ولمراعاة فساد الناس فلا تُبدى المرأة من زينتها إلا ما ظهر من وجهها وكفّيها ، والله الموفق لا ربّ سواه . وقد قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد من علمائنا : إن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفّيها الفتنةُ فعليها ستر ذلك ؛ و إن كانت عجوزا أو مُقَبَّحة جاز أن تكشف وجهها وكفّيها .

الرابعة — الزينة على قسمين : خِلْقية ومُكْتَسَبة ؛ فالخِلْقية وجهها فإنه أصل الزينة وجمال الخلقة ومعنى الحيوانية ؛ لما فيه من المنافع وطرق العلوم . وأما الزينة المكتسبة فهى ما تحاوله المرأة في تحسين خِلقتها ؛ كالثياب والحلى والكُحْل والخضاب ؛ ومنه قوله تعالى : « خُذُوا زِينَتَكُمْ » . وقال الشاعر :

يأخُذْن زينتهنّ أحسنَ ما ترَى * وإذا عُطِلن فهنّ خير عواطل

الخامسة — من الزينة ظاهر و باطن ؛ فما ظهر فمباح أبدا لكل الناس من المحارم والأجانب ؛ وقد ذكرنا ما للعلماء فيه . وأما ما بَطَن فلا يحل إبداؤه إلا لمن سمّاهم الله تعالى في هذه

(١) عركت المرأة : حاضت .

الآية ، أو حلّ محلهم . واختلف فى السُّوار ؛ فقالت عائشة : هى من الزينة الظاهرة لأنها فى اليدين . وقال مجاهد : هى من الزينة الباطنة ؛ لأنها خارج عن الكفين و إنما تكون فى الذراع . قال ابن العربى : وأما الخضاب فهو من الزينة الباطنة إذا كان فى القدمين .

السادســة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ قرأ الجمهور بسكون اللام التى هى للأمر . وقرأ أبو عمرو فى رواية ابن عباس بكسرها على الأصل ؛ لأن الأصل [فى لام] الأمر الكسر ، وحذفت الكسرة لثقلها ، و إنما تسكينها لتسكين عَضُـد وفَخْذ . و « يَضْرِبْن » فى موضع جزم بالأمر ، إلا أنه بُنى على حالة واحدة إتباعا للماضى عند سيبويه . وسبب هــذه الآية أن النسـاء كنّ فى ذلك الزمان إذا غطين رءوسهنّ بالأخمـرة وهى المقانع سَدَلْنَها من وراء الظهر . قال النقاش : كما يصنع النَّبَط ؛ فيبقى النحر والعنق والأذنان لا ستر على ذلك ؛ فأمر الله تعالى بلَيّ الخمار على الجيوب ، وهيئة ذلك أن تضرب المـرأة بخمارها على جيبها لتستر صدرها . روى البخارى عن عائشة أنها قالت : رحم الله نساءَ(1) المهاجرات الأُوَل ؛ لما نزل « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » شَقَقْن أُزُرَهن فاختمرن بها . ودخلت على عائشــة حفصةُ بنت أخيها عبــد الرحمن رضى الله عنهم وقــد اختمرت بشىء يَشِفّ عن عنقها وما هنا لك ؛ فشقّته عليها وقالت : إنما يُضرب بالكثيف الذى يستر .

السابعــة ــ الخُمُر: جمع الخِمار، وهو ما تغطّى به رأسها ؛ ومنه اختمرت المرأة وتخمّرت ، وهى حَسَنة الخِمْرة . والجيوب : جمع الجيب ، وهو موضع القطع من الدّرع والقميص ؛ وهو من الجَوْب وهو القطع . ومشهور القراءة ضم الجيم من « جيوبهنّ » . وقرأ بعض الكوفيين بكسرها بسبب الياء ؛ كقراءتهم ذلك فى : بيوت وشيوخ . والنحويون القدماء لا يجيزون هذه القراءة ويقولون : بيت و بيوت كفَلْس وفُلوس . وقال الزجاج : يجوز على أن تبدل من الضمة كسرة ؛ فأما ما روى عن حمزة من الجمع بين الضم والكسر فمحال ، لا يقدر أحد أن ينطق به إلا على الإيماء إلى ما لا يجوز . وقال مقاتل : « على جيوبهنّ » أى على صدورهنّ ؛ يعنى على مواضع جيوبهنّ .

(1) أى النساء المهاجرات . وهو نحو شجر الأراك ؛ أى شجر هو الأراك .

الثامنــــة — فى هذه الاية دليل على أن الجيْب إنمـا يكون فى الثوب موضعَ الصدر . وكذلك كانت الجيوب فى ثيـاب السلَف رضـوان الله عليهم ؛ على ما يصنعه النساء عنـدنا بالأندلس وأهـل الديار المصرية من الرجال والصبيان وغيرهم . وقد ترجم البخاريّ رحمـة الله تعالى عليه (باب جيب القميص من عند الصدر وغيره) وساق حديث أبى هريرة قال : ضرب رسول الله صلى الله عليــه وسلم مَثَل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جُبّتان من حديد قد ٱضْطرَّتْ أيديَهما إلى ثُدِيِّهما وتراقيهما ... " الحديث ، وقد تقدم بكماله[1] ، وفيـه : قال أبو هريرة : فأنا رأيت رســول الله صلى الله عليــه وسلم يقول بأصبعيه هكذا فى جَيْبه ؛ فلو رأيتَه يوسِّعها ولا تتوسّع[2] . فهذا يبيِّن لك أن جَيْبه عليه السلام كان فى صدره ؛ لأنه لو كان فى منكبه لم تكن يداه مضطرّة إلى ثَدْيَيه وتراقيه . وهذا استدلال حسن .

التاســـعة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ البَعْل هو الزوج والسيّد فى كلام العرب ؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل: "إذا ولدت الأَمَة بَعْلَها" يعنى سيدها؛ إشارة إلى كثرة السّرارى بكثرة الفتوحات، فيأتى الأولاد من الإماء فتعتق كلّ أم بولدها وكأنه سيّدها الذى مَنّ عليها بالعتق، إذ كان العتق حاصلا لهـا من سببه؛ قاله ٱبن العربىّ .

قلت : ومنه قوله عليه السلام فى مارِيَة : " أعتقها ولدُها " فنسب العتق إليه . وهذا من أحسن تأويلات هذا الحديث . والله أعلم .

مسألة — فالزوج والسيد يرى الزينة من المرأة وأكثر من الزينـة إذ كل محلٍّ من بدنها حلال له لذةً ونظرا . ولهذا المعنى بدأ بالبعولة ؛ لأن ٱطلاعهم يقع على أعظم من هذا، قال الله تعالى: «والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانُهم فإنهم غير مَلُومين»[3] .

العاشــــرة — اختلف النـاس فى جواز نظـر الرجل إلى فرج المرأة؛ على قولين : أحدهما — يجوز ؛ لأنه إذا جاز له التلذذ به فالنظر أولى . وقيل : لا يجوز ، لقول عائشة

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٥٠ . (٢) جواب « لو » محذوف ؛ أى لتعجبت .
(٣) راجع ص ١٠٥ من هذا الجزء .

رضي الله عنها في ذكر حالها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيت ذلك منه ولا رأى ذلك مني . والأول أصح ، وهـذا محمول على الأدب ؛ قاله ابن العربي . وقد قال أصْبغ من علمائنا : يجـوز له أن يلحسه بلسانه . وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد : أما الزوج والسيد فيجوز له أن ينظر إلى سائر الجسد وظاهر الفرج دون باطنه . وكذلك المرأة يجوز أن تنظر إلى عورة زوجها، والأَمَة إلى عورة سيدها .

قلت : ورُوي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " النظر إلى الفرج يورث الطمس " أي العمى ، أي في الناظر . وقيل : إن الولد بينهما يولد أعمى . والله أعلم .

الحادية عشرة — لما ذكر الله تعالى الأزواج وبدأ بهم ثنّى بذوي المحارم وسوّى بينهم في إبداء الزينـة ، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما في نفوس البشر . فلا مِرْية أن كشف الأب والأخ على المرأة أحْوَط من كشف ولد زوجها . وتختلف مراتب ما يُبْدَى لهم ؛ فيبدَى للأب مالا يجوز إبداؤه لولد الزوج . وقـد ذكر القاضي إسماعيل عن الحسن والحسين رضي الله عنهما أنهما كانا لا يريان أمهات المؤمنين . وقال ابن عباس : إن رؤيتهما لهن تحل . قال إسماعيل : أحسب أن الحسن والحسين ذهبا في ذلك إلى أن أبناء البُعُولة لم يذكروا في الآية التي في أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهي قوله تعالى : « لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِن » (١) . وقال في سورة النُّور : « وَلَا يُبْـدِينَ زِينَتَهُنَّ إلَّا لِبُعُولَتِهِنّ » الاية . فذهب ابن عبـاس إلى هذه الاية، وذهب الحسن والحسين إلى الآية الأخرى .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنّ﴾ يريد ذكور أولاد الأزواج، ويدخل فيه أولاد الأولاد وإن سَفَلوا، من ذُكران كانوا أو إناث ؛ كبني البنين وبني البنات . وكذلك آباء البعولة والأجداد وإن عَلَوْا من جهة الذكران لآباء الآباء وآباء الأمهات، وكذلك أبناؤهن وإن سَفَلوا . وكذلك أبناء البنات وإن سفلن؛ فيستوي فيـه أولاد البنين وأولاد البنات . وكذلك أخواتهن ، وهم مَن ولده الاباء والأمهات أو أحد الصّنفين . وكذلك بنـو الإخوة

(١) آية ٥٥ سورة الأحزاب .

وبنو الأخوات وإن سَفَلُوا من ذُكران كانوا أو إناث كبنى بنى الأخوات وبنى بنات الأخوات . وهذا كله فى معنى ما حرم من المناكح ، فإن ذلك على المعانى فى الولادات وهؤلاء محارم ، وقد تقدم فى « النساء »(١) . والجمهور على أن العمّ والخال كسائر المحارم فى جواز النظر لهما إلى ما يجوز لهم . وليس فى الآية ذكر الرضاع ، وهو كالنسب على ما تقدم . وعد الشعبىّ وعكرمة ليس العم والخال من المحارم. وقال عكرمة : لم يذكرهما فى الآية لأنهما تبعان لأبنائهما .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ يعنى المسلمات ، ويدخل فى هذا الإماء المؤمنات ، ويخرج منه نساء المشركين من أهل الذمة وغيرهم ؛ فلا يحل لامرأة مؤمنة أن تكشف شيئا من بدنها بين يدى امرأة مشركة إلا أن تكون أمة لها ؛ فذلك قوله تعالى : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ » . وكان ابن جريج وعُبادة بن نُسَىّ وهشام القارئ يكرهون أن تقبّل النصرانيةُ المسلمة أو ترى عورتها ؛ ويتأوّلون « أو نسائهن » . وقال عُبادة بن نُسَىّ : وكتب عمر رضى الله عنه إلى أبى عبيدة بن الجراح : أنه بلغنى أن نساء أهل الذمّة يدخلن الحمّامات مع نساء المسلمين ؛ فامنع من ذلك ، وحُل دونه ؛ فإنه لا يجوز أن ترى الذمّية عِرْيَة(٢) المسلمة . قال : فعند ذلك قام أبو عبيدة وابتهل وقال : أيّما امرأة تدخل الحمام من غير عذر لا تريد إلا أن تبيّض وجهها فسوّد الله وجهها يوم تبيضّ الوجوه . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لا يحل للمسلمة أن تراها يهودية أو نصرانية ؛ لئلا تصفها لزوجها . وفى هذه المسألة خلاف للفقهاء . فإن كانت الكافرة أمَةً لمسلمة جاز أن تنظر إلى سيدتها ؛ وأما غيرها فلا ، لانقطاع الولاية بين أهل الإسلام وأهل الكفر ، ولما ذكرناه . والله أعلم .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ ظاهر الآية يشمل العبيد والإماء المسلمات والكتابيّات . وهو قول جماعة من أهل العلم ، وهو الظاهر من مذهب عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما . وقال ابن عباس : لا بأس أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته . وقال أشهب : سئل مالك أتلقى المرأة خمارها بين يدى الخصىّ ؟ فقال نعم ، إذا كان

(١) راجع جـ ٥ ص ١٠٥ وما بعدها (٢) عِرْيَة المرأة : ما يعرى منها وينكشف .

مملوكا لهـا أو لغيرها ؛ وأما الحر فلا . وإن كان خلا كبيرا وَغْدًا تملكه ، لا هيئة له ولا مَنْظَر فلينظر إلى شعرها . قال أشهب قال مالك : ليس بواسع أن تدخل جارية الولد أو الزوجة على الرجل المرحاضَ ؛ قال الله تعالى : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُـكُمْ » . وقال أشهب عن مالك : ينظر الغلام الوَغْد إلى شعر سيّدته ، ولا أحبه لغـلام الزوج . وقال سـعيد بن المسيب : لا تغرنكم هذه الاية «أو ما ملكت أيمانهنّ» إنما عَنَى بها الإماء ولم يَعْن بها العبيد . وكان الشعبيّ يكره أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته . وهو قول مجاهد وعطاء . وروى أبو داود عن أنس أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم أتى فاطمة بعَبْد قد وهبه لها ، قال : وعلى فاطمة ثوبٌ إذا غطّت به رأسها لم يبلغ إلى رجليها ، و إذا غطّت به رجليها لم يبلغ إلى رأسها ؛ فلما رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم ما تَلْقَى من ذلك قال : " إنه لا بأس عليك إنما هو أبوك وغلامك " .

الخامسة عشرة ــ قوله تعـالى : ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ أى غير أولى الحاجة . والإِرْبَةُ الحاجة ، يقال : أرِبْت كذا آرب أرَباً . والإِرْب والإربة والمَـأْرُبة والأَرَب : الحاجة ؛ والجمع مآرب ؛ أى حوائج . ومنه قوله تعـالى : « وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى » (1) وقد تقدم . وقال طَرَفة :

إذا المرء قال الجهل والحوب (2) والخنا * تقـدّم يوما ثم ضـاعت مآربـه

واختلف النـاس فى معـنى قوله : « أو التَّابعين غير أولى الإرْبَة » فقيل : هو الأحمق الذى لا حاجة به إلى النساء . وقيل الأبله . وقيل : الرجل يتبع القوم فيأكل معهم ويرتفق بهـم ؛ وهو ضعيف لا يكترث للنساء ولا يشتهيهن . وقيل العِنّين . وقيل الخصىّ . وقيل المخنّث . وقيل الشيخ الكبير، والصبىّ الذى لم يُدْرك . وهذا الاختلاف كلّه متقارب المعنى ، ويجتمع فيمن لا فَهْم له ولا هِمّة ينتبه بها إلى أمر النساء . وبهذه الصفة كان هِيْت المخنّث عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما سمع منه ما سمع من وصف محاسن المرأة : بادِيَة بنة غَيْلان ، أمر بالاحتجاب منه . أخرج حديثه مسلم وأبو داود ومالك فى الموطأ وغيرهم عن

(1) راجع جـ ١١ ص ١٨٧ (2) الحوب (بضم الحاء وفتحها) : الإثم . والخنا : الفحش .

هشام بن عروة عن عروة عن عائشة . قال أبو عمر : ذكر عبد الملك بن حبيب عن حبيب كاتب مالك قال قلت لمالك : إن سفيان زاد فى حديث ابنة غيلان : «أن مخنثًا يقال له هيت» وليس فى كتابك هيت ؟ فقال مالك : صدق ، هو كذلك وغرّبه النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى الحِمَى وهو موضع من ذى الحُلَيفة ذات الشمال من مسجدها . قال حبيب وقلت لمالك : وقال سفيان فى الحديث : إذا قعدت تبنّت (١) ، وإذا تكلّمت تغنّت . قال مالك : صدق ، هو كذلك . قال أبو عمر : ما ذكره حبيب كاتب مالك عن سفيان أنه قال فى الحديث يعنى حديث هشام بن عروة «أن مخنثا يدعى هيتًا» فغير معروف عند أحد من رواته عن هشام ، لا ابن عيينة ولا غيره ، ولم يقل فى نَسَق الحديث « إن مخنثا يدعى هيتا » ، وإنما ذكره عن ابن جُريج بعد تمام الحديث ، وكذلك قوله عن سفيان أنه يقول فى الحديث : إذا قعدت تبنّت وإذا تكلّمت تغنّت ، هذا ما لم يقله سفيان ولا غيره فى حديث هشام بن عروة ، وهذا اللفظ لا يوجد إلا من رواية الواقدى ، والعجب أنه يحكيه عن سفيان ويحكى عن مالك أنه كذلك ، فصارت رواية عن مالك ، ولم يروه عن مالك غير حبيب ولا ذكره عن سفيان غيره أيضا ، والله أعلم . وحبيب كاتب مالك متروك الحديث ضعيف عند جميعهم ، لا يُكتب حديثه ولا يلتفت إلى ما يجىء به . ذكر الواقدىّ والكلبى أن هيتًا المخنث قال لعبد الله بن أُمَيّة المخزومىّ وهو أخو أم سَلَمة لأبيها وأمّه عاتكة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال له وهو فى بيت أخته أمّ سلمة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع : إن فتح الله عليكم الطائف فعليك ببادية بنت غَيْلان بن سَلَمة الثقفىّ ، فإنها تُقبل بأربع وتُدبر بثمان (٢) ، مع ثغر كالأقحوان ، إن جلست تبنّت وإن تكلّمت تغنّت ، بين رجليها كالإناء المكفوء (٣) ، وهى كما قال قَيْس بن الخَطِيم :

تغترق الطرف وهى لاهية * كأنما شفّ وجهها نُزُف (٤)

(١) أى صارت كالمبناة من سمنها وعظمها . قال ابن الأثير : أى فرّجت رجليها لضخم ركبها (فرجها) ؛ كأنه شبهها بالقبة من الأدم . (٢) يعنى تقبل بأربع عكن وتدبر بثمان عُكَن . والعكن والأعكان : ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا . (٣) يعنى ضخم ركبها (فرجها) ونهوده كأنه إناء مكبوب . (٤) يقول : من نظر إليها استغرقت طرفه و بصره وشغلته عن النظر إلى غيرها ، وهى لاهية غير محتفلة . والنزف (بضم فسكون ، وحرك هنا لضرورة الشعر) : خروج الدم . وفى شرح ديوان قيس : «أراد أن فى لونها مع البياض صفرة ؛ وذلك أحسن» .

بين شُكُولِ النساء خِلقتُها * قَصْدٌ فلا جَبْلةٌ ولا قَضَفُ[(١)]

تنام عن كُبْر شأنها فإذا * قامتْ رُوَيْدًا تكاد تَنْقَصِف

فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لقد غلغلت النظر إليها يا عدوّ الله " . ثم أجلاه عن المدينة إلى الحِمَى . قال : فلما ٱفْتُتحت الطائف تزوّجها عبد الرحمن بن عوف فولدت له منه بُرَيْهة ؛ فى قول الكلبى . ولم يزل هِيت بذلك المكان حتى قُبض النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلما وَلِيَ أبو بكر كُلِّم فيه فأبى أن يردّه ، فلما وَلِيَ عمر كُلِّم فيه فأبى ، ثم كُلِّم فيه عثمان بعدُ . وقيل : إنه قد كَبِر وضَعُف وٱحتاج ، فأذن له أن يدخل كل جمعة فيسأل و يرجع إلى مكانه . قال : وكان هِيت مولًى لعبد الله بن [أبى] أمية المخزومى ، وكان له طُوَيْس[(٢)] أيضا ، فمن ثَمّ قَبِل[(٣)] الخَنَث . قال أبو عمر : يقال «بادية» بالياء و «بادنة» بالنون ، والصواب فيه عندهم بالياء ، وهو قول أكثرهم ، وكذلك ذكره الزبيرى بالياء .

السادسة عشرة ـــ وصف التابعين بـ « غير » لأن التابعين غير مقصودين بأعيانهم ، فصار اللفظ كالنكرة . و« غير » لا يتمحّض نكرة فجاز أن يجرى وصفا على المعرفة . و إن شئت قلت هو بدل . والقول فيها كالقول فى «غير المغضوب عليهم» . وقرأ عاصم وابن عامر «غيرَ» بالنصب فيكون ٱستثناء ؛ أى يبدين زينتهن للتابعين إلا ذا الإِرْبة منهم . ويجوز أن يكون حالا ؛ أى والذين يتبعونهن عاجزين عنهن ؛ قاله أبو حاتم . وذو الحال ما فى «التابعين» من الذكر .

السابعة عشرة ـــ قوله تعالى : ﴿ أَوِ الطِّفْلِ ﴾ اسم جنس بمعنى الجمع ، والدليل على ذلك نعتُه بـ « الذين » . وفى مصحف حَفْصة « أو الأطفال » على الجمع . و يقال : طفلٌ ما لم يراهق الحُلُم . و﴿ يَظْهَرُوا ﴾ معناه يطلعوا بالوطء ؛ أى لم يكشفوا عن عوراتهنّ للجماع لصغرهنّ . وقيل : لم يبلغوا أن يطيقوا النساء ؛ يقال : ظهرت على كذا أى علمته ، وظهرت

(١) الشُّكُول : الضروب . وقصْد : ليست بالجسيمة ولا النحيفة . والجَبْلة : الغليظة ؛ من جبل (كفرح) فهو جَبِل وجَبْل . والقَضَف : الدقة وقلة اللحم . (٢) طُوَيس لقب غلب عليه ، واسمه عيسى بن عبد الله ، مولى بنى مخزوم ، وهو أول من غنى بالعربى بالمدينة ، وأول من ألقى الخَنَث بها . (راجع ترجمته فى الأغانى جـ ٣ ص ٢٧ طبع دار الكتب المصرية) . (٣) فى الأصول : « قيل المخنث » والتصويب عن الأغانى .

على كذا أى قهرته . والجمهور على سكون الواو من « عورات » لاستثقال الحركة على الواو . وروى عن ابن عباس فتح الواو؛ مثل جَفْنة وجفنات . وحكى الفراء أنها لغة قيس « عورات » [بفتح] الواو . النحاس : وهذا هو القياس ؛ لأنه ليس بنعت، كما تقول : جفنة وجفنات؛ إلا أن التسكين أجود فى « عورات » وأشباهه، لأن الواو إذا تحركت وتحرك ما قبلها قُلبت ألفا؛ فلو قيل هذا لذهب المعنى .

الثامنة عشرة — اختلف العلماء فى وجوب ستر ما سوى الوجه والكفين منه على قولين : أحدهما — لا يلزم؛ لأنه لا تكليف عليه، وهو الصحيح . والآخر — يلزمه؛ لأنه قد يشتهى وقد تشتهى أيضا هى؛ فإن راهق فحكمه حكم البالغ فى وجوب السّتر. ومثله الشيخ الذى سقطت شهوته؛ اختلف فيه أيضا على قولين كما فى الصبى، والصحيح بقاء الحرمة؛ قاله ابن العربى .

التاسعة عشرة — أجمع المسلمون على أن السَّوْءتين عورة من الرجل والمرأة، وأن المرأة كلّها عورة، إلا وجهها ويديها فإنهم اختلفوا فيهما . وقال أكثر العلماء فى الرجل : من سرته إلى ركبته عورة؛ لا يجوز أن تُرَى . وقد مضى فى « الأعراف » القول فى هذا مستوفًى (١) .

المُوفية عشرين — قال أصحاب الرأى : عورة المرأة مع عبدها من السّرة إلى الركبة . ابن العربى : وكأنهم ظنّوها رجلا أو ظنوه آمرأة، والله تعالى قد حرّم المرأة على الإطلاق لنظر أو لذة، ثم آستثنى اللذة للأزواج وملك اليمين، ثم آستثنى الزينة لاثنى عشر شخصا العبد منهم، فما لنا ولذلك ! هذا نظر فاسد واجتهاد عن السداد متباعد . وقد تأول بعض الناس قولَه « أو ما ملكت أيمانهنّ » على الإماء دون العبيد؛ منهم سعيد بن المسيِّب، فكيف يحملون على العبيد ثم يلحقون بالنساء، هذا بعيد جدّا! وقد قيل : إن التقدير أو ما ملكت أيمانهنّ من غير أولى الإرْبة أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال؛ حكاه المهدوىّ .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ الآية ؛ أى لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت لتُسْمِع صوت خَلْخالها؛ فإسماع صوت الزينة كإبداء الزينة وأشدّ،

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٨٢

والغرض التستر . أسند الطبرى عن المعتمر عن أبيه أنه قال : زعم حضرمى أن امرأة اتخذت برتين[1] من فضة واتخذت جزعا[2] فجعلت فى ساقها فمرت على القوم فضربت برجلها الأرض فوقع الخلخال على الجزع فصوت ، فنزلت هذه الآية . وسماع هذه الزينة أشد تحريكا للشهوة من إبدائها ؛ قاله الزجاج .

الثانية والعشرون — من فعل ذلك منهن فرحا بحليهن فهو مكروه . ومن فعل ذلك منهن تبرجا وتعرضا للرجال فهو حرام مذموم . وكذلك من ضرب بنعله من الرجال ، إن فعل ذلك تعجبا حرم ، فإن العجب كبيرة . وإن فعل ذلك تبرجا لم يجز .

الثالثة والعشرون — قال مكى رحمه الله تعالى : ليس فى كتاب الله تعالى آية أكثر ضمائر من هذه ، جمعت خمسة وعشرين ضميرا للمؤمنات من مخفوض ومرفوع .

قوله تعالى : ﴿ وتُوبُوا إلى اللهِ جَميعًا أَيُّهَ المؤمنون ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وتُوبُوا ﴾ أمرٌ . ولا خلاف بين الأئمة فى وجوب التوبة ، وأنها فرض متعين ؛ وقد مضى الكلام فيها فى « النساء »[3] وغيرها فلا معنى لإعادة ذلك . والمعنى : وتوبوا إلى الله فإنكم لا تخلون من سهو وتقصير فى أداء حقوق الله تعالى ، فلا تتركوا التوبة فى كل حال .

الثانية — قرأ الجمهور « أَيُّهَ » بفتح الهاء . وقرأ ابن عامر بضمها ؛ ووجهه أن تجعل الهاء من نفس الكلمة ، فيكون إعراب المنادى فيها . وضعّف أبو على ذلك جدا وقال : آخر الاسم هو الياء الثانية من أى ، فالمضموم ينبغى أن يكون آخر الاسم ، ولو جاز ضم الهاء هاهنا لاقترانها بالكلمة لجاز ضم الميم فى « اللَّهُمَّ » لاقترانها بالكلمة فى كلام طويل . والصحيح أنه إذا ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم قراءة فليس إلا اعتقاد الصحة فى اللغة ، فإن القرآن هو الحجة . وأنشد الفراء :

يأيُّهَ القلبُ اللَّجُوجُ النّفس * أفق عن البيض الحسان اللعس

(١) البُرَة : الخلخال ، وكل حلقة من سوار وقرط . (٢) الجزع (بفتح الجيم) ضرب من الخرز .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٩٠

اللَّعس : لون الشَّفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلا ، وذلك يستملح ؛ يقال : شَفَة لعساء، وفتية ونسوة لُعْس . وبعضهم يقف « أيّهْ » . وبعضهم يقف «أيّها» بالألف؛ لأن علة حذفها في الوصل إنما هو سكونها وسكون اللام ، فإذا كان الوقف ذهبت العلة فرجعت الألف كما ترجع الياء إذا وقفت على « مُحِلِّ » من قوله تعالى : « غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ »(1) . وهذا الاختلاف الذي ذكرناه كذلك هو في « يأيّه الساحر » . « يأيّه الثقلان » .

قوله تعالى : وَأَنكِحُوا ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢)

فيه سبع مسائل :

الأولى — هذه المخاطبة تدخل في باب السّتر والصلاح ؛ أي زوّجوا من لا زوج له منكم فإنه طريق التعفّف ؛ والخطاب للأولياء . وقيل للأزواج . والصحيح الأوّل ؛ إذ لو أراد الأزواج لقال «وانكحوا» بغير همز، وكانت الألف للوصل . وفي هذا دليل على أن المرأة ليس لها أن تنكح نفسها بغير وليّ؛ وهو قول أكثر العلماء . وقال أبو حنيفة : إذا زوّجت الثيّب أو البكر نفسها بغير وليّ كفئا لها جاز . وقد مضى هذا في « البقرة »(2) مستوفى .

الثانيـــة — اختلف العلمــاء في هـذا الأمر على ثلاثة أقوال؛ فقال علماؤنا : يختلف الحكم في ذلك باختلاف حال المؤمن من خوف العَنت، ومن عدم صبره، ومن قوته على الصبر وزوال خشية العَنت عنه . وإذا خاف الهلاك في الدِّين أو الدنيا أو فيهما فالنكاح حتْم . وإن لم يخش شيئا وكانت الحال مطلقة فقال الشافعي: النكاح مباح. وقال مالك وأبو حنيفة : هو مستحب . تعلّق الشافعيّ بأنه قضاء لذة فكان مباحا كالأكل والشرب . وتعلّق علماؤنا بالحديث الصحيح : "من رَغِب عن سُنّتي فليس منّي" .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ الْأَيَامَى مِنكُمْ ﴾ أي الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء؛ واحدهم أيّم . قال أبو عمرو : أيامى مقلوب أيايم . واتفق أهل اللغة على أن الأيّم في الأصل

(1) أول سورة المائدة . (2) راجع جـ ٣ ص ٧٢ .

هى المرأة التى لا زوج لها، بكرا كانت أو ثيبا؛ حكى ذلك أبو عمرو والكسائى وغيرهما. تقول العرب: تأيمت المرأة إذا أقامت لا تتزوج. وفى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم: "أنا وامرأة سفعاء[1] الخدّين تأيّمت على ولدها الصّغار حتى يبلغوا أو يغنيهم الله من فضله كهاتين فى الجنة".

وقال الشاعر:

فإن تنكحى أنكح وإن تتأيّمى * وإن كنتُ أفتى منكمُ أتأيّمُ

ويقال: أيّم بيّن الأيمة. وقد آمت هى، وإمت أنا. قال الشاعر:

لقد إمتُ حتى لامنى كلّ صاحب * رجاءً بسلمى أن تئيم كما إمتُ

قال أبو عبيد: يقال رجل أيّم وامرأة أيّم؛ وأكثر ما يكون ذلك فى النساء، وهو كالمستعار فى الرجال. وقال أميّة بن أبى الصّلت:

لله درّ بنى علىّ * أيّمٍ منهم وناكح

وقال قوم: هذه الآية ناسخة لحكم قوله تعالى: «والزّانيةُ لاينكحها إلا زانٍ أو مُشرِكٌ وحُرّم ذلك على المؤمنين»[2]. وقد بيّناه فى أوّل السورة والحمد لله.

الرابعة — المقصود من قوله تعالى: «وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ» الحرائرُ والأحرار؛ ثم بيّن حكم المماليك فقال «والصّالحينَ منْ عبادكم وإمائكم». وقرأ الحسن «والصالحين من عبيدكم»، وعَبيد اسم للجمع. قال الفراء: ويجوز «وإماءَكم» بالنصب، يردّه على «الصالحين» يعنى الذكور والإناث؛ والصلاح الإيمان. وقيل: المعنى ينبغى أن تكون الرغبة فى تزويج الإماء والعبيد إذا كانوا صالحين فيجوز تزويجهم، ولكن لا ترغيب فيه ولا استحباب؛ كما قال «فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا». ثم قد تجوز الكتابة وإن لم يُعلم أن فى العبد خيرا، ولكن الخطاب ورد فى الترغيب والاستحباب، وإنما يُستحب كتابة من فيه خير.

الخامسة — أكثر العلماء على أن للسيّد أن يُكره عبده وأمته على النكاح؛ وهو قول مالك وأبى حنيفة وغيرهما. قال مالك: ولا يجوز ذلك إذا كان ضررا. وروى نحوه عن

---

(١) السفع: السواد والشحوب. أراد أنها بذلت نفسها وتركت الزينة والترفه حتى شحب لونها واسودّ إقامة على ولدها بعد وفاة زوجها.   (٢) راجع ص ١٦٧ من هذا الجزء.

الشافعيّ ، ثم قال : ليس للسيّد أن يكره العبد على النكاح . وقال النَّخَعيّ : كانوا يكرهون المماليك على النكاح و يغلقون عليهم الأبواب . تمسّك أصحاب الشافعيّ فقالوا : العبد مكلف فلا يجبر على النكاح؛ لأن التكليف يدل على أن العبد كامل من جهة الآدميّة ، و إنما تتعلق به المملوكية فيما كان حظًّا للسيد من مِلْك الرقبة والمنفعة ، بخلاف الأَمَة فإنه له حق المملوكية في بُضْعها ليستوفيه؛ فأما بُضْع العبد فلا حقّ له فيه ، ولأجل ذلك لا تباح السيّدة لعبدها . هذه عمدة أهل خراسان والعراق ، وعمدتهم أيضا الطلاق ، فإنه يملكه العبد بتملّك عقده . ولعلمائنا النكتة العظمى في أن مالكيّة العبد استغرقتها مالكية السيد؛ ولذلك لا يتزوّج إلا بإذنه بإجماع . والنكاح و بابُه إنما هو من المصالح ، ومصلحة العبد موكولة إلى السيد، هو يراها و يقيمها للعبد .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ رجع الكلام إلى الأحرار؛ أى لا تمتنعوا عن التزويج بسبب فقر الرجل والمرأة ؛ « إن يكونوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللّهُ من فَضْلِه » . وهذا وَعْدٌ بالغنى للمتزوّجين طلب رضا الله واعتصاما من معاصيه . وقال ابن مسعود : التمسوا الغنى في النكاح، وتلا هذه الآية . وقال عمر رضي الله عنه : عَجَبي ممن لا يطلب الغنى في النكاح، وقد قال الله تعالى « إن يكونوا فقراء يُغْنِهِم الله من فضله » . وروى هذا المعنى عن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا . ومن حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاثة كلّهم حقٌّ على الله عونُه المجاهد في سبيل الله والناكح يريد العفاف والمكاتَب يريد الأداء". أخرجه ابن ماجه في سننه . فإن قيل : فقد نجد الناكح لا يستغني؛ قلنا : لا يلزم أن يكون هذا على الدوام ، بل لو كان في لحظة واحدة لصدّق الوعد . وقد قيل : يغنيه ؛ أى يغنى النفس . وفي الصحيح " ليس الغِنَى عن كثرة العَرَض[1] إنما الغنى غِنَى النفس" . وقد قيل : ليس وعد لا يقع فيه خُلْف؛ بل المعنى أن المال غادٍ ورائح ، فارجوا الغنى . وقيل : المعنى يغنهم الله من فضله إن شاء؛ كقوله تعالى :

(١) العرض (بالتحريك) : متاع الدنيا وحطامها

« فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ »[1]، وقال تعالى : « يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ » . وقيل : المعنى إن يكونوا فقراء إلى النكاح يُغْنِهِمُ الله بالحلال ليتعفّفوا عن الزنى .

السابعــة ـــ هذه الآية دليل على تزويج الفقير، ولا يقول كيف أتزوج وليس لى مال؛ فإن رزقه على الله . وقد زوّج النبيّ صلى الله عليه وسلم المرأة التى أتته تَهَب له نفسها لمن ليس له إلا إزار واحد، وليس لها بعد ذلك فسخ النكاح بالإعسار لأنها دخلت عليه؛ وإنما يكون ذلك إذا دخلت على اليسار فخرج معسرا، أو طرأ الإعسار بعد ذلك لأن الجوع لا صبر عليه؛ قاله علماؤنا . وقال النقّاش : هــذه الآية حجة على من قال : إن القاضى يفرّق بين الزوجين إذا كان الزوج فقيرا لا يقدر على النفقة ؛ لأن الله تعالى قال « يُغْنِهِم الله » ولم يقل يفرّق . وهذا انتزاع ضعيف، وليس هذه الآية حكما فيمن عجز عن النفقة، وإنما هى وعد بالإغناء لمن تزوّج فقيرا . فأمّا من تزوّج موسرا وأعسر بالنفقة فإنه يفرّق بينهما؛ قال الله تعالى : « وإنْ يَتفرّقَا يُغْنِ الله كُلًّا من سَعته »[2] . ونفحات الله تعالى مأمولة فى كل حال موعود بها .

قوله تعالى : وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فيه أربع مسائل :

(١) آية ٤١ سورة الأنعام . (٢) آية ١٣٠ سورة النساء .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ ﴾ الخطاب لمن يملك أمر نفسه ، لا لمن زمامه بيد غيره فإنه يقوده إلى ما يراه ؛ كالمحجور — قولا واحدا — والأمة والعبد ؛ على أحد قولي العلماء .

الثانية — « وٱستعفف » وزنه استفعل؛ ومعناه طلب أن يكون عفيفا ؛ فأمر الله تعالى بهذه الآية كل من تعذّر عليه النكاح ولا يجده بأيّ وجهٍ تعذّر أن يستعفف . ثم لما كان أغلب الموانع على النكاح عدم المال وعد بالإغناء من فضله ؛ فيرزقه ما يتزوج به ، أو يجد امرأة ترضى باليسير من الصداق ، أو تزول عنه شهوة النساء . وروى النسائيّ عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاثة كلّهم حقّ على الله عزّ وجلّ عونُهم المجاهدُ في سبيل الله والناكح الذي يريد العفاف والمكاتب الذي يريد الأداء " .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ أي طَوْل نكاح ؛ فحذف المضاف . وقيل : النكاح هاهنا ما تُنكح به المرأة من المهر والنفقة ؛ كاللّحاف ٱسم لما يُلتحف به . واللباس اسم لما يلبس ؛ فعلى هذا لا حذف في الآية ، قاله جماعة من المفسرين ؛ وحملهم على هذا قوله تعالى : « حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ من فضله » فظنوا أن المأمور بالاستعفاف إنما هو من عدم المال الذي يتزوج به . وفي هذا القول تخصيص المأمورين بالاستعفاف ؛ وذلك ضعيف ، بل الأمر بالاستعفاف متوجّه لكل من تعذّر عليه النكاح بأيّ وجه تعذّر ، كما قدمناه ، والله تعالى أعلم .

الرابعة — من تاقت نفسه إلى النكاح فإن وجد الطَّوْل فالمستحبّ له أن يتزوج ، وإن لم يجد الطول فعليه بالاستعفاف ما أمكن ولو بالصوم فإن الصوم له وِجَاء ؛ كما جاء في الخبر الصحيح . ومن لم تتق نفسه إلى النكاح فالأولى له التخلي لعبادة الله تعالى . وفي الخبر " خيركم الخفيف الحاذِ الذي لا أهل له ولا ولد " . وقد تقدّم جواز نكاح الإماء عند عدم الطّول للحرة في « النساء »(1) والحمد لله . ولما لم يجعل الله له من العفّة والنكاح درجةً دلّ على أن ما عداهما

(1) راجع جـ ٥ ص ١٣٦ وما بعدها .

محرّم، ولا يدخل فيه ملك اليمين؛ لأنه بنصّ آخر مباح ، وهو قوله تعـالى : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيمانُكم » بخاءت فيه زيادة، ويبقى على التحريم الاستمناء ردّا على أحمد[1] . وكذلك يخرج عنه نكاح المتعة بنسخه، وقد تقدّم هذا فى « المؤمنين[1] » .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ فيه ست عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ ﴾ « الذين » فى موضع رفع . وعند الخليل وسيبويه فى موضع نصب على إضمار فعل ؛ لأن بعده أمرًا . ولما جرى ذكر العبيد والإماء فيما سبق وصل به أن العبد إن طلب الكتاب فالمستحب كتابته؛ فَرُبَّما يقصد بالكتابة أن يستقل ويكتسب ويتزوج إذا أراد، فيكون أعفّ له . قيل : نزلت فى غلام لحُوَيْطب ابن عبد العُزَّى يقال له صبح — وقيل صبيح — طلب من مولاه أن يكاتبه فأبى؛ فأنزل الله تعالى هـذه الآية ، فكاتبه حُوَيطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين دينـارا فأدّاها، وقتل بحُنَيْن فى الحرب؛ ذكره القُشَيْرِيّ وحكاه النقاش . وقال مَكِّيّ : هو صبيح القبطى غلام حاطب بن أبى بَلْتَعَة . وعلى الجملة فإن الله تعـالى أمر المؤمنين كافة أن يكاتب منهم كل من له مملوك وطلب المملوك الكتابة وعلم سيّده منه خيرا .

الثانيـة — الكتاب والمكاتبة سواء؛ مفاعلة مما لا تكون إلا بين اثنين؛ لأنها معاقدة بين السـيّد وعبده؛ يقال : كاتب يكاتب كتابا ومكاتبة ، كما يقال : قاتل قتـالا ومقاتلة . فالكتاب فى الآية مصدر كالقتال والجـلاد والدفاع . وقيـل : الكتاب هاهنا هو الكتاب المعروف الذى يكتب فيه الشيء؛ وذلك أنهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كتابا . فالمعنى يطلبون العتق الذى يُكتب به الكتاب فيدفع إليهم .

الثالثـة — معنى المكاتبة فى الشرع : هو أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤدّيه مُنَجَّما عليه ؛ فإذا أدّاه فهو حُرّ . ولها حالتان : الأولى — أن يطلبها العبد ويُجيبه السيّد ؛ فهذا

---

(١) راجع ص ١٠٥ وما بعدها من هذا الجزء .

مطلق الآية وظاهرها . الثانيـة — أن يطلبها العبد و يأباها السـيد؛ وفيها قولان : الأول لعكرمة وعطاء ومسروق وعمرو بن دينار والضحاك بن مُزاحم و جماعة أهل الظاهر أن ذلك واجب على السيد . وقال علماء الأمصار : لا يجب ذلك . وتعلّق من أوجبها بمطلق الأمر، وأفعل بمطلقه على الوجوب حتى يأتى الدليل بغيره . وروى ذلك عن عمـر بن الخطاب وابن عباس، واختاره الطبرى . واحتج داود أيضا بأن سيرين أبا محمد بن سيرين سأل أنس بن مالك الكتابة وهو مولاه فأبى أنس؛ فرفع عمر عليه الدِّرة، وتلا « فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا »، فكاتبـه أنس . قال داود : وما كان عمـر ليرفع الدّرة على أنس فيما له مبـاح ألا يفعله . وتمسك الجمهور بأن الإجماع منعقد على أنه لو سأله أن يبيعه من غيره لم يلزمه ذلك، ولم يجبر عليـه وإن ضوعف له فى الثمن . وكذلك لو قال له أعتقنى أو دَبِّرْنى أو زوّجنى لم يلزمه ذلك بإجماع، فكذلك الكتابة؛ لأنها معاوضة فلا تصح إلا عن تراضٍ . وقولهم : مطلق الأمر يقتضى الوجوب صحيح، لكن إذا عَرِى عن قرينة تقتضى صرفه عن الوجوب، وتعليقه هنا بشرط علم الخير فيه؛ فعلّق الوجوب على أمر باطن وهو علم السيّد بالخيرِيّة . وإذا قال العبد : كاتبنى؛ وقال السيد : لم أعلم فيك خيرا؛ وهو أمر باطن، فيرجع فيه إليه و يعوّل عليه . وهذا قوىّ فى بابه .

الرابعـــة — واختلف العلماء فى قوله تعالى : ﴿ خَيْرًا ﴾ فقال ابن عباس وعطاء : المـال . مجاهد : المـال والأداء . الحسن والنَّخَعِىّ : الدِّين والأمانة . وقال مالك : سمعت بعض أهل العـلم يقولون هو القوّة على الاكتساب والأداء . وعن الليث نحوه، وهو قول الشافعىّ . وقال عَبيدة السَّلْمانِىّ : إقامة الصلاة والخير[(١)] . قال الطحاوى : وقول من قال إنه المـال لا يصح عندنا؛ لأن العبـد مالٌ لمولاه، فكيف يكون له مال . والمعنى عندنا : إنْ علمتم فيهم الدِّين والصدق، وعلمتم أنهم يعاملونكم على أنهم متعبّدون بالوفاء لكم بما عليهم من الكتابة والصدق فى المعاملة فكاتبوهم . وقال أبو عمر : من لم يقل إن الخير هنا المـال أنكر أنْ يقال إن علمتم فيهم مالا، وإنما يقال : علمت فيه الخير والصلاح والأمانة؛ ولا يقال : علمت فيه المـال، وإنما يقال علمت عنده المـال .

(١) لعل كلمة « والخير » مقحمة .

قلت : وحديث بَريرة يرد قول من قال : إن الخير المالُ ؛ على ما يأتى .

الخامسة — اختلف العلماء فى كتابة من لا حِرْفة له ؛ فكان ابن عمر يكره أن يكاتب عبده إذا لم تكن له حِرْفة ، ويقول : أتأمرنى أن آكل أوساخ الناس ؛ ونحوه عن سَلْمان الفارسى . وروى حَكيم بن حِزام قال : كتب عمر بن الخطاب إلى عُمير بن سعد : أما بعد ! فإنه مَن قِبلَك من المسلمين أن يكاتبوا أرقّاءهم على مسألة الناس . وكرهه الأوزاعىّ وأحمد وإسحاق . ورخّص فى ذلك مالك وأبو حنيفة والشافعىّ . وروى عن علىّ رضى الله عنه أن ابن التَّياح مؤذّنه قال له : أكاتَب وليس لى مال؟ قال نعم ؛ ثم حضّ الناسَ على الصدقة علىّ ؛ فأعطونى ما فضل عن مكاتبتى ، فأتيت عليًّا فقال : اجعلها فى الرِّقاب . وقد روى عن مالك كراهة ذلك ، وأن الأَمَة التى لا حِرفة لها يكره مكاتبتها لما يؤدّى إليه من فسادها . والحجة فى السنة لا فيما خالفها . روى الأئمة عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخلتْ علىَّ بَريرة فقالت : إن أهلى كاتبونى على تسع أواق فى تسع سنين ، كلّ سنة أوقيّة ، فأعينينى ... الحديث . فهذا دليل على أن للسيد أن يكاتب عبده وهو لا شىء معه ؛ ألا ترى أن بَريرة جاءت عائشة تخبرها بأنها كاتبت أهلها وسألتها أن تعينها ، وذلك كان فى أوّل كتابتها قبل أن تؤدّى منها شيئا ؛ كذلك ذكره ابن شهاب عن عروة أن عائشة أخبرته أن بريرة جاءت تستعينها فى كتابتها ولم تكن قضت من كتابتها شيئا ؛ أخرجه البخارى وأبو داود . وفى هذا دليل على جواز كتابة الأَمَة ، وهى غير ذات صنعة ولا حرفة ولا مال ، ولم يسأل النبىّ صلى الله عليه وسلم هل لها كسب أو عمل واصب[1] أو مال ، ولو كان هذا واجبا لسأل عنه ليقع حكمه عليه ؛ لأنه بُعث مبيِّناً معلِّما صلى الله عليه وسلم . وفى هذا الحديث ما يدل على أن من تأوّل فى قوله تعالى : « إن علمتم فيهم خيرا » أن المال الخير ، ليس بالتأويل الجيد ، وأن الخير المذكور هو القوة على الاكتساب مع الأمانة . والله أعلم .

السادسة — الكتابة تكون بقليل المال وكثيره ، وتكون على أنجم ؛ لحديث بَريرة . وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء والحمد لله . فلو كاتبه على ألف درهم ولم يذكر أجلا نُجّمت

(١) وصب الشىء : دام .

عليه بقدر سعايته وإن كره السيّد . قال الشافعيّ : لا بُدّ فيها من أجل؛ وأقلها ثلاثة أنجم . واختلفوا إذا وقعت على نجم واحد فأكثر أهل العلم يجيزونها على نجم واحد . وقال الشافعيّ : لا تجوز على نجم واحد ، ولا تجوز حالّةً ألْبتّة ، وإنما ذلك عتْق على صفة ؛ كأنه قال : إذا أدّيتَ كذا وكذا فأنت حر وليست كتابة . قال ابن العربيّ : اختلف العلماء والسّلف فى الكتابة إذا كانت حالّة على قولين، واختلف قول علمائنا كاختلافهم . والصحيح فى النظر أن الكتابة مؤجّلة ؛ كما ورد بها الأثر فى حديث بَريرة حين كاتبت أهلها على تسع أواق فى كل عام أُوقيّة، وكما فعلت الصحابة؛ ولذلك سُمّيت كتابة لأنها تُكتب ويُشهد عليها ، فقد استوسق(١) الأسم والأثر ، وعَضَده المعنى ؛ فإن المال إن جعله حالّا وكان عند العبد شيء فهو مال مقاطعة وعقد مقاطعة لا عقد كتابة . وقال ابن خُوَيْزِ مَنْداد : إذا كاتبه على مال معجّل كان عتقا على مال ، ولم تكن كتابة . وأجاز غيره من أصحابنا الكتابة الحالّة وسماها قِطاعة ، وهو القياس؛ لأن الأجل فيها إنما هو فسحة للعبد فى التكسّب . ألا ترى أنه لو جاء بالمنجّم عليه قبل محَلّه لوجَب على السيد أن يأخذه ويتعجّل للمكاتَب عتقه . وتجوز الكتابة الحالّة؛ قاله الكوفيون .

قلت : لم يرد عن مالك نصّ فى الكتابة الحالّة ؛ والأصحاب يقولون : إنها جائزة ، ويسمّونها قطاعة . وأما قول الشافعى إنها لا تجوز على أقل من ثلاثة أنجم فليس بصحيح؛ لأنه لو كان صحيحا لجاز لغيره أن يقول : لا يجوز على أقل من خمسة نجوم؛ لأنها أقلّ النجوم التى كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بَرِيرة، وعلم بها النبيّ صلى الله عليه وسلم وقضى فيها ، فكان بصواب الحجة أوْلى . روى البخارى عن عائشة أن بَريرة دخلت عليها تستعينها فى كتابتها وعليها خمسة أواق نُجّمت عليها فى خمس سنين ... الحديث . كذا قال الليث عن يونس عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة : وعليها خمسة أواق نجمت عليها فى خمس سنين . وقال أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاءت بَريرة فقالت : إنى كاتبت أهلى على تسع أواق ... الحديث . وظاهر الروايتين

---

(١) استوسق : اجتمع .

تعارض، غير أن حديث هشام أولى لاتصاله وانقطاع حديث يونس؛ لقول البخارى : وقال الليث حدثنى يونس؛ ولأن هشاما أثبت فى حديث أبيه وجدّه من غيره، والله أعلم .

السابعــة ــ المكاتَب عبــدٌ ما بقى عليه من مال الكتابة شىء؛ لقوله عليــه السلام : "المكاتب عبد ما بقى عليــه من مكاتبته درهم" . أخرجه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه . وروى عنه أيضا أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "أيمــا عبد كاتب على مائة دينار فأدّاها إلا عشرة دنانير فهو عبد" . وهذا قول مالك والشافعى وأبى حنيفة وأصحابهم والثورىّ وأحمد وإسحاق وأبى ثور وداود والطبرى . وروى ذلك عن ابن عمر من وجوه، وعن زيد بن ثابت وعائشــة وأم سلمة ، لم يُختلف عنهم فى ذلك رضى الله عنهم . وروى ذلك عن عمر بن الخطاب ، وبه قال ابن المسيّب والقاسم وسالم وعطاء . قال مالك : وكل من أدركنا ببلدنا يقول ذلك . وفيها قول آخر روى عن علىّ أنه إذا أدّى الشطر فهو غريم؛ وبه قال النَّخَعىّ . وروى ذلك عن عمر رضى الله عنه، والإسناد عنه بأن المكاتَب عبد ما بقى عليه درهم ، خيرٌ من الإسناد عنه بأن المكاتَب إذا أدّى الشطر فلا رقّ عليه؛ قاله أبو عمر . وعن علىّ أيضا يعتق منه بقدر ما أدّى . وعنه أيضا أن العَتاقة تجرى فيــه بأول نجم يؤدّيه . وقال ابن مسعود : إذا أدى ثلث الكتابة فهو عتيق غريم؛ وهــذا قول شريح . وعن ابن مسعود : لو كانت الكتابة مائتى دينار وقيمة العبد مائة دينار فأدّى العبدُ المائة التى هى قيمته عتق؛ وهو قول النَّخَعىّ أيضا . وقول سابع ــ إذا أدّى الثلاثة الأرباع وبقى الربع فهو غريم ولا يعود عبدا؛ قاله عطاء بن أبى رَباح، رواه ابن جريج عنه . وحكى عن بعض السلف أنه بنفس عقد الكتابة حرّ، وهو غريم بالكتابة ولا يرجع إلى الرق أبدا . وهذا القول يردّه حديث بَريرة لصحته عن النبىّ صلى الله عليــه وسلم . وفيــه دليل واضح على أن المكاتَب عبد ، ولولا ذلك ما بيعت بَريرة، ولو كان فيها شىء من العتق ما أجاز بيعَ ذلك ؛ إذ من سنّته المجمع عليها ألا يبــاع الحرّ . وكذلك كتابة سَلْمان وجُوَيْرِيَة ؛ فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم حكم لجميعهم بالرق حتى أدّوا الكتابة . وهى حجــة للجمهور فى أن المكاتَب عبد ما بقى

عليه شيء . وقد ناظر عليّ بن أبي طالب زيدَ بن ثابت في المكاتب ؛ فقال لعليّ : أكنت راجمه لو زنى ، أو مجيزا شهادته لو شهد ؟ فقال عليّ لا . فقال زيد : هو عبد ما بقي عليه شيء . وقد روى النَّسائيّ عن عليّ وابن عباس رضي الله عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " المكاتَب يَعتق منه بقدر ما أدّى ويقام عليه الحدّ بقدر ما أدّى ويرث بقدر ما عَتق منه " . وإسناده صحيح . وهو حجة لما روى عن عليّ ، ويعتضد بما رواه أبو داود عن نَبْهان مكاتَب أمّ سلمة قال سمعت أمّ سلمة تقول : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان لإحداكنّ مكاتَب وكان عنده ما يؤدّي فلتحتجب منه " . وأخرجه الترمذيّ وقال . حديث حسن صحيح . إلا أنه يحتمل أن يكون خطابا مع زوجاته ، أخذًا بالاحتياط والورع في حقهن ؛ كما قال لسَوْدة : " احتجبي منه " مع أنه قد حكم بأخوتها له ، وبقوله لعائشة وحفصة : " أفَعَمْيَاوَان أنتما ألستما تُبصرانه " يعني ٱبن أمّ مكتوم ، مع أنه قال لفاطمة بنت قيس : " اعتدّى عند ٱبن أم مكتوم " وقد تقدم هذا المعنى .

الثامنـــة ـــ أجمع العلماء على أن المكاتَب إذا حلّ عليه نَجْم من نجومه أو نجمان أو نجومُه كلُّها فوقف السيد عن مطالبته وتركه بحاله أن الكتابة لا تنفسخ ما داما على ذلك ثابتَيْن .

التاســـعة ـــ قال مالك : ليس للعبد أن يُعجز نفسه إذا كان له مال ظاهر ، وإن لم يظهر له مال فذلك إليه . وقال الأوزاعيّ : لا يمكَّن من تعجيز نفسه إذا كان قويًّا على الأداء . وقال الشافعيّ : له أن يُعجز نفسه ، عُلم له مال أو قوةٌ على الكتابة أو لم يُعلم ؛ فإذا قال : قد عَجَزت وأبطلت الكتابة فذلك إليه . وقال مالك : إذا عَجَز المكاتَب فكلّ ما قبضه منه سيّده قبل العجز حلّ له ، كان من كسبه أو من صدقة عليه . وأما ما أُعين به على فَكاك رقبته فلم يَفِ ذلك بكتابتـه كان لكل من أعانه الرجوع بما أَعْطَى أو تحلّل منه المكاتَب . ولو أعانوه صدقة لا على فَكاك رقبته فذلك إن عجز حلّ لسيّده ولو تمّ به فكاكه وبقيت منه فضلة . فإن كان بمعنى الفَكاك ردّها إليهم بالحصص أو يحلّلونه منها . هذا كله مذهب مالك فيما ذكر ابن القاسم . وقال أكثر أهل العلم : إن ما قبضه السيد منه من كتابته ، وما فَضَل بيده بعد عجزه

من صدقة أو غيرها فهو لسيده ، يطيب له أخذ ذلك كله . هـذا قول الشافعيّ وأبي حنيفة وأصحابهما وأحمد بن حنبل ، ورواية عن شريح . وقال الثَّوْريّ : يجعل السيد ما أعطاه في الرقاب ؛ وهو قول مسروق والنَّخَعِيّ ، ورواية عن شريح . وقالت طائفة : ما قبض منه السيد فهو له ، وما فضل بيده بعد العجز فهو له دون سيده ؛ وهذا قول بعض من ذهب إلى أن العبد يملك . وقال إسحاق : ما أُعطي بحال الكتابة ردّ على أربابه .

العاشرة ـ حديث بَرِيرة على آختلاف طرقه وألفاظه يتضمّن أن بريرة وقع فيها بيع بعد كتابة تقدّمت . واختلف الناس في بيع المكاتَب بسبب ذلك . وقد ترجم البخاريّ (باب بيع المكاتب إذا رضي) . وإلى جواز بيعه للعتق إذا رضي المكاتب بالبيع ولو لم يكن عاجزا ـ ذهب ابن المنذر والدّاوُديّ ، وهو الذي آرتضاه أبو عمر بن عبد البر ، وبه قال ابن شهاب وأبو الزّناد وربيعة ؛ غير أنهم قالوا : لأن رضاه بالبيع عجز منه . وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما : لا يجوز بيع المكاتَب ما دام مكاتبا حتى يعجز ، ولا يجوز بيع كتابته بحال ؛ وهو قول الشافعيّ بمصر . وكان بالعراق يقول : بيعه جائز ، وأما بيع كتابته فغير جائزة . وأجاز مالك بيع الكتابة ؛ فإن أداها عتق ، وإلا كان رقيقا لمشتري الكتابة . ومنع من ذلك أبو حنيفة ؛ لأنه بيع غَرَر . واختلف قول الشافعيّ في ذلك بالمنع والإجازة . وقالت طائفة : يجوز بيع المكاتَب على أن يمضي في كتابته ؛ فإن أدّى عَتق وكان وَلاؤه للذي آبتاعه ، ولو عَجَز فهو عبد له . وبه قال النَّخَعِيّ وعطاء واللّيث وأحمد وأبو ثور . وقال الأوزاعيّ : لا يباع المكاتب إلا للعتق ، ويُكره أن يباع قبل عجزه ؛ وهو قول أحمد وإسحاق . قال أبو عمر : في حديث بَريرة إجازةُ بيع المكاتب إذا رضي بالبيع ولم يكن عاجزا عن أداء نَجْم قد حلّ عليه ؛ بخلاف قول من زعم أن بيع المكاتب غير جائز إلا بالعجز ؛ لأن بَريرة لم تذكر أنها عَجَزت عن أداء نجم ، ولا أخبرت بأن النجم قد حلّ عليها ، ولا قال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم أعاجزة أنت أم هل حل عليك نجم . ولو لم يجز بيع المكاتب والمكاتبة إلا بالعجز عن أداء ما قد حلّ لكان النبيّ صلى الله عليه وسلم قد سألها أعاجزة هي أم لا ، وما كان ليأذن

فى شرائها إلا بعد علمه صلى الله عليه وسلم أنها عاجزة ولو عن أداء نجم واحد قد حل عليها .
وفى حديث الزُّهْرِىّ أنها لم تكن قضت من كتابتها شيئا . ولا أعلم فى هذا الباب حجّة أصحّ من حديث بَرِيرة هذا ، ولم يُرْوَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم شىء يعارضه، ولا فى شىء من الأخبار دليل على عجزها . استدلّ من منع من بيع المكاتَب بأمور : منها أن قالوا إن الكتابة المذكورة لم تكن آنعقدت ، وأن قولها كاتبت أهلى معناه أنها راوضتهم عليها، وقدّروا مبلغها وأجلها ولم يعقدوها . وظاهر الأحاديث خلافُ هذا إذ تُؤُمِّل مساقها . وقيل : إن بريرة عجزت عن الأداء فاتفقت هى وأهلها على فسخ الكتابة، وحينئذ صح البيع ؛ إلا أن هذا إنما يتمشّى على قول من يقول : إن تعجيز المكاتب غير مفتقر إلى حكم حاكم إذا آتفق العبد والسيد عليه؛ لأن الحق لا يعدوهما ، وهو المذهب المعروف . وقال سُحْنُون : لا بدّ من السلطان ؛ وهذا إنما خاف أن يتواطآ على ترك حق الله تعالى . ويدل على صحة أنها عجزت ما رُوى أن بَرِيرة جاءت عائشة تستعينها فى كتابتها ولم تكن قضت من كتابتها شيئا؛ فقالت لها عائشة : ارجعى إلى أهلك فإن أحبّوا أن أقضى عنك كتابتك فعلت . فظاهر هذا أن جميع كتابتها أو بعضها آستحق عليها؛ لأنه لا يُقْضَى من الحقوق إلا ما وجبت المطالبة به، والله أعلم هذه التأويلات أشبه ما لهم وفيها من الدَّخَل ما بيّناه . وقال ابن المنذر : ولا أعلم حجة لمن قال ليس له بيع المكاتب إلا أن يقول لعل بريرة عَجَزت . قال الشافعىّ : وأظهر معانيه أن لمالك المكاتَب بَيْعَه .

الحادية عشرة — المكاتب إذا أدّى كتابته عتق ولا يحتاج إلى ابتداء عتق من السيد . وكذلك ولده الذين وُلدوا فى كتابته من أمته ، يَعْتِقون بعتقه ويَرِقّون برقّه ؛ لأن ولد الإنسان من أمته بمثابته اعتبارا بالحر وكذلك ولد المكاتَبة ، فإن كان لهما ولد قبل الكتابة لم يدخل فى الكتابة إلا بشرط .

الثانية عشرة — ﴿ وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِى آتَاكُمْ ﴾ هذا أمر للسادة بإعانتهم فى مال الكتابة ؛ إما بأن يعطوهم شيئا مما فى أيديهم — أعنى أيدى السادة — أو يحطّوا عنهم شيئا

من مال الكتابة . قال مالك : يوضع عن المكاتب من آخر كتابته . وقد وضع ابن عمر خمسة آلاف من خمسة وثلاثين ألفا . واستحسن عليّ رضي الله عنه أن يكون ذلك ربع الكتابة . قال الزهراوي : روى ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . واستحسن ابن مسعود والحسن بن أبي الحسن ثلثها . وقال قتادة : عشرها . ابن جُبير : يسقط عنه شيئا ، ولم يحدّه ؛ وهو قول الشافعي ، واستحسنه الثوري . قال الشافعي : والشيء أقلّ شيء يقع عليه اسم شيء ، ويجبر عليه السيد ويحكم به الحاكم على الورثة إن مات السيد . ورأى مالك رحمه الله تعالى هذا الأمر على الندب ، ولم ير لقدر الوضيعة حدّا . احتج الشافعيّ بمطلق الأمر في قوله « وآتوهم » ، ورأى أن عطف الواجب على الندب معلوم في القرآن ولسان العرب ؛ كما قال تعالى : « إن اللهَ يأمُرُ بالعَدْلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذِي القُرْبَى » وما كان مثله . قال ابن العربي : وذكره قبله إسماعيل بن إسحاق القاضي ، جعل الشافعيّ الإيتاء واجبا ، والكتابة غير واجبة ؛ فجعل الأصل غير واجب والفرع واجبا ، وهذا لا نظير له ، فصارت دعوى محضة . فإن قيل : يكون ذلك كالنكاح لا يجب فإذا انعقد وجبت أحكامه ، منها المتعة . قلنا : عندنا لا تجب المتعة فلا معنى لأصحاب الشافعيّ . وقد كاتب عثمان بن عفان عبده وحلف ألّا يحطّه... ، في حديث طويل .

قلت : وقد قال الحسن والنّخَعيّ وبُريدة إنما الخطاب بقوله « وآتوهم » للناس أجمعين في أن يتصدقوا على المكاتَبين ، وأن يعينوهم في فَكاك رقابهم . وقال زيد بن أسلم : إنما الخطاب للولاة بأن يعطوا المكاتَبين من مال الصدقة حظّهم ؛ وهو الذى تضمّنه قوله تعالى « وفي الرقاب » . وعلى هذين القولين فليس لسيد المكاتب أن يضع شيئا عن مكاتبه . ودليل هذا أنه لو أراد حطّ شيء من نجوم الكتابة لقال وضَعُوا عنهم كذا .

الثالثة عشرة — إذا قلنا : إن المراد بالخطاب السادة فرأى عمر بن الخطاب أن يكون ذلك من أوّل نجومه ، مبادرةً إلى الخير خوفا ألا يدرك آخرها . ورأى مالك رحمه الله تعالى وغيره أن يكون الوضع من آخر نجم . وعلّة ذلك أنه إذا وضع من أوّل نجم ربّما عجز العبد

فرجع هو وماله إلى السيد ، فعادت إليه وضيعته وهى شبه الصدقة . وهذا قول عبد الله بن عمر وعلىّ . وقال مجاهد : يترك له من كل نجم . قال ابن العربى : والأقوى عندى أن يكون فى آخرها ؛ لأن الإسقاط أبدا إنما يكون فى أخريات الديون .

الرابعة عشرة — المكاتب إذا بيع للعتق رضًا منه بعد الكتابة وقبض بائعه ثمنه لم يجب عليه أن يعطيه من ثمنه شيئا ، سواء باعه لعتق أو لغير عتق ، وليس ذلك كالسيد يؤدّى إليه مكاتب كتابته فيؤتيه منها ، أو يضع عنه من آخرها نجما أو ما شاء ؛ على ما أمر الله به فى كتابه ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يأمر موالى بَرِيرة بإعطائها مما قبضوا شيئا ، وإن كانوا قد باعوها للعتق .

الخامسة عشرة — اختلفوا فى صفة عقد الكتابة ؛ فقال ابن خُوَيْزِمَنْداد : صفتها أن يقول السيد لعبده كاتبتك على كذا وكذا من المال ، فى كذا وكذا نجما ، إذا أدّيته فأنت حر . أو يقول له أدّ إلىّ ألفا فى عشرة أنجم وأنت حر . فيقول العبد قد قبلت ونحو ذلك من الألفاظ ؛ فمتى أداها عتق . وكذلك لو قال العبد كاتبنى ، فقال السيد قد فعلت ، أو قد كاتبتك . قال ابن العربى : وهذا لا يلزم ؛ لأن لفظ القرآن لا يقتضيه والحال يشهد له ؛ فإن ذكره فحسن ، و إن تركه فهو معلوم لا يحتاج إليه . ومسائل هذا الباب وفروعه كثيرة ، وقد ذكرنا من أصوله جملة ، فيها لمن اقتصر عليها كفاية ، والله الموفق للهداية .

السادسة عشرة — فى ميراث المكاتب ؛ واختلف العلماء فى ذلك على ثلاثة أقوال : فمذهب مالك أن المكاتب إذا هلك وترك مالا أكثر مما بقى عليه من كتابته وله ولد ولدوا فى كتابته أو كاتب عليهم ، ورثوا ما بقى من المال بعد قضاء كتابته ؛ لأن حكمهم كحكمه ، وعليهم السعى فيما بقى من كتابته لو لم يخلف مالا ، ولا يعتقون إلا بعتقه ، ولو أدّى عنهم ما رجع بذلك عليهم ؛ لأنهم يعتقون عليه ؛ فهم أولى بميراثه لأنهم مساوون له فى جميع حاله .

والقول الثانى — أنه يؤدّى عنه من ماله جميع كتابته ، وجعل كأنه قد مات حرا ، ويرثه جميع ولده ، وسواء فى ذلك من كان حرًّا قبل موته من ولده ومن كاتب عليهم أو ولدوا

فى كتابته؛ لأنهم قد استووا فى الحرية كلهم حين تأدت عنهم كتابتهم . روى هذا القول عن علىّ وابن مسعود، ومن التابعين عن عطاء والحسن وطاوس وإبراهيم، وبه قال فقهاء الكوفة سفيان الثورىّ وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن حىّ، وإليه ذهب إسحاق .

والقول الثالث ــ أن المكاتب إذا مات قبل أن يؤدّى جميع كتابته فقد مات عبدا، وكل ما يخلفه من المال فهو لسيده؛ ولا يرثه أحد من أولاده، لا الأحرار ولا الذين معه فى كتابته؛ لأنه لما مات قبل أن يؤدى جميع كتابته فقد مات عبدا وماله لسيده، فلا يصح عتقه بعد موته؛ لأنه محال أن يعتق عبد بعد موته، وعلى ولده الذين كاتب عليهم أو ولدوا فى كتابته أن يسعَوْا فى باقى الكتابة، ويسقط عنهم منها قدر حصته، فإن أدّوا عَتَقوا لأنهم كانوا فيها تَبَعًا لأبيهم، وإن لم يؤدوا ذلك رَقُّوا . هذا قول الشافعى، وبه قال أحمد بن حنبل، وهو قول عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وعمر بن عبد العزيز والزهرى وقتادة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ روى عن جابر بن عبد الله وابن عباس رضى الله عنهم أن هذه الآية نزلت فى عبد الله بن أُبَىّ، وكانت له جاريتان إحداهما تسمى مُعاذة والأخرى مُسَيْكة، وكان يُكرههما على الزنى ويضربهما عليه ٱبتغاء الأجر وكسب الولد؛ فشكتا ذلك إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية فيه وفيمن فعل فعله من المنافقين . ومعاذة هذه أمّ خولة التى جادلت النبىّ صلى الله عليه وسلم فى زوجها . وفى صحيح مسلم عن جابر أن جارية لعبد الله بن أُبَىّ يقال لها مُسَيكة وأخرى يقال لها أُميمة فكان يُكرههما على الزنى، فشكتا ذلك إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجل « ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء ــ إلى قوله ــ غفور رحيم » .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ راجع إلى الفَتَيات، وذلك أن الفتاة إذا أرادت التحصّن فحينئذ يمكن ويتصوّر أن يكون السيد مكرها، ويمكن أن ينهى عن الإكراه . وإذا كانت الفتاة لا تريد التحصن فلا يتصور أن يقال للسيد لا تكرهها؛ لأن الإكراه لا يتصور فيها وهى مريدة للزنى . فهذا أمر فى سادة وفتيات حالُهم هذه . وإلى هذا المعنى أشار ابن العربى

فقال : إنمـا ذكر الله تعـالى إرادة التحصن من المرأة لأن ذلك هو الذى يصوّر الإكراه ؛ فأما إذا كانت هى راغبة فى الزنى لم يتصوّر إكراه ، فحصّلوه . وذهب هذا النظرُ عن كثير من المفسرين ؛ فقال بعضهم قوله : « إن أردن تحصُّنًا » راجع إلى الأيامى . قال الزجاج والحسين بن الفضل : فى الكلام تقديم وتأخير ؛ أى وأنكحوا الأيامى والصالحين من عبادكم إن أردن تحصنا . وقال بعضهم : هـذا الشرط فى قوله : « إن أردن » مُلْغًى ، ونحو ذلك ممـا يَضْعُف . والله الموفق .

قوله تعـالى : ﴿ لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى الشيء الذى تكسبه الأَمَة بفرجها ، والولد يُسـترقّ فيباع . وقيل : كان الزانى يفتدى ولده من المزنىّ بها بمائة من الإبل يدفعها إلى سـيدها .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ ﴾ أى يقهرهن . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ ﴾ لهن ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بهن . وقرأ ابن مسعود وجابر بن عبد الله وابن جبير « لهن غفور » بزيادة لهن وقد مضى الكلام فى الإكراه فى « النحل »(١) والحمد لله . ثم عدّد تعالى على المؤمنين نعمه فيما أنزل إليهم من الآيات المنيرات ، وفيها ضرب لهم من أمثال المـاضين من الأمم ليقع التحفظ ممـا وقع أولئك فيه .

قوله تعـالى : ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٨٠ وما بعدها .

النور فى كلام العرب : الأضــواء المدركة بالبصر . واستعمل مجــازا فيما صح من المعانى ولاح ؛ فيقال منه : كلام له نور . ومنه : الكتاب المنير ، ومنه قول الشاعر :

نسب كأن عليــه من شمس الضحا * نورا ومن فــلق الصباح عمــودا

والناس يقولون : فلان نور البلد ، وشمس العصر وقمره . قال :

* فإنك شمس والمــلوك كواكبٌ (١) *

وقال آخــر :

هلا خصصت من البلاد بمقصد * قمــرَ القبائل خالدَ بنــ يزيد

وقال آخــر :

إذا ســار عبد الله من مَرْوَ ليلةً * فقد ســار منها نورها و جمالهــا

فيجوز أن يقال : لله تعالى نور ، من جهة المدح لأنه أوجد الأشياء ، ونُورُ جميع الأشياء منه ابتداؤها وعنه صدورها ، وهو سبحانه ليس من الأضواء المدركة جلّ وتعالى عما يقول الظالمون عُلُوّاً كبيرا . وقــد قال هشام الجوالقى وطــائفة من المُجَسِّمة : هــو نور لا كالأنوار ، وجسم لا كالأجسام . وهــذا كله محال على الله تعالى عقلا ونقــلا على ما يعرف فى موضعه من علم الكلام . ثم إن قولهم متناقض ؛ فإن قولهم جسم أو نور حُكْمٌ عليــه بحقيقة ذلك ، وقــولهم لا كالأنوار ولا كالأجسام نفيٌ لمــا أثبتوه مــن الجسميّة والنور ؛ وذلك متناقض ، وتحقيقه فى علم الكلام . والذى أوقعهم فى ذلك ظواهر اتبعوها منها هذه الآية ، وقوله عليه السلام إذا قام من الليل يتهجّد : "اللّهمّ لك الحمد أنت نور السموات والأرض". وقال عليه السلام وقد سئل : هل رأيت ربّك ؟ فقال " رأيت نورا " . إلى غير ذلك من الأحاديث .

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ فقيل : المعنى أى به وبقدرته أنارت أضواؤها ، واستقامت أمورها ، وقامت مصنوعاتها . فالكلام على التقريب للذهن ؛ كما يقال : الملك نور أهل البلد ؛ أى به قِوام أمرها وصلاحُ جملتها ؛ لجَرَيان أموره على سنن السّداد . فهو فى الملك

(١) هذا صدر بيت للنابغة الذبيانى من قصيدة يمدح بها النعمان . وعجزه :

* اذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب *

مجاز ، وهو فى صفة الله حقيقة محضة ؛ إذ هو الذى أبدع الموجودات وخلق العقل نورًا هاديا ؛ لأن ظهور الموجود به حصل كما حصل بالضَّوْء ظهور المبصَرات ، تبارك الله تعالى لا ربّ غيره . قال معناه مجاهد والزهرى وغيرهما . قال ابن عرفة : أى منوِّر السموات والأرض . وكذا قال الضحاك والقُرَظى . كما يقولون : فلان غياثنا ؛ أى مغيثنا . وفلان زادى ؛ أى مزوِّدى . قال جرير :

وأنت لنا نور وغَيْث وعِصْمة * ونَبْتٌ لمن يرجو نَداك ورِيقُ

أى ذو وَرَق . وقال مجاهد : مدبّر الأمور فى السموات والأرض . أُبَىّ بن كعب والحسن وأبو العاليّة : مزيِّن السموات بالشمس والقمر والنجوم ، ومزيِّنُ الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين . وقال ابن عباس وأنس : المعنى الله هادى أهل السموات والأرض . والأول أعمّ للمعانى وأصح مع التأويل .

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ أى صفة دلائله التى يقذفها فى قلب المؤمن ؛ والدلائل تسمى نورا . وقد سمَّى الله تعالى كتابه نُورًا فقال : « وأنزلنا إليكم نورا مبينا »(١) وسمى نبيّه نورا فقال : « قد جاءكم من الله نُورٌ وكتابٌ مبين »(٢) . وهذا لأن الكتاب يهدى ويبيّن ، وكذلك الرسول . ووجه الإضافة إلى الله تعالى أنه مثبت الدلالة ومبيِّنها وواضعها . وتحتمل الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزء من المثال بجزء من المُمَثَّل به ، بل وقع التشبيه فيه جملة بجملة ، وذلك أن يريد مَثَل نور الله الذى هو هداه وإتقانه صنعة كل مخلوق وبراهينه الساطعة على الجملة ، كهذه الجملة من النور الذى تتخذونه أنتم على هذه الصفة ، التى هى أبلغ صفات النور الذى بين أيدى الناس ؛ فمثل نور الله فى الوضوح كهذا الذى هو منتهاكم أيها البشر . والمِشْكاة : الكَوّة فى الحائط غير النافذة ؛ قاله ابن جبير وجمهور المفسرين ، وهى أجمع للضوء ، والمصباحُ فيها أكثر إنارة منه فى غيرها ، وأصلها الوعاء يجعل فيه الشىء . والمشكاة وعاء من أَدَم كالدَّلو يبرَّد فيها الماء ؛ وهو على وزن مِفعلة كالمِقراة(٣) والمِصْفاة . قال الشاعر :

---

(١) آية ١٧٤ سورة النساء . (٢) آية ١٥ سورة المائدة . (٣) المقراة : القصعة التى يقرى الضيف فيها .

كأن عَيْنيه مِشكاتان في حجر * قِيضا اقتياصا بأطراف المناقير

وقيل : المِشْكاة عمود القنديل الذى فيه الفتيلة . وقال مجاهد : هى القنديل . وقال « فى زجاجة » لأنه جسم شفاف ، والمصباح فيه أنور منه فى غير الزجاج . والمصباح : الفتيل بناره . ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ أى فى الإنارة والضوء . وذلك يحتمل معنيين : إما أن يريد أنها بالمصباح كذلك ، و إما أن يريد أنها فى نفسها لصفائها وجودة جوهرها كذلك . وهذا التأويل أبلغ فى التعاون على النور . قال الضحاك : الكوكب الدُّرِّى هو الزُّهَرة .

قوله تعالى : ﴿ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ أى من زيت شجرة ، فحذف المضاف . والمباركة المُنَمّاة ، والزيتون من أعظم الثمار نَماء ، والرمان كذلك . والمعْسان (٢) يقتضى ذلك وقول أبى طالب يرثى مسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس :

ليتَ شِعْرِى مسافِرَ بن أبى عمـ * ـرو وليتٌ يقولها المحزونُ

بورك الميْت الغريب كما بُو * رِكَ نبعُ الرمان والزيتونُ

وقيل : من بركتهما أن أغصانهما تُورق من أسفلها الى أعلاها . وقال ابن عباس : فى الزيتونة منافع ، يُسرج بالزيت ، وهو إدام ودِهان ودباغ ، ووَقود يوقد بحطبه وتُفْله ، وليس فيه شىء إلا وفيه منفعة ، حتى الرّماد يغسل به الإِبْرِيسَم (٣) . وهى أول شجرة نبتت فى الدنيا ، وأول شجرة نبتت بعد الطوفان ، وتنبت فى منازل الأنبياء والأرض المقدسة ، ودعا لها سبعون نبيًّا بالبركة ؛ منهم إبراهيم ، ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم فإنه قال : " اللّهُمّ بارك فى الزيت والزيتون " . قاله مرتين .

قوله تعالى : ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ اختلف العلماء فى قوله تعالى « لا شَرقيّة ولا غَرْبِية » فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة وغيرهم : الشرقية التى تصيبها الشمس إذا شَرَقت

(١) ورد هذا البيت برواية اخرى فى كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى وقد نسبه لأبى زبيد . والرواية فيه :
كأنّ عينيه فى وَقْبين من حجر * قيضا ... ... الخ
والوَقْب : نقرة فى الصخرة يجتمع فيها الماء . وقيضا : شقتا . والمناقير : واحده منقار ، وهى حديدة كالفأس ينقر بها الحجر وغيره . (٢) هكذا وردت هذه الكلمة فى بعض نسخ الأصل وفى بعضها : «والمعنيان يقتضى» ولعلها « والمعنى يقتضى » . (٣) الإبريسم : معرّب ، وفيه ثلاث لغات ، وهو الحرير .

ولا تصيبها إذا غَرَبت، لأن لها ستراً . والغربيّة عكسها؛ أي أنها شجرة في صحراء ومنكشف من الأرض لا يواريها عن الشمس شيء وهو أجود لزيتها ، فليست خالصة للشرق فتسمَّى شرقية ولا للغرب فتسمَّى غربيَّة، بل هي شرقية غربية . وقال الطبري عن ابن عباس : إنها شجرة في دَوْحة قد أحاطت بها؛ فهي غير منكشفة من جهة الشرق ولا من جهة الغرب . قال ابن عطية : وهذا قول لا يصح عن ابن عباس؛ لأن الثمرة التي بهذه الصفة يفسد جناها، وذلك مشاهد في الوجود . وقال الحسن : ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا، وإنما هو مَثَل ضربه الله تعالى لنوره، ولو كانت في الدنيا لكانت إمّا شرقية وإمّا غربية . الثعلبيّ : وقد أفصح القرآن بأنها من شجر الدنيا ؛ لأنها بدل من الشجرة ، فقال « زيتونة » . وقال ابن زيد : إنها من شجر الشام؛ فإن شجر الشام لا شرقيّ ولا غربيّ ، وشجر الشام هو أفضل الشجر ، وهي الأرض المباركة . و « شرقية » نعت لـ « زيتونة » و « لا » ليست تحول بين النعت والمنعوت، «ولا غربية» عطف عليه .

قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ مبالغة في حسنه وصفائه وجودته . ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ أي اجتمع في المشكاة ضوء المصباح إلى ضوء الزجاجة وإلى ضوء الزيت فصار لذلك نور على نور . واعتقلت هذه الأنوار في المشكاة فصارت كأنور ما يكون ؛ فكذلك براهين الله تعالى واضحة ، وهي برهان بعد برهان، وتنبيه بعد تنبيه؛ كإرساله الرسل وإنزاله الكتب، ومواعظ تتكرر فيها لمن له عقل معتبر . ثم ذكر تعالى هداه لنوره من شاء وأسعد من عباده، وذكر تفضله للعباد في ضرب الأمثال لتقع لهم العبرة والنظر المؤدي إلى الإيمان . وقرأ عبد الله بن عَيّاش بن أبي ربيعة وأبو عبد الرحمن السُّلَميّ « اللهُ نَوَّر » بفتح النون والواو المشدّدة . واختلف المتأوّلون في عود الضمير في « نوره » على من يعود؛ فقال كعب الأحبار وابن جُبير : هو عائد على محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي مَثَل نور محمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن الأنباريّ : « الله نور السموات والأرض » وقف حسن، ثم تبتدئ « مَثَلُ نورِهِ كمشكاةٍ فيها مصباحٌ » على معنى نور محمد صلى الله عليه وسلم . وقال أُبَيّ بن كعب وابن جبير

أيضا والضحاك : هو عائد على المؤمنين . وفى قراءة أُبَىّ « مثل نور المؤمنين » . وروى أن فى قراءته « مثل نور المؤمن » . وروى أن فيها « مثل نور من آمن به » . وقال الحسن : هو عائد على القرآن والإيمان . قال مكّىّ : وعلى هذه الأقوال يوقف على قوله « والأرض » .
قال ابن عطية : وهذه الأقوال فيها عود الضمير على من لم يجر له ذكر، وفيها مقابلة جزء من المثال بجزء من المثَّل؛ فعلى من قال : المثَّل به محمد صلى الله عليه وسلم، وهو قول كَعْب الحِبْر[1]؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم هو المشكاة أو صدره ، والمصباح هو النبوة وما يتصل بها من عمله وهداه[2]، والزجاجة قلبه، والشجرة المباركة هى الوحى، والملائكة رسل الله إليه وسببه المتصل به ، والزيت هو الحجج والبراهين والآيات التى تضمّنها الوَحْى . ومن قال : المثّل به المؤمن، وهو قول أُبَىّ؛ فالمشكاة صدره، والمصباح الإيمان والعلم، والزجاجة قلبه، وزيتها هو الحجج والحكمة التى تضمّنها . قال أُبَىّ : فهو على أحسن الحال يمشى فى الناس كالرجل الحىّ يمشى فى قبور الأموات . ومن قال : إن المثّل به هو القرآن والإيمان؛ فتقدير الكلام: مثل نوره الذى هو الإيمان فى صدر المؤمن فى قلبه كمشكاة؛ أى كهذه الجملة . وهذا القول ليس فى مقابلة التشبيه كالأولين؛ لأن المشكاة ليست تقابل الإيمان . وقالت طائفة : الضمير فى «نوره» عائد على الله تعالى . وهذا قول ابن عباس فيما ذكر الثعلبىّ والماوَرْدِىّ والمهدوىّ، وقد تقدّم معناه . ولا يوقف على هذا القول على «الأرض» . قال المهدوىّ : الهاء لله عز وجل؛ والتقدير : الله هادى أهل السموات والأرض، مَثَل هداه فى قلوب المؤمنين كَمِشْكاة؛ وروى ذلك عن ابن عباس . وكذلك قال زيد بن أسلم، والحسن : إن الهاء لله عز وجل . وكان أُبَىّ وابن مسعود يقرأانها «مثلُ نُوره فى قلب المؤمن كمشكاة» . قال محمد بن على الترمذى : فأما غيرهما فلم يقرأها فى التنزيل هكذا، وقد وافقهما فى التأويل أن ذلك نوره فى قلب المؤمن، وتصديقه فى آية أخرى يقول « أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ »[3] .
واعتلّ الأوّلون بأن قالوا : لا يجوز أن يكون الهاء لله عز وجل؛ لأن الله عز وجل لا حَدّ

(١) الحبر (بالفتح والكسر) : العالم ذميا كان أو مسلما . وكعب الحبر (بالكسر) : منسوب الى الحبر الذى يكتب به ، لأنه صاحب كتب . (٢) فى ابن عطية : «من علمه» . (٣) آية ٢٢ سورة الزمر .

لنوره . وأمال الكسائيّ فيما روى عنه أبو عمر الدُّوريّ الألف من «مشكاة» وكسر الكاف التي قبلها . وقرأ نصر بن عاصم « زَجاجة » بفتح الزاي و « الزَّجاجة » كذلك ، وهي لغة . وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم « دُرّيّ » بضم الدال وشد الياء ، ولهذه القراءة وجهان : إمّا أن ينسب الكوكب إلى الدُّرّ لبياضه وصفائه ، وإمّا أن يكون أصله دُرِّيء مهموز ، فُعِّيل من الدَّرء وهو الدفع ، وخُفّفت الهمزة . ويقال للنجوم العظام التي لا تعرف أسماؤها : الدَّراري ، بغير همز ؛ فلعلّهم خفّفوا الهمزة ، والأصل من الدَّرء الذي هو الدفع . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم «دُرّيء» بالهمز والمد ، وهو فُعِّيل من الدَّرء ، بمعنى أنها يدفع بعضُها بعضا . وقرأ الكسائي وأبو عمرو « دِرّيء » بكسر الدال والهمز من الدرء والدفع ؛ مثل السِّكّير والفِسِّيق . قال سيبويه : أي يدفع بعض ضوئه بعضا من لمعانه . قال النحاس : وضعّف أبو عبيد قراءة أبي عمرو والكسائي تضعيفا شديدا ، لأنه تأوّلها من درأت أي دفعت ؛ أي كوكب يجري من الأفق إلى الأفق . وإذا كان التأويل على ما تأوله لم يكن في الكلام فائدة ، ولا كان لهذا الكوكب مزية على أكثر الكواكب ؛ ألا ترى أنه لا يقال جاءني إنسان من بني آدم . ولا ينبغي أن يتأوّل لمثل أبي عمرو والكسائي مع علمهما وجلالتهما هذا التأويل البعيد ، ولكن التأويل لهما على ما روى عن محمد بن يزيد أن معناهما في ذلك : كوكب مندفع بالنور ؛ كما يقال : اندرأ الحريق أي اندفع . وهذا تأويل صحيح لهذه القراءة . وحكى سعيد بن مَسْعدة أنه يقال : درأ الكوكب بضوئه إذا امتد ضوءه وعلا . وقال الجوهري في الصّحاح : ودرأ علينا فلان يدرأ دروءًا أي طلع مفاجأة . ومنه كوكب دِرّيء ، على فِعّيل ؛ مثل سِكّير وخِمّير ؛ لشدّة توقده وتلألئه . وقد درأ الكوكب دروءا . قال أبو عمرو بن العلاء : سألت رجلا من سعد بن بكر من أهل ذات عِرْق فقلت : هذا الكوكب الضخم ما تُسمّونه؟ قال : الدِّرّيء ، وكان من أفصح الناس . قال النحاس : فأما قراءة حمزة فأهل اللغة جميعا قالوا : هي لحن لا تجوز ، لأنه ليس في كلام العرب اسم على فُعِّيل . وقد اعترض أبو عبيد في هذا فاحتج لحمزة فقال : ليس هو فُعِّيل وإنما هو فُعُّول ، مثل سبوح ، أبدل من الواو ياء ؛ كما قالوا : عُتيّ . قال أبو جعفر النحاس : وهذا الاعتراض والاحتجاج من أعظم الغلط

أشدّه، لأن هذا لا يجوز ألبتّة، ولو جاز ما قال لقيل فى سُبّوح سُبّيح، وهذا لا يقوله أحد، وليس عُتِىّ من هذا، والفرق بينهما واضح بيّن؛ لأنه ليس يخلو عُتِىّ من إحدى جهتين: إما أن يكون جمع عاتٍ فيكون البدل فيه لازما، لأن الجمع باب تغيير، والواو لا تكون طرفا فى الأسماء وقبلها ضمة، فلما كان قبل هذه ساكن وقبل الساكن ضمة والساكن ليس بحاجز حصين أبدل من الضمة كسرة فقلبت الواو ياء. وإن كان عُتِىّ واحدا كان بالواو أولى، وجاز قلبها لأنها طرف، والواو فى فُعول ليست طرفا فلا يجوز قلبها. قال الجوهرى: قال أبو عبيد إن ضممت الدال قلت دُرّىّ، يكون منسوبا إلى الدر، على فُعْلِىّ ولم تهمزه لأنه ليس فى كلام العرب فُعيل. ومن همزه من القراء فإنما أراد فُعُّولا مثل سُبّوح فاستثقل فردّ بعضه إلى الكسر. وحكى الأخفش عن بعضهم «دَرِّىء» من درأته، وهمزها وجعلها على فَعِّيل مفتوحة الأول. قال: وذلك من تلألئه. قال الثعلبى: وقرأ سعيد بن المسيب وأبو رجاء «دَرِّىء» بفتح الدال مهموزا. قال أبو حاتم: هذا خطأ لأنه ليس فى الكلام فَعِّيل؛ فإن صح عنهما فهما حجة. ﴿ يُوقَدُ ﴾ قرأ شيبة ونافع وأيوب وسلام وابن عامر وأهل الشام وحفص «يوقد» بياء مضمومة وتخفيف القاف وضم الدال. وقرأ الحسن والسلمى وأبو جعفر وأبو عمرو بن العلاء البصرى «تَوَقَّد» مفتوحة الحروف كلها مشددة القاف، واختارها أبو حاتم وأبو عبيد. قال النحاس: وهاتان القراءتان متقاربتان؛ لأنهما جميعا للمصباح، وهو أشبه بهذا الوصف؛ لأنه الذى ينير ويضىء، وإنما الزجاجة وعاء له. و«تَوَقَّدَ» فعل ماض من توقّد يتوقّد، ويُوقَد فعل مستقبل من أوقد يُوقد. وقرأ نصر ابن عاصم «تَوَقَّدُ» والأصل على قراءته تتوقد حذف إحدى التاءين لأن الأخرى تدل عليها. وقرأ الكوفيون «تُوقَد» بالتاء يعنون الزجاجة. فهاتان القراءتان على تأنيث الزجاجة. ﴿ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ تقدم القول فيه. ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ على تأنيث النار. وزعم أبو عبيد أنه لا يعرف إلا هذه القراءة. وحكى أبو حاتم أن السُّدّى روى عن أبى مالك عن ابن عباس أنه قرأ «وَلَوْ لم يمسسه نار» بالياء. قال محمد بن يزيد: التذكير على أنه تأنيث غير حقيقى، وكذا سبيل المؤنث عنده.

وقال ابن عمر : المشكاة جَوْف محمد صلى الله عليه وسلم، والزجاجة قلبه، والمصباح النور الذى جعله الله تعالى فى قلبه يوقد من شجرة مباركة؛ أى أن أصله من إبراهيم وهو شجرته ؛ فأوقد الله تعالى فى قلب محمد صلى الله عليه وسلم النور كما جعله فى قلب إبراهيم عليه السلام . وقال محمد بن كعب : المشكاة إبراهيم ، والزجاجة إسماعيل ، والمصباح محمد صلوات الله عليهم أجمعين؛ سمّاه الله تعالى مصباحا كما سماه سراجا فقال : «وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا» يوقد من شجرة مباركة وهى آدم عليه السلام ، بُورك فى نسله وكَثُر منه الأنبياء والأولياء . وقيل : هى إبراهيم عليه السلام ، سمّاه الله تعالى مباركا لأن أكثر الأنبياء كانوا من صُلْبه . ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أى لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيا وإنما كان حَنيفًا مسلما . وإنما قال ذلك لأن اليهود تصلّى قِبَل المغرب والنصارى تصلّى قبل المشرق . ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ﴾ أى يكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل أن أوحى الله تعالى إليه . ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ نَبِيٌّ من نَسْل نبيّ . وقال الضحاك : شبه عبد المطلب بالمشكاة وعبد الله بالزجاجة والنبيّ صلى الله عليه وسلم بالمصباح كان فى قلبهما ، فورث النبوّة من إبراهيم . ﴿ مِنْ شَجَرَةٍ ﴾ أى شجرة التُّقَى والرضوان وعشيرة الهدى والإيمان، شجرة أصلها نبوّة، وفرعها مروءة، وأغصانها تنزيل، وورقها تأويل، وخدمها جبريل وميكائيل . قال القاضى أبو بكر ابن العربى : ومن غريب الأمر أن بعض الفقهاء قال إن هذا مَثَل ضربه الله تعالى لإبراهيم ومحمد ولعبد المطلب وابنه عبد الله ؛ فالمشكاة هى الكوة بلغة الحبشة ، فشبّه عبد المطلب بالمشكاة فيها القنديل وهو الزجاجة ، وشبّه عبد الله بالقنديل وهو الزجاجة ؛ ومحمد كالمصباح يعنى من أصلابهما ، وكأنه كوكب دُرّيّ وهو المشترى « يوقد من شجرة مباركة » يعنى إرث النبوّة من إبراهيم عليه السلام هو الشجرة المباركة، يعنى حنيفيّة لاشرقيّة ولا غربية، لايهودية ولا نصرانية . « يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار » يقول : يكاد إبراهيم يتكلم بالوحى من قبل أن يوحَى إليه . « نُورٌ على نور » إبراهيم ثم محمد صلى الله عليه وسلم . قال القاضى : وهذا كله عدول عن الظاهر، وليس يمتنع فى التمثيل أن يتوسع المرء فيه .

قلت : وكذلك فى جميع الأقوال لعدم ارتباطه بالآية ما عدا القول الأول ، وأن هـذا مَثَل ضربه الله تعالى لنوره ، ولا يمكن أن يضرب لنوره المعظم مثلا تنبيها لخلقه إلا ببعض خلقه ، لأن الخلق لقصورهم لا يفهمون إلا بأنفسهم ومن أنفسهم ، ولو لا ذلك ما عَرف اللهَ إلّا الله وحده ، قاله ابن العربى . قال ابنُ عباس : هذا مَثَل نور الله وهُداه فى قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل أن تمسه النار ، فإن مسّته النار زاد ضوءه ، كذلك قلب المؤمن يكاد يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم زاده هُدًى على هدًى ونورا على نور ؛ كقول إبراهيم من قبل أن تجيئه المعرفة : « هذا رَبِّى » ، من قبل أن يخبره أحد أن له رَبًّا ؛ فلما أخبره الله أنه ربُّه زاد هُدًى ، فقال له رَبُّه : «أَسْلِمْ قال أسلمتُ لرب العالمين» . ومن قال إن هذا مَثَل للقرآن فى قلب المؤمن قال : كما أن هذا المصباح يستضاء به ولا ينقص فكذلك القرآن يُهتـدَى به ولا ينقص ؛ فالمصباح القرآن ، والزجاجة قلب المؤمن ، والمشكاة لسانه وفهمه ، والشجرة المباركة شجرة الوحى . ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ تكاد حجج القرآن تتّضح ولو لم يقرأ . ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ يعنى أن القرآن نور من الله تعالى لخلقه ، مع ما أقام لهم من الدلائل والإعلام قبل نزول القرآن ، فازدادوا بذلك نورا على نور . ثم أخبر أن هذا النور المذكور عزيز ، وأنه لا يناله إلا من أراد الله هداه فقال : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ أى يبيّن الأشباه تقريبا إلى الأفهام . ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى بالمهدِىّ والضّال . وروى عن ابن عباس أن اليهود قالوا : يا محمـد ، كيف يَخْلُص نور الله تعالى من دون السماء ؛ فضرب الله تعالى ذلك مثلا لنوره .

قوله تعـالى : فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ. رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ فيه تسع عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ الباء فى « بيوت » تضم وتكسر؛ وقد تقدّم(١) . واختلف فى الفاء من قوله « فى » فقيل : هى متعلقة بـ« مصباح » . وقيل : بـ«يسبح له »؛ فعلى هذا التأويل يوقف على « عليم » . قال ابن الأنبارى: سمعت أبا العباس يقول هو حال للمصباح والزجاجة والكوكب؛ كأنه قال وهى فى بيوت. وقال الترمذى الحكيم محمد بن على : « فى بيوت » منفصل، كأنه يقول : الله فى بيوت أذن الله أن تُرفع؛ وبذلك جاءت الأخبار أنه "من جلس فى المسجد فإنه يجالس ربّه". وكذا ما جاء فى الخبر فيما يحكى عن التوراة "أن المؤمن إذا مشى إلى المسجد قال الله تبارك اسمه عبدى زارنى وعلىّ قِراه ولن أرضى له قِرًى دون الجنة" . قال ابن الأنبارى : إن جعلت « فى » متعلقة بـ«يسبّح» أو رافعة للرجال حَسُن الوقف على قوله « والله بكل شىء عليم » . وقال الرُّمّانى : هى متعلقة بـ« يوقد » وعليه فلا يوقف على « عليم » . فإن قيل : فما الوجه إذا كان البيوت متعلقة بـ« يوقد » فى توحيد المصباح والمشكاة وجمع البيوت ، ولا يكون مشكاة واحدة إلا فى بيت واحد . قيل : هذا من الخطاب المتلون الذى يفتح بالتوحيد ويختم بالجمع؛ كقوله تعالى : يأيها النّبىّ إذا طلّقتم النساء » ونحوه. وقيل: رجع إلى كل واحد من البيوت . وقيل: هو كقوله تعالى : « وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا » وإنما هو فى واحدة منها . واختلف الناس فى البيوت هنا على خمسة أقوال : الأوّل — أنها المساجد المخصوصة لله تعالى بالعبادة، وأنها تضىء لأهل السماء كما تضىء النجوم لأهل الأرض؛ قاله ابن عباس ومجاهد والحسن . الثانى — هى بيوت بيت المقدس؛ عن الحسن أيضا . الثالث — بيوت النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ عن مجاهد أيضا . الرابع — هى البيوت كلّها؛ قاله عكرمة . وقوله « يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ » يقوى أنها المساجد . وقول خامس — أنها المساجد الأربعة التى

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٤٦ طبعة ثانية .

لم يبنها إلا نبيّ : الكعبة و بيت أريحا ومسجد المدينة ومسجد قُبَاء؛ قاله ابن بريدة . وقد تقدّم ذلك فى « براءة »(١) .

قلت ــ الأظهر القول الأوّل ؛ لما رواه أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أحبَّ الله عز وجل فليحبّني ومن أحبّني فليُحبّ أصحابى ومن أحب أصحابى فليُحبّ القرآن ومن أحبّ القرآن فليُحبّ المساجد فإنها أفنية الله أبنيته أذن الله فى رفعها و بارك فيها ميمونةٌ ميمون أهلها محفوظةٌ محفوظ أهلها هم فى صلاتهم والله عز وجل فى حوائجهم هم فى مساجدهم والله من ورائهم " .

الثانية ــ قوله تعالى: ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ « أذن » معناه أمر وقضى. وحقيقة الإذن العلم والتمكين دون حظر؛ فإن اقترن بذلك أمر و إنفاذ كان أقوى . و « ترفع » قيل : معناه تُبْنَى وتُعْلى؛ قاله مجاهد وعكرمة. ومنه قوله تعالى : « وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ البيت » . وقال صلى الله عليه وسلم : " من بنى مسجدا من ماله بنى الله له بيتا فى الجنة " . وفى هذا المعنى أحاديث كثيرة تحض على بنيان المساجد . وقال الحسن البصرى وغيره : معنى « ترفع » تعظّم، و يرفع شأنها، وتطهر من الأنجاس والأقذار ؛ ففى الحديث " أن المسجد ليَنْزَوِى من النجاسة كما ينزوى الجلد من النار " . وروى ابن ماجه فى سننه عن أبى سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أخرج أذًى من المسجد بنى الله له بيتا فى الجنة ". وروى عن عائشة قالت : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتخذ المساجد فى الدور وأن تطهر وتطيَّب .

الثالثة ــ إذا قلنا : إن المراد بنيانها فهل تزين وتنقش؟ اختلف فى ذلك؛ فكرهه قوم وأباحه آخرون . فروى حماد بن سلمة عن أيوب عن أبى قِلَابة عن أنس وقتادة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس فى المساجد ". أخرجه أبو داود . وفى البخارى ــ وقال أنس : "يتباهَوْن بها ثم لا يَعْمُرونها إلا قليلا ". وقال

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٦٠

ابن عباس : لَتُزَخْرِفُنّها كما زَخرفتِ اليهود والنصارى . وروى الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول من حديث أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا زخرفتم مساجدكم وحلّيتم مصاحفكم فالدّبار عليكم " . احتجّ من أباح ذلك بأن فيه تعظيم المساجد والله تعالى أمر بتعظيمها في قوله « في بيوت أذِن الله أن تُرْفَع » يعني تعظم . وروى عن عثمان أنه بنى مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم بالسّاج (١) وحسّنه . قال أبو حنيفة : لا بأس بنقش المساجد بماء الذهب . وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه نقش مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم و بالغ في عمارته وتزيينه ، وذلك في زمن ولايته قبل خلافته ، ولم ينكر عليه أحد ذلك . وذكر أن الوليد بن عبد الملك أنفق في عمارة مسجد دمشق وفي تزيينه مثل خراج الشام ثلاث مرات . وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام بنى مسجد بيت المقدس و بالغ في تزيينه .

الرابعة — ومما تصان عنه المساجد وتنزه عنه الروائح الكريهة والأقوال السيئة وغير ذلك على ما نبيّنه ؛ وذلك من تعظيمها . وقد صح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في غَزْوة تَبُوك : " من أكل من هذه الشجرة — يعني الثُّوم — فلا يأتينّ المساجد " . وفي حديث جابر بن عبد الله عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من أكل من هذه البقلة الثُّوم " وقال مرة : " من أكل البصل والثوم والكُرّاث فلا يقربنّ مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم " . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خطبته : ثم إنكم أيها الناس تأكلون شجرتين ولا أراهما إلا خبيثتين ، هذا البصلَ والثُّوم ، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وجد ريحهما من رجل في المسجد أَمر به فأُخرِج إلى البقيع ، فمن أكلهما فلْيُمِتْهُما طبخا . خرّجه مسلم في صحيحه . قال العلماء : وإذا كانت العلة في إخراجه من المسجد أنه يُتأذّى به ففي القياس أن كل من تأذى به جيرانه في المسجد بأن يكون ذَرِب اللسان سفيها عليهم ، أو كان ذا رائحة قبيحة لا تَرِيمه (٢) لسوء صناعته ، أو عاهة مؤذية كالجذام

---

(١) الساج : شجر يعظم جدا ، لا ينبت إلا ببلاد الهند ، وخشبه أسود رزين ، لا تكاد الأرض تبليه .

(٢) أي لا تفارقه .

وشبهه . وكل ما يتأذى به الناس كان لهم إخراجه ما كانت العلة موجودة فيه حتى تزول . وكذلك يجتنب مجتمع الناس حيث كان لصلاة أو غيرها كمجالس العلم والولائم وما أشبهها ، مَن أكل الثُّوم وما فى معناه ، مماله رائحة كريهة تؤذى الناس . ولذلك جمع بين البصل والثوم والكراث ، وأخبر أن ذلك مما يتأذى به . قال أبو عمر بن عبد البر : وقد شاهدت شيخنا أبا عمر أحمد بن عبد الملك بن هشام(١) رحمه الله أفتى فى رجل شكاه جيرانه واتفقوا عليه أنه يؤذيهم فى المسجد بلسانه ويده فشُووِر فيه ؛ فأفتى بإخراجه من المسجد وإبعاده عنه ، وألا يشاهد معهم الصلاة ؛ إذ لا سبيل مع جنونه واستطالته إلى السلامة منه ، فذاكرته يوما أمره وطالبته بالدليل فيما أفتى به من ذلك وراجعته فيه القول ؛ فاستدل بحديث الثُّوم ، وقال : هو عندى أكثر أذًى من أكل الثوم ، وصاحبه يُمنع من شهود الجماعة فى المسجد .

قلت : وفى الآثار المرسلة « أن الرجل ليكذب الكِذْبَة فيتباعد عنه المَلَك من نتن ريحه » . فعلى هذا يُخرج من عُرف منه الكذب والتقوّل بالباطل فإن ذلك يؤذى .

الخامسة ــ أكثر العلماء على أن المساجد كلها سواء ؛ لحديث ابن عمر . وقال بعضهم : إنما خرج النهى على مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل جبريل عليه السلام ونزوله فيه ؛ ولقوله فى حديث جابر : "فلا يقربَنّ مسجدنا" . والأول أصح ، لأنه ذكر الصفة فى الحكم وهى المسجدية ، وذكرُ الصفة فى الحكم تعليل . وقد روى الثعلبى بإسناده عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يأتى الله يوم القيامة بمساجد الدنيا كأنها نجائب بيض قوائمها من العنبر وأعناقها من الزعفران ورءوسها من المسك وأزِمّتها من الزبرجد الأخضر وقُوّامها والمؤذنون فيها يقودونها وأئمتها يسوقونها وعمارها متعلقون بها فتجوز عرصات القيامة كالبرق الخاطف فيقول أهل الموقف هؤلاء ملائكة مقربون وأنبياء مرسلون فينادى ما هؤلاء بملائكة ولا أنبياء ولكنهم أهل المساجد والمحافظون على الصلوات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم " . وفى التنزيل « إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ »(٢) . وهذا عام

(١) فى بعض نسخ الأصل : « هاشم » . (٢) آية ١٨ سورة التوبة . راجع جـ ٨ ص ٩٠

فى كل مسجد . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان إن الله تعالى يقول «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر»". وقد تقدم.

السادسة — وتصان المساجد أيضا عن البيع والشراء وجميع الاشتغال؛ لقوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى دعا إلى الجمل الأحمر : " لا وَجَدْتَ[1] إنما بُنيت المساجد لمَا بُنيت له ". أخرجه مسلم من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما صلى قام رجل فقال : من دعا إلى الجمل الأحمر ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا وَجدتَ إنما بُنيت المساجد لمَا بُنيت له " . وهذا يدل على أن الأصل ألا يعمل فى المسجد غير الصلوات والأذكار وقراءة القرآن. وكذا جاء مفسرا من حديث أنس قال: بينما نحن فى المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء أعرابى فقام يبول فى المسجد ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَهْ مَهْ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا تُزْرِمُوه[2] دَعُوه " . فتركوه حتى بال ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال له : " إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر إنما هى لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن " . أوكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فأمر رجلا من القوم فجاء بدَلْو من ماء فشنّه[3] عليه . خرّجه مسلم . ومما يدل على هذا من الكتاب قوله الحق : «وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ». وقوله صلى الله عليه وسلم لمعاوية بن الحكم السُّلَميّ : " إن هذه المساجد[4] لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن ". أوكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . الحديث بطوله خرجه مسلم فى صحيحه، وحسبك ! وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه صوت رجل فى المسجد فقال : ما هذا الصوت ! أتدرى أين أنت ! وكان خَلَف بن أيوب جالسا فى مسجده فأتاه غلامه يسأله عن شيء فقام وخرج من المسجد وأجابه ؛ فقيل له فى ذلك فقال : ما تكلمت فى المسجد بكلام الدنيا منذ كذا وكذا، فكرهت أن أتكلم اليوم .

---

(١) أى من وجد ضالتى، وهو الجمل الأحمر فدعاه اليه . (٢) أى لا تقطعوا عليه بوله ؛ يقال : زرم البول (بالكسر) انقطع ؛ وأزرمه غيره . (٣) الشنّ : الصب المنقطع ؛ أى رشه عليه رشا متفرقا .

(٤) الذى فى صحيح مسلم : « إن هذه الصلاة ... الخ » .

السابعـــة ـ روى الترمذيّ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن تناشد الأشعار في المسجد ، وعن البيع والشراء فيه، وأن يتحلّق الناس يوم الجمعة قبل الصلاة . قال : وفي الباب عن بُريدة وجابر وأنس حديث عبدالله ابن عمرو حديث حسن . قال محمد بن إسماعيل : رأيت محمدا [(١)] وإسحاق وذكر غيرهما يحتجّون بحديث عمرو بن شعيب . وقد كره قوم من أهل العلم البيع والشراء في المسجد ؛ وبه يقول أحمد وإسحاق . وروى أن عيسى بن مريم عليهما السلام أتى على قوم يتبـايعون في المسجد فجعل رداءه مخراقا [(٢)]، ثم جعل يسعى عليهم ضربا ويقول: يا أبناء الأفاعي، اتخذتم مساجد الله أسواقا ! هذا سوق الآخرة .

قلت : وقـد كره بعض أصحابنا تعليم الصبيان في المساجد ، ورأى أنه من باب البيع . وهذا إذا كان بأجرة، فلو كان بغير أجرة لمنع أيضا من وجه آخر، وهو أن الصبيان لا يتحرزون عن الأقذار والوسخ ؛ فيؤدّي ذلك إلى عدم تنظيف المساجد ، وقد أمر صلى الله عليه وسلم بتنظيفها وتطييبها فقال : " جَنِّبُوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وسلّ سيوفكم وإقامةَ حدودكم ورفعَ أصواتكم وخصوماتكم وأجمروها في الجُمَع واجعلوا على أبوابها المطاهر " . في إسناده العلاء بن كثير الدمشقي مولى بني أميـة، وهو ضعيف عندهم ؛ ذكره أبو أحمـد بن عديّ الجرجاني الحافظ . وذكر أبو أحمد أيضا من حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : صلّيت العصر مع عثمان أمير المؤمنين فرأى خياطا في ناحية المسجد فأمر بإخراجه ؛ فقيل له : يا أمير المؤمنين، إنه يكنس المسجد ويغلق الأبواب ويرشّ أحيانا . فقال عثمان : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : " جنّبوا صنّاعكم من مساجدكم " . هذا حديث غير محفوظ، في إسناده محمد بن مجيب الثقفي، وهو ذاهب الحديث .

قلت : ما ورد في هـذا المعنى وإن كان طريقه ليّنـا فهو صحيح معنًى؛ يدل على صحته ما ذكرناه قبل . قال الترمذيّ : وقد رُوي عن بعض أهل العلم من التابعين رُخصةٌ في البيع

(١) الذي في الترمذي : « احمد » . (٢) المخراق : ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا .

والشراء فى المسجد . وقد رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى غير حديث رخصةٌ فى إنشاد الشعر فى المسجد .

قلت : أما تناشد الأشعار فاختلف فى ذلك ، فمن مانع مطلقا ، ومن مجيز مطلقا . والأولى التفصيل ؛ وهو أن يُنظر إلى الشعر فإن كان مما يقتضى الثناء على الله عز وجل أو على رسوله صلى الله عليه وسلم أو الذبّ عنهما كما كان شعر حسان ، أو يتضمن الحض على الخير والوعظ والزهد فى الدنيا والتقلّل منها ، فهو حسن فى المساجد وغيرها ؛ كقول القائل :

طَوّفى يا نفس كى أقصد فردا صمدا * وذرينى لست أبغى غير ربى أحدا
فهو أنسى وجليسى ودعى الناس * فما إن تجدى من دونه ملتحدا (١)

وما لم يكن كذلك لم يجز ؛ لأن الشعر فى الغالب لا يخلو عن الفواحش والكذب والتزين بالباطل ، ولو سلم من ذلك فأقل ما فيه اللَّغْوُ والهَذَر ، والمساجد منزهة عن ذلك ؛ لقوله تعالى : « فى بُيُوتٍ أذِنَ اللهُ أنْ تُرْفَع » . وقد يجوز إنشاده فى المسجد ؛ كقول القائل :

كفَحْل العَذَاب (٢) القَرِد يضرب النَّدَى * تَعَلَّى النَّدَى فى متنه وتحدّرا

وقول الآخر :

إذا سقط السماء بأرض قوم * رَعَيناه وإن كانوا غِضابا

فهذا النوع وإن لم يكن فيه حَمْد ولا ثناء يجوز ؛ لأنه خالٍ عن الفواحش والكذب . وسيأتى ذكر الأشعار الجائزة وغيرها بما فيه كفاية فى « الشعراء » إن شاء الله تعالى . وقد روى الدارقطنيّ من حديث هشام بن عُرْوة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : ذُكِر الشعراء عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " هو كلام حَسَنه حَسَن وقبيحه قبيح " . وفى الباب عن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبى هريرة وابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ذكره فى السنن .

قلت : وأصحاب الشافعيّ يأثرون هذا الكلام عن الشافعيّ وأنه لم يتكلم به غيره ؛ وكأنهم لم يقفوا على الأحاديث فى ذلك . والله أعلم .

(١) هكذا ورد هذا الشعر فى نسخ الأصل ؛ ولم نعرف من أى وزن هو . (٢) العذاب (بالفتح والدال المهملة) : ما استرق من الرمل . وقيل : جانبه الذى يرق ويلى الجَدَد من الأرض . الواحد والجمع سواء .

الثامنــة ـ وأما رفع الصوت فإن كان مما يقتضي مصلحة للرافع صوته دُعي عليه بنقيض قصده؛ لحديث بَريرة المتقدم، وحديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من سمع رجلا يَنْشُد ضالّة في المسجد فليقل لا ردّها الله عليك فإن المساجد لم تُبْن لهذا» . وإلى هــذا ذهب مالك وجماعة، حتى كرهوا رفع الصوت في المسجد في العلم وغيره . وأجاز أبو حنيفة وأصحابه ومحمد بن مسلمة من أصحابنا رفــع الصوت في الخصومة والعــلم ؛ قالوا : لأنهم لا بدّ لهم من ذلك . وهذا مخالف لظاهر الحديث، وقولهم : «لا بدّ لهم من ذلك» ، ممنوع ، بل لهم بُدّ من ذلك لوجهين : أحدهما بملازمة الوَقار والحــرمة ، و بإحضار ذلك بالبال والتحرز من نقيضه . والثاني أنه إذا لم يتمكن من ذلك فليتّخذ لذلك موضعا يخصّه ، كما فعل عمر حيث بَنَى رحبة تُسمَّى البطيحاء ، وقال : من أراد أن يَلْغَط أو يُنْشِد شعرا ـ يعني في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فليخرج إلى هذه الرحبة . وهذا يدل على أن عمر كان يكره إنشاد الشعر في المسجد ، ولذلك بنى البطيحاء خارجه .

التاســعة ـ وأما النوم في المسجد لمن احتاج إلى ذلك من رجل أو امرأة من الغرباء ومن لا بيت له فجائز ؛ لأن في البخاري ـ وقال أبو قلابة عن أنس : قدم رهط من عُكْل على النبيّ صلى الله عليه وسلم فكانوا في الصُّفَّة (1) ، وقال عبد الرحمن بن أبي بكر : كان أصحاب الصفة فقــراء . وفي الصحيحين عن ابن عمر أنه كان ينــام وهو شاب أعزب لا أهــل له في مسجد النبيّ صلى الله عليه وســلم . لفظ البخاري . وترجم (باب نوم المرأة في المسجد) وأدخل حديث عائشة في قصة السوداء (2) التي اتهمها أهلها بالوشاح ، قالت عائشة : وكان لها خِباء في المسجد أو حِفْش (3) ... الحديث . ويقال : كان مبيت عطاء بن أبي رَباح في المسجد أربعين ســنة .

---

(1) موضع مظلل في أخريات المسجد النبوي تأوي إليه المساكين . (2) السوداء : يريد أمة سوداء كانت لحي من العرب ، فاتهموها بسرقة وشاح وطفقوا يفتشون حتى فتشوا قُبُلها . قالت : والله إني لقائمة معهــم إذ مرت الحُدَيّاة فألقته بينهم ... فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت ، فكان لها خباء في المسجد ... ... راجع صحيح البخاري (باب المساجد) . (3) الخباء : الخيمة من صوف أو وبر . والحفش (بكسر الحاء وسكون الفاء) : بيت صغير .

العاشـــرة — روى مسلم عن أبي حميد أو عن أبي أسَيْد قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل أحدكم المسجد فليَقُل اللّهُمّ افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل اللّهمّ إني أسألك من فضلك " . خرجه أبو داود كذلك ؛ إلا أنه زاد بعد قوله " إذا دخل أحدكم المسجد : فليسلّم وليُصلّ[1] على النبيّ صلى الله عليه وسـلم ثم ليقل اللهـم افتح لي ... " الحديث . وروى ابن ماجه عن فاطمة بنت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد قال " باسم الله والسلام على رسول الله اللّهُمّ اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج قال بآسم الله والصلاة على رسول الله اللّهُمّ اغفر لي ذنوبي وآفتح لي أبواب رحمتـك وفضلك " . وروى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخل أحدكم المسجد فليصلّ على النبيّ صلى الله عليه وسـلم وليقل اللّهُـمّ آفتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليُسلّم على النبيّ صلى الله عليه وسـلم وليقل اللّهُمّ اعْصِمْني من الشـيطان الرجيم " . وخرج أبو داود عن حَيْوة بن شُرَيح قال : لَقيت عقبة بن مسلم فقلت له بلغني أنك حدّثت عن عبد الله بن عمرو بن العـاصي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا دخل المسجد قال " أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم " قال نعم . قال : فإذا قال ذلك قال الشيطان حُفظ مني سائرَ اليوم .

الحادية عشرة — روى مسلم عن أبي قتادة أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم قال : " إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبـل أن يجلس " وعنـه قال : دخلت المسـجد ورسول الله صلى الله عليه وسـلم جالس بين ظَهْرَانَي الناس ، قال فجلست فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منعك أن تركع ركعتين قبـل أن تجلس " ؟ فقلت : يا رســول الله رأيتـك جالسا والنـاس جلوس . قال : " فإذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين " . قال العلماء : فجعل صلى الله عليه وسلم للسجد مزيّة يتميّز بهـا عن سائر البيوت ، وهو ألا يجلس حتى يركع . وعامّةُ العلمـاء على أن الأمر بالركوع على النـدب والترغيب .

---

(١) الذي في سنن أبي داود " فليسلم على النبي صلى الله عليه وسلم " .

وقد ذهب داود وأصحابه إلى أن ذلك على الوجوب؛ وهذا باطل، ولو كان الأمر على ما قالوه لحرُم دخول المسجد على المحدث الحدث الأصغر حتى يتوضأ، ولا قائل به فيما أعلم، والله أعلم. فإن قيل: فقد روى إبراهيم بن يزيد عن الأوزاعيّ عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين وإذا دخل أحدكم بيته فلا يجلس حتى يركع ركعتين فإن الله جاعل من ركعتيه في بيته خيرا"، وهذا يقتضي التسويّة بين المسجد والبيت. قيل: هذه الزيادة في الركوع عند دخول البيت لا أصل لها؛ قال ذلك البخاري؛ وإنما يصح في هذا حديث أبي قتادة الذي تقدم لمسلم، وإبراهيم هذا لا أعلم روى عنه إلا سعد بن عبد الحميد، ولا أعلم له إلا هذا الحديث الواحد؛ قاله أبو محمد عبد الحق.

الثانية عشرة ــ روى سعيد بن زَبّان حدثني أبي عن أبيه عن جده عن أبي هند رضي الله عنه قال: حَمَل تميمٌ ــ يعني الدّاري ــ من الشام إلى المدينة قناديل وزَيْتا ومُقُطّا، فلما انتهى إلى المدينة وافق ذلك ليلة الجمعة فأمر غلاما يقال له أبو البزاد فقام فنَشَط[(١)] المُقُط وعلق القناديل وصبّ فيها الماء والزيت وجعل فيها الفتيل؛ فلما غربت الشمس أمر أبا البزاد فأسرجها، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فإذا هو بها تزهر؛ فقال: "من فعل هذا"؟ قالوا: تميم الدّاري يا رسول الله؛ فقال: "نورت الإسلام نور الله عليك في الدنيا والآخرة أمَا إنه لو كانت لي آبنة لزوّجْتُكها". قال نَوْفل بن الحارث: لي آبنة يا رسول الله تسمى المغيرة بنت نَوْفل فآفعل بها ما أردت؛ فأنكحه إيّاها. زَبّان (بفتح الزاى والباء وتشديدها بنقطة واحدة من تحتها) ينفرد بالتّسمّي به سعيد وحده، فهو أبو عثمان سعيد بن زَبّان بن قائد بن زبان بن أبي هند، وأبو هند هذا مولى آبن بياضة حجّام النبيّ صلى الله عليه وسلم. والمُقُط: جمع المِقاط، وهو الحبل؛ فكأنه مقلوب القِماط. والله أعلم. وروى ابن ماجه عن أبي سعيد الخُدْريّ قال: أوّل من أسرج في المساجد تميمٌ الدّاريّ. وروى عن أنس أن النبيّ

(١) نشط الحبل: ربطه.

صلى الله عليه وسلم قال : " من أسرج فى مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش يصلون عليه ويستغفرون له ما دام ذلك الضوء فيه وإن كنس غبار المسجد نقد الحور العين " . قال العلماء : ويستحب أن ينور البيت الذى يقرأ فيه القرآن بتعليق القناديل ونصب الشموع فيه ، ويزاد فى شهر رمضان فى أنوار المساجد .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ ﴾ اختلف العلماء فى وصف الله تعالى المسبّحين ؛ فقيل : هم المراقبون أمر الله ، الطالبون رضاه ، الذين لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شىء من أمور الدنيا . وقال كثير من الصحابة : نزلت هذه الآية فى أهل الأسواق الذين إذا سمعوا النداء بالصلاة تركوا كل شغل و بادروا . ورأى سالم بن عبد الله أهل الأسواق وهم مقبلون إلى الصلاة فقال : هؤلاء الذين أراد الله بقوله « لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ » . وروى ذلك عن ابن مسعود . وقرأ عبد الله بن عامر وعاصم فى رواية أبى بكر عنه والحسن « يسبَّح له فيها » بفتح الباء على ما لم يسمّ فاعله . وكان نافع وابن عمر وأبو عمرو وحمزة يقرءون « يُسَبِّح » بكسر الباء ؛ وكذلك روى أبو عمرو عن عاصم . فمن قرأ « يسبَّح » بفتح الباء كان على معنيين : أحدهما أن يرتفع « رجال » بفعل مضمر دلّ عليه الظاهر ؛ بمعنى يسبّحه رجال ؛ فيوقف على هذا على « الآصال » . وقد ذكر سيبويه مثل هذا . وأنشد :

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضارعٌ لخصومة ❊ ومُخْتَبِط مما تُطيح الطَّوائحُ (١)

المعنى : يبكيه ضارع . وعلى هذا تقول : ضُرِب زيد عمرو ؛ على معنى ضربه عمرو . والوجه الآخر — أن يرتفع « رجال » بالابتداء ، والخبر « فى بيوت » ؛ أى فى بيوت أذن الله أن ترفع رجال . و « يسبح له فيها » حال من الضمير فى « ترفع » ؛ كأنه قال : أن ترفع ؛

---

(١) اختلف فى قائله ، ونسبه صاحب الخزانة لنهشل بن حَرِّيّ . وهذا البيت من أبيات فى مرثية أخيه يزيد ، ومطلعها :

لعمرى لئن أمسى يزيد بن نَهْشَل ❊ حَشَا جَدَث تسفى عليه الروائح

وقوله : « ضارع » من الضراعة ، وهو الخضوع والتذلل . و « المختبط » الذى يسألك من غير معرفة كانت بينكما ؛ وأراد به هنا المحتاج . و « تطيح » تذهب وتهلك . و « الطوائح » جمع مطيحة ، وهى القواذف . و « الحشا » ما فى البطن . و « جدث » بفتح الجيم والثاء : القبر . و « الروائح » : الأيام الروائح .

مسبّحا له فيها ، ولا يوقف على « الآصال » على هــذا التقدير . ومن قرأ « يسبح » بكسر الباء لم يقف على « الآصال » ؛ لأن « يسبح » فعل للرجال ، والفعل مضطر إلى فاعله ولا إضمار فيه . وقد تقدم القول فى « الغدوّ والآصال » فى آخر « الأعراف »[1] والحمد لله وحده .

الرابعة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ قيل : معناه يصلى . وقال ابن عباس : كل تسبيح فى القرآن صلاة ؛ ويدل عليه قوله « بالغدوّ والآصال » ، أى بالغداة والعشىّ . وقال أكثر المفسرين : أراد الصلاة المفروضة ؛ فالغدوّ صلاة الصبح ، والآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين ؛ لأن اسم الآصال يجمعها .

الخامسة عشرة ــ روى أبو داود عن أبى أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من خرج من بيته متطهّرا إلى صلاة مكتوبة فأجره كأجر الحاج المُحْرِم ومن خرج إلى تسبيح الضُّحَا لا ينصبه إلا إياه فأجره كأجر المُعْتَمِر وصلاةٌ على إثر صلاة [لا لَغْوَ بينهما][2] كتاب فى عِلّيين " . وخرّج عن بُريدة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " بشّر المشّائين فى الظُّلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة " . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " من غدا إلى المسجد أو راح أعدّ الله له نُزُلًا فى الجنة كلما غَدَا أو راح " . فى غير الصحيح من الزيادة " كما أن أحدكم لو زار من يحب زيارته لاجتهد فى كرامتــه " ؛ ذكره الثعلبى . وخرّج مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تطهر فى بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله كانت خَطْوتاه إحداهما تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة " . وعنه قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : " صلاة الرجل فى جماعة تزيد على صلاته فى بيتــه وصلاته فى سوقه بضعا وعشرين درجة وذلك أن أحدهم إذا توضّأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يَنْهَزُه[3] إلا الصلاةُ لا يريد إلا الصلاة فلم يَخْطُ خُطوةً إلا رُفع له بهـا درجةٌ وحُطّ عنــه بها خطيئة حتى يدخل المسجد فإذا دخل المسجد كان فى الصــلاة ما كانت الصلاة هى تحبسه والملائكة يصلّون على

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٥٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانيــة . (٢) زيادة عن سنن أبى داود .
(٣) النهــز : الدفع .

أحدكم ما دام فى مجلسه الذى صلّى فيــه يقولون اللّهمّ ارحمه اللّهم اغفر له اللّهمّ تُبْ عليه ما لم يُؤْذِ فيــه ما لم يُحْدِث فيــه " . فى رواية : ما يُحــدث ؟ قال " يَفْسُو أو يَضْرِط " . وقال حكيم بن زريق : قيل لسعيد بن المسيب أحضور الجنازة أحبّ إليك أم الجلوس فى المسجد؟ فقال : من صلّى على جنازة فله قيراط ، ومن شهد دفنها فله قيراطان ؛ والجلوس فى المسجد أحبّ إلى ؛ لأن الملائكة تقول : اللّهمّ اغفر له اللهم ارحمــه اللّهم تُبْ عليه . وروى عن الحكم بن عمير صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كونوا فى الدنيــا أضيافا واتخذوا المساجد بيوتا وعوّدوا قلوبكم الرقة وأكثروا التفكر والبكاء ولا تختلف بكم الأهواء. تبنون مالا تسكنون وتجمعون مالا تأكلون وتؤمّلون مالا تدركون" . وقال أبو الدَّرداء لابنــه : ليكن المسجد بيتَــك فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليــه وسلم يقول : " إن المساجد بيوت المتقين ، ومن كانت المساجد بيتــه ضمن الله تعــالى له الرَّوح والراحة والجواز على الصراط " . وكتب أبو صادق الأزدى إلى شعيب بن الحَبْحاب : أنْ عليك بالمساجد فالزمها ؛ فإنه بلغنى أنها كانت مجالس الأنبياء . وقال أبو إدريس الخَوْلانِىّ : المساجد مجالس الكرام من النــاس . وقال مالك بن دينار : بلغنى أن الله تبارك وتعالى يقول " إنى أَهُم بعذاب عبادى فأنظر إلى عُمّار المساجد وجلساء القرآن ووُلْدان الإســلام فيسكن غضبى " . وروى عنــه عليه السلام أنه قال : سيكون فى آخر الزمان رجال يأتون المساجد فيقعدون فيها حِلَقًا حِلَقا ذِكْرُهم الدنيــا وحبّها فلا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة" . وقال ابن المسيِّب : من جلس فى مسجد فإنما يجالس ربّه ، فمــا حقّه أن يقول إلا خيرا . وقــد مضى من تعظيم المساجد وحرمتها ما فيه(1) كفاية . وقد جمع بعض العلماء فى ذلك خمس عشرة خصلة ، فقال : من حرمة المسجد أن يسلّم وقت الدخول إن كان القوم جلوسا ، وإن لم يكن فى المسجد أحد قال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وأن يركع ركعتين قبــل أن يجلس ، وألا يشترى فيه ولا يبيع ، ولا يَسُلّ فيه سهما ولا سيفا ، ولا يطلب فيه ضالة ، ولا يرفع فيه صوتا

(١) راجع ج ٨ ص ٩٠ طبعة أولى أو ثانية .

بغير ذكر الله تعالى، ولا يتكلّم فيه بأحاديث الدنيا، ولا يتخطّى رقاب الناس، ولا ينازع في المكان، ولا يضيّق على أحد في الصف، ولا يمرّ بين يدى مصلٍّ، ولا يبصق، ولا يتنخّم، ولا يتمخّط فيه، ولا يفرقع أصابعه، ولا يعبث بشيء من جسده، وأن يُنزّه عن النجاسات والصبيان والمجانين، وإقامة الحدود، وأن يكثر ذكر الله تعالى ولا يغفل عنه . فإذا فعل هذه الخصال فقد أدّى حق المسجد، وكان المسجد حرزا له وحصْنًا من الشيطان الرجيم . وفي الخبر" أن مسجدا ارتفع بأهله إلى السماء يشكوهم إلى الله لما يتحدّثون فيه من أحاديث الدنيا " . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن عامر الشّعْبِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ٱقتراب الساعة أن يُرَى الهلال قَبَلًا (١) فيقال لليلتين وأن تُتخذ المساجد طُرُقا وأن يظهر موت الفجأة ". هذا يرويه عبد الكبير بن المعافى عن شريك عن العباس بن ذَرِيح عن الشعبي عن أنس . وغيره يرويه عن الشعبي مرسلا، والله أعلم . وقال أبو حاتم : عبد الكبير بن معافى ثقة كان يُعَدّ من الأبدال (٢) . وفي البخاري عن أبي موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من مَرّ في شيء من مساجدنا أو أسواقنا بنَبْل فليأخذ على نِصالها لا يَعْقِر بكفّه مسلما " . وخرّج مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " البُزاق في المسجد خطيئة وكفّارتها دفنها " . وعن أبي ذرّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " عُرِضت عليّ أعمال أمّتي حَسَنُها وسيئها فوجدتُ في محاسن أعمالها الأذى يُماط عن الطريق ووجدت في مساوى أعمالها النُّخاعة (٣) تكون في المسجد لا تُدفن " . وخرّج أبو داود عن الفرج بن فضالة عن أبي سعد (٤) الحميري قال : رأيت واثلة بن الأَسْقع في مسجد دمشق بَصَق على الحصير ثم مسحه برجله ؛ فقيل له : لم فعلت هذا؟ قال : لأني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله . فرج بن فضالة ضعيف، وأيضا فلم يكن في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حُصُر . والصحيح أن رسول الله صلى

(١) قال ابن الأثير : « أي يرى ساعة ما يطلع لعظمه ووضوحه من غير أن يتطلب . وهو بفتح القاف والباء» .

(٢) الأبدال : قوم من الصالحين، بهم يقيم الله الأرض، أربعون في الشام وثلاثون في سائر البلاد، لا يموت منهم أحد الا قام مكانه آخر؛ فلذلك سموا أبدالا . وواحد الأبدال العُبّاد بدْل وبَدَل . وقال ابن دريد : الواحد بديل .

(٣) النخاعة : النخامة . (٤) في الأصول : « عن أبي سعيد الخدري » وهو تحريف؛ لأن فرج بن فضالة لم يرو عن أبي سعيد الخدري، وإنما روى عن أبي سعد الحميري، وأبو سعد هذا صاحب واثلة بن الأسقع .

الله عليه وسلم إنما بصق على الأرض ودلكه بنعله اليسرى ، ولعلّ واثلة إنمـا أراد هذا لحمل الحصـير عليـــه .

السادسة عشرة — لمـا قال تعالى : « رجال » وخصّهم بالذكر دلّ على أن النساء لا حظّ لهنّ في المساجد ؛ إذ لا جمعة عليهنّ ولا جماعة ، وأن صلاتهن في بيوتهن أفضل . روى أبو داود عن عبد الله رضي الله عنـه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها وصلاتُها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها " .

السابعة عشرة — قوله تعالى . ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ ﴾ أي لاتشغلهم . ﴿ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ خصّ التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل بها الإنسان عن الصلاة . فإن قيل : فلِمَ كرّر ذكر البيع والتجارةُ تشمله . قيل له : أراد بالتجارة الشراء لقوله « ولا بيع » . نظيره قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْـوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا »(١) قاله الواقدي . وقال الكلبي : التجار هم الجـلّاب المسافرون ، والباعة هم المقيمون . ﴿ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ اختلف في تأويله ؛ فقال عطاء : يعني حضور الصلاة ؛ وقاله ابن عباس ، وقال : المكتوبة . وقيل عن الأذان ؛ ذكره يحيى بن سلام . وقيل : عن ذكره بأسمائه الحسنى ؛ أي يوحّدونه ويمجّدونه . والآية نزلت في أهل الأسواق ؛ قاله ابن عمر . قال سالم : جاز عبد الله بن عمر بالسّوق وقـد أغلقوا حوانيتهم وقاموا ليصلّوا في جماعة فقال : فيهـم نزلت « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ » الآية . وقال أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم : هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله . وقيل : إن رجلين كانا في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أحدهما بياعا فإذا سمـع النداء بالصلاة فإن كان الميزان بيده طرحه ولا يضعه وَضعًا ، وإن كان بالأرض لم يرفعه . وكان الآخر قَيْنًا يعمل السيوف للتجارة ، فكان إذا كانت مِطْرقته على السّنْدان أبقاها موضوعة ، وإن كان قد رفعها ألقاها من وراء ظهره إذا سمع الأذان ؛ فأنزل الله تعالى هـذا ثناء عليهما وعلى كل من اقتـــدى بهمـا .

---

(١) آخر سـورة الجمعـة .

الثامنة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ﴾ هذا يدلّ على أن المراد بقوله « عن ذكر الله » غير الصلاة؛ لأنه يكون تكرارا . يقال : أقام الصلاة إقامةً، والأصل إقواما فقلبت حركةُ الواو على القاف فانقلبت الواو ألفا و بعدها ألف ساكنة فحذفت إحداهما، وأثبتت الهاء لئلا تحذفها فتُجْحف، فلما أضيفت قام المضاف مقام الهاء فجاز حذفها، و إن لم تضف لم يجز حذفها؛ ألا ترى أنك تقول : وَعَد عِدَة، ووَزَن زِنَة، فلا يجوز حذف الهاء لأنك قد حذفت واوا؛ لأن الأصل وَعد وِعْدَة، ووَزَن وِزْنة، فإن أضفت حذفت الهاء، وأنشد الفراء :

إنّ الخَلِيط أجَدُّوا البَيْنَ فانْجَرَدُوا * وأخلفوك عِدَ الأمرِ الذى وَعَدُوا

يريد عِدَة، فحذف الهاء لما أضاف . وروى من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يأتى الله يوم القيامة بمساجد الدنيا كأنها نُجُب بيض قوائمها من العنبر وأعناقها من الزعفران و رءوسها من المسك وأَزِمّتها من الزبرجد الأخضر وقُوّامها والمؤذنون فيها يقودونها وأئمتها يسوقونها وعُمّارها متعلقون بها فتجوز عَرَصات القيامة كالبرق الخاطف فيقول أهل الموقف هؤلاء ملائكة مقرّبون أو أنبياء مرسلون فينادَى ما هؤلاء بملائكة ولا أنبياء ولكنهم أهل المساجد والمحافظون على الصلوات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ". وعن علىّ رضى الله عنه أنه قال : يأتى على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا آسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، يعمرون مساجدهم وهى من ذكر الله خراب، شرُّ أهل ذلك الزمن علماؤهم، منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود؛ يعنى أنهم يعلمون ولا يعملون بواجبات ما علموا .

التاسعة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ قيل : الزكاة المفروضة، قاله الحسن. وقال ابن عباس : الزكاة هنا طاعة الله تعالى والإخلاص؛ إذ ليس لكل مؤمن مال . ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا ﴾ يعنى يوم القيامة . ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ يعنى من هوله وحذر الهلاك . والتقلّب التحوّل، والمراد قلوب الكفار وأبصارهم . فتقلب القلوب انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر، فلا هى ترجع إلى أماكنها ولا هى تخرج . وأما تقلب الأبصار فالزَّرَق بعد الكَحَل والعَمَى بعد البصر . وقيل : تتقلّب القلوب بين الطمع فى النجاة والخوف من

الهلاك ، والأبصار تنظر من أىّ ناحية يعطَون كتبهم ، وإلى أى ناحية يؤخذ بهم . وقيل : إن قلوب الشاكين تحول عما كانت عليه من الشك ، وكذلك أبصارهم لرؤيتهم اليقين ؛ وذلك مثل قوله تعالى : « فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ »(١) ؛ فما كان يراه فى الدنيا غَيًّا يراه رُشْدًا ؛ إلا أن ذلك لا ينفعهم فى الآخرة . وقيل : تقلّب على جمر جهنم ؛ كقوله تعالى : « يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ »(٢) ، « وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ »(٣) . فى قول من جعل المعنى تقلّبها على لهب النار . وقيل : تقلب بأن تلفحها النار مرة وتُنْضِجها مرة . وقيل إن تقلب القلوب وَجِيبها(٤) ، وتقلّب الأبصار النظر بها إلى نواحى الأهوال . ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ فذكر الجزاء على الحسنات ، ولم يذكر الجزاء على السيئات وإن كان يجازى عليها لأمرين : أحدهما — أنه ترغيب ، فاقتصر على ذكر الرغبة . الثانى — أنه فى صفة قوم لا تكون منهم الكبائر ؛ فكانت صغائرهم مغفورة . ﴿ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — ما يضاعفه من الحسنة بعشر أمثالها . الثانى — ما يتفضل به من غير جزاء . ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى من غير أن يحسابه على ما أعطاه ؛ إذ لا نهاية لعطائه . وروى أنه لما نزلت هذه الآية أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء مسجد قُبَاء ، فحضر عبد الله بن رَوَاحة فقال : يا رسول الله ، قد أفلح من بنى المساجد ؟ قال : " نعم يا بن رواحة " قال : وصلّى فيها قائما وقاعدا ؟ قال : " نعم يابن رواحة " قال : ولم يَبِت لله إلا ساجدا ؟ قال : "نعم يابن رواحة . كُفّ عن السَّجْع فما أعطى عبد شيئا شرا من طلاقة فى لسانه" ؛ ذكره الماوَرْدى .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾

(١) آية ٢٢ سورة ق . (٢) آية ٦٦ سورة الأحزاب . (٣) آية ١١٠ سورة الأنعام .
(٤) وجب القلب وجيبا : اضطرب .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ لما ضرب مثل المؤمن ضرب مثل الكافر . قال مقاتل : نزلت فى شيبة بن ربيعة بن عبد شمس ، كان يترهّب متلمّسا للدّين ، فلما خرج صلى الله عليه وسلم كفر . أبو سهل : فى أهل الكتاب . الضحاك : فى أعمال الخير للكافر ؛ كصلة الرحم ونفع الجيران . والسراب : ما يُرى نصف النهار فى اشتداد الحرّ ، كالماء فى المفاوز يلتصق بالأرض . والآلُ الذى يكون ضُحًا كالماء إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين الأرض والسماء . وسُمِّىَ السَّرابِ سرابا لأنه يَسْرُب أى يجرى كالماء . ويقال : سَرَب الفحل أى مضى وسار فى الأرض . ويسمى الآلَ أيضا ، ولا يكون إلا فى البَرِّيَّة والحر فيغترّ به العطشان . قال الشاعر :

فكنت كمُهْرِيقِ الذى فى سِقائه * لِرَقراقِ آلٍ فوق رابِيَـةٍ صَلْدِ

وقال آخر :

فلما كففنا الحرب كانت عهودهم * كلَمْع سراب بالفـلا متألق

وقال آمرؤ القيس :

ألم أَنْضِ المَطِىَّ بكل خَرْقٍ * أَمَقِّ الطُّول[(١)] لَمّاعِ السراب

والقيعة جمع القاع ؛ مثل جيرة وجار ؛ قاله الهَروى . وقال أبو عبيدة : قيعةٌ وقاعٌ واحد ؛ حكاه النحاس . والقاع ما آنبسط من الأرض وآتسع ولم يكن فيه نبت ، وفيه يكون السراب . وأصل القاع الموضعُ المنخفض الذى يستقر فيه الماء ، وجمعه قِيعان . قال الجوهرى : والقاع المستوى من الأرض ، والجمع أَقْوُع وأقواع وقِيعان ، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها ؛ والقِيعة مثل القاع ، وهو أيضا من الواو . وبعضهم يقول : هو جمع . ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ﴾ أى العطشان . ﴿ مَاءً ﴾ أى يحسَب السَّراب ماء . ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ مما قدره ووجد أرضا لا ماء فيها . وهذا مَثَل ضربه الله تعالى للكفار ، يُعوِّلون على ثواب أعمالهم فإذا

(١) فى الأصول : « طويل الطول » والتصويب عن ديوان امرئ القيس . والأمق : الطويل . قال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب (شارح الديوان) : وفى البيت ما يسأل عنه من طريق العربية ، وهو إضافة «أمق» الى « الطول» فيتوهم أنه من إضافة الشىء إلى نفسه ؛ لأن الأمق هو الطويل ؛ وليس على ما يتوهم ؛ إنما هو كما تقول : «بعيد البعد»

قدموا على الله تعالى وجدوا ثواب أعمالهم محبطة بالكفر؛ أى لم يجدوا شيئا كما لم يجد صاحب السّراب إلا أرضا لا ماء فيها ؛ فهو يهلك أو يموت . ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ﴾ أى وجد الله بالمرصاد . ﴿ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ أى جزاء عمله . قال آمرؤ القيس :

فَوَلَّى مُدْبِرًا يَهْوِى حَثِيثًا * وأيقن أنّه لاقَى الحِسابَا

وقيل : وَجَد وعْدَ الله بالجزاء على عمله . وقيل : وجد أمر الله عند حَشْره؛ والمعنى متقارب . وقرئ « بقِيعَات » . المهدوىّ : ويجوز أن تكون الألف مُشْبَعة من فتحة العين . ويجوز أن تكون مثل رَجُل عِزْهٍ وعِزْهاة ، للذى لا يقرب النساء . ويجوز أن يكون جمع قِيعة ، ويكون على هذا بالتاء فى الوصل والوقف . وروى عن نافع وأبى جعفر وشيبة « الظمان » بغير همز ، والمشهور عنهما الهمز؛ يقال : ظمِئ يظمأ ظَمَأً فهو ظمآن ، وإن خففت الهمزة قلت الظمان . وقوله « وَالَّذِينَ كَفَرُوا » ابتداء « أَعْمَالُهُمْ » ابتداء ثان . والكاف من « كَسَرَابٍ » الخبرُ، والجملة خبرعن « الذين » . ويجوز أن تكون « أعمالهم » بدلا من « الذين كفروا » ؛ أى وأعمال الذين كفروا كسراب ، فحذف المضاف .

قوله تعالى : أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُجِّىٍّ ﴾ ضرب تعالى مثلا آخر للكفار؛ أى أعمالهم كسراب بقيعة أو كظلمات . قال الزجاج : إن شئت مثّل بالسّراب وإن شئت مثّل بالظلمات ؛ فـ« أوْ » للإباحة حسبما تقدم من القول فى « أَوْ كَصَيِّبٍ »[1] . وقال الجُرْجانى : الآية الأولى فى ذكر أعمال الكفار، والثانية فى ذكر كفرهم، ونسق الكفر على أعمالهم لأن الكفر أيضا من أعمالهم، وقد قال تعالى : « يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ »[2] ؛ أى من الكفر إلى

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٢٥٧ سورة البقرة .

الإيمان . وقال أبو علىّ : « أوكظلمات » أوكذى ظلمات ؛ ودل على هذا المضاف قوله تعالى : « إذا أخرج يده » فالكناية تعود إلى المضاف المحذوف . قال القشيرىّ : فعند الزجاج التمثيل وقع لأعمال الكفار ، وعند الجرجانى لكفر الكافر ، وعند أبى علىّ للكافر . وقال ابن عباس فى رواية : هذا مَثَل قلب الكافر . ﴿ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ قيل : هو منسوب الى اللُّجّة ، وهو الذى لا يُدرك قعره . واللُّجّة معظم الماء ، والجمع لجج . والتجّ البحر إذا تلاطمت أمواجه ؛ ومنه ما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من ركب البحر إذا التجّ فقد برئت منه الذّمة " . والتجّ الأمر إذا عَظُم واختلط . وقوله تعالى : « حَسِبَتْهُ لُجَّةً »[١] أى ما له عمق . ولَجَّجت السفينة أى خاضت اللُّجة (بضم اللام) . فأما اللَّجّة (بفتح اللام) فأصوات الناس ؛ يقول : سمعت لَجّة الناس ، أى أصواتهم وصخبهم . قال أبو النجم :

* فى لَجَّة أَمسِكْ فلانًا عن فُلِ *

والتجت الأصوات أى اختلطت وعظمت . ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ ﴾ أى يعلو ذلك البحر اللُّجّىّ موج . ﴿ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾ أى من فوق الموج موج ، ومن فوق هذا الموج الثانى سحاب ؛ فيجتمع خوفُ الموج وخوفُ الريح وخوفُ السحاب . وقيل : المعنى يغشاه موج من بعده موج ؛ فيكون المعنى : الموج يتبع بعضه بعضا حتى كأن بعضه فوق بعض ، وهو أخوف ما يكون إذا توالى موجه وتقارب ، ومن فوق هذا الموج سحاب . وهو أعظم للخوف من وجهين : أحدهما ــ أنه قد غطّى النجوم التى يُهتدَى بها . الثانى ــ الريح التى تنشأ مع السحاب والمطر الذى ينزل منه . ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ قرأ ابن مُحَيْصِن والبزّى عن ابن كثير « سحابُ ظلماتٍ » بالإضافة والخفض . قُنبُل « سحابٌ » منونا « ظلماتٍ » بالجر والتنوين . الباقون بالرفع والتنوين . قال المهدوىّ : من قرأ « مِنْ فوقه سحابُ ظلماتٍ » بالإضافة فلأن السحاب يرتفع وقت هذه الظلمات فأضيف إليها ؛ كما يقال : سحابُ رحمةٍ ، إذا ارتفع فى وقت المطر . ومن قرأ « سحابٌ ظلماتٍ » جرّ « ظلماتٍ » على التأكيد لـ« ظلماتٍ »

(١) آية ٤٤ سورة النمل .

الأولى أو البـدل منها . و « سحابٌ » ابتـداء و « من فوقه » الخبر . ومن قرأ « سحابُ ظلمـاتٍ » فظلمات خبرُ ابتداء محذوف؛ التقـدير: هي ظلمات أو هـذه ظلمات . قال ابن الأنباريّ : « من فوقه موج » غير تام؛ لأن قوله « من فوقه سحاب » صلة للمَوْج ، والوقف على قوله « من فوقه سحاب » حَسَن ، ثم تبتـدئ « ظلمـاتٌ بعضها فوق بعض » على معنى هي ظلمات بعضها فوق بعض . وروى عن أهـل مكة أنهـم قرءوا « ظُلُماتٍ » على معنى أو كظُلُماتٍ ظُلّماتٍ بعضُها فوق بعض؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على السحاب . ثم قيـل : المراد بهـذه الظلمات ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة الليـل وظلمة البحر؛ فلا يُبصر من كان في هـذه الظلمات شيئا ولا كَوْكبا . وقيل : المـراد بالظلمات الشدائد؛ أي شدائد بعضها فوق بعض . وقيل : أراد بالظلمات أعمال الكافر ، وبالبحر اللُّجّى قلبه ، وبالموج فوق الموج ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحَيْرة ، وبالسحاب الرَّيْنُ والخَتْم والطبع على قلبه . روى معناه عن ابن عباس وغيره؛ أي لا يُبصر بقلبه نور الإيمـان ، كما أن صاحب الظلمات في البحر إذا أخرج يده لم يكد يراها . وقال أُبَىّ بن كعب : الكافر يتقلّب في خمس من الظلمات : كلامه ظلمة ، وعمـله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات في النار وبئس المصير . ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ ﴾ يعني الناظر . ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ أي من شـدّة الظلمات . قال الزجاج وأبو عبيدة : المعنى لم يرها ولم يكد؛ وهو معنى قول الحسن . ومعنى « لم يَكَدْ » لم يطمع أن يراها . وقال الفـرّاء : كاد صـلة ، أي لم يرها؛ كما تقول : ما كدت أعرفه . وقال المبرّد : يعني لم يرها إلا من بعـد الجهد؛ كما تقول : ما كدت أراك من الظلمة ، وقد رآه بعد يأس وشدّة . وقيل : معناه قَرُب من الرؤية ولم ير؛ كما يقال : كاد العروس يكون أميرا ، وكاد النعام يطير ، وكاد المنتعل يكون راكبا . النحاس : وأصح الأقوال في هـذا أن المعنى لم يقارب رؤيتها ، فإذا لم يقارب رؤيتها فلم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة . ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا ﴾ يهتدى به أظلمتْ عليه الأمور . وقال ابن عباس : أي من لم يجعل الله له دينا فما له من دين ، ومن لم يجعل الله له نورا يمشي به يوم القيامة لم يهتد

إلى الجنة؛ كقوله تعالى : « وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ »(١) . وقال الزجاج : ذلك في الدنيا؛ والمعنى : من لم يهده الله لم يهتد . وقال مقاتل بن سليمان : نزلت في عتبة بن ربيعة ، كان يلتمس الدِّين في الجاهلية ، ولَبِس المُسُوح ، ثم كفر في الإسلام . الماوَرْدِيّ : في شيبة ابن ربيعة ، وكان يترهّب في الجاهلية ويلبس الصوف ويطلب الدِّين ، فكفر في الإسلام .

قلت : وكلاهُمَا مات كافرا ، فلا يبعد أن يكونا هما المراد بالآية وغيرهما . وقد قيل : نزلت في عبد الله بن جَحْش ، وكان أسلم وهاجر إلى أرض الحبشة ثم تنصّر بعد إسلامه . وذكر الثّعلبيّ : وقال أنس قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى خلقني من نور وخلق أبا بكر من نوري وخلق عمر وعائشة من نور أبي بكر وخلق المؤمنين من أمتي من نور عمر وخلق المؤمنات من أمتي من نور عائشة فمن لم يحبني ويحب أبا بكر وعمر وعائشة فما له من نور " . فنزلت « وَمَنْ لم يجعلِ اللهُ له نورًا فما له مِن نُورٍ » .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾ لما ذكر وضوح الآيات زاد في الحجة والبيّنات ، وبيّن أن مصنوعاته تدلّ بتغييرها على أن لها صانعا قادرا على الكمال؛ فله بِعْثة الرسل ، وقد بعثهم وأيّدهم بالمعجزات ، وأخبروا بالجنة والنار . والخطاب في « ألم تر » للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، ومعناه : ألم تعلم؛ والمراد الكُلّ . ﴿ أنّ اللهَ يُسَبِّحُ له مَنْ فِي السّمواتِ ﴾ من الملائكة . ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ من الجن والإنس . ﴿ والطَّيْرُ صَافّاتٍ ﴾ قال مجاهد وغيره : الصلاة للإنسان والتسبيح لما سواه من الخلق . وقال سفيان : للطير صلاةٌ ليس فيها ركوع ولا سجود . وقيل : إنّ ضربها بأجنحتها صلاة ، وإن أصواتها

(١) آية ٢٨ سورة الحديد .

تسبيح؛ حكاه النقاش . وقيـل : التسبيح هاهنا ما يرى فى المخلوق من أثر الصنعة . ومعنى « صافاتٍ » مصطفات الأجنحة فى الهواء . وقرأ الجماعة « والطّيرُ » بالرفع عطفا على « مَنْ » . وقال الزجاج : ويجوز « والطيرَ » بمعنى مع الطير . قال النحاس : وسمعته يخبر «قمتُ وزيدًا» بمعنى مع زيد . قال : وهو أجود من الرفع . قال : فإن قلت قمت أنا وزيد ، كان الأجود الرفع ، ويجوز النصب . ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ يجوز أن يكون المعنى : كلٌّ قـد علم الله صلاته وتسبيحه ؛ أى علم صلاة المصلِّى وتسبيحَ المسبِّح . ولهـذا قال : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ أى لا يخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم . ومن هذه الجهة يجوز نصب « كل» عند البصريين والكوفيين بإضمار فعل يفسّره ما بعده . وقد قيـل : المعنى قد علم كلُّ مُصَلٍّ ومسبّح صلاة نفسه وتسبيحه الذى كُلِّفه . وقرأ بعض الناس « كلٌّ قد عُلِم صلاتُه وتسبيحُه » غير مسمًّى الفاعل . وذكر بعض النحويين أن بعضهم قرأ « كلٌّ قد علَّمَ صلاتَه وتسبيحه » ؛ فيجوز أن يكون تقديره : كلٌّ قـد علّمه الله صـلاته وتسبيحه . ويجوز أن يكون المعنى : كلٌّ قد علّم غيرَه صلاته وتسبيحه ، أى صـلاة نفسه ؛ فيكون التعليم الذى هو الإفهام والمراد الخصوص ؛ لأن من الناس من لم يُعلَّم . ويجوز أن يكون المعنى كلٌّ قد استدل منه المستدلّ ، فعبّر عن الاستدلال بالتعليم ؛ قاله المهدوىّ . والصلاة هنا بمعنى التسبيح ، وكرر تأكيدا ؛ كقوله « يَعْلَمُ السِّرَّ والنَّجْوَى » . والصلاة قد تسمّى تسبيحا ؛ قاله القُشَيْرِىّ . ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ تقدّم فى غير موضع .

قوله تعـالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ﴾ ذكر من حججه شيئا آخر؛ أى ألم تر بعينَيْ قلبك . « يُزْجِي سَحَابًا » أى يسوق إلى حيث يشاء . والريح تُزْجِي السحاب ، والبقرة تزجى ولدها أى تسوقه . ومنه زجا الخراجُ يزجو زَجاءً (ممدودا) إذا تيسَّرت جبايته . وقال النابغة :

إنى أتيتك من أهلى ومن وطنى * أزجى حُشاشة نفسٍ ما بها رَمَقُ

وقال أيضا : أَسْرَتْ عليه من الجوزاء ساريةٌ * تُزْجِي الشمالُ عليه جامدَ البَرَدِ

﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أى يجمعه عند انتشائه؛ ليقوى ويتّصل ويَكْثُف . والأصل فى التأليف الهمز؛ تقول : تألف . وقرئ « يُوَلِّف » بالواو تخفيفا . والسحاب واحد فى اللفظ، ولكن معناه جمع؛ ولهذا قال : « يُنْشِئُ السَّحاب » . و « بين » لا يقع إلا لاثنين فصاعدًا ، فكيف جاز بينه ؟ فالجواب أن « بينه » هنا لجماعة السحاب؛ كما تقول : الشجر قد جلستُ بينه لأنه جمع ، وذكَّر الكناية على اللفظ؛ قال معناه الفراء . وجواب آخر — وهو أن يكون السحاب واحدا فجاز أن يقال بينه؛ لأنه مشتمل على قطع كثيرة، كما قال :

* ... ... بين الدَّخُول فحَوْمَلِ *

فأوقع « بين » على الدخول، وهو واحد لاشتماله على مواضع . وكما تقول : ما زلت أدور بين الكوفة؛ لأن الكوفة أماكن كثيرة؛ قاله الزجاج وغيره . وزعم الأصمعى أن هذا لا يجوز، وكان يروى :

* ... ... بين الدَّخُول وحَوْمَلِ *

﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ أى مجتمعا، يركب بعضه بعضا؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ[1] » . والرَّكْمُ جمع الشىء؛ يقال منه : رَكَم الشىءَ يَرْكُمه رَكْمًا إذا جمعه وألقى بعضه على بعض . وارتكم الشىءُ وتراكم إذا اجتمع . والرُّكْمة الطين المجموع . والرُّكَام : الرمل المتراكم . وكذلك السحاب وما أشبهه . ومُرْتَكَمُ الطريق (بفتح الكاف) جادّته . ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ فى « الوَدْق » قولان : أحدهما — أنه البرق؛ قاله أبو الأشهب العقيلى . ومنه قول الشاعر :

أثرنا عَجاجة وخرجن منها * خروج الوَدْق من خَلَل السحاب

(١) آية ٤٤ سورة الطور .

الثـانى — أنه المطر؛ قاله الجمهور . ومنه قول الشاعر .

فلا مُزْنَةٌ ودَقَتْ ودْقَهـا * ولا أرضَ أبْقَلَ إبقالَهـا

وقال امرؤ القيس :

فدمعهما وَدْقٌ وسَحٌّ وديمَـةٌ * وسَكْبٌ وتَوْكافٌ وتَنْهَمِلانِ

يقال : ودَقت السـحابة فهى وادقة . وودَق المطر يَدِق وَدْقًا ؛ أى قَطَـر . ووَدَقْتُ إليه دنوت منه . وفى المثل : وَدَق العَيْرُ إلى المـاء؛ أى دنا منه . يُضرب لمن خضع للشيء لحرصه عليه . والموضع مَوْدِق . ووَدَقْتُ [به] وَدْقًا استأنستُ به . ويقال لذات الحافر إذا أرادت الفحل : وَدَقَتْ تَدِق وَدْقًا ، وأَوْدَقَتْ واسْتَوْدَقَتْ . وأتان وَدُوق وفرس وَدُوق ، ووَدِيق أيضا ، وبها وِداق . والوَدِيقة : شدّة الحـَرّ . وخِلال جمع خَلَل ؛ مثلُ الجبل والجبال ، وهى فُرَجُه ومخارج القطر منه . وقد تقدم فى « البقَرة »[1] أن كعبا قال : إن السحاب غِرْبال المطر؛ لولا السحاب حين ينزل المـاء من السماء لأفسد مايقع عليه من الأرض . وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو العـالية « من خلله » على التوحيد . وتقول : كنت فى خلال القوم ؛ أى وسطهم . ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ قيل : خلق الله فى السماء جبالا من بَرَد ، فهو ينزِّل منها بَرَدًا ؛ وفيه إضمار ، أى ينزِّل من جبال البرد بَرَدًا ، فالمفعول محذوف . ونحو هـذا قول الفرّاء ؛ لأن التقدير عنـده : من جبال برد؛ فالجبال عنـده هى البرد . و « بَرَد » فى موضع خفض ؛ ويجب أن يكون على قوله المعنى : من جبالٍ بردٍ فيهـا ، بتنوين جبال . وقيل : إن الله تعـالى خلق فى السماء جبالا فيها برد؛ فيكون التقدير : وينزل من السماء من جبال فيها برد . و « مِن » صـلة . وقيل : المعنى وينزل من السماء قدر جبال ، أو مثل جبال من بَرَد إلى الأرض ؛ فـ « مِن » الأولى للغاية لأن ابتداء الإنزال من السماء ، والثانيـة للتبعيض لأن البَرَد بعض الجبال ، والثالثة لتبيين الجنس لأن جنس تلك الجبال من البَرَد . وقال الأخفش : إن « مِن » فى الجبال و « بَرَد » زائدة فى الموضعين ، والجبال والبرد فى موضع نصب ؛ أى ينزل من السماء بَرَدا يكون كالجبـال . والله أعلم . ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ ﴾

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٠١ طبعة ثانية .

فيكون إصابته نقمة، وصرفه نعمة . وقد مضى فى « البقرة »(١) . و« الرعد »(١) أن من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عُوفى ممـا يكون فى ذلك الرعد . ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ أى ضوء ذلك البرق الذى فى السحاب ﴿ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ من شدّة بَريقه وضوئه . قال الشّمّاخ :

وما كادت إذا رفعَتْ سَـناهَا * لِيُبْصِر ضوءهـا إلّا البَصِـيرُ

وقال امرؤ القيس :

يضيء سَناه أو مصابيحُ راهبٍ * أهـان السّليط فى الذّبال المُفَتَّلِ(٢)

فالسَّنا (مقصور) ضَوْء البرق . والسَّنا أيضا نبت يتداوَى به . والسَّناء من الرفعة ممدود . وكذلك قرأ طلحة بن مُصَرِّف « سناء » بالمد على المبالغة فى شدة الضوء والصّفاء؛ فأطلق عليـه اسم الشرف . قال المبرّد : السَّنا (مقصور) وهو اللمع؛ فإذا كان من الشّرف والحسب فهو ممدود، وأصلهما واحد وهو الالتماع . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « سَنَاءُ بُرَقِه » قال أحمـد بن يحيى : وهو جمع بُرْقة . قال النحاس : البُرْقة المقدار من البَرْق، والبَرْقة المرّة الواحدة . وقرأ الجَحْدَرِيّ وابن القَعْقاع « يُذْهِب بالأبصار » بضم اليـاء وكسر الهاء؛ من الإذهاب، وتكون البـاء فى « بالأبصار » صلةً زائدة . الباقون « يَذْهَبُ بالأبصار » بفتح الياء والهاء، والباء للإلصاق . والبَرْقُ دليل على تكاثف السحاب، وبشير بقوّة المطر، ومحذّر من نزول الصواعق . ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ قيل : تقليبهما أن يأتى بأحدهما بعد الآخر . وقيل : تقليبهما نقصهما وزيادتهما . وقيل : هو تغيير النهار بظلمة السحاب مرّة وبضَوْء الشمس أخرى؛ وكذا الليل مرّة بظلمة السحاب ومرّة بضوء القمر؛ قاله النقاش . وقيل : تقليبهما باختلاف ما يقدّر فيهما من خير وشر ونفع وضرّ . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أى فى الذى ذكرناه من تقلّب الليل والنهار، وأحوال المطر والصيف والشتاء ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أى اعتبارا ﴿ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أى لأهل البصائر من خَلْقى .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٨ طبعة ثانية أو ثالثة . و جـ ٩ ص ٢٩٨

(٢) السليط : الزيت . والذبال : جمع ذبالة ، وهى الفتيلة .

قوله تعالى : وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى « وَاللهُ خَالِقُ كُلِّ » بالإضافة . الباقون « خلق » على الفعل . قيل : إن المعنيين فى القراءتين صحيحان . أخبر الله عز وجل بخبرين، ولا ينبغى أن يقال فى هذا : إحدى القراءتين أصح من الأخرى . وقد قيل : إن « خلق » لشيء مخصوص ، وإنما يقال خالق على العموم ؛ كما قال الله عز وجل : « الخالق البارئ » . وفى الخصوص « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » وكذا « هو الذى خلقكم من نفس واحدة » . فكذا يجب أن يكون « اللهُ خَلَقَ كلَّ دابّة من ماء » . والدّابة كل ما دَبَّ على وجه الأرض من الحيوان ؛ يقال : دَبّ يَدِب فهو دابّ ؛ والهاء للمبالغة . وقد تقدم فى « البقرة »(1) . ﴿ مِنْ مَاءٍ ﴾ لم يدخل فى هذا الجنّ والملائكة ؛ لأنا لم نشاهدهم ، ولم يثبت أنهم خلقوا من ماء ، بل فى الصحيح "أن الملائكة خُلقوا من نور والجنّ من نار"(2) . وقد تقدم . وقال المفسرون : « من ماء » أى من نُطفة . قال النقاش : أراد أَمْنِيَة الذكور . وقال جمهور النَّظَرة : أراد أن خلقة كل حيوان فيها ماء كما خلق آدم من الماء والطين ؛ وعلى هذا يتخرج قول النبيّ صلى الله عليه وسلم للشيخ الذى سأله فى غَزاة بدر : ممن أنتما ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نحن من ماء" . الحديث . وقال قوم : لا يستثنى الجن والملائكة ، بل كل حيوان خلق من الماء ، وخلق النار من الماء ، وخلق الريح من الماء ؛ إذ أوّل ما خلق الله تعالى من العالم الماء ، ثم خلق منه كل شيء .

---

(1) راجع جـ ٢ ص ١٩٦ طبعة ثانية . (2) راجع جـ ١٠ ص ٢٣ وما بعدها .

قلت : ويدل على صحة هذا قوله تعالى : « فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ » المشيُ على البطن للحيّات والحُوت، ونحوه من الدود وغيره . وعلى الرِّجْلين للإنسان والطير إذا مشى . والأربع لسائر الحيوان . وفي مصحف أُبَيّ « ومنهم من يمشي على أكثر »؛ فعمّ بهذه الزيادة جميع الحيوان كالسّرطان والخشاش؛ ولكنه قرآن لم يثبته إجماع؛ لكن قال النقاش : إنما اكتفى في القول بذكر ما يمشي على أربع عن ذكر ما يمشي على أكثر؛ لأن جميع الحيوان إنما اعتماده على أربع، وهي قوام مشيه، وكثرة الأرجل في بعضه زيادة في خلقته، لا يحتاج ذلك الحيوان في مَشْيه إلى جميعها . قال ابن عطية : والظاهر أن تلك الأرجل الكثيرة ليست باطلا بل هي محتاج إليها في تنقّل الحيوان، وهي كلّها تتحرك في تصرفه . وقال بعضهم : ليس في الكتاب ما يمنع من المشي على أكثر من أربع؛ إذ لم يقل ليس منها ما يمشي على أكثر من أربع . وقيل فيه إضمار : ومنهم من يمشي على أكثر من أربع؛ كما وقع في مصحف أُبَيّ . والله أعلم . و« دَابَّة » تشمل مَن يعقل وما لا يعقل؛ فغلّب من يعقل لما اجتمع مع من لا يعقل؛ لأنه المخاطب والمتعبَّد؛ ولذلك قال « فمنهم » . وقال « من يمشي » فأشار بالاختلاف إلى ثبوت الصانع؛ أي لولا أن للجميع صانعا مختارا لما اختلفوا، بل كانوا من جنس واحد؛ وهو كقوله : « يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ »[1] .

﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يريد خلقه ﴿قَدِيرٌ﴾ .

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تقدم بيانه في غير موضع .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُولَٰٓئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

(١) آية ٤ سورة الرعد .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ ﴾ يعني المنافقين ، يقولون بألسنتهم آمنا بالله وبالرسول من غير يقين ولا إخلاص . ﴿ وَأَطَعْنَا ﴾ أى ويقولون، وكذبوا . ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَإِذَا دُعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ قال الطبرى وغيره : إن رجلا من المنافقين آسمه بشر كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة فى أرض ، فدعاه اليهودىّ إلى التحاكم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان المنافق مبطلا ، فأبى من ذلك وقال : إن محمدا يَحيف علينا ؛ فلنُحَكِّم كعب بن الأشرف ؛ فنزلت الآية فيه . وقيل : نزلت فى المغيرة بن وائل من بنى أمية ، كان بينه وبين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه خصومة فى ماء وأرض فآمتنع المغيرة أن يحاكم عليًّا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : إنه يُبغضنى ؛ فنزلت الآية ، ذكره الماوردى . وقال : «لِيَحْكُمَ» ولم يقل ليحكما لأن المعنىّ به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإنما بدأ بذكر الله إعظاما لله واستفتاح كلام .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أى طائعين منقادين؛ لعلمهم أنه عليه السلام يحكم بالحق . يقال : أذعن فلان لحكم فلان يُذعِن إذعانا وقال النقاش : « مذعنين » خاضعين ، مجاهد : مسرعين . الأخفش وآبن الأعرابى : مُقِرّين . ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ شكّ ورَيْب . ﴿ أَمِ ارْتَابُوا ﴾ أم حَدَث لهم شك فى نبوّته

وعدله . ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي يجور في الحكم والظلم . وأتى بلفظ الاستفهام لأنه أشدّ في التوبيخ وأبلغ في الذّم؛ كقول جرير في المدح :

ألستم خير من ركب المطايا * وأندى العالمين بطون راح

﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي المعاندون الكافرون؛ لإعراضهم عن حكم الله تعالى .

الثالثـــة ـــ القضاء يكون للسلمين إذا كان الحكم بين المُعاهَد والمسلم ولا حقّ لأهل الذّمة فيه . وإذا كان بين ذِمّيين فذلك إليهما . فإن جاءا قاضيَ الإسلام فإن شاء حكم وإن شاء أعرض؛ كما تقدم في « المائدة »[1] .

الرابعـــة ـــ هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعي إلى الحاكم لأن الله سبحانه ذمّ من دُعى إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه بأقبح الذم فقال : « أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » الآية . قال ابن خُوَيْزِ منداد : واجب على كل من دُعى إلى مجلس الحاكم أن يجيب ، ما لم يعلم أن الحاكم فاسق ، أو عداوة بين المدّعى والمدّعى عليه . وأسند الزهراوي عن الحسن ابن أبي الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من دعاه خصمه إلى حاكم من حكام المسلمين فلم يُجب فهو ظالم ولا حقّ له " . ذكره الماوَرْدي أيضا . قال ابن العربي : وهذا حديث باطل؛ فأما قوله " فهو ظالم " فكلام صحيح، وأما قوله " فلا حقّ له " فلا يصح، ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق .

قوله تعالى : إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)

قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي الى كتاب الله وحكم رسوله . ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ قال ابن عباس : أخبر بطاعة المهاجرين والأنصار، وإن كان ذلك فيما يكرهون؛ أي هذا قولهم، وهؤلاء لو كانوا مؤمنين لكانوا

(١) راجع جـ ٦ ص ١٨٤

يقولون سمعنا وأطعنا . فالقول نصب على خبر كان ، واسمها فى قوله « ان يقولوا » نحو « وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا » (١) . وقيل : إنما قولَ المؤمنين ، وكان صلة فى الكلام ؛ كقوله تعالى : « كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا » (٢) . وقرأ ابن القعقاع « لِيُحْكَمَ بينهم » غير مسمّى الفاعل . علىّ بن أبى طالب « إنما كان قولُ » بالرفع .

قوله تعالى : وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما أمر به وحكم . ﴿ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ ﴾ قرأ حفص « وَيَتَّقْهِ » بإسكان القاف على نية الجزم ؛ قال الشاعر :

ومن يَتَّقْ فإنّ الله معه * ورزقُ الله مُؤْتابٌ وغادِى

وكسرها الباقون ، لأن جزمه بحذف آخره . وأسكن الهاء أبو عمرو وأبو بكر . واختلس الكسرة يعقوب وقالُون عن نافع والبِسْتِىّ عن أبى عمرو وحفص . وأشبع كسرة الهاء الباقون ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ ذكر أسلم أن عمر بينما هو قائم فى مسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم وإذا رجل من دهاقين الروم قائم على رأسه وهو يقول : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . فقال له عمر : ما شأنك ؟ قال : أسلمت لله . قال : هل لهذا سبب ! قال : نعم ! إنى قرأت التوراة والزّبور والإنجيل وكثيرا من كتب الأنبياء ، فسمعت أسيرا يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما فى الكتب المتقدمة ، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت . قال : ما هذه الآية ؟ قال قوله تعالى : «ومن يُطِعِ اللهَ» فى الفرائض «ورَسُولَهُ» فى السنن «وَيَخْشَ اللهَ» فيما مضى من عمره «وَيَتَّقْهِ» فيما بقى من عمره « فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » والفائز من نجا من النار وأدخل الجنة . فقال عمر : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " أوتيتُ جوامع الكَلِم " .

---

(١) آية ١٤٧ سورة آل عمران . (٢) آية ٢٩ سورة مريم .

قوله تعالى : وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣)

قوله تعالى : ﴿وأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ عاد إلى ذكر المنافقين، فإنه لما بيّن كراهتهم لحكم النبيّ صلى الله عليه وسلم أتوه فقالوا : والله لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا ونسائنا وأموالنا لخرجنا، ولو أمرتنا بالجهاد لجاهدنا؛ فنزلت هذه الآية . أى وأقسموا بالله أنهم يخرجون معك فى المستأنف ويطيعون . ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أى طاقة ما قدروا أن يحلفوا . وقال مقاتل : من حلف بالله فقد أجهد فى اليمين . وقد مضى فى « الأنعام »[1] بيان هذا . و «جَهْدَ» منصوب على مذهب المصدر تقديره : إقساما بليغا . ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾ وتم الكلام . ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ أَوْلَى بكم من أيمانكم؛ أو ليكن منكم طاعة معروفة، وقول معروف بإخلاص القلب، ولا حاجة إلى اليمين . وقال مجاهد : المعنى قد عُرِفت طاعتكم وهى الكذب والتكذيب؛ أى المعروف منكم الكذب دون الإخلاص . ﴿إنّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من طاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل .

قوله تعالى : قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بإخلاص الطاعة وترك النفاق . ﴿فإنْ تَوَلَّوْا﴾ أى فإن تتولوا، فحذف إحدى التاءين . ودلّ على هذا أن بعده «وعليكم» ولم يقل وعليهم . ﴿فإنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أى من تبليغ الرسالة . ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ أى من الطاعة له؛ عن ابن عباس وغيره . ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ جعل الاهتداء مقرونا بطاعته . ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إلاَّ الْبَلَاغُ﴾ أى التبليغ ﴿المبين﴾ .

(١) راجع جـ ٧ ص ٦٢

قوله تعالى : وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

نزلت فى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ؛ قاله مالك . وقيل : إن سبب هذه الآية أن بعض أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم شكا جَهْد مكافحة العدوّ، وما كانوا فيه من الخوف على أنفسهم ، وأنهم لا يضعون أسلحتهم ؛ فنزلت الآية . وقال أبو العالية : مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين بعد ما أوحى إليه خائفا هو وأصحابه، يدعون إلى الله سرًّا وجهرا، ثم أُمِر بالهجرة إلى المدينة، وكانوا فيها خائفين يصبحون و يمسون فى السلاح . فقال رجل : يا رسول الله، أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال عليه السلام : "لا تلبثون إلّا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم مُحْتَبِيًا ليس عليه حديدة"، ونزلت هذه الآية ، وأظهر الله نبيّه على جزيرة العرب فوضعوا السلاح وأمنوا . قال النحاس : فكان فى هذه الآية دلالة على نبوّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله جل وعز أنجز ذلك الوعد . قال الضحاك فى كتاب النقاش : هذه تتضمن خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ ؛ لأنهم أهل الإيمان وعملوا الصالحات . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الخلافة بعدى ثلاثون". و إلى هذا القول ذهب ابن العربىّ فى أحكامه، وآختاره وقال: قال علماؤنا هذه الاية دليل على خلافة الخلفاء الأربعة رضى الله عنهم، وأن الله استخلفهم ورضى أمانتهم، وكانوا على الدِّين الذى آرتضى لهم، لأنهم لم يتقدّمهم أحد فى الفضيلة إلى يومنا هذا ، فآستقر الأمر لهم ، وقاموا بسياسة المسلمين ، وذَبُّوا عن حَوْزة الدِّين ؛ فنفذ الوعد فيهم ، وإذا لم يكن هذا الوعد لهم نجز ، وفيهم نَفَذ ، وعليهم ورَدَ، ففيمن يكون إذاً ، وليس بعدهم مثلهم إلى يومنا هذا، ولا يكون فيما بعده . رضى الله عنهم . وحكى هذا القولَ القُشَيْرِى عن

ابن عباس . واحتجُّوا بمـا رواه سَفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون مُلْكاً " . قال سفينة : أمسـك [عليك][1] خلافة أبى بكر سنتين ، وخلافة عمر عشرا ، وخلافة عثمان ثنتى عشرة سنة ، وخلافة علىّ ستًّا . وقال قوم : هذا وعد لجميع الأمة فى ملك الأرض كلّها تحت كلمة الإسلام ؛ كما قال عليـه الصلاة والسلام : " زُوِيَتْ لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ مُلْك أمتى ما زُوِىَ لى منهـا " . واختار هـذا القول ابن عطية فى تفسيره حيث قال : والصحيح فى الآية أنها فى آستخلاف الجمهور، واستخلافهم هو أن يملّكهم البلاد ويجعلهم أهلها ؛ كالذى جرى فى الشأم والعراق وخراسان والمغرب . قال ابن العربى : قلنا لهم هذا وعد عام فى النبوّة والخلافة و إقامـة الدعوة وعموم الشريعة ، فنفذ الوعد فى كل أحد بقدره وعلى حاله ؛ حتى فى المفتين والقضاة والأئمـة ، وليس للخلافة محل تنفذ فيـه الموعدة الكريمة إلا من تقدّم من الخلفاء . ثم ذكر أعتراضا وانفصالا معناه : فإن قيل هـذا الأمر لا يصـح إلا فى أبى بكر وحده ، فأما عمر وعثمان فقُتِلا غِيلَةً ، وعلىّ قد نُوزِع فى الخلافة . قلنا : ليس فى ضمن الأمن السلامةُ من الموت بأىّ وجه كان ، وأما علىّ فلم يكن نزاله فى الحرب مُذْهِباً للأمن ، وليس من شرط الأمن رفع الحرب إنمـا شرطه مِلْك الإنسان لنفسه باختياره ، لا كما كان أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسـلم بمكة . ثم قال فى آخر كلامه : وحقيقة الحال أنهم كانوا مقهورين فصاروا قاهرين ، وكانوا مطلوبين فصاروا طالبين ؛ فهذا نهاية الأمن والعز .

قلت : هذه الحـال لم تختص بالخلفاء الأربعة رضى الله عنهم حتى يُخَصُّوا بها من عموم الآية، بل شاركهم فى ذلك جميع المهاجرين بل وغيرهم . ألا ترى إلى إغزاء قريش المسلمين فى أُحد وغيرها وخاصّـة الخَنْدق، حتى أخبر الله تعالى عن جميعهم فقال : « إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وِمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وِإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا[2] » . ثم إن الله ردّ الكافرين لم ينالوا خيرا، وأمّن

(١) زيادة عن ابن العربى . والخطاب لسعيد بن جمدان راوى الحديث عن سفينة .
(٢) آية ١٠ وما بعدها سورة الأحزاب .

المؤمنين وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وهو المراد بقوله : « لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ » . وقوله « كَمَا ٱسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » يعنى بنى إسرائيل ، إذ أهلك الله الجبابرة بمصر ، وأورثهم أرضهم وديارهم فقال : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا »(١) . وهكذا كان الصحابة مستضعفين خائفين، ثم إن الله تعالى أمنهم ومكّنهم وملّكهم ، فصح أن الآية عامة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم غير مخصوصة ؛ إذ التخصيص لا يكون إلا بخبر ممن يجب [له] التسليم ، ومن الأصل المعلوم التمسك بالعموم . وجاء فى معنى تبديل خوفهم بالأمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال أصحابه : أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال عليه السلام : " لا تلبثون إلا قليلا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم مُحْتَبِيًا ليس عليه حديدة " . وقال صلى الله عليه وسلم : " والله لَيُتِمَّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون " . خرّجه مسلم فى صحيحه ؛ فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم . فالآية معجزة النبوة ؛ لأنها إخبار عما سيكون فكان .

قوله تعالى : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ ﴾ فيه قولان : أحدهما — يعنى أرض مكة ؛ لأن المهاجرين سألوا الله تعالى ذلك فوُعِدوا كما وُعِدت بنو إسرائيل ؛ قال معناه النقاش . الثانى — بلاد العرب والعجم . قال ابن العربىّ : وهو الصحيح ؛ لأن أرض مكة محرّمة على المهاجرين ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لكن البائسُ سعد بن خَوْلة " . يرثى له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنْ مات بمكة . وقال فى الصحيح أيضا : " يمكث المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثا " . واللام فى « لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ » جواب قَسَم مُضْمَر ؛ لأن الوعد قول ، مجازها : قال الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات والله ليستخلفنّهم فى الأرض فيجعلهم ملوكها وسكانها . ﴿ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى بنى إسرائيل ، أهلك الجبابرة بمصر والشأم وأورثهم أرضهم وديارهم . وقراءة العامة « كما اسْتَخْلَفَ » بفتح التاء واللام ؛ لقوله « وَعَدَ » . وقوله « لَيَسْتَخْلِفَنَّهم » . وقرأ عيسى بن عمر وأبو بكر والمفضل عن عاصم « ٱسْتُخْلِف » بضم

(١) آية ١٣٧ سورة الأعراف .

التاء وكسر اللام على الفعل المجهول . ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ وهو الإسلام؛ كما قال تعالى : « وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » (١) وقد تقدم . وروى سليم بن عامر عن المقداد ابن الأسود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ما على ظهر الأرض بيت حجر ولا مدر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل أما بعزهم فيجعلهم من أهلها وأما بذلهم فيدينون بها" . ذكره الماوردى حجة لمن قال : إن المراد بالأرض بلاد العرب والعجم؛ وهو القول الثانى ، على ما تقدم آنفا . ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ ﴾ قرأ ابن محيصن وابن كثير ويعقوب وأبو بكر بالتخفيف ؛ من أبدل ، وهى قراءة الحسن ، واختيار أبى حاتم . الباقون بالتشديد؛ من بدّل ، وهى اختيار أبى عبيد؛ لأنها أكثر ما فى القرآن ، قال الله تعالى : «لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ» . وقال : « وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً » ونحوه ، وهما لغتان . قال النحاس : وحكى محمد بن الجهم عن الفراء قال : قرأ عاصم والأعمش « وليبدلنهم » مشددة ، وهذا غلط على عاصم؛ وقد ذكر بعده غلطا أشد منه ، وهو أنه حكى عن سائر الناس التخفيف . قال النحاس : وزعم أحمد بن يحيى أن بين التثقيل والتخفيف فرقا ، وأنه يقال : بدّلته أى غيرته ، وأبدلته أزلته وجعلت غيره . قال النحاس : وهذا القول صحيح ؛ كما تقول : أبدل لى هذا الدرهم ، أى أزله وأعطنى غيره . وتقول : قد بدّلت بعدنا ، أى غيّرت؛ غير أنه قد يستعمل أحدهما موضع الآخر؛ والذى ذكره أكثر . وقد مضى هذا فى «النساء» (٢) والحمد لله ، وذكرنا فى سورة «إبراهيم» (٣) الدليل من السنة على أن بدل معناه إزالة العين؛ فتأمله هناك . وقرئ «عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا» (٤) مخففا ومثقلا . ﴿ يَعْبُدُونَنِى ﴾ هو فى موضع الحال ؛ أى فى حال عبادتهم الله بالإخلاص . ويجوز أن يكون استئنافا على طريق الثناء عليهم . ﴿ لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا ﴾ فيه أربعة أقوال : أحدها ـ لا يعبدون إلها غيرى ؛ حكاه النقاش . الثانى ـ لا يراءون بعبادتى أحدا . الثالث ـ لا يخافون غيرى ؛ قاله ابن عباس . الرابع ـ لا يحبون غيرى ؛ قاله مجاهد . ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أى بهذه النعم . والمراد كفران النعمة؛ لأنه قال تعالى ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ والكافر بالله فاسق بعد هذا الإنعام وقبله .

(١) راجع جـ ٦ ص ٦٣ (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٥٤ (٣) راجع جـ ٩ ص ٣٨٢ (٤) آية ٣٢ سورة القلم .

قوله تعالى : وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾

تقدم؛ فأعاد الأمر بالعبادة تأكيدا .

قوله تعالى : لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ووعدٌ بالنصرة . وقراءة العامة «تَحْسَبَنَّ» بالتاء خطابا . وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو حَيْوة «يَحْسَبَنَّ» بالياء، بمعنى لا يحسبنّ الذين كفروا أنفسهم معجزين الله فى الأرض؛ لأن الحُسْبان يتعدّى إلى مفعولين . وهذا قول الزجاج . وقال الفراء وأبو علىّ : يجوز أن يكون الفعل للنبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى لا يحسبنّ محمد الذين كفروا معجزين فى الأرض . فـ «الذين» مفعول أوّل، و «معجزين» مفعول ثان . وعلى القول الأوّل «الذين كفروا» فاعل «أنفسهم» مفعول أوّل، وهو محذوف مراد «معجزين» مفعول ثان . قال النحاس : وما علمت أحدا من أهل العربية بَصْريًّا ولا كوفيًّا إلا وهو يُخطِّئ قراءة حمزة؛ فمنهم من يقول : هى لحن؛ لأنه لم يأت إلا بمفعول واحد ليحسبنّ . وممن قال هذا أبو حاتم . وقال الفراء : هو ضعيف؛ وأجازه على ضعفه، على أنه يحذف المفعول الأوّل، وقد بيناه . قال النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول فى هذه القراءة : يكون «الذين كفروا» فى موضع نصب . قال : ويكون المعنى ولا يحسبنّ الكافر الذين كفروا معجزين فى الأرض .

قلت : وهذا موافق لما قاله الفراء وأبو علىّ ؛ لأن الفاعل هناك النبيّ صلى الله عليه وسلم . وفى هذا القول الكافر . و «معجزين» معناه فائتين . وقد تقدّم[1] . ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ اى المرجع .

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٨

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قال العلماء . هذه الآية خاصّة والتى قبلها عامّة؛ لأنه قال : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا » ثم خصّ هنا فقال : « لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » فخصّ فى هذه الآية بعض المستأذنين، وكذلك أيضا يتأول القول فى الأولى فى جميع الأوقات عموما . وخص فى هذه الآية بعض الأوقات ، فلا يدخل فيها عبد ولا أَمَة؛ وَغْدا كان أو ذا منظر إلا بعد الاستئذان . قال مقاتل: نزلت فى أسماء بنت مَرْثَد، دخل عليها غلام لها كبير، فاشتكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فنزلت عليه الآية . وقيل : بسبب نزولها دخول مُدْلج على عمر؛ وسيأتى .

الثانية ــ اختلف العلماء فى المراد بقوله تعالى « لِيستأذِنْكم » على ستة أقوال :

الأول ــ أنها منسوخة، قاله ابن المسيّب وابن جبير .

الثانى ــ أنها ندب غير واجبة؛ قاله أبو قِلَابة، قال : إنما أمروا بهذا نظرا لهم .

الثالث ــ عنى بها النساء؛ قاله أبو عبد الرحمن السُّلَمىّ . وقال ابن عمر : هى فى الرجال دون النساء . وهو القول الرابع .

الخامس ــ كان ذلك واجبا، إذ كانوا لا غَلَق لهم ولا أبواب، ولو عاد الحال لعاد الوجوب؛ حكاه المهدوىّ عن ابن عباس .

السادس — أنها محكمة واجبة ثابتة على الرجال والنساء؛ وهو قول أكثر أهل العلم؛ منهم القاسم وجابر بن زيد والشَّعْبِيّ . وأضعفها قول السُّلَمِيّ لأن «الذين» لا يكون للنساء في كلام العرب، إنما يكون للنساء «اللاتي واللواتي» . وقول ابن عمر يستحسنه أهل النظر، لأن «الذين» للرجال في كلام العرب ، وإن كان يجوز أن يدخل معهم النساء فإنما يقع ذلك بدليل؛ والكلام على ظاهره ، غير أن في إسناده لَيْث بن أبي سليم[(1)] . وأما قول ابن عباس فروى أبو داود عن عبيد الله بن أبي يزيد سمع ابن عباس يقول : آية لم يؤمر بها أكثر الناس آيةُ الاستئذان وإني لآمر جاريتي هذه تستأذن عليّ . قال أبو داود : وكذلك رواه عطاء عن ابن عباس «يأمر به» . وروى عكرمة أن نفرا من أهل العراق قالوا : يابن عباس، كيف ترى في هذه الآية التي أمرنا فيها بما أمرنا ولا يعمل بها [أحد][(2)]، قول الله عز وجل «يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين مَلَكَتْ أيمانكم والذين لم يَبْلُغُوا الحُلُمَ منكم ثلاثَ مَرَّاتٍ من قبل صلاة الفجر وحين تَضَعُون ثيابكم من الظَّهِيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاثُ عَوْراتٍ لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم» . قال أبو داود : قرأ القَعْنَبِيّ إلى «عليمٌ حكيمٌ» قال ابن عباس : إن الله حليم رحيم بالمؤمنين يحبّ السّتر، وكان الناس ليس لبيوتهم سُتُور ولا حِجال[(3)] ، فربما دخل الخادم أو الولد أو يتيمة الرجل والرجل على أهله، فأمرهم الله بالاستئذان في تلك العورات ، فجاءهم الله بالستور والخير ، فلم أر أحدا يعمل بذلك [بعد][(2)] .

قلت : هذا متن حسن، وهو يرد قول سعيد وابن جبير؛ فإنه ليس فيه دليل على نسخ الآية ، ولكن على أنها كانت على حال ثم زالت ، فإن كان مثل ذلك الحال فحكمها قائم كما كان، بل حكمها لليوم ثابت في كثير من مساكن المسلمين في البوادي والصحاري ونحوها . وروى

---

(1) في تهذيب التهذيب : «وقال ابن حبان اختلط في آخر عمره ، فكان يقلب الأسانيد ويرفع المراسيل ، ويأتي من الثقات بما ليس من حديثهم . وقال البزار : كان أحد العباد ، إلا أنه أصابه اختلاط فاضطرب حديثه... الخ» .

(2) زيادة عن سنن أبي داود . (3) الحجال : جمع الحجلة (بالتحريك) وهو بيت كالقبة يستر بالثياب ويكون له أزرار كبار .

وَكيع عن سفيان عن موسى بن أبى عائشة عن الشعبى « يأيها الذين آمنوا لِيستأذنْكم الذين ملكت أيمانكم » قال : ليست بمنسوخة . قلت : إن الناس لا يعملون بها ؛ قال : الله عز وجل المستعان

الثالثة ـــ قال بعض أهل العلم : إن الاستئذان ثلاثا مأخوذ من قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا لِيَستأذِنْكم الذين مَلَكَتْ أيمانُكم والذين لم يَبْلُغوا الحُلُمَ منكم ثلاثَ مرّات» قال يزيد : ثلاث دفعات . قال : فورد القرآن فى المماليك والصبيان ، وسنّةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجميع . قال ابن عبد البر : ما قاله من هذا و إن كان له وجه فإنه غير معروف عن العلماء فى تفسير الآية التى نزع بها ، والذى عليه جمهورهم فى قوله « ثلاثَ مرّات » أى فى ثلاث أوقات . ويدلّ على صحة هذا القول ذِكْرُه فيها « من قبل صلاة الفَجْر وحين تَضَعُون ثيابكم من الظّهيرة ومن بعد صلاة العشاء » .

الرابعة ـــ أدّب الله عز وجل عباده فى هذه الآية بأن يكون العبيد إذ لا بال لهم ، والأطفالُ الذين لم يبلغوا الحُلُمَ إلا أنهم عَقَلُوا معانى الكَشْفة ونحوها ، يستأذنون على أهليهم فى هذه الأوقات الثلاثة، وهى الأوقات التى تقتضى عادة الناس الانكشافَ فيها وملازمةَ التعرِّى . فما قبل الفجر وقتُ انتهاء النوم ووقت الخروج من ثياب النوم ولبس ثياب النهار . ووقتُ القائلة وقت التجرد أيضا وهى الظهيرة، لأن النهار يظهر فيها إذا علا شعاعه وآشتد حَرّه . وبعد صلاة العشاء وقت التعرّى للنوم ؛ فالتكشف غالب فى هذه الأوقات . يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث غلاما من الأنصار يقال له مُدْلج إلى عمر بن الخطاب ظَهيرةً ليدعوه ، فوجده نائما قد أغلق عليه الباب ، فدقّ عليه الغلام الباب فناداه ودخل ، فاستيقظ عمر وجلس فآنكشف منه شىء ، فقال عمر : وَددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول علينا فى هذه الساعات إلا بإذن ؛ ثم انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد هذه الآية قد أنزلت ، فخر ساجدا شكرا لله . وهى مكية .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ﴾ أى الذين لم يحتلموا من أحراركم ؛ قاله مجاهد . وذكر إسماعيل بن إسحاق كان[1] يقول : ليستأذنكم الذين لم يبلغوا الحلم مما ملكت أيمانكم ؛ على التقديم والتأخير ، وأن الآية فى الإماء . وقرأ الجمهور بضم اللام ، وسكّنها الحسن بن أبى الحسن لثقل الضمة . وكان أبو عمرو يستحسنها . و «ثلاثَ مرّات» نصب على الظرف ؛ لأنهم لم يؤمروا بالاستئذان ثلاثا ، إنما أمروا بالاستئذان فى ثلاثة مواطن ، والظرفية فى « ثلاث » بيّنة : من قبل صلاة الفجر ، وحين تَضَعُون ثيابكم من الظّهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء . وقد مضى معناه . ولا يجب أن يستأذن ثلاث مرات فى كل وقت . ﴿ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ﴾ قرأ جمهور السبعة « ثلاثُ عَوْراتٍ » برفع « ثلاث » . وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم «ثلاثَ» بالنصب على البدل من الظرف فى قوله «ثلاثَ مرات » . قال أبو حاتم : النصب ضعيف مردود . وقال الفرّاء : الرفع أحب إلىّ . قال : وإنما آخترت الرفع لأن المعنى : هذه الخصال ثلاثُ عورات . والرفع عند الكسائى بالابتداء ، والخبر عنده ما بعده ، ولم يقل بالعائد ، وقال نَصًّا بالابتداء . قال : والعَوْرات الساعاتُ التى تكون فيها العَوْرة ، إلا أنه قرأ بالنصب ، والنصب فيه قولان : أحدهما — أنه مردود على قوله «ثلاثَ مرّات» ؛ ولهذا استبعده الفراء . وقال الزجاج : المعنى ليستأذنكم أوقات ثلاث عورات ؛ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . و « عَوْرات » جمع عَوْرة ، وبابه فى الصحيح أن يجىء على فعلات (بفتح العين) كجَفْنة وجَفَنات ، ونحو ذلك . وسكّنوا العَيْن فى المُعْتَلّ كبَيْضة وبَيْضات ؛ لأن فتحه داع إلى اعتلاله فلم يفتح لذلك ؛ فأما قول الشاعر :

أبو بَيَضاتٍ رائحٌ مُتأوِّبٌ * رَفِيقٌ بمسح المَنْكِبَيْن سَبُوحُ[2]

[فشاذّ] .

---

(١) كذا فى نسخ الأصـل ، وظاهر أن فى العبارة سقطا .

(٢) كذا فى اللسان مادة « بيض » . والذى فى نسخ الأصـل :

أبو بيضات رائح أو مُغْتَد * عجلان ذا زاد وغـير مزوّد

وهذا البيت للنابغة الذبيانى ، وصواب إنشاده : أمن آل ميّة رائح أو مُغْتَد * ... ... الخ .

السادســـة ــ قوله تعـالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ أى فى الدخول من غير أن يستأذنوا وإن كنتم متبــذّلين . ﴿ طَوَّافُونَ ﴾ بمعنى هم طوافون . قال الفــراء : كقولك فى الكلام إنمـا هم خدمكم وطوافون عليكم . وأجاز الفراء نصب « طوافين » لأنه نكرة، والمضمر فى « عليكم » معرفة . ولا يجيز البصريون أن يكون حالا من المضمرَيْن اللذَيْن فى « عليكم » وفى « بعضكم » لاختلاف العاملين . ولا يجــوز مررت بزيد ونزلت على عمرو العاقلَيْن، على النعت لهما . فمعنى « طَوّافون عليكم » أى يطوفون عليكم وتطوفون عليهم؛ ومنه الحديث فى الهرة "إنمـا هى من الطوّافين عليكم أو الطوّافات"(1). فمنع فى الثلاث العورات من دخولهم علينا؛ لأن حقيقة العَوْرة كل شىء لامانع دونه، ومنه قوله « إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ » أى سهلة لِلْــدُخَل، فبيّن العلة الموجبة للإذن، وهى الخلوة فى حال العورة؛ فتعين امتثاله وتعذر نسخه . ثم رفع الجُنَـاح بقوله « لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ » أى يطوف بعضكم على بعض . ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ الكاف فى موضــع نصب؛ أى يبين الله لكم آياته الدالة على متعبّداته بياناً مثل مايبيّن لكم هذه الأشياء . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ تقدم(2) .

السابعــــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ يريد العَتَمة . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رســول الله صلى الله عليه وســلم يقول : لا تَغلِبَنّكم الأعراب على اسم صلاتكم ألَا إنّها العِشاء وهُمْ يعتِمون بالإبل". وفى رواية "فإنها فى كتاب الله العِشاءُ وإنهـا تُعْتِم بحِلاب الإبل" . وفى البــخارى عن أبى بَرْزة : كان النبىّ صلى الله عليه وســلم يؤخّر العشاء . وقال أنس : أخّر النبىّ صلى الله عليه وسلم العشاء . وهذا يدل على العشاء الأولى . وفى الصحيح : فصلاّها، يعنى العصر بين العشاءين المغرب والعشاء . وفى المُوَطّأ وغيره : ولو يعلمون ما فى العَتَمة والصبح لأَتَوْهما ولو حَبْوًا . وفى مســلم عن جابر

---

(1) قوله « أو الطوافات » يحتمل أن يكون على معنى الشك من الراوى . ويحتمل أن يكون صلى الله عليه وسلم قال ذلك ؛ يريد أن هذا الحيوان لا يخلو أن يكون من جملة الذكور الطوافين أو الإناث الطوافات (عن الباجى) .

(2) راجع ج ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

ابن سَمُرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى الصلوات نحوًا من صلاتكم ، وكان يؤخر العَتَمة بعد صلاتكم شيئا ، وكان يُخفّ الصلاة . قال القاضى أبو بكر بن العربى : وهذه أخبار متعارضة ، لا يُعلم منها الأول من الآخر بالتاريخ ، ونهيه عليه السلام عن تسمية المغرب عشاء وعن تسمية العشاء عَتَمة ثابت ، فلا مردّ له من أقوال الصحابة فضلًا عمن عداهم . وقد كان ابن عمر يقول : من قال صلاة العتمة فقد أثم . وقال ابن القاسم قال مالك : « وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ » فالله سماها صلاة العشاء فأحبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أن تسمّى بما سمّاها الله تعالى به ، ويعلّمها الإنسان أهله وولده ، ولا يقال عَتَمة إلا عند خطاب من لا يفهم . وقد قال حسان :

وكانت لا يزال بها أنيس * خلالَ مُروجِها نَعَمٌ وَشَاءُ

فدَعْ هذا ولكن مَنْ لِطَيْفٍ * يؤرّقنى إذا ذهب العشاء

وقد قيل : إن هذا النهى عن اتباع الأعراب فى تسميتهم العشاء عَتَمة ، إنما كان لئلا يُعدل بها عما سمّاها الله تعالى فى كتابه إذ قال : « ومن بعد صلاة العشاء » ؛ فكأنه نَهْىُ إرشاد إلى ما هو الأَوْلى ، وليس على جهة التحريم ، ولا على أن تسميتها العتمة لا يجوز ؛ ألا ترى أنه قد ثبت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد أطلق عليها ذلك ، وقد أباح تسميتها بذلك أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . وقيل : إنما نهى عن ذلك تنزيها لهذه العبادة الشريفة الدّينية عن أن يطلق عليها ما هو اسم لفعلة دُنْيوية ، وهى الحَلْبة التى كانوا يحلبونها فى ذلك الوقت ويسمونها العتمة ؛ ويشهد لهذا قوله : " فإنها تُعْتِم بحلاب الإبل " .

الثامنة[1] — روى ابن ماجه فى سننه حدّثنا عثمان بن أبى شيبة حدّثنا إسماعيل بن عيّاش عن عُمارة بن غَزِيّة عن أنس بن مالك عن عمر بن الخطاب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : " من صلّى فى جماعة أربعين ليلة لا تفوته الركعة الأولى من صلاة العشاء كتب الله له بها عتقًا من النار " . وفى صحيح مسلم عن عثمان بن عفان قال قال رسول الله صلى

---

(١) تقدّم أن المسائل سبع .

الله عليه وسلم : " من صلّى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصفَ الليل ومنْ صلّى الفجر فى جماعة فكأنمـا قام الليلَ كلّه ". وروى الدّارَقُطْنِيّ فى سننه عن سُبيع أو تُبيع عن كعب قال : من توضأ فأحسن الوضوء وصلى العشاء الآخرة وصلّى بعدها أربع ركعات فأتمّ ركوعهن وسجودهن ويعلم ما يقترئ[1] فيهن كن له بمنزلة ليلة القدر .

قوله تعـالى : وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾

قرأ الحسن « الحُلْمَ » فحذف الضمة لثقلها . والمعنى : أن الأطفال أمروا بالاستئذان فى الأوقات الثلاثة المذكورة، وأبيح لهم الأمر فى غير ذلك كما ذكرنا . ثم أمر تعالى فى هذه الآية أن يكونوا إذا بلغوا الحلم على حكم الرجال فى الاستئذان فى كل وقت . وهذا بيان من الله عز وجل لأحكامه وإيضاح حلاله وحرامه، وقال « فَلْيَسْتَأْذِنُوا » ولم يقل فليستأذنوكم . وقال فى الأولى « لِيَسْتَأْذِنْكُمُ » لأن الأطفـال غير مخاطبين ولا متعبّدين . وقال ابن جُرَيج : قلت لعطاء « وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا » قال : واجب على الناس أن يستأذنوا إذا احتلموا، أحرارا كانوا أو عبيدا . وقال أبو إسحاق الفَزَارِيّ : قلت للأوزاعيّ ما حدّ الطفل الذى يستأذن ؟ قال : أربع سنين، قال : لا يدخل على امرأة حتى يستأذن . وقال الزهرىّ : أى يستأذن الرجل على أمه؛ وفى هذا المعنى نزلت هذه الآية .

قوله تعـالى : وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

(١) يقترئ بمعنى يقرأ .

فيـــه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ القواعد واحدتها قاعد، بلا هاء؛ ليدل حذفها على أنه قعود الكِبَر، كما قالوا : امرأة حامل؛ ليدلّ بحذف الهاء أنه حمل حَبَل . قال الشاعر:

فلو أنّ ما فى بطنــه بين نِسـوَةٍ * حَبِلْن و إن كنّ القــواعد عُقرَا

وقالوا فى غير ذلك : قاعدة فى بيتها، وحاملة على ظهرها، بالهـاء . والقواعد أيضا : إساس البيت؛ واحده قاعدة، بالهاء .

الثانيــة — القواعد : العُجّز اللواتى قعدن عن التصرف من السنّ، وقعدن عن الولد والمَحِيض؛ هـذا قول أكثر العلماء . قال ربيعة : هى التى إذا رأيتها تستقذرها من كِبَرها . وقال أبو عبيدة : اللاتى قعـدن عن الولد؛ وليس ذلك بمستقيم ، لأن المرأة تقعد عن الولد وفيها مستمتَع؛ قاله المهدوىّ .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ إنمـا خص القواعد بذلك لانصراف الأنفس عنهن؛ إذ لا مذهب للرجال فيهن، فأبيح لهن ما لم يبح لغيرهن، وأزيل عنهن كُلْفة التحفظ المتعب لهن .

الرابعــة — قـرأ ابن مسعود وأُبَىّ وابن عبـاس « أَنْ يَضَعْنَ مِنْ ثِيـابِهن » بزيادة « من » . قال ابن عباس : وهو الجِلْباب . وروى عن ابن مسعود أيضا «من جلابيبهن» . والعرب تقول : امرأة واضع، للتى كَبِرت فوضعت خمارها . وقال قوم : الكبيرة التى أيست من النكاح، لو بدا شعرها فلا بأس؛ فعلى هذا يجوز لهـا وضع الخمار . والصحيح أنها كالشابة فى التستّر؛ إلا أن الكبيرة تضع الجلباب الذى يكون فوق الدِّرع والخمـار؛ قاله ابن مسعود وابن جُبير وغيرهما .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أى غير مظهرات ولا متعرضات بالزينـة لِيُنْظَر إليهن؛ فإن ذلك من أقبح الأشياء وأبعده عن الحق . والتبرّج : التكشّف والظهور للعيون؛ ومنه : بروج مشيدة. و بروج السماء والأسوار؛ أى لا حائل دونها يسترها .

وقيل لعائشة رضى الله عنها: يا أم المؤمنين، ماتقولين فى الخضاب والصِّباغ والتمائم والقُرْطين والخَلْخال وخاتم الذهب ورقاق الثياب؟ فقالت : يا معشر النساء ، قصتكن قصةُ امرأة واحدة ، أحلّ الله لكن الزينة غير متبرجات لمن لا يحل لكن أن يروْا منكن مُحرَّما . وقال عطاء : هذا فى بيوتهن ، فإذا خرجت فلا يحل لها وضع الجلباب . وعلى هذا «غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ» غير خارجات من بيوتهن . وعلى هذا يلزم أن يقال : إذا كانت فى بيتها فلا بد لها من جلباب فوق الدِّرع ، وهذا بعيد ، إلا إذا دخل عليها أجنبى . ثم ذكر تعالى أن تحفّظ الجميع منهن ، واستعفافَهنّ عن وضع الثياب والتزامَهنّ ما يلزم الشباب أفضل لهن وخير . وقرأ ابن مسعود « وأن يتعففن» بغير سين . ثم قيل : من التبرج أن تلبس المرأة ثوبين رقيقين يصفانها . روى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صنفان من أهل النار لم أرهما قومٌ معهم سِيَاط كأذناب البَقَر يضربون بها الناس ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مُميلاتٌ مائلات رءوسهن كأسنمة البُخْت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا" . قال ابن العربى : وإنما جعلهنّ كاسيات لأن الثياب عليهنّ ، وإنما وصفهنّ بأنهنّ عاريات لأن الثوب إذا رقّ يصفهنّ ، ويبدى محاسنهنّ ؛ وذلك حرام .

قلت : هذا أحد التأويلين للعلماء فى هذا المعنى . والثانى — أنهنّ كاسيات من الثياب عارياتٌ من لباس التقوى الذى قال الله تعالى فيه : «ولِبَاسُ التَّقْوَى ذلك خَيْرٌ»[1] . وأنشدوا :

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التُّقَى * تقلّب عُرْيانًا وإن كان كاسيا

وخيرُ لباس المرء طاعةُ ربّه * ولا خيرَ فيمن كان لله عاصيا

وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينا أنا نائم رأيت الناس يُعْرَضون علىّ[2] وعليهم قُمُص منها ما يبلغ الثُّدِىّ ومنها ما دون ذلك ومرّ عمر ابن الخطاب وعليه قميص يجرّه" قالوا : ماذا أوّلت ذلك يا رسول الله؟ قال : "الدِّين" . فتأويله صلى الله عليه وسلم القميص بالدِّين مأخوذ من قوله تعالى : « ولِبَاسُ التَّقْوَى ذلك خير» . والعرب تكنى عن الفضل والعفاف بالثياب ؛ كما قال شاعرهم :

(١) آية ٢٦ سورة الأعراف . (٢) الذى فى صحيح مسلم : « يعرضون وعليهم ... » .

* ثياب بنى عوف طهارى نقية (١) *

وقد قال صلى الله عليه وسلم لعثمان : "إن الله سيُلبسك قميصا فإن أرادوك أن تخلعه فلا تخلعه". فعبّر عن الخلافة بالقميص، وهى استعارة حسنة معروفة.

قلت : هذا التأويل أصح التأويلين، وهو اللائق بهنّ فى هذه الأزمان، وخاصّةً الشباب، فإنهنّ يتزيّن ويخرجن متبرّجات؛ فهن كاسيات بالثياب عاريات من التّقْوى حقيقة، ظاهرا وباطنا، حيث تُبْدِى زينتها، ولا تبالى بمن ينظر إليها، بل ذلك مقصودهنّ، وذلك مشاهد فى الوجود منهنّ، فلو كان عندهنّ شىء من التقوى لما فعلن ذلك، ولم يعلم أحد ما هنالك. ومما يقوى هذا التأويل ما ذُكر من وصفهنّ فى بقيّة الحديث فى قوله : "رءوسهنّ كأسنمة البُخْت". والبُخْت ضرب من الإبل عظام الأجسام، عظام الأسنمة؛ شبه رءوسهنّ بها لما رفعن من ضفائر شعورهنّ على أوساط رءوسهنّ. وهذا مشاهد معلوم، والناظر إليهنّ ملوم. قال صلى الله عليه وسلم : "ما تركتُ بعدى فتنةً أضرّ على الرجال من النساء". خرّجه البخارى.

قوله تعالى : لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

(١) هذا صدر بيت لامرئ القيس، وعجزه كما فى ديوانه :

* وأوجههم عند المشاهد غرّانُ *

فيــه إحدى عشرة مسألة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ اختلف العلماء فى تأويل هــذه الآية على أقوال ثمانية . أقربها ــ هل هى منسوخة أو ناسخة أو مُحْكَمة؛ فهذه ثلاثة أقوال:

الأول ــ أنها منسوخة من قوله تعالى: «وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ » إلى آخر الآية؛ قاله عبد الرحمن آبن زيد ، قال : هــذا شىء قد آنقطع ، كانوا فى أوّل الإســلام ليس على أبوابهم أغلاق ، وكانت الستور مرخاة، فربمــا جاء الرجل فدخل البيت وهو جائع وليس فيــه أحد ؛ فسوّغ الله عز وجل أن يأ كل منه ، ثم صارت الأغلاق على البيوت فلا يحــلّ لأحد أن يفتحها ، فذهب هذا وانقطع . قال صلى الله عليه وسلم : "لا يَحْتَلِبَنّ أحدٌ ماشيةَ أحدٍ إلا بإذنه ..." الحديث . خرّجه الأئمة .

الثــانى ــ أنها ناسخة؛ قاله جمــاعة . روى علىّ بنَ أبى طلحة عن ابن عباس قال : لمــا أنزل الله عز وجل « يأيها الذين آمنوا لا تأ كلوا أموالكم بينكم بالباطل » قال المسلمون: إن الله عز وجل قد نهانا أن نأ كل أموالنا بيننا بالباطل، وأن الطعام من أفضــل الأموال، فلا يحلّ لأحد منّا أن يأ كل عند أحد، فكفّ الناس عن ذلك؛ فأنزل الله عز وجل «ليس على الأعمى حرج ــ إلى ــ أو ما مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَه» . قال : هو الرجل يوكّل الرجل بضيعته.

قلت : علىّ بن أبى طلحة هذا هو مولى بنى هاشم سكن الشام ، يُكْنَى أبا الحسن ويقال أبا محمد، واسم أبيه أبى طلحة سالمٌ، تُكلِّم فى تفسيره؛ فقيل : إنه لم يرآبن عباس، والله أعلم .

الثــالث ــ أنها محكمة؛ قاله جماعة من أهل العلم ممن يُقْتَدَى بقولهم ؛ منهم سعيد بن المسيِّب وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . وروى الزُّهْرِىّ عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان المسلمون يُوعِبُون فى النَّفِير مع رسول الله صــلى الله عليه وســلم ، فكانوا يدفعون مفاتيحهم إلى ضَمْناهم ويقولون : إن احتجتم فكُلُوا ؛ فكانوا يقولون إنما أحلُّوه لنا عن غير طيب نَفْس ؛ فأنزل الله عز وجل « ولا على أنفسكم أن تأ كلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم » إلى آخر الاية . قال النحاس : « يوعِبون » أى يخرجون بأجمعهــم فى المغازى ؛

يقال : أوعب بنو فلان لبنى فلان إذا جاءوهم بأجمعهم . وقال ابن السكّيت : يقال أوعب بنو فلان جلاءً ؛ فلم يبق ببلدهم منهم أحد . وجاء الفرس بركْض وَعِيب ؛ أى بأقصى ماعنده . وفى الحديث : "فى الأنف إذا استوعب جَدْعُه الدِّيَةُ" إذا لم يترك منه شىء . واستيعاب الشىء استئصاله . ويقال : بَيْتٌ وَعِيبٌ إذا كان واسعا يَسْتَوْعِب كلّ ما جُعل فيه . والضَّمْنَى هم الزَّمْنَى ، واحدهم ضَمِن مثل زمن . قال النحاس : وهذا القول من أجلّ ما روى فى الآية ؛ لما فيه عن الصحابة والتابعين من التوفيق أن الآية نزلت فى شىء بعينه . قال ابن العربى : وهذا كلام منتظم لأجل تخلفهم عنهم فى الجهاد و بقاء أموالهم بأيديهم ، لكن قوله «أَوْ مَا مَلَكْتُم مَفَاتِحَهُ» قد اقتضاه ؛ فكان هذا القول بعيدا جدا . لكن المختار أن يقال : إن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذى يشترط فيه البصر ، وعن الأعرج فيما يشترط فى التكليف به من المشى ؛ وما يتعذّر من الأفعال مع وجود العَرَج ، وعن المريض فيما يؤثّر المرض فى إسقاطه ؛ كالصوم وشروط الصلاة وأركانها ، والجهاد ونحو ذلك . ثم قال بعد ذلك مبيّنا : وليس عليكم حرج فى أن تأكلوا من بيوتكم . فهذا معنى صحيح ، وتفسير بيّن مفيد ، يَعْضُده الشرع والعقل ، ولا يحتاج فى تفسير الآية إلى نقل .

قلت : وإلى هذا أشار ابن عطية فقال : فظاهر الآية وأمر الشريعة يدلّ على أن الحرج عنهم مرفوع فى كل ما يضطرهم إليه العذر ، وتقتضى نيتهم فيه الإتيان بالأكمل ، ويقتضى العذر أن يقع منهم الأنقص ؛ فالحرج مرفوع عنهم فى هذا . فأما ما قال الناس فى هذا الحرج هنا وهى :

الثانيــة — فقال ابن زيد : هو الحرج فى الغزو ؛ أى لا حرج عليهم فى تأخرهم . وقوله تعالى : « وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ » الآية ، معنًى مقطوع من الأول . وقالت فرقة : الاية كلّها فى معنى المطاعم . قالت : وكانت العرب ومَن بالمدينة قبل المَبْعث تتجنّب الأكل مع أهل الأعذار ؛ فبعضهم كان يفعل ذلك تقذّرا لجَوَلان اليد من الأعمى ، ولانبساط الجلسة من الأعرج ، ولرائحة المريض وعلّاته ؛ وهى أخلاق جاهلية وكبر ، فنزلت الآية مؤذنة .

وبعضهم كان يفعل ذلك تحرجا من غير أهل الأعذار ، إذ هم مقصرون عن درجة الأصحاء فى الأكل ، لعدم الرؤية فى الأعمى ، وللعجز عن المزاحمة فى الأعرج ، ولضعف المريض ؛ فنزلت الآية فى إباحة الأكل معهم . وقال ابن عباس فى كتاب الزهراوى : إن أهل الأعذار تحرجوا فى الأكل مع الناس من أجل عذرهم ؛ فنزلت الآية مبيحة لهم . وقيل : كان الرجل إذا ساق أهل العذر إلى بيته فلم يجد فيه شيئا ذهب به إلى بيوت قرابته ؛ فتحرج أهل الأعذار من ذلك ؛ فنزلت الآية .

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ هذا ابتداء كلام ؛ أى ولا عليكم أيها الناس . ولكن لما اجتمع المخاطَب وغير المخاطب غلّب المخاطب لينتظم الكلام . وذكر بيوت القرابات وسقط منها بيوتُ الأبناء ؛ فقال المفسرون : ذلك لأنها داخلة فى قوله « فى بيوتكم » لأن بيت ابن الرجل بيتُه ؛ وفى الخبر " أنت ومالك لأبيك " . ولأنه ذكر الأقرباء بعدُ ولم يذكر الأولاد . قال النحاس : وعارض بعضهم هذا القول فقال : هذا تحكّم على كتاب الله تعالى ؛ بل الأولى فى الظاهر ألا يكون الابن مخالفا لهؤلاء ؛ وليس الاحتجاج بما رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم " أنت ومالك لأبيك " بقوى لوَهْى هذا الحديث ، وأنه لو صح لم تكن فيه حجة ؛ إذ قد يكون النبى صلى الله عليه وسلم علم أن مال ذلك المخاطب لأبيه . وقد قيل إن[1] المعنى : أنت لأبيك ، ومالك مبتدأ ؛ أى ومالك لك . والقاطع لهذا التوارثُ بين الأب والابن . وقال الترمذى الحكيم : ووجه قوله تعالى « ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم » كأنه يقول مساكنكم التى فيها أهاليكم وأولادكم ؛ فيكون للأهل والولد هناك شىء قد أفادهم هذا الرجل الذى له المسكن ، فليس عليه حرج أن يأكل معهم من ذلك القُوت ، أو يكون للزوجة والولد هناك شىء من ملكهم فليس عليه فى ذلك حرج .

---

(١) فى بعض النسخ : « إن معنى » .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ ﴾ قال بعض العلماء : هذا إذا أذنوا له فى ذلك . وقال آخرون : أذنوا له أو لم يأذنوا فله أن يأكل ؛ لأن القرابة التى بينهـم هى إذنٌ منهـم . وذلك لأن فى تلك القرابة عَطْفًا تسمح النفوس منهم بذلك العطف أن يأكل هذا من شيئهم ويُسَرّوا بذلك إذا علموا . آبن العربى : أباح لنـا الأكل من جهة النسب من غير استئذان إذا كان الطعام مبذولا ، فإذا كان محرزا دونهم لم يكن لهم أخذه ، ولا يجوز أن يجاوزوا إلى الآدخار ، ولا إلى ما ليس بمأكول وإن كان غير محرز عنهم إلا بإذن منهم .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ يعنى مما آختزنتم وصار فى قبضتكم . وعظم ذلك ما ملكه الرجل فى بيته وتحت غَلَقه؛ وذلك هو تأويل الضحاك وقتادة ومجاهد . وعند جمهور المفسرين يدخل فى الآية الوكلاء والعبيد والأُجَراء . قال آبن عباس : عنى وكيل الرجل على ضيعته ، وخازنه على ماله ؛ فيجوز له أن يأكل مما هو قيِّم عليه . وذكر معمر عن قتادة عن عكرمة قال : إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن، فلا بأس أن يَطْعَم الشىء اليسير . آبن العربى : وللخازن أن يأكل مما يَخزن إجماعا ؛ وهذا إذا لم تكن له أجرة، فأما إذا كانت له أجرة على الخزن حَرُم عليه الأكل . وقرأ سعيد بن جُبير «مُلِّكْتُم» بضم الميم وكسر اللام وشدها . وقرأ أيضا «مفاتيحه» بياء بين التاء والحاء، جمع مفتاح؛ وقد مضى فى «الأنعام»(1) . وقرأ قتادة «مفتاحه» على الإفراد . وقال آبن عباس : نزلت هذه الآية فى الحارث آبن عمرو ، خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازيًا وخلّف مالك بن زيد على أهله، فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال : تحرّجت أن آكل من طعامك بغير إذنك ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ الصديق بمعنى الجمع ، وكذلك العدوّ؛ قال الله تعـالى : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي »(2) . وقال جرير :

دعَوْن الهـوى ثم آرْتَمَيْنَ قلوبَنا * بأسهم أعداء وهنّ صديقُ

(1) راجع جـ ٧ ص ١ (2) آية ٧٧ سورة الشعراء

والصــديق من يَصْدقك فى مودّته وتُصْدقه فى مودّتك . ثم قيل : إن هــذا منسوخ بقوله « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ »[(١)]، وقوله تعــالى : « فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا » الآية ، وقوله عليه السلام : " لا يحل مال آمرئ مسلم إلا بطيبة نفس منه " .
وقيل : هى محكمة؛ وهو أصح . ذكر محمد بن ثَوْر عن مَعْمَر قال : دخلت بيت قتادة فأبصرت فيه رُطَبًا فجعلت آكله؛ فقال: ماهذا؟ فقلت: أبصرت رطبا فى بيتك فأكلت؛ قال: أحسنت؛ قال الله تعالى : «أَوْ صَدِيقِكُمْ» . وذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله «أَوْ صَدِيقِكُمْ» قال : إذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرته لم يكن بذلك بأس . وقال معمر قلت لقتادة : ألا أشرب من هذا الحُب[(٢)] ؟ قال : أنت لى صديق ! فمــا هذا الاستئذان . وكان صلى الله عليه وسـلم يدخل حائط أبى طلحة المسمّى بِبَيْرُحَا[(٣)] ويشرب من ماء فيهــا طيّب بغير إذنه ، على ما قاله علماؤنا؛ قالوا : والمــاء متملّك لأهله . وإذا جاز الشرب من ماء الصديق بغير إذنه جاز الأكل من ثمــاره وطعامه إذا علم أن نفس صاحبه تطيب به لتفاهته ويســير مؤنته، أو لمــا بينهما من المَودّة . ومن هذا المعنى إطعام أمّ حَرام له صلى الله عليه وسلم إذ نام عندها؛ لأن الأغلب أن ما فى البيت من الطعام هو للرجل، وأن يد زوجته فى ذلك عاريّة .
وهذا كله مالم يتخذ الأكل خُبْنة[(٤)]، ولم يقصد بذلك وقاية ماله، وكان تافها يسيرا .

السابعــــة — قرن الله عز وجل فى هــذه الآية الصديق بالقرابة المحضة الوكيدة، لأن قرب المودة لَصيق . قال آبن عباس فى كتاب النقاش : الصديق أوكد من القرابة؛ ألا ترى استغاثة الجَهَنميين « فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ »[(٥)] .

قلت : ولهذا لا تجوز عندنا شهادة الصديق لصديقه، كما لا تجوز شهادة القريب لقريبه . وقد مضى بيان هــذا والعلة فيه فى « النساء »[(٦)] . وفى المثل « أيّهم أحب إليــك أخوك أم صديقك » قال : أخى إذا كان صديق .

(١) آية ٥٣ سورة الأحزاب . (٢) الحب (بضم الحاء المهملة) : الجرة الضخمة ، والخابية . وقال ابن دريد : هو الذى يجعل فيه المــاء؛ فلم ينوعه . (٣) راجع الكلام على ضبطها فى معجم البلدان لياقوت .
(٤) الخبنة : معطف الإزار وطرف الثوب؛ أى لا يأخذ منه فى ثوبه . (٥) آية ١٠٠ سورة الشعراء .
(٦) راجع جـ ٥ ص ٤١٠ وما بعدها .

الثامنـــة ــ قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ قيل : إنها نزلت فى بنى ليث بن بكر، وهم حىّ من بنى كِنانة، كان الرجل منهم لا يأكل وحده ويمكث أياما جائعا حتى يجد من يؤاكله . ومنه قول بعض الشعراء :

إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسى له * أكِيلًا فإنى لست آكله وَحْدِى

قال ابن عطية : وكانت هذه السيرة موروثة عندهم عن إبراهيم صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه كان لا يأكل وحده . وكان بعض العرب إذا كان له ضيف لا يأكل إلا أن يأكل مع ضيفه ؛ فنزلت الآية مبيّنة سُنّة الأكل ، ومذهبة كلّ ما خالفها من سيرة العرب ، ومبيحة من أكل المنفرد ما كان عند العرب محرما ، نحت به نحو كرم الخلق ، فأفرطت فى إلزامه ، وإن إحضار الأكيل لحسَن ، ولكن بألا يحرم الانفراد .

التاســعة ــ قوله تعالى : ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ «جميعا» نصب على الحال . و«أَشْتَاتًا» جمع شَتّ ، والشَّتّ المصدر بمعنى التفرّق ؛ يقال : شتّ القوم أى تفرّقوا . وقد ترجم البخارى فى صحيحه (باب ــ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) الآية . و(النِّهْد والاجتماع) . ومقصوده فيما قاله علماؤنا فى هذا الباب : إباحة الأكل جميعا وإن اختلفت أحوالهم فى الأكل . وقد سوّغ النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك ، فصارت تلك سنّة فى الجماعات التى تدعى إلى الطعام فى النِّهْد والولائم وفى الإملاق فى السفر . وما ملكت مفاتحه بأمانة أو قرابة أو صداقة فلك أن تأكل مع القريب أو الصديق ووحدك . والنِّهد : ما يجمعه الرفقاء من مال أو طعام على قدر فى النفقة ينفقونه بينهم ؛ وقد تناهدوا ؛ عن صاحب العين . وقال ابن دُرَيد : يقال من ذلك : تناهد القوم الشيء بينهم . الهَرَوِيّ : وفى حديث الحَسَن "أخرجوا نِهْدَكم فإنه أعظم للبركة وأحسن لأخلاقكم" . النِّهد : ما تخرجه الرُّفقة عند المناهدة ؛ وهو استقسام النفقة بالسويّة فى السفر وغيره . والعرب تقول : هات نِهْدَك ؛ بكسر النون . قال المهلّب : وطعام النِّهد لم يوضع للآكلين على أنهم يأكلون بالسّواء ، وإنما يأكل كل واحد على قدر نَهْمته ، وقد يأكل الرجل أكثر من غيره . وقد قيل : إن

تركها أشبه بالورع . وإن كانت الرفقة تجتمع كل يوم على طعام أحدهم فهو أحسن من النهد ؛ لأنهم لا يتناهدون إلا ليصيب كل واحد منهم من ماله ، ثم لا يدرى لعل أحدهم يقصر عن ماله ، ويأكل غيره أكثر من ماله ؛ وإذا كانوا يوما عند هذا ويوما عند هذا بلا شرط فإنما يكونون أضيافا والضيف يأكل بطيب نفس مما يقدم إليه . وقال أيوب السختياني : إنما كان النهد أن القوم كانوا يكونون فى السفر فيسبق بعضهم إلى المنزل فيذبح ويهيئ الطعام ثم يأتيهم ، ثم يسبق أيضا إلى المنزل فيفعل مثل ذلك ؛ فقالوا : إن هذا الذى تصنع كلنا نحب أن نصنع مثله فتعالوا نجعل بيننا شيئا لا يتفضل بعضنا على بعض ، فوضعوا النهد بينهم . وكان الصلحاء إذا تناهدوا تحرى أفضلهم أن يزيد على ما يخرجه أصحابه ؛ وإن لم يرضوا بذلك منه إذا علموه فعله سرا دونهم .

العاشرة ــ قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ اختلف المتأولون فى أى البيوت أراد ؛ فقال إبراهيم النخعي والحسن : أراد المساجد ؛ والمعنى : سلموا على من فيها من ضيفكم . فإن لم يكن فى المساجد أحد فالسلام أن يقول المرء : السلام على رسول الله . وقيل : يقول السلام عليكم ؛ يريد الملائكة ، ثم يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وذكر عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عمرو بن دينار عن ابن عباس رضي الله عنهما فى قوله تعالى : « فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم » الآية ، قال : إذا دخلت المسجد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وقيل : المراد بالبيوت البيوت المسكونة ؛ أى فسلموا على أنفسكم . قاله جابر بن عبد الله وابن عباس أيضا وعطاء بن أبي رباح . وقالوا : يدخل فى ذلك البيوت غير المسكونة ، ويسلم المرء فيها على نفسه بأن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . قال ابن العربي : القول بالعموم فى البيوت هو الصحيح ، ولا دليل على التخصيص ؛ وأطلق القول ليدخل تحت هذا العموم كل بيت كان للغير أو لنفسه ، فإذا دخل بيتا لغيره استأذن كما تقدم ، فإذا دخل بيتا لنفسه سلم كما ورد فى الخبر ، يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ؛ قاله ابن عمر . وهذا إذا كان فارغا ، فإن كان فيه أهله وخدمه

فليقل : السلام عليكم . وإن كان مسجدا فليقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وعليه حمل ابن عمر البيتَ الفارغ . قال ابن العربي : والذى أختاره إذا كان البيت فارغا ألا يلزم السلام ، فإنه إن كان المقصود الملائكة فالملائكة لا تفارق العبد بحال ، أما إنه إذا دخلت بيتك يستحب لك ذكر الله بأن تقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . وقد تقدم فى سورة « الكهف » (١) . وقال القُشَيْرِى فى قوله « إذا دخلتم بُيُوتًا » : والأوجه أن يقال إن هذا عام فى دخول كل بيت ، فإن كان فيه ساكن مسلم يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وإن لم يكن فيه ساكن يقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وإن كان فى البيت من ليس بمسلم قال السلام على من آتبع الهدى ، أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وذكر ابن خُوَيْزِ مَنْداد قال : كتب إلىّ أبو العباس الأصمّ قال حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال حدثنا ابن وهب قال حدثنا جعفر بن ميسرة عن زيد بن أسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخلتم بيوتا فسلّموا على أهلها وآذكروا اسم الله فإن أحدكم إذا سلّم حين يدخل بيته وذكر اسم الله تعالى على طعامه يقول الشيطان لأصحابه لا مبيت لكم ها هنا ولا عشاء وإذا لم يسلّم أحدكم إذا دخل ولم يذكر آسم الله على طعامه قال الشيطان لأصحابه أدركتم المبيت والعشاء " .

قلت : هذا الحديث ثَبَت معناه مرفوع من حديث جابر (٢) ، خرّجه مسلم . وفى كتاب أبى داود عن أبى مالك الأشجعىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا وَلَجَ الرجل بيته فليقل اللّهمّ إنى أسألك خير المَوْلِج وخير المخرج بآسم الله وَلَجْنا وبآسم الله خرجنا وعلى الله ربّنا توكلنا ثم ليسلّم على أهله " .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ تَحِيَّةً ﴾ مصدر ، لأن قوله « فسَلّموا » معناه فَحَيُّوا . وصفها بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب مودّة المسلَّم عليه . ووصفها أيضا بالطّيب لأن سامعها يستطيبها . والكاف من قوله « كذلك » كاف تشبيه . و « ذلك » إشارة إلى هذه السُّنَن ، أى كما بيّن لكم سُنّة دينكم فى هذه الأشياء يبيّن لكم سائر ما بكم حاجة إليه فى دينكم .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٦ (٢) كذا فى الأصول . وقد ورد معنى هذا الحديث فى كتاب الأدب المفرد للبخارى من رواية جابر .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ « إِنَّمَا » فى هذه الآية للحصر ؛ المعنى : لا يتمّ ولا يكمل إيمانٌ من آمن بالله ورسوله إلا بأن يكون من الرسول سامعا غير معنّت فى أن يكون الرسول يريد إكمال أمر فيريد هو إفساده بزواله فى وقت الجمع، ونحو ذلك . وبيّن تعالى فى أول السورة أنه أنزل آيات بينات، وإنما النزول على محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فختم السورة بتأكيد الأمر فى متابعته عليه السلام؛ ليعلم أن أوامره كأوامر القرآن .

الثانيــة ــ وٱختلف فى الأمر الجامع ماهو ؛ فقيل : المراد به ما للإمام من حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة، من إقامة سُنّة فى الدِّين، أو لترهيب عدو باجتماعهم وللحروب ؛ قال الله تعالى : « وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ » . فإذا كان أمر يشملهم نفعه وضره جمعهم للتشاور فى ذلك . والإمام الذى يُترقّب إذنه هو إمام الإمْرة، فلا يذهب أحد لعذر إلا بإذنه، فإذا ذهب بإذنه ارتفع عنه الظن السيئ . وقال مَكْحُول والزُّهْرِىّ : الجمعة من الأمر الجامع . وإمام الصلاة ينبغى أن يُستأذن إذا قدّمه إمام الإمرة، إذا كان يرى المستأذن . قال ابن سيرين : كانوا يستأذنون الإمام على المنبر؛ فلما كثر ذلك قال زياد : من جعل يده على فيه فليخرج دون إذن، وقد كان هذا بالمدينة حتى أن سهل بن أبى صالح رَعِف يوم الجمعة فاستأذن الإمام . وظاهر الآية يقتضى أن يُستأذن أميرُ الإمْرة الذى هو فى مقعد النبوّة، فإنه ربمـا كان له رأى فى حبس ذلك الرجل لأمر من أمور الدين . فأما إمام الصـلاة فقط

فليس ذلك إليه؛ لأنه وكيل على جزء من أجزاء الدِّين للذى هو فى مقعد النبوّة . وروى أن هذه الآية نزلت فى حفر الخَندق حين جاءت قريش وقائدها أبو سفيان، وغطفان وقائدها عُيَيْنَة بن حِصن؛ فضرب النبيّ صلى الله عليه وسلم الخندق على المدينة، وذلك فى شوال سنة خمس من الهجرة، فكان المنافقون يتسلّلون لِواذًا من العمل و يعتذرون بأعذار كاذبة . ونحوه روى أشهب وابن عبد الحكم عن مالك، وكذلك قال محمد بن إسحاق . وقال مقاتل : نزلت فى عمر رضى الله عنه ، آستأذن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى غَزْوة تَبُوك فى الرجعة فأذن له وقال : "انطلق فوالله ما أنت بمنافق" يريد بذلك أن يُسمع المنافقين . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إنما استأذن عمر رضى الله عنه فى العُمْرة فقال عليه السلام لما أذِن له : "يا أبا حَفْص لا تنسنا فى صالح دعائك" .

قلت : والصحيح الأوّل لتناوله جميع الأقوال . واختار ابن العربيّ ما ذكره فى نزول الآية عن مالك وابن إسحاق، وأن ذلك مخصوص فى الحرب . قال : والذى يبين ذلك أمران :

أحدهما — قوله فى الآية الأخرى : «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا» . وذلك أن المنافقين كانوا يتلوذون ويخرجون عن الجماعة و يتركون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر الله جميعهم بألا يخرج أحد منهم حتى يأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وبذلك يتبيّن إيمانه .

الثانى — قوله «لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ» وأيّ إذن فى الحدث والإمام يخطب، وليس للإمام خيار فى منعه ولا إبقائه، وقد قال «فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ»؛ فبيّن بذلك أنه مخصوص فى الحرب .

قلت : القول بالعموم أولى وأرفع وأحسن وأعلى . ﴿فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم بالخيار إن شاء أن يأذَن وإن شاء منع . وقال قتادة : قوله «فأذن لمن شئتَ منهم» منسوخة بقوله «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لهم» . ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾ أى لخروجهم عن الجماعة إن علمت لهم عذرا . ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

قوله تعالى : لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ يريد : يَصيح من بعيد : يا أبا القاسم ! بل عظّموه كما قال في الحُجُرات «إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ»(١) الآية . وقال سعيد بن جُبير ومُجاهد : المعنى قولوا يا رسول الله، في رِفق ولِين، ولا تقولوا يا محمد بتجهّم . وقال قتادة : أمرهم أن يشرّفوه ويفخّموه . ابن عباس : لا تتعرضوا لدعاء الرسول عليكم بإسخاطه فإن دعوته موجبة . ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ التسلّل والانسلال : الخروج . واللِّواذ من الملاوذة ، وهى أن تستتر بشيء مخافة مَن يراك ؛ فكان المنافقون يتسلّلون عن صلاة الجمعة . « لِوَاذًا » مصدر في موضع الحال ؛ أي متلاوذين ، أي يلوذ بعضهم ببعض ، ينضم إليه آستتارا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لم يكن على المنافقين أثقل من يوم الجمعة وحضور الخطبة ؛ حكاه النقاش، وقد مضى القول فيه . وقيل : كانوا يتسلّلون في الجهاد رجوعا عنه يلوذ بعضهم ببعض . وقال الحسن : لواذا فرارا من الجهاد؛ ومنه قول حسان :

وقريشٌ تجول منا لِواذا(٢) ٭ لم تحافظ وخفّ منها الحُلُوم

وصحّت واوها لتحركها في لاوذ . يقال : لاوذ يلاوذ ملاوذة ولِواذا . ولاذ يلوذ [لوذا] ولِياذا؛ انقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها اتباعا للاذ في الاعتلال ؛ فإذا كان مصدر فاعَل لم يُعَلّ؛ لأن فاعَل لا يجوز أن يُعَلّ .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ بهذه الآية آحتجّ الفقهاء على أن الأمر على الوجوب . ووجهها أن الله تبارك وتعالى قد حذّر من مخالفة أمره، وتوعّد

(١) آية ٣ (٢) في الأصول : « منكم » والتصويب عن الديوان، والرواية فيه :
وقريش تلوذ منا لواذا ٭ لم يقيموا وخف منها الحلوم

بالعقاب عليها بقوله : ﴿ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فتحرم مخالفته ، فيجب امتثال أمره . والفتنة هنا القتل ؛ قاله ابن عباس . عطاء : الزلازل والأهوال . جعفر بن محمد : سلطان جائر يُسلّط عليهم . وقيل : الطبع على القلوب بشؤم مخالفة الرسول . والضمير في « أَمْرِهِ » قيل هو عائد إلى أمر الله تعالى ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : إلى أمر رسوله عليه السلام ؛ قاله قتادة . ومعنى « يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ » أي يُعرضون عن أمره . وقال أبو عبيدة والأخفش : « عن » في هذا الموضع زائدة . وقال الخليل وسيبويه : ليست بزائدة ؛ والمعنى : يخالفون بعد أمره ؛ كما قال :

* ... لم تَنْتَطِق عن تَفَضُّلِ (١) *

ومنه قوله : « فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » أي بعد أمر ربه . و« أن » في موضع نصب بـ« يَحْذَر » . ولا يجوز عند أكثر النحويين حذر زيدا ، وهو في « أن » جائز ؛ لأن حروف الخفض تحذف معها .

قوله تعالى : أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقا وملكا . ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ فهو يجازيكم به . و « يعلم » هنا بمعنى علم . ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ بعد ما كان في خطاب رجع في خبر ؛ وهذا يقال له : خطاب التلوين . ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أي يخبرهم بأعمالهم ويجازيهم بها . ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من أعمالهم وأحوالهم .

ختمت السورة بما تضمنت من التفسير ، والحمد لله على التيسير .

---

(١) هذا من معلقة امرئ القيس . والبيت بتمامه :

وتضحي فتيت المسك فوق فراشها * نئوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

تم بعون الله تعالى الجزء الثاني عشر من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثالث عشر ، وأوله سورة "الفرقان"

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفرقان

مكية كلها في قول الجمهور . وقال ابن عباس وقتادة : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة ، وهي : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ » إلى قوله : « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » . وقال الضحاك : هي مدنية ، وفيها آيات مكية ؛ قوله : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ » الآيات .

ومقصود هذه السورة ذكر موضع عظم القرآن ، وذكر مطاعن الكفار في النبوّة والرد على مقالاتهم ؛ فمن جملتها قولهم : إن القرآن افتراه محمد ، وإنه ليس من عند الله .

قوله تعالى : تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ « تبارك » اختلف في معناه ؛ فقال الفرّاء : هو في العربية و « تقدّس » واحد ، وهما للعظمة . وقال الزجاج : « تبارك » تفاعل من البركة . قال : ومعنى البركة الكثرة من كل ذي خير . وقيل : « تبارك » تعالى . وقيل : تعالى عطاؤه ، أي زاد وكثر . وقيل : المعنى دام وثبت إنعامه . قال النحاس : وهذا أولاها في اللغة والاشتقاق ؛ من برك الشيء إذا ثبت ؛ ومنه برك الجمل والطير على الماء ، أي دام

وثبت . فأما القول الأول فخلّط ؛ لأن التقديس إنما هو من الطهارة وليس من ذا فى شىء .
قال الثعلبي : و يقال تبارك الله ، ولا يقال متبارَك ولا مبارَك ؛ لأنه ينتهى فى أسمائه وصفاته إلى حيث ورد التوقيف . وقال الطِّرِمّاح :

تباركتَ لا مُعْطٍ لشيء منعتَه * وليس لما أعطيتَ يا ربِّ مانع

وقال آخر :

* تَبَارَكْتَ مَا تَقْدِرْ يقعْ ولك الشكرُ *

قلت : قد ذكر بعض العلماء فى أسمائه الحسنى « المبارك » وذكرناه أيضا فى كتابنا . فإن كان وقع آتفاق على أنه لا يقال فيسلَّم للإجماع ، و إن كان وقع فيه آختلاف فكثير من الأسماء آختلف فى عدّه ؛ كالدهر وغيره . وقد نبهنا على ذلك هنالك ، والحمد لله .

و « الفرقان » القرآن . وقيل : إنه آسم لكل مُنزل ؛ كما قال : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَرُونَ الفُرْقَانَ » . وفى تسميته فرقانا وجهان : أحدهما ــ لأنه فرّق بين الحق والباطل ، والمؤمن والكافر . الثانى ــ لأن فيه بيان ما شرع من حلال وحرام ؛ حكاه النقاش . ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ يريد محمدا صلى الله عليه وسلم . ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ آسم « يكون » مضمر يعود على « عبده » وهو أولى لأنه أقرب إليه . ويجوز أن يكون يعود على « الفرقان » . وقرأ عبد الله بن الزبير « على عِبَادِهِ » . ويقال : أنذر إذا خوّف ؛ وقد تقدم فى أول « البقرة »(1) . والنذير : المحذِّر من الهلاك . الجوهرىّ : والنذير المنذر ، والنذير الإنذار . والمراد بـ « الْعَالَمِينَ » هنا الإنس والجن ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد كان رسولا إليهما ، ونذيرا لهما ، وأنه خاتم الأنبياء ، ولم يكن غيره عام الرسالة إلا نوح فإنه عمّ برسالته جميع الإنس بعد الطوفان ، لأنه بدأ به الخلق .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ عظّم تعالى نفسه . ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ نزه سبحانه وتعالى نفسه عما قاله المشركون من أن الملائكة أولاد الله ؛ يعنى بنات الله سبحانه وتعالى . وعما قالت اليهود : عزير آبن الله ؛ جلّ الله تعالى . وعما قالت النصارى : المسيح آبن الله ؛ تعالى الله عن ذلك . ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ كما قال عبدة الأوثان .

(1) راجع جـ ١ ص ١٨٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لا كما قال المجوس والثنوية : إن الشيطان أو الظلمة يخلق بعض الأشياء . ولا كما يقول من قال : للمخلوق قدرة الإيجاد . فالآية ردٌّ على هؤلاء . ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ أى قدر كل شىء مما خلق بحكمته على ما أراد ، لا عن سهوة وغفلة ، بل جرت المقادير على ما خلق الله إلى يوم القيامة و بعد القيامة ، فهو الخالق المقدّر ؛ فإياه فاعبدوه .

قوله تعالى : ﴿وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ ذكر ما صنع المشركون على جهة التعجيب فى اتخاذهم الآلهة ، مع ما أظهر من الدلالة على وحدانيته وقدرته . ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ يعنى الآلهة . ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لما اعتقد المشركون فيها أنها تضر وتنفع ، عبّر عنها كما يعبّر عما يعقل . ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أى لا دفع ضرّ وجلب نفع ، فحذف المضاف . وقيل : لا يقدرون أن يضروا أنفسهم أو ينفعوها بشىء ، ولا لمن يعبدهم ، لأنها جمادات . ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ أى لا يميتون أحدا ، ولا يحيونه . والنشور : الإحياء بعد الموت ؛ أنشر الله الموتى فنشروا . وقد تقدم (1) . وقال الأعشى :

حتى يقولَ الناسُ مما رأوا * يا عجبًا للميّتِ الناشِرِ

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى مشركى قريش . وقال ابن عباس : القائل منهم ذلك النضر بن الحرث ؛ وكذا كل ما فى القرآن فيه ذكر الأساطير . قال محمد بن إسحق : وكان مؤذيا للنبىّ صلى الله عليه وسلم . ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ يعنى القرآن . ﴿إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ أى كذب اختلقه . ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ يعنى اليهود ؛ قاله مجاهد . وقال ابن عباس :

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٢٩ طبعة أولى أو ثانية .

المراد بقوله «قَوْمٌ آخَرُونَ» أبو فُكَيْهة مولى بنى الحضرمى وعدّاس وجبر، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكتاب . وقد مضى فى « النحل »(1) ذكرهم . ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا ﴾ أى بظلم . وقيل : المعنى فقد أتوا ظلما . ﴿ وَزُورًا . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ قال الزجاج : واحد الأساطير أسطورة؛ مثل أحدوثة وأحاديث . وقال غيره : أساطير جمع أسطار؛ مثل أقوال وأقاويل . ﴿ اكْتَتَبَهَا ﴾ يعنى محمدا . ﴿ فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ ﴾ أى تلقى عليه وتقرأ . ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ حتى تحفظ . و « تملى » أصله تُملَل ؛ فأبدلت اللام الأخيرة ياء من التضعيف ؛ كقولهم : تقضّى البازى ؛ وشبهه

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى قل يا محمد أنزل هذا القرآن الذى يعلم السر، فهو عالم الغيب ، فلا يحتاج إلى معلم . وذكر « السر » دون الجهر؛ لأنه من علم السر فهو فى الجهر أعلم . ولو كان القرآن مأخوذا من أهل الكتاب وغيرهم لما زاد عليها ، وقد جاء بفنون تخرج عنها ، فليس مأخوذا منها . وأيضا ولو كان مأخوذا من هؤلاء لتمكن المشركون منه أيضا كما تمكن محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فهلا عارضوه فبطل اعتراضهم من كل وجه . ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ يريد غفورا لأوليائه رحيما بهم .

قوله تعالى : وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ .

فيه مسئلتان :

الأولى ـ قوله تعالى: « وَقَالُوا » ذكر شيئا آخر من مطاعنهم . والضمير فى «قالوا» لقريش ؛ وذلك أنهم كان لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس مشهور، وقد تقدم

(1) راجع جـ ١٠ ص ١٧٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

فى « سبحان » . ذكره ابن إسحق فى السيرة وغيره . مضمنه — أن سادتهم عتبة بن ربيعة وغيره اجتمعوا معه فقالوا : يا محمد ! إن كنت تحب الرياسة وليناك علينا ، وإن كنت تحب المال جمعنا لك من أموالنا ؛ فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك رجعوا فى باب الاحتجاج معه فقالوا : ما بالك وأنت رسول الله تأكل الطعام ، وتقف بالأسواق! فعيّروه بأكل الطعام؛ لأنهم أرادوا أن يكون الرسول ملكا، وعيّروه بالمشى فى الأسواق حين رأوا الأكاسرة والقياصرة والملوك الجبابرة يترفعون عن الأسواق ، وكان عليه السلام يخالطهم فى أسواقهم ، ويأمرهم وينهاهم ؛ فقالوا : هذا يطلب أن يتملك علينا ، فماله يخالف سيرة الملوك؛فأجابهم الله بقوله ، وأنزل على نبيه : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » فلا تغتم ولا تحزن ، فإنها شكاة ظاهر عنك عارها .

الثانيــة — دخول الأسواق مباح للتجارة وطلب المعاش . وكان عليه السلام يدخلها لحاجته ، ولتذكرة الخلق بأمر الله ودعوته ، ويعرض نفسه فيها على القبائل، لعل الله أن يرجع بهم إلى الحق . وفى البخارى فى صفته عليه السلام : « ليس بفظّ ولا غليظ ولا سخّاب فى الأسواق » وقد تقدّم فى « الأعراف »(٢) . وذكر السوق مذكور فى غير ما حديث، ذكره أهل الصحيح . وتجارة الصحابة فيها معروفة ، وخاصة المهاجرين؛ كما قال أبو هريرة : وإن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصّفق(٣) بالأسواق ؛ خرجه البخارىّ . وسيأتى لهذه المسئلة زيادة بيان فى هذه السورة إن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أى هلا . ﴿ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ جواب الاستفهام . ﴿ أَوْ يُلْقَىٰ ﴾ فى موضع رفع ؛ والمعنى : أو هلّا يلقى ﴿ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ ﴿ أَوْ ﴾ هلّا ﴿ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ « يأكل » بالياء قرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم . وقرأ سائر الكوفيين بالنون، والقراءتان حسنتان تؤدّيان عن معنى ، وإن كانت القراءة بالياء أبين؛ لأنه

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٨ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٩٩ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) الصفق : التبايع .

قد تقدّم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وحده فأن يعود الضمير عليه أبين ؛ ذكره النحاس .
﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ تقدم فى « سبحان »[1] والقائل عبد الله بن الزِّبَعْرى فيما ذكره الماوردىّ .

قوله تعالى : ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ أى ضربوا لك هذه الأمثال ليتوصلوا إلى تكذيبك . ﴿ فَضَلُّوا ﴾ عن سبيل الحق وعن بلوغ ما أرادوا . ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ إلى تصحيح ما قالوه فيك .

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ ﴾ شرط ومجازاة، ولم يدغم « جَعَلَ لَكَ » لأن الكلمتين منفصلتان، ويجوز الإدغام لاجتماع المثلين . ﴿ وَيَجْعَلْ لَكَ ﴾ فى موضع جزم عطفا على موضع « جعل » . ويجوز أن يكون فى موضع رفع مقطوعا من الأوّل . وكذلك قرأ أهل الشام . ويروى عن عاصم أيضا « وَيَجْعَلُ لَكَ » بالرفع ؛ أى وسيجعل لك فى الآخرة قصورا . قال مجاهد : كانت قريش ترى البيت من حجارة قصرا كائنا ما كان. والقصر فى اللغة الحبس، وسمى القصر قصرا لأن من فيه مقصور عن أن يوصل إليه . وقيل : العرب تسمى بيوت الطين القصر . وما يتخذ من الصوف والشعر البيت . حكاه القُشَيرى . وروى سفيان عن حبيب بن أبى ثابت عن خَيْثَمة قال: قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : إن شئت أن نعطيك خزائن الدنيا ومفاتيحها ولم يعط ذلك من قبلك ولا يعطاه أحد بعدك ، وليس ذلك بناقصك فى الآخرة شيئا ؛ وإن شئت جمعنا لك ذلك فى الآخرة ؛ فقال : "يجمع ذلك لى فى الآخرة" فأنزل الله عز وجل « تَبَارَكَ الَّذِى إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٧٢ طبعة أولى أو ثانية .

مِنْ ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً » . ويروى أن هذه الآية أنزلها رضوان خازن الجنان إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ وفي الخبر : إن رضوان لما نزل سلم على النبي صلى الله عليه وسلم؛ ثم قال : يا محمد! رب العزة يقرئك السلام، وهذا سَفَط[1] — فإذا سفط من نور يتلألأ — يقول لك ربك: هذه مفاتيح خزائن الدنيا، مع أنه لا ينقص مالك في الآخرة مثل جناح بعوضة؛ فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كالمستشير له؛ فضرب جبريل بيده الأرض يشير أن تواضع؛ فقال: "يا رضوان لا حاجة لي فيها الفقر أحب إلي وأن أكون عبدا صابرا شكورا" . فقال رضوان : أصبت ! الله لك . وذكر الحديث .

قوله تعالى : بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ يريد جهنم تتلظى عليهم . ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي من مسيرة خمسمائة عام . ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ قيل : المعنى إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التغيظ عليهم . وقيل : المعنى إذا رأتهم خزانها سمعوا لهم تغيظا وزفيرا حرصا على عذابهم . والأول أصح ؛ لما روى مرفوعا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من كذب علي متعمدا فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا" قيل : يا رسول الله! ولها عينان؟ قال : "أما سمعتم الله عز وجل يقول : « إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا » يخرج عُنق من النار له عينان تبصران ولسان ينطق فيقول وُكِّلت بكل من جعل مع الله إلها آخر فلهو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فيلتقطه" في رواية "فيخرج عُنق من النار فيلتقط الكفار لقط الطائر حب

---

(١) السفط : الذي يعبى فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء . وقيل : كالجوالق .

السمسم " ذكره رَزِين فى كتابه ، وصححه ابن العربى فى قبسه ، وقال : أى تفصلهم عن الخلق فى المعرفة كما يفصل الطائر حب السمسم من التربة . وخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . " يَخرج عُنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول إنى وُكِّلت بثلاث بكل جبّار عنيد وبكل من دعا مع الله إلهـا آخر وبالمصوِّرين " . وفى الباب عن أبى سعيد قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقال الكلبى : سمعوا لها تغيظا كتغيظ بنى آدم وصوتا كصوت الحمار . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، سمعوا لها زفيرا وعلموا لها تغيظا . وقال قطرب : التغيظ لا يسمع ، ولكن يُرى ، والمعنى : رأوا لها تغيظا وسمعوا لهـا زفيرا ؛ كقول الشاعر :

ورأيت زوجَك فى الوَغَى * مُتقـلِّدا سـيفًا ورُمحـا

أى وحاملا رمحا . وقيل : « سمِعُوا لَهَـا » أى فيها ؛ أى سمعوا فيها تغيظا وزفيرا للمعذَّبين . كما قال تعـالى : « لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ » و « فى واللام » يتقاربان ؛ تقول : أفعل هـذا فى الله ولله .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أن عبد الله كان يقول : إن جهنم لتضيِّق على الكافر كتضييق الزُّج على الرمح ؛ ذكره ابن المبارك فى رقائقه[1] . وكذا قال ابن عباس ، ذكره الثعلبى والقشيرى عنه ، وحكاه المـاوردى عن عبد الله بن عمرو . ومعنى « مُقَرَّنِينَ » مكتَّفين ؛ قاله أبو صالح . وقيـل : مصفَّدين قـد قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال . وقيـل : قرنوا مع الشياطين ؛ أى قرن كل واحد منهم إلى شيطانه ؛ قاله يحيى بن سلام . وقد مضى هذا فى « إبراهيم »[2] وقال عمرو بن كلثوم :

فآبُوا بالنِّهـاب وبالسَّـبايَا * وأُبْنَـا بالمـلوك مُقرَّنِينـا[3]

﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ أى هلاكا ؛ قاله الضحاك . ابن عباس : ويلا . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أوّل من يقوله إبليس وذلك أنه أوّل من يكسى حلة من النار

(١) الزج (بالضم) : الحديدة التى فى أسفل الرمح . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٨٤ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) الرواية فى البيت : « مصفدينا » .

فتوضع على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول واثبوراه » . وانتصب على المصدر، أى ثبرنا ثبورا؛ قاله الزجاج . وقال غيره : هو مفعول به .

قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ فإن هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة . وقال ثبورا لأنه مصدر يقع للقليل والكثير فلذلك لم يجمع؛ وهو كقولك : ضربته ضربا كثيرا، وقعد قعودا طويلا . ونزلت الآيات فى ٱبن خَطَل وأصحابه .

قوله تعالى : قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ . إن قيل : كيف قال « أَذَٰلِكَ خَيْرٌ » ولا خير فى النار ؛ فالجواب أن سيبويه حكى عن العرب : الشقاء أحب إليك أم السعادة ، وقد علم أن السعادة أحب إليه . وقيل : ليس هو من باب أفعل منك ، وإنما هو كقولك : عنده خير . قال النحاس : وهذا قول حسن ؛ كما قال (١)

* فشرُّكما لخيركما الفداءُ *

قيل : إنما قال ذلك لأن الجنة والنار قد دخلتا فى باب المنازل ؛ فقال ذلك لتفاوت ما بين المنزلتين . وقيل : هو مردود على قوله : « تَبَارَكَ ٱلَّذِي إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ » الآية . وقيل : هو مردود على قوله : « أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا » . وقيل : إنما قال ذلك على معنى علمكم واعتقادكم أيها الكفار ؛ وذلك أنهم لما كانوا يعملون عمل أهل النار صاروا كأنهم يقولون إن فى النار خيرا .

قوله تعالى : ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ أى من النعيم . ﴿ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ قال الكلبي : وعد الله المؤمنين الجنة جزاء على أعمالهم ، فسألوه ذلك الوعد فقالوا : « رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ » . وهو معنى قول ٱبن عباس . وقيل : إن الملائكة تسأل لهم

(١) هو حسان بن ثابت — رضى الله عنه — يمدح النبي صلى الله عليه وسلم ويهجو أبا سفيان ، وصدر البيت : * أتهجوه ولست له بكفء *

الجنة ؛ دليله قوله تعالى : « رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ » الآية . وهذا قول محمد ابن كعب القُرظى . وقيل : معنى « وَعْدًا مَسْئُولًا » أى واجبا وإن لم يكن يسأل كالدَّين ؛ حكى عن العرب : لأعطينك ألفا . وقيل : « وَعْدًا مَسْئُولًا » يعنى أنه واجب لك فتسأله . وقال زيد بن أسلم : سألوا الله الجنة فى الدنيا ورغبوا إليه بالدعاء، فأجابهم فى الآخرة إلى ما سألوا وأعطاهم ما طلبوا . وهذا يرجع إلى القول الأول .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ قرأ ابن محيصن وحميد وابن كثير وحفص و يعقوب وأبو عمرو فى رواية الدورى «يَحْشُرُهُمْ» بالياء . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لقوله فى أول الكلام «كَانَ عَلَى رَبِّكَ» وفى آخره «أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هؤلاء» . الباقون بالنون على التعظيم . ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ من الملائكة والإنس والجن والمسيح وعُزير؛ قاله مجاهد وابن جريج . الضحاك وعكرمة: الأصنام . ﴿فَيَقُولُ﴾ قراءة العامة بالياء وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ ابن عامر وأبو حيوة بالنون على التعظيم . ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ وهذا استفهام توبيخ للكفار . ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أى قال المعبودون من دون الله سبحانك؛ أى تنزيها لك ﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ . فإن قيل : فإن كانت الأصنام التى تعبد تحشر فكيف تنطق وهى جماد ؟ قيل له : ينطقها الله تعالى يوم القيامة كما ينطق الأيدى والأرجل . وقرأ الحسن وأبو جعفر « أَنْ نُتَّخَذَ » بضم النون وفتح الخاء على الفعل المجهول . وقد تكلم فى هذه القراءة النحويون؛ فقال أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر:

لا يجوز « نُتَّخَذَ » . وقال أبو عمرو : لو كانت « نُتَّخَذَ » لحذفت « من » الثانية فقلت أن نُتَّخَذَ من دونك أولياءَ . كذلك قال أبو عبيدة : لا يجوز « نُتَّخَذَ » لأن الله تعالى ذكر «من» مرتين، ولو كان كما قرأ لقال : أن نُتخذ من دونك أولياء . وقيل : إن « من » الثانية صلة ؛ قال النحاس : ومثل أبي عمرو على جلالته ومحله يستحسن ما قال ؛ لأنه جاء ببينة . وشرح ما قال أنه يقال : ما آتخذت رجلا وليا ؛ فيجوز أن يقع هـذا للواحد بعينه ؛ ثم يقال : ما آتخذت من رجل وليا فيكون نفيا عاما ، وقولك «وليا» تابع لما قبله فلا يجوز أن تدخل فيه «من» لأنه لا فائدة في ذلك . ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ أي في الدنيا بالصحة والغنى وطول العمر بعد موت الرسل صلوات الله عليهم . ﴿حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾ أي تركوا ذكرك فأشركوا بك بطرا وجهلا فعبدونا من غير أن أمرناهم بذلك . وفي الذكر قولان : أحدهما — القرآن المنزل على الرسل ؛ تركوا العمل به ؛ قاله آبن زيد . الثاني — الشكر على الإحسان إليهم والإنعام عليهم . إنهم ﴿كَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ أي هلكى ؛ قاله آبن عباس . مأخوذ من البوار وهو الهلاك . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه وقد أشرف على أهل حمص : يأهل حمص ! هلم إلى أخ لكم ناصح ، فلما آجتمعوا حوله قال : مالكم لا تستحون ! تبنون مالا تسكنون ، وتجمعون مالا تأكلون ، وتأملون مالا تدركون ، إن من كان قبلكم بنوا مشيدا وجمعوا عبيدا ، وأملوا بعيدا ، فأصبح جمعهم بورا ، وآمالهم غرورا ، ومساكنهم قبورا ؛ فقوله « بورا » أي هلكى . وفي خبر آخر : فأصبحت منازلهم بورا ؛ أي خالية لا شيء فيها . وقال الحسن : «بورا» لا خير فيهم . مأخوذ من بوار الأرض ، وهو تعطيلها من الزرع فلا يكون فيها خير . وقال شهر بن حَوْشَب : البوار الفساد والكساد ؛ مأخوذ من قولهم : بارت السلعة إذا كسدت كساد الفاسد ؛ ومنه الحديث "نعوذ بالله من بوار الأيِّم" . وهو آسم مصدر كالزّور يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث . قال آبن الزِّبَعْرَى :

يارسولَ المليكِ إنّ لساني * رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذ أنا بُورُ
إذ أُبارِي الشيطانَ في سَنَن الغَـ * ـيِّ ومَنْ مَالَ ميلَه مَثْبُورُ

وقال بعضهم : الواحد بائر والجمع بُور . كما يقال : عائذ وعُوذ، وهائد وهُود . وقيل : « بُوراً » عميا عن الحق .

قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أى يقول الله تعالى عند تبرّى المعبودين : « فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ » أى فى قولكم إنهم آلهة . ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يعنى الآلهة صرف العذاب عنكم ولا نصركم . وقيل : فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كذبهم المعبودون ﴿صَرْفًا﴾ للعذاب ﴿ وَلَا نَصْرًا ﴾ من الله . وقال ابن زيد : المعنى فقد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفار بما جاء به محمد ؛ وعلى هذا فمعنى « بما تقولون » بما تقولون من الحق . وقال أبو عبيد : المعنى ؛ فيما تقولون فما يستطيعون لكم صرفا عن الحق الذى هداكم الله إليه ، ولا نصرا لأنفسهم مما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم . وقراءة العامة « بِمَا تَقُولُونَ » بالتاء على الخطاب . وقد بينا معناه . وحكى الفراء أنه يقرأ « فَقَدْ كَذَبُوكُمْ » مخففا ، «بِمَا يَقُولُونَ» . وكذا قرأ مجاهد والبزّى بالياء ، ويكون معنى «يَقُولُونَ» بقولهم . وقرأ أبو حيوة «بِمَا يَقُولُونَ» بياء « فَمَا تَسْتَطِيعُونَ » بتاء على الخطاب لمتخذى الشركاء . ومن قرأ بالياء فالمعنى : فما يستطيع الشركاء . ﴿ وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ ﴾ قال ابن عباس : من يشرك منكم ثم مات عليه . ﴿ نُذِقْهُ ﴾ أى فى الآخرة . ﴿ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ أى شديدا ؛ كقوله تعالى : «وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا» أى شديدا .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ نزلت جوابا للمشركين حيث قالوا : « مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ » . وقال ابن عباس : لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة وقالوا : « مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ

الآية حزن النبي صلى الله عليه وسلم لذلك فنزلت تعزية له ؛ فقال جبريل عليه السلام : السلام عليك يا رسول الله ! الله ربك يقرئك السلام ويقول لك : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » أي يبتغون المعايش في الدنيا .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ إذا دخلت اللام لم يكن في «إن» إلا الكسر ، ولو لم تكن اللام ما جاز أيضا إلا الكسر ؛ لأنها مستأنفة . هذا قول جميع النحويين . قال النحاس : إلا أن عليّ بن سليمان حكى لنا عن محمد بن يزيد قال : يجوز في « إن » هذه الفتح وإن كان بعدها اللام ؛ وأحسبه وهما منه . قال أبو إسحق الزجاج : وفي الكلام حذف ؛ والمعنى وما أرسلنا قبلك رسلا إلا إنهم ليأكلون الطعام ، ثم حذف رسلا ، لأن في قوله : « مِنَ الْمُرْسَلِينَ » ما يدل عليه . فالموصوف محذوف عند الزجاج . ولا يجوز عنده حذف الموصول وتبقية الصلة كما قال الفراء . قال الفراء : والمحذوف « مَن » والمعنى إلا من إنهم ليأكلون الطعام . وشبهه بقوله : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » ، وقوله : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » أي ما منكم إلا من هو واردها . وهذا قول الكسائيّ أيضا . وتقول العرب : ما بعثت إليك من الناس إلا مَن إنه ليطيعك . فقولك : إنه ليطيعك صلة من . قال الزجاج : هذا خطأ ؛ لأن من موصولة فلا يجوز حذفها . وقال أهل المعاني : المعنى ؛ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قيل إنهم ليأكلون ؛ دليله قوله تعالى : " ما يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ » . وقال ابن الأنباريّ : كسرت « إنهم » بعد « إلا » للاستئناف بإضمار واو . أي إلا وإنهم . وذهبت فرقة إلى أن قوله : « لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ » كناية عن الحدث .

قلت : وهذا بليغ في معناه ، ومثله « مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ » . ﴿ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ قرأ الجمهور « يَمْشُونَ » بفتح الياء وسكون الميم وتخفيف الشين . وقرأ عليّ وابن عوف وابن مسعود بضم الياء وفتح الميم وشد الشين المفتوحة ، بمعنى يُدْعَون إلى المشي ويحملون عليه . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَميّ بضم الياء وفتح الميم وضم الشين المشدّدة ، وهي بمعنى يَمْشُونَ ؛ قال الشاعر :

ومَشّى بأعطان المَبَاءة وآبتغى * قلائصَ منها صعبةٌ وركُوبُ (١)

وقال كعب بن زهير :

منه تظل سِباعُ الجوِّ ضامزةً (٢) * ولا تُمَشِّي بواديه الأَرَاجيلُ

بمعنى تَمْشي .

الثالثــة ــ هذه الآية أصل فى تناول الأسباب وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك . وقد مضى هذا المعنى فى غير موضع ، لكنا نذكر هنا من ذلك ما يكفى فنقول : قال لى بعض مشايخ هذا الزمان فى كلام جرى : إن الأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا ليسنوا الأسباب للضعفاء ، فقلت مجيبا له : هذا قول لا يصدر إلا من الجهال والأغبياء ، والرعاع السفهاء ، أو من طاعن فى الكتاب والسنة العلياء ؛ وقد أخبر الله تعالى فى كتابه عن أصفيائه ورسله وأنبيائه بالأسباب والاحتراف فقال وقوله الحق : «وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ» وقال : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » قال العلماء : أى يتجرون ويحترفون. وقال عليه الصلاة والسلام: "جُعِل رزقى تحت ظل رُمْحى" وقال تعالى : « فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا » وكان الصحابة رضى الله عنهم يتجرون ويحترفون وفى أموالهم يعملون ، ومن خالفهم من الكفار يقاتلون ؛ أتراهم ضعفاء! بل هم كانوا والله الأقوياء ، وبهم الخلف الصالح اقتدى ، وطريقهم فيه الهدى والاهتداء . قال : إنما تناولوها لأنهم أئمة الاقتداء ، فتناولوها مباشرة فى حق الضعفاء ، فأما فى حق أنفسهم فلا ؛ وبيان ذلك أصحاب الصُّفة .

قلت : لو كان ذلك لوجب عليهم وعلى الرسول معهم البيان ؛ كما ثبت فى القرآن « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » وقال : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى » الآية ، وهذا من البينات والهدى . وأما أصحاب الصُّفة فإنهم كانوا ضيف الإسلام

---

(١) فى روح المعانى : « ذلول » بدل « ركوب » . (٢) الجو : البر الواسع . وضامزة : ساكتة ، وكل ساكت فهو ضامز . والأراجيل : جمع أرجال كأناعيم جمع أنعام ، وأرجال جمع رجل . يصف الشاعر أسدا بأن الأسود والرجال تخافه ، فالأسود ساكتة من هيبته والرجال ممتنعة عن المشى بواديه .

عند ضيق الحال، فكان عليه السلام إذا أتته صدقة خصهم بها، وإذا أتته هدية أكلها معهم، وكانوا مع هـذا يحتطبون ويسوقون المـاء إلى أبيات رسول الله صـلى الله عليه وسلم . كذا وصفهم البخارى وغيره . ثم لمـا افتتح الله عليهم البلاد ومهد لهم المهاد تأمّروا، وبالأسباب أُمروا . ثم إن هـذا القول يدل على ضعف النبي صـلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ لأنهـم أيدوا بالملائكة وثُبّتوا بهـم، فلو كانوا أقوياء ما احتـاجوا إلى تأييـد الملائكة وتأييـدهم إذ ذلك سبب من أسباب النصر؛ نعوذ بالله من قول وإطلاق يؤول إلى هـذا، بل القول بالأسباب والوسائط سنة الله وسنة رسوله، وهو الحق المبين، والطريق المستقيم الذى انعقد عليه إجمـاع المسـلمين؛ وإلا كان يكون قوله الحق : « وَأَعِدُّوا لَهُـمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْـلِ » — الآية — مقصورا على الضعـفاء، وجميـع الخطابات كذلك . وفى التنزيل حيث خاطب موسى الكليم « اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ » وقد كان قادرا على فلق البحر دون ضرب عصا . وكذلك مريم عليها السلام « وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ » وقد كان قادرا على سقوط الرطب دون هز ولا تعب؛ ومع هـذا كله فلا ننكر أن يكون رجل يلطف به ويعان، أو تجاب دعوته، أو يكرم بكرامة فى خاصة نفسـه أو لأجل غيره، ولا تهدّ لذلك القواعد الكلية والأمور الجملية . هيهات هيهات! لا يقال فقد قال الله تعالى : « وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » فإنا نقول : صدق الله العظيم، وصدق رسوله الكريم، وأن الرزق هنا المطر بإجمـاع أهل التأويل؛ بدليل قوله : « وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا » وقال : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِـيدِ » ولم يشاهد ينزل من السماء على الخلق أطباق الخبز ولا جفان اللحم، بل الأسباب أصل فى وجود ذلك؛ وهو معنى قوله عليه السلام : "اطلبوا الرزق فى خبايا الأرض" أى بالحرث والحفر والغرس . وقد يسمى الشيء بمـا يؤول إليه، وسمى المطر رزقا لأنه عنه يكون الرزق، وذلك مشهور فى كلام العرب . وقال عليـه السلام : "لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل أحدا أعطاه أو منعه" وهذا فيما خرج من غير تعب من الحشيش والحطب . ولو قُدّر رجل بالجبال منقطعا عن الناس لمـا كان له بد من الخروج إلى ما تخرجه الآكام وظهور الأعلام حتى يتناول من ذلك ما يعيش

به ؛ وهو معنى قوله عليه السلام : "لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا" فغدوها ورواحها سبب؛ فالعجب العجب ممن يدعى التجريد والتوكل على التحقيق ، ويقعد على ثنيات الطريق ، ويدع الطريق المستقيم ، والمنهج الواضح القويم . ثبت فى البخارى عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون ، فإذا قدموا سألوا الناس؛ فأنزل الله تعالى «وَتَزَوَّدُوا» . ولم ينقل عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم أنهم خرجوا إلى أسفارهم بغير زاد ، وكانوا المتوكلين حقا . والتوكل اعتماد القلب على الرب فى أن يلم شعثه ويجمع عليه أربه ؛ ثم يتناول الأسباب بمجرد الأمر . وهذا هو الحق . سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل فقال : إنى أريد الحج على قدم التوكل . فقال : اخرج وحدك ؛ فقال : لا ، إلا مع الناس . فقال له : أنت إذن متكل على أجربتهم . وقد أتينا على هذا فى كتاب « قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة » .

الرابعة ــ خرج مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها" . وخرج البزار عن سلمان الفارسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لاتكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته" . أخرجه أبو بكر البرقانى مسندا عن أبى محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ ــ من رواية عاصم ــ عن أبى عثمان النهدى عن سلمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تكن أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فبها باض الشيطان وفرخ" . ففى هذه الأحاديث ما يدل على كراهة دخول الأسواق ، لاسيما فى هذه الأزمان التى يخالط فيها الرجال النسوان . وهكذا قال علماؤنا لما كثر الباطل فى الأسواق وظهرت فيها المناكر : كره دخولها لأرباب الفضل والمقتدى بهم فى الدين تنزيها لهم عن البقاع التى يعصى الله فيها . فحق على من ابتلاه الله بالسوق أن يخطر بباله أنه قد دخل محل الشيطان ومحل جنوده ، وأنه إن أقام هناك هلك ، ومن كانت هذه حاله اقتصر منه على قدر ضرورته ، وتحرز من سوء عاقبته وبليته .

الخامسة — تشبيه النبيّ صلى الله عليه وسلم السوق بالمعركة تشبيه حسن ؛ وذلك أن المعركة موضع القتال، سمى بذلك لتعارك الأبطال فيه، ومصارعة بعضهم بعضا . فشبه السوق وفعل الشيطان بها ونيله منهم مما يحملهم من المكر والخديعة ، والتساهل في البيوع الفاسدة والكذب والأيمان الكاذبة، وآختلاط الأصوات وغير ذلك بمعركة الحرب ومن يصرع فيها .

السادسة — قال آبن العربيّ : أما أكل الطعام فضرورة الخلق لاعار ولا درك[1] فيه، وأما الأسواق فسمعت مشيخة أهل العلم يقولون : لا يدخل إلا سوق الكتب والسلاح، وعندي أنه يدخل كل سوق للحاجة إليه ولا يأكل فيها ؛ لأن ذلك إسقاط للروءة وهدم للحشمة ؛ ومن الأحاديث الموضوعة[2] "الأكل في السوق دناءة" .

قلت : ما ذكرته مشيخة أهل العلم فنعما هو ؛ فإن ذلك خالٍ عن النظر إلى النسوان ومخالطتهن ؛ إذ ليس بذلك من حاجتهن . وأما غيرهما من الأسواق فمشحونة منهن، وقلة الحياء قد غلبت عليهن، حتى ترى المرأة في القيساريات وغيرهن قاعدة متبرجة بزينتها ، وهذا من المنكر الفاشي في زماننا هذا . نعوذ بالله من سخطه .

السابعة — خرّج أبو داود الطيالسيّ في مسنده حدّثنا حماد بن زيد قال حدّثنا عمرو آبن دينار قهرمان[3] آل الزبير عن سالم عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال : "من دخل سوقا من هذه الأسواق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألفَ ألف سيئة وبنى له قصرا في الجنة" خرّجه الترمذيّ أيضا وزاد بعد "ومحا عنه ألفَ ألف سيئة" : "ورفع له ألف ألف درجة وبنى له بيتا في الجنة" . وقال : هذا حديث غريب . قال آبن العربيّ : وهذا إذا لم يقصد في تلك البقعة سواه[4] ليعمرها بالطاعة إذ عمرت بالمعصية، وليحليها بالذكر إذ عطلت بالغفلة، وليعلم الجهلة ويذكر الناسين .

---

(١) الدرك (يسكن ويحرك) : التبعة . (٢) الحديث رواه الطبراني عن أبي أمامة والخطيب عن أبي هريرة وضعفه السيوطي . (٣) القهرمان : هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل ؛ بلغة الفرس . (٤) سواه : أي سوى الله تعالى .

الثامنــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ أى إن الدنيا دار بلاء وآمتحان، فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم فى جميع النـاس مؤمنٍ وكافرٍ، فالصحيح فتنة للريض، والغنى فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغنىّ . ومعنى هذا أن كل واحد مختبر بصاحبه؛ فالغنى ممتحن بالفقير، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه . والفقير ممتحن بالغنيّ، عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق؛ كما قال الضحاك فى معنى « أَتَصْبِرُونَ » : أى على الحق . وأصحاب البلايا يقولون: لِمَ لم نعاقَ؟ والأعمى يقول: لم لم أجعل كالبصير؟ وهكذا صاحب كل آفة. والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف النـاس من الكفار فى عصره . وكذلك العلماء وحكام العـدل . ألا ترى إلى قولهم: « لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » . فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافى، ويحقر المعافى المبتلى. والصبر : أن يحبس كلاهما نفسه، هذا عن البطر، وذاك عن الضجر . « أَتَصْبِرُونَ » محذوف الجواب، يعنى أم لا تصبرون . فيقتضى جوابا كما قاله المزنى ، وقد أخرجته الفاقة فرأى خصيا فى مراكب ومناكب ، فخطر بباله شىء فسمع من يقرأ الآية « أَتَصْبِرُونَ » فقال : بلى ربنـا ! نصبر ونحتسب . وقد تلا آبن القاسم صاحب مالك هـذه الآية حين رأى أشهب بن عبـد العزيز فى مملكته عابرا عليـه ، ثم أجاب نفسه بقوله : سنصبر . وعن أبى الدرداء أنه سمـع النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال : "ويل للعالِم من الجـاهل وويل للجاهل من العالم وويل للمـالك مر. المملوك وويل للمملوك من المـالك وويل للشـديد من الضعيف وويل للضعيف من الشـديد وويل للسلطان من الرعية وويل للرعيـة من السلطان وبعضهم لبعض فتنـة وهو قوله « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَـةً أَتَصْبِرُونَ »" أسنده الثعلبى تغمده الله برحمتـه . وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل آبن هشام والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، وعقبة بن أبى مُعَيط وعُتْبة بن ربيعة والنضر آبن الحرث حين رأوا أبا ذر وعبد الله بن مسعود ، وعمارا وبلالا وصُهيبا وعامر بن فُهَيرة ، وسالما مولى أبى حُذَيفة ومِهْجَعا مولى عمـر بن الخطاب وجبرا مولى الحَضْرمى، وذويهم ؛ قالوا على سبيل الاستهزاء : أنسـلم فنكون مثـل هؤلاء ؟ فأنزل الله تعـالى يخاطب هؤلاء

المؤمنين : «أَتَصْبِرُونَ» على ما ترون من هذه الحال الشديدة والفقر؛ فالتوقيف بـ «أَتَصْبِرُونَ» خاص للمؤمنين المحققين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . كأنه جعل إمهال الكفار والتوسعة عليهم فتنة للمؤمنين ، أى آختبارا لهم. ولما صبر المسلمون أنزل الله فيهم « إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا » .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ أى بكل آمرئ و بمن يصبر أو يجزع ، ومن يؤمن ومن لا يؤمن ، و بمن أدّى ما عليه من الحق ومن لا يؤدّى . وقيل : «أَتَصْبِرُونَ» أى آصبروا . مثل «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» أى آنتهوا؛ فهو أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالصبر .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ يريد لا يخافون البعث ولقاء الله ، أى لا يؤمنون بذلك . قال :

إذا لَسَعَتْه النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَهَا * وخَالَفَهَا فى بيت نُوبٍ عَوامِلِ (١)

وقيل : « لَا يَرْجُونَ » لا يبالون . قال :

لعمرك ما أرجو إذا كنتُ مُسْلِمًا * على أىِّ جَنْبٍ كان فى الله مَصْرَعِى (٢)

آبن شجرة : لا يأملون ؛ قال :

أترجو أُمَّـةٌ قتلتْ حسينا * شفاعةَ جدّه يومَ الحساب

﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ ﴾ أى هلا أنزل . ﴿ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ﴾ فيخبروا أن محمدا صادق . ﴿ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ عيانا فيخبرنا برسالته . نظيره قوله تعالى : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ

(١) البيت لأبى ذؤيب وتقدم شرحه فى جـ ٨ ص ٣١١ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) البيت من قصيدة لخبيب بن عدى قالها حين بلغه أن الكفار قد اجتمعوا لصلبه .

يَنْبُوعًا » إلى قوله « أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا » . قال الله تعالى : ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ حيث سألوا الله الشطط ؛ لأن الملائكة لا ترى إلا عند الموت أو عند نزول العذاب ، والله تعالى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، فلا عين تراه . وقال مقاتل : « عُتُوًّا » علوا فى الأرض . والعتو : أشد الكفر وأفحش الظلم . وإذا لم يكتفوا بالمعجزات وهذا القرآن فكيف يكتفون بالملائكة ؟ وهم لا يميزون بينهم و بين الشياطين ، ولا بد لهم من معجزة يقيمها من يدعى أنه مَلَك ، وليس للقوم طلب معجزة بعد أن شاهدوا معجزة ، وأن ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ يريد أن الملائكة لا يراها أحد إلا عند الموت ، فتبشر المؤمنين بالجنة ، وتضرب المشركين والكفار بمقامع الحديد حتى تخرج أنفسهم . ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ يريد تقول الملائكة حراما محرما أن يدخل الجنة إلا من قال لا إله إلا الله ، وأقام شرائعها ؛ عن ٱبن عباس وغيره . وقيل : إن ذلك يوم القيامة ؛ قاله مجاهد وعطية العوفى . قال عطية : إذا كان يوم القيامة تلق المؤمن بالبشرى ، فإذا رأى ذلك الكافر تمناه فلم يره من الملائكة . وٱنتصب « يَوْمَ يَرَوْنَ » بتقدير لا بشرى للجرمين يوم يرون الملائكة . « يَوْمَئِذٍ » تأكيد لـ « يَوْمَ يَرَوْنَ » . قال النحاس : لا يجوز أن يكون « يَوْمَ يَرَوْنَ » منصوبا بـ « بُشْرَى » لأن ما فى حيز النفى لا يعمل فيما قبله ، ولكن فيه تقدير أن يكون المعنى يمنعون البشارة يوم يرون الملائكة ؛ ودل على هذا الحذف ما بعده . ويجوز أن يكون التقدير : لا بشرى تكون يوم يرون الملائكة ، و « يَوْمَئِذٍ » مؤكد . ويجوز أن يكون المعنى : ٱذكر يوم يرون الملائكة ، ثم ٱبتدأ فقال : « لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا » أى وتقول الملائكة حراما محرما أن تكون لهم البشرى إلا للؤمنين . قال الشاعر :

أَلَا أَصْبَحَتْ أسماءُ حِجْرًا مُحَرَّمًا * وَأَصْبَحْتُ من أَدْنَى حُمُوَّتِهَا حَمَا (1)

أراد ألا أصبحت أسماء حراما محرما .

(1) قاله رجل كانت له ٱمرأة فطلقها وتزوجها أخوه ؛ أى أصبحت أخا زوجها بعد ما كنت زوجها .

وقال آخــــر :

حنّت إلى النّخلة القُصْوَى فقلتُ لها * حِجْــرٌ حرامٌ ألّا تِلْكَ الدّهاريسُ (١)

و روى عن الحسن أنه قال: «وَيَقُولُونَ حِجْرًا» وقفٌ من قول المجرمين؛ فقال الله عز وجل: « مَحْجُورًا » عليهــم أن يعاذوا أو يجاروا؛ فحجر الله ذلك عليهم يوم القيامــة . والأوّل قول آبن عبــاس وبه قال الفرّاء ؛ قاله آبن الأنبــاري . وقرأ الحسن وأبو رجاء « حُجْرًا » بضم الحــاء والناس على كسرها . وقيل : إن ذلك من قول الكفار قالوه لأنفسهم ؛ قاله قتــادة فيما ذكر المــاوردي . وقيل : هو من قول الكفار للملائكة . وهي كلمة آستعاذة وكانت معروفة في الجاهلية؛ فكان إذا لقي الرجل من يخافه قال : حجرا محجورا؛ أي حراما عليك التعرض لي . وآنتصابه على معنى: حجرت عليك، أو حجر الله عليك؛ كما تقول: سقيا و رعيا. أي إن المجرمين إذا رأوا الملائكة يلقونهم في النار قالوا : نعوذ بالله منكم؛ ذكره القشيري ،وحكى معناه المهدوي عن مجاهد . وقيل : « حِجْرًا » من قول المجرمين . « مَحْجُورًا » من قول الملائكة؛ أي قالوا للملائكة نعوذ بالله منكم أن تتعرضوا لنا . فتقول الملائكة : « مَحْجُورًا » أن تعاذوا من شر هذا اليوم ؛ قاله الحسن .

قوله تعــالى : وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

قوله تعــالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ﴾ هذا تنبيه على عظم قدر يوم القيامة ؛ أي قصــدنا في ذلك إلى ما كان يعمله المجرمون من عمل بر عند أنفسهم . يقال : قدم فلان إلى أمر كذا أي قصده . وقال مجاهد : « قَدِمْنَا » أي عمدنا . وقال الراجز :

وقَــدِم الخوارجُ الضُّلالُ * إلى عِباد ربِّهــم فقالوا

* إنّ دماءكم لنــا حلالُ *

---

(١) البيت للتلمس ؛ والنخلة القصوى : واد . والدهاريس : الدواهي . يقول لناقته : هذا الذي حنت إليه ممنوع . وبعده :

أمي شآمية إذ لا عراق لنا * قوما نودّهم إذ قومنا شوس

وقيل : هو قدوم الملائكة، أخبر به عن نفسه تعالى فاعله.[(١)] ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ أي لا ينتفع به؛ أي أبطلناه بالكفر. وليس «هَبَاءٌ» من ذوات الهمز وإنما همزت لالتقاء الساكنين. والتصغير هُبَيٌّ في موضع الرفع، ومن النحويين من يقول : هُبَيُّءٌ[(٢)] في موضع الرفع؛ حكاه النحاس. وواحده هباة والجمع أهباء. قال الحرث بن حِلِّزة يصف [ناقة] :

فَتَرى خلفَها من الرَّجْع والوَقْـ * ـع مَنِينًا كأنه أهباء[(٣)]

وروى الحرث عن علي قال : الهباء المنثور شعاع الشمس الذي يدخل من الكوة. وقال الأزهري : الهباء ما يخرج من الكوة في ضوء الشمس شبيه بالغبار. تأويله : إن الله تعالى أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور. فأما الهباء المنبث فهو ما تثيره الخيل بسنابكها من الغبار. والمنبث المتفرق. وقال ابن عرفة : الهَبوة والهَباء التراب الدقيق. الجوهري : ويقال له إذا ارتفع هَبَا يَهْبُو هُبُوًّا وأهبيته أنا. والهَبْوة الغَبَرة. قال رؤبة :

تَبْدُو لنا أعلامُهُ بعد الغَرَقْ * في قِطَعِ الآلِ وهَبْوَاتِ الدُّقَقْ[(٤)]

وموضعٌ هابي التراب أي كأن ترابه مثل الهباء في الرقة. وقيل : إنه ما ذرته الرياح من يابس أوراق الشجر؛ قاله قتادة وابن عباس. وقال ابن عباس أيضا : إنه الماء المهراق. وقيل : إنه الرماد؛ قاله عبيد[(٥)] بن يعلى.

قوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾.

تقدم القول فيه عند قوله تعالى : « قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ »[(٦)]. قال النحاس : والكوفيون يجيزون «العسل أحلى من الخل» وهذا قول مردود؛ لأن معنى فلان خير من فلان أنه أكثر خيرا منه ولا حلاوة في الخل. ولا يجوز أن يقال : النصراني خير من اليهودي؛ لأنه لا خير فيهما فيكون أحدهما أزيد في الخير. لكن يقال : اليهودي شر

---

(١) كذا في الأصل؛ وعبارة ابن عطية : « أسنده إليه لأنه عن أمره ». (٢) قال النحاس : والتقدير عنده هبيء. (٣) قوله «خلفها» أي خلف الناقة. والرجع : رجع قوائمها. والوقع : وقع خفافها. والمنين : الغبار الدقيق الذي تثيره. (٤) الدقق : ما دق من التراب؛ والواحد منه الدق كما تقول الجلى والجلل. (٥) كذا في الأصل؛ وفي « روح المعاني » : يعلى بن عبيد. (٦) راجع ص ٩ من هذا الجزء.

من النصرانى؛ فعلى هـذا كلام العرب . و « مُسْتَقَرًّا » نصب على الظرف إذا قدر على غير باب « أفعل منك » والمعنى لهم خير فى مستقر . وإذا كان من باب « أفعل منك » فانتصابه على البيان؛ قاله النحاس والمهدوى . قال قتادة : « وأحسن مقيلا » منزلا ومأوى . وقيل : هو على ما تعرفه العرب من مقيل نصف النهار . ومنه الحديث المرفوع " إن الله تبارك وتعالى يفرغ من حساب الخلق فى مقدار نصف يوم فَيَقِيلُ أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار" ذكره المهدوى . وقال ابن مسعود : لا ينتصف النهار يوم القيامة من نهار الدنيا حتى يقيل هؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار، ثم قرأ «ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم» كذا هى فى قراءة ابن مسعود. وقال ابن عباس : الحساب من ذلك اليوم فى أوله ؛ فلا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار . ومنه ما روى " قيلُوا فإن الشياطين لا تَقِيل " . وذكر قاسم ابن أصبغ من حديث أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة " فقلت : ما أطول هذا اليوم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا " .

قوله تعالى : وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ﴾ أى واذكر يوم تشقق السماء بالغمام . وقرأه عاصم والأعمش ويحيى وحمزة والكسائى وأبو عمرو « تَشَقَّقُ » بتخفيف الشين وأصله تتشقق بتاءين فحذفوا الأولى تخفيفا ، واختاره أبو عبيد . الباقون « تَشَّقَّقُ » بتشديد الشين على الإدغام ، واختاره أبو حاتم . وكذلك فى « ق »(١) . « بِالْغَمَامِ » أى عن الغمام . والباء وعن يتعاقبان ؛ كما تقول : رميت بالقوس وعن القوس . روى أن السماء تتشقق عن سحاب

(١) فى قوله تعالى : «يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ...» آية ٤٤

أبيض رقيق مثل الضبابة، ولم يكن إلا لبنى إسرائيل فى تيههم فتنشق السماء عنه؛ وهو الذى قال تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ » . ﴿ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ ﴾ من السموات ، ويأتى الرب جل وعز فى الثمانيـة الذين يحملون العرش لفصل القضاء ، على ما يجوز أن يحمل عليه إتيانه؛ لا على ما تحمل عليه صفات المخلوقين من الحركة والانتقال . وقال ابن عباس : تنشقق سماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن فى الأرض من الجن والإنس، ثم تنشـق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر ممن فى سماء الدنيا، ثم كذلك حتى تنشق السماء السابعة ، ثم ينزل الكروبيون (١) وحملة العرش ؛ وهو معنى قوله : « وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا » أى من السماء إلى الأرض لحساب الثقلين . وقيـل : إن السماء تنشق بالغمام الذى بينها وبين الناس؛ فبتشقق الغمام تتشـقق السماء ، فإذا انشقت السماء انتقض تركيبها وطويت ونزلت الملائكة إلى مكان سـواها . وقرأ ابن كثـير « وَنُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ » بالنصب من الإنزال . الباقون « وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ » بالرفع . دليـله « تَنْزِيلًا » ولو كان على الأول لقال إنزالا . وقد قيل : إن نَزَّل وأنزل بمعنى ؛ فجاء « تنزيلا » على « نَزَّل » وقد قرأ عبد الوهاب عن أبى عمرو « وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا » . وقرأ ابن مسعود « وَأَنْزَلَ الْمَلَائِكَةَ » . أبى بن كعب : « وَنُزِّلَتِ الْمَلَائِكَةُ » . وعنه « وتنزلت الْمَلَائِكَةُ » .

قوله تعـالى : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ « الملك » مبتدأ و « الحق » صفة له و « لِلرَّحْمَنِ » الخـبر؛ لأن الملك الذى يزول وينقطع ليس بملك ؛ فبطلت يومئـذ أملاك المـالكين وانقطعت دعاويهم ، وزال كل ملك وملكه، وبقى الملك الحق لله وحده . ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ أى لمـا ينالهم من الأهوال ويلحقهم من الخزى والهوان، وهو على المؤمنين أخف من صلاة مكتوبة؛ على ما تقدّم فى الحديث. وهذه الآية دالة عليه؛ لأنه إذا كان على الكافرين عسيرا فهو على المؤمنين يسير . يقال : عَسِرَ يَعْسَرُ، وعَسُرَ يَعْسُر .

(١) الكروبيون (بفتح الكاف) : سـادة الملائكة ، منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل هم المقربون . نكرب القرب .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ الماضي عضضت . وحكى الكسائي عضَضت بفتح الضاد الأولى . وجاء التوقيف عن أهل التفسير، منهم ابن عباس وسعيد ابن المسيب أن الظالم ها هنا يراد به عقبة بن أبي مُعيط، وأن خليله أمية بن خلف؛ فعقبة قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ وذلك أنه كان في الأسارى يوم بدر فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله؛ فقال : أأقتل دونهم ؟ فقال . نعم، بكفرك وعتوك . فقال : من للصبية ؟ فقال : النار . فقام علي رضي الله عنه فقتله . وأمية قتله النبي صلى الله عليه وسلم، فكان هذا من دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه خبّر عنهما بهذا فقتلا على الكفر . ولم يسميا في الآية لأنه أبلغ في الفائدة ، ليعلم أن هذا سبيل كل ظالم قَبِل من غيره في معصية الله عز وجل . قال ابن عباس وقتادة وغيرهما : وكان عقبة قد هم بالإسلام فمنعه منه أبي بن خلف وكانا خدنين ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قتلهما جميعا : قُتل عقبة يوم بدر صبرا ، وأبي بن خلف في المبارزة يوم أحد ؛ ذكره القشيري والثعلبي ، والأول ذكره النحاس . وقال السهيلي : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ » هو عقبة بن أبي معيط ، وكان صديقا لأمية بن خلف الجمحي ويروى لأبي بن خلف أخ أمية ، وكان قد صنع وليمة فدعا إليها قريشا ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يأتيه إلا أن يسلم . وكره عقبة أن يتأخر عن طعامه من أشراف قريش أحد فأسلم ونطق بالشهادتين ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل من طعامه ، فعاتبه خليله أمية بن خلف، أو أبي بن خلف وكان غائبا . فقال عقبة : رأيت عظيما ألا يحضر طعامي رجل من أشراف قريش . فقال له خليله : لا أرضى حتى ترجع وتبصق في وجهه وتطأ عنقه وتقول كيت وكيت . ففعل

عدو الله ما أمره به خليله ؛ فأنزل الله عز وجل : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » . قال الضحاك : لما بصق عقبة فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع بصاقه فى وجهه وشوى وجهه وشفتيه ، حتى أثر فى وجهه وأحرق خديه ، فلم يزل أثر ذلك فى وجهه حتى قتل . وعضه يديه فعل النادم الحزين لأجل طاعته خليله . ﴿ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ فى الدنيا ، يعنى طريقا إلى الجنة . ﴿ يَا وَيْلَتَا ﴾ دعاء بالويل والثبور على محالفة الكافر ومتابعته . ﴿ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ يعنى أمية ، وكنى عنه ولم يصرح باسمه لئلا يكون هذا الوعد مخصوصا به ولا مقصورا ، بل يتناول جميع من فعل مثل فعلهما . وقال مجاهد وأبو رجاء : الظالم عام فى كل ظالم ، وفلان : الشيطان . واحتج لصاحب هذا القول بأن بعده « وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا » . وقرأ الحسن « يَا وَيْلَتِي » وقد مضى فى « هود »(1) بيانه . والخليل : الصاحب والصديق وقد مضى فى « النساء »(2) بيانه . ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ ﴾ أى يقول هذا النادم : لقد أضلنى من اتخذته فى الدنيا خليلا عن القرآن والإيمان به . وقيل : « عَنِ الذِّكْرِ » أى عن الرسول . ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ قيل : هذا من قول الله لا من قول الظالم . وتمام الكلام على هذا عند قوله : « بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي » . والخذل الترك من الإعانة ؛ ومنه خذلان إبليس للشركين لما ظهر لهم فى صورة سراقة بن مالك ، فلما رأى الملائكة تبرأ منهم . وكل من صدّ عن سبيل الله وأطيع فى معصية الله فهو شيطان للإنسان ، خذولا عند نزول العذاب والبلاء . ولقد أحسن من قال :

تجنَّبْ قرينَ السُّوءِ واصرِمْ حبالَه * فإن لم تجد عنه محيصًا فداره
وأحبب حبيب الصدق واحذر مراءه * تنل منه صفو الود مالم تماره
وفى الشيب ما ينهى الحليم عن الصِّبا * إذا اشتعلت نيرانه فى عذاره

آخر :

اصحب خيار الناس حيث لقيتهم * خير الصحابة من يكون عفيفا
والناس مثل دراهم ميزتها * فوجدت منها فضة وزيوفا

(1) راجع جـ ٩ ص ٦٩ طبعة أولى أو ثانية . (2) راجع جـ ٥ ص ٤٠٠ طبعة أولى أو ثانية .

وفي الصحيح من حديث أبي موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يُحذيك(١) وإما أن تبتاع منه وإمّا أن تجد ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحا خبيثة " لفظ مسلم . وأخرجه أبو داود من حديث أنس . وذكر أبو بكر البزّار عن آبن عباس قال : قيل يا رسول الله ؛ أي جلسائنا خير ؟ قال : " من ذكّركم بالله رؤيته وزاد في علمكم منطقه وذكّركم بالآخرة عمله " . وقال مالك بن دينار : إنك إن تنقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن تأكل الخبيص(٢) مع الفجار . وأنشد :

وصاحب خيار الناس تنج مسلّما * وصاحب شرار الناس يوما فتندما

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ ﴾ يريد محمدا صلى الله عليه وسلم، يشكوهم إلى الله تعالى . ﴿ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ أي قالوا فيه غير الحق من أنه سحر وشعر؛ عن مجاهد والنخعيّ . وقيل : معنى « مَهْجُورًا » أي متروكا؛ فعزّاه الله تبارك وتعالى وسلّاه بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي كما جعلنا لك يا محمد عدوا من مشركي قومك — وهو أبو جهل في قول آبن عباس — فكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من مشركي قومه ، فآصبر لأمري كما صبروا ، فإني هاديك وناصرك على كل من ناوأك . وقد قيل : إن قول الرسول « يَا رَبِّ » إنما يقوله يوم القيامة؛ أي هجروا القرآن وهجروني وكذبوني . وقال أنس قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من تعلّم القرآن وعلّق مصحفه(٣) لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء

(١) أحذاه : أعطاه . (٢) الخبيص : حلواء تعمل من التمر والسمن . (٣) في الأصل : « من تعلم القرآن وعلمه وعلق مصحفا ... » وتصحيح هذا الأثر من روح المعاني والبيضاوي والشهاب على أنهم تكلموا في صحته إذ في سنده أبو هدبة وهو كذاب .

يوم القيامة متعلقا به يقول يارب العالمين إن عبدك هذا آتخذنى مهجورا فآقض بينى و بينه". ذكره الثعلبي . ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ نصب على الحال أو التمييز، أى يهديك وينصرك فلا تبال بمن عاداك . وقال آبن عباس : عدوّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أبو جهل لعنه الله .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ آختلف فى قائل ذلك على قولين : أحدهما — أنهم كفار قريش؛ قاله آبن عباس . الثانى — أنهم اليهود حين رأوا نزول القرآن مفرقا قالوا : هلا أنزل عليه جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور [على داود][(1)] . فقال الله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أى فعلنا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ نقوى به قلبك فتعيه وتحمله ؛ لأن الكتب المتقدمة أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرءون ، والقرآن أنزل على نبيّ أمىّ ؛ ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور، ففرقناه ليكون أوعى للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأيسر على العامل به ؛ فكان كلما نزل وحى جديد زاده قوة قلب .

قلت : فإن قيل هلا أنزل القرآن دفعة واحدة وحفظه إذ كان ذلك فى قدرته ؟ . قيل : فى قدرة الله أن يعلمه الكتاب والقرآن فى لحظة واحدة، ولكنه لم يفعل ولا معترض عليه فى حكمه، وقد بينا وجه الحكمة فى ذلك . وقد قيل : إن قوله « كَذَٰلِكَ » من كلام المشركين، أى لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك، أى كالتوراة والإنجيل، فيتم الوقف على « كَذَٰلِكَ » ثم يبتدئ « لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » . ويجوز أن يكون الوقف على قوله : « جُمْلَةً وَاحِدَةً » ثم يبتدئ « كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » على معنى أنزلناه عليك كذلك متفرقا لنثبت به فؤادك . قال

(1) زيادة يقتضيها المقام .

ٱبن الأنبارى : والوجه الأوّل أجود وأحسن ، والقول الثانى قد جاء به التفسير، حدّثنا محمد ٱبن عثمان الشيبي قال حدّثنا منجاب قال حدّثنا بشر بن عمارة عن أبى روق عن الضحاك عن ٱبن عباس فى قوله تعالى « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » قال : أنزل القرآن جملة واحدة من عند الله عز وجل فى اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين فى السماء، فنجمه السفرة الكرام على جبريل عشرين ليلة ، ونجمه جبريل عليه السلام على محمد عشرين سنة . قال : فهو قوله « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ » يعنى نجوم القرآن « وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » . قال : فلما لم ينزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم جملة واحدة ، قال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ؛ فقال الله تبارك وتعالى : « كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » يامحمد . ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ يقول : ورسّلناه ترسيلا ؛ يقول : شيئا بعد شيء .

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ يقول : لو أنزلنا عليك القرآن جملة واحدة ثم سألوك لم يكن عندك ما تجيب به ، ولكن نمسك عليك فإذا سألوك أجبت . قال النحاس : وكان ذلك من علامات النبوّة؛ لأنهم لا يسألون عن شيء إلا أجيبوا عنه ، وهذا لا يكون إلا من نبيّ ، فكان ذلك تثبيتا لفؤاده وأفئدتهم ، و يدل على هذا « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » ولو نزل جملة بما فيه من الفرائض لثقل عليهم، وعلم الله عز وجل أن الصلاح فى إنزاله متفرقا ، لأنهم ينبهون به مرة بعد مرة ، ولو نزل جملة واحدة لزال معنى التنبيه وفيه ناسخ ومنسوخ ، فكانوا يتعبدون بالشيء إلى وقت بعينه قد علم الله عز وجل فيه الصلاح ، ثم ينزل النسخ بعد ذلك ؛ فمحال أن ينزل جملة واحدة : ٱفعلوا كذا ولا تفعلوا . قال النحاس : والأولى أن يكون التمام « جُمْلَةً وَاحِدَةً » لأنه إذا وقف على « كَذَٰلِكَ » صار المعنى كالتوراة والإنجيل والزبور ولم يتقدّم لها ذكر . قال الضحاك : « وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » أى تفصيلا . والمعنى : أحسن من مثلهم تفصيلا ؛ فحذف لعلم السامع . وقيل : كان المشركون يستمدّون من أهل الكتاب وكان قد غلب على أهل الكتاب التحريف

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٣ طبعة أولى أو ثانية .

والتبديل، فكان ما يأتى به النبى صلى الله عليه وسلم أحسن تفسيرا مما عندهم ؛ لأنهم كانوا يخلطون الحق بالباطل ، والحق المحض أحسن من حق مختلط بباطل ، ولهذا قال تعالى : « وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ » . وقيل : « لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ » كقولهم فى صفة عيسى إنه خلق من غير أب . ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أى بما فيه نقض حجتهم كآدم إذ خلق من غير أب وأم .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ تقدم فى « سبحان » (١) . ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ لأنهم فى جهنم . وقال مقاتل : قال الكفار لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم هو شر الخلق، فنزلت الآية . ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أى دينا وطريقا . ونظم الآية : ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق، وأنت منصور عليهم بالحجج الواضحة، وهم محشورون على وجوههم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يريد التوراة . ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيرًا﴾ تقدم فى « طه » (١) ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا﴾ الخطاب لهما . وقيل : إنما أمر موسى صلى الله عليه وسلم بالذهاب وحده فى المعنى . وهذا بمنزلة قوله : « نَسِيَا حُوتَهُمَا » . وقوله : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » وإنما يخرج من أحدهما . قال النحاس : وهذا مما لا ينبغى أن يجترأ به على كتاب الله تعالى، وقد قال جل وعز : « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى . قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى . قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى . فَأْتِيَاهُ فَقُولَا

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ » . ونظيرهذا « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » . وقد قال جل ثناؤه « ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِآيَاتِنَا» قال القشيرى : وقوله فى موضع آخر : « ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ » لاينافى هذا؛ لأنهما إذا كان مأمورين فكل واحد مأمور. ويجوز أن يقال : أمر موسى أولا، ثم لما قال « وَٱجْعَـل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى » قال « ٱذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » . ﴿ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ يريد فرعون وهامان والقبط . ﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ ﴾ فى الكلام إضمار ؛ أى فكذبوهما ﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ أى أهلكناهم إهلاكا .

قوله تعالى : وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ فى نصب « قوم » أربعة أقوال : العطف على الهاء والميم فى « دَمَّرْنَاهُم » . الثانى — بمعنى آذكر . الثالث — بإضمار فعل يفسره ما بعده ؛ والتقدير: وأغرقنا قوم نوح أغرقناهم . الرابع — أنه منصوب بـ « أغرقناهم » قاله الفراء . ورده النحاس قال : لأن « أغرقنا » ليس مما يتعدى إلى مفعولين فيعمل فى المضمر وفى « قَوْمَ نُوحٍ » . ﴿ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴾ ذكر الجنس والمراد نوح وحده؛ لأنه لم يكن فى ذلك الوقت رسول إليهم إلا نوح وحده؛ فنوح إنما بعث بلا إله إلا الله، وبالإيمان بما ينزل الله، فلما كذبوه كان فى ذلك تكذيب لكل من بعث بعده بهذه الكلمة . وقيل : إن من كذب رسولا فقد كذب جميع الرسل؛ لأنهم لا يفرق بينهم فى الإيمان، ولأنه ما من نبى إلا يصدق سائر أنبياء الله ، فمن كذب منهم نبيا فقد كذب كل من صدقه من النبيين . ﴿ أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ أى بالطوفان ، على ما تقدم فى « هود » . ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ أى علامة ظاهرة على قدرتنا ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ أى المشركين من قوم نوح ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى فى الآخرة . وقيل : أى هذه سبيلى فى كل ظالم .

قوله تعالى : وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ كله معطوف على « قَوْمَ نُوحٍ » إذا كان « قوم نوح » منصوبا على العطف ، أو بمعنى اذكر . ويجوز أن يكون كله منصوبا على أنه معطوف على المضمر في « دَمَّرْنَاهُمْ » أو على المضمر في « جَعَلْنَاهُمْ » وهو اختيار النحاس ؛ لأنه أقرب إليه . ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار فعل ؛ أي اذكر عادا الذين كذبوا هودا فأهلكهم الله بالريح العقيم ، وثمودا كذبوا صالحا فأهلكوا بالرجفة . و﴿ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ ﴾ والرس في كلام العرب البئر التي تكون غير مطوية ، والجمع رساس . قال[1] :

* تنابلة يحفرون الرساسا *

يعني آبار المعادن . قال ابن عباس : سألت كعبا عن أصحاب الرس قال : صاحب «يس» الذي قال : « يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ » قتله قومه ورسوه في بئر لهم يقال له الرس طرحوه فيها ، وكذا قال مقاتل . السدي : هم أصحاب قصة «يس» أهل أنطاكية ، والرس بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار مؤمن آل «يس» فنسبوا إليها . وقال علي رضي الله عنه : هم قوم كانوا يعبدون شجرة صنوبر فدعا عليهم نبيهم ؛ وكان من ولد يهوذا ، فيبست الشجرة فقتلوه ورسوه في بئر ، فأظلتهم سحابة سوداء فأحرقتهم . وقال ابن عباس : هم قوم بأذربيجان قتلوا أنبياء فجفت أشجارهم وزروعهم فماتوا جوعا وعطشا . وقال وهب بن منبه : كانوا أهل بئر يقعدون عليها وأصحاب مواشي ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم شعيبا فكذبوه وآذوه ، وتمادوا على كفرهم وطغيانهم ، فبينما هم حول البئر في منازلهم انهارت بهم و بديارهم ؛ خسف الله بهم فهلكوا جميعا . وقال قتادة : أصحاب الرس وأصحاب الأيكة أمتان أرسل الله إليهما شعيبا فكذبوه فعذبهما الله بعذابين . قال قتادة : والرس قرية بفلج اليمامة . وقال عكرمة : هم قوم رسوا نبيهم في بئر حيا . دليله ما روى محمد بن كعب القرظي عمن حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة عبد أسود وذلك أن الله تعالى بعث نبيا إلى قومه فلم يؤمن به إلا ذلك الأسود فحفر أهل القرية بئرا وألقوا فيه نبيهم حيا وأطبقوا عليه حجرا ضخما

(١) هو النابغة الجعدي

وكان العبد الأسود يحتطب على ظهره و يبيعه و يأتيه بطعامه وشرابه فيعينه الله على رفع تلك الصخرة حتى يدليه إليه فبينما هو يحتطب إذ نام فضرب الله على أذنه سبع سنين نائما ثم هبّ من نومه فتمطى واتكأ على شقه الآخر فضرب الله على أذنه سبع سنين ثم هبّ فآحتمل حُزمة الحطب فباعها وأتى بطعامه وشرابه إلى البئر فلم يجده وكان قومه قد أراهم الله آية فاستخرجوه وآمنوا به وصدّقوه ومات ذلك النبي". قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن ذلك العبد الأسود لأول من يدخل الجنة" وذكر هذا الخبر المهدوى والثعلبي، واللفظ للثعلبي ، وقال : هؤلاء آمنوا بنبيهم فلا يجوز أن يكونوا أصحاب الرس ؛ لأن الله تعالى أخبر عن أصحاب الرس أنه دمرهم ، إلا أن يدمروا بأحداث أحدثوها بعد نبيهم . وقال الكلبيّ : أصحاب الرس قوم أرسل الله إليهم نبيا فأكلوه . وهم أول من عمل نساؤهم السَّحْق؛ ذكره الماوردى . وقيل : هم أصحاب الأخدود الذين حفروا الأخاديد وحرّقوا فيها المؤمنين، وسيأتى. وقيل : هم بقايا من قوم ثمود، وأن الرّس البئر المذكورة فى «الحج» فى قوله : «وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ» على ما تقدم (١) . وفى الصحاح : والرس آسم بئر كانت لبقية من ثمود. وقال جعفر بن محمد عن أبيه : أصحاب الرس قوم كانوا يستحسنون لنسائهم السَّحْق،وكان نساؤهم كلهم سحاقات . وروى من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن من أشراط الساعة أن يكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وذلك السَّحْق" وقيل : الرس ماء ونخل لبنى أسد . وقيل : الثلج المتراكم فى الجبال ؛ ذكره القشيرى . وما ذكرناه أولا هو المعروف ، وهو كل حفر آحتفر كالقبر والمعدن والبئر . قال أبو عبيدة : الرس كل ركيّة لم تطو ؛ وجمعها رِساس . قال الشاعر :

وهم سائرون إلى أرضهم * فياليتهم يحفرون الرِّساسا

والرّس آسم واد فى قول زهير :

بَكَرْنَ بُكُورًا وَآسْتَحَرْنَ بِسُحْرةٍ * فهنّ لوادى الرّسّ كاليد للفم

ورسست رسًّا: حفرت بئرا. ورُسّ الميتُ أى قُبر. والرس : الإصلاح بين الناس، والإفساد أيضا وقد رسَسْتُ بينهم؛ فهو من الأضداد. وقد قيل فى أصحاب الرس غير ما ذكرنا؛ ذكره

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٥ طبعة أولى أو ثانية .

الثعلبي وغيره . ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ أي أمما لا يعلمهم إلا الله بين قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس . وعن الربيع بن خيثم ٱشتكى فقيل له : ألا نتداوى فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر به؟ قال : لقد هممت بذلك ثم فكرت فيما بيني و بين نفسي فإذا عاد وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا كانوا أكثر وأشد حرصا على جمع المال ، فكان فيهم أطباء، فلا الناعت منهم بقي ولا المنعوت ؛ فأبى أن يتداوى فما مكث إلا خمسة أيام حتى مات، رحمه الله .

قوله تعالى : وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ﴾ قال الزجاج . أي وأنذرنا كلا ضربنا له الأمثال و بينا لهم الحجة ، ولم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة . وقيل ٱنتصب على تقدير ذكرنا كلا ونحوه؛ لأن ضرب الأمثال تذكير ووعظ؛ ذكره المهدوي . والمعنى واحد . ﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ أي أهلكنا بالعذاب . وتبرت الشيء كسرته . وقال المؤرج والأخفش : دمرناهم تدميرا . تبدل التاء والباء من الدال والميم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ ﴾ يعني مشركي مكة . والقرية قرية قوم لوط . و﴿ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ الحجارة التي أمطروا بها . ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾ أي في أسفارهم ليعتبروا . قال ٱبن عباس : كانت قريش في تجارتها إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط كما قال الله تعالى : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ » وقال : « وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ »(١) وقد تقدم . ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ أي لا يصدقون بالبعث . ويجوز أن يكون معنى « يَرْجُونَ » يخافون . ويجوز أن يكون على بابه ويكون معناه : بل كانوا لا يرجون ثواب الآخرة .

(١) جـ ١٠ ص ٤٥ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ جواب « إذا » « إن يتخذونك » لأن معناه يتخذونك . وقيل : الجواب محذوف وهو قالوا أو يقولون : « أَهَٰذَا الَّذِى » وقوله : « إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا » كلام معترض . ونزلت فى أبى جهل كان يقول للنبىّ صلى الله عليه وسلم مستهزئا : ﴿ أَهَٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ والعائد محذوف ، أى بعثه الله . « رَسُولًا » نصب على الحال والتقدير : أهذا الذى بعثه الله مرسلا . « أَهَٰذَا » رفع بالابتداء و « الَّذِى » خبره . « رَسُولًا » نصب على الحال . و « بَعَثَ » فى صلة « الَّذِى » واسم الله عز وجل رفع بـ « بَعَثَ » . ويجوز أن يكون مصدرا ؛ لأن معنى « بَعَثَ » أرسل ويكون معنى « رَسُولًا » رسالة على هذا . والألف للاستفهام على معنى التقرير والاحتقار . ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا ﴾ أى قالوا قد كاد أن يصرفنا . ﴿ عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ أى حبسنا أنفسنا على عبادتها . قال الله تعالى : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ يريد من أضل دينا أهم أم محمد ، وقد رأوه فى يوم بدر .

قوله تعالى : أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ عجّب نبيه صلى الله عليه وسلم من إضمارهم على الشرك و إصرارهم عليه مع إقرارهم بأنه خالقهم ورازقهم ، ثم يعمد إلى حجر يعبده من غير حجة . قال الكلبى وغيره : كانت العرب إذا هوى الرجل منهم شيئا عبده من دون الله ، فإذا رأى أحسن منه ترك الأول وعبد الأحسن ؛ فعلى هـذا يعنى : أرأيت من اتخذ إلهه بهواه ؛ فحذف الجار . وقال ابن عباس : الهوى إله يعبد من دون الله ، ثم تلا هـذه الآية .

قال الشاعر :

لعمر أبيها لو تبدّت لناسك * قد اعتزل الدنيا بإحدى المناسك

لَصلّى لها قبل الصلاة لربه * ولا ارتد فى الدنيا بأعمال فاتك

وقيل : «ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَاهُ» أى أطاع هواه . وعن الحسن لا يهوى شيئا إلا اتبعه، والمعنى واحد. ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أى حفيظا وكفيلا حتى تردّه إلى الإيمان وتخرجه من هذا الفساد . أى ليست الهداية والضلالة موكولتين إلى مشيئتك، وإنما عليك التبليغ . وهذا رد على القدرية . ثم قيل إنها منسوخة بآية القتال . وقيل لم تنسخ؛ لأن الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ولم يقل أنهم لأن منهم من قد علم أنه يؤمن . وذمّهم جل وعز بهذا . « أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ » سماع قبول أو يفكرون فيما تقول فيعقلونه؛ أى هم بمنزلة من لا يعقل ولا يسمع . وقيل: المعنى أنهم لما لم ينتفعوا بما يسمعون فكأنهم لم يسمعوا ؛ والمراد أهل مكة . وقيل : « أَمْ » بمعنى بل فى مثل هذا الموضع . ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أى فى الأكل والشرب لا يفكرون فى الآخرة . ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ إذ لا حساب ولا عقاب على الأنعام . وقال مقاتل : البهائم تعرف ربها وتهتدى إلى مراعيها وتنقاد لأربابها التى تعقلها ، وهؤلاء لا ينقادون ولا يعرفون ربهم الذى خلقهم ورزقهم . وقيل : لأن البهائم إن لم تعقل صحة التوحيد والنبوة لم تعتقد بطلان ذلك أيضا .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ يجوز أن تكون هذه الرؤية من رؤية العين ، ويجوز أن تكون من العلم . وقال الحسن وقتادة وغيرهما : مدّ الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . وقيـل : هو من غيوبة الشمس إلى طلوعها . والأوّل أصح؛ والدليل على ذلك أنه ليس من ساعة أطيب من تلك الساعة ؛ فإن فيهـا يجد المريض راحة والمسافر وكل ذى علة ، وفيهـا ترد نفوس الأموات والأرواح منهـم إلى الأجساد ، وتطيب نفوس الأحياء فيها . وهذه الصفة مفقودة بعد المغرب . وقال أبو العالية : نهار الجنة هكذا؛ وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر . أبو عبيدة : الظل بالغـداة والفىء بالعشى ؛ لأنه يرجع بعد زوال الشمس؛ سمى فيئا لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب . قال الشاعر، وهو حميد بن ثور يصف سرحة[1] وكنى بها عن آمرأة :

فلا الظِّلُّ من بَرْدِ الضُّحا تَسْتطيعُهُ * ولا الـفَىْءُ من بَرْدِ العشِىّ تـذُوقُ

وقال آبن السكيت : الظل ما نسخته الشمس والفىء ما نسـخ الشمس . وحكى أبو عبيدة عن رؤبة قال: كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فىء وظل، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظـل . ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ أى دائمـا مستقرا لا تنسخه الشمس . آبن عباس : يريد إلى يوم القيامة، وقيل : المعنى لو شاء لمنع الشمس الطلوع . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ أى جعلنا الشمس بنسخها الظل عنـد مجيئها دالة على أن الظل شىء ومعنى ؛ لأن الأشياء تعرف بأضدادها ولولا الشمس ما عرف الظل ، ولولا النـور ما عرفت الظلمة . فالدليل فعيل بمعنى الفاعل . وقيل بمعنى المفعول كالقتيل والدهين والخضيب . أى دللنا الشمس على الظل حتى ذهبت به ؛ أى أتبعناها إياه . فالشمس دليل أى حجة و برهان ، وهو الذى يكشف المشكل و يوضحه . ولم يؤنث الدليل وهو صفة الشمس لأنه فى معنى الاسم؛ كما يقال: الشمس برهان والشمس حق . ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ ﴾ يريد ذلك الظل الممدود . ﴿ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أى يسيرا قبضه علينا . وكل أمر ربنا عليه يسير . فالظل مكثه فى هـذا الجو بمقدار طلوع

(١) السرحة : واحدة السرح ؛ وهو شجر كبار عظام لا ترعى و إنما يستظل فيه .

الفجر إلى طلوع الشمس ؛ فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضا ، وخلفه فى هـذا الجو شعاع الشمس فأشرق على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها ، فإذا غربت فليس هناك ظل ، إنما ذلك بقيـة نور النهار . وقال قوم : قبضه بغروب الشمس ؛ لأنها ما لم تغرب فالظل فيه بقية ، وإنما يتم زواله بمجيء الليل ودخول الظلمة عليه . وقيل : إن هذا القبض وقع بالشمس ؛ لأنها إذا طلعت أخذ الظل فى الذهاب شيئا فشيئا ؛ قاله أبو مالك وإبراهيم التيمى . وقيل : « ثُمَّ قَبَضْنَاهُ » أى قبضنا ضياء الشمس بالفىء « قَبْضًا يَسِيرًا » . وقيـل « يَسِيرًا » أى سريعا ؛ قاله الضحاك . قتادة : خفيا ؛ أى إذا غابت الشمس قبض الظل قبضا خفيا ، كلما قُبض جزءٌ منه جُعل مكانه جزءٌ من الظلمة ، وليس يزول دفعة واحدة . فهـذا معنى قول قتادة ، وهو قول مجاهد .

قوله تعـالى : وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَـلَ لَكُمُ ٱلَّيْـلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُـبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾

فيـه أربع مسائل :

الأولى ـ قوله تعـالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ يعنى سترا للخلق يقوم مقام اللباس فى ستر البدن . قال الطبرى : وصف الليل باللباس تشبيها من حيث يستر الأشياء ويغشاها .

الثانيـة ـ قال ابن العربى : ظن بعض الغفلة أن من صلى عريانا فى الظـلام أنه يجزئه ؛ لأن الليل لباس . وهذا يوجب أن يصلى فى بيته عريانا إذا أغلق عليه بابه . والستر فى [الصلاة][1] عبادة تختص بها ليست لأجل نظر الناس . ولا حاجة إلى الإطناب فى هـذا .

الثالثـة ـ قوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ أى راحة لأبدانكم بانقطاعكم عن الأشغال . وأصل السبات من التمدد . يقال : سبتت المرأة شعرها أى نقضته وأرسلته . ورجل مسبوت أى ممدود الخلقة . وقيل للنوم سـبات لأنه بالتمدد يكون ، وفى التمدد معنى الراحة . وقيل :

---

(١) فى الأصول : « فى الظلام » . والتصويب من « أحكام القرآن لابن العربى » .

السبت القطع ؛ فالنوم آنقطاع عن الآشتغال؛ ومنـه سبت اليهود لآنقطاعهم عن الأعمال فيه . وقيـل : السبت الإقامة فى المكان؛ فكأن السبات سكون تا وثبوت عليـه ؛ فالنوم سبات على معنى أنه سكون عن الآضطراب والحركة . وقال الخليل : السبات نوم ثقيل ؛ أى جعلنا نومكم ثقيلا ليكمل الإجمام والراحة

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً ﴾ من الآنتشار للعاش ؛ أى النهار سبب الإحياء للآنتشار . شبه اليقظة فيه بتطابق الإحياء مع الإماتة . وكان عليه السلام إذا أصبح قال : " الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور " .

قوله تعـالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ نُشْراً[1] بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ تقدم فى «الأعراف» مستوفى .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ﴾ .

فيـــه خمس عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعـالى : « مَاءً طَهُوراً » يتطهر به ؛ كما يقال : وضوء للـاء الذى يتوضأ به . وكل طهور طاهر وليس كل طاهر طهورا . فالطَّهور (بفتح الطاء) الاسم . وكذلك الوضوء والوقود . و بالضم المصدر ، وهـذا هو المعروف فى اللغة ؛ قاله آبن الأنبارى . فبين أن المـاء المنزل من السماء طاهر فى نفسه مطهر لغيره ؛ فإن الطهور بنـاء مبالغة فى طاهر ، وهـذه المبالغة آقتضت أن يكون طاهرا مطهرا . وإلى هـذا ذهب الجمهور . وقيل : إن « طَهُوراً » بمعنى طاهر ؛ وهو قول أبى حنيفة ؛ وتعلق بقوله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً » يعنى طاهرا .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢٨ و« نشرا » بالنون قراءة نافع

وبقول الشاعر :

خليليّ هل فى نظرة بعد توبة * أداوى بها قلبى علىّ فجُورُ

إلى رُجَّحِ الأكفالِ غِيدٍ من الظِّبا (١) * عِذاب الثنايا رِيقُهنّ طَهُورُ

فوصف الريق بأنه طهور وليس بمطهر . وتقول العرب : رجل نؤوم وليس ذلك بمعنى أنه منيم لغيره، وإنما يرجع ذلك إلى فعل نفسه . ولقد أجاب علماؤنا عن هذا فقالوا : وصف شراب الجنة بأنه طهور يفيد التطهير عن أوضار الذنوب وعن خسائس الصفات كالغل والحسد ، فإذا شربوا هذا الشراب يطهرهم الله من رحض الذنوب وأوضار الاعتقادات الذميمة ، فجاءوا الله بقلب سليم ، ودخلوا الجنة بصفات التسليم ، وقيل لهم حينئذ : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » . ولما كان حكمه فى الدنيا بزوال حكم الحدث بجريان الماء على الأعضاء كانت تلك حكمته ورحمته فى الآخرة . وأما قول الشاعر :

* ... رِيقُهنّ طَهُورُ *

فإنه قصد بذلك المبالغة فى وصف الريق بالطهورية لعذوبته وتعلقه بالقلوب ، وطيبه فى النفوس ، وسكون غليل المحب برشفه حتى كأنه الماء الطهور . وبالجملة فإن الأحكام الشرعية لا تثبت بالمجازاة الشعرية ؛ فإن الشعراء يتجاوزون فى الاستغراق حدّ الصدق إلى الكذب، ويسترسلون فى القول حتى يخرجهم ذلك إلى البدعة والمعصية ، وربما وقعوا فى الكفر من حيث لا يشعرون . ألا ترى إلى قول بعضهم :

ولو لم تُلامِسْ صفحةُ الأرضِ رجلَها * لما كنتُ أدرى عِلّةً للتيمم

وهذا كفر صراح ، نعوذ بالله منه . قال القاضى أبو بكر بن العربى : هذا منتهى لباب كلام العلماء ، وهو بالغ فى فنه ؛ إلا أنى تأملت من طريق العربية فوجدت فيه

---

(١) فى ابن العربى واللسان مادة « رجح » :

* إلى رجح الأكفال هيف خصورها

امرأة رجاح وراجح، ثقيلة العجيزة، من نسوة رجح .

مطلعا مشرفا، وهو أن بناء فعول للبالغة، إلا أن المبالغة قد تكون فى الفعل المتعدّى كما قال الشاعر :

* ضَروبٌ بنصل السيف سُوقَ سِمانِها (١) *

وقد تكون فى الفعل القاصر كما قال الشاعر :

* نَؤُوم الضُّحا لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ (٢) *

وإنما تؤخذ طهورية الماء لغيره من الحسن نظافة ومن الشرع طهارة؛ كقوله عليه السلام: "لا يقبل الله صلاة بغير طهور". وأجمعت الأمة لغة وشريعة على أن وصف طهور يختص بالماء ولا يتعدى إلى سائر المائعات وهى طاهرة؛ فكان اقتصارهم بذلك على الماء أدل دليل على أن الطهور هو المطهر، وقد يأتى فعول لوجه آخر ليس من هذا كله وهو العبارة به عن الآلة للفعل لا عن الفعل كقولنا : وقود وسحور بفتح الفاء، فإنها عبارة عن الحطب والطعم المتسحر به؛ فوصف الماء بأنه طهور (بفتح الطاء) أيضا يكون خبرا عن الآلة التى يتطهر بها . فإذا ضمت الفاء فى الوقود والسحور والطهور عاد إلى الفعل وكان خبرا عنه . فثبت بهذا أن اسم الفعول (بفتح الفاء) يكون بناء للبالغة ويكون خبرا عن الآلة، وهو الذى خطر ببال الحنفية، ولكن قصرت أشدافها عن لوكه، وبعد هذا يقف البيان عن المبالغة وعن الآلة على الدليل بقوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » . وقوله عليه السلام : "جعلت لى الأرض مسجدا وطَهورا" يحتمل المبالغة ويحتمل العبارة به عن الآلة؛ فلا حجة فيه لعلمائنا، لكن يبقى قوله : « لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ » نص فى أن فعله يتعدى إلى غيره .

الثانيــة ــ المياه المنزلة من السماء والمودعة فى الأرض طاهرة مطهرة على اختلاف ألوانها وطعومها وأرياحها حتى يخالطها غيرها، والمخالط للماء على ثلاثة أضرب : ضرب يوافقه

---

(١) هذا صدر بيت من قصيدة لأبى طالب بن عبد المطلب يمدح بها مسافر بن عمرو القرشى؛ وتمامه :

* إذا عدموا زادا فإنك عاقر *

(٢) هذا عجز بيت من معلقة امرئ القيس؛ وصدره :

* ويضحى فتيت المسك فوق فراشها *

والانتطاق : الائتزار للعمل . والتفضل : التوشح، وهو لبسها أدنى ثيابها .

فى صفتيه جميعا ، فإذا خالطه فغيره لم يسلبه وصفا منهما لموافقته لها وهو التراب . والضرب الثانى يوافقه فى إحدى صفتيه وهى الطهارة ، فإذا خالطه فغيره سلبه ما خالفه فيه وهو التطهير ؛ كماء الورد وسائر الطاهرات . والضرب الثالث يخالفه فى الصفتين جميعا ، فإذا خالطه فغيره سلبه الصفتين جميعا لمخالفته له فيهما وهو النجس .

الثالثــة ـــ ذهب المصريون من أصحاب مالك إلى أن قليل المــاء يفسده قليل النجاسة ، وأن الكثير لا يفسده إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه من المحرمات . ولم يحدّوا بين القليل والكثير حدّا يوقف عنده ، إلا أن آبن القاسم روى عن مالك فى الجنب يغتسل فى حوض من الحياض التى تسق فيهـا الدواب ولم يكن غسل ما به من الأذى أنه قد أفسد المــاء ؛ وهو مذهب آبن القاسم وأشهب وآبن عبد الحكم ومن آتبعهم من المصريين . إلا آبن وهب فإنه يقول فى المــاء بقول المدنيين من أصحاب مالك . وقولهم ما حكاه أبو مصعب عنهم وعنه : أن المــاء لا تفسده النجاسة الحالّة فيه قليلا كان أو كثيرا إلا أن تظهر فيه النجاسة وتغيّر منه طعما أو ريحا أو لونا . وذكر أحمد بن المعذّل أن هذا قول مالك بن أنس فى المــاء . وإلى هذا ذهب إسمعيل بن إسحق ومحمد بن بكير وأبو الفرج الأبهرى وسائر المنتحلين لمذهب مالك من البغداديين ؛ وهو قول الأوزاعى والليث بن ســعد والحسن بن صالح وداود بن علىّ . وهو مذهب أهــل البصرة ، وهو الصحيح فى النظر وجيد الأثر . وقال أبو حنيفة : إذا وقعت نجاسة فى المــاء أفسدته كثيرا كان أو قليلا إذا تحققت عموم النجاسة فيه . ووجه تحققها عنده أن تقع مثلا نقطة بول فى بركة ، فإن كانت البركة يتحرك طرفاها بتحرك أحدهما فالكل نجس ، وإن كانت حركة أحد الطرفين لا تحرك الآخر لم يتنجس . وفى المجموعة نحو مذهب أبى حنيفة . وقال الشافعى بحديث القلتين ، وهو حديث مطعون فيــه ؛ آختلف فى إسناده ومتنه ؛ أخرجه أبو داود والترمذى وخاصة الدارقطنى ، فإنه صدّر به كتابه وجمع طرقه . قال آبن العربى : وقد رام الدارقطنى على إمامته أن يصحح حديث القلتين فلم يقدر . وقال أبو عمر بن عبد البر : وأما ما ذهب إليــه الشافعى من حديث القلتين فمذهب ضعيف من جهــة النظر ، غير ثابت

فى الأثر؛ لأنه قد تكلم فيه جماعة من أهل العلم بالنقل، ولأن القلتين لا يوقف على حقيقة مبلغهما فى أثر ثابت ولا إجماع ، فلو كان ذلك حدًّا لازما لوجب على العلماء البحث عنه ليقفوا على حدّ ما حدّه النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه من أصل دينهم وفرضهم ، ولو كان ذلك كذلك ما ضيعوه، فلقد بحثوا عما هو أدون من ذلك وألطف .

قلت : وفيما ذكر ٱبن المنذر فى القلتين من الخلاف يدل على عدم التوقيف فيهما والتحديد . وفى سنن الدارقطنى عن حماد بن زيد عن عاصم بن المنذر قال : القِلال الخوابى العظام . وعاصم هذا هو أحد رواة حديث القلتين . ويظهر من قول الدارقطنى أنها مثل قِلال هَجَر . لسياقه حديث الإسراء عن أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "لمّا رفعت إلى سِدرة المنتهى فى السماء السابعة نبقها مثل قِلال هَجَر وورقها مثل آذان الفيلة " وذكر الحديث . قال ٱبن العربى : وتعلق علماؤنا بحديث أبى سعيد الخدرى فى بئر بُضاعة[(١)]، رواه النسائى والترمذى وأبو داود وغيرهم . وهو أيضا حديث ضعيف لا قدم له فى الصحة فلا تعويل عليه . وقد فاوضت الطوسى الأكبر فى هذه المسئلة فقال : إن أخاص المذاهب فى هذه المسئلة مذهب مالك ، فإن الماء طهور ما لم يتغير أحد أوصافه ؛ إذ لا حديث فى الباب يعوّل عليه، وإنما المعوّل على ظاهر القرآن وهو قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » وهو ماء بصفاته، فإذا تغير عن شىء منها خرج عن الاسم لخروجه عن الصفة، ولذلك لما لم يجد البخارى إمام الحديث والفقه فى الباب خبرا يعوّل عليه قال : (باب إذا تغير وصف الماء) وأدخل الحديث الصحيح : " ما من أحد يُكلَم فى سبيل الله والله أعلم بمن يُكلَم فى سبيله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يَثْعَب[(٢)] دمًا اللون لون الدم والريح ريح المسك " . فأخبر صلى الله عليه وسلم أن الدم بحاله وعليه رائحة المسك ، ولم تخرجه الرائحة عن صفة الدموية . ولذلك قال علماؤنا : إذا تغير الماء بريح جيفة على طرفه وساحله لم يمنع ذلك الوضوء منه . ولو تغير بها وقد وضعت فيه لكان ذلك تنجيسا له للمخالطة والأولى مجاورة لا تعويل عليها .

---

(١) بئر بضاعة : بئر بالمدينة . ويقال إن بضاعة ٱسم ٱمرأة نسبت إليها البئر . (٢) يثعب : يجرى .

قلت : وقد آستدل به أيضا على نقيض ذلك، وهو أن تغير الرائحة يخرجه عن أصله . ووجه هذا الآستدلال أن الدم لما آستحالت رائحته إلى رائحة المسك خرج عن كونه مستخبثا نجسا، وأنه صار مسكا، وإن المسك بعض دم الغزال .

فكذلك الماء إذا تغيرت رائحته . وإلى هذا التأويل ذهب الجمهور فى الماء . وإلى الأول ذهب عبد الملك . قال أبو عمر : جعلوا الحكم للرائحة دون اللون، فكان الحكم لها فاستدلوا عليها فى زعمهم بهذا الحديث . وهذا لا يفهم منه معنى تسكن إليه النفس، ولا فى الدم معنى الماء فيقاس عليه، ولا يشتغل بمثل هذا الفقهاء، وليس من شأن أهل العلم اللغز به وإشكاله؛ وإنما شأنهم إيضاحه وبيانه، ولذلك أخذ الميثاق عليهم ليبيننه للناس ولا يكتمونه، والماء لا يخلو تغيره بنجاسة أو بغير نجاسة ، فإن كان بنجاسة وتغير فقد أجمع العلماء على أنه غير طاهر ولا مطهر ، وكذلك أجمعوا أنه إذا تغير بغير نجاسة أنه طاهر على أصله . وقال الجمهور : إنه غير مطهر إلا أن يكون تغيره من تربة وحمأة . وما أجمعوا عليه فهو الحق الذى لا إشكال فيه، ولا التباس معه .

الرابعة ــ الماء المتغير بقراره كزرنيخ أو جير يجرى عليه ، أو تغير بطحلب أو ورق شجر ينبت عليه لا يمكن الآحتراز عنه فآتفق العلماء أن ذلك لا يمنع من الوضوء به ، لعدم الآحتراز منه والآنفكاك عنه؛ وقد روى آبن وهب عن مالك أن غيره أولى منه .

الخامسة ــ قال علماؤنا رحمة الله عليهم: ويكره سؤر النصرانى وسائر الكفار والمدمن الخمر، وما أكل الجيف؛ كالكلاب وغيرها . ومن توضأ بسؤرهم فلا شىء عليه حتى يستيقن النجاسة . قال البخارى : وتوضأ عمر رضى الله عنه من بيت نصرانية . ذكر سفيان آبن عيينة قال : حدثونا عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما كنا بالشأم أتيت عمر بن الخطاب بماء فتوضأ منه فقال : من أين جئت بهذا الماء؟ مارأيت ماء عذبا ولا ماء سماء أطيب منه . قال قلت : جئت به من بيت هذه العجوز النصرانية؛ فلما توضأ أتاها فقال : أيتها العجوز أسلمى تسلمى، بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق . قال : فكشفت عن رأسها ؛ فإذا

مثل الثَّغامة(١) ، فقالت : عجوز كبيرة ، وإنما أموت الآن ! فقال عمر رضي الله عنه : اللهم اشهد . خرّجه الدارقطنيّ ، حدّثنا الحسين بن إسمعيل قال حدّثنا أحمد بن إبراهيم البُوشَنْجي قال حدّثنا سفيان .. فذكره . ورواه أيضا عن الحسين بن إسمعيل قال حدّثنا خلاد بن أسلم حدّثنا سفيان عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه توضأ من بيت نصرانية أتاها فقال : أيتها العجوز أسلمي ... ؛ وذكر الحديث بمثل ما تقدّم .

السادسة — فأما الكلب إذا ولغ في الماء فقال مالك : يغسل الإناء سبعا ولا يتوضأ منه وهو طاهر . وقال الثوريّ : يتوضأ بذلك الماء ويتيمم معه . وهو قول عبد الملك ابن عبد العزيز ومحمد بن مسلمة . وقال أبو حنيفة : الكلب نجس ، ويغسل الإناء منه لأنه نجس . وبه قال الشافعيّ وأحمد وإسحق . وقد كان مالك يفرق بين ما يجوز اتخاذه من الكلاب وبين ما لا يجوز اتخاذه منها في غسل الإناء من ولوغه . وتحصيل مذهبه أنه طاهر عنده ، لا ينجس ولوغه شيئا ولغ فيه طعاما ولا غيره ؛ إلا أنه استحب هراقة ما ولغ فيه من الماء ليسارة مؤنته . وكلب البادية والحاضرة سواء . ويغسل الإناء منه على كل حال سبعا تعبدا . هذا ما استقر عليه مذهبه عند المناظرين من أصحابه . ذكر ابن وهب قال : حدّثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحياض التي تكون فيما بين مكة والمدينة ، فقيل له : إن الكلاب والسباع ترد عليها . فقال : " لها ما أخذت في بطونها ولنا ما بقي شراب وطهور " أخرجه الدارقطنيّ . وهذا نص في طهارة الكلاب وطهارة ما تلغ فيه . وفي البخاريّ عن ابن عمر أن الكلاب كانت تقبل وتدبر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يرشّون شيئا من ذلك . وقال عمر بحضرة الصحابة لصاحب الحوض الذي سأله عمرو بن العاص : هل ترد حوضك السباع . فقال عمر : ياصاحب الحوض ، لاتخبرنا فإنا نرد على السباع وترد علينا ، أخرجه مالك والدارقطنيّ . ولم يفترق بين السباع ، والكلب من جملتها ، ولا حجة للمخالف

(١) الثغامة : نبات أبيض الثمر والزهر يشبه بياض الشيب به .

فى الأمر بإراقة ماولغ فيه وأن ذلك للنجاسة ، و إنما أمر بإراقته لأن النفس تعافه لا لنجاسته ؛ لأن التنزه من الأقذار مندوب إليه ، أو تغليظا عليهم لأنهم نهوا عن آقتنائها كما قاله آبن عمر والحسن؛ فلما لم ينتهوا عن ذلك غلظ عليهم فى المـاء لقلته عندهم فى البادية ، حتى يشتد عليهم فيمتنعوا من آقتنائها . وأما الأمر بغسل الإناء فعبادة لا لنجاسة كما ذكرناه بدليلين : أحدهما ـ أن الغسل قد دخله العدد . الثـانى ـ أنه قد جعل للتراب فيه مدخل لقوله عليه السلام: " وعفِّروه الثـامنة بالتراب " . ولو كان للنجاسة لمـا كان للعـدد ولا للتراب فيـه مدخل كالبول . وقد جعل صـلى الله عليه وسـلم الهر وما ولغ فيه طاهرا ، والهر سـبع لا خلاف فى ذلك ؛ لأنه يفترس و يأكل الميتة ؛ فكذلك الكلب وما كان مثله من السباع ؛ لأنه إذا جاء نص فى أحدهما كان نصا فى الآخر . وهذا من أقوى أنواع القياس . هـذا لو لم يكن هناك دليل ، وقد ذكرنا النص على طهارته فسقط قول المخالف . والحمد لله .

السابعـة ـ ما مات فى المـاء ممـا لا دم له فلا يضرّ المـاء إن لم يغيّر ريحه ؛ فإن أنتن لم يتوضأ به . وكذلك ما كان له دم سائل من دواب المـاء كالحوت والضفدع لم يفسد ذلك المـاء موته فيه ؛ إلا أن تتغير رائحته ، فإن تغيرت رائحته وأنتن لم يجز التطهر به ولا الوضوء منه ، وليس بنجس عند مالك . وأما ماله نفس سائلة فمـات فى المـاء ونزح مكانه ولم يغير لونه ولا طعمه ولا ريحه فهـو طاهر مطهر سـواء كان المـاء قليلا أو كثيرا عند المدنيين . وآستحب بعضهم أن ينزح من ذلك المـاء دلاء لتطييب النفس به ، ولا يحدّون فى ذلك حدّا لا يتعدّى . ويكرهون استعمال ذلك المـاء قبل نزح الدلاء ، فإن آستعمله أحد فى غسل أو وضوء جاز إذا كانت حاله ما وصفنا . وقد كان بعض أصحاب مالك يرى لمن توضأ بهذا المـاء وإن لم يتغير أن يتيمم ، فيجمع بين الطهارتين آحتياطا ، فإن لم يفعل وصلى بذلك المـاء أجزأه . وروى الدارقطنىّ عن محمد بن سـيرين أن زنجيا وقع فى زمزم ـ يعنى فمـات ـ فأمر به آبن عباس رضى الله عنه فأخرج فأمر بها أن تنزح . قال : فغلبتهم عين جاءتهم من

الركن فأمر بها فدُسِمت بالقُباطيّ[1] والمطارف حتى نزحوها ؛ فلما نزحوها انفجرت عليهم .
وأخرجه عن أبي الطفيل أن غلاما وقع في بئر زمزم فنزحت . وهذا يحتمل أن يكون الماء
تغير ، والله أعلم . وروى شعبة عن مغيرة عن إبراهيم أنه كان يقول : كل نفس سائلة
لا يتوضأ منها ، ولكن رخص في الخنفساء والعقرب والجراد والجدجد[2] إذا وقعن في الركاء[3] فلا
بأس به . قال شعبة : وأظنه قد ذكر الوزغة . أخرجه الدارقطنيّ ، حدّثنا الحسين بن إسمعيل
قال حدّثنا محمد بن الوليد قال حدّثنا محمد بن جعفر قال حدّثنا شعبة ... ؛ فذكره .

الثامنة — ذهب الجمهور من الصحابة وفقهاء الأمصار وسائر التابعين بالحجاز والعراق
أن ما ولغ فيه الهرّ من الماء طاهر ، وأنه لا بأس بالوضوء بسؤره ؛ لحديث أبي قتادة ، أخرجه
مالك وغيره . وقد روى عن أبي هريرة فيه خلاف . وروى عن عطاء بن أبي رباح وسعيد
ابن المسيب ومحمد بن سيرين أنهم أمروا بإراقة ماء ولغ فيه الهرّ وغسل الإناء منه . واختلف
في ذلك عن الحسن . ويحتمل أن يكون الحسن رأى في فمه نجاسة ليصح مخرج الروايتين عنه .
قال الترمذيّ لما ذكر حديث مالك : «وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة ، هذا حديث حسن
صحيح ، وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم والتابعين ومن بعدهم ؛
مثل الشافعيّ وأحمد وإسحق ، لم يروا بسؤر الهرّة بأسا . وهذا أحسن شيء في الباب ، وقد
جوّد مالك هذا الحديث عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة ، ولم يأت به أحد أتم من مالك»
قال الحافظ أبو عمر : الحجة عند التنازع والاختلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وقد صح من حديث أبي قتادة أنه أصغى لها الإناء حتى شربت . الحديث . وعليه اعتماد
الفقهاء في كل مصر إلا أبا حنيفة ومن قال بقوله ؛ فإنه كان يكره سؤره . وقال : إن توضأ
به أحد أجزأه ، ولا أعلم حجة لمن كره الوضوء بسؤر الهرّة أحسن من أنه لم يبلغه حديث أبي
قتادة ، وبلغه حديث أبي هريرة في الكلب فقاس الهرّ عليه ، وقد فرقت السنة بينهما في باب

---

(١) دسم الشيء يدسمه دسما : سدّه . والقباطي (بالضم) : ثياب من كتان رقيق يعمل بمصر ؛ نسبة إلى القبط
على غير قياس . والمطارف : جمع مطرف ، وهو رداء من خز مربع ذو أعلام . (٢) الجدجد كهدهد طوير
شبه الجرادة . (٣) الركاء (جمع ركوة) : إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء .

التعبد في غسل الإناء ، ومن حجته السنة خاصمته ، وما خالفها مطرح . وبالله التوفيق .
ومن حجتهم أيضا ما رواه قرة بن خالد عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " طهور الإناء إذا ولغ فيه الهر أن يغسل مرة أو مرتين " شك قرة . وهذا الحديث لم يرفعه إلا قرة بن خالد ، وقرة ثقة ثبت .

قلت : هذا الحديث أخرجه الدار قطني ، ومتنه : " طهور الإناء إذا ولغ فيه الكلب أن يغسل سبع مرات الأولى بالتراب والهر مرة أو مرتين " . قرة شك . قال أبو بكر : كذا رواه أبو عاصم مرفوعا ، ورواه غيره عن قرة (ولوغ الكلب) مرفوعا و (ولوغ الهر) موقوفا . وروى أبو صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يغسل الإناء من الهر كما يغسل من الكلب " قال الدارقطني : لا يثبت هذا مرفوعا والمحفوظ من قول أبي هريرة وآختلف عنه . وذكر معمر وآبن جريج عن آبن طاوس عن أبيه أنه كان يجعل الهر مثل الكلب . وعن مجاهد أنه قال في الإناء يلغ فيه السنور قال : آغسله سبع مرات . قاله الدارقطني .

التاسعة — الماء المستعمل طاهر إذا كانت أعضاء المتوضئ به طاهرة ؛ إلا أن مالكا وجماعة من الفقهاء الجلة كانوا يكرهون الوضوء به . وقال مالك : لا خير فيه ، ولا أحب لأحد أن يتوضأ به ، فإن فعل وصلى لم أر عليه إعادة الصلاة ويتوضأ لما يستقبل . وقال أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما : لا يجوز آستعماله في رفع الحدث ، ومن توضأ به أعاد ؛ لأنه ليس بماء مطلق ، ويتيمم واجده لأنه ليس بواجد ماء . وقال بقولهم في ذلك أصبغ بن الفرج ، وهو قول الأوزاعي . وآحتجوا بحديث الصنابحي خرجه مالك وحديث عمرو بن عنبسة أخرجه مسلم ، وغير ذلك من الآثار . وقالوا : الماء إذا توضئ به خرجت الخطايا معه ؛ فوجب التنزه عنه لأنه ماء الذنوب . قال أبو عمر : وهذا عندي لا وجه له ؛ لأن الذنوب لا تنجس الماء لأنها لا أشخاص لها ولا أجسام تمازج الماء فتفسده ، وإنما معنى قوله «خرجت الخطايا مع الماء» إعلام منه بأن الوضوء للصلاة عمل يكفر الله به السيئات عن عباده

المؤمنين رحمة منه بهم وتفضلا عليهم . وقال أبو ثور وداود مثل قول مالك ، وأن الوضوء بالماء المستعمل جائز؛ لأنه ماء طاهر لا ينضاف إليه شيء وهو ماء مطلق . وآحتجوا بإجماع الأمة على طهارته إذا لم يكن فى أعضاء المتوضئ نجاسة . و إلى هذا ذهب أبو عبدالله المَرْوَزِيّ محمد بن نصر . وروى عن علىّ بن أبى طالب وآبن عمر وأبى أمامة وعطاء بن أبى رَبَاح والحسن البصرى والنخعىّ ومكحول والزهرىّ أنهم قالوا فيمن نسى مسح رأسه فوجد فى لحيته بللا : إنه يجزئه أن يمسح بذلك البلل رأسه ؛ فهؤلاء كلهم أجازوا الوضوء بالماء المستعمل . روى عبد السلام بن صالح حدّثنا إسحق بن سُوَيد عن العلاء بن زياد عن رجل من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم مرضىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عليهم ذات يوم وقد آغتسل وقد بقيت لمعة من جسده لم يصبها الماء، فقلنا : يارسول الله ، هذه لمعة لم يصبها الماء ؛ فكان له شعر وارد (١) ، فقال (٢) بشعره هكذا على المكان فبَلَّه . أخرجه الدارقطنىّ ، وقال : عبد السلام بن صالح هذا بصرىّ وليس بقوىّ، وغيره من الثقات يرويه عن إسحق عن العلاء مرسلا، وهو الصواب .

قلت : الراوى الثقة عن إسحق بن سويد العدوى عن العلاء بن زياد العدوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آغتسل ... ؛ الحديث فيما ذكره هشيم . قال آبن العربى : « مسئلة الماء المستعمل إنما تنبنى على أصل آخر، وهو أن الآلة إذا أدّى بها فرض هل يؤدى بها فرض آخر أم لا ؛ فمنع ذلك المخالف قياسا على الرقبة إذا أدّى بها فرض عتق لم يصلح أن يتكرر فى أداء فرض آخر؛ وهذا باطل من القول، فإن العتق إذا أتى على الرق أتلفه فلا يبقى محل لأداء الفرض بعتق آخر . ونظيره من الماء ما تلف على الأعضاء فإنه لا يصح أن يؤدّى به فرض آخر لتلف عينه حِسًّا كما تلف الرق فى الرقبة بالعتق حكما، وهذا نفيس فتأملوه » .

---

(١) أى مسترسل طويل . (٢) العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال، وتطلقه على غير الكلام واللسان؛ فتقول : قال بيده؛ أى أخذ . وقال برجله؛ أى مشى . وقال بالماء على يده؛ أى قلبه . وقال بثوبه؛ أى رفعه . وكل ذلك على المجاز والاتساع .

العاشرة ــ لم يفرق مالك وأصحابه بين المـاء تقع فيه النجاسة و بين النجاسة يرد عليها المـاء ، راكدا كان المـاء أو غير راكد ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المـاء لا ينجسه شيء إلا ما غلب عليه فغيّر طعمه أو لونه أو ريحه " . وفرقت الشافعية فقالوا : إذا وردت النجاسة على المـاء تنجس، وآختاره آبن العربى . وقال : من أصول الشريعة فى أحكام المياه أن ورود النجاسة على المـاء ليس كورود المـاء على النجاسة؛ لقول النبى صلى الله عليه وسلم : " إذا آستيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده فى الإناء حتى يغسلها ثلاثا فإن أحدكم لا يدرى أين باتت يده " . فمنع من ورود اليد على المـاء، وأمر بإيراد المـاء عليها ، وهذا أصل بديع فى الباب، ولولا وروده على النجاسة ــ قليلا كان أو كثيرا ــ لمـا طهرت . وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى بول الأعرابى فى المسجد : " صبّوا عليه ذَنوبا[1] من ماء ". قال شيخنا أبو العباس : وآستدلوا أيضا بحديث القلتين، فقالوا : إذا كان المـاء دون القلتين فحلته نجاسة تنجس وإن لم تغيّره، وإن ورد ذلك القدر فأقبل على النجاسة فأذهب عينها بقى المـاء على طهارته وأزال النجاسة وهذه مناقضة ، إذ المخالطة قد حصلت فى الصورتين ، وتفريقهم بورود المـاء على النجاسة وورودها عليه فرق صورىّ ليس فيه من الفقه شيء ، فليس الباب باب التعبدات بل من باب عقلية المعانى ، فإنه من باب إزالة النجاسة وأحكامها . ثم هـذا كله منهم يرده قوله عليه الصلاة والسلام : " المـاء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه " .

قلت : هذا الحديث أخرجه الدارقطنىّ عن رِشدين بن سعد أبى الحجاج عن معاوية بن صالح عن راشد بن سعد عن أبى أمامة البـاهلى وعن ثوبانَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، وليس فيه ذكر اللون . وقال : لم يرفعه غير رشدين بن سعد عن معاوية بن صالح وليس بالقوى ، وأحسن منه فى الآستدلال ما رواه أبو أسامة عن الوليد بن كثير عن محمد بن كعب عن عبيد الله بن عبد الله بن رافع بن خديج عن أبى سعيد الخدرى قال قيل : يارسول الله ،

(١) الذنوب (بالفتح) : الدلو .

أنتوضأ من بئر بُضاعة ، وهى بئر تلق فيها الحِيَض[1] ولحوم الكلاب والنَّتن ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الماء طهور لا ينجسه شئ " أخرجه أبو داود والترمذى والدارقطنى كلهم بهذا الإسناد. وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن ، وقد جوّد أبو أسامة هذا الحديث ولم يرو أحد حديث أبى سعيد فى بئر بُضاعة أحسن مما روى أبو أسامة . فهذا الحديث نص فى ورود النجاسة على الماء ، وقد حكم صلى الله عليه وسلم بطهارته وطهوره . قال أبو داود : سمعت قتيبة بن سعيد قال سألت قيم بئر بضاعة عن عمقها ؛ قلت : أكثر ما يكون الماء فيها؟ قال : إلى العانة . قلت : فإذا نقص؟ قال : دون العورة . قال أبو داود : وقدرت بئر بضاعة بردائى مددته عليها ثم ذرعته فإذا عرضها ستة أذرع ، وسألت الذى فتح لى باب البستان فأدخلنى إليه : هل غيّر بناؤها عما كانت عليه؟ فقال لا . ورأيت فيها ماء متغير اللون . فكان هذا دليلا لنا على ما ذكرناه ، غير أن ابن العربى قال : إنها فى وسط السَّبَخة ، فماؤها يكون متغيرا من قرارها ؛ والله أعلم .

الحادية عشرة — الماء الطاهر المطهر الذى يجوز به الوضوء وغسل النجاسات هو الماء القراح الصافى من ماء السماء والأنهار والبحار والعيون والآبار ، وما عرفه الناس ماء مطلقا غير مضاف إلى شىء خالطه كما خلقه الله عز وجل صافيا ولا يضره لون أرضه على ما بيناه . وخالف فى هذه الجملة أبو حنيفة وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر فأما أبو حنيفة فأجاز الوضوء بالنبيذ فى السفر ، وجوز إزالة النجاسة بكل مائع طاهر . فأما بالدهن والمرق فعنه رواية أنه لا يجوز إزالتها به . إلا أن أصحابه يقولون : إذا زالت النجاسة به جاز . وكذلك عنده النار والشمس ؛ حتى أن جلد الميتة إذا جف فى الشمس طهر من غير دباغ . وكذلك النجاسة على الأرض إذا جفت بالشمس فإنه يطهر ذلك الموضع ، بحيث تجوز الصلاة عليه ، ولكن لا يجوز التيمم بذلك التراب . قال ابن العربى : لما وصف الله سبحانه الماء بأنه طهور وامتن بإنزاله من السماء ليطهرنا به دل على اختصاصه بذلك ؛ وكذلك قال عليه الصلاة

---

(١) الحيض : الخرق التى يمسح بها دم الحيض ؛ و يقال لها المحايض .

والسلام لأسماء بنت الصديق حين سألته عن دم الحيض يصيب الثوب : " حُتِّيه ثم ٱقرضيه ثم ٱغسليه بالمـاء " . فلذلك لم يلحق غير المـاء بالمـاء لمـا فى ذلك من إبطال الآمتنان ، وليست النجاسة معنى محسوسا حتى يقال كل ما أزالها فقد قام به الغرض ، وإنما النجاسة حكم شرعى عين له صاحب الشرع المـاء فلا يلحق به غيره إذ ليس فى معنـاه ، ولأنه لو لحق به لأسقطه ، والفرع إذا عاد إلحاقه بالأصل فى إسقاطه سقط فى نفسه . وقد كان تاج السنة ذو العز ٱبن المرتضى الدبوسى يسميه فرخ زنى .

قلت : وأما ما ٱستدل به على ٱستعمال النبيذ فأحاديث واهية ، ضعاف لا يقوم شىء منها على ساق ؛ ذكرها الدارقطنى وضعفها ونص عليها . وكذلك ضعف ماروى عن ٱبن عباس موقوفا " النبيذ وضـوء لمن لم يجد المـاء " . فى طريقه ٱبن محرز متروك الحديث . وكذلك ماروى عن على أنه قال : لا بأس بالوضوء بالنبيذ . الحجاج وأبو ليـلى ضعيفان . وضعف حديث ٱبن مسعود وقال : تفرد به ٱبن لَهِيعة وهـو ضعيف الحديث . وذكر عن علقمة بن قيس قال قلت لعبد الله بن مسعود : أشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد منكم ليلة أتاه داعى الجن ؟ فقال لا .

قلت : هذا إسناد صحيح لا يختلف فى عدالة رواته . وأخرج الترمذى حديث ٱبن مسعود قال : سألنى النبى صلى الله عليه وسلم : " ما فى إدواتك[1] " فقلت : نبيـذ . فقال : " تمرة طيبة وماء طهور " قال : فتوضأ منه . قال أبو عيسى : وإنمـا روى هذا الحديث عن أبى زيد عن عبد الله عن النبى صـلى الله عليه وسـلم ، وأبو زيد رجل مجهول عند أهل الحديث لانعرف له رواية غير هذا الحديث ، وقد رأى بعض أهل العلم الوضوء بالنبيذ ؛ منهم سفيان وغيره ، وقال بعض أهل العـلم : لا يتوضأ بالنبيذ ، وهو قول الشافعى وأحمد وإسحق ، وقال إسحق : إن ٱبتلى رجل بهذا فتوضأ بالنبيذ وتيمم أحب إلى . قال أبو عيسى : وقول من يقول لا يتوضأ بالنبيذ أقرب إلى الكتاب والسنة وأشبه ؛ لأن الله تعالى قال : «فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا

(١) الإداوة (بالكسر) : إناء صغير من جلد يتخذ للماء .

صَعِيدًا طَيِّبًا » . وهذه المسئلة مطولة فى كتب الخلاف؛ وعمدتهم التمسك بلفظ المـاء حسبما تقدم فى « المـائدة » بيانه والله أعلم .[1]

الثانيـــة عشرة — لمـا قال الله تعالى: « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » وقال « لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ » توقف جمـاعة فى ماء البحـر؛ لأنه ليس بمنزل من السماء؛ حتى رووا عن عبـد الله آبن عمر وآبن عمرو معـا أنه لا يتوضأ به؛ لأنه نار ولأنه طبق جهنم . ولكن النبيّ صلى الله عليه وسلم بين حكمه حين قال لمن سأله : "هو الطهور ماؤه الحل ميتته" أخرجه مالك، وقال فيـه أبو عيسى : هـذا حديث حسن صحيح . وهو قول أكثر الفقهاء من أصحـاب النبيّ صلى الله عليه وسلم، منهم أبو بكر وعمر وآبن عباس، لم يروا بأسا بمـاء البحر، وقد كره بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الوضوء بماء البحر؛ منهم آبن عمر وعبد الله بن عمرو؛ وقال عبـد الله بن عمرو : هو نار . قال أبو عمر : وقد سئل أبو عيسى الترمذى عن حديث مالك هذا عن صفوان بن سُليم فقال : هو عندى حديث صحيح . قال أبو عيسى فقلت للبخارىّ : هشيم يقول فيـه آبن أبى بَرْزة . فقال : وَهِم فيه، إنمـا هو المغيرة بن أبى بُرْدة . قال أبو عمر : لا أدرى ما هذا من البخارىّ رحمه الله، ولو كان صحيحا لأخرجه فى مصنفه الصحيح عنده؛ ولم يفعل لأنه لا يعول فى الصحيح إلا على الإسناد . وهذا الحديث لا يحتج أهل الحديث بمثل إسناده، وهو عندى صحيح لأن العلماء تلقوه بالقبول له والعمل به؛ ولا يخالف فى جملته أحد من الفقهاء، وإنمـا الخلاف بينهم فى بعض معانيه . وقد أجمع جمهور من العلماء وجماعة أئمة الفتوى بالأمصار من الفقهاء : أن البحر طهور ماؤه ، وأن الوضوء به جائز؛ إلا ما روى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاصى أنهما كرها الوضوء بمـاء البحر، ولم يتابعهما أحد من فقهاء الأمصار على ذلك ولا عرج عليـه، ولا التفت إليه لحديث هذا الباب . وهذا يدلك على آشتهار الحديث عندهم، وعملهم به وقبولهم له، وهو أولى عندهم من الإسناد الظاهر الصحة لمعنى ترده الأصول . وبالله التوفيق .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٠٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قال أبو عمر : وصفوان بن سُلَيم مولى حميــد بن عبد الرحمن بن عوف الزهرىّ ، من عباد أهل المدينة وأتقاهم لله ، ناسكا ، كثير الصدقة بمـا وجد من قليل وكثير ، كثير العمل ، خائفا لله ، يكنى أبا عبد الله ، سكن المدينة لم ينتقل عنها ، ومات بها سنة آثنتين وثلاثين ومائة . ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : سمعت أبى يسأل عن صفوان بن سُلَيم فقال : ثقة من خيار عباد الله وفضلاء المسلمين . وأما سعيد بن سلمة فلم يرو عنه فيما علمت إلا صفوان ــ والله أعلم ــ ومن كانت هذه حاله فهو مجهول لا تقوم به حجة عند جميعهم . وأما المغيرة بن أبى بُرْدة فقيل عنه إنه غير معروف فى حملة العلم كسعيد بن سلمة . وقيل : ليس بمجهول . قال أبو عمر : المغيرة بن أبى بردة وجدت ذكره فى مغازى موسى بن نصير بالمغرب ، وكان موسى يستعمله على الخيل ، وفتح الله له فى بلاد البربر فتوحات فى البر والبحر . وروى الدارقطنىّ من غير طريق مالك عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من لم يطهره ماء البحر فلا طهره الله " . قال إسناد حسن .

الثـالثة عشرة ــ قال آبن العربىّ : توهم قوم أن المـاء إذا فضلت للجنب منـه فضلة لا يتوضأ به ، وهو مذهب باطل ، فقد ثبت عن ميمونة أنها قالت : أجنبت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم وآغتسلت من جَفْنة وفضلت فضلة ، فجاء رســول الله صلى الله عليه وسلم ليغتسل منه فقلت : إنى قد آغتسلت منه . فقال : " إن المـاء ليس عليه نجاسة ــ أو ــ إن المـاء لا يُجْنِب " . قال أبو عمر : وردت آثار فى هذا البـاب مرفوعة فى النهى عن أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة . وزاد بعضهم فى بعضها : ولكن ليغترفا جميعا . فقالت طائفة : لا يجــوز أن يغترف الرجل مع المــرأة فى إناء واحد ؛ لأن كل واحد منهما متوضئ بفضل صاحبه . وقال آخرون : إنمـا كره من ذلك أن تنفرد المــرأة بالإناء ثم يتوضأ الرجل بعدها بفضلها . وكل واحد منهم روى بمـا ذهب إليه أثرا . والذى ذهب إليه الجمهور من العلماء وجماعة فقهاء الأمصار أنه لا بأس أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة وتتوضأ المرأة من فضله ، آنفردت المرأة بالإناء أو لم تنفرد . وفى مثل هــذا آثار كثيرة صحاح . والذى نذهب إليه أن

المـاء لا ينجسه شيء إلا ما ظهر فيـه من النجاسات أو غلب عليه منها ؛ فلا وجه للاشتغال بمـا لا يصح من الآثار والأقوال . والله المستعان .

روى الترمذيّ عن آبن عباس قال حدثتني ميمونة قالت : كنت أغتسل أنا ورسـول الله صلى الله عليه وسلم من إناء واحد من الجنابة . قال هذا حديث حسن صحيح . وروى البخاريّ عن عائشة قالت : كنت أغتسل أنا والنبيّ صلى الله عليه وسلم من إناء واحد يقال له الفَرَق (١) . وفي صحيح مسلم عن آبن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يغتسل بفضل ميمونة . وروى الترمذيّ عن آبن عباس قال : آغتسل بعض أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم في جَفْنة فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ منه فقالت : يا رسول الله، إني كنت جنبا . قال : " إن المـاء لا يُجْنِب " . قال : هـذا حديث حسن صحيح، وهو قول سفيان الثوريّ ومالك والشافعيّ . وروى الدارقطنيّ عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أتوضأ أنا والنبيّ صلى الله عليه وسلم من إناء واحد وقد أصابت الهرة منه قبل ذلك . قال : هـذا حديث حسن صحيح . وروى أيضا عن رجل من بني غِفار قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فضل طهور المرأة . وفي الباب عن عبـد الله بن سَرْجِس ، وكره بعض الفقهاء فضل طهور المرأة، وهو قول أحمد وإسحق .

الرابعة عشرة — روى الدارقطنيّ عن زيد بن أسـلم مولى عمر بن الخطاب أن عمر بن الخطاب كان يسخن له المـاء في قُمْقُمة (٢) ويغتسل به . قال : وهذا إسناد صحيح . وروى عن عائشة قالت : دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسـلم وقد سخّنت ماء في الشمس . فقال " لا تفعلي يا [illegible] ء فإنه يورث البرص " . رواه خالد بن إسمعيل المخـزوميّ عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، وهو متروك . ورواه عمرو بن محمد الأعشم عن فليح عن الزهريّ عن عروة عن عائشة . وهو منكر الحديث، ولم يروه غيره عن فليح، ولا يصح عن الزهريّ؛ قاله الدارقطنيّ .

---

(١) الفرق (بالتحريك) : مكيال يسع ستة عشر رطلا . وبالسكون مائة وعشرون رطلا .

(٢) القمقمة والقمقم (كهدهد) : ما يسخن فيه المـاء من نحاس وغيره .

الخامسة عشرة — كل إناء طاهر فجائز الوضوء منه إلا إناء الذهب والفضة ؛ لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ٱتخاذهما . وذلك — والله أعلم — للتشبه بالأعاجم والجبابرة لا لنجاسة فيهما . ومن توضأ فيهما أجزأه وضوءه وكان عاصيا باستعمالها . وقد قيل : لايجزئ الوضوء فى أحدهما . والأول أكثر ؛ قاله أبو عمر . وكل جلد ذكى فجائز ٱستعماله للوضوء وغير ذلك . وكان مالك يكره الوضوء فى إناء جلد الميتة بعد الدباغ ؛ على ٱختلاف من قوله . وقد تقدم فى « النحل »[1] .

قوله تعالى : لِنُحْيِيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ ﴾ أى بالمطر . ﴿ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ بالجدوبة والمحل وعدم النبات . قال كعب : المطر روح الأرض يحييها الله به . وقال : « مَيْتًا » ولم يقل ميتة لأن معنى البلدة والبلد واحد ؛ قاله الزجاج . وقيل : أراد بالبلد المكان . ﴿ وَنُسْقِيَهُ ﴾ قراءة العامة بضم النون . وقرأ عمر بن الخطاب وعاصم والأعمش فيما روى المفضل عنهما « نَسْقِيَهُ » (بفتح)[2] النون . ﴿ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ أى بشرا كثيرا وأناسىّ واحده إنسى نحو جمع القُرْقُور[3] قَرَاقير وقَرَاقِر فى قول الأخفش والمبرد وأحد قولى الفراء ؛ وله قول آخر وهو أن يكون واحده إنسانا ثم تبدل من النون ياء ؛ فتقول : أناسى ، والأصل أناسين ، مثل سرحان وسراحين ، وبستان وبساتين ؛ فجعلوا الياء عوضا من النون ، وعلى هذا يجوز سراحى وبساتى ، لا فرق بينهما . قال الفراء : ويجوز « أَنَاسِى » بتخفيف الياء التى فيما بين لام الفعل وعينه ؛ مثل قراقير وقراقر . وقال « كثيرا » ولم يقل كثيرين ؛ لأن فعيلا قد يراد به الكثرة ؛ نحو « وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا » .

---

(١) راجع ج ١٠ ص ١٥٦ طبعة أولى أو ثانية . (٢) فى الاصول : « بضم النون » . وهو تحريف التصويب عن أبى حيان وغيره . (٣) القرقور : ضرب من السفن . وقيل : هى السفينة العظيمة أو الطويلة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني القرآن، وقد جرى ذكره في أول السورة : قوله تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ » . وقوله : «لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي» وقوله : « اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا » . ﴿لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي جحودا له وتكذيبا به . وقيل : « وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ » هو المطر . روى عن ابن عباس وابن مسعود : وأنه ليس عام بأكثر مطرا من عام ولكن الله يصرّفه حيث يشاء ، فما زيد لبعض نقص من غيرهم . فهذا معنى التصريف . وقيل « صَرَّفْنَاهُ بينهم » وابلا وطَشّا وطَلّا ورِهاما — الجوهري : الرهام الأمطار اللينة — ورَذَاذا . وقيل : تصريفه تنويع الانتفاع به في الشرب والسقي والزراعات به والطهارات وسقي البساتين والغسل وشبهه . « لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورا » قال عكرمة : هو قولهم في الأنواء: مطرنا بنوء كذا . قال النحاس : ولا نعلم بين أهل التفسير اختلافا أن الكفر ها هنا قولهم مطرنا بنوء كذا وكذا ؛ وأن نظيره فعل النجم كذا ، وأن كل من نسب إليه فعلا فهو كافر . وروى الربيع بن صبيح قال : مُطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فلما أصبح قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أصبح الناس فيها رجلين شاكر وكافر فأما الشاكر فيحمد الله تعالى على سقياه وغياثه وأما الكافر فيقول مُطرنا بنوء كذا وكذا " . وروى من حديث ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من سنة بأمطر من أخرى ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي صرف الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعا صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار " . وقيل : التصريف راجع إلى الريح، وقد مضى في « البقرة »[1] بيانه . وقرأ حمزة والكسائي « لِيَذْكُرُوا » مخففة الذال من الذكر . الباقون مثقلا من التذكر ؛ أي ليذكروا نعم الله ويعلموا أن من أنعم بها لا يجوز الإشراك به ؛ فالتذكر قريب من الذكر غير أن التذكر يطلق فيما بعد عن القلب فيحتاج إلى تكلف في التذكر .

(١) راجع ج ٢ ص ١٩٧ طبعة ثانية .

قوله تعالى : وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ أى رسولا ينذرهم كما قسمنا المطر ليخف عليك أعباء النبوة، ولكنا لم نفعل بل جعلناك نذيرا للكل لترتفع درجتك فاشكر نعمة الله عليك . ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى فيما يدعونك إليه من اتباع آلهتهم .﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ﴾ قال ابن عباس بالقرآن . ابن زيد : بالإسلام . وقيل : بالسيف؛ وهذا فيه بعد؛ لأن السورة مكية نزلت قبل الأمر بالقتال . ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ لا يخالطه فتور .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ عاد الكلام إلى ذكر النعم . و « مَرَجَ » خلّى وخلط وأرسل . قال مجاهد : أرسلهما وأفاض أحدهما فى الآخر . قال ابن عرفة : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أى خلطهما فهما يلتقيان؛ يقال : مرجته إذا خلطته . ومَرِج الدينُ والأمرُ اختلط واضطرب؛ ومنه قوله تعالى : « فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ » . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو بن العاصى[1] : " إذا رأيتَ الناس مَرِجت عهودهم وخفّت أماناتهم وكانوا هكذا وهكذا " وشبك بين أصابعه فقلت له : كيف أصنع عند ذلك، جعلنى الله فداك ! قال : " الزم بيتك وأملك عليك لسانك وخذ بما تعرف ودع ما تنكر وعليك بخاصة أمر نفسك ودع عنك أمر العامة " خرجه النسائى وأبو داود وغيرهما . وقال الأزهرى : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » خلى بينهما؛ يقال مَرَجتُ الدابةَ إذا خليتَها ترعى . وقال ثعلب : المرج الإجراء؛ فقوله : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أى أجراهما . وقال الأخفش: يقول قوم أمرج البحرين مثل مرج فعل وأفعل بمعنى . ﴿ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ أى حلو شديد العذوبة .

(١) الحديث فى الفتنة .

﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أى فيه ملوحة ومرارة . وروى طلحة أنه قرئ « وَهَٰذَا مَلِحٌ » بفتح الميم وكسر اللام . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾ أى حاجزا من قدرته لا يغلب أحدهما على صاحبه ؛ كما قال فى سورة الرحمن « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ » . ﴿ وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ أى سترا مستورا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر . فالبرزخ الحاجز ، والحجر المانع . وقال الحسن : يعنى بحر فارس وبحر الروم . وقال ابن عباس وابن جبير : يعنى بحر السماء وبحر الأرض . قال ابن عباس : يلتقيان فى كل عام وبينهما برزخ قضاء من قضائه . « وَحِجْرًا مَحْجُورًا » حراما محرما أن يعذب هذا الملح بالعذب ، أو يملح هذا العذب بالملح .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ﴾ أى خلق من النطفة إنسانا . ﴿ فَجَعَلَهُ ﴾ أى جعل الإنسان « نَسَبًا وَصِهْرًا » . وقيل : « مِنَ الْمَاءِ » إشارة إلى أصل الخلقة فى أن كل حى مخلوق من الماء . وفى هذه الآية تعديد النعمة على الناس فى إيجادهم بعد العدم ، والتنبيه على العبرة فى ذلك .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ النسب والصهر معنيان يعمان كل قربى تكون بين آدميين . قال ابن العربى : النسب عبارة عن خلط الماء بين الذكر والأنثى على وجه الشرع ؛ فإن كان بمعصية كان خلقا مطلقا ولم يكن نسبا محققا ، ولذلك لم يدخل تحت قوله « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ » بنته من الزنى ؛ لأنها ليست ببنت له فى أصح القولين لعلمائنا وأصح القولين فى الدين ؛ وإذا لم يكن نسب شرعا فلا صهر شرعا ، فلا يحرم الزنى بنت أم ولا أم بنت ، وما يحرم من الحلال لا يحرم من الحرام ؛ لأن الله امتن بالنسب والصهر على عباده ورفع قدرهما ، وعلق الأحكام فى الحل والحرمة عليهما فلا يلحق الباطل بهما ولا يساويهما .

قلت : آختلف الفقهاء فى نكاح الرجل آبنته من زنى أو أخته أو بنت آبنه من زنى ؛ فحرّم ذلك قوم منهم آبن القاسم ، وهو قول أبى حنيفة وأصحابه ، وأجاز ذلك آخرون منهم عبد الملك بن الماجشون ، وهو قول الشافعىّ ، وقد مضى هذا فى « النساء »(1) مجوّدا . قال الفراء : النسب الذى لا يحل نكاحه . وقاله الزجاج، وهو قول على بن أبى طالب رضى الله عنه . وآشتقاق الصهر من صهرت الشىء إذا خلطته ؛ فكل واحد من الصهرين قد خالط صاحبه ، فسميت المناكح صهرا لاختلاط الناس بها . وقيل : الصهر قرابة النكاح ؛ فقرابة الزوجة هم الأختان، وقرابة الزوج هم الأحماء . والأصهار يقع عاما لذلك كله؛ قاله الأصمعىّ. وقال آبن الأعرابى : الأختان أبو المرأة وأخوها وعمها ــ كما قال الأصمعىّ ــ والصهر زوج آبنة الرجل وأخوه وأبوه وعمه . وقال محمد بن الحسن فى رواية أبى سليمان الجوزجانى : أختان الرجل أزواج بناته وأخواته وعماته وخالاته ، وكل ذات محرم منه ، وأصهاره كل ذى رحم محرم من زوجته . قال النحاس : الأولى فى هذا أن يكون القول فى الأصهار ما قال الأصمعى ، وأن يكون من قبلهما جميعا . يقال صهرت الشىء أى خلطته ؛ فكل واحد منهما قد خلط صاحبه . والأولى فى الأختان ما قال محمد بن الحسن لجهتين : إحداهما الحديث المرفوع ، روى محمد آبن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط عن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما أنت يا علىّ فختَنى وأبو ولدى وأنت منى وأنا منك" . فهذا على أن زوج البنت ختَن . والجهة الأخرى أن آشتقاق الختَن من ختَنه إذا قطعه ؛ وكأن الزوج قد آنقطع عن أهله ، وقطع زوجته عن أهلها . وقال الضحاك : الصهر قرابة الرضاع . قال آبن عطية : وذلك عندى وهَم أوجبه أن آبن عباس قال : حرم من النسب سبع ، ومن الصهر خمس . وفى رواية أخرى من الصهر سبع ؛ يريد قوله عز وجل « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ » فهذا هو النسب . ثم يريد بالصهر قوله تعالى : « وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ » إلى قوله « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ » . ثم ذكر المحصنات . ومحمل هذا أن آبن عباس أراد حرم من الصهر ما ذكر معه ؛ فقد أشار

(1) راجع جـ ٥ ص ١١٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

بما ذكر إلى عظمه وهو الصهر ، لا أن الرضاع صهر ، و إنما الرضاع عديل النسب يحرم منه ما يحرم من النسب بحكم الحديث المأثور فيه . ومن روى : وحرم من الصهر خمس أسقط من الآيتين الجمع بين الأختين والمحصنات ؛ وهنّ ذوات الأزواج .

قلت : فابن عطية جعل الرضاع مع ما تقدّم نسبا، وهو قول الزجاج . قال أبو إسحق : النسب الذى ليس بصهر من قوله جل ثناؤه : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ » إلى قوله « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ » والصهر من له التزويج . قال ابن عطية : وحكى الزهراوى قولا أن النسب من جهة البنين والصهر من جهة البنات .

قلت : وذكر هذا القول النحاس ، وقال : لأن المصاهرة من جهتين تكون .

وقال ابن سيرين : نزلت هذه الآية فى النبى صلى الله عليه وسلم وعلىّ رضى الله عنه ؛ لأنه جمعه معه نسب وصهر . قال ابن عطية : فاجتماعهما وكادة حرمة إلى يوم القيامة . ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ على خلق ما يريده .

قوله تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ لما عدد النعم وبين كمال قدرته عجب من المشركين فى إشراكهم به من لا يقدر على نفع ولا ضر؛ أى إن الله هو الذى خلق ما ذكره، ثم هؤلاء لجهلهم يعبدون من دونه أمواتا جمادات لا تنفع ولا تضر. ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ روى عن ابن عباس، « الْكَافِرُ » هنا أبو جهل ؛ وشرحه أنه يستظهر بعبادة الأوثان على أوليائه . وقال عكرمة : « الْكَافِرُ » إبليس ، ظهر على عداوة ربه . وقال مطرف : « الْكَافِرُ » هنا الشيطان. وقال الحسن : « ظَهِيرًا » أى معينا للشيطان على المعاصى . وقيل : المعنى؛ وكان الكافر على ربه هينا ذليلا لا قدر له ولا وزن عنده ؛ من قول العرب : ظَهَرت به أى جعلته خلف ظهرك ولم تلتفت إليه . ومنه قوله تعالى : « وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا » أى هينا .

ومنه قول الفرزدق :

تميمَ بنَ قيسٍ لا تكوننّ حاجتي * بظَهْرٍ فلا يعيا عليّ جوابُها

هذا معنى قول أبي عبيدة . وظهير بمعنى مظهور . أي كفر الكافرين هين على الله تعالى ، والله مستهين به لأن كفره لا يضره . وقيل : وكان الكافر على ربه الذي يعبده وهو الصنم قويا غالبا يعمل به ما يشاء ؛ لأن الجماد لا قدرة له على دفع ضر ونفع .

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا (٥٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ يريد بالجنة مبشرا ونذيرا من النار ؛ وما أرسلناك وكيلا ولا مسيطرا . ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ يريد على ما جئتكم به من القرآن والوحى . و « من » للتأكيد . ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ ﴾ لكن من شاء ؛ فهو استثناء منقطع ، والمعنى : لكن من شاء ﴿ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ بإنفاقه من ماله في سبيل الله فلينفق . ويجوز أن يكون متصلا ويقدر حذف المضاف ؛ التقدير : إلا أجر « مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا » باتباع ديني حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا (٥٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ تقدم معنى التوكل في «آل عمران»(١) وهذه السورة وأنه اعتماد القلب على الله تعالى في كل الأمور ، وأن الأسباب وسائط أمر بها من غير اعتماد عليها . ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ أي نزه الله تعالى عما يصفه هؤلاء الكفار به من الشركاء . والتسبيح التنزيه ، وقد تقدم . وقيل : « وَسَبِّحْ » أي صلّ له ؛ وتسمى الصلاة تسبيحا . ﴿ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ أي عليما فيجازيهم بها .

(١) راجع جـ ٤ ص ١٨٩ طبعة أولى أو ثانية

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ تقدم فى الأعراف(١) . و « ٱلَّذِى » فى موضع خفض نعتا للحىّ . وقال « بَيْنَهُمَا » ولم يقل بينهن ؛ لأنه أراد الصنفين والنوعين والشيئين ؛ كقول القُطَامىّ :

ألم يحـزنك أن حبـال قيس * وتغلب قـد تباينتـا آنقطاعا

أراد وحبال تغلب فثنى ، والحبال جمع ؛ لأنه أراد الشيئين والنوعين . ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ قال الزجاج : المعنى فاسأل عنه . وقد حكى هذا جماعة من أهل اللغة أن الباء تكون بمعنى عن ؛ كما قال تعالى : « سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ » وقال الشاعر :

هَلّا سألتِ الخيل يابنة مالك * إن كنت جاهلة بما لم تعلمى(٢)

وقال [عَلْقَمة بن عَبَدة](٣) :

فإن تسألونى بالنساء فإننى * خبيرٌ بأدواء النساء طبيبُ

أى عن النساء وعما لم تعلمى . وأنكره علىّ بن سليمان وقال : أهل النظر ينكرون أن تكون الباء بمعنى عن ؛ لأن فى هذا إفسادا لمعانى قول العرب : لو لقيت فلانا للقيك به الأسد ؛ أى للقيك بلقائك إياه الأسد . المعنى فاسأل بسؤالك إياه خبيرا . وكذلك قال آبن جبير : الخبير هو الله . فـ « خَبِيرًا » نصب على المفعول به بالسؤال .

قلت : قول الزجاج يخرج على وجه حسن ، وهو أن يكون الخبير غير الله ؛ أى فاسأل عنه خبيرا ، أى عالما به ، أى بصفاته وأسمائه . وقيل : المعنى فاسأل له خبيرا ، فهو نصب

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .   (٢) البيت من معلقة عنترة .

(٣) فى نسخ الأصل : « وقال آمرؤ القيس » وهو تحريف . والبيت من قصيدة لعلقمة مطلعها :

طحا بك قلب فى الحسان طروب * بعيد الشباب عصر حان مشيب

على الحال من الهاء المضمرة . قال المهدوىّ : ولا يحسن حالا إذ لا يخلو أن تكون الحال من السائل أو المسئول، ولا يصح كونها حالا من الفاعل؛ لأن الخبير لا يحتاج أن يسأل غيره . ولا يكون من المفعول ؛ لأنّ المسئول عنه وهو الرحمن خبير أبدا ، والحال فى أغلب الأمر يتغير و ينتقل ؛ إلا أن يحمل على أنها حال مؤكدة؛ مثل « وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا » فيجوز . وأما « الرَّحْمَنُ » ففى رفعه ثلاثة أوجه : يكون بدلا من المضمر الذى فى « ٱسْتَوَى » . ويجوز أن يكون مرفوعا بمعنى هو الرحمن . ويجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء وخبره « فاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا» . ويجوز الخفض بمعنى وتوكل على الحىّ الذى لا يموت الرحمن؛ يكون نعتا . ويجوز النصب على المدح .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ ﴾ أى لله تعالى . ﴿ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ على جهة الإنكار والتعجب، أى ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب . وزعم القاضى أبو بكر بن العربىّ أنهم إنما جهلوا الصفة لا الموصوف ، وٱستدل على ذلك بقوله : « وَمَا الرَّحْمَنُ » ولم يقولوا ومن الرحمن . قال ٱبن الحصار : وكأنه رحمه الله لم يقرأ الآية الأخرى « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ » . ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ هذه قراءة المدنيين والبصريين؛ أى لما تأمرنا أنت يا محمد . وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائىّ « يَأْمُرُنَا » بالياء . يعنون الرحمن ؛ كذا تأوّله أبو عبيد ، قال : ولو أقروا بأنّ الرحمن أمرهم ما كانوا كفارا . فقال النحاس : وليس يجب أن يتأوّل عن الكوفيين فى قراءتهم هذا التأويل البعيد ، ولكن الأولى أن يكون التأويل لهم « أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُنَا » النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فتصح القراءة على هذا ، و إن كانت الأولى أبين وأقرب تناولا . ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ أى زادهم قول القائل لهم ٱسجدوا للرحمن نفورا عن الدين . وكان سفيان الثورىّ يقول فى هذه الآية : إلهى زادنى لك خضوعا ما زاد عداك نفورا .

قوله تعالى : تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ أى منازل ؛ وقد تقدّم ذكرها[1] . ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ﴾ قال ابن عباس : يعنى الشمس ؛ نظيره « وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً » . وقراءة العامة « سِرَاجًا » بالتوحيد . وقرأ حمزة والكسائى « سُرُجًا » يريدون النجوم العظام الوقادة ، والقراءة الأولى عند أبى عبيد أولى ؛ لأنه تأول أن السُّرج النجوم ، وأن البروج النجوم ، فيجىء المعنى نجوما ونجوما . النحاس : ولكن التأويل لهم أن أبان بن تغلب قال : السرج النجوم الدرارى . الثعلبى : كالزهرة والمشترى وزحل والسماكين ونحوها . ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ينير الأرض إذا طلع . وروى عصمة عن الأعمش «وَقُمْرًا» بضم القاف وإسكان الميم . وهذه قراءة شاذة ، ولو لم يكن فيها إلا أن أحمد بن حنبل وهو إمام المسلمين فى وقته قال : لا تكتبوا ما يحكيه عصمة الذى يروى القراءات ، وقد أولع أبو حاتم السجستانى بذكر ما يرويه عصمة هذا .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ خِلْفَةً ﴾ قال أبو عبيدة : الخلفة كل شىء بعد شىء . وكل واحد من الليل والنهار يخلف صاحبه . ويقال للبطون : أصابته خِلفة ؛ أى قيام وقعود يخلف هذا ذاك . ومنه خلفة النبات ، وهو ورق يخرج بعد الورق الأول فى الصيف . ومن هذا المعنى قول زهير بن أبى سُلْمى :

بها العِينُ والآرامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً * وأَطْلاؤُها يَنْهَضنَ من كُلِّ مَجْثِمِ[2]

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) العين (بالكسر) جمع أعين وعيناء ، وهى بقر الوحش ؛ سميت بذلك لسعة أعينها . والأطلاء : جمع طلا ، وهو ولد البقرة وولد الظبية الصغير . والمجثم : الموضع الذى يجثم فيه ؛ أى يقام فيه .

الرئم ولد الظبي وجمعه آرام ؛ يقــول : إذا ذهب فوج جاء فوج . ومنــه قول الآخر(١) يصف امرأة تنتقل من منزل في الشتاء إلى منزل في الصيف دأبا :

ولهـا بالمـاطرونِ إذا * أَكَلَ النملُ الذى جَمَعَا

خِلْفَةٌ حتى إذا ارتبعتْ * سَكَنتْ مِن جِلّقٍ بِيَعَا

فى بيوت وَسْطَ دَسْكَرةٍ * حولَهـا الزيتونُ قد يَنَعَا

قال مجاهــد : « خِلْفَةً » من الخلاف ؛ هذا أبيض وهذا أسود ؛ والأول أقوى . وقيل : يتعاقبان في الضياء والظلام والزيادة والنقصان . وقيل : هو من باب حذف المضاف ؛ أي جعل الليل والنهار ذوى خِلفة ، أي اختــلاف . ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ ﴾ أي يتذكر ، فيعــلم أن الله لم يجعله كذلك عبثا فيعتبر في مصنوعات الله ، ويشكر الله تعالى على نعمه عليه في العقل والفكر والفهم . وقال عمر بن الخطاب وابن عباس والحسن : معناه من فاته شيء من الخير بالليل أدركه بالنهــار ، ومن فاته بالنهار أدركه بالليل . وفي الصحيح : " ما من امرئ تكون له صلاة بالليل فغلبه عليهـا نوم فيصلي ما بين طلوع الشمس إلى صــلاة الظهر إلا كتب الله له أجر صلاته وكان نومه عليه صدقة " . وروى مسلم عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل " .

الثانيــــة — قال ابن العربي : سمعت ذا الشهيد الأكبر يقول : إن الله تعالى خلق العبد حيا عالمـا ، وبذلك كماله ، وسلط عليه آفة النوم وضرورة الحدث ونقصان الخلقة ؛ إذ الكمال للأول الخالق ، فما أمكن الرجل من دفع النوم بقلة الأكل والسهر في طاعة الله فليفعل . ومن الغبن العظيم أن يعيش الرجل ستين ســنة ينام ليلها فيذهب النصف من عمره لغوا ، وينام سدس النهار راحة فيذهب ثلثاه ويبقى له من العمر عشرون ســنة . ومن الجهالة والسفاهة أن يتلف الرجل ثلثي عمره في لذة فانيــة ، ولا يتلف عمره بسهر في لذة باقية عند الغني الوفي الذي ليس بعديم ولا ظلوم .

(١) هو يزيد بن معاوية . والمـاطرون : موضع بالشام قرب دمشق .

الثالثة — الأشياء لا تتفاضل بأنفسها؛ فإن الجواهر والأعراض من حيث الوجود متماثلة ، وإنما يقع التفاضل بالصفات . وقد اختلف أي الوقتين أفضل، الليل أو النهار . وفي الصوم غنية في الدلالة، والله أعلم؛ قاله ابن العربي .

قلت : والليل عظيم قدره؛ أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بقيامه فقال : «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ» ، وقال : «قُمِ اللَّيْلَ» على ما يأتي بيانه . ومدح المؤمنين على قيامه فقال : «تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ» . وقال عليه الصلاة والسلام : "والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل وفيه ساعة يستجاب فيها الدعاء وفيه ينزل الرب تبارك وتعالى" حسبما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

الرابعة — قرأ حمزة وحده «يَذْكُرَ» بسكون الذال وضم الكاف . وهي قراءة ابن وثاب وطلحة والنخعي . وفي مصحف أبي «يَتَذَكَّرَ» بزيادة تاء . وقرأ الباقون «يَذَّكَّرَ» بتشديد الكاف . ويَذْكُرَ ويَذَّكَّرَ بمعنى واحد . وقيل : معنى «يَذْكُرَ» بالتخفيف أي يذكر ما نسيه في أحد الوقتين في الوقت الثاني، أو ليذكر تنزيه الله وتسبيحه فيهما . ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ يقال : شكر يشكر شكرا وشكورا ، مثل كفر يكفر كفرا وكفورا . وهذا الشكور على أنهما جعلهما قواما لمعاشهم . وكأنهم لما قالوا : «وَمَا الرَّحْمَنُ» قالوا : هو الذي يقدر على هذه الأشياء .

قوله تعالى : وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ لما ذكر جهالات المشركين وطعنهم في القرآن والنبوة ذكر عباده المؤمنين أيضا وذكر صفاتهم، وأضافهم إلى عبوديته تشريفا لهم ، كما قال : «سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ» وقد تقدم (١) . فمن أطاع الله وعبده وشغل سمعه وبصره ولسانه وقلبه بما أمره فهو الذي يستحق

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٥ طبعة أولى أو ثانية .

آسم العبودية، ومن كان بعكس هذا شمله قوله تعالى : « أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ » يعنى فى عدم الاعتبار، كما تقدّم فى « الأعراف [١] » . وكأنه قال : وعباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض ، فحذف هم؛ كقولك : زيد الأمير، أى زيد هو الأمير . فـ«الَّذِينَ» خبر مبتدإ محذوف؛ قاله الأخفش . وقيل الخبر قوله فى آخر السورة : «أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا» وما بين المبتدإ والخبر أوصاف لهم وما تعلق بها؛ قاله الزجاج . قال : ويجوز أن يكون الخبر «الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ» . و«يَمْشُونَ» عبارة عن عيشهم ومدة حياتهم وتصرفاتهم، فذكر من ذلك العظم، لا سيما وفى ذلك الآنتقال فى الأرض؛ وهو معاشرة الناس وخلطتهم .

قوله تعالى : « هَوْنًا » الهون مصدر الهيِّن ، وهو من السكينة والوقار . وفى التفسير : يمشون على الأرض حلماء متواضعين، يمشون فى آقتصاد . والقصد والتؤدة وحسن السَّمْت من أخلاق النبوة . وقال صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس فى الإيضاع [٢] " وروى فى صفته صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا زال زال تقلعا ، ويخطو تكفؤا ، ويمشى هونا ، ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب . التقلع : رفع الرجل بقوة . والتكفؤ : الميل إلى سنن المشى وقصده . والهون الرفق والوقار . والذريع الواسع الخطا؛ أى أن مشيه كان يرفع فيه رجله بسرعة ويمد خطوه؛ خلاف مشية المختال، ويقصد سمته؛ وكل ذلك برفق وتثبت دون عجلة . كما قال : كأنما ينحط من صَبَب؛ قاله القاضى عياض . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسرع جبلة لا تكلفا . قال الزهرىّ : سرعة المشى تذهب بهاء الوجه . قال آبن عطية : يريد الإسراع الحثيث لأنه يخل بالوقار؛ والخير فى التوسط . وقال زيد بن أسلم : كنت أسأل عن تفسير قوله تعالى : « الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » فما وجدت من ذلك شفاء ، فرأيت فى المنام من جاءنى فقال لى : هم الذين لا يريدون أن يفسدوا فى الأرض . قال القشيرىّ : وقيل لا يمشون لإفساد ومعصية، بل فى طاعة الله والأمور المباحة من غير هوك . وقد قال الله تعالى : « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٢٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) الإيضاع : سير مثل الخبب .

كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » . وقال ابن عباس : بالطاعة والمعروف والتواضع . الحسن : حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا . وقيل : لا يتكبرون على الناس .

قلت : وهذه كلها معانٍ متقاربة ، ويجمعها العلم بالله والخوف منه ، والمعرفة بأحكامه والخشية من عذابه وعقابه ؛ جعلنا الله منهم بفضله ومنه . وذهبت فرقة إلى أن « هونا » مرتبط بقوله . « يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ » أن المشي هو هون . قال ابن عطية : ويشبه أن يتأول هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشي هونا مناسبة لمشيه ، فيرجع القول إلى نحو ما بيناه . وأما أن يكون المراد صفة المشي وحده فباطل ؛ لأنه رب ماشٍ هونا رويدا وهو ذئب أطلس(١) . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكفأ في مشيه كأنما يمشي في صبب . وهو عليه الصلاة والسلام الصدر في هذه الأمة . وقوله عليه الصلاة والسلام : " من مشى منكم في طمع فليمش رويدا " إنما أراد في عقد نفسه ، ولم يرد المشي وحده . ألا ترى أن المبطلين المتحلين بالدين تمسكوا بصورة المشي فقط ؛ حتى قال فيهم الشاعر ذما لهم :

كلُّهم يمشي رُوَيْد * كلُّهم يَطْلُبُ صَيْدْ

قلت : وفي عكسه أنشد ابن العربي لنفسه :

تواضعتُ في العلياء والأصل كابر * وحزتُ قصابَ السبق بالهَوْنِ في الأمر

سكونٌ فلا خبث السريرة أصله * وجلّ سكون الناس من عظم الكبر

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ قال النحاس : ليس « سَلَامًا » من التسليم إنما هو من التسلّم ؛ تقول العرب : سلاما ، أي تسلّما منك ، أي براءة منك . منصوب على أحد أمرين : يجوز أن يكون منصوبا بـ « قَالُوا » ، ويجوز أن يكون مصدرا ، وهذا قول سيبويه . قال ابن عطية : والذي أقوله : أن « قَالُوا » هو العامل في « سَلَامًا » لأن المعنى قالوا هذا اللفظ . وقال مجاهد : معنى « سَلَامًا » سَدَادا . أي يقول للجاهل كلاما

---

(١) الأطلس من الذئاب : هو الذي تساقط شعره ، وهو أخبث ما يكون . وقيل : هو الذي في لونه غبرة إلى السواد . (٢) هذا من كلام أبي جعفر المنصور الخليفة في مدح عمرو بن عبيد الزاهد المشهور . وتمامه :

* غير عمرو بن عبيد *

يدفعه به برفق ولين. فـ «قالُوا» على هذا التأويل عامل في قوله: «سَلَامًا» على طريقة النحويين؛ وذلك أنه بمعنى قولا. وقالت فرقة: ينبغي للمخاطب أن يقول للجاهل سلاما؛ بهذا اللفظ. أي سلمنا سلاما أو تسليما، ونحو هذا؛ فيكون العامل فيه فعلا من لفظه على طريقة النحويين.

مسـألة: هذه الآية كانت قبل آية السيف؛ نسخ منها ما يخص الكفرة وبقي أدبها في المسلمين إلى يوم القيامة. وذكر سيبويه النسخ في هذه الآية في كتابه، وما تكلم فيه على نسخ سواه؛ رجح به أن المراد السلامة لا التسليم؛ لأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالسلام على الكفرة. والآية مكية فنسختها آية السيف. قال النحاس: ولا نعلم لسيبويه كلاما في معنى الناسخ والمنسوخ إلا في هذه الآية. قال سيبويه: لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين لكنه على معنى قوله: تَسلُّما منكم، ولا خير ولا شر بيننا وبينكم. المبرد: كان ينبغي أن يقال: لم يؤمر المسلمون يومئذ بحربهم ثم أمروا بحربهم. محمد بن يزيد: أخطأ سيبويه في هذا وأساء العبارة. ابن العربي: لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين ولا نهوا عن ذلك، بل أمروا بالصفح والهجر الجميل، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقف على أنديتهم ويحييهم ويدانيهم، ولا يداهنهم. وقد اتفق الناس على أن السفيه من المؤمنين إذا جفاك يجوز أن تقول له سلام عليك.

قلت: هذا القول أشبه بدلائل السنة. وقد بينا في سورة «مريم»[(1)] اختلاف العلماء في جواز التسليم على الكفار، فلا حاجة إلى دعوى النسخ؛ والله أعلم. وقد ذكر النضر بن شميل قال: حدثني الخليل قال: أتيت أبا ربيعة الأعرابي وكان من أعلم من رأيت، فإذا هو على سطح، فلما سلمنا ردّ علينا السلام وقال لنا: استووا. وبقينا متحيرين ولم ندر ما قال. فقال لنا أعرابي إلى جنبه: أمركم أن ترتفعوا. قال الخليل: هو من قول الله عز وجل: «ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ» فصعدنا إليه فقال: هل لكم في خبز فطير، ولبن هجير، وماء نمير[(2)]؟ فقلنا الساعة فارقناه. فقال سلاما. فلم ندر ما قال. قال فقال الأعرابي: إنه

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١١١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٢) الفطير: خلاف الخمير، وهو العجين الذي لم يختمر. والهجير: الفائق الفاضل. والنمير: الناجع في الري.

سالكم متاركة لا خير فيها ولا شر . فقال الخليل : هو من قول الله عز وجل : «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا» . قال ابن عطية : ورأيت فى بعض التواريخ أن إبراهيم بن المهدى — وكان من المائلين على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه — قال يوما بحضرة المأمون وعنده جماعة : كنت أرى علىّ بن أبى طالب فى النوم فكنت أقول له من أنت ؟ فكان يقول : علىّ بن أبى طالب . فكنت أجىء معه إلى قنطرة فيذهب فيتقدمنى فى عبورها . فكنت أقول : إنما تدعى هذا الأمر بامرأة ونحن أحق به منك . فما رأيت له فى الجواب بلاغة كما يذكر عنه . قال المأمون : وبماذا جاوبك ؟ قال : فكان يقول لى سلاما . قال الراوى : فكأن إبراهيم بن المهدىّ لا يحفظ الآية أو ذهبت عنه فى ذلك الوقت . فنبه المأمون على الآية من حضره وقال : هو والله يا عم علىّ بن أبى طالب ، وقد جاوبك بأبلغ جواب ، فخزى إبراهيم واستحيا . وكانت رؤيا لا محالة صحيحة .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ قال الزجاج : بات الرجل يبيت إذا أدركه الليل ، نام أو لم ينم . قال زهير(١) :

فبتنا قياما عند رأس جوادنا * يزاولنا عن نفسه ونزاوله

وأنشدوا فى صفة الأولياء :

امنع جفونك أن تذوق مناما * وأذر الدموع على الخدود سجاما
واعلم بأنك ميت ومحاسَبٌ * يا من على سخط الجليل أقاما
لله قوم أخلصوا فى حبه * فرضى بهم واختصهم خدّاما
قوم إذا جنّ الظلام عليهم * باتوا هنالك سجدا وقياما
خمص البطون من التعفف ضمّرا * لا يعرفون سوى الحلال طعاما

(١) فى نسخ الأصل : « قال امرؤ القيس » . وهو تحريف . والبيت من قصيدة لزهير مطلعها :
صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله * وعرى أفراس الصبا ورواحله

وقال ابن عباس : من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجدا وقائما .
وقال الكلبي : من أقام ركعتين بعد المغرب وأربعا بعد العشاء فقد بات ساجدا وقائما .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦)

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أى هم مع طاعتهم مشفقون خائفون وجلون من عذاب الله . ابن عباس : يقولون ذلك فى سجودهم وقيامهم . ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أى لازما دائما غير مفارق . ومنه سمى الغريم لملازمته . ويقال : فلان مغرم بكذا أى لازم له مولع به . وهذا معناه فى كلام العرب فيما ذكر ابن الأعرابى وابن عرفة وغيرهما . وقال الأعشى :

إن يعاقب يكن غراما وإن يعـ*ـط جزيلا فإنه لا يبالى

وقال الحسن : قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم . وقال الزجاج : الغرام أشد العذاب . وقال ابن زيد : الغرام الشر . وقال أبو عبيدة : الهلاك . والمعنى واحد . وقال محمد بن كعب : طالبهم الله تعالى بثمن النعيم فى الدنيا فلم يأتوا به ، فأغرمهم ثمنها بإدخالهم النار . ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أى بئس المستقر وبئس المقام . أى إنهم يقولون ذلك عن علم ، وإذا قالوه عن علم كانوا أعرف بعظم قدر ما يطلبون ، فيكون ذلك أقرب إلى النجح .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧)

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ﴾ اختلف المفسرون فى تأويل هذه الآية . فقال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى معناه أن من أنفق فى غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله عز وجل فهو الإقتار ، ومن أنفق فى طاعة الله تعالى فهو القوام .

وقال آبن عباس : من أنفق مائة ألف فى حق فليس بسرف، ومن أنفق درهما فى غير حقه فهو سرف، ومن منع من حق عليه فقد قتر . وقاله مجاهد وآبن زيد وغيرهما . وقال عون آبن عبد الله : الإسراف أن تنفق مال غيرك . قال آبن عطية : وهذا ونحوه غير مرتبط بالآية، والوجه أن يقال، إن النفقة فى معصية أمر قد حظرت الشريعة قليله وكثيره، وكذلك التعدى على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك، وإنما التأديب فى هذه الآية هو فى نفقة الطاعات فى المباحات، فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقا آخر أو عيالا ونحو هذا، وألا يضيق أيضا ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط فى الشح، والحسن فى ذلك هو القوام، أى العدل، والقوام فى كل واحد بحسب عياله وحاله، وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب، أو ضد هذه الخصال، وخير الأمور أوساطها؛ ولهذا ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق يتصدق بجميع ماله، لأن ذلك وسط بنسبة جلده وصبره فى الدين، ومنع غيره من ذلك . ونعم ما قال إبراهيم النخعى : هو الذى لا يجيع ولا يعرى ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف . وقال يزيد بن أبى حبيب : هم الذين لا يلبسون الثياب للجمال، ولا يأكلون طعاما للذة . وقال يزيد أيضا فى هذه الآية : أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثيابا للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويكنهم من الحر والبرد . وقال عبد الملك آبن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوجه آبنته فاطمة : ما نفقتك؟ فقال له عمر : الحسنة بين سيئتين، ثم تلا هذه الآية . وقال عمر بن الخطاب : كفى بالمرء سرفا ألا يشتهى شيئا إلا آشتراه فأكله . وفى سنن آبن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن من السرف أن تأكل كل ما آشتهيت" وقال أبو عبيدة : لم يزيدوا على المعروف ولم يبخلوا . كقوله تعالى : «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ» وقال الشاعر :

ولا تغل فى شىء من الأمر وآقتصد * كلا طرفى قصد الأمور ذميم

وقال آخـــر :

إذا المرءُ أعطى نفسَه كلَّ ما ٱشتهتْ * ولم يَنْهها تاقت إلى كل باطـــل

وساقت إليه الإثم والعـار بالذى * دعته إليه من حـلاوة عاجِلِ

وقال عمـر لابنه عاصم : يا بنىّ ، كل فى نصف بطنـك ؛ ولا تطرح ثوبا حتى تستخلقه ، ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله فى بطونهم وعلى ظهورهم . ولحاتم طىّ :

إذا أنت قد أعطيت بطنك سـؤله * وفرجك نالا منتهى الذم أجمــعا

﴿ وَلَمْ يَقْـتُرُوا ﴾ قرأ حمـزة والكسائىّ والأعمش وعاصم ويحيى بن وثاب على ٱختلاف عنهما « يَقْتُرُوا » بفتح الياء وضم التاء، وهى قراءة حسنة؛ من قتر يقترُ . وهذا القياس فى اللازم، مثل قعد يقعد . وقرأ أبو عمرو بن العـلاء وٱبن كثير بفتح الياء وكسر التاء، وهى لغة معروفة حسنة . وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بضم الياء وكسر التاء . قال الثعلبىّ : كلها لغات صحيحة . النحاس : وتعجب أبو حاتم من قراءة أهل المدينـة هذه ؛ لأن أهل المدينة عنده لا يقع فى قراءتهـم الشاذ ، إنما يقال : أقتر يقتر إذا ٱفتقر، كما قال عز وجل : « وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَـدْرُهُ » وتأول أبو حاتم لهم أن المسرف يفتقر سريعـا . وهذا تأويل بعيد ، ولكن التأويل لهم أن أبا عمر الجَرْمىّ حكى عن الأصمعىّ أنه يقال للإنسان إذا ضيق : قتر يقتر ويقتر، وأقتر يقتر . فعلى هـذا تصح القراءة ، وإن كان فتح الياء أصح وأقرب تناولا ، وأشهر وأعرف . وقرأ أبو عمرو والناس « قَوَامًا » بفتح القاف ؛ يعنى عدلا . وقرأ حسان ٱبن عبد الرحمن « قِوَامًا » بكسر القـاف؛ أى مبلغا وسـدادا وملاك حال . والقوام بكسر القـاف : ما يدوم عليه الأمر ويستقر . وهما لغتان بمعنى . و « قَوَامًا » خبر كان، وٱسمها مقدر فيها ؛ أى كان الإنفاق بين الإسراف والقـتر قواما ؛ قاله الفراء . وله قول آخر يجعل « بَيْنَ » ٱسم كان وينصبها ؛ لأن هذه الألفاظ كثير ٱستعمالها فتركت على حالها فى موضع الرفع . قال النحاس : ما أدرى ما وجه هذا؛ لأن « بينا » إذا كانت فى موضع رفع رفعت، كما يقال : بَيْنُ عينيه أحمرُ .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ إخراج لعباده المؤمنين من صفات الكفرة فى عبادتهم الأوثان، وقتلهم النفس بوأد البنات ، وغير ذلك من الظلم والاغتيال، والغارات ، ومن الزنى الذى كان عندهم مباحا . وقال من صرف هذه الآية عن ظاهرها من أهل المعانى : لا يليق بمن أضافهم الرحمن إليه إضافة الاختصاص ، وذكرهم ووصفهم من صفات المعرفة والتشريف وقوع هذه الأمور القبيحة منهم حتى يمدحوا بنفيها عنهم لأنهم أعلى وأشرف ، فقال : معناها لا يدعون الهوى إلها، ولا يذلون أنفسهم بالمعاصى فيكون قتلا لها . ومعنى ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى إلا بسكين الصبر وسيف المجاهدة فلا ينظرون إلى نساء ليست لهم بمحرم بشهوة فيكون سفاحا، بل بالضرورة فيكون كالنكاح . قال شيخنا أبو العباس : وهذا كلام رائق غير أنه عند السبر مائق . وهى نبعة باطنية ونزعة باطلية . وإنما صح تشريف عباد الله باختصاص الإضافة بعد أن تحلوا بتلك الصفات الحميدة وتخلوا عن نقائض ذلك من الأوصاف الذميمة، فبدأ فى صدر هذه الآيات بصفات التحلى تشريفا لهم، ثم أعقبها بصفات التخلى تقعيدا لها، والله أعلم .

قلت : ومما يدل على بطلان ما ادعاه هذا القائل من أن تلك الأمور ليست على ظاهرها ما روى مسلم من حديث عبد الله بن مسعود قال قلت : يارسول الله ، أى الذنب أكبر عند الله ؟ قال : " أن تدعو لله ندا وهو خلقك " قال : ثم أى ؟ قال : " أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك " قال : ثم أى ؟ قال : " أن تزانى حليلة جارك " فأنزل الله تعالى تصديقها : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » . والأثام فى كلام العرب العقاب، وبه قرأ ابن زيد وقتادة هذه الآية .

ومنه قول الشاعر :

جَزى اللهُ آبنَ عُروة حيثُ أمسى * عُقوقاً والعُقوقُ له أثامُ

أى جزاء وعقوبة . وقال عبد الله بن عمرو وعكرمة ومجاهد : إن « أَثَاماً » وادٍ فى جهنم جعله الله عقابا للكفرة . قال الشاعر :

لقيت المهالك فى حربنا * وبعد المهالك تلق أثاما

وقال السدى : جبل فيها . قال :

وكان مُقامُنا ندعو عليهم * بأبطَحِ ذى المجاز له أثامُ

وفى صحيح مسلم أيضا عن آبن عباس : أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن ، وهو يخبرنا بأن لما عملنا كفارة ، فنزلت « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » . ونزل « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ » الآية . وقد قيل : إن هذه الآية « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا » نزلت فى وحشيّ قاتل حمزة؛ قاله سعيد بن جبير وآبن عباس ، وسيأتى فى « الزمر » بيانه .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى بما يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان؛ على ما تقدم بيانه فى « الأنعام »(١) . ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ فيستحلون الفروج بغير نكاح ولا ملك يمين . ودلت هذه الآية على أنه ليس بعد الكفر أعظم من قتل النفس بغير الحق ثم الزنى ؛ ولهذا ثبت فى حد الزنا القتل لمن كان محصنا أو أقصى الجلد لمن كان غير محصن .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ ﴾ قرأ نافع وآبن عامر وحمزة والكسائى « يُضَاعَفْ . وَيَخْلُدْ » جزما . وقرأ آبن كثير « يُضَعَّفْ » بشد العين وطرح الألف، وبالجزم فى « يُضَعَّفْ . وَيَخْلُدْ » . وقرأ طلحة بن سليمان « نُضَعِّفْ » بضم النون وكسر العين المشدّدة . « الْعَذَابَ » نصب « وَيَخْلُدْ » جزم، وهى قراءة أبى جعفر وشيبة .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٣ طبعة أولى أو ثانية .

وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر « يُضَاعَفُ . وَيَخْلُدُ » بالرفع فيهما على العطف والاستئناف . وقرأ طلحة بن سليمان «وتَخْلُدْ» بالتاء على معنى مخاطبة الكافر . وروى عن أبى عمرو «ويُخْلَدْ» بضم الياء من تحت وفتح اللام . قال أبو على : وهى غلط من جهة الرواية . و« يُضَاعَفْ » بالجزم بدل من «يَلْقَ» الذى هو جزاء الشرط . قال سيبويه : مضاعفة العذاب لُقِيُّ الأثام . قال الشاعر :

مَتَى تأتِنا تُلْمِمْ بنـا فى دِيارنا * تَجِدْ حَطَبًا جَزْلًا ونارًا تأجَّجَـا

وقال آخـــر :

إنّ علىّ اللهَ أَنْ تُبايِعَـا[1] * تُؤْخَذَ كَرْهًا أو تَجِئَ طائعـا

وأما الرفع ففيه قولان : أحدهما أن تقطعه مما قبله . والآخر أن يكون محمـولا على المعنى؛ كأن قائلا قال : ما لُقِيّ الأثام ؟ فقيل له : يضاعف له العـذاب . و﴿ مُهَانًا ﴾ معناه ذليلا خاسئا مبعدا مطرودا .

قوله تعـالى : إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عامل فى الكافر والزانى . واختلفوا فى القاتل من المسلمين على ما تقدم بيانه فى « النساء »[2] ومضى فى « المـائدة »[3] القول فى جواز التراخى فى الاستثناء فى اليمين، وهو مذهب ابن عباس مستدلا بهذه الآية .

قوله تعـالى : ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قال النحاس : من أحسن ما قيل فيه أنه يكتب موضع كافرٍ مؤمنٌ، وموضع عاصٍ مطيع . وقال مجاهد والضحاك : أن يبدلهم

(١) الشاهد فى حمل تؤخذ على تبايع و إبداله منه . وأراد بقوله « الله » القسم، والمعنى إنــ ىل والله فلمـا حذف الجار نصب . (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٣٢ وما بعـدها طبعة أولى أو ثانيـة .

(٣) راجع جـ ٦ ص ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية .

الله من الشرك الإيمان وروى نحوه عن الحسن . قال الحسن : قوم يقولون التبديل فى الآخرة، وليس كذلك ، إنما التبديل فى الدنيا؛ يبدلهم الله إيمانا من الشرك، وإخلاصا من الشك، وإحصانا من الفجور . وقال الزجاج : ليس يجعل مكان السيئة الحسنة، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة . وروى أبو ذرّ عن النبي صلى الله عليه وسلم : "أن السيئات تبدّل بحسنات" . وروى معناه عن سلمان الفارسى وسعيد بن جبير وغيرهما . وقال أبو هريرة : ذلك فى الآخرة فيمن غلبت حسناته على سيئاته ، فيبدل الله السيئات حسنات . وفى الخبر : "لَيتمنينّ أقوام أنهم أكثروا من السيئات" فقيل : ومن هم ؟ قال : "الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات" . رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ ذكره الثعلبي والقشيري . وقيل : التبديل عبارة عن الغفران؛ أى يغفر الله لهم تلك السيئات لا أن يبدّلها حسنات .

قلت : فلا يبعد فى كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ : "أتبِع السيئةَ الحسنةَ تمحها وخالِق الناس بخلق حسن" . وفى صحيح مسلم عن أبى ذرّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنى لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة وآخر أهل النار خروجا منها رجلٌ يؤتى به يوم القيامة فيقال اعرِضوا عليه صِغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفِق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له فإن لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يا رب قد عملتُ أشياء لا أراها ها هنا" فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه . وقال أبو طويل (١) : يا رسول الله، أرأيت رجلا عمِل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئا، وهو فى ذلك لم يترك حاجّة ولا داجّة إلا اقتطعها فهل له من توبة ؟ قال : "هل أسلمت" قال : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنك عبد الله ورسوله . قال : "نعم .

---

(١) أبو طويل : كنية شطب الممدود ، رجل من كندة .

تفعل الخيرات وتترك السيئات يجعلهن الله كلهن خيرات ". قال : وغدراتي وفجراتي يا نبيّ الله قال : " نعم ". قال : الله أكبر! فما زال يكررها حتى توارى . ذكره الثعلبي . قال مبشر ابن عبيد، وكان عالما بالنحو والعربية : الحاجّة التي تقطع على الحاج إذا توجّهوا. والداجة التي تقطع عليهم إذا قفلوا . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ لا يقال : من قام فإنه يقوم ؛ فكيف قال من تاب فإنه يتوب ؟ فقال ابن عباس : المعنى من آمن من أهل مكة وهاجر ولم يكن قتل وزنى بل عمل صالحا وأدّى الفرائض فإنه يتوب إلى الله متابا ؛ أي فإني قدمتهم وفضلتهم على من قاتل النبيّ صلى الله عليه وسلم واستحل المحارم . وقال القفّال: يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين، ولهذا قال : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ » ثم عطف عليه من تاب من المسلمين وأتبع توبته عملا صالحا فله حكم التائبين أيضا. وقيل: أي من تاب بلسانه ولم يحقق ذلك بفعله ، فليست تلك التوبة نافعة ؛ بل من تاب وعمل صالحا فحقق توبته بالأعمال الصالحة فهو الذي تاب إلى الله متابا؛ أي تاب حق التوبة وهي النصوح، ولذا أكد بالمصدر . فـ « متابا » مصدر معناه التأكيد؛ كقوله : «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا » أي فإنه يتوب إلى الله حقا فيقبل الله توبته حقا .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِٱللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ أي لا يحضرون الكذب والباطل ولا يشاهدونه. والزور كل باطل زُوِّر وزُخرف، وأعظمه الشرك وتعظيم الأنداد. وبه فسر الضحاك وابن زيد وابن عباس. وفي رواية عن ابن عباس أنه أعياد المشركين. عكرمة : لعبٌ

كان فى الجاهلية يسمى بالزور. مجاهد: الغناء؛ وقاله محمد بن الحنفية أيضا. ابن جُريج: الكذب؛ وروى عن مجاهد. وقال علىّ بن أبى طلحة ومحمد بن علىّ: المعنى لا يشهدون بالزور؛ من الشهادة لا من المشاهدة. قال ابن العربى: أما القول بأنه الكذب فصحيح، لأن كل ذلك إلى الكذب يرجع. وأما من قال إنه لعبٌ كان فى الجاهلية فإنه يحرم ذلك إذا كان فيه قمار أو جهالة، أو أمر يعود إلى الكفر. وأما القول بأنه الغناء فليس ينتهى إلى هذا الحد.

قلت: من الغناء ما ينتهى سماعه إلى التحريم، وذلك كالأشعار التى توصف فيها الصور المستحسنات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها عن الاعتدال، أو يثير كامنا من حب اللهو؛ مثل قول بعضهم:

ذهبىّ اللون تحسب من * وجنتيه النار تُقتدَح

خوفونى من فضيحته * ليته وافى وأفتضحُ

لا سيما إذا اقترن بذلك شبّابات (١) وطارات مثل ما يفعل اليوم فى هذه الأزمان، على ما بيناه فى غير هذا الموضع. وأما من قال إنه شهادة الزور، وهى:

الثانيــة ــ فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخّم وجهه، ويحلق رأسه، ويطوف به فى السوق. وقال أكثر أهل العلم: ولا تقبل له شهادة أبدا وإن تاب وحسنت حاله فأمره إلى الله. وقد قيل: إنه إذا كان غير مبرِّز فحسنت حاله قبلت شهادته حسبما تقدّم بيانه فى سورة «الحج» (٢) فتأمله هناك.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ قد تقدّم الكلام فى اللغو (٣)، وهو كل سقط من قول أو فعل؛ فيدخل فيه الغناء واللهو وغير ذلك مما قاربه، ويدخل فيه سفه المشركين وأذاهم المؤمنين وذكر النساء وغير ذلك من المنكر. وقال مجاهد: إذا أوذوا صفحوا. وروى عنه إذا ذكر النكاح كفّوا عنه. وقال الحسن: اللغو المعاصى كلها. وهذا جامع. و «كراما» معناه معرضين منكرين لا يرضَونه، ولا يمالئون عليه، ولا يجالسون أهله.

(١) الشبابة (بالتشديد): نوع من المزمار (مولد). (٢) راجع ج ١٢ ص ٥٥ طبعة أولى أو ثانية.
(٣) راجع ج ٣ ص ٩٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

أي مروا مر الكرام الذين لا يدخلون في الباطل . يقال : تكرم فلان عما يشينه ؛ أي تنزه وأكرم نفسه عنه . وروى أن عبد الله بن مسعود سمع غناء فأسرع وذهب ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "لقد أصبح ابن أم عبد كريما" . وقيل : من المرور باللغو كريما أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣)

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي إذا قرئ عليهم القرآن ذكروا آخرتهم ومعادهم ولم يتغافلوا حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع . وقال : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا ﴾ وليس ثم خرور ؛ كما يقال : قعد يبكي وإن كان غير قاعد ؛ قاله الطبري واختاره ؛ قال ابن عطية : وهو أن يخروا صما وعميانا هي صفة الكفار ، وهي عبارة عن إعراضهم ؛ وقرن ذلك بقولك : قعد فلان يشتمني وقام فلان يبكي وأنت لم تقصد الإخبار بقعود ولا قيام ، وإنما هي توطئات في الكلام والعبارة . قال ابن عطية : فكأن المستمع للذكر قائم القناة قويم الأمر ، فإذا أعرض وضل كان ذلك خرورا ، وهو السقوط على غير نظام وترتيب ؛ وإن كان قد شبه به الذي يخر ساجدا لكن أصله على غير ترتيب . وقيل : أي إذا تليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم فخروا سجدا وبكيا ، ولم يخروا عليها صما وعميانا . وقال الفراء : أي لم يقعدوا على حالهم الأول كأن لم يسمعوا .

الثانيـة — قال بعضهم : إن من سمع رجلا يقرأ سجدة يسجد معه ؛ لأنه قد سمع آيات الله تتلى عليه . قال ابن العربي : وهذا لا يلزم إلا القارئ وحده ، وأما غيره فلا يلزمه ذلك إلا في مسئلة واحدة ؛ وهو أن الرجل إذا تلا القرآن وقرأ السجدة فإن كان الذي جلس معه جلس يسمعه فليسجد معه ، وإن لم يلتزم السماع فلا سجود عليه . وقد مضى هذا في « الأعراف »[1] .

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧)

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ قال الضحاك : أى مطيعين لك . وفيه جواز الدعاء بالولد وقد تقدم[1] . والذرية تكون واحدا وجمعا . فكونها للواحد قوله : « رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » « فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا » وكونها للجمع « ذُرِّيَّةً ضِعَافًا » وقد مضى فى « البقرة »[2] اشتقاقها مستوفى . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر والحسن « وَذُرِّيَّاتِنَا » وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وطلحة وعيسى « وذريتنا » بالإفراد . « قُرَّةَ أَعْيُنٍ » نصب على المفعول ، أى قرة أعين لنا . وهذا نحو قوله عليه الصلاة والسلام لأنس : " اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه " وقد تقدم بيانه فى « آل عمران »[3] و « مريم » . وذلك أن الإنسان إذا بورك له فى ماله وولده قرت عينه بأهله وعياله ، حتى إذا كانت عنده زوجة اجتمعت له فيها أمانيه من جمال وعفة ونظر وحوطة أو كانت عنده ذرية محافظون على الطاعة ، معاونون له على وظائف الدين والدنيا ، لم يلتفت إلى زوج أحد ولا إلى ولده ، فتسكن عينه عن الملاحظة ، ولا تمتد عينه إلى ما ترى ؛ فذلك حين قرة العين ، وسكون النفس . ووحد « قُرَّة » لأنه مصدر ؛ تقول : قرت عينك قُرّة . وقُرّة العين يحتمل أن تكون من القرار ، ويحتمل أن تكون من القُرّ وهو الأشهر . والقُرّ البرد ؛ لأن العرب تتأذى بالحر وتستريح إلى البرد . وأيضا فإن دمع السرور بارد ، ودمع الحزن سخن ، فمن هذا يقال : أقر الله عينك ، وأسخن الله عين العدو . وقال الشاعر :

فكم سَخِنتْ بالأمس عينٌ قريرةٌ * وقرّت عيونٌ دمعُها اليومَ ساكبُ

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٠٧ طبعة ثانية .
(٣) راجع جـ ٤ ص ٧٣ وجـ ١١ ص ٨٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أى قدوة يقتدى بنا فى الخير، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعى متقيا قدوة ؛ وهذا هو قصد الداعى . وفى الموطأ : " إنكم أيها الرهط أئمة يقتدى بكم " فكان ٱبن عمر يقول فى دعائه : اللهم ٱجعلنا من أئمة المتقين . وقال : « إماما » ولم يقل أئمة على الجمع ؛ لأن الإمام مصدر. يقال: أمّ القومَ فلانٌ إمَامًا ؛ مثل الصيام والقيام. وقال بعضهم: أراد أئمة، كما يقول القائل أميرنا هؤلاء، يعنى أمراءنا. وقال الشاعر:

يا عاذلاتى لا تَزِدْنَ مَلامَتى * إنّ العـواذل لَسْنَ لِى بأمير

أى أمراء . وكان القشيرى أبو القاسم شيخ الصوفية يقول : الإمامة بالدعاء لا بالدعوى ، يعنى بتوفيق الله وتيسيره ومنته لا بما يدّعيه كل أحد لنفسه . وقال إبراهيم النَّخَعىّ : لم يطلبوا الرياسة بل بأن يكونوا قدوة فى الدين . وقال ابن عباس : ٱجعلنا أئمة هدى ، كما قال تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » وقال مكحول : ٱجعلنا أئمة فى التقوى يقتدى بنا المتقون . وقيل : هذا من المقلوب؛ مجازه : وٱجعل المتقين لنا إماما ؛ وقاله مجاهد . والقول الأوّل أظهر وإليه يرجع قول ابن عباس ومكحول، ويكون فيه دليل على أن طلب الرياسة فى الدين ندب . وإمام واحد يدل على جمع؛ لأنه مصدر كالقيام . قال الأخفش : الإمام جمع آمّ من أمّ يؤمّ جمع على فِعال، نحو صاحب وصِحاب، وقائم وقِيام .

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ « أولئك » خبر و « عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ » فى قول الزجاج على ما تقدّم ، وهو أحسن ما قيل فيه . وما تخلل بين المبتدإ وخبره أوصافهم من التحلى والتخلى؛ وهى إحدى عشرة: التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والنزاهة عن الشرك، والزنى والقتل، والتوبة وتجنب الكذب، والعفو عن المسىء، وقبول المواعظ، والابتهال إلى الله. و «الغرفة» الدرجة الرفيعة وهى أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا، حكاه ٱبن شجرة . وقال الضحاك : الغرفة الجنة . « بِمَا صَبَرُوا » أى بصبرهم على أمر ربهم ، وطاعة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام . وقال محمد ٱبن على بن الحسين : « بِمَا صَبَرُوا » على الفقر والفاقة فى الدنيا . وقال الضحاك : « بِمَا صَبَرُوا » عن الشهوات . ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ قرأ أبو بكر والمفضل والأعمش ويحيى

وحمـزة والكسائى وخلف « وَيَلْقَوْنَ » مخففة ، وآختاره الفـراء ؛ قال لأن العرب تقول : فلان يُتَلَقَّى بالسلام وبالتحية وبالخير (بالتاء)، وقلما يقولون فلان يُلَقَّى السلامة . وقرأ الباقون « وَيُلَقَّوْنَ » وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعـالى : « وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا » . قال أبو جعفر النحاس : وما ذهب إليه الفراء وآختاره غلط؛ لأنه يزعم أنها لو كانت « يُلَقَّوْنَ » كانت فى العربية بتحية وسـلام ، وقال كما يقال : فلان يُتَلَقَّى بالسلام وبالخير؛ فمن عجيب ما فى هـذا الباب أنه قال يتلقى والآية « يُلَقَّوْنَ » والفرق بينهما بيِّن؛ لأنه يقـال فلان يتلقى بالخير ولا يجوز حذف (الباء)، فكيف يشبه هـذا ذاك ! وأعجب من هـذا أن فى القرآن « وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا » ولا يجوز أن يقرأ بغيره . وهذا يبين أن الأولى على خلاف ما قال . والتحية من الله والسلام من الملائكة . وقيل : التحية البقاء الدائم والملك العظيم ؛ والأظهر أنهما بمعنى واحد، وأنهما من قبل الله تعالى؛ دليله قوله تعالى: « تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ » وسيأتى . ﴿ خَالِدِينَ ﴾ نصب على الحال ﴿ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ هذه آية مشكلة تعلقت بها الملحدة . يقال : ما عبأت بفلان أى ما باليت به ؛ أى ما كان له عنـدى وزن ولا قدر . وأصل يعبأ من العِبء وهو الثقل . وقول الشاعر (1) :

كأنَّ بصدره وبجانبيه ٭ عَبِيرًا باتَ يَعْبَؤُهُ عَرُوسُ

أى يجعـل بعضه على بعض . فالعِبء الحمـل الثقيل ، والجمع أعبـاء . والعبء المصدر . وما آستفهامية ؛ ظهر فى أثناء كلام الزجاج ، وصرح به الفراء . وليس يبعد أن تكون نافية؛ لأنك إذا حكمت بأنها آستفهام فهو نفى خرج مخرج الآستفهام ؛ كما قال تعالى : « هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ » قال ابن الشجرى : وحقيقة القول عندى أن موضع « ما » نصب؛ والتقدير : أىّ عبء يعبأ بكم ؛ أى أىّ مبالاة يبـالى ربى بكم لولا دعاؤكم؛ أى لولا دعاؤه إياكم لتعبدوه، فالمصدر الذى هو الدعاء على هـذا القول مضاف إلى مفعوله ؛ وهـو آختيار

(1) هو أبو زبيد يصف أسدا، كما فى اللسان مادة « عبأ » . ورواه هكذا :
كأنَّ بنحره وبمنكبيه ٭ عبيرا بات يعبؤه عروس

القراء . وفاعله محذوف وجواب لولا محذوف كما حذف فى قوله : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ » تقديره : لم يعبأ بكم . ودليل هـذا القول قوله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » فالخطاب لجميع الناس؛ فكأنه قال لقريش منهم : أى ما يبالى الله بكم لولا عبادتكم إياه أن لو كانت؛ وذلك الذى يعبأ بالبشر من أجله . ويؤيد هـذا قراءة ابن الزبير وغيره « فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ » فالخطاب بما يعبأ لجميع الناس، ثم يقول لقريش : فأنتم قد كذبتم ولم تعبدوه فسوف يكون التكذيب هو سبب العـذاب لزاما . وقال النقاش وغيره : المعنى ؛ لولا استغاثتكم إليه فى الشدائد ونحو ذلك . بيانه : «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ » ونحو هـذا . وقيل : « مَا يَعْبَأُ بِكُمْ » أى بمغفرة ذنوبكم ولا هو عنـده عظيم « لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ » معه الآلهة والشركاء . بيانه : « مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ » ؛ قاله الضحاك . وقال الوليـد بن أبى الوليد : بلغنى فيهـا أى ما خلقتـكم ولى حاجة إليكم إلا تسألونى فأغفر لكم وأعطيكم . وروى وهب بن مُنَبِّه أنه كان فى التـوراة « يا بن آدم وعزتى ما خلقتك لأربح عليك إنمـا خلقتك لتربح علىّ فاتخذنى بدلا من كل شىء فأنا خير لك من كل شىء » . قال ابن جنى قـرأ ابن الزبير وابن عباس « فَقَـدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ » . قال الزهراوى والنحاس : وهى قراءة ابن مسعود وهى على التفسير؛ للتاء والميم فى « كذبتم » . وذهب القتبى والفارسى إلى أن الدعاء مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف؛ الأصـل لولا دعاؤكم آلهة من دونه؛ وجواب « لولا » محذوف تقديره فى هذا الوجه : لم يعذبكم . ونظير قوله : لولا دعاؤكم آلهة قوله : «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ » . ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أى كذبتم بمـا دعيتم إليه ؛ هذا على القول الأول ؛ وكذبتم بتوحيد الله على الثانى . ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أى يكون تكذيبكم ملازما لكم . والمعنى: فسوف يكون جزاء التكذيب كما قال: « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا » أى جزاء ما عملوا وقوله : « فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » أى جزاء ما كنتم تكفرون . وحسن إضمار التكذيب لتقدّم ذكر فعـله ؛ لأنك إذا ذكرت الفعل دل بلفظه على مصدره، كما قال : « وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » أى لكان الإيمان . وقوله : «وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ» أى يرضى الشكر. ومثله كثير. وجمهور المفسرين

على أن المراد باللزام هنا ما نزل بهم يوم بدر، وهو قول عبد الله بن مسعود وأبىّ بن كعب وأبى مالك ومجاهد ومقاتل وغيرهم. وفى صحيح مسلم عن عبد الله: وقد مضت البطشة والدخان والزام. وسيأتى مبينا فى سورة «الدخان» إن شاء الله تعالى. وقالت فرقة: هو توعد بعذاب الآخرة. وعن ابن مسعود أيضا: اللزام التكذيب نفسه؛ أى لا يُعطَون التوبة منه؛ ذكره الزهراوى؛ فدخل فى هذا يوم بدر وغيره من العذاب الذى يُلزَمونه. وقال أبو عبيدة: لزاما فيصلا [أى] فسوف يكون فيصلا بينكم وبين المؤمنين. والجمهور من القراء على كسر اللام؛ وأنشد أبو عبيدة لصخر:

فإمّا يَنْجُوَا من خَسْفِ أرضٍ * فقــد لَقِيا حُتُوفَهما لِزاما

ولزاما وملازمة واحد. وقال الطبرى: «لزاما» يعنى عذابا دائما لازما، وهلاكا مفنيا يلحق بعضكم ببعض؛ كقول أبى ذؤيب:

ففـاجأه بعـاديةٍ(١) لـــزامٍ * كما يَتَفَجَّرُ الحوضُ اللَّقيفُ

يعنى باللزام الذى يتبع بعضه بعضا، وباللقيف المتساقط الحجارة المتهـدم. النحاس: وحكى أبو حاتم عن أبى زيد قال سمعت قَعْنَبا أبا السَّمَّال يقرأ «لَزَامًا» بفتح اللام. قال أبو جعفر: يكون مصدر لَزِم والكسر أولى، يكون مثـل قِتال ومقاتلة، كما أجمعوا على الكسر فى قوله عز وجل: «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى». قال غيره: اللِّزام بالكسر مصدر لازم لِزاما مثل خاصم خصاما، واللَّزام بالفتح مصدر لَزِم مثل سَلِم سلاما أى سلامة؛ فاللَّزام بالفتح اللّزوم، واللِّزام الملازمة، والمصدر فى القراءتين وقع موقع اسم الفاعل، فاللِّزام وقع موقع ملازِم، واللَّزام وقع موقع لازِم. كما قال تعـالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا» أى غائرا. قال النحاس: وللفـراء قول فى اسم يكون؛ قال: يكون مجهولا وهـذا غلط؛ لأن المجهول لا يكون خبره إلا جملة، كما قال تعالى: «إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ» وكما حكى النحويون كان زيد منطلق ويكون المبتـدأ وخبره خبر المجهول، والتقـدير: كان الحديث؛ فأما أن يقـال كان منطلقا، ويكون فى كان مجهول فلا يجوز عنـد أحد علمناه. وبالله التوفيق وهو المستعان والحمد لله رب العالمين.

---

(١) العادية: القوم يعدون على أرجلهم؛ أى فحملتهم لزام كأنهـم لزموه لا يفارقون ما هم فيه. وشبه حملتهم بهدم الحوض إذا تهدم. ويروى: * فلم ير غير عادية لزاما *

سورة الشعراء

هي مكية في قول الجمهور . وقال مقاتل : منها مدنيّ ؛ الآية التي يذكر فيها الشعراء ، وقوله : « أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » . وقال ابن عباس وقتادة : مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله : « وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ » إلى آخرها . وهي مائتان وسبع وعشرون آية . وفي رواية : ست وعشرون . وعن ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أعطيت السورة التي تذكر فيها البقرة من الذكر الأول وأعطيت طه وطسم من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصّل نافلة " . وعن البراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المبين مكان الإنجيل وأعطاني الطواسين مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصّل ما قرأهن نبيّ قبلي " .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿طسٓمٓ﴾ قرأ الأعمش ويحيى وأبو بكر والمفضل وحمزة والكسائي وخلف بإمالة الطاء مشبعا في هـذه السورة وفي أختيها . وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة والزهري بين اللفظين؛ وآختاره أبو عبيـد وأبو حاتم . وقرأ البـاقون بالفتح مشبعا . قال الثعلبي : وهي كلها لغـات فصيحة . وقد مضى في « طـه »(١) قول النحاس في هذا . قال النحاس : وقرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم والكسائي « طسٓمٓ » بإدغام النون في الميم ، والفراء يقول بإخفاء النون . وقرأ الأعمش وحمزة « طسين ميم » بإظهار النون . قال النحاس : النون الساكنة والتنوين أربعة أقسام عند سيبويه : يبيّنان عند حروف الحلق ، ويدغمان عند الراء واللام والميم والواو والياء، ويقلبان ميما عند الباء ويكونان من الخياشيم ؛ أي لا يبينان؛ فعلى هذه الأربعة الأقسام التي نصها سيبويه لا تجوز هذه القراءة ؛ لأنه ليس هاهنا حرف من حروف الحلق فتبيّن النون عنده، ولكن في ذلك وُجَيْـه : وهو أن حروف المعجم حكمها أن يوقف عليها ، فإذا وقف عليهـا تبينت النـون . قال الثعلبي : الإدغام آختيار أبي عبيد وأبي حاتم قياسا على كل القرآن، وإنمـا أظهرها أولئك للتبيين والتمكين، وأدغمها هؤلاء لمجاورتها حروف الفم . قال النحاس : وحكى أبو إسحـق في كتابه « فيما يجرى وفيما لا يجرى » أنه يجـوز أن يقال « طسينَ ميمُ » بفتح النـون وضم الميم، كما يقال هـذا معدى كربُ . وقال أبو حاتم : قرأ خالد « طسينَ ميمُ » . آبن عباس : «طسم» قَسَم وهو آسم من أسماء الله تعالى ، والمقسم عليه « إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً » . وقال قتادة: آسم من أسماء القرآن أقسم الله به . مجاهـد : هو آسم السورة؛ ويحسن افتتاح السورة . الربيع : حساب مدّة قوم . وقيل : قارعة تحل بقوم . « طسٓمٓ » و « طسٓ » واحد . قال(٢) :

وَفَاؤُكُمَا كَالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُـهْ * بأن تُسعِدَا والدَّمعُ أشْفاهُ ساجِمُهْ

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٦٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) هو المتنبي ؛ والبيت مطلع قصيدة له مدح بها أبا الحسن علي بن عبد الله العدوي . وأشجاه : أحزنه . والطاسم : الدارس . والساجم : السائل . والمعنى : طلب وفاءهما بالإسعاد وهو الإعانة على البكاء والموافقة ؛ ولذلك قال : (والدمع أشفاه ساجمه) والمعنى ابكيا معي بدمع في غاية السجوم فهو أشفى للوجد ؛ فإن الربع في غاية الطسوم وهو أشجى للحب . وأراد بالوفاء هنا البكاء لأنهما عاهداه على الإسعاد . « شرح التبيان جـ ٢ للعكبري » .

وقال القرظى : أقسم الله بطَوْله وسنائه ومُلكه . وقال عبد الله بن محمد بن عَقيل: الطاء طورسيناء والسين إسكندرية والميم مكة . وقال جعفر بن محمد بن علىّ : الطاء شجرة طُوبى، والسين سدرة المنتهى ، والميم محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الطاء من الطاهر والسين من القدوس — وقيل من السميع وقيل من السلام — والميم من المجيد . وقيل : من الرحيم . وقيل : من الملك . وقد مضى هذا المعنى فى أول سورة « البقرة »(1) . والطَّواسيمُ والطَّواسينُ سور فى القرآن جُمعت على غير قياس . وأنشد أبو عبيدة :

و بالطَّواسيم التى قد ثُلِّثت * و بالحوامِيم التى قد سُبِّعتْ

قال الجوهرى : والصواب أن تجمع بذوات وتضاف إلى واحد ، فيقال : ذواتُ طسم وذواتُ حم .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ رفع على إضمار مبتدإ أى هذه « تلك آيات الكتاب المبين » التى كنتم وعدتم بها ؛ لأنهم قد وعدوا فى التوراة والإنجيل بإنزال القرآن . وقيل : « تلك » بمعنى هذه . ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ ﴾ أى قاتل نفسك ومهلكها . وقد مضى فى « الكهف »(2) بيانه . ﴿ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى لتركهم الإيمان . قال الفراء : « أنْ » فى موضع نصب ؛ لأنها جزاء . قال النحاس : وإنما يقال : بإن مكسورة لأنها جزاء، كذا المتعارف . والقول فى هذا ما قاله أبو إسحق فى كتابه فى القرآن ؛ قال : « أنْ » فى موضع نصب مفعول من أجله ؛ والمعنى لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان . ﴿ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً ﴾ أى معجزة ظاهرة وقدرة باهرة فتصير معارفهم ضرورية ؛ ولكن سبق القضاء بأن تكون المعارف نظرية . وقال أبو حمزة الثمالىّ فى هذه الآية : صوت يسمع من السماء فى النصف من شهر رمضان ؛ تخرج به العواتق من البيوت وتضج له الأرض . وهذا فيه بعد ؛ لأن المراد قريش لا غيرهم . ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ ﴾ أى فتظل أعناقهم ﴿ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ قال مجاهد : أعناقهم كبراؤهم ، وقال النحاس : ومعروف فى اللغة ؛ يقال : جاءنى عُنُق من الناس أى رؤساء منهم . أبو زيد والأخفش : «أَعْنَاقُهُمْ» جماعاتهم ؛

(1) راجع جـ ١ ص ١٥٤ طبعة ثانية أو ثالثة . (2) راجع جـ ١٠ ص ٣٤٨ طبعة أولى أو ثانية .

يقال : جاءنى عُنُق من الناس أى جماعة . وقيل : إنما أراد أصحاب الأعناق ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . قتادة : المعنى لو شاء لأنزل آية يذلون بها فلا يلوى أحد منهم عنقه إلى معصية . ابن عباس : نزلت فينا وفى بنى أمية ستكون لنا عليهم الدولة فتذل لنا أعناقهم بعد معاوية؛ ذكره الثعلبى والغزنوى . وخاضعين وخاضعة هنا سواء؛ قاله عيسى بن عمر واختاره المبرد . والمعنى : إنهم إذا ذلت رقابهم ذلوا ؛ فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها . ويسوغ فى كلام العرب أن تترك الخبر عن الأول وتخبر عن الثانى؛ قال الراجز :

طولُ الليالى أسرعتْ فى نَقْضى * طَوَيْنَ طُولِى وطَوَيْنَ عَرْضِى

فأخبر عن الليالى وترك الطول . وقال جرير[1] :

أَرَى مَرَّ السِّنينِ أَخَذْنَ مِنِّى * كما أَخَذَ السِّرارُ من الهلالِ

وإنما أجاز ذلك لأنه لو أسقط مر وطول من الكلام لم يفسد معناه، فكذلك رد الفعل إلى الكناية فى قوله : « فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ » لأنه لو أسقط الأعناق لما فسد الكلام، ولأدى ما بقى من الكلام عنه حتى يقول : فظلوا لها خاضعين . وعلى هذا اعتمد الفراء وأبو عبيدة . والكسائى يذهب إلى أن المعنى خاضعيها هم، وهذا خطأ عند البصريين والفراء . ومثل هذا الحذف لا يقع فى شىء من الكلام؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ تقدم فى « الأنبياء »[2] . ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا ﴾ أى أعرضوا ومن أعرض عن شىء ولم يقبله فهو تكذيب له . ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وعيد لهم ؛ أى فسوف يأتيهم عاقبة ما كذبوا والذى استهزءوا به .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ نبه على عظمته وقدرته وأنهم لو رأوا بقلوبهم ونظروا ببصائرهم لعلموا أنه الذى يستحق أن يعبد ؛ إذ هو القادر على كل شىء . والزوج هو اللون ؛ قاله الفراء . و « كريم » حسن شريف ، وأصل

(١) تقدم البيت فى جـ ٧ ص ٢٦٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٦٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الكرم في اللغة الشرف والفضل، فنخلة كريمة أي فاضلة كثيرة الثمر(١)، ورجل كريم شريف فاضل صفوح . ونبتت الأرض وأنبتت بمعنى . وقد تقدّم في سورة « البقرة » . والله سبحانه المخرج والمنبت له . وروى عن الشعبي أنه قال : الناس من نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم ، ومن صار إلى النار فهو لئيم . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أي فيما ذكر من الإنبات في الأرض لدلالته على أن الله قادر، لا يعجزه شيء . ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي مصدقين لما سبق من علمي فيهم . و « كان » هنا صلة في قول سيبويه ؛ تقديره : وما أكثرهم مؤمنين . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ يريد المنيع المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه .

قوله تعالى : وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى ﴾ « إذ » في موضع نصب؛ المعنى : واتل عليهم « إِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى » ويدل على هذا أنّ بعده « واتل عليهم نبأ إبراهيم » ذكره النحاس . وقيل : المعنى؛ واذكر إذ نادى كما صرح به في قوله : « وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ » وقوله : « وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ » وقوله : « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ » . وقيل : المعنى؛ « وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى » كان كذا وكذا . والنداء الدعاء بيا فلان ، أي قال ربك يا موسى ﴿ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ثم أخبر من هم فقال : ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ فـ « قوم » بدل ؛ ومعنى « أَلَا يَتَّقُونَ » ألا يخافون عقاب الله ؟ وقيل هذا من الإيماء إلى الشيء لأنه أمره أن يأتي القوم الظالمين، ودل قوله : « يتقون » على أنهم لا يتقون، وعلى أنه أمرهم بالتقوى . وقيل : المعنى؛ قل لهم « أَلَا تَتَّقُونَ » وجاء بالياء لأنهم غيب وقت الخطاب، ولو جاء بالتاء

---

(١) في نسخة : كثيرة التمر .

لجاز . ومثله « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ » بالتاء والياء . وقد قرأ عبيد بن عمير وأبو حازم « أَلَا تَتَّقُونَ » بتاءين أي قل لهم « أَلَا تَتَّقُونَ » . ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ أي قال موسى ﴿ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ أي في الرسالة والنبوة . ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ لتكذيبهم إياي . وقراءة العامة « وَيَضِيقُ » « وَلَا يَنْطَلِقُ » بالرفع على الاستئناف . وقرأ يعقوب وعيسى بن عمر وأبو حيوة « وَيَضِيقَ ــ وَلَا يَنْطَلِقَ » بالنصب فيهما ردًا على قوله : « أَنْ يُكَذِّبُونِ » قال الكسائي : القراءة بالرفع؛ يعني في « يَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي » يعني نسقا على « إِنِّي أَخَافُ » . قال الفراء : ويقرأ بالنصب . حكي ذلك عن الأعرج وطلحة وعيسى ابن عمر وكلاهما له وجه . قال النحاس : الوجه الرفع؛ لأن النصب عطف على « يُكَذِّبُونِ » وهذا بعيد يدل على ذلك قوله عز وجل : « وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي » فهذا يدل على أن هذه كذا . ومعنى « وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي » في المحاجة على ما أحب؛ وكان في لسانه عُقْدة على ما تقدم في «طه»(١) . ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ أرسل إليه جبريل بالوحي ، واجعله رسولا معي ليؤازرني ويظاهرني ويعاونني . ولم يذكر هنا ليعينني ؛ لأن المعنى كان معلوما، وقد صرح به في سورة « طه » : « وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا » وفي القصص : « أَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي » وكأن موسى أُذن له في هذا السؤال، ولم يكن ذلك استعفاء من الرسالة بل طلب من يعينه . ففي هذا دليل على أن من لا يستقل بأمر ، ويخاف من نفسه تقصيرا ، أن يأخذ من يستعين به عليه ، ولا يلحقه في ذلك لوم . ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ الذنب هنا قتل القبطي واسمه فاثور على ما يأتي في «القصص» بيانه ، وقد مضى في « طه » ذكره . وخاف موسى أن يقتلوه به ، ودل على أن الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله وأن لا فاعل إلا هو ؛ إذ قد يسلط من شاء على من شاء . ﴿ قَالَ كَلَّا ﴾ أي كلا لن يقتلوك . فهو ردع وزجر عن هذا الظن ، وأمر بالثقة بالله تعالى؛ أي ثق بالله وانزجر عن خوفك منهم؛ فإنهم لا يقدرون على قتلك ،

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٢ طبعة أولى أو ثانية .

ولا يقوون عليه . ﴿ فَاذْهَبَا ﴾ أى أنت وأخوك فقد جعلته رسولا معك . ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أى ببراهيننا وبالمعجزات . وقيل : أى مع آياتنا . ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ يريد نفسه سبحانه وتعالى . ﴿ مُسْتَمِعُونَ ﴾ أى سامعون ما يقولون وما يجاوبون . وإنما أراد بذلك تقوية قلبيهما وأنه يعينهما ويحفظهما . والاستماع إنما يكون بالإصغاء ، ولا يوصف البارى سبحانه بذلك . وقد وصف سبحانه نفسه بأنه السميع البصير . وقال فى «طه» : « أَسْمَعُ وَأَرَى » وقال : «مَعَكُمْ» فأجراهما مجرى الجمع ؛ لأن الاثنين جماعة . ويجوز أن يكون لهما ولمن أرسلا إليه . ويجوز أن يكون لجميع بنى إسرائيل .

قوله تعالى : فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال أبو عبيدة : رسول بمعنى رسالة والتقدير على هذا ؛ إنا ذوو رسالة رب العالمين . قال الهُذَلى :

أَلِكْنِي إليها وخَيْرُ الرَّسُو ... لِ أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الخَبَر

ألكنى إليها معناه أرسلنى . وقال آخر[1] :

لقد كَذَبَ الواشون ما بُحْتُ عندهمْ ... بِسِرٍّ ولا أرسلتُهم برسولِ[1]

---

(١) هو كثير . ويروى أيضا فى اللسان مادة « رسل » :

* بليلى ولا أرسلتهم برسيل *

آخـــر[(1)]: ألَا أَبْلغْ بنى عمرو رسولًا * بأنى عن فُتَاحَتِكُمْ غنىُّ[(1)]

وقال العباس بن مرداس :

أَلَا مَن مُبلِـغٌ عنّى خُفَافًا * رسولًا بيتُ أهلك مُنْتَهاها

يعنى رســالة فلذلك أنثها . قال أبو عبيد : ويجوز أن يكون الرسول فى معنى الاثنين والجمع ؛ فتقول العرب : هــذا رسولى ووكيلى ، وهــذان رسولى ووكيلى ، وهــؤلاء رسولى ووكيلى . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ . وقيل : معناه إن كل واحد منا رسول رب العالمين . ﴿ أَنْ أَرْسِـلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى أطلقهم وخلّ سبيلهم حتى يسيروا معنــا إلى فلسطين ولا تستعبدهم ؛ وكان فرعون آستعبدهم أربعمائة ســنة ، وكانوا فى ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفا . فآنطلقا إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة فى الدخول عليه ، فدخل البوّاب على فرعون فقال : هاهنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين . فقال فرعون : آيذن له لعلنا نضحك منه ؛ فدخلا عليــه وأديا الرسالة . وروى وهب وغيره : أنهما لمــا دخلا على فرعون وجداه وقد أخرج سباعا من أسد ونمور وفهودٍ يتفرج عليها ، فخاف سواسها أن تبطش بموسى وهرون ، فأسرعوا إليها ، وأسرعت السباع إلى موسى وهرون ، فأقبلت تلحس أقدامهما ، وتبصبص إليهما بأذنابها ، وتلصق خدودها بفخذيهما ، فعجب فرعون من ذلك فقال : ما أنتما ؟ قالا : « إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » فعرف موسى لأنه نشأ فى بيته ؛ فـ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ على جهة المنّ عليــه والاحتقار . أى ربيناك صغيرا ولم نقتلك من جمــلة من قتلنا ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ فمتى كان هذا الذى تدعيه . ثم قرره بقتل القبطى بقوله : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ والفَعْلة بفتح الفاء المرة من الفعل . وقرأ الشعبى « فِعلتك » بكسر الفاء والفتح أولى ؛ لأنها المرة الواحدة ، والكسر بمعنى الهيئة والحال ، أى فعلتك التى تعرف فكيف تدعى مع علمنا أحوالك بأن الله أرسلك . وقال الشاعر :

كأنّ مِشيتَها مِن بيت جارتِها * مرُّ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَــلُ

---

(١) هو الأسعر الجعفىّ . عن فتاحتكم : أى عن حكمكم .

ويقال : كان ذلك أيام الرِّدة والرَّدة . ﴿ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ قال الضحاك : أى فى قتلك القبطى إذ هو نفس لا يحل قتله . وقيل : أى بنعمتى التى كانت لنا عليك من التربية والإحسان إليك ؛ قاله ابن زيد . الحسن : « مِنَ الكَافِرِين » فى أنى إلهك . السدى : « مِنَ الكَافِرِين » بالله لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذى تعيبه . وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطى وبين رجوعه نبيا أحد عشر عاما غير أشهر . ف ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا ﴾ أى فعلت تلك الفعلة يريد قتل القبطى ﴿ وَأَنَا ﴾ إذ ذاك ﴿ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أى من الجاهلين ؛ فنفى عن نفسه الكفر ، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل . وكذا قال مجاهد « مِنَ الضَّالِّينَ » من الجاهلين . ابن زيد : من الجاهلين بأن الوكزة تبلغ القتل . وفى مصحف عبد الله « مِنَ الجَاهِلِين » ويقال لمن جهل شيئا ضل عنه . وقيل : « وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ » من الناسين ؛ قاله أبو عبيدة . وقيل : « وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ » عن النبوة ولم يأتنى عن الله فيه شىء ، فليس علىّ فيما فعلته فى تلك الحالة توبيخ . وبيّن بهذا أن التربية فيهم لا تنافى النبوة والحلم على الناس ، وأن القتل خطأ أو فى وقت لم يكن فيه شرع لا ينافى النبوة .

قوله تعالى : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ أى خرجت من بينكم إلى مَدْين كما فى سورة « القصص » : « فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » وذلك حين القتل . ﴿ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا ﴾ يعنى النبوة ؛ عن السدى وغيره . الزجاج : تعليم التوراة التى فيها حكم الله . وقيل علما وفهما . ﴿ وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾ اختلف الناس فى معنى هذا الكلام ؛ فقال السدى والطبرى والفراء : هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة ؛ كأنه يقول : نعم ! وتربيتك نعمة علىّ من حيث عبّدت غيرى وتركتنى ؛ ولكن لا يدفع ذلك رسالتى . وقيل : هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار ؛ أى أتمن علىّ بأن ربيتنى وليدا وأنت قد استعبدت بنى إسرائيل وقتلتهم ؟ ! أى ليست بنعمة ؛ لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومى ؛ فكيف تذكر إحسانك إلىّ على

الخصوص ؟ ! قال معناه قتادة وغيره . وقيل : فيه تقدير ٱستفهام ؛ أي أو تلك نعمة ؟ قاله الأخفش والفراء أيضا وأنكره النحاس وغيره . قال النحاس : وهذا لا يجوز لأن ألف الاستفهام تحدث معنى، وحذفها محال إلا أن يكون فى الكلام أم ؛ كما قال الشاعر :

* تَرُوحُ من الحيّ أم تَبْتَكِر *

ولا أعلم بين النحويين ٱختلافا فى هذا إلا شيئا قاله الفراء . قال : يجوز حذف ألف الاستفهام فى أفعال الشك ؛ وحكى تُرى زيدا منطلقا ؟ بمعنى أتُرى . وكان على بن سليمان يقول فى هذا : إنما أخذه من ألفاظ العامة . قال الثعلبي : قال الفراء ومن قال إنها إنكار قال معناه أو تلك نعمة؟ على طريق الاستفهام؛ كقوله : «هَذَا رَبِّى» «فَهُمُ الخَالِدُونَ» . قال الشاعر[1] :

رَفَوْنِى وقالوا يا خُوَيلدُ لا تُرَعْ * فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

وأنشد الغزنوى شاهدا على ترك الألف قولهم :

لم أنس يوم الرحيل وقفتَها * وجفنُها من دموعها شَرِقُ

وقولَها والركابُ واقفةٌ * تَركتنى هكذا وتَنطلقُ

قلت : ففى هذا حذف ألف الاستفهام مع عدم أم خلاف قول النحاس . وقال الضحاك : إن الكلام خرج مخرج التبكيت والتبكيت يكون بٱستفهام وبغير ٱستفهام ؛ والمعنى : لو لم تقتل بنى إسرائيل لربانى أبواى؛ فأى نعمة لك علىّ! فأنت تمنّ علىّ بما لا يجب أن تمنّ به . وقيل : معناه كيف تمنّ بالتربية وقد أهنت قومى ؟ ومن أهين قومه ذل . و «أَنْ عَبَّدْتَ» فى موضع رفع على البدل من « نِعمة » ويجوز أن تكون فى موضع نصب بمعنى : لأن عبدت بنى إسرائيل؛ أى ٱتخذتهم عبيدا . يقال : عبدته وأعبدته بمعنى؛ قاله الفراء وأنشد :

عَلَامَ يُعْبِدُنِى قومى وقد كَثُرَت * فيهم أَباعِرُ ما شاءوا وعِبْدانُ

(١) هو أبو خراش الهذلى ؛ وقد تقدّم شرح البيت فى جـ ١١ ص ٢٨٧ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا
تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ
ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ
إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ
ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾
وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا
لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾
قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ
عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ
هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾
فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم
مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾
فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى

عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ لما غلب موسى فرعون بالحجة ولم يجد اللعين من تقريره على التربية وغير ذلك حجة رجع إلى معارضة موسى فى قوله : رسول رب العالمين ؛ فاستفهمه آستفهاما عن مجهول من الأشياء . قال مكى وغيره : كما يستفهم عن الأجناس فلذلك آستفهم بـ « ما » . قال مكى : وقد ورد له آستفهام بـ « من » فى موضع آخر ويشبه أنها مواطن ؛ فأتى موسى بالصفات الدالة على الله من مخلوقاته التى لا يشاركه فيها مخلوق، وقد سأل فرعون عن الجنس ولا جنس لله تعالى ؛ لأن الأجناس محدثة، فعلم موسى جهله فأضرب عن سؤاله وأعلمه بعظيم قدرة الله التى تبين للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها . فقال فرعون : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ على معنى الإغراء والتعجب من سفه المقالة إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم والفراعنة قبله كذلك . فزاد موسى فى البيان بقوله : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ فجاء بدليل يفهمونه عنه ؛ لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم آباء وأنهم قد فنوا وأنه لا بد لهم من مغير، وأنهم قد كانوا بعد أن لم يكونوا، وأنهم لا بد لهم من مكون . فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى ليس يجيبنى عما أسأل؛ فأجابه موسى عليه السلام عن هذا بأن قال : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ أى ليس ملكه كملكك ؛ لأنك إنما تملك بلدا واحدا لا يجوز أمرك فى غيره، ويموت من لا تحب أن يموت ، والذى أرسلنى يملك المشرق والمغرب ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ . وقيل : علم موسى عليه السلام أن قصده فى السؤال معرفة من سأل عنه، فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الرب اليوم . ثم لما آنقطع فرعون لعنه الله فى باب الحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب فتوعد موسى بالسجن ، ولم يقل ما دليلك على أن هذا الإله أرسلك ؛ لأن فيه الاعتراف بأن ثَمّ إلها غيره . وفى توعده بالسجن ضعف . وكان فيما يروى

يفزع منه فزعا شديدا حتى كان اللعين لا يمسك بوله . وروى أن سجنه كان أشد من القتل .
وكان إذا سجن أحدا لم يخرجه من سجنه حتى يموت، فكان مخوفا . ثم لما كان عند موسى
عليه السلام من أمر الله تعالى مالا يرعه توعد فرعون ﴿ قَالَ ﴾ له على جهة اللطف به والطمع
فى إيمانه : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴾ فيتضح لك به صدق ، فلما سمع فرعون ذلك طمع
فى أن يجد أثناءه موضع معارضة ﴿ فَقَالَ ﴾ له ﴿ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . ولم
يحتج الشرط إلى جواب عند سيبويه؛ لأن ما تقدم يكفى منه . ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ ﴾ من
يده فكان ما أخبر الله من قصته . وقد تقدم بيان ذلك وشرحه فى « الأعراف »(١) إلى آخر
القصة . وقال السحرة لما توعدهم فرعون بقطع الأيدى والأرجل ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ أى لا ضرر
علينا فيما يلحقنا من عذاب الدنيا ؛ أى إنما عذابك ساعة فنصبر لها وقد لقينا الله مؤمنين .
وهذا يدل على شدة استبصارهم وقوة إيمانهم . قال مالك : دعا موسى عليه السلام فرعون
أربعين سنة إلى الإسلام ، وأن السحرة آمنوا به فى يوم واحد . يقال : لا ضير ولا ضور
ولا ضر ولا ضرر ولا ضارورة بمعنى واحد؛ قاله الهروى . وأنشد أبو عبيدة :(٢)

فإنك لا يضورك بعد حول * أظبى كان أمك أم حمار

وقال الجوهرى : ضاره يضوره ويضيره ضيرا وضورا أى ضره . قال الكسائى : سمعت
بعضهم يقول لا ينفعنى ذلك ولا يضورنى . والتضور الصياح والتلوى عند الضرب أو الجوع .
والضورة بالضم الرجل الحقير الصغير الشأن . ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ يريد ننقلب إلى رب
كريم رحيم ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . « أن » فى موضع
نصب أى لأن كنا . وأجاز الفراء كسرها على أن تكون مجازاة . ومعنى « أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ »
أى عند ظهور الآية ممن كان فى جانب فرعون . الفراء : أول مؤمنى زماننا . وأنكره الزجاج
وقال : قد روى أنه آمن معه ستمائة ألف وسبعون ألفا، وهم الشرذمة القليلون الذين قال
فيهم فرعون : « إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ » روى ذلك عن ابن مسعود وغيره .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٥٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) البيت لخداش بن زهير، واستشهد به سيبويه فى كتابه على جعل اسم كان نكرة وخبرها معرفة ضرورة . والمعنى : لا تبالى بعد قيامك بنفسك واستغنائك عن أبويك من انتسبت إليه من شريف أو وضيع، وضرب المثل بالظبى أو الحمار .

قوله تعالى : وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾
فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾
وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن
جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ
مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ
إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾
ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ لما كان من سنته تعالى فى عباده إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه، و إهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه، أمر موسى أن يخرج ببنى إسرائيل ليلا وسماهم عباده؛ لأنهم آمنوا بموسى . ومعنى « إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ » أى يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم . وفى ضمن هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم منهم؛ فخرج موسى عليه السلام ببنى إسرائيل سَحَرا، فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر، فكان الرجل من بنى إسرائيل يقول له فى ترك الطريق فيقول : هكذا أمرت . فلما أصبح فرعون وعلم بسُرى موسى ببنى إسرائيل، خرج فى أثرهم، و بعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر، فروى أنه لحقه ومعه مائة ألف أدهم من الخيل سوى سائر الألوان. و روى أن بنى إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفا. والله أعلم بصحته . و إنما اللازم من الآية الذى يُقطع به أن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم من

بنى إسرائيل وأن فرعون تبعه بأضعاف ذلك . قال ابن عباس : كان مع فرعون ألف جبار كلهم عليه تاج وكلهم أمير خيل. والشِّرذمة الجمع القليل المحتقر والجمع الشَّراذم. قال الجوهرى : الشِّرذمة الطائفة من النـاس والقطعة من الشىء . وثوب شراذم أى قطع . وأنشد الثعلبي قول الراجـــز :

جاء الشـــتاءُ وثيَـابى أَخلاقْ * شَرَاذِمٌ يَضحكُ منهـا النـوَّاقْ (١)

النـوَّاق من الرجال الذى يروض الأمـور ويصلحها ؛ قاله فى الصحاح . واللام فى قوله : « لَشِرْذِمَةٌ » لام توكيـد وكثيرا ما تدخل فى خبر إن ، إلا أن الكوفيين لا يجيزون إن زيدا لسوف يقوم . والدليل على أنه جائز قوله تعـالى : « فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » وهـذه لام التوكيد بعينها وقد دخلت على سوف ؛ قاله النحاس . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَـا لَغَائِظُونَ ﴾ أى أعداء لنا لمخالفتهم ديننا وذهابهم بأموالنا التى آستعاروها على ما تقدم . وماتت أبكارهم تلك الليلة . وقد مضى هذا فى « الأعراف » و « طـه » مستوفى . يقال : غاظنى كذا وأغاظنى . والغيظ الغضب ومنه التغيظ والاغتياظ . أى غاظونا بخروجهم من غير إذن . ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ ﴾ أى مجتمع أخذنا حذرنا وأسلحتنا . وقرئ « حَاذِرُونَ » ومعناه معنى « حَذِرُونَ » أى فرقتون خائفون . قال الجوهرى : وقرئ « وإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ » و « حَذِرُونَ » و « حَذُرُونَ » بضم الذال حكاه الأخفش ؛ ومعنى « حَاذِرُونَ » متأهبون ، ومعنى « حَذِرُونَ » خائفون . قال النحاس : « حَذِرُونَ » قراءة المدنيين وأبى عمرو ، وقراءة أهـل الكوفة « حَاذِرُونَ » وهى معروفة عن عبد الله بن مسعود وآبن عباس ؛ و « حَادِرُونَ » بالدال غير المعجمة قراءة أبى عباد وحكاها المهـدوى عن ابن أبى عمار ، والمـاوردى والثعلبى عن سُمَيْط بن عجلان . قال النحاس : أبو عبيدة يذهب إلى أن معنى « حَذِرُونَ » « وحَاذِرُونَ » واحد . وهو قول سيبويه وأجاز : هو حذِرٌ زيدا ؛ كما يقال : حاذر زيدا ، وأنشد :

حَذِرٌ أُموراً لا تَضِـيرُ وآمِنٌ * ما ليس مُنْجِيَهُ من الأقدارِ

---

(١) ويقال هو آسم آبنه . ويروى (النواق) بالتاء .

وزعم أبو عمر الجرمىّ أنه يجوز هو حذرٌ زيدا على حذف مِن . فأما أكثر النحويين فيفرقون بين حذِر وحاذر ؛ منهم الكسائى والفراء ومحمد بن يزيد ؛ فيذهبون إلى أن معنى حذر فى خلقته الحذر ، أى متيقظ متنبه ؛ فإذا كان هكذا لم يتعدّ ، ومعنى حاذر مستعدّ وبهذا جاء التفسير عن المتقدّمين . قال عبد الله بن مسعود فى قول الله عز وجل : « وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ » قال : مُؤْدون فى السلاح والكُرَاع مُقْوون، فهذا ذاك بعينه . وقوله مُؤْدون معهم أداة . وقد قيل : إن المعنى : معنا سلاح وليس معهم سلاح يحرضهم على القتال ؛ فأما « حادِرون » بالدال المهملة فمشتق من قولهم عين حَدْرة أى ممتلئة ؛ أى نحن ممتلئون غيظا عليهم ؛ ومنه قول الشاعر (١) :

وعينٌ لها حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ * شُقَّتْ مآقيهما مِنْ أُخُرْ

وحكى أهل اللغة أنه يقال : رجل حادرٌ إذا كان ممتلئ اللحم ؛ فيجوز أن يكون المعنى الامتلاء من السلاح . المهدوى : الحادر القوىّ الشديد .

قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ يعنى من أرض مصر . وعن عبد الله ابن عمرو قال : كانت الجنات بحافتى النيل فى الشّقتين جميعا من أسوان إلى رشيد ، وبين الجنات زروع . والنيل سبعة خلجان : خليج الإسكندرية ، وخليج سَخَا ، وخليج دمياط ، وخليج سَرْدُوس، وخليج مَنْف ، وخليج الفيوم ، وخليج المَنْهى (٢) متصلة لا ينقطع منها شىء عن شىء، والزروع ما بين الخلجان كلها . وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا بما دبّروا وقدّروا من قناطرها وجسورها وخلجانها ؛ ولذلك سمى النيل إذا غلق ستة عشر ذراعا نيل السلطان ، ويُخلَع على ابن أبى الرّدّاد (٣) ؛ وهذه الحال مستمرّة إلى الآن . وإنما قيل نيل السلطان لأنه حينئذ يجب الخراج على الناس . وكانت أرض مصر جميعها تروى

---

(١) هو امرؤ القيس . (٢) وهو بحر يوسف عليه السلام . (٣) هو عبد الله بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبى الرّدّاد المؤذن ؛ قدم مصر من البصرة وحدّث بها ، وجعل على قياس النيل فى ولاية يزيد بن عبد الله التركى — وكانت النصارى تتولى قياسه — وأجرى عليه سبعة دنانير فى كل شهر، واستقر قياسه فى بنيه زمانا طويلا . وتوفى أبو الرّدّاد سنة ٢٦٦ هـ . عن خطط المقريزى ج ١ ص ٥٨

من إصبع واحدة من سبعة عشر ذراعا، وكانت إذا غلق النيل سبعة عشر ذراعا ونودى عليه إص واحد من ثمانية عشر ذراعا، ازداد فى خراجها ألف ألف دينار . فإذا خرج عن ذلك ونودى عليه إصبعا واحدا من تسعة عشر ذراعا نقص خراجها ألف ألف دينار . وسبب هذا ما كان ينصرف فى المصالح والخلجان والجسور والاهتمام بعمارتها . فأما الآن فإن أكثرها لا يروى حتى ينادى إصبع من تسعة عشر ذراعا بمقياس مصر . وأما أعمال الصعيد الأعلى، فإن بها ما لا يتكامل ريه إلا بعد دخول الماء فى الذراع الثانى والعشرين بالصعيد الأعلى .

قلت : أما أرض مصر فلا تروى جميعها الآن إلا من عشرين ذراعا وأصابع ؛ لعلو الأرض وعدم الاهتمام بعمارة جسورها . وهو من عجائب الدنيا؛ وذلك أنه يزيد إذا انصبت المياه فى جميع الأرض حتى يسيح على جميع أرض مصر، وتبقى البلاد كالأعلام لا يوصل إليها إلا بالمراكب والقياسات . وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : نيل مصر سيد الأنهار ، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، وذلل الله له الأنهار؛ فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمده، فأمدته الأنهار بمائها، وفجّر الله له عيونا، فإذا انتهى إلى ما أراد الله عز وجل، أوحى الله تبارك وتعالى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره . وقال قيس بن الحجاج : لما افتتحت مصر أتى أهلها إلى عمرو بن العاص حين دخل بئونة من أشهر القبط فقالوا له : أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها، فقال لهم : وما ذاك ؟ فقالوا : إذا كان لاثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها ؛ أرضينا أبويها ، وحملنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها فى هذا النيل؛ فقال لهم عمرو : هذا لا يكون فى الإسلام ؛ وإن الإسلام ليهدم ما قبله . فأقاموا أبيب ومسرى لا يجرى قليل ولا كثير، وهمّوا بالجلاء . فلما رأى ذلك عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، فأعلمه بالقصة ، فكتب إليه عمر بن الخطاب : إنك قد أصبت بالذى فعلت ، وإن الإسلام يهدم ما قبله ولا يكون هذا . وبعث إليه ببطاقة فى داخل كتابه . وكتب إلى عمرو : إنى قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابى، فألقها فى النيل

إذا أتاك كتابي . فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو بن العاص أخذ البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى نيل مصر — أما بعد — فإن كنت إنما تجرى من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يُجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يُجريك . قال : فألقى البطاقة فى النيل قبل الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها ؛ لأنه لا تقوم مصلحتهم فيها إلا بالنيل . فلما ألقى البطاقة فى النيل، أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله فى ليلة واحدة ستة عشر ذراعا ، وقطع الله تلك السيرة عن أهل مصر من تلك السنة . قال كعب الأحبار : أربعة أنهار من الجنة وضعها الله فى الدنيا سَيْحان وجَيْحان والنِّيل والفرات ، فسيحان نهر الماء فى الجنة ، وجيحان نهر اللبن فى الجنة ، والنيل نهر العسل فى الجنة ، والفرات نهر الخمر فى الجنة . وقال ابن لهيعة : الدجلة نهر اللبن فى الجنة .

قلت : الذى فى الصحيح من هذا حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ وَالنِّيلُ وَالفُرَاتُ كُلٌّ من أنهار الجنة " لفظ مسلم : وفى حديث الإسراء من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صَعْصَعة رجلٍ من قومه قال : "وحدّث نبيّ الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت يا جبريل ماهذه الأنهار قال أما النهران الباطنان فنهران فى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات" لفظ مسلم . وقال البخارى من طريق شَريك عن أنس " فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطّرِدان (١) فقال ما هذان النهران يا جبريل قال هذا النيل والفرات عنصرهما ثم مضى فى السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من اللؤلؤ والزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر فقال ما هذا يا جبريل فقال هذا هو الكوثر الذى خبأ لك ربُّك . " وذكر الحديث . والجمهور على أن المراد بالعيون عيون الماء . وقال سعيد بن جبير : المراد عيون الذهب . وفى الدخان « كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ » . قيل : إنهم كانوا يزرعون ما بين الجبلين من أوّل مصر إلى آخرها . وليس فى الدخان « وكنوز » . « وكنوز » جمع كنز ؛ وقد مضى هذا

(١) يطردان : أى يجريان ، وهما يفتعلان من الطرد .

فى سورة « براءة »[١] . والمراد بها هاهنا الخزائن . وقيل : الدفائن . وقال الضحاك : الأنهار؛ وفيه نظر؛ لأن العيون تشملها . ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ قال ابن عمر وابن عباس ومجاهد : المقام الكريم المنابر؛ وكانت ألف منبر لألف جبّار يُعظّمون عليها فرعون ومُلكه . وقيل : مجالس الرؤساء والأمراء؛ حكاه ابن عيسى وهو قريب من الأول . وقال سعيد بن جبير : المساكن الحسان . وقال ابن لهيعة : سمعت أن المقام الكريم الفيوم . وقيل : كان يوسف عليه السلام قد كتب على مجلس من مجالسه (لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله) فسماها الله كريمة بهذا . وقيل : مرابط الخيل لتفرد الزعماء بارتباطها عُدّة وزينة ؛ فصار مقامها أكرم منزل بهذا؛ ذكره الماوردى . والأظهر أنها المساكن الحسان كانت تكرم عليهم . والمقام فى اللغة يكون الموضع ويكون مصدرا . قال النحاس : المقام فى اللغة الموضع؛ من قولك قام يقوم؛ وكذا المقامات واحدها مقامة؛ كما قال[٢] :

وفيهم مَقَاماتٌ حِسانٌ وجوهُهم * وأنديةٌ ينتابُها القولُ والفعلُ

والمقام أيضا المصدر من قام يقوم . والمقام (بالضم) الموضع من أقام . والمصدر أيضا من أقام يقيم .

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ يريد أن جميع ما ذكره الله تعالى من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم أورثه الله بنى إسرائيل . قال الحسن وغيره : رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه . وقيل : أراد بالوراثة هنا ما استعاروه من حلىّ آل فرعون بأمر الله تعالى .

قلت : وكلا الأمرين حصل لهم . والحمد لله . ﴿ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ أى فتبع فرعون وقومه بنى إسرائيل . قال السدى : حين أشرقت الشمس بالشعاع . وقال قتادة : حين أشرقت الأرض بالضياء . قال الزجاج : يقال شَرَقت الشمسُ إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت . وٱختلف فى تأخر فرعون وقومه عن موسى وبنى إسرائيل على قولين : أحدهما —

(١) راجع جـ ٨ ص ١٢٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) هو زهير بن أبى سلمى؛ وبعدها : أى يقال فيها الجميل و يفعل به .

لاشتغالهم بدفن أبكارهم فى تلك الليلة؛ لأن الوباء فى تلك الليلة وقع فيهم؛ فقوله: « مشرقين » حال لقوم فرعون. الثانى - إن سحابة أظلتهم وظلمة فقالوا: نحن بعد فى الليل فما تقشعت عنهم حتى أصبحوا. وقال أبو عبيدة: معنى « فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » ناحية المشرق. وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون «فَٱتَّبَعُوهُمْ مُشَرِّقِينَ» بالتشديد وألف الوصل؛ أى نحو المشرق؛ مأخوذ من قولهم: شرق وغرب إذا سار نحو المشرق والمغرب. ومعنى الكلام قدرنا أن يرثها بنو إسرائيل فاتبع قوم فرعون بنى إسرائيل مشرّقين فهلكوا، وورث بنو إسرائيل بلادهم.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾(١) أى تقابلا الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه، وهو تفاعل من الرؤية. ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ أى قرب منا العدوّ ولا طاقة لنا به. وقراءة الجماعة «لَمُدْرَكُونَ» بالتخفيف من أدرك. ومنه «حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ». وقرأ عبيد بن عمير والأعرج والزهرى « لَمُدَّرَكُونَ »(٢) بتشديد الدال من ادّرك. قال الفراء: حفر واحتفر بمعنى واحد، وكذلك « لَمُدْرَكُونَ » و « لَمُدَّرَكُونَ » بمعنى واحد. النحاس: وليس كذلك يقول النحويون الحذّاق؛ إنما يقولون: مُدْرَكون ملحقون، ومدّركون مجتهد فى لحاقهم، كما يقال: كسبت بمعنى أصبت وظفرت، واكتسبت بمعنى اجتهدت وطلبت وهذا معنى قول سيبويه.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ لما لحق فرعون بجمعه جمع موسى وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدوّ القوىّ والبحر أمامهم ساءت ظنونهم، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء: « إِنَّا لَمُدْرَكُونَ » فرد عليهم قولهم وزجرهم وذكّرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر «كَلَّا» أى لم يدركوكم « إِنَّ مَعِيَ رَبِّي » أى بالنصر على العدوّ. « سَيَهْدِينِ » أى سيدلنى على طريق النجاة؛ فلما عظم البلاء على بنى إسرائيل، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه؛ وذلك أنه

(١) كذا فى نسخ الأصل. (٢) وكسر الراء - كما فى البحر وروح المعانى والكشاف - على وزن مفتعلون وهو لازم بمعنى الفناء والاضمحلال؛ من ادّرك الشىء إذا تتابع ففنى.

عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله ؛ وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر، ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه . وقد مضى فى « البقرة »(١) قصة هذا البحر . ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقا على عدد أسباط بنى إسرائيل ، ووقف الماء بينها كالطود العظيم ؛ أى الجبل العظيم . والطود الجبل ؛ ومنه قول امرئ القيس :

فبينا المرءُ فى الأحياءِ طَوْدٌ * رَماهُ الناسُ عن كَثَبٍ فَمَالَا

وقال الأسود بن يَعْفُر :

حَلُّوا بأنقرةٍ يَسِيلُ عليهمُ * ماءُ الفُراتِ يجيءُ من أَطْوَادِ

جمع طود أى جبل . فصار لموسى وأصحابه طريقا فى البحر يَبَسا ؛ فلما خرج أصحاب موسى وتكامل آخر أصحاب فرعون على ما تقدّم فى «يونس»(٢) انصب عليهم وغرق فرعونُ؛ فقال بعض أصحاب موسى : ما غرق فرعونُ؛ فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه . وروى ابن القاسم عن مالك قال : خرج مع موسى عليه السلام رجلان من التجار إلى البحر فلما أتوا إليه قالا له بم أمرك الله؟ قال: أمرت أن أضرب البحر بعصاى هذه فينفلق؛ فقالا له : افعل ما أمرك الله فلن يخلفك؛ ثم ألقيا أنفسهما فى البحر تصديقا له؛ فما زال كذلك البحر حتى دخل فرعون ومن معه ، ثم ارتد كما كان . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « البقرة » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴾ أى قربناهم إلى البحر؛ يعنى فرعون وقومه . قاله ابن عباس وغيره؛ قال الشاعر :

وكُلُّ يومٍ مَضَى أو ليلةٍ سلَفَتْ * فيها النفوسُ إلى الآجالِ تَزْدَلِفُ

أبو عبيدة : « أَزْلَفْنَا » جمعنا ومنه قيل لليلة المزدلفة ليلة جَمْع . وقرأ أبو عبد الله بن الحرث وأبىّ بن كعب وابن عباس « وَأَزْلَقْنَا » بالقاف على معنى أهلكناهم؛ من قوله : أزلقت الناقةُ وأزلقت الفرسُ فهى مُزْلِق إذا أزلقت ولدها . ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ يعنى فرعون وقومه . ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أى علامة على قدرة الله تعالى .

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٧٨ طبعة أولى أو ثانية .

﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ لأنه لن يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون وآسمه حزقيل، وآبنته آسية آمرأة فرعون، ومريم بنت ذا موسى العجوز التى دلت على قبر يوسف الصديق عليه السلام . وذلك أن موسى عليه السلام لما خرج ببنى إسرائيل من مصر أظلم عليهم القمر فقال لقومه : ما هذا ؟ فقال علماؤهم : إن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقا من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا . قال موسى : فأيكم يدرى قبره ؟ قال : ما يعلمه إلا عجوز لبنى إسرائيل ؛ فأرسل إليها ؛ فقال: دلينى على قبر يوسف، قالت :لا والله لا أفعل حتى تعطينى حكمى، قال: وما حكمك؟ قالت : حكمى أن أكون معك فى الجنة ؛ فثقل عليه، فقيل له : أعطها حكمها ؛ فدلتهم عليه، فاحتفروه واستخرجوا عظامه، فلما أقلوها ، فإذا الطريق مثل ضوء النهار. فى رواية : فأوحى الله إليه أن أعطها ففعل ، فأتت بهم إلى بحيرة ، فقالت لهم : أنضبوا هذا الماء فأنضبوه واستخرجوا عظام يوسف عليه السلام ؛ فتبينت لهم الطريق مثل ضوء النهار . وقد مضى فى « يوسف »(1) . وروى أبو بردة عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل بأعرابى فأكرمه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حاجتك " قال : ناقة أرحلها وأعنزا أحلبها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فلم عجزت أن تكون مثل عجوز بنى إسرائيل " فقال أصحابه : وما عجوز بنى إسرائيل ؟ فذكر لهم حال هذه العجوز التى احتكمت على موسى أن تكون معه فى الجنة .

قوله تعالى : وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾

(1) راجع جـ ٩ ص ٢٧٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ نبه المشركين على فرط جهلهم إذ رغبوا عن اعتقاد إبراهيم ودينه وهو أبوهم . والنبأ الخبر؛ أى اقصص عليهم يا محمد خبره وحديثه وعيبه على قومه ما يعبدون . وإنما قال ذلك ملزما لهم الحجة . والجمهور من القراء على تخفيف الهمزة الثانية وهو أحسن الوجوه ؛ لأنهم قد أجمعوا على تخفيف الثانية من كلمة واحدة نحو آدم . وإن شئت حققتهما فقلت : « نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ » . وإن شئت خففتهما فقلت : « نبا ابراهيم » . وإن شئت خففت الأولى . وثَمَّ وجهٌ خامس إلا أنه بعيد فى العربية وهو أن يدغم الهمزة فى الهمزة كما يقال رآّس للذى يبيع الرءوس . وإنما بعد لأنك تجمع بين همزتين كأنهما فى كلمة واحدة، وحَسُن فى فَعَّال لأنه لا يأتى إلا مدغما . ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أى أىّ شىء تعبدون ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا ﴾ وكانت أصنامهم من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب . ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ أى فنقيم على عبادتها . وليس المراد وقتا معينا بل هو إخبار عما هم فيه . وقيل : كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، وكانوا فى الليل يعبدون الكواكب . فيقال : ظل يفعل كذا إذا فعله نهارا وبات يفعل كذا إذا فعله ليلا . ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ قال الأخفش : فيه حذف؛ والمعنى : هل يسمعون منكم ؟ أو هل يسمعون دعاءكم؛ قال الشاعر (١) :

القائد الخيلَ مَنْكُوبًا دَوَابِرُها * قد أُحْكِمَتْ حَكَمَاتِ القِدِّ والأَبَقَا

قال : والأَبَق الكَتَّان فحذف . والمعنى ؛ وأحكمت حكمات الأَبَق . وفى الصحاح : والأَبَق بالتحريك القِنَّب . وروى عن قتادة أنه قرأ « هَلْ يُسْمِعُونَكُمْ » بضم الياء ؛ أى هل يسمعونكم أصواتهم ﴿ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ أى هل تنفعكم هذه الأصنام وترزقكم، أو تملك لكم خيرا أو ضرا إن عصيتم ؟! وهذا استفهام لتقرير الحجة؛ فإذا لم ينفعوكم ولم يضروا فما معنى عبادتكم لها . ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ فنزعوا إلى التقليد

(١) هو زهير بن أبى سلمى . والبيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان . وأحكمت : جعلت لها حكمات من القد . والحكمات جمع حكمة وهى ما تكون على أنف الدابة . ودوابرها : مؤخر حوافرها . ومنكوب : أى أصابت الحجارة دوابرها وأدمتها .

من غير حجة ولا دليل . وقد مضى القول فيه . ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ من هــذه الأصنام ﴿ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴾ الأولون ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ واحد يؤدّى عن جمــاعة، وكذلك يقال للمرأة هى عدو الله وعدوّة الله ؛ حكاهما الفراء . قال على بن سليمان : من قال عدوّة الله وأثبت الهــاء قال هى بمعنى معادية، ومن قال عدوّ للمؤنث والجمع جعله بمعنى النسب . ووصف الجمــاد بالعداوة بمعنى أنهــم عدوّ لى إن عبدتهم يوم القيامة ؛ كما قال : « كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » . وقال الفراء : هو من المقلوب؛ مجازه: فإنى عدوّ لهم لأن من عاديته عاداك . ثم قال : ﴿ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال الكلبى : أى إلا من عبد رب العالمين ؛ إلا عابد ربّ العالمين؛ فحــذف المضاف . قال أبو إسحق الزجاج : قال النحويون هو استثناء ليس من الأوّل ؛ وأجاز أبو إسحق أن يكون من الأوّل على أنهــم كانوا يعبدون الله عز وجل ويعبدون معه الأصنام، فأعلمهم أنه تبرأ ممــا يعبدون إلا الله . وتأوّله الفراء على الأصنام وحدها والمعنى عنده : فإنهم لو عبدتُّهم عدوّ لى يوم القيامة؛ على ما ذكرنا . وقال الجرجانى : تقــديره : أفرأيتم ما كنتم تعبــدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين فإنهم عدوّ لى . وإلا بمعنى دون وسوى؛ كقوله : « لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى » أى دون الموتة الأولى .

قوله تعــالى : ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُــوَ يَهْــدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾

قوله تعــالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْــدِينِ ﴾ أى يرشــدنى إلى الدين . ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْــقِينِ ﴾ أى يرزقنى . ودخول « هو » تنبيه على أن غيره لا يُطعم ولا يَســقى ؛ كما تقول : زيد هو الذى فعل كذا؛ أى لم يفعله غيره . ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ قال : « مرضت » رعاية للأدب وإلا فالمرض والشفاء من الله عز وجل جميعــا . ونظيره قول

فتى موسى : « وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ » . ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ يريد البعث وكانوا ينسبون الموت إلى الأسباب ؛ فبين أن الله هو الذى يميت ويحيى . وكله بغير ياء : « يهدين » « يشفين » لأن الحذف فى رءوس الآى حسن لتتفق كلها . وقرأ ابن أبى إسحق على جلالته ومحله من العربية هذه كلها بالياء؛ لأن الياء اسم وإنما دخلت النون لعلة . فإن قيل : فهذه صفة تجمع الخلق فكيف جعلها إبراهيم دليلا على هدايته ولم يهتد بها غيره ؟ قيل : إنما ذكرها احتجاجا على وجوب الطاعة؛ لأن من أنعم وجب أن يطاع ولا يعصى ليلتزم غيره من الطاعة ما قد التزمها؛ وهذا إلزام صحيح .

قلت : وتجوز بعض أهل الإشارات فى غوامض المعانى فعدل عن ظاهر ما ذكرناه إلى ما تدفعه بدائه العقول من أنه ليس المراد من إبراهيم . فقال : « وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ » أى يطعمنى لذة الإيمان ويسقين حلاوة القبول . ولهم فى قوله : « وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » وجهان : أحدهما — إذا مرضت بمخالفته شفانى برحمته . الثانى — إذا مرضت بمقاساة الخلق، شفانى بمشاهدة الحق . وقال جعفر بن محمد الصادق : إذا مرضت بالذنوب شفانى بالتوبة . وتأولوا قوله : «وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ» على ثلاثة أوجه : فالذى يميتنى بالمعاصى يحيينى بالطاعات . الثانى : يميتنى بالخوف يحيينى بالرجاء . الثالث : يميتنى بالطمع ويحيينى بالقناعة . وقول رابع : يميتنى بالعدل ويحيينى بالفضل . وقول خامس : يميتنى بالفراق ويحيينى بالتلاق . وقول سادس : يميتنى بالجهل ويحيينى بالعقل ؛ إلى غير ذلك مما ليس بشىء منه مراد من الآية ؛ فإن هذه التأويلات الغامضة ، والأمور الباطنة ، إنما تكون لمن حذق وعرف الحق ، وأما من كان فى عمى عن الحق ولا يعرف الحق فكيف ترمز له الأمور الباطنة ، وتترك الأمور الظاهرة ؟ هذا محال . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ « أَطْمَعُ » أى أرجو . وقيل : هو بمعنى اليقين فى حقه ، وبمعنى الرجاء فى حق المؤمنين سواه . وقرأ الحسن وابن أبى إسحق « خَطَايَايَ » وقال : ليست خطيئة واحدة . قال النحاس : خطيئة بمعنى

خطايا معروف فى كلام العرب ، وقد أجمعوا على التوحيد فى قوله عز وجل « فَٱعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ » ومعناه بذنوبهم . وكذا « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » معناه الصلوات ، وكذا « خَطِيئَتِي » إن كانت خطايا . والله أعلم . قال مجاهد : يعنى بخطيئته قوله : « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا » وقوله : « إِنِّي سَقِيمٌ » وقوله : إن سارة أخته . زاد الحسن وقوله للكوكب : « هَـٰذَا رَبِّي » وقد مضى بيان هـذا مستوفى . وقال الزجاج : الأنبياء بشر فيجوز أن تقع منهم الخطيئة ؛ نعم لا تجوز عليهم الكبائر لأنهم معصومون عنها . ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم . وهـذا من إبراهيم إظهار للعبودية وإن كان يعلم أنه مغفور له . وفى صحيح مسلم عن عائشة ؛ قلت يا رسول الله : ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه؟ قال : "لا ينفعه إنه لم يقل يوما « رب ٱغفر لى خطيئتى يوم الدين »" .

قوله تعالى : رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ (٨٤) وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ (٨٥) وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ « حُكْمًا » معرفة بك وبحدودك وأحكامك ؛ قاله ٱبن عباس . وقال مقاتل : فهما وعلما ؛ وهو راجع إلى الأوّل . وقال الكلبي : نبوّة ورسالة إلى الخلق . « وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » أى بالنبيين من قبلى فى الدرجة . وقال ٱبن عباس : بأهل الجنة ؛ وهو تأكيد قوله : « هَبْ لِي حُكْمًا » .

قوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾ قال ٱبن عباس : هو ٱجتماع الأمم عليه . وقال مجاهد : هو الثناء الحسن . قال ٱبن عطية : هو الثناء وخلد المكانة بإجماع المفسرين ؛ وكذلك أجاب الله دعوته ، وكل أمة تتمسك به وتعظمه ، وهو على الحنيفية التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم . وقال مكى : وقيل معناه سؤاله أن يكون من ذريته فى آخر الزمان

من يقوم بالحق ؛ فأجيبت الدعوة فى محمد صلى الله عليه وسلم . قال آبن عطية : وهذا معنى حسن إلا أن لفظ الآية لا يعطيه إلا بتحكم على اللفظ . وقال القشيرى : أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة؛ فإن زيادة الثواب مطلوبة فى حق كل أحد .

قلت : وقد فعل الله ذلك إذ ليس أحد يصلى على النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا وهو يصلى على إبراهيم وخاصة فى الصلوات ، وعلى المنابر التى هى أفضل الحالات وأفضل الدرجات . والصلاة دعاء بالرحمة . والمراد باللسان القول، وأصله جارحة الكلام . قال القتبى : وموضع اللسان موضع القول على الآستعارة ، وقد تكنى العرب بها عن الكلمة . قال الأعشى :

إِنِّى أَتَتْنِى لِسانٌ لا أُسَرُّ بِها * مِن عَلْوَ لا عَجَبٌ منها ولا سَخَرُ

قال الجوهرى : يروى مِن عَلو بضم الواو وفتحها وكسرها . أى أتانى خبر من أعلى ، والتأنيث للكلمة . وكان قد أتاه خبر مقتل أخيه المنتشر . روى أشهب عن مالك قال، قال الله عز وجل : « وَٱجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الآخِرِينَ » لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه صالحا ويرى فى عمل الصالحين ، إذا قصد به وجه الله تعالى ؛ وقد قال الله تعالى : « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى » وقال : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدًّا » أى حبا فى قلوب عباده وثناء حسنا ، فنبه تعالى بقوله : « وَٱجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الآخِرِينَ » على آستحباب آكتساب ما يورث الذكر الجميل . الليث بن سليمان : إذ هى الحياة الثانية . قيل :

* قد مات قوم وهم فى الناس أحياء *

قال آبن العربى : قال المحققون من شيوخ الزهد فى هذا دليل على الترغيب فى العمل الصالح الذى يكسب الثناء الحسن ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إذا مات آبن آدم آنقطع عمله إلا من ثلاث " [الحديث] وفى رواية إنه كذلك فى الغرس والزرع وكذلك فيمن مات مرابطا يكتب له عمله إلى يوم القيامة . وقد بيناه فى آخر « آل عمران »[1] والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٢٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ دعاء بالجنة وبمن يرثها ، وهو يرد قول بعضهم : لا أسأل جنة ولا نارا .

قوله تعالى : ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ كان أبوه وعده فى الظاهر أن يؤمن به فاستغفر له لهذا ، فلما بان أنه لا يفى بما قال تبرأ منه . وقد تقدّم هذا المعنى . « إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ » أى المشركين . « وكان » زائدة . ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أى لا تفضحنى على رءوس الأشهاد، أو لا تعذبنى يوم القيامة . وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن إبراهيم يرى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة " والغبرة هى القترة . وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " يلقى إبراهيم أباه فيقول يارب إنك وعدتنى ألا تخزنى يوم يبعثون فيقول الله تعالى إنى حرمت الجنة على الكافرين " آنفرد بهما البخارى رحمه الله .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ « يوم » بدل من « يوم » الأوّل . أى يوم لا ينفع مال ولا بنون أحدا . والمراد بقوله : « ولا بنون » الأعوان؛ لأن الآبن إذا لم ينفع فغيره متى ينفع؟ وقيل : ذكر البنين لأنه جرى ذكر والد إبراهيم، أى لم ينفعه إبراهيم . « إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » هو آستثناء من الكافرين؛ أى لا ينفعه ماله ولا بنوه . وقيل : هو آستثناء من غير الجنس، أى لكن « من أتى الله بِقلبٍ سليم » ينفعه لسلامة قلبه . وخص القلب بالذكر؛ لأنه الذى إذا سلم سلمت الجوارح، وإذا فسد فسدت سائر الجوارح . وقد تقدّم فى أوّل « البقرة »[1] . وآختلف فى القلب السليم فقيل : من الشك والشرك، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد ؛ قاله قتادة وآبن زيد وأكثر المفسرين . وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم الصحيح هو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض؛ قال الله تعالى : « فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » وقال أبو عثمان السيّارى : هو القلب الخالى عن البدعة المطمئن إلى السنة . وقال الحسن : سليم من آفة المال والبنين . وقال الجنيد : السليم فى اللغة اللديغ؛ فمعناه أنه قلب كاللديغ من خوف الله . وقال الضحاك : السليم الخالص .

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٨٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال بعمومه وهو حسن ، أى الخالص من الأوصاف الذميمة ، والمتصف بالأوصاف الجميلة ؛ والله أعلم . وقد روى عن عروة أنه قال : يابنىّ لا تكونوا لعّانين فإن إبراهيم لم يلعن شيئا قط ، قال الله تعالى : « إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » . وقال محمد بن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة قائمة ، وأن الله يبعث من فى القبور . وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " يدخل الجنةَ أقوامٌ أفئدتهم مثل أفئدة الطير " يريد — والله أعلم — أنها مثلها فى أنها خالية من كل ذنب ، سليمة من كل عيب ، لا خبرة لهم بأمور الدنيا ؛ كما روى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أكثر أهل الجنة البُلْه " وهو حديث صحيح . أى البُلْه عن معاصى الله . قال الأزهرى : الأبله هنا هو الذى طبع على الخير وهو غافل عن الشر لا يعرفه . وقال القتبى : البله هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس .

قوله تعالى : وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أى قربت وأدنيت ليدخلوها . وقال الزجاج : قرب دخولهم إياها . ﴿ وَبُرِّزَتِ ﴾ أى أظهرت ﴿ الْجَحِيمُ ﴾ يعنى جهنم . ﴿ لِلْغَاوِينَ ﴾

أى الكافرين الذين ضلوا عن الهدى. أى تظهر جهنم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الروع والحزن، كما يستشعر أهل الجنة الفرح لعلمهم أنهم يدخلون الجنة. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ من عذاب الله ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم. وهذا كله توبيخ. ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ أى قلبوا على رءوسهم. وقيل: دهوروا وألقى بعضهم على بعض. وقيل: جمعوا. مأخوذ من الكَبْكَبة وهى الجماعة؛ قاله الهروى. وقال النحاس: هو مشتق من كَوْكَب الشىء أى معظمه. والجماعة من الخيل كَوْكَب وكَبْكَبَة. وقال ابن عباس: جمعوا فطرحوا فى النار. وقال مجاهد: دهوروا. وقال مقاتل: قذفوا. والمعنى واحد. تقول: دهورت الشىء إذا جمعته ثم قذفته فى مَهْواة. يقال: هو يدهور اللقم إذا كبرها. ويقال: فى الدعاء كب الله عدو المسلمين ولا يقال أكبه. وكبكبه، أى كبه وقلبه. ومنه قوله تعالى: «فَكُبْكِبُوا فِيهَا» والأصل كُبِّبوا فأبدل من الباء الوسطى كاف استثقالا لاجتماع الباءات. قال السدى: الضمير فى «كُبْكِبُوا» لمشركى العرب ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ الآلهة. ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ من كان من ذريته. وقيل: كل من دعاه إلى عبادة الأصنام فاتبعه. وقال قتادة والكلبى ومقاتل: «الْغَاوُونَ» هم الشياطين. وقيل: إنما تلقى الأصنام فى النار وهى حديد ونحاس ليعذب بها غيرهم. ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ يعنى الأنس والشياطين والغاوين والمعبودين اختصموا حينئذ. ﴿تَاللَّهِ﴾ حلفوا بالله ﴿إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى فى خسار وتبار وحيرة عن الحق بينة إذا اتخذنا مع الله آلهة نعبدناها كما يعبد؛ وهذا معنى قوله: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى فى العبادة وأنتم لا تستطيعون الآن نصرنا ولا نصر أنفسكم. ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ يعنى الشياطين الذين زينوا لنا عبادة الأصنام. وقيل: أسلافنا الذين قلدناهم. قال أبو العالية وعكرمة: «المجرمون» إبليس وابن آدم القاتل هما أول من سنّ الكفر والقتل وأنواع المعاصى. ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ أى شفعاء يشفعون لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين. ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أى صديق مشفق؛ وكان على رضى الله عنه يقول: عليكم بالإخوان فإنهم عدة الدنيا وعدة الآخرة؛

ألا تسمع إلى قول أهل النار « فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ » . الزمخشرى : وجمع الشافع لكثرة الشافعين ووحد الصديق لقلته ؛ ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم مضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته، رحمة له وحسبة وإن لم تسبق له بأكثرهم معرفة، وأما الصديق فهو الصادق فى ودادك الذى يهمه ما يهمك فأعز من بيض الأنوق ؛ وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال : اسم لا معنى له . ويجوز أن يريد بالصديق الجمع . والحميم القريب والخاص ؛ ومنه حامّة الرجل أى أقرباؤه . وأصل هذا من الحميم وهو الماء الحار، ومنه الحمّام والحُمّى، فحامّة الرجل الذين يحرقهم ما أحرقه، يقال: هم حُزانته أى يحزنهم ما يحزنه . ويقال : حَمّ الشىءُ وأَحَمّ إذا قرب، ومنه الحُمّى، لأنها تقرّب من الأجل . وقال على بن عيسى : إنما سمى القريب حميما، لأنه يَحْمَى لغضب صاحبه، فجعله مأخوذا من الحمية . وقال قتادة : يذهب الله عز وجل يوم القيامة مودّة الصديق ورقة الحميم . ويجوز « وَلَا صَدِيقٌ حَمِيمٌ » بالرفع على موضع « مِنْ شَافِعِينَ » ؛ لأن « مِن شَافِعِينَ » فى موضع رفع . وجمع صديق أصدقاء وصُدقاء وصِداق . ولا يقال صُدُق للفرق بين النعت وغيره . وحكى الكوفيون : أنه يقال فى جمعه صُدْقان . النحاس : وهذا بعيد، لأن هذا جمع ما ليس بنعت نحو رغيف ورُغفان . وحكوا أيضا صديق وأصادق . وأفاعل إنما هو جمع أَفْعَل إذا لم يكن نعتا نحو أشجع وأشاجع . ويقال : صديق للواحد والجماعة وللمرأة، قال الشاعر(1) :

نَصَبْنَ الهوَى ثم ارتمين قلوبَنا * بأعينِ أعداءٍ وهُنَّ صَديقُ

ويقال : فلان صُدَيِّق أى أخص أصدقائى، وإنما يصغر على جهة المدح ؛ كقول حُبَاب ابن المنذر : (أنا جُذَيْلُهَا(2) المحكَّك، وعُذَيْقُها المرجَّب) ذكره الجوهرى . النحاس : وجمع حميم أَحِمّاء وأَحِمّة وكرهوا أفعلاء للتضعيف . ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ « أنّ » فى موضع رفع، المعنى ولو وقع لنا رجوع إلى الدنيا لآمنا حتى يكون لنا شفعاء . تمنوا حين لا ينفعهم التمنى .

---

(1) هو جرير . (2) عنى بجذيلها المحكك الأصل من الشجرة — أو عود ينصب — تحتك به الإبل فتشتفى به ؛ أى قد جربتنى الأمور ولى علم ورأى يشتفى بهما كما تشتفى هذه الإبل الجربى بهذا الجذيل . والترجيب هنا إرفاد النخلة من جانب ليمنعها من السقوط ؛ أى إن لى عشيرة تعضدنى وتمنعنى . والعذيق تصغير عذق (بالفتح) وهى النخلة بحملها .

إنما قالوا ذلك حين شفع الملائكة والمؤمنون . قال جابر بن عبد الله قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الرجل ليقول فى الجنة ما فعل فلان وصديقه فى الجحيم فلا يزال يشفع له حتى يُشفِّعه الله فيه فإذا نجا قال المشركون « مَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ » ". وقال الحسن : ما آجتمع ملأ على ذكر الله ، فيهم عبدٌ من أهل الجنة إلا شفعه الله فيهم ، و إن أهل الإيمان ليشفع بعضهم فى بعض وهم عند الله شافعون مشفَّعون . وقال كعب : إن الرجلين كانا صديقين فى الدنيا ، فيمر أحدهما بصاحبه وهو يجر إلى النار ؛ فيقول له أخوه : والله ما بقى لى إلا حسنة واحدة أنجو بها ، خذها أنت يا أخى فتنجو بها مما أرى ، وأبقى أنا و إياك من أصحاب الأعراف . قال : فيأمر الله بهما جميعا فيدخلان الجنة . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ تقدّم والحمد لله .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ قال « كَذَّبَتْ » والقوم مذكر؛ لأن المعنى كذبت جماعة قوم نوح، وقال « الْمُرْسَلِينَ » لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل؛ لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل . وقيل : كذبوا نوحا فى النبوة وفيما أخبرهم به من مجىء المرسلين بعده . وقيل : ذكر الجنس والمراد نوح عليه السلام. وقد مضى هذا فى « الفرقان »(١) .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ أى ٱبن أبيهم وهى أخوة نسب لا أخوة دين . وقيل : هى أخوة المجانسة . قال الله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ » وقد مضى هذا فى « الأعراف »(٢) . وقيل : هو من قول العرب يا أخا بنى تميم . يريدون يا واحدا منهم . الزمخشرى : ومنه بيت الحماسة :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم * فى النائبات على ما قال برهانا

﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى ألا تتقون الله فى عبادة الأصنام . ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أى صادق فيما أبلغكم عن الله تعالى . وقيل : « أمينٌ » فيما بينكم ؛ فإنهم كانوا عرفوا أمانته وصدقه من قبل؛ كمحمد صلى الله عليه وسلم فى قريش . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى فٱستتروا بطاعة الله تعالى من عقابه . ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به من الإيمان . ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى لا طمع لى فى مالكم . ﴿ إِنْ أَجْرِيَ ﴾ أى ما جزائى ﴿ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾. ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ كرر تأكيدا .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ » أى نصدق قولك . « وَٱتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ » الواو للحال وفيه إضمار قد ، أى وقد ٱتبعك . « الْأَرْذَلُونَ » جمع الأرذل، المكسر الأراذل والأنثى الرُّذْلى والجمع الرُّذَل . قال النحاس : ولا يجوز حذف الألف واللام فى شىء من هذا عند أحد من النحويين علمناه . وقرأ ٱبن مسعود والضحاك ويعقوب الحضرمى وغيرهم؛

(١) راجع ص ٣١ من هذا الجزء .

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٣٥ طبعة أولى أو ثانية .

« وَأَتْبَاعُكَ الْأَرْذَلُونَ » . النحاس : وهي قراءة حسنة؛ وهــذه الواو أكثرها تتبعها الأسماء والأفعال بقد . وأتباع جمع تبع وتبيع يكون للواحد والجمع . قال الشاعر :

له تَبَعٌ قد يعـلمُ النـاسُ أنه * على من يُدانِي صَيِّفٌ ورَبيعُ

آرتفاع « أَتْبَاعُكَ » يجوز أن يكون بالابتـداء و « الْأَرْذَلُونَ » الخبر ؛ التقـدير أنؤمن لك وإنما أتباعك الأرذلون . ويجـوز أن يكون معطوفا على الضمير فى قوله : « أَنُؤْمِنُ لَكَ » والتقدير: أنؤمن لك نحن وأتباعك الأرذلون فنعدّ منهم؛ وحسن ذلك الفصل بقوله : «لك» وقد مضى القول فى الأراذل فى سورة « هود » (1) مستوفى . ونزيده هنا بيانا وهى المسئلة :

الثانيـــة ــ فقيل : إن الذين آمنوا به بنوه ونساؤه وكَنّاته وبنو بنيه . وآختلف هل كان معهم غيرهم أم لا . وعلى أى الوجهين كان فالكل صالحون؛ وقد قال نوح : « وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» والذين معه هم الذين آتبعوه، ولا يلحقهم من قول الكفرة شين ولا ذم، بل الأرذلون هم المكذبون لهم . قال السهيلى : وقـد أغرى كثير من العوام بمقـالة رويت فى تفسير هذه الآية : هم الحاكة والحجّامون . ولو كانوا حاكةً كما زعموا لكان إيمـانهم بنبيّ الله وآتباعهم له مشرِّفا كما تَشرَّف بلال وسلمان بسبقهما للإسـلام ؛ فهما من وجوه أصحاب النبيّ صلى الله عليـه وسلم ومن أكابرهم ، فلا ذرية نوح كانوا حاكَة ولا حجّامين ، ولا قول الكفرة فى الحاكة والحجامين إن كانوا آمنـوا بهم أرذلون ما يلحق اليـوم بحاكتنا ذمّا ولا نقصا ؛ لأن هــذه حكاية عن قول الكفرة إلا أن يجعل الكفرة حجـة ومقالتهم أصلا ؛ وهذا جهل عظيم وقد أعلم الله تعالى أن الصناعات ليست بضائرة فى الدين .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَـا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ « كان » زائدة؛ والمعنى : وما علمى بمـا يعملون؛ أى لم أكلف العـلم بأعمالهم إنمـا كلفت أن أدعوهم إلى الإيمـان، والاعتبار بالإيمـان لا بالحرف والصنائع؛ وكأنهم قالوا : إنمـا آتبعك هـؤلاء الضعفاء طمعا فى العزة والمـال . فقال : إنى لم أقف على باطن أمرهم وإنمـا إلىّ ظاهرهم . وقيل : المعنى إنى

(1) راجع جـ ٩ ص ٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

لم أعلم أن الله يهديهم ويضلكم ويرشدهم ويغويكم ويوفقهم ويخذلكم . ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ ﴾ أى فى أعمالهم وإيمانهم ﴿ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ وجواب « لَوْ » محذوف؛ أى لو شعرتم أن حسابهم على ربهم لما عبتموهم بصنائعهم . وقراءة العامة « تَشْعُرُونَ » بالتاء على المخاطبة للكفار وهو الظاهر . وقرأ ابن أبي عبلة ومحمد بن السميقع « لَوْ يَشْعُرُونَ » بالياء كأنه خبر عن الكفار وترك الخطاب لهم؛ نحو قوله : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ » . وروى أن رجلا سأل سفيان عن امرأة زنت وقتلت ولدها وهى مسلمة هل يقطع لها بالنار؟ فقال : « إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ » . ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى لخساسة أحوالهم وأشغالهم . وكأنهم طلبوا منه طرد الضعفاء كما طلبته قريش . ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ يعنى : إن الله ما أرسلنى أخص ذوى الغنى دون الفقراء، إنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به، فمن أطاعنى فذلك السعيد عند الله وإن كان فقيرا .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ ﴾ أى عن سب آلهتنا وعيب ديننا ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ أى بالحجارة؛ قاله قتادة . وقال ابن عباس ومقاتل : من المقتولين . قال الثمالى : كل مرجومين فى القرآن فهو القتل إلا فى مريم : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ » أى لأسبنك . وقيل « مِنَ الْمَرْجُومِينَ » من المشتومين؛ قاله السدى . ومنه قول أبى دؤاد[(1)] . ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ذلك لما يئس من إيمانهم، والفتح الحكم وقد تقدم . ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ يريد السفينة وقد مضى ذكرها . والمشحون المملوء ، والشحن ملء السفينة بالناس والدواب وغيرهم . ولم يؤنث الفلك هاهنا؛ لأن الفلك هاهنا واحد لا جمع . ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ أى بعد إنجائنا نوحا ومن آمن . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

---

(١) كذا فى جميع نسخ الأصل ، وهنا سقط لعله بيت من الشعر أورده المؤلف شاهدا على أن الرجم معناه الشتم ؛ كما أورد بيت الجعدى شاهدا على ذلك عند تفسير قوله تعالى : « ولولا رهطك لرجمناك » . راجع جـ ٩ ص ٩١

قوله تعالى : كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾
أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾
وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا
ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ
وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَآءٌ
عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾ التأنيث بمعنى القبيلة والجماعة . وتكذيبهم المرسلين كما تقدّم . ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بيّن المعنى وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ الرّيع ما آرتفع من الأرض فى قول آبن عباس وغيره ، جمع رِيعة . وكم ريع أرضك أى كم آرتفاعها . وقال قتادة : الرّيع الطريق . وهو قول الضحاك والكلبى ومقاتل والسدى . وقاله آبن عباس أيضا . ومنه قول المسيّب آبن عَلَس :

فى الآلِ يَخفِضُها ويَرفعُها * رِيعٌ يَلوحُ كأنه سَحْـــل

شبه الطريق بثوب أبيض . النحاس : ومعروف فى اللغة أن يقال لما آرتفع من الأرض ريع وللطريق ريع . قال الشاعر[(١)] :

طِراقُ الخَوافِي مشرق فوقَ رِيعةٍ * نَدَى ليـلِه فى ريشـه يَترقرقُ

وقال عمارة : الريع الجبل الواحد رِيعة والجمع رِياع . وقال مجاهد : هو الفج بين الجبلين . وعنـه : الثنيّة الصغيرة . وعنـه : المنظرة . وقال عكرمة ومقاتل : كانوا يهتـدون بالنجوم إذا سافروا، فبنوا على الطريق أمثالا طوالا ليهتدوا بها ؛ يدل عليه قوله « آيَةً » أى علامة . وعن مجاهـد : الريع بنيان الحَمَام دليله « تَعْبَثُونَ » أى تلعبون ؛ أى تبنون بكل مكان مرتفع آية علما تلعبون بها على معنى أبنيـة الحمام و بروجها . وقيل : تعبثون بمن يمـر فى الطريق . أى تبنون بكل موضع مرتفع لتشرفوا على السابلة فتسخروا منهم . وقال الكلبي : إنه عبث العشّارين بأموال من يمر بهم ؛ ذكره المـاوردى . وقال آبن الأعرابى : الريع الصومعـة ، والرِّيع البرج من الحمام يكون فى الصحراء . والرِّيع التل العالى . وفى الرِّيع لغتان : كسر الراء وفتحها و جمعها أرياع ؛ ذكره الثعلبى .

قوله تعالى : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ أى منازل ؛ قاله الكلبي . وقيل : حصونا مشيدة ؛ قاله آبن عباس ومجاهد . ومنه قول الشاعر :

تَرَكْنَا دِيارَهُمْ مِنهـمْ قِفَاراً * وهَدَّمنا المصانعَ والبُروجَا

وقيل : قصورا مشيدة ؛ وقاله مجاهد أيضا . وعنه : بروج الحمام ؛ وقاله السدى .

قلت : وفيـه بعد عن مجاهد ؛ لأنه تقدّم عنـه فى الريع أنه بنيان الحمـام فيكون تكرارا فى الكلام . وقال قتادة : مآجل للمـاء تحت الأرض . وكذا قال الزجاج : إنها مصانع المـاء، واحدتها مَصْنَعة ومَصْنَع . ومنه قول لَبِيد :

بَلِينا وما تَبلَى النجومُ الطوالعُ * وتَبقى الجبالُ بَعدَنا والمصانـعُ

(١) هو ذو الرمة يصف بازيا . وفى ديوانه — طبع أوربا — « واقع » بدل « مشرق » .

الجوهري : المصنعة كالحوض يجتمع فيها ماء المطر ، وكذلك المصنُعة بضم النون . والمصانع الحصون . وقال أبو عبيدة : يقال لكل بناء مصنعة . حكاه المهدوي . وقال عبد الرزاق : المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العادية . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أي كي تخلدوا . وقيل : لعل استفهام بمعنى التوبيخ أي فهل « تَخْلُدُونَ » كقولك : لعلك تشتمني أي هـل تشتمني . روى معناه عن ابن زيد . وقال الفراء : كيما تخلدون لا تتفكرون في الموت . وقال ابن عباس وقتادة : كأنكم خالدون باقون فيهـا . وفي بعض القراءات « كَأَنَّكُمْ تُخَلَّدُونَ »(١) ذكره النحاس . وحكى قتادة : أنهـا كانت في بعض القراءات « كأنكم خالدون » .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّـارِينَ ﴾ البطش السـطوة والأخذ بالعنف . وقـد بَطَش به يبطُش ويبطِش بطشا . وباطشـه مباطشة . وقال ابن عبـاس ومجاهد : البطش العسف قتلا بالسيف وضربا بالسوط . ومعنى ذلك فعلتم ذلك ظلمـا . وقال مجاهد أيضا : هو ضرب بالسياط ؛ ورواه مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر فيما ذكر ابن العربي . وقيـل : هو القتل بالسيف في غير حق . حكاه يحيى بن سـلّام . وقال الكلبي والحسن : هو القتل على الغضب من غير تثبت . وكله يرجع إلى قول ابن عباس . وقيل : إنه المؤاخذة على العمد والخطأ من غير عفو ولا إبقاء . قال ابن العربي : ويؤيد ما قال مالك قول الله تعالى عن موسى : « فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ » وذلك أن موسى عليه السلام لم يسلّ عليه سيفا ولا طعنه برمح ، وإنما وكزه وكانت منيّته في وكزته . والبطش يكون باليد وأقله الوكز والدفع ، ويليه السوط والعصا ، ويليه الحديد ، والكل مذموم إلا بحق . والآية نزلت خبرا عمن تقدّم من الأمم ، ووعظا من الله عز وجل لنا في مجانبة ذلك الفعـل الذي ذمهم به وأنكره عليهم .

قلت : وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثير من هـذه الأمة ، لاسيما بالديار المصرية منـذ وليتها البحرية(٢) ؛ فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق . وقد أخبر صلى

(١) مبنى للفعول مخففا ومشددا. (٢) البحرية : هم من المماليك الأتراك الذين استخدمهم الملك الصالح الأيوبي ، وأسكنهم جزيرة الروضة . وأول ملوكهم عز الدين أيبك . وكانت مدة حكمهم من سنة ٦٤٨ — ٧٨٤ هـ .

الله عليه وسلم أن ذلك يكون . كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها و إن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا" . وخرج أبو داود من حديث ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إذا تبايعتم بالعينة(١) وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم " . « جَبَّارِينَ » قتالين . والجبار القتال فى غير حق . وكذلك قوله تعالى : « إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ » قاله الهروى . وقيل : الجبار المتسلط العاتى؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » أى بمسلط . وقال الشاعر :

سَلَبْنا من الجبّار بالسيف مُلْكَهُ * عَشِيًّا وأطرافُ الرِّماح شَوارِعُ

قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ تقدم . ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى من الخيرات؛ ثم فسرها بقوله : ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أى سخر ذلك لكم وتفضل بها عليكم، فهو الذى يجب أن يعبد ويشكر ولا يكفر . ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إن كفرتم به وأصررتم على ذلك . ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ كل ذلك عندنا سواء لا نسمع منك ولا نلوى على ما تقوله . وروى العباس عن أبى عمرو وبشر عن الكسائى : « أَوَعَظتَّ » مدغمة الظاء فى التاء وهو بعيد؛ لأن الظاء حرف إطباق إنما يدغم فيما قرب منه جدا وكان مثله ومخرجه . ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى دينهم؛ عن ابن عباس وغيره . وقال الفراء : عادة الأولين . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى « خَلْقُ الْأَوَّلِينَ » . الباقون « خُلُقُ » . قال الهروى : وقوله عز وجل « إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ » أى اختلاقهم وكذبهم؛ ومن قرأ «خُلُقُ الْأَوَّلِينَ» فمعناه عادتهم؛ والعرب تقول : حدثنا فلان بأحاديث الخَلْق أى بالخرافات والأحاديث المفتعلة . وقال ابن الأعرابى :

---

(١) العينة أن تبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل معلوم ثم تشتريها منه بأقل من الثمن الذى بعتها به .

الخُلق الدين والخُلق الطبع والخَلق المروءة . قال النحاس : « خُلُقُ الأَوَّلِينَ » عند الفراء يعني عادة الأولين . وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال : « خُلُقُ الأَوَّلِينَ » مذهبهم وما جرى عليه أمرهم؛ قال أبو جعفر : والقولان متقاربان، ومنه الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم " أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خُلقا " أي أحسنهم مذهبا وعادة وما يجرى عليه الأمر في طاعة الله عز وجل، ولا يجوز أن يكون من كان حسن الخلق فاجرا فاضلا، ولا أن يكون أكمل إيمانا من السيء الخلق الذي ليس بفاجر . قال أبو جعفر : حكى لنا عن محمد بن يزيد أن معنى « خَلْقُ الأَوَّلِينَ » تكذيبهم وتخرصهم غير أنه كان يميل إلى القراءة الأولى ؛ لأن فيها مدح آبائهم ، وأكثر ما جاء القرآن في صفتهم مدحهم لآبائهم ، وقولهم : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ » . وعن أبي قلابة : أنه قرأ « خُلْقُ » بضم الخاء و إسكان اللام تخفيف « خُلُقُ » . ورواها ابن جبير عن أصحاب نافع عن نافع . وقد قيل : إن معنى « خَلْقُ الأَوَّلِينَ » دين الأولين . ومنه قوله تعالى : « فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ » أي دين الله . و « خُلُقُ الأَوَّلِينَ » عادة الأولين : حياة ثم موت ولا بعث . وقيل : ما هذا الذي أنكرت علينا من البنيان والبطش إلا عادة من قبلنا فنحن نقتدي بهم ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ على ما نفعل وقيل : المعنى خلق أجسام الأولين؛ أي ما خلقنا إلا كخلق الأولين الذين خلقوا قبلنا وماتوا، ولم ينزل بهم شيء مما تحذرنا به من العذاب . ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ أي بريح صرصر عاتية على ما يأتي في « الحاقة » . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ قال بعضهم : أسلم معه ثلثمائة ألف ومئون وهلك باقيهم . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ

طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ
مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا
شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ذكر قصة صالح وقومه وهم ثمود ؛ وكانوا يسكنون الحِجر كما تقدّم فى « الحجر »(١) وهى ذوات نخل وزروع ومياه . ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴾ يعنى فى الدنيا آمنين من الموت والعذاب . قال ابن عباس : كانوا معمَّرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم . ودل على هذا قوله : « وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » فقرّعهم صالح ووبخهم وقال : أتظنون أنكم باقون فى الدنيا بلا موت ﴿ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ . الزمخشرى : فإن قلت لم قال « وَنَخْلٍ » بعد قوله « وَجَنَّاتٍ » والجنات تتناول النخل أول شىء كما يتناول النَّعم الإبل كذلك من بين الأزواج حتى إنهم ليذكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخل ؛ كما يذكرون النَّعم ولا يريدون إلا الإبل قال زهير :

كَأَنَّ عَيْنَىَّ فى غَرْبَى مُقَتَّلَةٍ * من النواضح تَسْقِى جَنَّةً سُحُقَا

يعنى النخل ؛ والنخلة السُّحُوق البعيدة الطول .

قلت : فيه وجهان ؛ أحدهما — أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله فى جملة سائر الشجر تنبيها على انفراده عنها بفضله عنها . والثانى — أن يريد بالجنات غيرها من الشجر ؛ لأن اللفظ

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل . والطلعة هي التي تطلع من النخلة كنصل السيف ؛ في جوفه شماريخ القنــو ، والقنو آسم للخـارج من الجـذع كما هو بعرجونه وشماريخـه . و « هَضِيمٌ » قال آبن عباس : لطيف مادام في كُفُرّاه . والهضيم اللطيف الدقيق ؛ ومنه قول آمرئ القيس :

* عَلَيَّ هَضِيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ *[1]

الجوهري : ويقال للطلع هضيم ما لم يخرج من كُفُرّاه ؛ لدخول بعضه في بعض . والهضيم من النساء اللطيفة الكشحين . ونحوه حكى الهروي ؛ قال : هو المنضم في وعائه قبل أن يظهر ؛ ومنــه رجل هضيم الجنبين أي منضمهما ؛ هـذا قول أهل اللغة . وحكى المـاوردي وغيره في ذلك آثني عشر قولا : أحدها — أنه الرطب اللين ؛ قاله عكرمة . الثاني — هو المذنِّب من الرطب ؛ قاله سعيد بن جبير . قال النحاس : وروى أبو إسحق عن يزيد — هو آبن أبي زياد كوفي ويزيد بن أبي مريم شامي — « وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ » قال : منه ما قد أرطب ومنه مذنِّب . الثالث — أنه الذي ليس فيه نوى ؛ قاله الحسن . الرابع — أنه المتهشم المتفتت إذا مس تفتت ؛ قاله مجاهد . وقال أبو العالية : يتهشم في الفم . الخامس — هو الذي قد ضمر بركوب بعضه بعضا ؛ قاله الضحاك ومقاتل . السادس — أنه المتلاصق بعضه ببعض ؛ قاله أبو صخـر . السابع — أنه الطلع حين يتفرق ويخضر ؛ قاله الضحاك أيضا . الثامن — أنه اليانع النضيج ؛ قاله آبن عباس . التاسع — أنه المكتنز قبل أن ينشق عنه القشر ؛ حكاه آبن شجرة ؛ قال :

كأنّ حَمولةً تُجْـلَى عليــه * هَضيمٌ ما يُحَسُّ له شُقوقُ

العاشر — أنه الرخو ؛ قاله الحسن . الحـادي عشر — أنه الرخص اللطيف أول ما يخرج وهو الطلع النضيد ؛ قاله الهروي . الثـاني عشر — أنه البَرْنِي[2] ؛ قاله آبن الأعرابي ؛ فعيل بمعنى فاعل أي هنيء مريء من آنهضام الطعام . والطلع آسم مشتق من الطلوع وهو الظهور ؛ ومنه طلوع الشمس والقمر والنبات .

---

(١) صدر البيت . * هصرت بفودي رأسها فتمايلت *

(٢) البرني : ضرب من التمر وهو أجوده ؛ واحدته برنية .

قوله تعالى : « وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ » النّحت النّجر والبَرْى ؛ نحتـه ينحته (بالكسر) نحتا إذا براه والنُّحاتة البُرَاية . والمِنْحَت ما ينحت به . وفى « وَالصَّافَّاتِ » قال : «أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ» . وكانوا ينحتونها من الجبال لما طالت أعمارهم وتهدّم بناؤهم من المدر . وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو ونافع « فَرِهِينَ » بغير ألف . الباقون : « فَارِهِينَ » بألف وهما بمعنى واحد فى قول أبى عبيدة وغيره؛ مثل « عِظاما نخِرة » و « ناخِرة » . وحكاه قطرب . وحكى فَرُه يفرُه فهو فاره وفَرِه يَفرَه فهو فرِهٌ وفاره إذا كان نشيطا . وهو نصب على الحال . وفرق بينهما قوم فقالوا : «فارهين» حاذقين بنحتها؛ قاله أبو عبيدة؛ وروى عن ٱبن عباس وأبى صالح وغيرهما . وقال عبـد الله بن شداد : « فارِهين » متجبرين . وروى عن ٱبن عبـاس أيضا أن معنى «فرِهين» بغير ألف أشرين بطرين ؛ وقاله مجاهد . وروى عنه شرهين . الضحاك : كيِّسين . قتادة : معجَبين ؛ قاله الكلبي؛ وعنه : ناعمين . وعنه أيضا آمنين؛ وهو قول الحسن . وقيل : متخيرين؛ قاله الكلبي والسدى . ومنه قول الشاعر :

إلى فَرِهٍ يمـاجد كلَّ أمرٍ * قصدتُ له لأختبر الطِّباعا

وقيل : متعجبين؛ قاله خُصيف . وقال ٱبن زيد : أقوياء . وقيـل : فرهين فرحين؛ قاله الأخفش . والعرب تعاقب بين الهاء والحاء؛ تقول . مدهته ومدحته ؛ فالفره الأشِر الفرِح ثم الفرَح بمعنى المَرَح مذموم؛ قال الله تعالى: « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا » وقال: « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » . ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ قيل : المراد الذين عقروا الناقة . وقيل : التسعة الرهط الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قال السدى وغيره : أوحى الله تعالى إلى صالح : إن قومك سيعقرون ناقتك؛ فقال لهم ذلك، فقالوا : ما كنا لنفعل . فقال لهم صالح : إنه سيولد فى شهركم هذا غلام يعقرها ويكون هلاككم على يديه ؛ فقالوا : لا يولد فى هذا الشهر ذكر إلا قتلناه . فولد لتسعة منهم فى ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم، ثم ولد للعاشر فأبى أن يذبح ٱبنه وكان لم يولد له قبل ذلك . وكان ٱبن العاشر أزرق أحمر فنبت نباتا سريعا، وكان إذا مر بالتسعة فرأوه قالوا : لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا . وغضب

التسعة على صالح؛ لأنه كان سبب قتلهم أبناءهم فتعصبوا وتقاسموا بالله لنبيتنه وأهله . قالوا: نخرج إلى سفر فترى الناس سفرنا فنكون فى غار، حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه ، ثم قلنا ما شهدنا مهلك أهله و إنا لصادقون؛ فيصدقوننا و يعلمون أنا قد خرجنا إلى سفر . وكان صالح لا ينام معهم فى [القرية وكان[1] يأوى إلى] مسجده، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم ، فلما دخلوا الغار أرادوا أن يخرجوا فسقط عليهم الغار فقتلهم ، فرأى ذلك ناس ممن كان قد اطلع على ذلك، فصاحوا فى القرية : ياعباد الله ! أما رضى صالح أن أمر بقتل أولادهم حتى قتلهم ؛ فأجمع أهل القرية على قتل الناقة . وقال ابن إسحق : إنما اجتمع التسعة على سبّ صالح بعد عقرهم الناقة و إنذارهم بالعذاب على ما يأتى بيانه فى سورة «النمل»[2] إن شاء الله تعالى . ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ هو من السحر فى قول مجاهد وقتادة على ما قال المهدوى . أى أصبت بالسحر فبطل عقلك؛ لأنك بشر مثلنا فلم تدع الرسالة دوننا . وقيل : من المعلَّلين بالطعام والشراب؛ قاله ابن عباس والكلبى وقتادة ومجاهد أيضا فيما ذكر الثعلبى . وهو على هذا القول من السَّحر وهو الرئة أى بشر لك سَحْر أى رئة تأكل وتشرب مثلنا كما قال [لبيد[3]] :

فإن تسألينا فِيمَ نحن فإننا * عصافيرُ من هذا الأنام المُسَحَّرِ

وقال [امرؤ القيس]

* ونُسْحَرُ بالطَّعام و بالشَّراب[4] *

﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى قولك . ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ قال ابن عباس : قالوا إن كنت صادقا فادع الله يخرج لنا من هذا الجبل ناقة حمراء عشراء[5] فتضع ونحن ننظر ، وترد هذا الماء فتشرب وتغدو علينا بمثله لبنا . فدعا الله

---

(١) الزيادة من «قصص الأنبياء» للثعلبى . (٢) فى تفسير قوله تعالى : «وكان فى المدينة تسعة رهط» .

(٣) فى نسخ الأصل : امرؤ القيس؛ والتصويب من ديوان لبيد . (٤) صدر البيت :

* أرانا موضعين لأمر غيب *

موضعين : مسرعين . وأمر غيب يريد الموت وأنه قد غيب عنا وقته ونحن نلهى عنه بالطعام والشراب .

(٥) ناقة عشراء : مضى لحملها عشرة أشهر .

وفعل الله ذلك فـ « قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ » أى حظ [من المـاء](١) ؛ أى لكم شرب يوم ولها شرب يوم؛ فكانت إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله أول النهار وتسقيهم اللبن آخر النهـار ، و إذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم ، ليس لهم فى يوم ورودها أن يشربوا من شربها شيئا ، ولا لهـا أن تشرب فى يومهم من مائهم شيئا . قال الفـراء : الشِّرب الحظ من المـاء . قال النحاس : فأما المصدر فيقال فيـه شرب شَرْبًا وشُربا وشِربا وأكثرها المضمومة ؛ لأن المكسورة والمفتوحة يشتركان مع شىء آخر فيكون الشِّرْب الحظ من المـاء، ويكون الشَّرْب جمع شارب كما قال(٢) :

* فقلتُ للشَّرْب فى دُرْنَا وقد ثَمِلُوا *

إلا أن أبا عمرو بن العلاء والكسائى يختاران الشَّرب بالفتح فى المصدر، ويحتجان برواية بعض العلماء أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنها أيام أكل وشَرْب " . ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ لا يجـوز إظهار التضعيف هاهنا ؛ لأنهما حرفان متحركان من جنس واحد . ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ ﴾ جواب النهى، ولا يجوز حذف الفاء منه، والجزم كما جاء فى الأمر إلا شيئا روى عن الكسائى أنه يجـيزه . ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ أى على عقرها لمـا أيقنوا بالعذاب . وذلك أنه أنظرهم ثلاثا فظهرت عليهم العلامة فى كل يوم، وندموا ولم ينفعهم الندم عند معاينة العذاب . وقيل : لم ينفعهم النـدم لأنهم لم يتوبوا ، بل طلبوا صالحا عليـه السلام ليقتلوه لمـا أيقنوا بالعذاب . وقيل : كانت ندامتهم على ترك الولد إذ لم يقتلوه معها . وهو بعيد . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ إلى آخره تقدّم . ويقال : إنه ما آمن به من تلك الأمم إلا ألفان وثمـانمـائة رجل وامرأة . وقيل : كانوا أربعة آلاف . وقال كعب : كان قوم صالح اثنى عشر ألف قبيل كل قبيل نحو اثنى عشر ألفا من سوى النساء والذرية ، ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات .

---

(١) زيادة يقتضيها المعنى . (٢) هو الأعشى وتمـامه :

* شيموا فكيف يشيم الشارب الثمـل *

ودرنا (بضم الدال والفتح) موضع زعموا أنه بناحية اليمـامة . اللسان .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ مضى معناه وقصته فى « الأعراف »[1] و « هود » مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ كانوا ينكحونهم فى أدبارهم وكانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدّم « فى الأعراف » . ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ يعنى فروج النساء فإن الله خلقها للنكاح . قال إبراهيم بن مهاجر : قال لى مجاهد كيف يقرأ عبد الله « وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ » قلت : « وتذرون ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم » قال : الفرج؛ كما قال : « فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ » . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ أى متجاوزون لحدود الله . ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ ﴾ عن قولك هذا . ﴿ لَتَكُونَنَّ

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٣ وما بعدها و جـ ٩ ص ٧٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ أى من بلدنا وقريتنا . ﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ ﴾ يعنى اللواط ﴿ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ أى المبغضين والقلى البغض ؛ قليته أقليه قِلًى وقَلاء . قال (١) :

* فلستُ بمقلِيِّ الخلالِ ولا قالِى *

وقال آخــر (٢) :

عليكِ السلامُ لا مُلِلتِ قريبةً * ومالَكِ عندى إن نأيتِ قَلاءُ

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أى من عذاب عملهم . دعا الله لما أيس من إيمانهم ألا يصيبه من عذابهم .

قال تعالى : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ ولم يكن إلا ابنتاه على ما تقدم فى « هود » . ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ روى سعيد عن قتادة قال : غبرت فى عذاب الله عز وجل أى بقيت . وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى من الباقين فى الهَرَم أى بقيت حتى هَرِمت . قال النحاس : يقال للذاهب غابر والباقى غابر كما قال (٢) :

لا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بأَغْبارِها * إنّكَ لا تدرِى مَنِ النّاتِجُ

وكما قال (٣) :

فما وَنَى محمدٌ مذ انْ غَفَرْ * له الإلهُ ما مَضَى وما غَبَرْ

أى ما بقى . والأغبار بقيات الألبان . ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أى أهلكناهم بالخسف والحصب ؛ قال مقاتل : خسف الله بقوم لوط وأرسل الحجارة على من كان خارجا من القرية . ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ يعنى الحجارة ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ . وقيل : إن جبريل خسف بقريتهم وجعل عاليها سافلها ، ثم أتبعها الله بالحجارة . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ لم يكن فيها مؤمن إلا بيت لوط وابنتاه .

---

(١) هو امرؤ القيس ؛ وصدر البيت :

* صرفت الهوى عنهن من خشية الردى *

(٢) هو الحرث بن حلزة ؛ وكسع الناقة بغبرها ترك فى ضرعها بقية من اللبن .

وبعده : واحلب لأضيافك ألبانها * فإن شر اللبن الوالج

يقول : لا تغزر إبلك تطلب بذلك قوة نسلها ، واحلبها لأضيافك ، فلعل عدوا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك .

(٣) هو العجاج .

قوله تعالى : كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ
شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾
أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ
ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا إِنَّمَآ
أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ
يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

قوله تعالى : ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأيك الشجر الملتف الكثير الواحدة أيكة . ومن قرأ « أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ » فهى الغيضة . ومن قرأ « لَيْكَةَ » فهو آسم القرية . ويقال : هما مثل بكة ومكة ؛ قاله الجوهرى . وقال النحاس : وقرأ أبو جعفر ونافع « كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ » وكذا قرأ فى « صۤ » . وأجمع القراء على الخفض فى التى فى سورة « الحجر » والتى فى سورة « قۤ » فيجب أن يرد ما آختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه إذ كان المعنى واحدا . وأما ما حكاه أبو عبيد من أن « ليكة » هى آسم القرية التى كانوا فيها وأن « الأيكة » آسم البلد فشىء لا يثبت ولا يعرف من قاله فيثبت علمه ، ولو عرف من قاله لكان فيه نظر ؛ لأن أهل العلم جميعا من أهل التفسير والعلم بكلام العرب على خلافه .

وروى عبدالله بن وهب عن جرير بن حازم عن قتادة قال : أرسل شعيبٌ عليه السلام إلى أمتين : إلى قومه من أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة؛ قال : والأيكة غيضة من شجر ملتف . وروى سعيد عن قتادة قال : كان أصحاب الأيكة أهل غيضة وشجر وكانت عامة شجرهم الدوم وهو شجر المُقل . وروى ٱبن جبير عن الضحاك قال : خرج أصحاب الأيكة — يعني حين أصابهم الحر — فٱنضموا إلى الغيضة والشجر، فأرسل الله عليهم سحابة فٱستظلوا تحتها، فلما تكاملوا تحتها أُحرقوا . ولو لم يكن في هذا إلا ما روى عن ٱبن عباس قال : و « الأيكة » الشجر . ولا نعلم بين أهل اللغة ٱختلافا أن الأيكة الشجر الملتف، فأما ٱحتجاج بعض من ٱحتج بقراءة من قرأ في هذين الموضعين بالفتح أنه في السواد « ليكة » فلا حجة له؛ والقول فيه : إن أصله الأيكة ثم خففت الهمزة فألقيت حركتها على اللام فسقطت وٱستغنت عن ألف الوصل؛ لأن اللام قد تحركت فلا يجوز على هذا إلا الخفض؛ كما تقول بالأحمر تحقق الهمزة ثم تخففها فتقول بِلَحْمر؛ فإن شئت كتبته في الخط على ما كتبته أوّلا، وإن شئت كتبته بالحذف؛ ولم يجز إلا الخفض؛ قال سيبويه : وٱعلم أن ما لا ينصرف إذا دخلت عليه الألف واللام أو أضيف ٱنصرف؛ ولا نعلم أحدا خالف سيبويه في هذا . وقال الخليل : « الأيكة » غيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر . ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب؛ لأنه لم يكن أخا لأصحاب الأيكة في النسب، فلما ذكر مدين قال : « أَخَاهُمْ شُعَيْبًا »(1)؛ لأنه كان منهم . وقد مضى في « الأعراف » القول في نسبه . قال ٱبن زيد : أرسل الله شعيبا رسولا إلى قومه أهل مدين، وإلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة؛ وقاله قتادة . وقد ذكرناه . ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ تخافون الله ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَٱتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ الآية . وإنما كان جواب هؤلاء الرسل واحدا على صيغة واحدة؛ لأنهم متفقون على الأمر بالتقوى، والطاعة والإخلاص في العبادة، والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة . ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ الناقصين للكيل

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

والوزن . ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أى أعطوا الحق . وقد مضى فى «سُبْحَانَ» وغيرها . ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ تقدم فى « هود » وغيرها . ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾ قال مجاهد : الجبلة هى الخليقة . وجُبِل فلان على كذا أى خُلق ؛ فالخُلق جِبِلّة وجُبُلّة وجِبْلَة وجُبْلَة وجَبْلَة ذكره النحاس فى «معانى القرآن» . « والجبلة » عطف على الكاف والميم . قال الهروى : الجِبِلّة والجُبُلّة والجِبِلّ والجُبُلّ والجَبْل لغات ؛ وهو الجمع ذو العدد الكثير من الناس ؛ ومنه قوله تعالى : « جِبِلًّا كَثِيرًا » . قال النحاس فى كتاب « إعراب القرآن » له : ويقال جُبُلّة والجمع فيهما جِبَالّ ، وتحذف الضمة والكسرة من الباء ، وكذلك التشديد من اللام ؛ فيقال : جُبْلَة وجُبَل ، ويقال : جِبْلَة وجِبَال ؛ وتحذف الهاء من هذا كله . وقرأ الحسن باختلاف عنه « والجُبُلَّةَ الأَوَّلِينَ » بضم الجيم والباء ؛ وروى عن شيبة والأعرج . الباقون بالكسر . قال :

والموتُ أعظمُ حادثٍ * فيما يمرُّ على الجِبِلَّة

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ الذين يأكلون الطعام والشراب على ما تقدم . ﴿ وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى ما نظنك إلا من الكاذبين فى أنك رسول الله تعالى . ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا(1) مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى جانبا من السماء وقطعة منه ، فننظر إليه ؛ كما قال : « وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ » . وقيل : أرادوا أنزل علينا العذاب . وهو مبالغة فى التكذيب . قال أبو عبيدة : الكِسْف جمع كِسْفة مثل سِدْر وسِدْرة . وقرأ السُّلَمى وحفص « كِسَفًا » جمع كِسْفَة أيضا وهى القطعة والجانب تقديره كِسْرة وكِسَر . قال الجوهرى : الكِسْفة القطعة من الشىء ؛ يقال أعطنى كِسْفة من ثوبك والجمع كِسَف وكِسْف . ويقال : الكِسْف والكِسْفَة واحد . وقال الأخفش : من قرأ « كِسْفًا » جعله واحدا ومن قرأ « كِسَفًا » جعله جمعا . وقد مضى هذا فى سورة « سبحان »(2) . وقال الهروى : ومن قرأ « كِسْفًا » على التوحيد فجمعه أكساف وكسوف ؛ كأنه قال أو تسقطه علينا طبقا واحدا ،

---

(1) « كسفا » بإسكان السين قراءة نافع . (2) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

وهو من كسفت الشيء كسفا إذا غطيتـه . ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ تهـديد ؛ أي إنما عليّ التبليغ وليس العـذاب الذي سألتم إليّ وهو يجازيكم . ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ قال ابن عباس : أصابهم حر شديد، فأرسل الله سبحانه سحابة فهربوا إليها ليستظلوا بها ، فلما صاروا تحتها صيح بهم فهلكوا . وقيـل : أقامها الله فوق رءوسهم ، وألهبها حرا حتى ماتوا من الرَّمَد . وكان من أعظم يوم في الدنيا عذابا . وقيل : بعث الله عليهم سَمُوما فخرجوا إلى الأيكة يستظلون بها فأضرمها الله عليهم نارا فاحترقوا . وعن ابن عباس أيضا وغيره : إن الله تعالى فتح عليهم بابا من أبواب جهنم ، وأرسل عليهم هَدَّة وحرا شديدا فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا بيوتهم فلم ينفعهم ظل ولا ماء فأنضجهم الحر، فخرجوا هربا إلى البرية ، فبعث الله عز وجل سحابة فأظلتهم فوجدوا لها بردا وروحا وريحا طيبة ، فنادى بعضهم بعضا ، فلما اجتمعوا تحت السحابة أهبها الله تعالى عليهم نارا ، ورجفت بهم الأرض ، فاحترقوا كما يحترق الجـراد في المقلى ، فصاروا رمادا ؛ فذلك قوله : « فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا » وقوله : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ . وقيـل : إن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ، وسلط عليهم الحر حتى أخذ بأنفاسهم، ولم ينفعهم ظل ولا ماء فكانوا يدخلون الأسراب، ليتبردوا فيها فيجدوها أشد حرا من الظاهر ، فهربوا إلى البرية ، فأظلتهم سحابة وهي الظلة ، فوجدوا لهـا بردا ونسيما ، فأمطرت عليهـم نارا فاحترقوا . وقال يزيد الجُرَيْريّ : سلط الله عليهم الحر سـبعة أيام ولياليهن ثم رفع لهم جبل من بعيـد ، فأتاه رجل فإذا تحته أنهـار وعيون وشجر وماء بارد ، فاجتمعوا كلهم تحته ، فوقع عليهم الجبل وهو الظُّلَّة . وقال قتادة : بعث الله شعيبا إلى أمتين : أصحاب مدين وأصحاب الأيكة فأهلك الله أصحاب الأيكة بالظلة ، وأما أصحاب مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا أجمعين . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : آمن بشعيب من الفئتين تسعمائة نفر .

قوله تعالى : وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ عاد إلى ما تقدّم بيانه في أوّل السورة من إعراض المشركين عن القرآن . ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ « نَزَلَ » مخفّفا قرأ نافع وآبن كثير وأبو عمرو. الباقون « نَزَّلَ » مشدّدا « بِهِ الرُّوحَ الأَمِينَ » نصبا وهو آختيار أبي حاتم وأبي عبيد لقوله ؛ «وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ» وهو مصدر نزّل. والحجة لمن قرأ بالتخفيف أن يقول ليس هذا بمقدّر ؛ لأن المعنى و إن القرآن لتنزيل رب العالمين نزل به جبريل إليك؛ كما قال تعالى: « قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ » أي يتلوه عليك فيعيه قلبك . وقيل: ليثبت قلبك . ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ أي لئلا يقولوا لسنا نفهم ما تقول . ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ﴾ أي و إن ذكر نزوله لفي كتب الأوّلين يعني الأنبياء . وقيل : أي إن ذكر محمد عليه السلام في كتب الأوّلين ؛ كما قال تعالى : « يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ » والزُّبُر الكتب الواحد زَبور كرسول ورسل؛ وقد تقدّم .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ قال مجاهد : يعني عبد الله ابن سَلَام وسلمان وغيرهما ممن أسلم . وقال آبن عباس : بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة

يسألونهم عن محمد عليه السلام؛ فقالوا : إن هذا لزمانه، وإنا لنجد فى التوراة نعته وصفته . فيرجع لفظ العلماء إلى كل من كان له علم بكتبهم أسلم أو لم يسلم على هذا القول. وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين؛ لأنهم كانوا يرجعون فى أشياء من أمور الدّين إلى أهل الكتاب؛ لأنهم مظنون بهم علمٌ . وقرأ ابن عامر «أَوَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ» . الباقون «أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً» بالنصب على الخبر واسم يكن «أَنْ يَعْلَمَهُ» والتقدير أو لم يكن لهم علم علماء بنى إسرائيل الذين أسلموا آية واضحة . وعلى القراءة الأولى اسم كان «آيَةٌ» والخبر «أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ» . وقرأ عاصم الجحدرى « أَنْ تَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » . ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾ أى على رجل ليس بعربىّ اللسان ﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ﴾ بغير لغة العرب لما آمنوا ولقالوا لا نفقه . نظيره « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا » الآية . وقيل : معناه ولو نزلناه على رجل ليس من العرب لما آمنوا به أنفةً وكبرا . يقال : رجل أعجم وأعجمىّ إذا كان غير فصيح وإن كان عربيا ، ورجل عجمىّ وإن كان فصيحا ينسب إلى أصله ؛ إلا أن الفراء أجاز أن يقال رجل عجمىّ بمعنى أعجمى . وقرأ الحسن « عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِيِّينَ » مشدّدة بياءين جعله نسبة . ومن قرا « الْأَعْجَمِينَ » فقيل : إنه جمع أعجم . وفيه بعد؛ لأن ما كان من الصفات الذى مؤنثه فعلاء لا يجمع بالواو والنون، ولا بالألف والتاء؛ لا يقال أحمرون ولا حمراوات . وقيل : إن أصله الأعجميين كقراءة الجحدرى ثم حذفت ياء النسب، وجعل جمعه بالياء والنون دليلا عليها ؛ قاله أبو الفتح عثمان بن جِنّى . وهو مذهب سيبويه .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ ﴾ يعنى القرآن أى الكفر به ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ . وقيل : سلكنا التكذيب فى قلوبهم ؛ فذلك الذى منعهم من الإيمان ؛ قاله يحيى بن سلّام . وقال عكرمة : القسوة . والمعنى متقارب وقد مضى فى « الحجر »[1] . وأجاز الفراء الجزم فى « لَا يُؤْمِنُونَ » ؛ لأن فيه معنى الشرط والمجازاة . وزعم أن من شأن العرب إذا وضعت لا موضع كى لا فى مثل هذا ربما جزمت ما بعدها وربما رفعت؛ فتقول : ربطت

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٧ طبعة أولى أو ثانية .

الفرس لا ينفلت بالرفع والجزم ؛ لان معناه إن لم أربطه ينفلت ، والرفع بمعنى كيلا ينفلت .
وأنشد لبعض بنى عُقيل :

وحتى رأينا أحسنَ الفعلِ بيننا * مُسَاكَنَةً لا يَقرِفُ الشرَّ قارِفُ

بالرفع لما حذف كى . ومن الجزم قول الآخر :

لَطَالَمَا حَلَّأْتُمَاها لا تَرِدْ * فخلِّياها والسِّجالَ تَبْتَرِدْ (١)

قال النحاس : وهذا كله فى «يؤمنون» خطأ عند البصريين ؛ ولا يجوز الجزم بلا جازم ، ولا يكون شىء يعمل عملا فإذا حذف عمل عملا أقوى من عمله وهو موجود ؛ فهذا آحتجاج بيِّن .
﴿ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أى العذاب . وقرأ الحسن « فَتَأْتِيَهُمْ » بالتاء ؛ والمعنى : فتأتيهم الساعة بغتة فأضمرت لدلالة العذاب الواقع فيها ، ولكثرة ما فى القرآن من ذكرها . وقال رجل للحسن وقد قرأ « فَتَأْتِيَهُمْ » : يا أبا سعيد إنما يأتيهم العذاب بغتة . فانتهره وقال : إنما هى الساعة تأتيهم بغتة أى فجأة . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانها .
﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ أى مؤخرون وممهلون . يطلبون الرجعة هنالك فلا يجابون إليها .
قال القشيرى : وقوله « فَيَأْتِيَهُمْ » ليس عطفا على قوله : «حَتَّىٰ يَرَوُا» بل هو جواب قوله : «لَا يُؤْمِنُونَ» فلما كان جوابا للنفى آنتصب ، وكذلك قوله : « فَيَقُولُوا » .

قوله تعالى : أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾
ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾
وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ قال مقاتل : قال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم يا محمد إلى متى تعدنا بالعذاب ولا تأتى به ! فنزلت « أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ » . ﴿ أَفَرَأَيْتَ

---

(١) حلأها : منعها من ورود الماء . والسجال : (جمع سجل) وهى الدلو الضخمة المملوءة ماء . وتبترد : تشرب الماء لتبرد به كبدها . والبيت قاله بعض النسوة لبعض لما زوّجن آمرأة قد تزوجت من رجل كان عاشقا لها .

إنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ يعنى فى الدنيا والمراد أهل مكة فى قول الضحاك وغيره . ﴿ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب والهلاك ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ . « مَا » الأولى آستفهام معناه التقرير ، وهو فى موضع نصب بـ « أغنى » و « ما » الثانية فى موضع رفع ، ويجوز أن تكون الثانية نفيا لا موضع لها . وقيل : « ما » الأولى حرف نفى ، و « ما » الثانية فى موضع رفع بـ « أغنى » والهاء العائدة محذوفة . والتقدير : ما أغنى عنهم الزمان الذى كانوا يمتعونه . وعن الزهرى : إن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ « أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ » ثم يبكى ويقول :

نهارُك يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ * وليلُك نومٌ والرَّدَى لك لازمُ
فلا أنتَ فى الأَيقاظ يقظانُ حازمٌ * ولا أنتَ فى النُّوَّام ناجٍ فسالمُ
تُسَرُّ بما يَفْنَى وتفرحُ بالمنى * كما سُرَّ باللذات فى النوم حالمُ
وتَسعى إلى ما سوف تكره غِبَّهُ * كذلك فى الدنيا تَعيشُ البهائمُ

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ « مِنْ » صلة ؛ المعنى : وما أهلكنا قرية . ﴿ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ أى رسل . ﴿ ذِكْرَى ﴾ . قال الكسائى : « ذِكْرَى » فى موضع نصب على الحال . النحاس : وهذا لا يحصل ، والقول فيه قول الفراء وأبى إسحق أنها فى موضع نصب على المصدر ؛ قال الفراء : أى يذكّرون ذكرى ؛ وهذا قول صحيح ؛ لأن معنى « إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ » إلا لها مذكّرون . و « ذِكْرَى » لا يتبين فيه الإعراب ؛ لأن فيها ألفا مقصورة . ويجوز « ذِكْرًى » بالتنوين ، ويجوز أن يكون « ذِكرى » فى موضع رفع على إضمار مبتدإ . قال أبو إسحق : أى إنذارنا ذكرى . وقال الفراء : أى ذلك ذكرى ، وتلك ذكرى . وقال آبن الأنبارى قال بعض المفسرين : ليس فى «الشعراء» وقف تام إلا قوله « إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ » وهذا عندنا وقف حسن ؛ ثم يبتدئ « ذِكرى » على معنى هى ذكرى أى يذكرهم ذكرى ، والوقف على « ذِكرى » أجود . ﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ فى تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم :

قوله تعالى : وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ يعنى القرآن بل ينزل به الروح الأمين . ﴿ وَمَا يَنْبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ أى برمى الشهب كما مضى فى سورة « الحِجْر »(1) بيانه . وقرأ الحسن ومحمد بن السَّمَيْقَع « وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطُونُ » قال المهدوى : وهو غير جائز فى العربية ومخالف للخط . وقال النحاس : وهذا غلط عند جميع النحويين؛ وسمعت على بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : هذا غلط عند العلماء ، إنما يكون بدخول شبهة ؛ لما رأى الحسن فى آخره ياء ونونا وهو فى موضع رفع اشتبه عليه بالجمع المسلّم فغلط، وفى الحديث : "احذروا زلّة العالم" وقد قرأ هو مع الناس « وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ » ولو كان هذا بالواو فى موضع رفع لوجب حذف النون للإضافة . وقال الثعلبى قال الفراء : غلط الشيخ — يعنى الحسن — فقيل ذلك للنضر بن شُمَيل فقال : إن جاز أن يحتج بقول رؤبة والعجاج وذويهما جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه مع أنا نعلم أنهما لم يقرأا بذلك إلا وقد سمعا فى ذلك شيئا ؛ وقال المؤرّج : إن كان الشيطان من شاط يشيط كان لقراءتهما وجه . وقال يونس بن حبيب : سمعت أعرابيا يقول دخلنا بساتين من ورائها بساتون؛ فقلت : ما أشبه هذا بقراءة الحسن .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ قيل : المعنى قل لمن كفر هذا . وقيل : هو مخاطبة له عليه السلام وإن كان لا يفعل هذا ؛ لأنه معصوم مختار ولكنه خوطب بهذا والمقصود غيره . ودل على هذا قوله : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » أى لا يتكلون على نسبهم وقرابتهم فيدعون ما يجب عليهم .

(1) راجع جـ ١٠ ص ١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ
ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾
وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ
فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ » خصّ عشيرته الأقربين بالإنذار؛ لتنحسم أطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب فى مفارقته إياهم على الشرك . وعشيرته الأقربون قريش . وقيل : بنو عبد مناف . ووقع فى صحيح مسلم : " وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين " . وظاهر هذا أنه كان قرآنا يتلى وأنه نسخ؛ إذ لم يثبت نقله فى المصحف ولا تواتر . ويلزم على ثبوته إشكال؛ وهو أنه كان يلزم عليه ألا ينذر إلا من آمن من عشيرته؛ فإن المؤمنين هم الذين يوصفون بالإخلاص فى دين الإسلام وفى حب النبى صلى الله عليه وسلم لا المشركون ؛ لأنهم ليسوا على شىء من ذلك ، والنبى صلى الله عليه وسلم دعا عشيرته كلهم مؤمنهم وكافرهم ، وأنذر جميعهم ومن معهم ومن يأتى بعدهم صلى الله عليه وسلم ؛ فلم يثبت ذلك نقلا ولا معنى . وروى مسلم من حديث أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية « وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ » دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فاجتمعوا فعمّ وخصّ فقال : " يابنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار يابنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار يابنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار يابنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار يا بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يابنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة أنقذى نفسك من النار فإنى لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحما سأبُلُّها ببلالها[1] " .

(١) " سأبلها ببلالها " : أى أصلكم فى الدنيا ولا أغنى عنكم من الله شيئا .

الثانيـــة ــ فى هذا الحديث والآية دليل على أن القرب فى الأنساب لا ينفع مع البعد فى الأسباب ، ودليل على جواز صلة المؤمن الكافر و إرشاده ونصيحته ؛ لقوله : " إن لكم رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبِلالها " وقوله عز وجل : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ » الآية ، على ما يأتى بيانه هناك .

قوله تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تقدّم فى سورة « الحجـر » و « سبحان » يقال : خفض جناحه إذا لانَ . ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ أى خالفوا أمرك . ﴿ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى برىء من معصيتكم إياى ؛ لأن عصّيانهم إياه عصيان لله عز وجل ؛ لأنه عليه السلام لا يأمر إلا بمـا يرضاه ، ومن تبرأ منه فقد تبرأ الله منه .

قوله تعـالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أى فوض أمرك إليـه فإنه العزيز الذى لا يغالب ، الرحيم الذى لا يخذل أوليـاءه . وقرأ العـامة « وَتَوَكَّلْ » بالواو وكذلك هو فى مصاحفهم .

وقرأ نافع وآبن عامر « فَتَوَكَّلْ » بالفـاء وكذلك هو فى مصاحف المدينـة والشام . ﴿ ٱلَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أى حين تقوم إلى الصلاة فى قول أكثر المفسرين : ابن عباس وغيره . وقال مجاهد : يعنى حين تقوم حيثما كنت . ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : فى المصلّين . وقال آبن عباس : أى فى أصلاب الآباء آدم ونوح و إبراهيم حتى أخرجه نبياً . وقال عكرمة : يراك قائما و راكعا وساجدا ؛ وقاله آبن عباس أيضا . وقيـل : المعنى ؛ إنك ترى بقلبك فى صـلاتك مَن خلفك كما ترى بعينيك مَن قدامك . وروى عن مجاهد؛ ذكره المـاوردى والثعلبى . وكان عليه السلام يرى مَن خلفه كما يرى مَن بين يديه ، وذلك ثابت فى الصحيح وفى تأويل الآية بعيد . ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ تقدم .

قوله تعـالى : هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ إنما قال « تَنَزَّلُ » لأنها أكثر ما تكون فى الهواء ، وأنها تمر من الريح . ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ تقدم فى « الحجر » . ف « يُلْقُونَ السَّمْعَ » صفة الشياطين « وَأَكْثَرُهُمْ » يرجع إلى الكهنة . وقيل : إلى الشياطين .

قوله تعالى : وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَالشُّعَرَاءُ » جمع شاعر مثل جاهل وجهلاء ؛ قال ابن عباس : هم الكفار « يَتَّبِعُهُمْ » ضلال الجن والإنس . وقيل : « الْغَاوُونَ » الزائلون عن الحق ، ودل بهذا أن الشعراء أيضا غاوون ؛ لأنهم لو لم يكونوا غاوين ما كان أتباعهم كذلك . وقد قدمنا فى سورة « النور »(١) أن من الشعر ما يجوز إنشاده، ويكره، ويحرم . روى مسلم من حديث عمرو بن الشَّريد عن أبيه قال : ردِفت رسول الله صلى الله عليه وسلم [يوما](٢) فقال : " هل معك من شعر أمية بن أبى الصَّلْت شىء " قلت : نعم . قال " هِيه " فأنشدته بيتا . فقال " هِيه " ثم أنشدته بيتا . فقال " هِيه " حتى أنشدته مائة بيت . هكذا صواب هذا السند وصحيح روايته . وقد وقع لبعض رواة كتاب مسلم : عن عمرو بن الشَّريد عن الشَّريد أبيه ؛ وهو وَهَم ؛ لأن الشَّريد هو الذى أردفه رسول الله صلى الله عليه وسلم . واسم أبى الشَّريد سُوَيْد . وفى هذا دليل على حفظ الأشعار والاعتناء بها إذا تضمنت الحِكَم والمعانى المستحسنة شرعا وطبعا ، وإنما استكثر النبى صلى الله عليه وسلم من شعر أمية ؛ لأنه

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٧١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) الزيادة من صحيح مسلم .

كان حكيما ؛ ألا ترى قوله عليه السلام : " وكاد أمية بن أبي الصَّلْت أن يسلم " فأما ما تضمن ذكر الله وحمده والثناء عليه فذلك مندوب إليه ؛ كقول القائل :

الحمد لله العلىّ المنّان (١) * صار الثريد فى رءوس العيدان

أو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مدحه كقول العباس :

مِن قبلها طِبْتَ فى الظِّلال وفى مُسْـ * ـتودعٍ حيث يُخصَفُ الورقُ

ثم هبطت البلاد لا بشرٌ أنـ * ـتَ ولا مُضْغةٌ ولا عَلَقُ

بل نطفة تركب السَّفِينَ وقد ألْـ * ـجَمَ نَسْرًا وأهلَه الغَرَقُ

تنقلُ مِن صَالبٍ الى رَحِمٍ * إذا مَضَى عالَمٌ بَدَا طَبَقُ (٢)

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يَفْضُضِ الله فاك " . أو الذبّ عنه كقول حسان :

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه * وعند الله فى ذاك الجزاءُ

وهى أبيات ذكرها مسلم فى صحيحه وهى فى السير أتم . أو الصلاة عليه ؛ كما روى زيد بن أسلم ؛ خرج عمر ليلة يحرس فرأى مصباحا فى بيت ، وإذا عجوز تنفش صوفا وتقول :

على محمدٍ صلاةُ الأبرارْ * صلى عليه الطيّبون الأخيارْ

قد كنتَ قوّامًا بَكًا بالأسحارْ * ياليتَ شِعْرى والمنايا أطوارْ

* هل يجمعنِّى وحبيبى الدارْ *

يعنى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فجلس عمر يبكى . وكذلك ذكر أصحابه ومدحهم رضى الله عنهم ؛ ولقد أحسن محمد بن سابق حيث قال :

إنى رضيتُ عليًّا للهُدَى عَلَمًا * كما رضيتُ عَتِيقًا صاحبَ الغارِ

وقد رضيتُ أبا حفصٍ وشيعتَهُ * وما رضيتُ بقتل الشيخ فى الدارِ

كلُّ الصحابة عندى قُدوةٌ عَلَمٌ * فهل علىّ بهذا القول من عارِ

إن كنتَ تعلم أنّى لا أحبّهمُ * إلا من اجلك فاعتقنى من النارِ

(١) كذا فى الأصول . (٢) طبق : قرن . أراد إذا مضى قرن ظهر قرن آخر .

وقال آخر فأحسن :

حُبُّ النبيِّ رسول الله مُفترَضٌ * وحُبُّ أصحابه نورٌ ببرهانِ

من كان يعلم أن الله خالقه * لا يَرمينَّ أبا بكرٍ ببهتانِ

ولا أبا حفصٍ الفاروقَ صاحبَه * ولا الخليفةَ عثمانَ بن عفانِ

أمّا عليٌّ فمشهورٌ فضائلُه * والبيت لا يَستوِى إلا بأركانِ

قال ابن العربي : أما الاستعارات في التشبيهات فمأذون فيها وإن استغرقت الحد وتجاوزت المعتاد ؛ فبذلك يضرب المَلك الموكَّل بالرؤيا المثَلَ ، وقد أنشد كعب بن زهير النبي صلى الله عليه وسلم :

بانت سعادُ فقلبي اليومَ متبُولُ * مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكْبُولُ

وما سُعادُ غَداةَ البَيْنِ إذ رَحَلوا * إلا أَغَنُّ غَضيضُ الطَّرْفِ مَكحولُ

تَجلُو عَوارِضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتسمتْ * كأنّه مُنْهَلٌ بالرّاحِ مَعْلولُ

فجاء في هذه القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بديع ، والنبي صلى الله عليه وسلم يسمع ولا ينكر في تشبيهه ريقها بالراح . وأنشد أبو بكر رضي الله عنه (١) :

فَقَدْنا الوحيَ إذ وليّتَ عنّا * وودَّعَنا من الله الكلامُ

سوى ما قد تركتَ لنا رهيناً * تَوارثه القَراطيسُ الكرامُ

فقد أورثتنا ميراثَ صدقٍ * عليك به التحيةُ والسلامُ

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمعه وأبو بكر ينشده ، فهل للتقليد والاقتداء موضع أرفع من هذا . قال أبو عمر : ولا ينكر الحسنَ من الشعر أحدٌ من أهل العلم ولا من أولي النُّهى ، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر ، أو تمثل به أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحا ، ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى ، فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء لا يحل سماعه ولا قوله ؛ وروى أبو هريرة قال

---

(١) قال ذلك في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول : " أصدق كلمة — أو أشعر كلمة — قالتها العرب قول لبيد : * ألَا كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطلُ * "

أخرجه مسلم وزاد " وكاد أمية بن أبي الصَّلت أن يُسلم " وروى عن ابن سيرين أنه أنشد شعرا فقال له بعض جلسائه : مثلك ينشد الشعر يا أبا بكر . فقال : ويلك يالُكَع ! وهل الشعر إلا كلام لا يخالف سائر الكلام إلا في القوافي ، فحسنه حسن وقبيحه قبيح ! قال : وقد كانوا يتذاكرون الشعر . قال : وسمعت ابن عمر ينشد :

يُحبُّ الخمرَ من مال النَّدامَى * ويَكرهُ أن يفارقَهُ الفَلُوسُ

وكان عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة العشرة ثم المشيخة السبعة شاعرا مجيدا مقدَّما فيه . وللزبير بن بكار القاضي في أشعاره كتاب ، وكانت له زوجة حسنة تسمى عَثْمة فعتب عليها في بعض الأمر فطلقها ، وله فيها أشعار كثيرة ؛ منها قوله :

تَغلغلَ حُبُّ عَثْمةَ في فؤادي * فباديه مع الخافي يسيرُ
تَغلغلَ حيث لم يبلغ شَرابٌ * ولا حزنٌ ولم يبلغ سرورُ
أكاد إذا ذكرتُ العهدَ منها * أطير لو ان إنسانا يَطيرُ

وقال ابن شهاب : قلت له تقول الشعر في نسكك وفضلك ! فقال : إن المصدور إذا نفث برأ .

الثانية — وأما الشعر المذموم الذي لا يحل سماعه وصاحبه ملوم ، فهو المتكلم بالباطل حتى يفضّلوا أجبن الناس على عنترة ، وأشحهم على حاتم ، وأن يبهتوا البريء ويفسقوا التقيّ ، وأن يفرطوا في القول بما لم يفعله المرء ؛ رغبة في تسلية النفس وتحسين القول ؛ كما روى عن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

فبِتْنَ بجانبيَّ مُصَرَّعاتٍ (١) * وبِتُّ أفُضُّ أغلاقَ الختامِ

(١) مصرعات : سكارى .

فقال : قد وجب عليك الحد . فقال : يا أمير المؤمنين قد درأ الله عنى الحد بقوله : « وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » . وروى أن النعمان بن عديّ بن نَضْلة كان عاملا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال :

مَنْ مُبْلِغُ الحسناءِ أنّ حليلَها * بمَيْسانَ يُسقَى فى زُجاجٍ وحَنْتَمِ
إذا شئتُ غنّتنى دَهاقينُ قريةٍ * ورقّاصةٌ تَجْذُو(١) على كلّ مَنْسِمِ
فإن كنتَ نَدْمانِى فبالأكبرِ اسقِنِى * ولا تَسقِنِى بالأصغرِ المتثلِّمِ
لعلّ أميرَ المؤمنين يَسوءُه * تَنادُمُنا بالجَوْسَقِ(٢) المتهدِّمِ

فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه بالقُدوم عليه . وقال : إى والله إنى ليسوءنى ذلك . فقال : يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئا مما قلت ، وإنما كانت فضلة من القول ، وقد قال الله تعالى : « وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » فقال له عمر : أما عذرك فقد درأ عنك الحد ، ولكن لا تعمل لى عملا أبدا وقد قلتَ ما قلتَ . وذكر الزبير بن بكار قال : حدّثنى مصعب بن عثمان أن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة لم يكن له همٌّ إلا عمر بن أبى ربيعة والأحوص فكتب إلى عامله على المدينة : إنى قد عرفت عمر والأحوص بالشر والخبث فإذا أتاك كتابى هذا فآشدد عليهما وآحملهما إلىّ . لما أتاه الكتاب حملهما إليه ، فأقبل على عمر ، فقال : هيه !

فلم أرَ كالتّجمير منظَرَ ناظرٍ * ولا كليالى الحجّ أفلتْنَ ذا هَوَى
وكم مالئٍ عينيه من شىءِ غيرِه * إذا راح نحو الجمرةِ البيضُ كالدُّمَى

أما والله لو آهتممت بحجك لم تنظر إلى شىء غيرك ، فإذا لم يفلت الناس منك فى هذه الأيام فمتى يفلتون ! ثم أمر بنفيه . فقال : يا أمير المؤمنين ! أو خير من ذلك؟ فقال : ما هو ؟ قال : أعاهد الله أنى لا أعود إلى مثل هذا الشعر ، ولا أذكر النساء فى شعر أبدا ، وأجدّد توبة ؛ فقال : أو تفعل؟ قال : نعم ؛ فعاهد الله على توبته وخلاه ؛ ثم دعا بالأحوص ، فقال هيه !

الله بينى وبينَ قَيِّمِها * يَفِرُّ منّى بها وأَتَّبِعُ

(١) تجذو : تقوم على أطراف الأصابع . (٢) الجوسق : القصر ؛ فارسى معرب .

بل الله بين قيمها و بينك! ثم أمر بنفيه؛ فكلمه فيــه رجال من الأنصار فأبى، وقال : والله لا أردّه ما كان لى سلطان ، فإنه فاسق مجاهر . فهــذا حكم الشعر المذموم وحكم صاحبه ، فلا يحــل سماعه ولا إنشاده فى مســجد و فى غيره ، كمنثور الكلام القبيح ونحوه . و روى إسمعيل بن عيّاش عن عبد الله بن عون عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حَسنُ الشعر كحَسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام" رواه إسمعيل عن عبد الله الشامى وحديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين وغيره . و روى عبد الله آبن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صــلى الله عليه وسلم : "الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام" .

الثالثــة ــ روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَأَنْ يمتلئَ جوفُ أحدكم قيحا حتى يَرِيَه خيرٌ من أن يمتلئَ شعرا" وفى الصحيح أيضا عن أبى سعيد الخدرى قال : بينا نحن نســير مع رسول الله صــلى الله عليه وسلم إذ عرض شاعر يُنشد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خذوا الشيطان ــ أو أمسكوا الشيطان ــ لَأَنْ يمتلئَ جوفُ رجلٍ قيحا خيرٌ له من أن يمتلئَ شعرا" قال علماؤنا : و إنما فعل النبى صلى الله عليه وسلم هذا مع هذا الشاعر لما علم من حاله ؛ فلعل هذا الشاعر كان ممن قد عرف من حاله أنه قد آتخذ الشعر طريقا للتكسب ؛ فيفرط فى المدح إذا أُعطى ، وفى الهجو والذم إذا مُنع ، فيؤذى الناس فى أموالهم وأعراضهم . ولا خلاف فى أن من كان على مثل هذه الحالة فكل ما يكتسبه بالشعر حرام . وكل ما يقوله من ذلك حرام عليــه ، ولا يحل الإصغاء إليه ؛ بل يجب الإنكار عليــه ؛ فإن لم يمكن ذلك لمن خاف من لسانه قطعا تعين عليــه أن يداريه بمــا آستطاع ، و يدافعه بمــا أمكن ، ولا يحل له أن يعطى شيئا آبتداء ، لأن ذلك عون على المعصية ؛ فإن لم يجد من ذلك بدًّا أعطاه بنية وقاية العرض ؛ فما وَقَى به المرءُ عرضه كُتب له به صــدقة . قوله : "لَأَنْ يمتلئَ جوفُ أحدكم قيحا حتى يَرِيَه" القيح المِدّة يخالطها دم . يقال منه : قاح الجُــرْح يَقيح وتقيّح وقيّح . و "يَرِيه" قال الأصمعى : هو من الوَرْى على

مثال الرمى وهو أن يَدْوَى جوفُه ، يقال منه : رجل مُوَرّى مشدّد غير مهموز . وفى الصحاح : وَرَى القيحُ جوفَه يَرِيه وريًا إذا أكله . وأنشد اليزيدى :

* قالت له وَرْيًا إذا تنحنحا *

وهذا الحديث أحسن ما قيل فى تأويله : إنه الذى قد غلب عليه الشعر، وامتلأ صدره منه دون علم سواه ولا شيء من الذكر ممن يخوض به فى الباطل ، ويسلك به مسالك لا تحمد له ، كالمكثر من اللغط والهَذَر والغيبة وقبيح القول . ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه الأوصاف المذمومة الدنية ، لحكم العادة الأدبية . وهذا المعنى هو الذى أشار إليه البخارى فى صحيحه لما بوّب على هذا الحديث « باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر » . وقد قيل فى تأويله : إن المراد بذلك الشعر الذى هُجِىَ به النبيّ صلى الله عليه وسلم أو غيره . وهذا ليس بشيء؛ لأن القليل من هجو النبيّ صلى الله عليه وسلم وكثيره سواء فى أنه كفر ومذموم ، وكذلك هجو غير النبيّ صلى الله عليه وسلم من المسلمين محرّم قليله وكثيره ، وحينئذ لا يكون لتخصيص الذم بالكثير معنى .

الرابعة — قال الشافعى : الشعر نوع من الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام ، يعنى أن الشعر ليس يكره لذاته وإنما يكره لمضمّناته ، وقد كان عند العرب عظيم الموقع . قال الأُوّل منهم :

* وجُرح اللسان كجُرْح اليد *

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الشعر الذى يرد به حسان على المشركين : " إنه لأسرع فيهم من رَشْق النَّبْل " أخرجه مسلم . وروى الترمذى وصححه عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم دخل مكة فى عُمْرة القضاء وعبد الله بن رَوَاحة يمشى بين يديه ويقول :

خَلُّوا بنى الكفّار عن سبيله * اليومَ نَضربْكُمْ على تنزيله
ضربًا يزيلُ الهامَ عن مَقيله * ويُذهِلُ الخليلَ عن خليله

فقال عمر : يابن رَوَاحة ! فى حرم الله وبين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خل عنه يا عمر فلهو أسرعُ فيهم من نَضح النَّبْل " .

الخامسة ــ قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ لم يختلف القراء في رفع « وَالشُّعَرَاءُ » فيما علمت . ويجوز النصب على إضمار فعل يفسره « يَتَّبِعُهُمْ » وبه قرأ عيسى ابن عمر؛ قال أبو عبيد : كان الغالب عليه حب النصب؛ قرأ «وَالسَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ» و«حَمَّالَةَ الْحَطَبِ» و « سُورَةً أَنْزَلْنَاهَا» . وقرأ نافع وشيبة والحسن والسلمي « يَتْبَعُهُمْ» مخففا. الباقون « يَتَّبِعُهُمْ » . وقال الضحاك : تهاجى رجلان أحدهما أنصاري والآخر مهاجري على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كل واحد غواة قومه وهم السفهاء فنزلت؛ وقاله ابن عباس . وعنه هم الرواة للشعر . وروى عنه علي بن أبي طلحة أنهم هم الكفار يتبعهم ضُلَّال الجن والإنس؛ وقد ذكرناه . وروى غُضَيْف[1] عن النبي صلى الله عليه وسلم : " من أحدث هجاء في الإسلام فاقطعوا لسانه " وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما افتتح مكة رَنّ[2] إبليس رنة وجمع إليه ذريته؛ فقال ايئسوا أن تريدوا أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا؛ ولكن أفشوا فيهما ــ يعني مكة والمدينة ــ الشِّعرَ .

السادسة ــ قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ يقول: في كل لغو يخوضون، ولا يتبعون سَنَن الحق ؛ لأن من اتبع الحق وعلم أنه يكتب عليه ما يقوله تثبت ، ولم يكن هاهنا يذهب على وجهه لايبالي ماقال، نزلت في عبد الله ابن الزِّبَعْرَى ومُسافع بن عبد مناف وأمية بن أبي الصلت . ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ يقول : أكثرهم يكذبون؛ أي يدلون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه . وقيل : إنها نزلت في أبي عزة الجُمَحي حيث قال :

أَلَا أبلغا عــنّي النبيَّ محمــداً * بأنَّكَ حَــقٌّ والمليــكُ حميــدُ
ولَكنْ إذا ذُكِّرتُ بَدْرًا وأهــلَهُ * تَأَوَّهَ مــنّي أعظــمٌ وجــلودُ

ثم استثنى شعر المؤمنين : حسان بن ثابت وعبد الله بن رَوَاحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ومن كان على طريقهم من القول الحق؛ فقال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ في كلامهم ﴿ وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ وإنما يكون الانتصار بالحق ،

(١) في نسخة : خصيف . (٢) رن : صاح صيحة حزينة .

ومما حدّه الله عز وجل ، فإن تجاوز ذلك فقد آنتصر بالباطل . وقال أبو الحسن المبرّد : لما نزلت « وَالشُّعَرَاءُ » جاء حسان وكعب بن مالك وابن رَوَاحة يبكون إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا : يا نبي الله ! أنزل الله تعالى هذه الآية، وهو تعالى يعلم أنا شعراء؟ فقال: "آقرءوا ما بعدها « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » — الآية — أنتم « وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا » أنتم" أي بالرد على المشركين . قال النبي صلى الله عليه وسلم : "آنتصروا ولا تقولوا إلا حقا ولا تذكروا الآباء والأمهات" فقال حسان لأبي سفيان :

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه * وعندَ الله في ذاك الجزاءُ
وإن أبي ووالدتي وعِرْضي * لعِرض محمد منكم وِقاءُ
أتشتمه ولستَ له بكفءٍ * فشركما لخيركما الفداءُ
لساني صارمٌ لا عيبَ فيه * وبحري لا تُكدِّره الدِّلاءُ

وقال كعب يا رسول الله! إن الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت فكيف ترى فيه؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأن ماترمونهم به نَضْح النَّبل" . وقال كعب :

جاءت سَخِينةُ[1] كي تُغالبَ ربَّها * ولَيُغْلَبَنّ مُغالِبُ الغَلّابِ

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لقد مدحك الله يا كعب في قولك هذا" . وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى : « وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ » منسوخ بقوله : « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » . قال المهدوي : وفي الصحيح عن آبن عباس أنه آستثناء . « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » في هذا تهديد لمن آنتصر بظلم [أي][2] سيعلم الظالمون كيف يخلصون من بين يدي الله عز وجل ؛ فالظالم ينتظر العقاب ، والمظلوم ينتظر النصرة . وقرأ آبن عباس « أَيَّ مُنْفَلَتٍ يَنْفَلِتُونَ » بالفاء والتاء ومعناهما واحد . الثعلبي : ومعنى « أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » أي مصير يصيرون وأي مرجع يرجعون ؛ لأن مصيرهم إلى

(١) السخينة : طعام حار يتخذ من دقيق وسمن — وقيل من دقيق وتمر — أغلظ من الحساء وأرق من العصيدة ، وكانت قريش تكثر من أكلها فعيرت بها حتى سموا سخينة . (٢) زيادة يقتضيها السياق .

النار، وهو أقبح مصير، ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع . والفرق بين المنقلب والمرجع أن المنقلب الانتقال إلى ضدّ ما هو فيـه، والمرجع العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها فصار كل مرجع منقلبا، وليس كل منقلب مرجعا؛ والله أعلم؛ ذكره المـاوردى . و « أىَّ » منصوب بـ « يَنْقَلِبُونَ » وهو بمعنى المصدر، ولا يجوز أن يكون منصوبا بـ « سَيَعْلَمُ » لأن أيا وسائر أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها فيما ذكر النحويون؛ قال النحاس : وحقيقة القول فى ذلك أن الاستفهام معنى وما قبله معنى آخر فلو عمل فيه ما قبله لدخل بعض المعانى فى بعض .

ســـــورة النمــــل

مكية كلها فى قول الجميع، وهى ثلاث وتسعون آية . وقيل : أربع وتسعون آية .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ مضى الكلام فى الحروف المقطعة فى « البقرة » وغيرها . و « تِلْكَ » بمعنى هذه؛ أى هذه السورة آيات القرآن وآيات كتاب مبين . وذكر القرآن بلفظ المعرفة، وقال : « وَكِتَابٍ مُبِينٍ » بلفظ النكرة وهما فى معنى المعرفة؛ كما تقـول : فلان رجل عاقل وفلان الرجل العاقل . والكتاب هـو القرآن، فجمع له بين الصفتين : بأنه قرآن وأنه كتاب؛ لأنه ما يظهر بالكتابة، ويظهر بالقراءة . وقد مضى

آشتقاقهما فى « البقرة » . وقال فى سورة الحجر : « الر تلكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ » فأخرج الكتاب بلفظ المعرفة والقرآن بلفظ النكرة ؛ وذلك لأن القرآن والكتاب آسمان يصلح لكل واحد منهما أن يجعل معرفة، وأن يجعل صفة . ووصفه بالمبين لأنه بين فيه أمره ونهيه وحلاله وحرامه ووعده ووعيده؛ وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ « هُدًى » فى موضع نصب على الحال من الكتاب؛ أى تلك آيات الكتاب هادية ومبشرة . ويجوز فيه الرفع على الآبتداء ؛ أى هو هدى . وإن شئت على حذف حرف الصفة ؛ أى فيه هدى . ويجوز أن يكون الخبر « لِلْمُؤْمِنِينَ » ثم وصفهم فقال : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ وقد مضى فى أوّل « البقرة » بيان هذا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى لا يصدّقون بالبعث . ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قيل : أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة . وقيل : زينا لهم أعمالهم الحسنة فلم يعملوها . وقال الزجاج : جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ماهم فيه . ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أى يترددون فى أعمالهم الخبيثة ، وفى ضلالتهم . عن ابن عباس . أبو العالية : يتمادون . قتادة : يلعبون . الحسن : يتحيرون؛ قال الراجز :

ومَهْمَهٍ أطرافُه فى مَهْمَهٍ * أَعْمَى الهُدَى بالحائرين العُمَّهِ (١)

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ وهو جهنم . ﴿ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ . « فِي الْآخِرَةِ » تبيين وليس بمتعلق بالأخسرين فإن من الناس من خسر الدنيا وربح الآخرة، وهؤلاء خسروا الآخرة بكفرهم فهم أخسر كل خاسر .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ ﴾ أى يلقى عليك فتلقاه وتعلمه وتأخذه . ﴿ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ « لَدُنْ » بمعنى عند إلا أنها مبنية غير معربة ؛ لأنها لا تتمكن ، وفيها لغات ذكرت فى « الكهف » (٢) . وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق من الأقاصيص، وما فى ذلك من لطائف حكمته، ودقائق علمه .

---

(١) البيت لرؤبة ، ويروى : بالجاهلين العمه . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٥٢ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ ﴾ « إذ » منصوب بمضمر وهو آذكر ؛ كأنه قال على أثر قوله « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » : خذ يا محمد من آثار حكمته وعلمه قصة موسى إذ قال لأهله . ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ أي أبصرتها من بعد . قال الحرث بن حلزة :

آنستْ نَبْأَةً وأفزعَها القُنَّـاصُ عصرًا وقدْ دنَا الإمساءُ[(١)]

﴿ سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائى « بِشهابٍ قبسٍ » بتنوين «شهاب» . والباقون بغير تنوين على الإضافة ؛ أى بشعلة نار ؛ وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وزعم الفراء فى ترك التنوين أنه بمنزلة قولهم : ولدار الآخرة ، ومسجد الجامع ، وصلاة الأولى ؛ يضاف الشيء إلى نفسه إذا آختلفت أسماؤه . قال النحاس : إضافة الشيء إلى نفسه محال عند البصريين ، لأن معنى الإضافة فى اللغة ضم شيء إلى شيء

(١) آنست : أحست . والنبأة : الصوت الخفى .

فمحال أن يضم الشيء إلى نفسه، وإنما يضاف الشيء إلى الشيء ليتبين به معنى الملك أو النوع، فمحال أن يتبين أنه مالك نفسه أو من نوعها. و « شِهابٍ قبسٍ » إضافة النوع والجنس، كما تقول: هذا ثوبُ خزٍّ، وخاتمُ حديدٍ وشبهه. والشهاب كل ذى نُور؛ نحو الكوكب والعُود الموقَد. والقَبَس آسم لما يقتبس من جمر وما أشبهه؛ فالمعنى بشهاب من قبس. يقال: أقبست قبسا؛ والآسم قبس. كما تقول: قبضت قبضا. والآسم القبض. ومن قرأ « بِشِهابٍ قَبَسٍ » جعله بدلا منه. المهدوى: أو صفة له؛ لأن القبس يجوز أن يكون آسما غير صفة، ويجوز أن يكون صفة؛ فأما كونه غير صفة فلأنهم قالوا قبسته أقبسه قبسا والقبس المقبوس؛ وإذا كان صفة فالأحسن أن يكون نعتا. والإضافة فيه إذا كان غير صفة أحسن. وهى إضافة النوع إلى جنسه كخاتم فضة وشبهه. ولو قرئ بنصب قبس على البيان أو الحال كان أحسن. ويجوز فى غير القرآن بشهابٍ قبسًا على أنه مصدر أو بيان أو حال. « لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » أصل الطاء تاء فأبدل منها هنا طاء؛ لأن الطاء مطبقة والصاد مطبقة فكان الجمع بينهما حسنا، ومعناه يستدفئون من البرد. يقال: آصطلى يصطلى إذا آستدفأ. قال الشاعر:

النارُ فاكهةُ الشتاءِ فمن يُرِدْ * أكلَ الفواكهِ شاتيًا فليصطلِ

الزّجاج: كل أبيض ذى نُور فهو شهاب. أبو عبيدة: الشهاب النار. قال أبو النّجم:

كأنما كان شهابًا واقدًا * أضاء ضوءًا ثم صار خامدًا

أحمد بن يحيى: أصل الشهاب عود فى أحد طرفيه جمرة والآخر لا نار فيه؛ وقول النحاس فيه حسن: والشهاب الشعاع المضيء ومنه الكوكب الذى يمد ضوءه فى السماء. وقال الشاعر:

فى كفّه صَعْدَةٌ[1] مثقّفةٌ * فيها سِنانٌ كشُعلةِ القَبَسِ

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا ﴾ أى فلما جاء موسى الذى ظن أنه نار وهى نور؛ قاله وهب بن منبه. فلما رأى موسى النار وقف قريبا منها، فرآها تخرج من فرع شجرة خضراء شديدة الخضرة يقال لها العُلّيق، لا تزداد النار إلا عظما وتضرّما، ولا تزداد الشجرة

(١) الصعدة: القناة التى تنبت مستقيمة.

إلا خضرة وحسنا ؛ فعجب منها وأهوى إليها بضغث في يده ليقتبس منها ؛ فمالت إليه ، فخافها فتأخر عنها ؛ ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها إلى أن وضح أمرها على أنها مأمورة لا يدرى من أمرها ، إلى أن « نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا » . وقد مضى هذا المعنى في « طه » . ﴿ نُودِيَ ﴾ أي ناداه الله ؛ كما قال : « وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ » . ﴿ أَنْ بُورِكَ ﴾ قال الزجاج : « أَنْ » في موضع نصب ؛ أي بأنه . قال : ويجوز أن تكون في موضع رفع جعلها اسم ما لم يسم فاعله . وحكى أبو حاتم أن في قراءة أُبيّ وابن عباس ومجاهد « أن بوركت النار ومن حولها » . قال النحاس : ومثل هذا لا يوجد بإسناد صحيح ، ولو صح لكان على التفسير ، فتكون البركة راجعة إلى النار ومن حولها الملائكة وموسى . وحكى الكسائي عن العرب : باركك الله ، وبارك فيك . الثعلبي : العرب تقول باركك الله ، وبارك فيك ، وبارك عليك ، وبارك لك ، أربع لغات . قال الشاعر :

فبوركتَ مولودًا وبوركتَ ناشئًا * وبوركتَ عند الشَّيب إذ أنتَ أشيبُ

الطبريّ : قال « بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ » ولم يقل بورك [في من في] (1) النار على لغة من يقول باركك الله . ويقال باركه الله ، وبارك له ، وبارك عليه ، وبارك فيه بمعنًى ؛ أي بورك على من في النار وهو موسى ، أو على من في قرب النار ؛ لا أنه كان في وسطها . وقال السدي : كان في النار ملائكة فالتبريك عائد إلى موسى والملائكة ؛ أي بورك فيك ياموسى وفي الملائكة الذين هم حولها . وهذا تحية من الله تعالى لموسى وتكرمة له ، كما حيا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه ؛ قال : « رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ » . وقول ثالث قاله ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير : قُدِّس مَن في النار وهو الله سبحانه وتعالى ، عنى به نفسه تقدّس وتعالى . قال ابن عباس ومحمد بن كعب : النار نور الله عز وجل ؛ نادى الله موسى وهو في النور ؛ وتأويل هذا أن موسى عليه السلام رأى نورا عظيما فظنه نارا ؛ وهذا لأن الله تعالى ظهر لموسى بآياته وكلامه من النار لا أنه يتحيز في جهة «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ»

(1) الزيادة من تفسير الطبري .

لا أنه يتحيز فيهما، ولكن يظهر فى كل فعل فيعلَم به وجود الفاعل. وقيل على هذا: أى بورك من فى النار سلطانه وقدرته. وقيل: أى بورك ما فى النار من أمر الله تعالى الذى جعله علامة.

قلت : ومما يدل على صحة قول آبن عباس ما خرجه مسلم فى صحيحه، وآبن ماجه فى سننه واللفظ له عن أبى موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط و يرفعه حجابه النور لو كشفها[1] لأحرقت سُبُحات وجهه كل شىء أدركه بصره" ثم قرأ أبو عبيدة " أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" أخرجه البيهقى أيضا . ولفظ مسلم عن أبى موسى قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات؛ فقال : " إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط و يرفعه يُرفَع إليه عملُ الليل قبل عمل النهار وعملُ النهار قبل عمل الليل حجابه النور — وفى رواية أبى بكر النار — لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما آنتهى إليه بصرُه من خلقه" قال أبو عبيد : يقال السُّبُحات إنها جلال وجهه، ومنها قيل : سبحان الله إنما هو تعظيم له وتنزيه . وقوله : "لو كشفها" يعنى لو رفع الحجاب عن أعينهم ولم يثبّتهم لرؤيته لاحترقوا وما آستطاعوا لها . قال آبن جُريج : النار حجاب من الحجب وهى سبعة حجب؛ حجاب العزّة، وحجاب الملك، وحجاب السلطان، وحجاب النار ، وحجاب النور ، وحجاب الغمام، وحجاب الماء . و بالحقيقة فالمخلوق المحجوب والله لا يحجبه شىء؛ فكانت النار نورا و إنما ذكره بلفظ النار؛ لأن موسى حسبه نارا ، والعرب تضع أحدهما موضع الآخر . وقال سعيد بن جبير : كانت النار بعينها فأسمعه تعالى كلامه من ناحيتها ، وأظهر له ربوبيته من جهتها . وهو كما روى أنه مكتوب فى التوراة : «جاء الله من سيناء وأشرف من ساعير وآستعلى من جبال فاران» . فمجيئه من سيناء بعثه موسى منها ، و إشرافه من ساعير بعثه المسيح منها ، وآستعلاؤه من فاران بعثه محمدا صلى الله عليه وسلم ، وفاران مكة . وسيأتى فى «القصص» بإسماعه سبحانه كلامه من الشجرة زيادة بيان إن شاء الله تعالى .

---

(١) لعل تأنيث الضمير بتأويل النور بالأنوار . (هامش آبن ماجه) .

قوله تعالى : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ تنزيها وتقديسا لله رب العالمين . وقد تقدم فى غير موضع، والمعنى : أى ويقول من حولها «وَسُبْحَانَ اللَّهِ» فحذف . وقيل : إن موسى عليه السلام قاله حين فرغ من سماع النداء؛ استعانة بالله تعالى وتنزيها له؛ قاله السدى . وقيل : هو من قول الله تعالى . ومعناه : وبورك فيمن سبح الله تعالى رب العالمين؛ حكاه ابن شجرة .

قوله تعالى : ﴿ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الهاء عماد وليست بكناية فى قول الكوفيين . والصحيح أنها كناية عن الأمر والشأن . «أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ» الغالب الذى ليس كمثله شىء « الْحَكِيمُ » فى أمره وفعله . وقيل : قال موسى يا رب من الذى نادى ؟ فقال له : « إِنَّهُ » أى إنى أنا المنادى لك « أَنَا اللَّهُ » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ قال وهب بن منبه : ظن موسى أن الله أمره أن يرفضها فرفضها . وقيل : إنما قال له ذلك ليعلم موسى أن المكلم له هو الله ، وأن موسى رسوله ؛ وكل نبى لا بد له من آية فى نفسه يعلم بها نبوته . وفى الآية حذف : أى وألق عصاك فألقاها من يده فصارت حية تهتز كأنها جان، وهى الحية الخفيفة الصغيرة الجسم . وقال الكلبى : لا صغيرة ولا كبيرة . وقيل : إنها قلبت له أولا حية صغيرة فلما أنس منها قلبت حية كبيرة . وقيل : انقلبت مرة حية صغيرة، ومرة حية تسعى وهى الأنثى، ومرة ثعبانا وهو الذكر الكبير من الحيات . وقيل : المعنى انقلبت ثعبانا تهتز كأنها جان لها عظم الثعبان وخفة الجان واهتزازه وهى حية تسعى . وجمع الجان جنان ؛ ومنه الحديث "نهى عن قتل الجنان التى فى البيوت" . ﴿ وَلَّى مُدْبِرًا ﴾ خائفا على عادة البشر ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أى لم يرجع؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : لم يلتفت . ﴿ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ ﴾ أى من الحية وضررها . ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ وتم الكلام ثم استثنى استثناء منقطعا فقال : ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ . وقيل : إنه استثناء من محذوف ؛ والمعنى : إنى لا يخاف لدى المرسلون وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ ﴾ فإنه لا يخاف ؛ قاله الفراء .

قال النحاس : ٱستثناء من محذوف محال ؛ لأنه ٱستثناء من شيء لم يذكر ولو جاز هذا لجاز إنى لأضرب القوم إلا زيدا بمعنى إنى لا أضرب القوم وإنما أضرب غيرهم إلا زيدا؛ وهذا ضدّ البيان ، والمجيء بما لا يعرف معناه . وزعم الفرّاء أيضا : أن بعض النحويين يجعل إلا بمعنى الواو أى ولا من ظلم ؛ قال :

وكلُّ أخٍ مفــارِقُه أخوهُ * لَعَمْرُ أبيكَ إلا الْفَرْقَدانِ

قال النحاس : وكون « إلاَّ » بمعنى الواو لا وجه له ولا يجــوز فى شيء من الكلام ، ومعنى « إلّا » خلاف الواو ؛ لأنك إذا قلت : جاءنى إخوتك إلا زيدا أخرجت زيدا ممــا دخل فيــه الإخوة فلا نســبة بينهما ولا تقارب . وفى الآية قول آخر : وهو أن يكون الٱستثناء متصلا؛ والمعنى إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصغائر التى لا يسلم منها أحد، سوى ما روى عن يحيى بن زكريا عليه السلام ، وما ذكره الله تعالى فى نبينا عليه السلام فى قوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » ذكره المهــدوى وٱختاره النحاس ؛ قال : علم الله من عصى منهم [يُسِرَّ الخيفة](١) فٱستثناه فقال : « إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ » فإنه يخاف و إن كنت قد غفرت له . الضحاك : يعنى آدم وداود عليهما السلام . الزمخشرى : كالذى فرط من آدم و يونس وداود وسليمان و إخوة يوسف ، ومن موسى عليه السلام بوكزه القبطى . فإن قال قائل : فما معنى الخوف بعد التوبة والمغفرة ؟ قيل له : هذه سبيل العلماء بالله عز وجل أن يكونوا خائفين من معاصيهم وجلين ، وهم أيضــا لا يأمنون أن يكون قــد بقى من أشراط التوبة شيء لم يأتوا به ، فهــم يخافون من المطالبة به . وقال الحسن وٱبن جريج : قال الله لموسى إنى أخفتك لقتلك النفس . قال الحسن : وكانت الأنبيــاء تذنب فتعاقَب . قال الثعلبى والقشيرى والماوردى وغيرهم : فالٱستثناء على هذا صحيح ؛ أى إلا من ظلم نفسه من النبيين والمرسلين فيما فعل من صغيرة قبل النبوة . وكان موسى خاف من قتل القبطى وتاب منه . وقد قيل : إنهم بعد النبوة معصومون من الصغائر والكبائر . وقد مضى هذا فى « البقرة »(٢) .

---

(١) الزيادة من «إعراب القرآن» للنحاس . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٠٨ وما بعدها طبعة ثانية وثالثة .

قلت : والأول أصح لتنصلهم من ذلك فى القيامة كما فى حديث الشفاعة، وإذا أحدث المقرّب حدثا فهو وإن غفر له ذلك الحدث فأثر ذلك الحدث باق ، وما دام الأثر والتهمة قائمة فالخوف كائن لا خوف العقوبة ولكن خوف العظمة، والمتهم عند السلطان يجد للتهمة حزازة تؤديه إلى أن يكدّر عليه صفاء الثقة . وموسى عليه السلام قد كان منه الحدث فى ذلك الفرعونى ، ثم آستغفر وأقر بالظلم على نفسه ، ثم غفر له ، ثم قال بعد المغفرة « رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ » ثم آبتلى من الغد بالفرعونى الآخر وأراد أن يبطش به، فصار حدثا آخر بهذه الإرادة . وإنما آبتلى من الغد لقوله : « فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ » وتلك كلمة آقتدار من قوله لن أفعل، فعوقب بالإرادة حين أراد أن يبطش ولم يفعل، فسلط عليه الإسرائيلى حتى أفشى سره؛ لأن الإسرائيلى لما رآه تشمر للبطش ظن أنه يريده، فأفشى عليه فـ « قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ » فهرب الفرعونى وأخبر فرعون بما أفشى الإسرائيلى على موسى ، وكان القتيل بالأمس مكتوما أمره ، لا يدرى من قتله ، فلما علم فرعون بذلك ، وجه فى طلب موسى ليقتله ، وآشتد الطلب وأخذوا مجامع الطرق ؛ جاء رجل يسعى فـ « قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ » الآية . فخرج كما أخبر الله . فخوف موسى إنما كان من أجل هذا الحدث ؛ فهو وإن قربه ربه وأكرمه وآصطفاه بالكلام فالتهمة الباقية ولّت به ولم يعقب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ (١) تقدّم فى « طه » القول فيه . ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ قال النحاس أحسن ما قيل فيه أن المعنى : هذه الآية داخلة فى تسع آيات . المهدوى : المعنى « أَلْقِ عَصَاكَ » «وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ » فهما آيتان من تسع آيات . وقال القشيرى معناه : كما تقول خرجت فى عشرة نفر وأنت أحدهم . أى خرجت عاشر عشرة . فـ « فى » بمعنى « من » لقربها منها كما تقول خذ لى عشرا من الإبل فيها فلان أى منها . وقال الأصمعى فى قول آمرئ القيس :

وهل يَنْعَمَنْ (٢) من كان آخرُ عهده * ثلاثين شهرًا فى ثلاثة أحوالِ

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) وفى رواية : «وهل يعمن» .

فى بمعنى من . وقيل : فى بمعنى مع ؛ فالآيات عشرة منها اليد ، والتسع : الفلق والعصا والجراد والقُمَّل والطوفان والدم والضفادع والسنين والطَّمْس[1] . وقد تقدّم بيان جميعه .
﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾ قال الفراء : فى الكلام إضمار لدلالة الكلام عليه ، أى إنك مبعوث أو مرسل إلى فرعون وقومه . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أى خارجين عن طاعة الله ؛ وقد تقدّم :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أى واضحة بينة . قال الأخفش : ويجوز مَبْصَرة وهو مصدر كما يقال الولد مَجْبَنة . ﴿ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ جروا على عادتهم فى التكذيب فلهذا قال : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ أى تيقنوا أنها من عند الله وأنها ليست سحرا ، ولكنهم كفروا بها وتكبروا أن يؤمنوا بموسى . وهذا يدل على أنهم كانوا معاندين . و «ظُلْمًا» و «عُلُوًّا» منصوبان على نعت مصدر محذوف ، أى وجحدوا بها جحودا ظلما وعلوا . والباء زائدة أى وجحدوها ؛ قاله أبو عبيدة . ﴿ فَانْظُرْ ﴾ يا محمد ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى آخر أمر الكافرين الطاغين ، انظر ذلك بعين قلبك وتدبر فيه . الخطاب له والمراد غيره .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾ أى فهما ؛ قاله قتادة . وقيل : علما بالدين والحكم وغيرهما كما قال : « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ » . وقيل : صنعة الكيمياء . وهو شاذ . وإنما الذى آتاهما الله النبوة والخلافة فى الأرض والزبور . « وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ

(١) الطمس : طمس الشىء إذهابه عن صورته . وقد صير الله أموالهم ودراهمهم حجارة . راجع جـ ٨ ص ٣٧٤ طبعة أولى أو ثانية ما

الذى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ » وفى الآية دليل على شرف العلم و إنافة محله وتقدّم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النّعم وأجزل القِسَم، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من عباد الله المؤمنين . « يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » . وقد تقدّم هذا فى غير موضع .

قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ قال الكلبى : كان لداود صلى الله عليه وسلم تسعة عشر ولدا فورث سليمان من بينهم نبوته وملكه، ولو كان وراثة مال لكان جميع أولاده فيه سواء؛ وقاله ابن العربى؛ قال : فلو كانت وراثة مال لانقسمت على العدد؛ فخص الله سليمان بما كان لداود من الحكمة والنبوة، وزاده من فضله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده . قال ابن عطية : داود من بنى إسرائيل وكان ملكا وورث سليمان ملكه ومنزلته من النبوة، بمعنى صار إليه ذلك بعد موت أبيه فسمى ميراثا تجوزا؛ وهذا نحو قوله : "العلماء ورثة الأنبياء" ويحتمل قوله عليه السلام : "إنا معشر الأنبياء لانورث" أن يريد أن ذلك من فعل الأنبياء وسيرتهم، وإن كان فيهم من ورث ماله كزكريا على أشهر الأقوال فيه؛ وهذا كما تقول : إنا معشر المسلمين إنما شغلتنا العبادة، والمراد أن ذلك فعل الأكثر . ومنه ما حكى سيبويه : إنا معشر العرب أقرى الناس للضيف .

قلت : قد تقدّم هذا المعنى فى « مريم »(1) وأن الصحيح القول الأوّل لقوله عليه السلام : "إنا معشر الأنبياء لانُورَث" فهو عام ولا يخرج منه شيء إلا بدليل . قال مقاتل : كان سليمان أعظم ملكا من داود وأقضى منه ، وكان داود أشد تعبدا من سليمان . قال غيره : ولم يبلغ أحد من الأنبياء ما بلغ ملكه؛ فإن الله سبحانه وتعالى سخر له الإنس والجن والطير والوحش، وآتاه ما لم يؤت أحدا من العالمين، وورث أباه فى الملك والنبوة، وقام بعده بشريعته، وكل نبى جاء بعد موسى ممن بعث أو لم يبعث فإنما كان بشريعة موسى، إلى أن بعث المسيح عليه السلام فنسخها . وبينه وبين الهجرة نحو من ألف وثمانمائة سنة . واليهود تقول ألف

(1) راجع جـ ١١ ص ٨١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وثلاثمائة وآثنان وستون سنة . وقيل : إن بين موته و بين مولد النبي صلى الله عليه وسلم نحوا من ألف وسبعمائة ، واليهود تنقص منها ثلثمائة سنة ، وعاش نيفا وخمسين سنة .

قوله تعالى : « وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ » أى قال سليمان لبنى إسرائيل على جهة الشكر لنعم الله « عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ » أى تفضل الله علينا على ما ورثنا من داود من العلم والنبوة والخلافة فى الأرض فى أن فهمنا من أصوات الطير المعانى التى فى نفوسها . قال مقاتل فى الآية : كان سليمان جالسا ذات يوم إذ مر به طائر يطوف ، فقال لجلسائه : أتدرون ما يقول هذا الطائر ؟ إنها قالت لى : السلام عليك أيها الملك المسلَّط والنبى لبنى إسرائيل ! أعطاك الله الكرامة ، وأظهرك على عدوك ، إنى منطلق إلى أفراخى ثم أمرّ بك الثانية ؛ وإنه سيرجع إلينا الثانية ثم رجع ، فقال إنه يقول : السلام عليك أيها الملك المسلَّط ، إن شئت أن تأذن لى كيما أكتسب على أفراخى حتى يشبوا ثم آتيك فافعل بى ما شئت . فأخبرهم سليمان بما قال ، وأذن له فانطلق . وقال فَرْقَد السَّبَخِيّ : مرّ سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه و يميل ذنبه ، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول هذا البلبل ؟ قالوا لا يا نبى الله . قال إنه يقول : أكلتُ نصف ثمرة فعلى الدنيا العَفَاء . ومر بهدهد فوق شجرة وقد نصب له صبىّ فخا فقال له سليمان : آحذر ياهدهد ! فقال : يا نبى الله ! هذا صبى لا عقل له فأنا أسخر به . ثم رجع سليمان فوجده قد وقع فى حِبالة الصبىّ وهو فى يده ، فقال : هدهد ما هذا ؟ قال : ما رأيتها حتى وقعت فيها يا نبى الله . قال : ويحك ! فأنت ترى الماء تحت الأرض أما ترى الفخ ! قال : يا نبى الله إذا نزل القضاء عَمِىَ البصر . وقال كعب . صاح وَرَشان عند سليمان آبن داود ، فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : لِدُوا للموت وآبنوا للخراب . وصاحت فاختة ، فقال : أتدرون ما تقول؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : ليت هذا الخلق لم يُخلقوا وليتهم إذ خُلقوا علموا لماذا خُلقوا . وصاح عنده طاوس ، فقال : أتدرون مايقول؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : كما تدين تدان . وصاح عنده هدهد ، فقال : أتدرون مايقول؟ قالوا لا . قال فإنه يقول : من لا يَرحم لا يُرحم . وصاح صُرَد عنده ، فقال : أتدرون مايقول؟

قالوا: لا . قال إنه يقول : استغفروا الله يا مذنبين؛ فمن ثَمّ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله . وقيل : إن الصُّرَد هو الذى دل آدم على مكان البيت . وهو أوّل من صام؛ ولذلك يقال للصُّرَد الصوّام؛ روى عن أبى هريرة . وصاحت عنده طِيطَوى فقال : أتدرون ماتقول؟ قالوا: لا . قال إنها تقول : كل حى ميت وكل جديد بال . وصاحت خُطَّافة عنده ، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : قدّموا خيرا تجدوه ؛ فمن ثَمّ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلها . وقيل : إن آدم خرج من الجنة فاشتكى إلى الله الوحشة ، فآنسه الله تعالى بالخُطَّاف وألزمها البيوت، فهى لا تفارق بنى آدم أنسًا لهم . قال : ومعها أربع آيات من كتاب الله عز وجل : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ » إلى آخرها وتمدّ صوتها بقوله « الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . وهدرت حمامة عند سليمان فقال : أتدرون ما تقول؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : سبحان ربى الأعلى عدد ما فى سمواته وأرضه . وصاح قُمْرِى عند سليمان، فقال أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا . قال إنه يقول : سبحان ربى العظيم المهيمن . وقال كعب : وحدثهم سليمان ، فقال الغراب يقول : اللهم العن العشّار ؛ والحِدَأة تقول : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » . والقطاة تقول : من سكت سلم . والببغاء تقول : ويل لمن الدنيا همه . والضفدع يقول : سبحان ربى القدّوس . والبازى يقول: سبحان ربى وبحمده . والسَّرَطان يقول : سبحان المذكور بكل لسان فى كل مكان .

وقال مكحول : صاح دُرّاج عند سليمان ، فقال : أتدرون مايقول ؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » . وقال الحسن قال النبى صلى الله عليه وسلم : " الديك إذا صاح قال اذكروا الله يا غافلين " . وقال الحسن بن على بن أبى طالب قال النبى صلى الله عليه وسلم : " النَّسر إذا صاح قال يابن آدم عِش ماشئت فآخرك الموت وإذا صاح العُقاب قال فى البعد من الناس الراحة وإذا صاح القُنْبر قال إلهى العن مبغضى آل محمد وإذا صاح الخطّاف قرأ « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » إلى آخرها فيقول « وَلَا الضَّالِّينَ » ويمد بها صوته كما يمد القارئ " . قال قَتَادة والشَّعْبى : إنما هذا الأمر فى الطير خاصة، لقوله : « عُلِّمْنَا

مَنْطِقَ الطَّيْرِ» والنملة طائر إذ قد يوجد له أجنحة . قال الشعبي : وكذلك كانت هذه النملة ذات جناحين . وقالت فرقة : بل كان في جميع الحيوان، وإنما ذكر الطير لأنه كان جندا من جند سليمان يحتاجه في التظليل عن الشمس وفي البعث في الأمور فخص بالذكر لكثرة مداخلته ؛ ولأن أمر سائر الحيوان نادر وغير متردد ترداد أمر الطير . وقال أبو جعفر النحاس : والمنطق قد يقع لما يفهم بغير كلام، والله جل وعز أعلم بما أراد . قال ابن العربي : من قال إنه لا يعلم إلا منطق الطير فنقصان عظيم ، وقد اتفق الناس على أنه كان يفهم كلام من لا يتكلم ويخلق له فيه القول من النبات، فكان كل نبت يقول له : أنا شجر كذا ؛ أنفع من كذا وأضر من كذا؛ فما ظنك بالحيوان .

قوله تعالى : وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ » « حشر » جمع والحشر الجمع ومنه قوله عز وجل : « وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا » واختلف الناس في مقدار جند سليمان عليه السلام ؛ فيقال : كان معسكره مائة فرسخ في مائة : خمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش . وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة منكوحة وسبعمائة سرية . ابن عطية : واختلف في معسكره ومقدار جنده اختلافا شديدا غير أن الصحيح أن ملكه كان عظيما ملأ الأرض، وانقادت له المعمورة كلها . ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ معناه يُرد أولهم إلى آخرهم ويُكفّون . قال قتادة : كان لكل صنف وَزَعة في رتبتهم ومواضعهم من الكرسي ومن الأرض إذا مشوا فيها . يقال : وزعته أوزعه وزْعا أي كففته . والوازع في الحرب الموكل بالصفوف يزع من تقدم منهم . روى محمد بن إسحق عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي طوى — تعني

يوم الفتح — قال أبو قحافة وقد كُفَّ بصره يومئذ لابنته : أظهري بي على أبي قُبيس .
قالت : فأشرفت به عليه فقال : ماترين ؟ قالت : أرى سوادا مجتمعا . قال تلك الخيل .
قالت وأرى رجلا من السواد مقبلا ومدبرا . قال : ذلك الوازع يمنعها أن تنتشر . وذكر
تمام الخبر . ومن هذا قوله عليه السلام : " ما رؤى الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر
ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة وما ذاك إلا لما رأى من تنزّل الرحمة وتجاوز الله عن
الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر " قيل : وما رأى يا رسول الله ؟ قال : " أما أنه رأى
جبريل يزع الملائكة " خرّجه الموطأ . ومن هذا المعنى قول النابغة :

على حينَ عاتبتُ المَشيبَ على الصِّبا ... وقلتُ ألمَّا أصحُ والشَّيبُ وازعُ

آخر :

ولما تلاقَينا جرتْ من جُفوننا ... دموعٌ وزعْنا غرْبَها بالأصابعِ

آخر :

ولا يَزَعُ النفسَ اللَّجوجَ عن الهوى ... من الناسِ إلا وافرُ العقلِ كامله

وقيل : هو من التوزيع بمعنى التفريق . والقوم أوزاع أي طوائف . وفي القصة : إن
الشياطين نسجت له بساطا فرسخا في فرسخ ذهبا في إبريسم ، وكان يوضع له كرسيّ من ذهب
وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب ، والعلماء على
كراسي الفضة .

الثانية — في الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام وزَعة يكفّون الناس ويمنعونهم
من تطاول بعضهم على بعض ؛ إذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم . وقال ابن عون : سمعت
الحسن يقول وهو في مجلس قضائه لما رأى ما يصنع الناس قال : والله ما يُصلح هؤلاء الناسَ
إلا وَزَعةٌ . وقال الحسن أيضا : لا بدّ للناس من وازع ؛ أي من سلطان يكفهم . وذكر ابن
القاسم قال حدثنا مالك أن عثمان بن عفان كان يقول : ما يَزَعُ الإمام أكثر مما يَزَعُ القرآن ؛
أي من الناس . قال ابن القاسم : قلت لمالك ما يزع ؟ قال : يكف . قال القاضي أبو بكر
ابن العربي : وقد جهل قوم المراد بهذا الكلام ، فظنوا أن المعنى فيه أن قدرة السلطان تردع

الناس أكثر مما تردعهم حدود القرآن وهذا جهل بالله وحكمته . قال : فإن الله ما وضع الحدود إلا مصلحة عامة كافة قائمة لقوام الخلق، لا زيادة عليها، ولا نقصان معها، ولا يصلح سواها، ولكن الظلمة خاسوا بها، وقصروا عنها، وأتوا ما أتوا بغير نية، ولم يقصدوا وجه الله في القضاء بها، فلم يرتدع الخلق بها، ولو حكموا بالعدل، وأخلصوا النية، لاستقامت الأمور، وصلح الجمهور .

قوله تعالى : حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (١٩)

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ) قال قتادة : ذكر لنا أنه واد بأرض الشام . وقال كعب : هو بالطائف . (قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ) قال الشعبي : كان للنملة جناحان فصارت من الطير، فلذلك علم منطقها ولولا ذلك لما علمه . وقد مضى هذا ويأتي . وقرأ سليمان التيمي بمكة « نَمُلَة » و « النَّمُل » بفتح النون وضم الميم . وعنه أيضا ضمهما جميعا . وسميت النملة نملة لتنملها وهو كثرة حركتها وقلة قرارها . قال كعب : مر سليمان عليه السلام بوادي السدير من أودية الطائف، فأتى على وادي النمل، فقامت نملة تمشي وهي عرجاء تتكاوس مثل الذئب في العظم، فنادت « يأيها النمل » الآية . الزمخشري : سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال، وكانت تمشي وهي عرجاء تتكاوس، وقيل : كان اسمها طاخية . وقال السهيلي : ذكروا اسم النملة المكلمة لسليمان عليه السلام، وقالوا اسمها حرميا، ولا أدري كيف يتصور للنملة اسم علم والنمل لا يسمي بعضهم بعضا، ولا الآدميون يمكنهم تسمية

واحدة منهم باسم علم، لأنه لا يتميز للآدميين بعضهم من بعض، ولا هم أيضا واقعون تحت ملكة بني آدم كالخيل والكلاب ونحوها، فإن العلمية فيها كان كذلك موجودة عند العرب. فإن قلت : إن العلمية موجودة في الأجناس كثعالة وأسامة وجعار وقثام في الضبع ونحو هذا كثير؛ فليس اسم النملة من هذا؛ لأنهم زعموا أنه اسم علم لنملة واحدة معينة من بين سائر النمل، وثعالة ونحوه لا يختص بواحد من الجنس، بل كل واحد رأيته من ذلك الجنس فهو ثعالة، وكذلك أسامة وابن آوى وابن عرس وما أشبه ذلك. فإن صح ما قالوه فله وجه، وهو أن تكون هذه النملة الناطقة قد سميت بهذا الاسم في التوراة أو في الزبور أو في بعض الصحف سماها الله تعالى بهذا الاسم، وعرفها به الأنبياء قبل سليمان أو بعضهم. وخصت بالتسمية لنطقها وإيمانها فهذا وجه. ومعنى قولنا بإيمانها أنها قالت للنمل : ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فقولها « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » التفاتة مؤمن. أي من عدل سليمان وفضله وفضل جنوده لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بألا يشعروا. وقد قيل : إن تبسم سليمان سرور بهذه الكلمة منها؛ ولذلك أكد التبسم بقوله : « ضاحكا » إذ قد يكون التبسم من غير ضحك ولا رضا، ألا تراهم يقولون تبسم تبسم الغضبان وتبسم تبسم المستهزئين. وتبسم الضحك إنما هو عن سرور، ولا يسر نبي بأمر دنيا؛ وإنما سر بما كان من أمر الآخرة والدين. وقولها : « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » إشارة إلى الدين والعدل والرأفة. ونظير قول النملة في جند سليمان « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » قول الله تعالى في جند محمد صلى الله عليه وسلم « فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ». التفاتا إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن. إلا أن المثني على جند سليمان هي النملة بإذن الله تعالى، والمثني على جند محمد صلى الله عليه وسلم هو الله عز وجل بنفسه؛ لما لجنود محمد صلى الله عليه وسلم من الفضل على جند غيره من الأنبياء؛ كما لمحمد صلى الله عليه وسلم فضل على جميع النبيين صلى الله عليهم وسلم أجمعين. وقرأ شهر بن حوشب « مَسْكَنَكُمْ » بسكون السين على الإفراد. وفي مصحف أبي « مَسَاكِنَكُنَّ لَا يَحْطِمَنْكُمْ ». وقرأ سليمان التيمي « مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنْكُنَّ » ذكره النحاس؛ أي لا يكسرنكم بوطئهم عليكم وهم لا يعلمون بكم.

قال المهدوى : وأفهم الله تعالى النملة هـذا لتكون معجزة لسليمان . وقال وهب : أمر الله تعالى الريح ألا يتكلم أحد بشيء إلا طرحتـه فى سمع سليمان ؛ بسبب أن الشياطين أرادت كيده . وقد قيل : إن هذا الوادى كان ببلاد اليمن وأنها كانت نملة صغيرة مثل النمل المعتاد؛ قاله الكلبى . وقال نوف الشامى وشـقيق بن سلمة : كان نمـل ذلك الوادى كهيئة الذئاب فى العظم . وقال بُريدة الأسلمى : كهيئة النعاج . قال محمـد بن على الترمذى : فإن كان على هذه الخلقة فلها صوت، و إنما افتقد صوت النمل لصغر خلقها ، و إلا فالأصوات فى الطيور والبهائم كائنة، وذلك منطقهم، وفى تلك المناطق معانى التسبيح وغير ذلك، وهو قوله تعالى: « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْـدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

قلت : وقوله « لَا يَحْطِمَنَّكُمْ » يدل على صحة قول الكلبى ؛ إذ لو كانت كهيئة الذئاب والنعاج لـا حطمت بالوطء ؛ والله أعلم . وقال : « ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ » فجاء على خطاب الآدميين لأن النمل هاهنا أجرى مجرى الآدميين حين نطق كما ينطق الآدميون . قال أبو إسحق الثعلبى : ورأيت فى بعض الكتب أن سليمان قال لهـا لم حذرت النمـل ؟ أخفت ظلمى ؟ أما علمت أنى نبى عدل؟ فلم قلت « يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُـودُهُ » فقالت النملة : أما سمعت قولى « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » مع أنى لم أرد حطم النفوس، و إنمـا أردت حطم القلوب خشـية أن يتمنين مثل ما أعطيت ، أو يفتتن بالدنيا ، ويشـتغلن بالنظر إلى ملكك عن التسـبيح والذكر . فقال لها سليمان : عظينى . فقالت النملة : أما علمت لم سُمِّى أبوك داود؟ قال : لا . قالت : لأنه داوى جراحة فؤاده ؛ هل علمت لم سميت سليمان ؟ قال : لا . قالت : لأنك سليم الناحية على ما أوتيته بسلامة صدرك ، و إن لك أن تلحق بأبيك(1) . ثم قالت : أتدرى لم سخر الله لك الريح ؟ قال : لا . قالت : أخبرك أن الدنيا كلها ريح . ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾ متعجبا ثم مضت مسرعة إلى قومها ، فقالت : هل عنـدكم من شيء نهـديه إلى

---

(1) العبارة فى «قصص الأنبياء» للثعلبى : « قالت لأنك سليم وكنت إلى ما أوتيت بسلامة صدرك، وحق لك أن تلحق بأبيك داود » .

نبيّ الله ؟ قالوا : وما قدر ما نهدى له ! والله ما عندنا إلا نبقة واحدة . قالت : حسنة؛ ايتونى بها . فأتوها بها فحملتها بفيها فانطلقت تجرها، فأمر الله الريح فحملتها ، وأقبلت تشق الأنس والجن والعلماء والأنبياء على البساط ، حتى وقعت بين يديه ، ثم وضعت تلك النبقة من فيها فى كفه ، وأنشأت تقول :

ألم ترنا نُهدى إلى الله مالَهُ * وإن كان عنه ذا غنى فهو قابلُهْ
ولو كان يُهدَى للجليل بقدره * لقصّر عنه البحرُ يوما وساحلُهْ
ولكننا نُهدى إلى من نُحبُّه * فيرضى به عنا ويشكر فاعلُهْ
وما ذاك إلا من كريم فعالُه * وإلا فما فى ملكنا ما يشاكلُهْ

فقال لها : بارك الله فيكم ؛ فهم بتلك الدعوة أشكر خلق الله وأكثر خلق الله . وقال ابن عباس : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب : الهدهد والصُّرَد والنملة والنحلة ؛ خرجه أبو داود وصححه أبو محمد عبد الحق وروى من حديث أبى هريرة . وقد مضى فى « الأعراف »(1) . فالنملة أثنت على سليمان وأخبرت بأحسن ما تقدر عليه بأنهم لا يشعرون إن حطموكم ، ولا يفعلون ذلك عن عمد منهم ، فنفت عنهم الجور ؛ ولذلك نهى عن قتلها ، وعن قتل الهدهد ؛ لأنه كان دليل سليمان على الماء ورسوله إلى بلقيس . وقال عكرمة : إنما صرف الله شر سليمان عن الهدهد لأنه كان بارا بوالديه . والصُّرَد يقال له الصوّام . وروى عن أبى هريرة قال : أوّل من صام الصُّرَد ولما خرج إبراهيم عليه السلام من الشام إلى الحرم فى بناء البيت كانت السكينة(2) معه والصُّرَد، فكان الصّرد دليله على الموضع والسكينة مقداره ، فلما صار إلى البقعة وقعت السكينة على موضع البيت ونادت وقالت : ابن يا إبراهيم على مقدار ظلّى . وقد تقدّم فى « الأعراف »(3) سبب النهى عن قتل الضّفدع وفى « النحل » النهى عن قتل النّحل . والحمد لله .

---

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٧٠ طبعة أولى أو ثانية .
(2) السكينة : سحابة كما فى القصة . وفى حديث على رضى الله عنه إن السكينة ريح سريعة المر . وليس بواضح .
(3) راجع جـ ١٠ ص ١٣٤ طبعة أولى أو ثانية .

الثانيـــة — قرأ الحسن « لا يَحَطِّمَنَّكُمْ » وعنه أيضا « لاَ يَحْطِمْنكُمْ » وعنه أيضا وعن أبي رجاء « لاَ يُحَطِّمَنَّكُمْ » والحَطْم الكسر . حطمته حَطْما أى كسرته وتحطَّم ؛ والتحطيم التكسير . « وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ » يجوز أن يكون حالا من سليمان وجنوده ، والعامل فى الحال « يَحْطِمَنَّكُمْ » . أو حالا من النملة والعامل « قالت » . أى قالت ذلك فى حال غفلة الجنود ؛ كقولك : قمت والناس غافلون . أو حالا من النمل أيضا والعامل « قَالَتْ » على أن المعنى : والنمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقالتها . وفيه بعد وسيأتى .

الثالثـــة — روى مسلم من حديث أبى هريرة عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم "أن نملة قرصت نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله تعالى إليه أفى أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبِّح" وفى طريق آخر : "فهلا نملة واحدة" . قال علماؤنا : يقال إن هـذا النبيّ هو موسى عليه السلام، وإنه قال : يارب تعذب أهل قرية بمعاصيهم وفيهم الطائع . فكأنه أحب أن يريه ذلك من عنده ، فسلط عليه الحر حتى ٱلتجأ إلى شجرة مستروحا إلى ظلها ، وعندها قرية النمل ، فغلبه النوم، فلما وجد لذة النوم لدغته النملة فأضجرته ، فدلكهن بقدمه فأهلكهن ، وأحرق تلك الشجرة التى عندها مساكنهم ، فأراه الله العبرة فى ذلك آية : لمـا لدغتك نملة فكيف أصبت الباقين بعقوبتها ! يريد أن ينبهه أن العقوبة من الله تعالى تعم فتصير رحمة على المطيع وطهارة وبركة ، وشرا ونقمة على العاصى . وعلى هذا فليس فى الحديث ما يدل على كراهة ولا حظر فى قتل النمل؛ فإن من آذاك حل لك دفعه عن نفسك ، ولا أحد من خلقه أعظم حرمة من المؤمن ، وقد أبيح لك دفعه عنك بقتل وضرب على المقدار ، فكيف بالهوام والدواب التى قد سخرت لك وسلطت عليها ، فإذا آذاك أبيح لك قتله . وروى عن إبراهيم : ما آذاك من النمل فاقتله . وقوله : "ألا نملة واحدة" دليل على أن الذى يؤذى يؤذَى ويقتل ، وكلما كان القتـل لنفع أو دفع ضرر فلا بأس به عند العلماء . وأطلق له نملة ولم يخص تلك النملة التى لدغت من غيرها ؛ لأنه ليس المراد القصاص ؛ لأنه لو أراده لقـال ألا نملتك التى لدغتك ، ولكن قال : ألا نملة مكان نمـلة ؛ فعم البرىء

والجانى بذلك، ليعلم أنه أراد أن ينبهه لمسئلته ربه فى عذاب أهل قرية وفيهم المطيع والعاصى .
وقد قيل : إن هذا النبيّ كانت العقوبة للحيوان بالتحريق جائزة فى شرعه؛ فلذلك إنما عاتبه الله تعالى فى إحراق الكثير من النمل لا فى أصل الإحراق . ألا ترى قوله : " فهلا نملة واحدة " أى هلا حرقت نملة واحدة . وهذا بخلاف شرعنا ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى عن التعذيب بالنار . وقال " لا يعذّب بالنار إلا الله " وكذلك أيضا كان قتل النمل مباحا فى شريعة ذلك النبيّ ؛ فإن الله لم يعتبه على أصل قتل النمل . وأما شرعنا فقد جاء من حديث ابن عباس وأبى هريرة النهى عن ذلك . وقد كره مالك قتل النمل إلا أن يضر ولا يقدر على دفعه إلا بالقتل . وقد قيل : إن هذا النبيّ إنما عاتبه الله حيث انتقم لنفسه بإهلاك جمع آذاه واحد ، وكان الأولى الصبر والصفح ؛ لكن وقع للنبيّ أن هذا النوع مؤذٍ لبنى آدم، وحرمة بنى آدم أعظم من حرمة غيره من الحيوان غير الناطق . فلو انفرد له هذا النظر ولم ينضم إليه التشفى الطبعى لم يعاتب . والله أعلم . لكن لما انضاف إليه التشفى الذى دل عليه سياق الحديث عوتب عليه .

الرابعة ــ قوله : " أفى أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبّح " مقتضى هذا أنه تسبيح بمقال ونطق، كما أخبر الله عن النمل أن لها منطقا وفهمه سليمان عليه السلام ــ وهذا معجزة له ــ وتبسم من قولها . وهذا يدل دلالة واضحة أن للنمل نطقا وقولا، لكن لا يسمعه كل أحد، بل من شاء الله تعالى ممن خرق له العادة من نبيّ أو وليّ . ولا ننكر هذا من حيث أنا لا نسمع ذلك ؛ فإنه لا يلزم من عدم الإدراك عدم المدرك فى نفسه . ثم إن الإنسان يجد فى نفسه قولا وكلاما ولا يسمع منه إلا إذا نطق بلسانه . وقد خرق الله العادة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فأسمعه كلام النفس من قوم تحدثوا مع أنفسهم وأخبرهم بما فى نفوسهم، كما قد نقل منه الكثير من أئمتنا فى كتب معجزات النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ وكذلك وقع لكثير ممن أكرمه الله تعالى من الأولياء مثل ذلك فى غير ما قضية . وإياه عنى النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله : " إنّ فى أمتى محدّثين وإن عمر منهم " . وقد مضى هذا المعنى

فى [تسبيح][1] الجماد فى « سبحان »[2] وأنه تسبيح لسان ومقال لا تسبيح دلالة حال . والحمد لله .

الخامسة — قوله تعالى : « فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا » وقرأ ابن السَّمَيْقَع « ضحكا » بغير ألف ، وهو منصوب على المصدر بفعل محذوف يدل عليه تبسّم ، كأنه قال ضحك ضحكا ، هذا مذهب سيبويه . وهو عند غير سيبويه منصوب بنفس « تَبَسَّمَ » لأنه فى معنى ضحك . ومن قرأ « ضَاحِكًا » فهو منصوب على الحال من الضمير فى « تَبَسَّمَ » . والمعنى تبسم مقدار الضحك ؛ لأن الضحك يستغرق التبسم ، والتبسم دون الضحك وهو أوّله . يقال : بَسَم (بالفتح) يَبْسِم بَسْمًا فهو باسم وابتسم وتبسم ، والمَبْسِم الثغر مثل المجلس من جلس يجلس ورجل مِبسام وبسّام كثير التبسم ، فالتبسم ابتداء الضحك ، والضحك عبارة عن الابتداء والانتهاء ، إلا أن الضحك يقتضى مزيدا على التبسم ، فإذا زاد ولم يضبط الإنسان نفسه قيل قهقه . والتبسم ضحك الأنبياء عليهم السلام فى غالب أمرهم . وفى الصحيح عن جابر بن سَمُرة وقيل له : أكنت تجالس النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم كثيرا ؛ كان لا يقوم من مصلّاه الذى يصلى فيه الصبح — أو الغَدَاة — حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدثون ويأخذون فى أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم . وفيه عن سعد قال : كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين[3] ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " ارم فِداك أبى وأمى " قال فنزعت له بسهم ليس فيه نصل فأصبت جنبه فسقط فانكشفت عورته ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نظرت إلى نواجذه . فكان عليه السلام فى أكثر أحواله يتبسم . وكان أيضا يضحك فى أحوال أُخَرَ ضحكا أعلى من التبسم وأقل من الاستغراق الذى تبدو فيه اللَّهَوات . وكان فى النادر عند إفراط تعجبه ربما ضحك حتى بدت نواجذه . وقد كره العلماء منه الكثرة ؛ كما قال لقمان لابنه : يا بنىّ إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب . وقد روى مرفوعا من

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٣) " أحرق المسلمين " أى أثخن فيهم ، وعمل فيهم نحو عمل النار . « هامش مسلم »

حديث أبي ذرّ وغيره . وضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه حين رمى سعدا الرجل فأصابه ، إنما كان سرورا بإصابته لا بانكشاف عورته ؛ فإنه المنزّه عن ذلك صلى الله عليه وسلم .

السادسة ـ لا اختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفهام وعقول . وقد قال الشافعي : الحمام أعقل الطير . قال ابن عطية : والنمل حيوان فطن قوى شمام جدا يدخر ويتخذ القرى ويشق الحب بقطعتين لئلا ينبت ، ويشق الكزبرة بأربع قطع ؛ لأنها تنبت إذا قسمت شقين ، ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقي سائره عدّة . قال ابن العربي : وهذه خواص العلوم عندنا ، وقد أدركتها النمل بخلق الله ذلك لها ؛ قال الأستاذ أبو المظفر شاهنور الإسفراينى : ولا يبعد أن تدرك البهائم حدوث العالم وحدوث المخلوقات ، ووحدانية الإله ، ولكننا لا نفهم عنها ولا تفهم عنا ، أما أنا نطلبها وهي تفر منا فبحكم الجنسية .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ «أن» مصدرية . و «أوزعني» أي ألهمني ذلك . وأصله من وزع فكأنه قال : كفّني عما يسخط . وقال محمد بن إسحق : يزعم أهل الكتاب أن أم سليمان هي امرأة أوريا التي امتحن الله بها داود ، أو أنه بعد موت زوجها تزوجها داود فولدت له سليمان عليه السلام . وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «ص» (1) إن شاء الله تعالى .

﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي مع عبادك ، عن ابن زيد . وقيل : المعنى في جملة عبادك الصالحين .

قوله تعالى : وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ

---

(1) في تفسير قوله تعالى : «وظن داود أنما فتناه» آية ٢٤ من السورة المذكورة .

مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ
شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن
دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ
لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾
اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

فيـه ثمـان عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾ ذكر شيئا آخر ممـا جرى له فى مسيره الذى كان فيه من النمل ما تقدّم . والتفقد تطلّب ما غاب عنك من شيء . والطير اسم جامع والواحد طائر ، والمراد بالطير هنا جنس الطير وجماعتها ، وكانت تصحبه فى سفره وتظله بأجنحتها . وآختلف الناس فى معنى تفقده للطير ؛ فقالت فـرقة : ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك ، والتهمّم بكل جزء منها ؛ وهذا ظاهر الآية . وقالت فرقة : بل تفقد الطير لأن الشمس دخلت من موضع الهدهد حين غاب ؛ فكان ذلك سبب تفقد الطير ؛ ليتبين من أين دخلت الشمس . وقال عبـد الله بن سلّام : إنمـا طلب الهدهد لأنه آحتاج إلى معرفة المـاء على كم هو من وجه الأرض ؛ لأنه كان نزل فى مفازة عُدم فيها المـاء ، وأن الهدهد كان يرى باطن الأرض وظاهرها ؛ فكان يخبر سـليمان بموضع المـاء ، ثم كانت الجن تخرجه فى ساعة يسيرة ؛ تسلخ عنـه وجه الأرض كما تسلخ الشاة ؛ قاله آبن عباس فيما روى عن آبن سلّام . قال أبو مجلز قال آبن عباس لعبد الله بن سلّام : أريد أن أسألك عن ثلاث مسائل . قال . أتسألنى وأنت تقرأ القرآن ؟ قال : نعم ثلاث مرات . قال : لم تفقد سـليمان الهدهد دون

سائر الطير؟ قال : احتاج إلى الماء ولم يعرف عمقه ــ أو قال مسافته ــ وكان الهدهد يعرف ذلك دون سائر الطير فتفقده . وقال في كتاب النقاش : كان الهدهد مهندسا . وروى أن نافع بن الأزرق سمع ابن عباس يذكر شأن الهدهد فقال له : قف يا وقاف كيف يرى الهدهد باطن الأرض وهو لا يرى الفخ حين يقع فيه ؟ ! فقال له ابن عباس : إذا جاء القدر عمي البصر . وقال مجاهد : قيل لابن عباس كيف تفقد الهدهد من الطير؟ فقال : نزل منزلا ولم يدر ما بعد الماء ، وكان الهدهد مهتديا إليه ، فأراد أن يسأله . قال مجاهد : فقلت كيف يهتدي والصبي يضع له الحبالة فيصيده ؟ ! فقال : إذا جاء القدر عمي البصر . قال ابن العربي : ولا يقدر على هذا الجواب إلا عالم القرآن .

قلت : هذا الجواب قد قاله الهدهد لسليمان كما تقدم . وأنشدوا :

إذا أراد الله أمرا بامرئ * وكان ذا عقل ورأي ونظر
وحيلة يعملها في دفع ما * يأتي به مكروه أسباب القدر
غطى عليه سمعه وعقله * وسله من ذهنه سل الشعر
حتى إذا أنفذ فيه حكمه * رد عليه عقله ليعتبر

قال الكلبي : لم يكن له في مسيره إلا هدهد واحد . والله أعلم .

الثانية ــ في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته ، والمحافظة عليهم . فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله ، فكيف بعظام الملك . ويرحم الله عمر فإنه كان على سيرته ؛ قال : لو أن سخلة على شاطئ الفرات أخذها الذئب ليسأل عنها عمر . فما ظنك بوال تذهب على يديه البلدان ، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان . وفي الصحيح عن عبدالله ابن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بسرغ (1) لقيه أمراء الأجناد : أبو عبيدة وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام . الحديث ؛ قال علماؤنا : كان هذا الخروج من عمر بعد ما فتح بيت المقدس سنة سبع عشرة على ما ذكره خليفة بن خياط .

(1) سرغ (بسكون الراء وفتحها) : قرية بوادي تبوك من طريق الشام .

وكان يتفقد أحوال رعيتـه وأحوال أمرائه بنفسه، فقد دل القرآن والسنة وبيّنـا ما يجب على الإمام من تفقد أحوال رعيته، ومباشرة ذلك بنفسه، والسفر إلى ذلك وإن طال. ورحم الله آبن المبارك حيث يقول :

وهل أفسدَ الدينَ إلا الملوكُ * وأحبـارُ ســوءٍ ورهبانُهـا (١)

الثالثـة — قوله تعالى : « مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ » أى ما للهدهد لا أراه ؛ فهو من القلب الذى لا يعرف معناه . وهو كقولك : مالى أراك كئيبا . أى مالك . والهدهد طير معروف وهدهدته صوته . قال آبن عطية : إنمـا مقصد الكلام الهدهد غاب لكنه أخذ اللازم عن مغيبه وهو أن لا يراه ، فاستفهم على جهـة التوقيف على اللازم وهذا ضرب من الإيجاز . والاستفهام الذى فى قوله : « مَالِيَ » ناب مناب الألف التى تحتاجها أم . وقيل : إنمـا قال : « مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ » ؛ لأنه آعتبر حال نفسه، إذ علم أنه أوتى الملك العظيم وسخر له الخلق ، فقد لزمه حق الشكر بإقامة الطاعة وإدامة العدل ، فلمـا فقد نعمة الهدهد توقع أن يكون قصّر فى حق الشكر، فلأجله سلبها فجعل يتفقد نفسه ؛ فقال : « مَالِيَ » . قال آبن العربى : وهذا يفعله شيوخ الصوفية إذا فقدوا مالهم (٢)، تفقدوا أعمالهم ؛ هذا فى الآداب ، فكيف بنا اليـوم ونحن نقصّر فى الفرائض ! . وقرأ آبن كثير وآبن محيصن وعاصم والكسائى وهشام وأيوب « مَالِيَ » بفتح اليـاء وكذلك فى « يس » « وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي » . وأسكنها حمزة ويعقوب . وقرأ الباقون المدنيون وأبو عمرو بفتح التى فى « يس » وإسكان هذه . قال أبو عمرو : لأن هـذه التى فى « النمـل » آستفهام، والأخرى آنتفـاء . وآختار أبو حاتم وأبو عبيد الإسكان « فَقَالَ مَالِي » . وقال أبو جعفر النحاس : زعم قوم أنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما كان مبتدأ ، وبين ما كان معطوفا على ما قبله ، وهذا ليس بشىء ؛ وإنمـا هى ياء النفس من العرب من يفتحها ومنهـم من يسكنها ، فقرءوا باللغتين ؛ واللغة الفصيحة فى ياء النفس أن تكون مفتوحة ؛ لأنهـا آسم وهى على حرف واحد، وكان الآختيار ألا تسكن فيجحف بالآسم . « أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ » بمعنى بل .

(١) فى بعض النسخ : « ورهبانا » . (٢) فى أحكام القرآن لابن العربى : « إذا فقدوا آمالهم ...الخ » .

الرابعة ـ قوله تعالى : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾ دليل على أن الحد على قدر الذنب لا على قدر الجسد ، أما أنه يرفق بالمحدود في الزمان والصفة . روى عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج أن تعذيبه للطير كان بأن ينتف ريشه . قال ابن جريج : ريشه أجمع . وقال يزيد بن رومان : جناحاه . فعل سليمان هذا بالهدهد إغلاظا على العاصين ، وعقابا على إخلاله بنوبه ورتبته ؛ وكأن الله أباح له ذلك ، كما أباح ذبح البهائم والطير للأكل وغيره من المنافع . والله أعلم . وفي « نوادر الأصول » قال : حدثنا سليمان بن حميد أبو الربيع الإيادي ، قال حدثنا عون بن عمارة ، عن الحسين الجعفي ، عن الزبير بن الخريت ، عن عكرمة ، قال : إنما صرف الله شر سليمان عن الهدهد لأنه كان بارا بوالديه . وسيأتي . وقيل : تعذيبه أن يجعل مع أضداده . وعن بعضهم : أضيق السجون معاشرة الأضداد . وقيل : لألزمنه خدمة أقرانه . وقيل : إيداعه القفص . وقيل : بأن يجعله للشمس بعد نتفه . وقيل : بتبعيده عن خدمتي ، والملوك يؤدبون بالهجران الجسد بتفريق إلفه . وهو مؤكد بالنون الثقيلة ، وهي لازمة هي أو الخفيفة . قال أبو حاتم : ولو قرئت « لَأُعَذِّبَنْهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنْهُ » جاز . ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي بحجة بينة . وليست اللام في « ليأتيني » لام القسم لأنه لا يقسم سليمان على فعل الهدهد ، ولكن لما جاء في أثر قوله : « لأعذبنه » وهو مما جاز به القسم أجراه مجراه . وقرأ ابن كثير وحده « لَيَأْتِيَنَّنِي » بنونين .

الخامسة ـ قوله تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي الهدهد . والجمهور من القراء على ضم الكاف ، وقرأ عاصم وحده بفتحها . ومعناه في القراءتين أقام . قال سيبويه : مَكَث يمكث مُكوثا كما قالوا قعد يقعد قعودا . قال : ومَكُث مثل ظَرُف . قال غيره : والفتح أحسن لقوله تعالى : « مَاكِثِينَ » إذ هو من مَكَث ؛ يقال : مَكَث يمكُث فهو ماكث ؛ ومَكُث يمكُث مثل عَظُم يعظُم فهو مَكيث ؛ مثل عظيم . ومَكِث يمكَث فهو ماكث ؛ مثل حَمِض يحمَض فهو حامض . والضمير في « مكث » يحتمل أن يكون لسليمان ؛ والمعنى : بقي سليمان بعد التفقد والوعيد غير طويل أي غير وقت طويل . ويحتمل أن يكون للهدهد وهو الأكثر . فجاء « فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ » وهي «

السادسة — أى علمت ما لم تعلمه من الأمر فكان فى هذا ردّ على من قال : إن الأنبياء تعلم الغيب . وحكى الفراء «أَحَطُّ» يدغم التاء فى الطاء . وحكى «أَحَتُّ» يقلب الطاء تاء وتدغم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أعلم سليمان ما لم يكن يعلمه ، ودفع عن نفسه ما توعده من العذاب والذبح . وقرأ الجمهور «سَبَإٍ» بالصرف . وابن كثير وأبو عمرو «سَبَأَ» بفتح الهمزة وترك الصرف ؛ فالأوّل على أنه آسم رجل نسب إليه قوم ، وعليه قول الشاعر :

الواردون وتيم فى ذُرَى سبإ * قد عضّ أعناقَهمْ جلدُ الجواميس

وأنكر الزجاج أن يكون آسم رجل ، وقال : «سبأ» آسم مدينة تعرف بمأرب باليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ، وأنشد للنابغة الجَعْدى :

من سَبَأَ الحاضِرين مَأْرِبَ إذ * يَبْنُون من دون سَيْلِه العَرِمَا

قال : فمن لم يصرف قال إنه آسم مدينة ، ومن صرف وهو الأكثر فلأنه آسم البلد فيكون مذكرا سمى به مذكر . وقيل : آسم آمرأة سميت بها المدينة . والصحيح أنه آسم رجل ، كذلك فى كتاب الترمذى من حديث فروة بن مُسَيْك المرادى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وسيأتى إن شاء الله تعالى . قال آبن عطية : وخفى هذا الحديث على الزجاج فخبط عشواء . وزعم الفراء أن الرُّؤاسيّ سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبإ فقال : ما أدرى ما هو . قال النحاس : وتأوّل الفراء على أبى عمرو أنه منعه من الصرف لأنه مجهول ، وأنه إذا لم يعرف الشيء لم ينصرف . وقال النحاس : وأبو عمرو أجلّ من أن يقول مثل هذا ، وليس فى حكاية الرُّؤاسى عنه دليل أنه إنما منعه من الصرف لأنه لم يعرفه ، وإنما قال لا أعرفه ، ولو سئل نحوىّ عن آسم فقال لا أعرفه لم يكن فى هذا دليل على أنه يمنعه من الصرف ، بل الحق على غير هذا ؛ والواجب إذا لم يعرفه أن يصرفه ؛ لأن أصل الأسماء الصرف ؛ وإنما يمنع الشيء من الصرف لعلة داخلة عليه ؛ فالأصل ثابت بيقين فلا يزول بما لا يعرف . وذكر كلاما كثيرا

عن النحاة وقال فى آخره : والقول فى « سبإ » ما جاء التوقيف فيه أنه فى الأصل اسم رجل؛ فإن صرفته فلأنه قد صار اسما للحى ، وإن لم تصرفه جعلته اسما للقبيلة مثل ثمود إلا أن الاختيار عند سيبويه الصرف وحجته فى ذلك قاطعة؛ لأن هذا الاسم لما كان يقع له التذكير والتأنيث كان التذكير أولى؛ لأنه الأصل والأخف .

الثامنــة – وفى الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير والمتعلم للعالم عندى ما ليس عندك إذا تحقق ذلك وتيقنه . هذا عمر بن الخطاب مع جلالته رضى الله عنه وعلمه لم يكن عنده علم بالاستئذان . وكان علم التيمم عند عمار وغيره، وغاب عن عمر وابن مسعود حتى قالا : لا يتيمم الجنب . وكان حكم الإذن فى أن تنفر الحائض عند ابن عباس ولم يعلمه عمر ولا زيد بن ثابت . وكان غسل رأس المحرم معلوما عند ابن عباس وخفى عن المِسْوَر بن مَخْرَمة . ومثله كثير فلا يطول به .

التاسعة – قوله تعالى : ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ لما قال الهدهد : « وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ » قال سليمان : وما ذلك الخبر؟ قال : « إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ » يعنى بلقيس بنت شراحيل تملك أهل سبإ . ويقال : كيف خفى على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطه وبين بلدها قريبة، وهى من مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب؟ والجواب أن الله تعالى أخفى ذلك عنه لمصلحة، كما أخفى على يعقوب مكان يوسف . ويروى أن أحد أبويها كان من الجن . قال ابن العربى : وهذا أمر تنكره الملحدة ، ويقولون : الجن لا يأكلون ولا يلدون؛ كذبوا لعنهم الله أجمعين؛ ذلك صحيح ونكاحهم جائز عقلا فإن صح نقلا فبها ونعمت .

قلت : خرج أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود أنه قال : قدم وفد من الجن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا : يا محمد انه أمتك أن يستنجوا بعظم أو روثة أو حممة فإن الله جاعل لنا فيها رزقا . وفى صحيح مسلم فقال : " لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل بعرة علف لدوابكم " فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : " فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم الجن " وفى البخارى من حديث أبى هريرة قال فقلت : ما بال العظم والروثة ؟ فقال : " هما من طعام الجن وإنه أتانى وفد جن نصيبين ونعم الجن فسألونى الزاد فدعوت الله تعالى ألا يمروا بعظم ولا روثة إلا وجدوا عليها طعاما " وهذا كله نص فى أنهم يطعمون . وأما نكاحهم فقد تقدمت الإشارة إليه فى « سبحان » عند قوله : « وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ »(١) . وروى وهب بن جرير ابن حازم عن الخليل بن أحمد عن عثمان بن حاضر قال : كانت أم بلقيس من الجن يقال لها بلعمة بنت شيصان . وسيأتى لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

العاشرة — روى البخارى من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال : " لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " قال القاضى أبو بكر بن العربى : هذا نص فى أن المرأة لا تكون خليفة ولا خلاف فيه ؛ ونقل عن محمد بن جرير الطبرى أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية ، ولم يصح ذلك عنه ، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبى حنيفة أنها إنما تقضى فيما تشهد فيه وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق ، ولا بأن يكتب لها مسطور بأن فلانة مقدمة على الحكم ، وإنما سبيل ذلك التحكم والاستنابة فى القضية الواحدة ، وهذا هو الظن بأبى حنيفة وابن جرير . وقد روى عن عمر أنه قدم امرأة على حسبة السوق . ولم يصح فلا تلتفتوا إليه ، فإنما هو من دسائس المبتدعة فى الأحاديث . وقد تناظر فى هذه المسئلة القاضى أبو بكر بن الطيب المالكى الأشعرى مع أبى الفرج بن طرار شيخ الشافعية ، فقال أبو الفرج : الدليل على أن المرأة يجوز أن تحكم أن الغرض من الأحكام تنفيذ القاضى لها ، وسماع البينة عليها ، والفصل بين الخصوم فيها ، وذلك ممكن من المرأة كإمكانه من الرجل . فاعترض عليه القاضى أبو بكر ونقض كلامه بالإمامة الكبرى ؛ فإن الغرض منه حفظ الثغور ، وتدبير الأمور وحماية البيضة ، وقبض الخراج ورده على مستحقه ، وذلك لا يتأتى من المرأة كتأتيه من الرجل . قال ابن العربى : وليس

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٨٩ طبعة أولى أو ثانية .

كلام الشيخين فى هذه المسألة بشيء؛ فإن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجالس، ولا تخالط الرجال، ولا تفاوضهم مفاوضة النظير للنظير؛ لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها وكلامها، وإن كانت برزة (١) لم يجمعها والرجال مجلس واحد تزدحم فيه معهم، وتكون مناظرة لهم؛ ولن يفلح قط من تصور هذا ولا من اعتقده.

الحادية عشرة ـ قوله تعالى: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مبالغة؛ أى مما تحتاجه المملكة. وقيل: المعنى أوتيت من كل شيء فى زمانها شيئا فحذف المفعول؛ لأن الكلام دل عليه. ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ أى سرير؛ ووصفه بالعظم فى الهيئة ورتبة السلطان. قيل: كان من ذهب تجلس عليه. وقيل: العرش هنا الملك؛ والأول أصح؛ لقوله تعالى: « أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ». الزمخشرى: فإن قلت كيف سوّى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله فى الوصف بالعظيم؟ قلت: بين الوصفين بون عظيم؛ لأن وصف عرشها بالعظيم تعظيم له بالإضافة إلى عرش أبناء جنسها من الملوك، ووصف عرش الله بالعظيم تعظيم له بالنسبة إلى ما خلق من السموات والأرض. قال ابن عباس: كان طول عرشها ثمانين ذراعا، وعرضه أربعين ذراعا، وارتفاعه فى السماء ثلاثين ذراعا، مكلل بالدر والياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر. قتادة: وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مسترا بالديباج والحرير، عليه سبعة مغاليق. مقاتل: كان ثمانين ذراعا، وارتفاعه من الأرض ثمانون ذراعا، وهو مكلل بالجواهر. ابن إسحق: وكان يخدمها النساء، وكان لخدمتها ستمائة امرأة. قال ابن عطية: واللازم من الآية أنها امرأة ملكت على مدائن اليمن، ذات ملك عظيم، وسرير عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار.

الثانية عشرة ـ قوله تعالى: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ قيل: كانت هذه الأمة ممن يعبد الشمس؛ لأنهم كانوا زنادقة فيما يروى. وقيل: كانوا مجوسا يعبدون الأنوار. وروى عن نافع أن الوقف على « عرش ». قال المهدوى:

(١) البرزة هنا: الكهلة التى لا تحتجب احتجاب الشواب؛ وهى مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتحدثهم.

فعظيم على هــذا متعلق بمــا بعده، وكان ينبغي على هذا أن يكون عظيم أن وجدتها؛ أى وجودى إياها كافرة . وقال ابن الأنبارى : « وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » وقف حسن، ولا يجوز أن يقف على «عرش» ويبتدئ « عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا » إلا على من فتح؛ لأن عظيما نعت لعرش فلو كان متعلقا بوجدتها لقلت عظيمة وجدتها؛ وهذا محال من كل وجه . وقد حدثنى أبو بكر محمد بن الحسين بن شهريار، قال : حدثنا أبو عبد الله الحسين بن الأسود العجلى، عن بعض أهل العلم أنه قال: الوقف على «عرش» والابتداء «عظيم» على معنى عظيم عبادتهم الشمس والقمر. قال : وقد سمعت من يؤيد هذا المذهب ، ويحتج بأن عرشها أحقر وأدق شأنا من أن يصفه الله بالعظيم . قال ابن الأنبارى: والاختيار عندى ما ذكرته أولا؛ لأنه ليس على إضمار عبادة الشمس والقمر دليل . وغير منكر أن يصف الهدهد عرشها بالعظيم إذا رآه متناهى الطول والعرض؛ وجريه على إعراب « عرش » دليل على أنه نعته . ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى ماهم فيه من الكفر . ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى عن طريق التوحيد . وبين بهــذا أن ما ليس بسبيل التوحيد فليس بسبيل ينتفع به على التحقيق . ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ إلى الله وتوحيده .

الثــالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم وحمزة « أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ » بتشديد « أَلَّا » قال ابن الأنبارى : « فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ » غير تام لمن شدد « أَلَّا » لأن المعنى : وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا. قال النحاس: هى «أن» دخلت عليها « لا » و «أن » فى موضع نصب؛ قال الأخفش: بـ«زين » أى وزين لهم لئلا يسجدوا لله . وقال الكسائى : بـ « فصدهم » أى فصدهم ألا يسجدوا . وهو فى الوجهين مفعول له .

وقال اليزيدى وعلى بن سليمان : « أن » بدل من « أعمالهم » فى موضع نصب . وقال أبو عمرو : و«أن» فى موضع خفض على البدل من السبيل . وقيل العامل فيها «لا يهتدون» أى فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله؛ أى لا يعلمون أن ذلك واجب عليهم . وعلى هذا القول « لا » زائدة؛ كقوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ » أى ما منعك أن تسجد . وعلى هذه القراءة

فليس بموضع سجدة؛ لأن ذلك خبر عنهم بترك السجود، إما بالتزيين، أو بالصد، أو بمنع الاهتداء. وقرأ الزهري والكسائي وغيرهما « أَلَا يَا اسْجُدُوا لِلَّهِ »(١) بمعنى ألا ياهؤلاء اسجدوا؛ لأن « يا » ينادى بها الأسماء دون الأفعال. وأنشد سيبويه:

يالعنةُ الله والأقوامِ كلِّهمُ ❊ والصالحين على سِمْعانَ من جارِ

قال سيبويه: (يا) لغير اللعنة؛ لأنه لو كان للعنة لنصبها؛ لأنه كان يصير منادى مضافا، ولكن تقديره يا هؤلاء لعنة الله والأقوام على سمعان. وحكى بعضهم سماعا عن العرب: ألا يا ارحموا ألا يا اصدُقوا. يريدون ألا ياقوم ارحموا اصدُقوا؛ فعلى هذه القراءة « اسْجُدُوا » في موضع جزم بالأمر والوقف على « أَلَا يَا » ثم تبتدئ فتقول « اسْجُدُوا ». قال الكسائي: ما كنت أسمع الأشياخ يقرءونها إلا بالتخفيف على نية الأمر. وفي قراءة عبد الله « أَلَا هَلْ تَسْجُدُونَ لِلَّهِ » بالتاء والنون. وفي قراءة أبيّ « أَلَا تَسْجُدُونَ لِلَّهِ » فهاتان القراءتان حجة لمن خفف. الزجاج: وقراءة التخفيف تقتضي وجوب السجود دون التشديد. واختار أبو حاتم وأبو عبيدة قراءة التشديد. وقال: التخفيف وجه حسن إلا أن فيه انقطاع الخبر عن أمر سبأ، ثم رجع بعد إلى ذكرهم، والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضا لا انقطاع في وسطه. ونحوه قال النحاس. قال: قراءة التخفيف بعيدة؛ لأن الكلام يكون معترضا، وقراءة التشديد يكون الكلام بها متسقا، وأيضا فإن السواد على غير هذه القراءة؛ لأنه قد حذف منها ألفان، وإنما يختصر مثل هذا بحذف ألف واحدة نحو ياعيسى بن مريم. ابن الأنباري: وسقطت ألف « اسجدوا » كما تسقط مع هؤلاء إذا ظهر، ولما سقطت ألف «يا» واتصلت بها ألف « اسجدوا » سقطت، فعد سقوطها دلالة على الاختصار و إيثارا لما يخفّ وتقل ألفاظه. وقال الجوهري في آخر كتابه: قال بعضهم إن « يا » في هذا الموضع إنما هو للتنبيه كأنه قال: ألا اسجدوا لله، فلما أدخل عليه « يا » للتنبيه سقطت الألف التي في «اسجدوا » لأنها

---

(١) الألوسي: «ألا» بالتخفيف على أنها للاستفتاح و «يا» حرف نداء، والمنادى محذوف؛ أي ألا ياقوم اسجدوا وسقطت ألف يا وألف الوصل في «اسجدوا» وكتبت الياء متصلة بالسين على خلاف القياس.

ألف وصل ، وذهبت الألف التي في « يا » لاجتماع الساكنين؛ لأنها والسين ساكنتان ».
قال ذو الرُّمَّة :

أَلَا يَا ٱسْلَمِي يادارَ مَيَّ على البِلَى * وَلَا زَالَ مُنْهَلًّا بِجَرْعَائِكِ القَطْرُ

وقال الجرجاني : هو كلام معترض من الهدهد أو سليمان أو من الله . أي ألا ليسجدوا ؛ كقوله تعالى : « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ » قيل : إنه أمر أي ليغفروا . وتنتظم على هذا كتابة المصحف ؛ أي ليس ها هنا نداء . قال ابن عطية : قيل هو من كلام الهدهد إلى قوله « العظيم » وهو قول ابن زيد وابن إسحق ؛ ويعترض بأنه غير مخاطب فكيف يتكلم في معنى شرع . ويحتمل أن يكون من قول سليمان لما أخبره الهدهد عن القوم . ويحتمل أن يكون من [قول] الله تعالى فهو اعتراض بين الكلامين وهو الثابت مع التأمل ؛ وقراءة التشديد في « ألّا » تعطى أن الكلام للهدهد ، وقراءة التخفيف تمنعه ، والتخفيف يقتضي الأمر بالسجود لله عز وجل للأمر على ما بيناه . وقال الزمخشري : فإن قلت أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعا أم في إحداهما؟ قلت : هي واجبة فيهما جميعا ؛ لأن مواضع السجدة إمّا أمرٌ بها ، أو مدحٌ لمن أتى بها ، أو ذمٌّ [لمن][1] تركها ، و إحدى القراءتين أمر بالسجود والأخرى ذم للتارك .

قلت : وقد أخبر الله عن الكفار بأنهم لا يسجدون كما في « الانشقاق » وسجد النبي صلى الله عليه وسلم فيها ، كما ثبت في البخاري وغيره ، فكذلك « النمل » . والله أعلم . الزمخشري : وما ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد فغير مرجوع إليه . ﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ ﴾ خَبْء السماء قَطْرها ، وخَبْء الأرض كنوزها ونباتها . وقال قتادة : الخبء السر . النحاس : وهذا أولى . أي ما غاب في السموات والأرض ، ويدل عليه « مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ »[2] . وقرأ عكرمة ومالك بن دينار « الخَبَ » بفتح الباء من غير همز . قال المهدوي : وهو التخفيف القياسي ؛ وذكر من يترك الهمز في الوقف . وقال النحاس :

---

(١) الزيادة من « الكشاف » . (٢) في نسخ الأصل بالياء ؛ وهي قراءة العامة كما سيأتي .

وحكى أبو حاتم أن عكرمة قرأ « الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَا » بألف غير مهموزة، وزعم أن هذا لا يجوز في العربية ، واعتل بأنه إن خفف الهمزة ألقى حركتها على الباء فقال « الْخَبَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » وأنه إن حول الهمزة قال الْخَبْيَ بإسكان الباء وبعدها ياء . قال النحاس : وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : كان أبو حاتم دون أصحابه في النحو ولم يلحق بهم إلا أنه إذا خرج من بلده لم يلق أعلم منه . وحكى سيبويه عن العرب أنها تبدل من الهمزة ألفا إذا كان قبلها ساكن وكانت مفتوحة ، وتبدل منها واوا إذا كان قبلها ساكن وكانت مضمومة ، وتبدل منها ياء إذا كان قبلها ساكن وكانت مكسورة ؛ فتقول : هذا الْوَثْوُ وعجبت من الْوَثْيِ ورأيت الْوَثَا ؛ وهذا من وَثِئَتْ يده ؛ وكذلك هذا الْخَبْوُ وعجبت من الْخَبْيِ ، ورأيت الْخَبَا ؛ وإنما فعل هذا لأن الهمزة خفيفة فأبدل منها هذه الحروف . وحكى سيبويه عن قوم من بني تميم وبني أسد أنهم يقولون : هذا الْخَبُؤُ ؛ يضمون الساكن إذا كانت الهمزة مضمومة ، ويثبتون الهمزة ويكسرون الساكن إذا كانت الهمزة مكسورة ، ويفتحون الساكن إذا كانت الهمزة مفتوحة . وحكى سيبويه أيضا أنهم يكسرون وإن كانت الهمزة مضمومة ؛ إلا أن هذا عن بني تميم ؛ فيقولون : الرِّدِئُ(1) ؛ وزعم أنهم لم يضموا الدال لأنهم كرهوا ضمة قبلها كسرة ؛ لأنه ليس في الكلام فِعُلٌ . وهذه كلها لغات داخلة على اللغة التي قرأ بها الجماعة ؛ وفي قراءة عبد الله « الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ مِنَ السَّمَوَاتِ » و « من » و « في » يتعاقبان ؛ تقول العرب : لأستخرجنّ العلم فيكم يريد منكم ؛ قاله الفراء . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ قراءة العامة فيهما بياء ، وهذه القراءة تعطي أن الآية من كلام الهدهد ، وأن الله تعالى خصه من المعرفة بتوحيده ووجوب السجود له ، وإنكار سجودهم للشمس ، وإضافته للشيطان ، وتزيينه لهم ، ما خص به غيره من الطيور وسائر الحيوان ؛ من المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقول الراجحة تهتدي لها . وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر وحفص والكسائي « تُخْفُونَ » و « تُعْلِنُونَ » بالتاء على الخطاب ؛ وهذه القراءة تعطي أن الآية

(1) الرده بمعنى الصاحب .

من خطاب الله عز وجل لأمة محمد صلى الله عليه وسلم. ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ قرأ ابن محيصن « العظيمُ » رفعا نعتا لله. الباقون بالخفض نعتا للعرش. وخص بالذكر لأنه أعظم المخلوقات وما عداه في ضمنه وقبضته.

الرابعة عشرة — قوله تعالى: ﴿ سَنَنْظُرُ ﴾ من النظر الذي هو التأمل والتصفح. ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ في مقالتك. و « كنت » بمعنى أنت. وقال: « سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ » ولم يقل سننظر في أمرك؛ لأن الهدهد لما صرح بفخر العلم في قوله: « أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ » صرح له سليمان بقوله: سننظر أصدقت أم كذبت، فكان ذلك [كفاء][1] لما قاله.

الخامسة عشرة — في قوله: « أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم؛ لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه. وإنما صار صدق الهدهد عذرا لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان عليه السلام حبب إليه الجهاد. وفي الصحيح: "ليس أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من الله من أجل ذلك أنزل الكتابَ وأرسل الرسل". وقد قبل عمر عذر النعمان بن عدي ولم يعاقبه. ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة. كما فعل سليمان؛ فإنه لما قال الهدهد: « إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » لم يستفزه الطمع، ولا استجره حبّ الزيادة في الملك إلى أن يعرض له حتى قال: « وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ » فغاظه حينئذ ما سمع، وطلب الانتهاء إلى ما أخبر، وتحصيل علم ما غاب عنه من ذلك، فقال: « سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » ونحو منه ما رواه الصحيح عن المسور بن مخرمة، حين استشار عمر الناس في إملاص المرأة وهي التي يضرب بطنها فتلقي جنينها؛ فقال المغيرة بن شعبة: شهدت النبي صلى الله عليه وسلم قضى فيه بغرة عبد أو أمة. قال فقال عمر: ائتني بمن يشهد معك؛ قال: فشهد له محمد بن مسلمة وفي رواية فقال: لا تبرح حتى تأتي بالمخرج

(١) في الأصول « جفاء » والتصويب من « أحكام القرآن » لابن العربي.

من ذلك ؛ فخرجت فوجدت محمد بن مسلمة بعثت به فشهد . ونحوه حديث أبى موسى في الاستئذان وغيره .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ قال الزجاج : فيها خمسة أوجه « فَأَلْقِهِى إِلَيْهِمْ » بإثبات الياء فى اللفظ . وبحذف الياء وإثبات الكسرة دالة عليها « فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ » . وبضم الهاء وإثبات الواو على الأصل « فَأَلْقِهُو إِلَيْهِمْ » . وبحذف الواو وإثبات الضمة « فَأَلْقِهُ إِلَيْهِمْ » . واللغة الخامسة قرأ بها حمزة بإسكان الهاء « فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ » . قال النحاس : وهذا عند النحويين لا يجوز إلا على حيلة بعيدة تكون : يقدّر الوقف ؛ وسمعت على بن سليمان يقول : لا تلتفت إلى هذه العلة ؛ ولو جاز أن يصل وهو ينوى الوقف لجاز أن يحذف الإعراب من الأسماء . وقال : « إليهم » على لفظ الجمع ولم يقل إليها ؛ لأنه قال : « وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ » فكأنه قال : فألقه إلى الذين هذا دينهم ؛ اهتماما منه بأمر الدّين ، واشتغالا به عن غيره ، وبنى الخطاب فى الكتاب على لفظ الجمع لذلك . وروى فى قصص هذه الآية أن الهدهد وصل فألقى دون هذه الملكة حُجبَ جدران ؛ فعمد إلى كُوّة كانت بلقيس صنعتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها لمعنى عبادتها إياها ، فدخل منها ورمى الكتاب على بلقيس وهى — فيما يروى — نائمة ؛ فلما انتبهت وجدته فراعها ، وظنت أنه قد دخل عليها أحد ، ثم قامت فوجدت حالها كما عهدت ، فنظرت إلى الكُوّة تهمّما بأمر الشمس ، فرأت الهدهد فعلمت . وقال وهب وابن زيد : كانت لها كُوّة مستقبلة مطلع الشمس ، فإذا طلعت سجدت ، فسدها الهدهد بجناحه ، فارتفعت الشمس ولم تعلم ، فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى الصحيفة إليها ، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت ، لأن ملك سليمان عليه السلام كان فى خاتمه ؛ فقرأته فجمعت الملأ من قومها فخاطبتهم بما يأتى بعد . وقال مقاتل : حمل الهدهد الكتاب بمنقاره ، وطار حتى وقف على رأس المرأة وحولها الجنود والعساكر ، فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه ، فرفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب فى حجرها .

السابعة عشرة — فى هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة، ودعائهم إلى الإسلام . وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبار؛ كما تقدّم فى « آل عمران »(١) :

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أمره بالتولى حسن أدب ليتنحى حسب ما يتأدب به مع الملوك . بمعنى : وكن قريبا حتى ترى مراجعتهم ؛ قاله وهب بن منبّه . وقال ابن زيد : أمره بالتولى بمعنى الرجوع إليه ؛ أى ألقه وارجع . قال وقوله : « فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ » فى معنى التقديم على قوله : « ثُمَّ تَوَلَّ » واتساق رتبة الكلام أظهر؛ أى ألقه ثم تول، وفى خلال ذلك فانظر أى انتظر . وقيل : فاعلم؛ كقوله : « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ » أى اعلم ماذا يرجعون أى يجيبون وماذا يردّون من القول . وقيل : « فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ » بينهم من الكلام .

قوله تعالى : قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣١)

فيـه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ ﴾ فى الكلام حذف ؛ والمعنى : فذهب فألقاه إليهم فسمعها وهى تقول : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ » ثم وصفت الكتاب بالكريم إما لأنه من عند عظيم فى نفسها ونفوسهم فعظمته إجلالا لسليمان عليه السلام ؛ وهـذا قول ابن زيد . وإما أنها أشارت إلى أنه مطبوع عليه بالخاتم ، فكرامة الكتاب ختمه ؛ وروى ذلك عن رسوله الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : لأنه بدأ فيه بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » وقد قال صلى الله عليه وسلم : "كل كلام لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم" . وقيل : لأنه بدأ

(١) راجع جـ ٤ ص ١٠٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

فيه بنفسه ، ولا يفعل ذلك إلا الجلة . وفي حديث ابن عمر أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان يبايعه : من عبد الله لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ؛ إني أقر لك بالسمع والطاعة ما استطعت ، وإن بنيّ قد أقروا لك بذلك . وقيل : توهمت أنه كتاب جاء من السماء إذ كان الموصّل طيرا . وقيل : « كريم » حسن ، كقوله : « ومقامٍ كريمٍ » أي مجلس حسن . وقيل : وصفته بذلك ؛ لما تضمن من لين القول والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله عز وجل ، وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سبًّا ولا لعنا ، ولا ما يغير النفس ، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق ؛ على عادة الرسل في الدعاء إلى الله عز وجل ؛ ألا ترى إلى قول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : « ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ » وقوله لموسى وهرون : « فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ » . وكلها وجوه حسان وهذا أحسنها . وقد روى أنه لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم أحد قبل سليمان . وفي قراءة [عبد الله] (١) « وَإِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ » بزيادة واو .

الثانية — الوصف بالكريم في الكتاب غاية الوصف ؛ ألا ترى قوله تعالى : « إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ » وأهل الزمان يصفون الكتاب بالخطير وبالأثير وبالمبرور ؛ فإن كان لملك قالوا : العزيز وأسقطوا الكريم غفلة ، وهو أفضلها خصلة . فأما الوصف بالعزيز فقد وصف به القرآن في قوله تعالى : « وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ . لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ » فهذه عزته وليست لأحد إلا له ؛ فاجتنبوها في كتبكم ، واجعلوا بدلها العالي ؛ توفية لحق الولاية ، وحياطة للديانة ؛ قاله القاضي أبو بكر بن العربي .

الثالثة — كان رسم المتقدمين إذا كتبوا أن يبدءوا بأنفسهم من فلان إلى فلان ، وبذلك جاءت الآثار . وروى الربيع عن أنس قال : ما كان أحد أعظم حرمة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أصحابه إذا كتبوا بدءوا بأنفسهم . وقال ابن سيرين قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن أهل فارس إذا كتبوا بدءوا بعظمائهم فلا يبدأ الرجل إلا بنفسه "

(١) في الأصل : « وفي قراءة أبيّ » وهو مخالف لما عليه كتب التفسير ؛ فالمروى عن أبيّ أنه قرأ « أن من سليمان وأن بسم الله الرحمن الرحيم » بفتح الهمزة وتخفيف النون وحذف الهاء .

قال أبو الليث فى كتاب «البستان» له : ولو بدأ بالمكتوب إليه جاز؛ لأن الأمة قد أجمعت عليه وفعلوه لمصلحة رأوا فى ذلك، أو نسخ ما كان من قبل؛ فالأحسن فى زماننا هذا أن يبدأ بالمكتوب إليه، ثم بنفسه؛ لأن البداية بنفسه تعد منه استخفافا بالمكتوب [إليه](١) وتكبرا عليه؛ إلا أن يكتب إلى عبد من عبيده، أو غلام من غلمانه .

الرابعة — وإذا ورد على إنسان كتاب بالتحية أو نحوها ينبغى أن يرد الجواب؛ لأن الكتاب من الغائب كالسلام من الحاضر . وروى عن ابن عباس أنه كان يرى رد الكتاب واجبا كما يرى رد السلام . والله أعلم .

الخامسة — اتفقوا على كتب «بسم الله الرحمن الرحيم» فى أول الكتب والرسائل، وعلى ختمها؛ لأنه أبعد من الريبة، وعلى هذا جرى الرسم، وبه جاء الأثر عن عمر بن الخطاب أنه قال : أيما كتاب لم يكن مختوما فهو أغلف . وفى الحديث : "كَرَمُ الكتاب خَتْمه" . وقال بعض الأدباء، هو ابن المقفع : من كتب إلى أخيه كتابا ولم يختمه فقد استخف به؛ لأن الختم ختم . وقال أنس : لما أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يكتب إلى العجم قيل له : إنهم لا يقبلون إلا كتابا عليه ختم؛ فاصطنع خاتما ونقش على فصه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وكأنى أنظر إلى وبيصه(٢) وبياضه فى كفه .

السادسة — قوله تعالى : «إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ» «وإنه» بالكسر فيهما أى وإن الكتاب وإن ابتدأ الكلام «بسم الله الرحمن الرحيم» . وأجاز الفراء «أَنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَأَنَّهُ» بفتحهما جميعا على أن يكونا فى موضع رفع بدل من الكتاب؛ بمعنى ألقى إلىّ أنه من سليمان . وأجاز أن يكونا فى موضع نصب على حذف الخافض؛ أى لأنه من سليمان ولأنه؛ كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره بسم الله . وقرأ الأشهب العُقَيلى ومحمد بن السَّمَيْقع «ألّا تَغْلُوا» بالغين المعجمة؛ وروى عن وهب بن منبه؛ من غلا يغلو إذا تجاوز وتكبر . وهى راجعة إلى معنى قراءة الجماعة . «وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ» أى منقادين طائعين مؤمنين .

---

(١) زيادة يقتضيها المقام . (٢) الوبيص : البريق واللمعان .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾

فيـه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى ﴾ الملأ أشراف القوم وقد مضى فى سورة « البقرة » (١) القول فيه . قال ابن عباس : كان معها ألف قَيْل . وقيل : اثنا عشر ألف قَيْـل مع كل قَيْل مائة ألف . والقَيْل الملك دون الملك الأعظم . فأخذت فى حسن الأدب مع قومها ، ومشاورتهم فى أمرها ، وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها فى كل أمر يعرض ، بقولها : ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ فكيف فى هـذه النازلة الكبرى . فراجعها الملأ بمـا يقر عينها ، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس ، ثم سلّموا الأمر إلى نظرها ؛ وهذه محاورة حسنة من الجميع . قال قتادة : ذكر لنا أنه كان لهـا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا هم أهل مشورتها ، كل رجل منهم على عشرة آلاف .

الثانيـــة ــ فى هذه الآية دليل على صحة المشاورة . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ » فى « آل عمران » إما استعانة بالآراء ، وإما مداراة للأولياء . وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقوله : « وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ » . والمشاورة من الأمر القديم وخاصة فى الحرب ؛ فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس : « قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ » لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وحزمهم فيما يقيم أمرهم ، وإمضاءهم على الطاعة لهـا ، بعلمها بأنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها ، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجِدّهم كان ذلك عونا لعدوهم عليهم ، وإن لم تختبر ما عندهم ، وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

من أمرهم ، وربما كان فى استبدادها برأيها وهن فى طاعتها ، ودخيلة فى تقدير أمرهم ، وكان فى مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ماتريده من قوة شوكتهم ، وشدة مدافعتهم ؛ ألا ترى إلى قولهم فى جوابهم : ﴿ نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ . قال ابن عباس : كان من قوة أحدهم أنه يركض فرسه حتى إذا احتد ضم فخذيه فحبسه بقوته .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ سلموا الأمر إلى نظرها مع ما أظهروا لها من القوة والبأس والشدة ، فلما فعلوا ذلك أخبرت عند ذلك بفعل الملوك بالقرى التى يتغلبون عليها . وفى هذا الكلام خوف على قومها ، وحيطة واستعظام لأمر سليمان عليه السلام . ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ قيل : هو من قول بلقيس تأكيدا للمعنى الذى أرادته . وقال ابن عباس : هو من قول الله عز وجل معرفا لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته بذلك ومخبرا به . وقال وهب : لما قرأت عليهم الكتاب لم تعرف اسم الله ، فقالت : ما هذا ؟ ! فقال بعض القوم : ما نظن هذا إلا عفريتا عظيما من الجن يقتدر به هذا الملك على ما يريده ؛ فسكتوه . وقال الآخر : أراهم ثلاثة من العفاريت ؛ فسكتوه ؛ فقال شاب قد علم : ياسيدة الملوك ! إن سليمان ملك قد أعطاه ملك السماء مُلْكا عظيما فهو لايتكلم بكلمة إلا بدأ فيها بتسمية إلهه ، والله اسم مليك السماء ، والرحمن الرحيم نعوته ؛ فعندها قالت : « أَفْتُونِي فِي أَمْرِي » فقالوا : « نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ » فى القتال « وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ » فى الحرب واللقاء « وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ » ردوا أمرهم إليها لما جربوا على رأيها من البركة « فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ » فـ « قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » أهانوا شرفاءها لتستقيم لهم الأمور ، فصدق الله قولها . « وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ » قال ابن الأنبارى : « وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » هذا وقف تام ؛ فقال الله عز وجل تحقيقا لقولها : « وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ » وشبيه به فى سورة « الأعراف » « قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ » تم الكلام ، فقال فرعون : « فَمَاذَا تَأْمُرُونَ » . وقال ابن شجرة : هو قول بلقيس ، فالوقف « وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ » أى وكذلك يفعل سليمان إذا دخل بلادنا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

فيــه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ ﴾ هذا من حسن نظرها وتدبيرها ؛ أى إنى أجرب هذا الرجل بهدية ، وأعطيه فيها نفائس من الأموال ، وأغرب عليه بأمور المملكة ، فإن كان ملكا دنياويا أرضاه المـال وعملنا معه بحسب ذلك ، وإن كان نبيا لم يرضه المـال ولازمنا فى أمر الدين ، فينبغى لنـا أن نؤمن به ونتبعـه على دينه ، فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثر الناس فى تفصيلها ، فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : أرسلت إليه بلَبِنة من ذهب ، فرأت الرسـل الحيطان من ذهب فصغُر عنـدهم ما جاءوا به . وقال مجاهـد : أرسلت إليه بمائتى غلام ومائتى جارية . وروى عن ابن عباس : باثنتى عشرة وصيفة مذكَّرين قد ألبستهم زىّ الغلمان ، واثنى عشر غلاما مؤنثين قد ألبستهم زىّ النساء ، وعلى يد الوصائف أطباق مسك وعنبر ، وباثنتى عشرة نجيبة تحمل لَبِن الذهب ، وبخرزتين إحداهما غير مثقوبة ، والأخرى مثقوبة ثقبا معوجا ، وبقدح لا شىء فيه ، وبعصا كان يتوارثها ملوك حمير ، وأنفذت الهدية مع جماعة من قومها . وقيـل : كان الرسـول واحدا ولكن كان فى صحبته أتباع وخدم . وقيـل : أرسلت رجلا من أشراف قومها يقال له المنـذر بن عمرو ، وضمت إليـه رجالا ذوى رأى وعقل . والهدية مائة وصيف ومائة وصيفة ، قد خولف بينهم فى اللباس ، وقالت للغلمان : إذا كلمكم سليمان فكلّموه بكلام فيه تأنيث يشـبه كلام النساء ، وقالت للجوارى : كلّمنه بكلام فيه غلظ يشبه كلام الرجال ؛ فيقال : إن الهدهد جاء وأخبر سليمان بذلك كله . وقيل : إن الله أخبر سليمان بذلك ، فأمر سليمان عليه السلام أن يبسط من موضعه إلى تسع فراسخ بلبنات الذهب والفضـة ، ثم قال : أىّ الدواب رأيتم أحسن فى البر والبحر؟ قالوا : يا نبىّ الله رأينا فى بحر كذا دواب مُنقَّطة مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواصى ؛ فأمر بها فجاءت فشـدّت على يمين الميدان وعلى يسا[ره] وعلى لبنات الذهب والفضـة ، وألقوا لها علوفاتها ؛ ثم قال : للجن علىّ بأولادكم ، فأقامهم ــ أحسن ما يكون من الشباب ــ عن يمين

الميدان ويساره . ثم قعد سليمان عليه السلام على كرسيه فى مجلسه، ووضع له أربعة آلاف كرسيّ من ذهب عن يمينه ومثلها عن يساره، وأجلس عليها الأنبياء والعلماء، وأمر الشياطين والجن والإنس أن يصطفوا صفوفا فراسخ، وأمر السباع والوحوش والهوام والطير فاصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله، فلما دنا القوم من الميدان ونظروا إلى مُلك سليمان، ورأوا الدواب التى لم تر أعينهم أحسن منها تروث على لبنات الذهب والفضة، تقاصرت إليهم أنفسهم، ورموا ما معهم من الهدايا . وفى بعض الروايات : إن سليمان لما أمرهم بفرش الميدان بلبنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعا على قدر موضع بساط من الأرض غير مفروش، فلما مروا به خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم فى ذلك المكان، فلما رأوا الشياطين رأوا منظرا هائلا فظيعا ففزعوا وخافوا، فقالت لهم الشياطين : جُوزُوا لا بأس عليكم، فكانوا يمرون على كُرْدُوس كُرْدُوس من الجن والإنس والبهائم والطير والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدى سليمان، فنظر إليهم سليمان نظرا حسنا بوجه طَلْق، وكانت قالت لرسولها : إن نظر إليك نظر مغضَب فاعلم أنه ملك فلا يهولنك منظره فأنا أعز منه، وإن رأيت الرجل بشًّا لطيفا فاعلم أنه نبيّ مرسل فتفهم قوله وردّ الجواب، فأخبر الهدهد سليمان بذلك على ما تقدم . وكانت عمدت إلى حُقّة من ذهب فجعلت فيها درّة يتيمة غير مثقوبة، وخرزة معوجة الثّقب ، وكتبت كتابا مع رسولها تقول فيه : إن كنت نبيًّا فميز بين الوصفاء والوصائف، وأخبر بما فى الحُقّة، وعرفنى رأس العصا من أسفلها، وأثقب الدرّة ثقبا مستويا، وأدخل خيط الخرزة، وأملأ القدح ماء من ندى ليس من الأرض ولا من السماء، فلما وصل الرسول ووقف بين يدى سليمان أعطاه كتاب الملكة فنظر فيه، وقال : أين الحُقّة؟ فأتى بها فحركها، فأخبره جبريل بما فيها، ثم أخبرهم سليمان . فقال له الرسول : صدقت، فأثقب الدرّة وأدخل الخيط فى الخرزة، فسأل سليمان الجن والإنس عن ثقبها فعجزوا، فقال للشياطين : ما الرأى فيها ؟ فقالوا : ترسل إلى الأَرَضة، فجاءت الأَرَضة فأخذت شعرة فى فيها حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان : ما حاجتك؟ قالت : تصيّر رزقى فى الشجر،

فقال لها : لكِ ذلك . ثم قال سليمان : من لهذه الخرزة يسلكها الخيط؟ فقالت دودة بيضاء: أنا لها يا نبي الله؛ فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر؛ فقال لها سليمان : ما حاجتك ؟ قالت تجعل رزقي في الفواكه؛ قال : ذلك لكِ. ثم ميّز بين الغلمان [والجواري](١) . قال السدي: أمرهم بالوضوء، فجعل الرجل يحدر الماء على اليد والرجل حَدْرا ، وجعل الجواري يصببن من اليد اليسرى على اليد اليمنى، ومن اليمنى على اليسرى ، فميّز بينهم بهذا . وقيل : كانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ، ثم تحمله على الأخرى، ثم تضرب به على الوجه؛ والغلام كان يأخذ الماء من الآنية يضرب به في الوجه ، والجارية تصب على بطن ساعدها ، والغلام على ظهر الساعد ، والجارية تصب الماء صبا ، والغلام يحدر على يديه ؛ فميز بينهم بهذا . وروى يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير قال: أرسلت بلقيس بمائة وصيفة ووصيف ، وقالت : إن كان نبيا فسيعلم الذكور من الإناث ؛ فأمرهم فتوضئوا ؛ فمن توضأ منهم فبدأ بمرفقه قبل كفه قال هو من الإناث ، ومن بدأ بكفه قبل مرفقه قال هو من الذكور؛ ثم أرسل العصا إلى الهواء فقال: أي الرأسين سبق إلى الأرض فهو أصلها ، وأمر بالخيل فأجريت حتى عرقت وملأ القدح من عرقها ، ثم رد سليمان الهدية ؛ فروى أنه لما صرف الهدية إليها وأخبرها رسولها بما شاهد؛ قالت لقومها : هذا أمر من السماء .

الثانيــــة ـ كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها ولا يقبل الصدقة ، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردّها علامة على ما في نفسها ؛ على ما ذكرناه من كون سليمان ملكا أو نبيا ؛ لأنه قال لها في كتابه : « أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ » وهذا لا تقبل فيه فدية ، ولا يؤخذ عنه هدية ، وليس هذا من الباب الذي تقرر في الشريعة عن قبول الهدية بسبيل ، وإنما هي رشوة وبيع الحق بالباطل ، وهي الرشوة التي لا تحل . وأما الهدية المطلقة للتحبب والتواصل فإنها جائزة من كل أحد وعلى كل حال ، وهذا ما لم يكن من مشرك .

---

(١) الزيادة من « قصص الأنبياء » للثعلبي .

الثالثة — فإن كانت من مشرك ففي الحديث "نُهيت عن زَبْد المشركين" يعني رِفدهم وعطاياهم. وروى عنه عليه السلام أنه قبلها كما في حديث مالك عن ثور بن زيد الدِّيلي وغيره، فقال جماعة من العلماء بالنسخ فيهما، وقال آخرون: ليس فيهما ناسخ ولا منسوخ، والمعنى فيها: أنه كان لا يقبل هدية من يطمع بالظهور عليه وأخذ بلده ودخوله في الإسلام، وبهذه الصفة كانت حالة سليمان عليه السلام، فعن مثل هذا نهى أن تقبل هديته حملا على الكفّ عنه؛ وهذا أحسن تأويل للعلماء في هذا؛ فإنه جمع بين الأحاديث. وقيل غير هذا.

الرابعة — الهدية مندوب إليها، وهي مما تورث المودة وتذهب العداوة؛ روى مالك عن عطاء بن عبد الله الخراساني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تصافحوا يَذهب الغِلّ وتَهادوا تحابُّوا وتَذهب الشَّحناء". وروى معاوية بن الحكم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "تهادوا فإنه يضعِّف الودّ ويذهب بغوائل الصَّدر". وقال الدارقطني: تفرد به ابن بُجَير عن أبيه عن مالك، ولم يكن بالرضيّ؛ ولا يصح عن مالك ولا عن الزهري. وعن ابن شهاب قال: بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تهادوا بينكم فإن الهدية تُذهب السَّخيمة" قال ابن وهب: سألت يونس عن السَّخيمة ما هي فقال: الغِلّ. وهذا الحديث وصله الوقّاصي عثمان عن الزهري وهو ضعيف. وعلى الجملة: فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية، وفيه الأسوة الحسنة. ومن فضل الهدية مع اتباع السنة أنها تزيل حزازات النفوس، وتكسب المهدي والمهدى إليه رنّة في اللقاء والجلوس. ولقد أحسن من قال:

هدايا الناس بعضهم لبعض ✽ تُولِّد في قلوبهمُ الوِصالا

وتزرعُ في الضمير هَوًى ووُدًّا ✽ وتُكسبهمْ إذا حضروا جَمالا

آخر:

إنّ الهدايا لها حظٌّ إذا وَرَدتْ ✽ أحظى من الابن عند الوالد الحَدِب

الخامسة — روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "جلساؤكم شركاؤكم في الهدية" واختلف في معناه؛ فقيل: هو محمول على ظاهره. وقيل يشاركهم على وجه

الكرم والمروءة ، فإن لم يفعل فلا يجبر عليه . وقال أبو يوسف : ذلك فى الفواكه ونحوها .
وقال بعضهم : هم شركاؤه فى السرور لا فى الهدية . والخبر محمول فى أمثال أصحاب الصُّفَّة
والخوانق والرباطات ؛ أما إذا كان فقيها من الفقهاء اختص بها فلا شركة فيها لأصحابه ، فإن
أشركهم فذلك كرم وجود منه .

السادسة ــ قوله تعالى : ﴿ فَنَاظِرَةٌ ﴾ أى منتظرة ﴿ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ قال قتادة :
يرحمها الله أن كانت لعاقلة فى إسلامها وشركها ؛ قد علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس .
وسقطت الألف فى « بم » للفرق بين « ما » الخبرية . وقد يجوز إثباتها ؛ قال (١) :

على ما قام يشتمنى لئيم ٭ كخنزير تمرغ فى رماد

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ ﴾ أى جاء الرسول سليمان بالهدية قال :
« أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ » . قرأ حمزة ويعقوب والأعمش بنون واحدة مشددة وياء ثابتة بعدها .

(١) هو حسان بن المنذر يهجو بنى عائذ بن عمرو بن مخزوم وقبله :

وإن تصلح فإنك عائذى ٭ وصلح العائذى إلى فساد

الباقون بنونين وهو اختيار أبي عبيد ؛ لأنها في كل المصاحف بنونين . وقد روى إسحق عن نافع أنه كان يقرأ : « أَتُمِدُّونِ » بنون واحدة مخففة بعدها ياء في اللفظ . قال ابن الأنباري : فهذه القراءة يجب فيها إثبات الياء عند الوقف ، ليصح لها موافقة هجاء المصحف . والأصل في النون التشديد ، فخفف التشديد من ذا الموضع كما خفف من : أشهد أنك عالم ؛ وأصله : أنّك عالم . وعلى هذا المعنى بنى الذي قرأ « يُشَاقُونِ فِيهِم » و « أَتُحَاجُونِي فِي اللهِ » . وقد قالت العرب : الرجال يضربونِ ويقصدونِ ؛ وأصله يضربونَّي ويقصدونّي ؛ لأنه إدغام يضربونني ويقصدونني قال الشاعر :

تَرْهبينِ والجِيدُ منكِ لِلَيْلَى ... والحَشَا والبُغَامُ والعينانِ (١)

والأصل ترهبينني فخفف . ومعنى « أَتُمِدُّونَنِي » أتزيدونني مالا إلى ما تشاهدونه من أموالي .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ﴾ أي فما أعطاني من الإسلام والملك والنبوة خير مما أعطاكم ، فلا أفرح بالمال . و « آتانِ » وقعت في كل المصاحف بغير ياء . وقرأ أبو عمرو ونافع وحفص « آتَانِيَ اللهُ » بياء مفتوحة ؛ فإذا وقفوا حذفوا . وأما يعقوب فإنه يثبتها في الوقف ويحذف في الوصل لالتقاء الساكنين . الباقون بغير ياء في الحالين . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي قال سليمان للمنذر بن عمرو أمير الوفد : ارجع إليهم بهديتهم . ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ لام قسم والنون لها لازمة . قال النحاس : وسمعت أبا الحسن بن كيسان يقول : هي لام توكيد وكذا كان عنده أن اللامات كلها ثلاث لا غير ؛ لام توكيد ، ولام أمر ، ولام خفض ؛ وهذا قول الحذاق من النحويين ؛ لأنهم يردّون الشيء إلى أصله ؛ وهذا لا يتهيأ إلا لمن درب في العربية . ومعنى « لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا » أي لا طاقة لهم عليها . ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا ﴾ أي من أرضهم ﴿ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ . وقيل : « منها » أي من قرية سبأ . وقد سبق ذكر القرية في قوله : « إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا

---

(١) بغام الظبية : صوتها .

قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا » . « أَذِلَّةً » قد سُلبوا ملكهم وعزّهم . « وَهُمْ صَاغِرُونَ » أى مهانون أذلاء من الصَّغر وهو الذل إن لم يسلموا ؛ فرجع إليها رسولها فأخبرها ؛ فقالت : قد عرفت أنه ليس بملك ولا طاقة لنا بقتال نبيّ من أنبياء الله . ثم أمرت بعرشها فجعل فى سبعة أبيات بعضها فى جوف بعض ؛ فى آخر قصر من سبعة قصور ؛ وغلقت الأبواب ، وجعلت الحرس عليه ، وتوجهت إليه فى آثنى عشر ألف قَيْل من ملوك اليمن ، تحت كل قَيْل مائة ألف . قال آبن عباس : وكان سليمان مهيبا لا يبتدأ بشىء حتى يكون هو الذى يسأل عنه ، فنظر ذات يوم رهجا(١) قريبا منه ، فقال : ما هذا؟ فقالوا : بلقيس يا نبيّ الله . فقال سليمان لجنوده ـ وقال وهب وغيره للجن ـ «أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ» وقال عبد الله بن شداد . كانت بلقيس على فرسخ من سليمان لما قال : «أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا» وكانت خلفت عرشها بسبأ ، ووكلت به حفظة . وقيل : إنها لما بعثت بالهدية بعثت رسلها فى جندها لتغافص(٢) سليمان عليه السلام بالقتل قبل أن يتأهب سليمان لها إن كان طالب ملك ، فلما علم ذلك قال : « أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا » . قال آبن عباس : كان أمره بالإتيان بالعرش قبل أن يكتب الكتاب إليها ، ولم يكتب إليها حتى جاءه العرش . وقال آبن عطية : وظاهر الآيات أن هذه المقالة من سليمان عليه السلام بعد مجىء هديتها وردّه إياها ، وبعثه الهدهد بالكتاب ، وعلى هذا جمهور المتأولين . وآختلفوا فى فائدة آستدعاء عرشها ؛ فقال قتادة : ذكر له بعظم وجَوْدة ، فأراد أخذه قبل أن يعصمها وقومها الإسلام ويحمى أموالهم ؛ والإسلام على هذا الدّين ؛ وهو قول آبن جريج . وقال آبن زيد : آستدعاه ليريها القدرة التى هى من عند الله ، ويجعله دليلا على نبوته ؛ لأخذه من بيوتها دون جيش ولا حرب ؛ و « مُسْلِمِينَ » على هذا التأويل بمعنى مستسلمين ؛ وهو قول آبن عباس . وقال آبن زيد أيضا : أراد أن يختبر عقلها ولهذا قال : « نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِى » . وقيل : خافت الجن أن يتزوج بها سليمان عليه السلام فيولد له منها ، فلا يزالون فى السخرة والخدمة لنسل سليمان فقالت لسليمان

---

(١) الرهج : الغبار . (٢) المغافصة : الأخذ على غرة .

فى عقلها خلل؛ فأراد أن يمتحنها بعرشها ، وقيل : [أراد] أن يختبر صدق الهدهد فى قوله : « وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » قاله الطبرى . وعن قتادة : أحب أن يراه لما وصفه الهدهد . والقول الأول عليه أكثر العلماء؛ لقوله تعالى: « قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ».ولأنها لو أسلمت لحظر عليه مالها فلا يؤتى به إلا بإذنها . وروى أنه كان من فضة وذهب مرصعا بالياقوت الأحمر والجوهر، وأنه كان فى جوف سبعة أبيات عليه سبعة أغلاق .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ ﴾ كذا قرأ الجمهور وقرأ أبو رجاء وعيسى الثقفى « عِفْرِيَةٌ » ورويت عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وفى الحديث : "إن الله يُبغض العفرية النفرية" . إتباع لعفرية . قال قتادة : هى الداهية . قال النحاس : يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء عِفر وعفرية وعفريت وعُفَارية . وقيل « عفريت » أى رئيس . وقرأت فرقة « قَالَ عِفْرٌ » بكسر العين؛ حكاه ابن عطية؛ قال النحاس : من قال عفرية جمعه على عفار، ومن قال عفريت كان له فى الجمع ثلاثة أوجه ؛ إن شاء قال عفاريت ، وإن شاء قال عَفارٍ ؛ لأن التاء زائدة؛ كما يقال طواغ فى جمع طاغوت ، وإن شاء عوض من التاء ياء فقال عَفارِى . والعفريت من الشياطين القوى المارد . والتاء زائدة . وقد قالوا تَعَفْرَتَ الرجل إذا تخلق بخلق الأذاية . وقال وهب بن منبه : اسم هذا العفريت كودن ؛ ذكره النحاس . وقيل : ذكوان؛ ذكره السهيلى . وقال شعيب الجُبَّائى : اسمه دعوان . وروى عن ابن عباس أنه صخر الجنى . ومن هذا الاسم قول ذى الرُّمَّة :

كأنه كوكبٌ فى إِثْرِ عِفْرِيَةٍ * مُصَوَّبٌ(١) فى سوادِ الليل مُنْقَضِبُ

وأنشد الكسائى(٢) :

إذ قال شيطانُهُمُ العفريتُ * ليس لكم مُلْكٌ ولا تَثْبِيتُ

---

(١) وفى ديوانه طبع أوربا « مسوّم » بدل « مصوب » وهو بمعنى معلم منقضب والبيت فى وصف ثور وحشى؛ كأن الثور كوكب مصوب منقضب فى إثر عفرية فى سواد الليل . (٢) البيت لرؤبة من قصيدة يمدح بها مسلمة بن عبد الملك .

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن عفريتا من الجن جعل يَفتِك(١) عليّ البارحة ليقطع على الصلاة وإن الله أمكنني منه فَدَعَتُّه(٢) " وذكر الحديث . وفي البخاري " تفلّت(٣) على البارحة " مكان " جعل يَفتِك " . وفي " الموطأ " عن يحيى ابن سعيد أنه قال : أُسْرِي برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة من نار ، كلما التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه ؛ فقال جبريل : أفلا أعلّمك كلمات تقولهن إذا قلتهن طُفِئت شعلته وخَرّ لفيه ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بلى " فقال : " أعوذ بالله الكريم وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر من شرّ ما ينزل من السماء وشرّ ما يَعرُج فيها [وشرّ ما ذرأ في الأرض ، وشرّ ما يخرج منها](٤) ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يَطرُق بخير يا رحمن " .

قوله تعالى : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ يعني في مجلسه الذي يحكم فيه . ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ أي قوي على حمله . « أمين » على ما فيه . ابن عباس : أمين على فرج المرأة ؛ ذكره المهدوي . فقال : سليمان أريد أسرع من ذلك ؛ فـ ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أكثر المفسرين على أن الذي عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا وهو من بني إسرائيل ، وكان صدّيقا يحفظ اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب . وقالت عائشة رضي الله عنها قال النبي صلى الله عليه وسلم "إن اسم الله الأعظم الذي دعا به آصف بن برخيا يا حيّ يا قيّوم" قيل : وهو بلسانهم ، أهيا شراهيا ؛ وقال الزهري : دعاء الذي عنده اسم الله الأعظم ؛ يا إلهنا وإله كل شيء إلها واحدا لا إله إلا أنت ائتني بعرشها ؛ فمثل بين يديه . وقال مجاهد : دعا فقال : يا إلهنا وإله كل شيء ياذا الجلال والإكرام . قال السُّهَيلي : الذي عنده علم من الكتاب هو آصف بن برخيا ابن خالة سليمان ، وكان عنده اسم الله الأعظم من أسماء الله تعالى .

---

(١) الفتك : الأخذ في غفلة وخديعة . (٢) فدعته : أي دفعته دفعا شديدا . وفي رواية " فذعته " بالذال المعجمة ومعناه خنقته . (٣) "تفلت" : أي تعرض لي فلتة أي بغتة . (٤) الزيادة من (الموطأ) .

وقيل : هو سليمان نفسه ؛ ولا يصح فى سياق الكلام مثل هـذا التأويل . قال ٱبن عطية : وقالت فرقة هو سليمان عليه السلام ، والمخاطبة فى هـذا التأويل للعفريت لما قال : « أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ » كأن سليمان ٱستبطأ ذلك فقال له على جهة تحقيره : « أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » وٱستدل قائلو هـذه المقالة بقول سليمان : « هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي » .

قلت : ما ذكره ٱبن عطية قاله النحاس فى معانى القرآن له ، وهو قول حسن إن شاء الله تعالى . قال بحر : هو مَلَك بيـده كتاب المقادير، أرسله الله عند قول العفريت . قال السُّهيلىّ : وذكر محمد بن الحسن المقرئ أنه ضَبَّة بن أُدّ ؛ وهذا لا يصح البتة لأن ضَبَّة هو ابن أُدّ بن طابخة ، وٱسمه عمرو بن الياس بن مُضر بن نزار بن مَعدّ ، ومَعدّ كان فى مدة بختنصر ، وذلك بعد عهد سليمان بدهر طويل ؛ فإذا لم يكن معدّ فى عهـد سليمان ، فكيف ضَبّة بن أُدّ وهو بعـده بخمسة آباء ؟ ! وهـذا بيّن لمن تأمله . ابن لَهِيعة : هو الخضر عليه السلام . وقال ابن زيد : الذى عنده علم من الكتاب رجل صالح كان فى جزيرة من جزائر البحر، خرج ذلك اليوم ينظر من ساكن الأرض ؟ وهل يعبـد الله أم لا ؟ فوجد سليمان ، فدعا بٱسم من أسماء الله تعالى بجىء بالعـرش . وقول سابع : إنه رجل من بنى إسرائيل ٱسمه يمليخا كان يعلم ٱسم الله الأعظم؛ ذكره القشيرىّ . وقال ابن أبى بزة : الرجل الذى كان عنـده علم من الكتاب اسمـه أسطوم وكان عابدا فى بنى إسرائيـل ؛ ذكره الغزنوى . وقال محمد بن المنكدر : إنمـا هو سليمان عليه السلام ؛ أما إن الناس يرون أنه كان معه اسم وليس ذلك كذلك ؛ إنمـا كان رجل من بنى إسرائيـل عالم آتاه الله علما وفقها قال : « أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » قال : هات . قال : أنت نبىّ الله ٱبن نبى الله فإن دعوت الله جاءك به ، فدعا الله سليمان فجاءه الله بالعرش . وقول ثامن : إنه جبريل عليه السلام؛ قاله النخعى؛ وروى عن ٱبن عباس . وعلم الكتاب على هذا علمه بكتب الله المنزلة، أو بما فى اللوح المحفوظ . وقيل : علم كتاب سليمان إلى بلقيس . قال ٱبن عطية : والذى

عليه الجمهور من الناس أنه رجل صالح من بنى إسرائيل آسمه آصف بن برخيا؛ روى أنه صلى ركعتين، ثم قال لسليمان : يا نبىّ الله آمدد بصرك فمدّ بصره نحو اليمن فإذا بالعرش، فما ردّ سليمان بصره إلا وهو عنده . قال مجاهد : هو إدامة النظر حتى يرتد طرفه خاسئا حسيرا . وقيل : أراد مقدار ما يفتح عينه ثم يطرف، وهو كما تقول : أفعل كذا فى لحظة عين ؛ وهذا أشبه؛ لأنه إن كان الفعل من سليمان فهو معجزة ، وإن كان من آصف أو من غيره من أولياء الله فهى كرامة ، وكرامة الولىّ معجزة النبىّ . قال القشيرىّ : وقد أنكر كرامات الأولياء من قال إن الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان، قال للعفريت : « أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » . وعند هؤلاء ما فعل العفريت فليس من المعجزات ولا من الكرامات ، فإن الجن يقدرون على مثل هذا . ولا يقطع جوهر فى حال واحدة مكانين، بل يتصوّر ذلك بأن يعدم الله الجوهر فى أقصى الشرق ثم يعيده فى الحالة الثانية، وهى الحالة التى بعد العدم فى أقصى الغرب . أو يعدم الأماكن المتوسطة ثم يعيدها . قال القشيرىّ : ورواه وهب عن مالك . وقد قيل : بل جىء به فى الهواء، قاله مجاهد . وكان بين سليمان والعرش كما بين الكوفة والحيرة . وقال مالك : كانت باليمن وسليمان عليه السلام بالشام . وفى التفاسير آنخرق بعرش بلقيس مكانه الذى هو فيه ثم نبع بين يدى سليمان ؛ قال عبد الله بن شدّاد : وظهر العرش من نفق تحت الأرض؛ فالله أعلم أىّ ذلك كان .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴾ أى ثابتا عنده . ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ أى هذا النصر والتمكين من فضل ربى . ﴿ لِيَبْلُوَنِي ﴾ قال الأخفش : المعنى لينظر ﴿ أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ . وقال غيره : معنى « لِيَبْلُوَنِي » ليتعبدنى، وهو مجاز . والأصل فى الابتلاء الاختبار أى ليختبرنى أأشكر نعمته أم أكفرها ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أى لا يرجع نفع ذلك إلا إلى نفسه، حيث آستوجب بشكره تمام النعمة ودوامها ، والمزيد منها . والشكر قيد النعمة الموجودة ، وبه تنال النعمة المفقودة . ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ﴾ أى عن الشكر ﴿ كَرِيمٌ ﴾ فى التفضل .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ أى غيّروه . قيل : جعل أعلاه أسفله، وأسفله أعلاه . وقيل : غيّر بزيادة أو نقصان . قال الفرّاء وغيره : إنما أمر بتنكيره لأن الشياطين قالوا له : إن فى عقلها شيئا فأراد أن يمتحنها . وقيل : خافت الجن أن يتزوج بها سليمان فيولد له منها ولد فيبقون مسخّرين لآل سليمان أبدا ، فقالوا لسليمان : إنها ضعيفة العقل، ورجلها كرجل الحمار؛ فقال : « نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا » لنعرف عقلها . وكان لسليمان ناصح من الجن، فقال كيف لى أن أرى قدميها من غير أن أسألها كشفها ؟ فقال : أنا أجعل فى هذا القصر ماء ، وأجعل فوق الماء زجاجا ، تظن أنه ماء فترفع ثوبها فترى قدميها ؛ فهذا هو الصرح الذى أخبر الله تعالى عنه .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ ﴾ يريد بلقيس، ﴿ قِيلَ ﴾ لها ﴿ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾ شبّهته به لأنها خلفته تحت الأغلاق ، فلم تقرّ بذلك ولم تنكر ، فعلم سليمان كمال عقلها . قال عكرمة : كانت حكيمة فقالت « كَأَنَّهُۥ هُوَ » . وقال مقاتل : عرفته ولكن شبّهت عليهم كما شبّهوا عليها ؛ ولو قيل لها : أهذا عرشك لقالت نعم هو ؛ وقاله الحسن بن الفضل أيضا وقيل : أراد سليمان أن يظهر لها أنّ الجن مسخّرون له ، وكذلك الشياطين لتعرف أنها نبوّة وتؤمن به . وقد قيل هذا فى مقابلة تعميتها الأمر فى باب الغلمان والجوارى . ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا ﴾ قيل : هو من قول بلقيس؛ أى أوتينا العلم بصحة نبوّة سليمان من قبل هذه الآية فى العرش ﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ منقادين لأمره . وقيل : هو من قول سليمان أى أوتينا العلم

بقدرة الله على ما يشاء من قبل هذه المرة . وقيل : « وَأُوتِينَا الْعِلْمَ » بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها . وقيل : هو من كلام قوم سليمان . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ الوقف على « من دون الله » حسن؛ والمعنى : منعها من أن تعبد الله ما كانت تعبد من الشمس والقمر فـ « ما » فى موضع رفع . النحاس : المعنى ؛ أى صدها عبادتها من دون الله وعبادتها إياها عن أن تعلم ما علمناه [عن أن تسلم][1] . ويجوز أن يكون « ما » فى موضع نصب ، ويكون التقدير : وصدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله ؛ أى حال بينها و بينه . و يجوز أن يكون المعنى : وصدها الله ؛ أى منعها الله عن عبادتها غيره فحذفت «عن» وتعدى الفعل . نظيره : «واختار موسى قومه » أى من قومه . وأنشد سيبويه[2] :

ونُبِّئْتُ عبدَالله بالجوِّ أصبحت * كراماً مواليها لئيماً صميمُها

وزعم أن المعنى عنده نبئت عن عبد الله . ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ قرأ سعيد بن جبير « أنها » بفتح الهمزة ، وهى فى موضع نصب بمعنى لأنها . و يجوز أن يكون بدلا من « ما » فيكون فى موضع رفع إن كانت « ما » فاعلة الصد . والكسر على الاستئناف .

قوله تعالى : قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴾ التقدير عند سيبويه : ادخلى إلى الصرح فحذف إلى وعدّى الفعل . وأبو العباس يغلّطه فى هذا ؛ قال : لأن دخل يدل على مدخول . وكان الصرح صحنا من زجاج تحته ماء وفيه الحيتان ، عمله ليريها ملكا أعظم من ملكها ؛ قاله مجاهد .

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس .

(٢) البيت للفرزدق ، وأراد بعبد الله القبيلة ، وهى عبد الله بن دارم .

وقال قتادة : كان من قوارير خلفه ماء « حَسِبَتْهُ لُجَّةً » أى ماء . وقيل : الصرح القصر ؛ من أبى عبيدة . كما قال[1] :

« تحسِبُ أعلامَهنّ الصُّروحَا »

وقيل : الصَّرح الصَّحْن ؛ كما يقال : هذه صَرْحة الدار وقاعتها ؛ بمعنى . وحكى أبو عبيدة فى الغريب المصنف أن الصَّرح كل بناء عال مرتفع من الأرض؛ وأن الممرد الطويل. النحاس: أصل هذا أنه يقال لكل بناء عمل عملا واحدا صرح؛ من قولهم : لبن صريح إذا لم يَشُبه ماء؛ ومن قولهم : صَرَّح بالأمر ، ومنه : عربى صريح . وقيل : عمله ليختبر قول الجن فيها إن أمها من الجن ، ورجلها رجل حمار ؛ قاله وهب بن منبه . فلما رأت اللجة فزعت وظنت أنه قصد بها الغرق ، وتعجبت من كون كرسيه على الماء، ورأت ما هالها، ولم يكن بد من امتثال الأمر ﴿ وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ﴾ فإذا هى أحسن الناس ساقا؛ سليمة مما قالت الجن؛ غير أنها كانت كثيرة الشعر، فلما بلغت هذا الحد، قال لها سليمان بعد أن صرف بصره عنها : « إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ » والممرد المحكوك المملس ، ومنه الأمرد . وتمرد الرجل إذا أبطأ خروج لحيته بعد إدراكه ؛ قاله الفراء . ومنه الشجرة المرداء التى لا ورق عليها . ورملة مرداء إذا كانت لا تنبت . والممرد أيضا المطوّل ، ومنه قيل للحصن مارد . أبو صالح : طويل على هيئة النخلة . ابن شجرة : واسع فى طوله وعرضه . قال :

غدوت صباحا باكرا فوجدتهم * قبيل الضحا فى السّابرىّ الممرّد

أى الدروع الواسعة . وعند ذلك استسلمت بلقيس وأذعنت وأسلمت وأقرت على نفسها بالظلم ؛ على ما يأتى . ولما رأى سليمان عليه السلام قدميها قال لناصحه من الشياطين : كيف لى أن أقلع هذا الشعر من غير مضرة بالجسد ؟ فدله على عمل النُّورة، فكانت النُّورة والحمامات من يومئذ . فيروى أنّ سليمان تزوجها عند ذلك وأسكنها الشام ؛ قاله الضحاك .

---

(١) البيت لأبى ذؤيب وهو بتمامه :

على طرق كنحور الظباء * تحسب أعلامهن الصروحا

يقول : هذه الطرق كنحور الظباء فى بيانها .

وقال سعيد بن عبد العزيز في كتاب النقاش : تزوجها وردّها إلى ملكها باليمن ، وكان يأتيها على الريح كل شهر مرة ؛ فولدت له غلاما سماه داود مات في زمانه . وفي بعض الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " كانت بلقيس من أحسن نساء العالمين ساقين وهي من أزواج سليمان عليه السلام في الجنة " فقالت عائشة : هي أحسن ساقين مني ؟ فقال عليه السلام : " أنت أحسن ساقين منها في الجنة " ذكره القشيري . وذكر الثعلبي عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أول من اتخذ الحمامات سليمان بن داود فلما ألصق ظهره إلى الجدار فمسه حرّها قال أوّاه من عذاب الله " . ثم أحبها حبا شديدا وأقرها على ملكها باليمن ، وأمر الجن فبنوا لها ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعا : سَلْحون وبَيْنون وغُمْدان ؛ ثم كان سليمان يزورها في كل شهر مرة ، ويقيم عندها ثلاثة أيام . وحكى الشعبي أن ناسا من حِمْير حفروا مقبرة الملوك ، فوجدوا فيها قبرا معقودا فيه امرأة عليها حُلَل منسوجة بالذهب ، وعند رأسها لوح رخام فيه مكتوب :

يأيّها الأقوامُ عُوجُوا معا * واربعوا في مَقْبرَى العيسَا
لتعلموا أنّي تلك التي * قد كنتُ أُدعَى الدهرَ بلقيسَا
شَيَّدْتُ قصرَ المُلْك في حِمير * قومي وقِدْمًا كان مأنوسا
وكنتُ في مُلْكي وتدبيره * أُرغِمُ في الله المَعَاطِيسَا
بَعْلي سليمانُ النبيُّ الذي * قد كان للتوراة درِّيسَا
وسخّر الريحُ له مركبا * تهبُّ أحيانًا رَوَاميسَا
مع ابن داودَ النبيّ الذي * قدّسه الرحمنُ تقديسَا

وقال محمد بن إسحق ووهب بن منبه : لم يتزوجها سليمان ، وإنما قال لها : اختاري زوجا ؛ فقالت : مثلي لا ينكح وقد كان لي من الملك ما كان . فقال : لابد في الإسلام من ذلك . فاختارت ذا تُبَّع ملك هَمْدان ، فزوجه إياها وردها إلى اليمن ، وأمر زوبعة أمير جنّ اليمن أن يطيعه ، فبنى له المصانع ، ولم يزل أميرا حتى مات سليمان . وقال قوم : لم يرد فيه خبر صحيح

لا فى أنه تزوجها ولا فى أنه زوّجها . وهى بلقيس بنت السرح بن الهداهد بن شراحيل بن أدد آبن حدر بن السرح بن الحرس بن قيس بن صيفى بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرنفشذ بن سام بن نوح . وكان جدها الهداهد ملكا عظيم الشأن قد ولد له أربعون ولدا كلهم ملوك ، وكان ملك أرض اليمن كلها ، وكان أبوها السرح يقول لملوك الأطراف : ليس أحد منكم كفؤا لى ، وأبى أن يتزوج منهم ، فزوجوه آمرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت السكن ، فولدت له بلقمة وهى بلقيس ، ولم يكن له ولد غيرها . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم : " كان أحد أبوى بلقيس جنيا " فمات أبوها ، وآختلف عليها قومها فرقتين ، وملكوا أمرهم رجلا فساءت سيرته ، حتى فجر بنساء رعيته ، فأدركت بلقيس الغيرة ، فعرضت عليه نفسها فتزوجها ، فسقته الخمر حتى حزت رأسه ، ونصبته على باب دارها فملكوها . وقال أبو بكرة : ذكرت بلقيس عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " لا يفلح قوم ولّوا أمرهم آمرأة "(١) . ويقال : إن سبب تزوج أبيها من الجن أنه كان وزيرا لملك عات يغتصب نساء الرعية ، وكان الوزير غيورا فلم يتزوج ، فصحب مرة فى الطريق رجلا لا يعرفه ، فقال هل لك من زوجة؟ فقال : لا أتزوج أبدا ، فإن ملك بلدنا يغتصب النساء من أزواجهن ، فقال لئن تزوجت آبنتى لا يغتصبها أبدا . قال : بل يغتصبها . قال : إنا قوم من الجن لا يقدر علينا ، فتزوج آبنته فولدت له بلقيس ، ثم ماتت الأم وآبتنت بلقيس قصرا فى الصحراء ، فتحدث أبوها بحديثها غلطا ، فنمى للملك خبرها فقال له : يافلان تكون عندك هذه البنت الجميلة وأنت لا تأتينى بها ، وأنت تعلم حبى للنساء ! ثم أمر بحبسه ، فأرسلت بلقيس إليه إنى بين يديك ، فتجهز للسير إلى قصرها ، فلما همّ بالدخول بمن معه أخرجت إليه الجوارى من بنات الجن مثل صورة الشمس ، وقلن له ألا تستحى ؟ ! تقول لك سيدتنا أتدخل بهؤلاء الرجال معك على أهلك ! فأذن لهم بالآنصراف ودخل وحده ، وأغلقت عليه الباب وقتلته بالنعال ، وقطعت رأسه ورمت به إلى عسكره ، فأمّروها عليهم ؛ فلم تزل كذلك إلى أن

---

(١) الحديث مروى فى البخارى والنسائى والترمذى من طريق أبى بكرة فى آبنة كسرى ؛ وذلك أنه لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن فارسا ملكوا آبنة كسرى لما هلك قال صلى الله عليه وسلم : " لن يفلح قوم ولوا أمرهم آمرأة " .

بلغ الهدهد خبرها سليمان عليه السلام . وذلك أن سليمان لما نزل في بعض منازله قال الهدهد : إن سليمان قد اشتغل بالنزول ، فارتفع نحو السماء فأبصر طول الدنيا وعرضها ، فأبصر الدنيا يمينا وشمالا ، فرأى بستانا لبلقيس فيه هدهد ، وكان اسم ذلك الهدهد عفير ، فقال عفير اليمن ليعفور سليمان : من أين أقبلت؟ وأين تريد؟ قال : أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود . قال : ومن سليمان ؟ قال : ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحش والريح وكل ما بين السماء والأرض . فمن أين أنت ؟ قال : من هذه البلاد ؛ ملكها امرأة يقال لها بلقيس ، تحت يدها اثنا عشر ألف قَيْل ، تحت يد كل قَيْل مائة ألف مقاتل من سوى النساء والذراري ؛ فانطلق معه ونظر إلى بلقيس ومُلكها ، ورجع إلى سليمان وقت العصر ، وكان سليمان قد فقده وقت الصلاة فلم يجده ، وكانوا على غير ماء . قال ابن عباس في رواية : وقعت عليه نفحة من الشمس . فقال لوزير الطير : هذا موضع من ؟ قال : يا نبيّ الله هذا موضع الهدهد . قال : وأين ذهب؟ قال : لا أدري أصلح الله الملك . فغضب سليمان وقال : « لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا » الآية . ثم دعا بالعُقاب سيد الطير وأصرمها وأشدها بأسا فقال : ما تريد يا نبيّ الله ؟ فقال : عليّ بالهدهد الساعة . فرفع العُقاب نفسه دون السماء حتى لزق بالهواء ، فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدى أحدكم ، فإذا هو بالهدهد مقبلا من نحو اليمن ، فانقض نحوه وأنشب فيه مخلبه . فقال له الهدهد : أسألك بالله الذى أقدرك وقوّاك عليّ إلا ما رحمتني . فقال له : الويل لك ، وثكلتك أمك ! إن نبيّ الله سليمان حلف أن يعذبك أو يذبحك . ثم أتى به فاستقبلته النسور وسائر عساكر الطير . وقالوا الويل لك ؛ لقد توعدك نبيّ الله . فقال : وما قدري وما أنا ! أما استثنى؟ قالوا : بلى ! إنه قال : « أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ » ثم دخل على سليمان فرفع رأسه ، وأرخى ذنبه وجناحيه تواضعا لسليمان عليه السلام . فقال له سليمان : أين كنت عن خدمتك ومكانك؟ لأعذبنك عذابا شديدا أو لأذبحنك . فقال له الهدهد : يا نبيّ الله ! اذكر وقوفك بين يدى الله بمنزلة وقوفي بين يديك . فاقشعر جلد سليمان وارتعد وعفا عنه . وقال عكرمة : إنما صرف الله سليمان عن ذبح الهدهد أنه

كان بارا بوالديه ، ينقل الطعام إليهما فيزقُّهما . ثم قال له سليمان : ما الذي أبطأ بك ؟ فقال الهدهـد ما أخبر الله عن بلقيس وعرشها وقومها حسبا تقـدم بيانه . قال المـاوردى : والقول بأن أم بلقيس جنية مستنكر من العقول لتباين الجنسين، واختلاف الطبعين، وتفارق الحسّين[1]؛ لأن الآدمى جسمانى والجن روحانى، وخلق الله الآدمى من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار، ويمنع الامتزاج مع هذا التباين، ويستحيل التناسل مع هذا الاختلاف.

قلت : قد مضى القول فى هـذا ، والعقل لا يحيله مع ما جاء من الخبر فى ذلك ، وإذا نظر فى أصل الخلق فأصله المـاء على ما تقدم بيانه ، ولا بعد فى ذلك ؛ والله أعلم . وفى التنزيل « وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ » وقد تقـدم . وقال تعـالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ » على ما يأتى فى « الرحمن » .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أى بالشرك الذى كانت عليـه ؛ قاله ابن شجرة . وقال سفيان : أى بالظن الذى توهمتـه فى سليمان ؛ لأنها لمـا أمرت بدخول الصرح حسبته لجة ، وأن سليمان يريد تغريقها فيه . فلما بان لها أنه صرح ممرد من قوارير علمت أنهـا ظلمت نفسها بذلك الظن . وكسرت « إن » لأنها مبتدأة بعـد القول . ومن العرب من يفتحها فيعمل فيهـا القول . ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . إذا سكنت « مع » فهى حرف جاء لمعنى بلا اختلاف بين النحويين . وإذا فتحتها ففيها قولان : أحدهما — أنه بمعنى الظرف اسم . والآخر — أنه حرف خافض مبنى على الفتح ؛ قاله النحاس .

قوله تعـالى : وَلَقَـدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ فَإِذَا هُـمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْـلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾

(١) فى نسخة « الجسمين » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ تقدم معناه . ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ قال مجاهد : أى مؤمن وكافر ؛ قال : والخصومة ما قصه الله تعالى فى قوله : « أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ » إلى قوله : « كَافِرُونَ » . وقيل : تخاصمهم أن كل فرقة قالت : نحن على الحق دونكم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ قال مجاهد : بالعذاب قبل الرحمة ؛ المعنى : لم تؤخرون الإيمان الذى يجلب إليكم الثواب ، وتقدمون الكفر الذى يوجب العقاب ؛ فكان الكفار يقولون لفرط الإنكار : آيتنا بالعذاب . وقيل : أى لم تفعلون ما تستحقون به العقاب ؛ لا أنهم التمسوا تعجيل العذاب . ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ ﴾ أى هلا تتوبون إلى الله من الشرك . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لكى ترحموا ؛ وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ أى تشاءمنا . والشؤم النحس . ولا شىء أضر بالرأى ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطِّيرة . ومن ظن أن خُوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء ، أو يدفع مقدورا فقد جهل . وقال الشاعر :

طِيرةُ الدهرِ لا تَرُدُّ قضاءً * فاعذرِ الدهرَ لا تشبه بلومِ
أىُّ يومٍ يخصُّــه بسعودٍ * والمنايا ينزلن فى كل يومِ
ليس يومٌ إلا وفيه سعودٌ * ونحوسٌ تجرى لقومٍ فقومِ

وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة ، وكانت إذا أرادت سفرا نفّرت طائرا ، فإذا طار يمنة سارت وتيمنت ، وإن طار شمالا رجعت وتشاءمت ، فنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : "أقِرُّوا الطير على وكَناتها"(1) على ما تقدم بيانه فى « المائدة »(2) . ﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى مصائبكم . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ أى تمتحنون . وقيل : تعذبون بذنوبكم .

---

(١) الوكنات (بضم الكاف وفتحها وسكونها) جمع وكنة (بالسكون) وهى عش الطائر ووكره . ويروى : « على مكناتها » .

(٢) راجع جـ ٦ ص ٦٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أى فى مدينة صالح وهى الحجر ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أى تسعة رجال من أبناء أشرافهم . قال الضحاك : كان هؤلاء التسعة عظماء أهل المدينة ، وكانوا يفسدون فى الأرض و يأمرون بالفساد ، فجلسوا عند صخرة عظيمة فقلبها الله عليهم . وقال عطاء بن أبى رَباح : بلغنى أنهم كانوا يقرضون الدنانير والدراهم ، وذلك من الفساد فى الأرض ؛ وقاله سعيد بن المسيّب . وقيل : فسادهم أنهم يتبعون عورات الناس ولا يسترون عليهم . وقيل : غير هذا . واللازم من الآية ما قاله الضحاك وغيره أنهم كانوا من أوجه القوم وأقناهم وأغناهم ، وكانوا أهل كفر ومعاص جمة ؛ وجملة أمرهم أنهم يفسدون ولا يصلحون . والرهط اسم للجماعة ، فكأنهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم رهط . والجمع أرهط وأراهط . قال :

يا بؤس للحرب التى * وضعت أراهط فاستراحوا

وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قُدار عاقر الناقة ؛ ذكره ابن عطية .

قلت : واختلف فى أسمائهم ؛ فقال الغزنوى : وأسماؤهم قُدار بن سالف ومصدع وأسلم ودسما وذَهيم وذعما وذعيم وقتال وصداق . ابن إسحق : رأسهم قُدار بن سالف ومصدع ابن مهرع ، فاتبعهم سبعة ؛ هم بلع بن ميلع ودعير بن غنم وذؤاب بن مهرج وأربعة لم تعرف أسماؤهم . وذكر الزمخشرى أسماءهم عن وهب بن منبه : الهذيل بن عبد رب ، غنم بن غنم ، رياب بن مهرج ، مصدع بن مهرج ، عمير بن كردبة ، عاصم بن مخرمة ، سبيط بن صدقة ، سمعان بن صفى ، قدار بن سالف ؛ وهم الذين سعوا فى عقر الناقة ، وكانوا عتاة قوم صالح ، وكانوا من أبناء أشرافهم . السهيلى : ذكر النقاش التسعة الذين كانوا يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، وسماهم بأسمائهم ، وذلك لا ينضبط برواية ؛ غير أنى أذكره على وجه الاجتهاد

والتخمين، ولكن نذكره على ما وجدناه فى كتاب محمد بن حبيب، وهم: مصدع بن دهر، ويقال دهم، وقدار بن سالف، وهريم وصواب ورياب وداب ودعما وهرما ودعين بن عمير .

قلت : وقد ذكر الماوردى أسماءهم عن ابن عباس فقال : هم دعما ودعيم وهرما وهريم وداب وصواب ورياب ومسطع وقدار، وكانوا بأرض الحجر وهى الشام .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ يجوز أن يكون « تَقَاسَمُوا » فعلا مستقبلا وهو أمر ؛ أى قال بعضهم لبعض احلفوا . ويجوز أن يكون ماضيا فى معنى الحال كأنه قال : قالوا متقاسمين بالله؛ ودليل هذا التأويل قراءة عبد الله : « يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ . تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ » وليس فيها « قَالُوا » . « لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ » قراءة العامة بالنون فيهما واختاره أبو حاتم . وقرأ حمزة والكسائى بالتاء فيهما، وضم التاء واللام على الخطاب أى أنهم تخاطبوا بذلك؛ واختاره أبو عبيد . وقرأ مجاهد وحميد بالياء فيهما، وضم الياء واللام على الخبر . والبيات مباغتة العدو ليلا . ومعنى « لِوَلِيِّهِ » أى لرهط صالح الذى له ولاية الدم . ﴿ مَا شَهِدْنَا مُهْلَكَ[1] أَهْلِهِ ﴾ أى ما حضرنا، ولا ندرى من قتله وقتل أهله . ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فى إنكارنا لقتله . والمُهْلَك بمعنى الإهلاك؛ ويجوز أن يكون الموضع . وقرأ [عاصم][2] والسلمى (بفتح الميم واللام) أى الهلاك ؛ يقال : ضرب يضرب مَضْرَبا أى ضربا . وقرأ المفضل وأبو بكر (بفتح الميم وجر اللام) فيكون اسم المكان كالمجلس لموضع الجلوس ؛ ويجوز أن يكون مصدرا ؛ كقوله تعالى : « إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ » أى رجوعكم .

قوله تعالى : وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

(١) « مهلك » بضم الميم وفتح اللام قراءة الجمهور، وحفص يقرأ بفتح الميم وكسر اللام .

(٢) فى الأصل : « وقرأ حفص » ... الخ »

﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ مكرهم ماروى أن هؤلاء التسعة لما كان فى صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة ، وقد أخبرهم صالح بمجىء العذاب ، اتفقوا وتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلا ويقتلوه وأهله المختصين به ؛ قالوا : فإذا كان كاذبا فى وعيده أوقعنا به ما يستحق ، وإن كان صادقا كنا عجلناه قبلنا ، وشفينا نفوسنا ؛ قاله مجاهد وغيره . قال ابن عباس : أرسل الله تعالى الملائكة تلك الليلة ، فامتلأت بهم دار صالح ؛ فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم ، فقتلتهم الملائكة رضخا بالحجارة فيرون الحجارة ولا يرون من يرميها . وقال قتادة : خرجوا مسرعين إلى صالح ، فسلط عليهم ملك بيده صخرة فقتلهم . وقال السدى : نزلوا على جرف من الأرض ، فانهار بهم فأهلكهم الله تحته . وقيل : اختفوا فى غار قريب من دار صالح ، فانحدرت عليهم صخرة شدختهم جميعا ؛ فهذا ما كان من مكرهم . ومكر الله مجازاتهم على ذلك . ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى بالصيحة التى أهلكتهم . وقد قيل : إن هلاك الكل كان بصيحة جبريل . والأظهر أن التسعة هلكوا بعذاب مفرد ؛ ثم هلك الباقون بالصيحة والدمدمة . وكان الأعمش والحسن وابن أبى إسحق وعاصم وحمزة والكسائى يقرءون « أَنَّا » بالفتح ؛ وقال ابن الأنبارى : فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على « عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ » لأن « أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ » خبر كان . ويجوز أن تجعلها فى موضع رفع على الإتباع للعاقبة . ويجوز أن تجعلها فى موضع نصب من قول الفراء ، وخفض من قول الكسائى على معنى : بأنا دمرناهم ولأنا دمرناهم . ويجوز أن تجعلها فى موضع نصب على الإتباع لموضع « كَيْفَ » فمن هذه المذاهب لا يحسن الوقف على « مَكْرِهِمْ » . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو « إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ » بكسر الألف على الاستئناف ؛ فعلى هذا المذهب يحسن الوقف على « مَكْرِهِمْ » . قال النحاس : ويجوز أن تنصب « عَاقِبَةُ » على خبر « كان » ويكون « إِنَّا » فى موضع رفع على أنها اسم « كان » . ويجوز أن تكون فى موضع رفع على إضمار مبتدإ تبيينا للعاقبة ؛ والتقدير : هى إنا دمرناهم ؛ قال أبو حاتم : وفى حرف أبىّ « أَنْ دَمَّرْنَاهُمْ » تصديقا لفتحها .

قوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ قراءة العامة بالنصب على الحال عند الفراء والنحاس ؛ أى خالية عن أهلها خرابا ليس بها ساكن . وقال الكسائى وأبو عبيدة : « خَاوِيَةً » نصب على القطع ؛ مجازه : فتلك بيوتهم الخاوية ، فلما قطع منها الألف واللام نصب على الحال ؛ كقوله : « وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا » . وقرأ عيسى بن عمر ونصر بن عاصم والجحدرى بالرفع على أنها خبر عن « تِلْكَ » و « بُيُوتُهُمْ » بدل من « تِلْكَ » . ويجوز أن تكون « بُيُوتُهُمْ » عطف بيان و « خَاوِيَةٌ » خبر عن « تِلْكَ » . ويجوز أن يكون رفع « خَاوِيَةٌ » على أنها خبر ابتداء محذوف ؛ أى هى خاوية ، أو بدل من « بُيُوتُهُمْ » لأن النكرة تبدل من المعرفة . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بصالح ﴿ وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الله ويخافون عذابه . قيل : آمن بصالح قدر أربعة آلاف رجل . والباقون خرج بأبدانهم — فى قول مقاتل وغيره — خُرَاجٌ مثل الحِمّص ؛ وكان فى اليوم الأول أحمر ، ثم صار من الغد أصفر ، ثم صار فى الثالث أسود . وكان عقر الناقة يوم الأربعاء ، وهلاكهم يوم الأحد . قال مقاتل : فقعت تلك الخراجات ، وصاح جبريل بهم خلال ذلك صيحة فخمدوا ، وكان ذلك ضحوة . وخرج صالح بمن آمن معه إلى حضرموت ، فلما دخلها مات صالح ؛ فسميت حضرموت . قال الضحاك : ثم بنى الأربعة الآلاف مدينة يقال لها حاضورا ؛ على ما تقدم بيانه فى قصة أصحاب الرس .

قوله تعالى : وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾
أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾
فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ
إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ
ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ أى وأرسلنا لوطا، أو اذكر لوطا . « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ » وهم أهل سدوم . وقال لقومه : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ الفعلة القبيحة الشنيعة . ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أنها فاحشة، وذلك أعظم لذنوبكم . وقيل : يأتى بعضكم بعضا وأنتم تنظرون إليه . وكانوا لا يستترون عتوا منهم وتمردا . ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ﴾ أعاد ذكرها لفرط قبحها وشنعتها . ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ إما أمر التحريم أو العقوبة . واختيار الخليل وسيبويه تخفيف الهمزة الثانية من « أَئِنَّكُمْ » فأما الخط فالسبيل فيه أن يكتب بألفين على الوجوه كلها؛ لأنها همزة مبتدأة دخلت عليها ألف الاستفهام .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أى عن أدبار الرجال . يقولون ذلك استهزاء منهم؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : عابوهم والله بغير عيب بأنهم يتطهرون من أعمال السوء . ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ وقرأ عاصم « قَدَرْنَا » مخففا والمعنى واحد . يقال قد قدرت الشيء قدرا وقدّرته . ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ أى من أنذر فلم يقبل الإنذار . وقد مضى بيان هذا فى « الأعراف »(1) و « هود »(2) .

قوله تعالى : قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ طبعة أولى أو ثانية . (2) راجع جـ ٩ ص ٨١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾ قال الفراء قال أهل المعاني : قيل للوط « قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » على هلاكهم . وخالف جماعة من العلماء الفراء في هذا وقالوا : هو مخاطبة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي قل الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية . قال النحاس : وهذا أولى ، لأن القرآن منزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل ما فيه فهو مخاطب به عليه السلام إلا ما لم يصح معناه إلا لغيره . وقيل : المعنى ؛ أي « قُلْ » يا محمد « الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ » يعني أمته عليه السلام . قال الكلبي : اصطفاهم الله بمعرفته وطاعته . وقال ابن عباس وسفيان : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته ، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده . وفيه تعليم حسن ، وتوقيف على أدب جميل ، وبعث على التيمن بالذكرين والتبرك بهما ، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين ، وإصغائهم إليه ، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المستمع . ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرا عن كابر هذا الأدب ، فحمدوا الله وصلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام كل علم مفاد ، وقبل كل عظة وفي مفتتح كل خطبة ، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني ، وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن .

قوله تعالى : « الَّذِينَ اصْطَفَىٰ » اختار ؛ أي لرسالته وهم الأنبياء عليهم السلام ؛ دليله قوله تعالى : « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » . ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ ﴾ وأجاز أبو حاتم « أَأَللَّهُ خَيْرٌ » بهمزتين . النحاس : ولا نعلم أحدا تابعه على ذلك ؛ لأن هذه المدّة إنما جيء بها فرقا بين الاستفهام والخبر ، وهذه ألف التوقيف ، و « خَيْرٌ » ههنا ليس بمعنى أفضل منك ، وإنما هو مثل قول الشاعر (١) :

أتهجوه ولست له بكفء * فشركما لخيركما الفداء

فالمعنى فالذي فيه الشر منكما للذي فيه الخير الفداء . ولا يجوز أن يكون بمعنى من لأنك إذا قلت : فلان شر من فلان ففي كل واحد منهما شر . وقيل : المعنى ؛ الخير في هذا

(١) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه .

أم فى هـذا الذى تشركونه فى العبادة ! وحكى سيبويه : السـعادة أحب إليك أم الشـقاء ؛ وهو يعلم أن السعادة أحب إليه . وقيـل : هو على بابه من التفضيل ، والمعنى : آلله خير أم ماتشركون؛أى أثوابه خير أم عقاب ماتشركون.وقيل: قال لهم ذلك؛لأنهم كانوا يعتقدون أن فى عبادة الأصنام خيرا فخاطبهم الله عز وجل على آعتقادهم . وقيل: اللفظ لفظ الآستفهام ومعناه الخبر . وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقـوب « يُشْرِكُونَ » بياء على الخبر . الباقون بالتاء على الخطاب ، وهـو آختيار أبى عبيـد وأبى حاتم ؛ فكان النبي صـلى الله عليه وسلم إذا قرأ هذه [الآية] يقول : " بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم " .

قوله تعـالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ قال أبو حاتم : تقـديره؛ آلهتكم خير أم من خلق السموات والأرض ؛ وقد تقدّم . ومعناه : قدر على خلقهن . وقيل : المعنى؛ أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خير أم عبادة من خلق السموات والأرض؟ . فهو مردود على ما قبله من المعنى؛ وفيه معنى التوبيخ لهم، والتنبيه على قدرة الله عز وجل وعجز آلهتهم . ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ الحديقة البستان الذى عليه حائط . والبهجة المنظر الحسن . قال الفراء : الحديقة البستان المحظر عليه حائط ، وإن لم يكن عليه حائط فهو البستان وليس بحديقة، وقال قتادة وعكرمة : الحدائق النخل ذات بهجة ، والبهجة الزينة والحسن؛ يبهج به من رآه . ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ « مَا » للنفى ومعناه الحظر والمنع من فعل هذا؛ أى ما كان للبشر ، ولا يتهيأ لهم ، ولا يقع تحت قدرتهم ، أن ينبتوا شجرها ؛ إذهم عجزة عن مثلها ، لأن ذلك إخراج الشيء من العدم إلى الوجود .

قلت : وقد يستدل من هذا على منع تصوير شيء سواء كان له روح أم لم يكن ؛ وهو قول مجاهد . ويعضده قوله صلى الله عليه وسلم : " قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقا كخلقى فليخلقوا ذرّة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة " رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة ؛ قال سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقول " قال الله عز وجل " فذكره ؛ فعم بالذم والتهديد والتقبيح كل من تعاطى تصوير شيء مما خلقه الله وضاهاه فى التشبيه فى خلقه

فيما انفرد به سبحانه من الخلق والاختراع وهذا واضح . وذهب الجمهور إلى أن تصوير ما ليس فيه روح يجوز هو والاكتساب به . وقد قال ابن عباس للذى سأله أن يصنع الصور : إن كنت لابد فاعلا فاصنع الشجر وما لا نفس له ؛ خرجه مسلم أيضا . والمنع أولى والله أعلم لما ذكرنا . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى «سبأ» إن شاء الله تعالى . ثم قال على جهة التوبيخ : ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى هل معبود مع الله يعينه على ذلك . ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ بالله غيره . وقيل : « يَعْدِلُونَ » عن الحق والقصد؛ أى يكفرون . وقيل : « إِلَٰهٌ » مرفوع بـ«مع» تقديره : أمع الله ويلكم إله . والوقف على « مَعَ اللَّهِ » حسن .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أى مستقرا . ﴿ وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ﴾ أى وسطها مثل « وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا » . ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ يعنى جبالا ثوابت تمسكها وتمنعها من الحركة . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ مانعا من قدرته لئلا يختلط الأجاج بالعذب . وقال ابن عباس : سلطانا من قدرته فلا هذا يغير ذاك ولا ذاك يغير هذا . والحجز المنع . ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى إذا ثبت أنه لا يقدر على هذا غيره فلم يعبدون مالا يضر ولا ينفع . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعنى كأنهم يجهلون الله فلا يعلمون ما يجب له من الوحدانية .

قوله تعالى : أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾

فيـــه ثلاث مســائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ قال ابن عباس : هو ذو الضرورة المجهود . وقال السدى : الذى لا حول له ولا قوة . وقال ذو النون : هو الذى قطع العلائق عما دون الله . وقال أبو جعفر وأبو عثمان النيسابورى : هو المفلس . وقال سهل ابن عبد الله : هو الذى إذا رفع يديه إلى الله داعيا لم يكن له وسيلة من طاعة قدّمها . وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال : أنا أسألك بالله أن تدعو لى فأنا مضطر؛ قال : إذًا فاسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه . قال الشاعر :

وإنّى لأدعُو اللهَ والأمرُ ضَيِّقٌ * علىّ فما ينفكّ أن يتفرّجَا

وربَّ أخٍ سُدَّتْ عليه وُجوهُهُ * أصاب لها لما دعا الله مَخْرَجَا

الثانيـــة ــ وفى مسند أبى داود الطيالسى عن أبى بكرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعاء المضطر : "اللهم رحمتك أرجو فلا تَكِلْنى إلى نفسى طَرْفة عين وأصلح لى شأنى كلّه لا إله إلا أنت" .

الثالثـــة ــ ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه؛ والسبب فى ذلك أن الضرورة إليه باللجاء ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عما سواه؛ وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمّة، وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر؛ كما قال تعالى : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » وقوله : « فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم . وقال تعالى : « فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » فيجيب المضطر لموضع اضطراره وإخلاصه . وفى الحديث : "ثلاث دعوات مستجابات لاشك فيهن دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده" ذكره صاحب الشهاب؛ وهو حديث صحيح . وفى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لمعاذ لما وجّهه إلى أرض اليمن "واتّق دعوةَ المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب".

وفى كتاب الشهاب : « اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام فيقول الله تبارك وتعالى وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين » وهو صحيح أيضا . وخرج الآجرّى من حديث أبى ذرّ عن النبى صلى الله عليه وسلم : « فإنّى لا أردها ولو كانت من فم كافر » فيجيب المظلوم لموضع إخلاصه بضرورته بمقتضى كرمه ، وإجابة لإخلاصه وإن كان كافرا ، وكذلك إن كان فاجرا فى دينه ، ففجور الفاجر وكفر الكافر لا يعود منه نقص ولا وهن على مملكة سيده ، فلا يمنعه ما قضى للمضطر من إجابته . وفسر إجابة دعوة المظلوم بالنصرة على ظالمه بما شاء سبحانه من قهر له ، أو اقتصاص منه ، أو تسليط ظالم آخر عليه يقهره كما قال عز وجل : « وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا » وأكد سرعة إجابتها بقوله : « تحمل على الغمام » ومعناه والله أعلم أن الله عز وجل يوكّل ملائكته بتلقى دعوة المظلوم وبحملها على الغمام ، فيعرجوا بها إلى السماء ، والسماء قبلة الدعاء ليراها الملائكة كلهم ، فيظهر منه معاونة المظلوم ، وشفاعة منهم له فى إجابة دعوته ، رحمة له . وفى هذا تحذير من الظلم جملة ، لما فيه من سخط الله ومعصيته ومخالفة أمره ، حيث قال على لسان نبيه فى صحيح مسلم وغيره : « يا عبادى إنى حرّمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » الحديث . فالمظلوم مضطر ، ويقرب منه المسافر ، لأنه منقطع عن الأهل والوطن ، منفرد عن الصديق والحميم ، لا يسكن قلبه إلى مسعد ولا معين لغربته ، فتصدق ضرورته إلى المولى ، فيخلص إليه فى اللجاء ، وهو المجيب للمضطر إذا دعاه ، وكذلك دعوة الوالد على ولده ، لا تصدر منه مع ما يعلم من حنّته عليه وشفقته ، إلا عند تكامل عجزه عنه ، وصدق ضرورته ، وإياسه عن برّ ولده ، مع وجود أذيته ، فيسرع الحق إلى إجابته .

قوله تعالى : ﴿ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ أى الضر . وقال الكلبى : الجور . ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أى سكانها يهلك قوما وينشئ آخرين . وفى كتاب النقاش : أى ويجعل أولادكم خلفا منكم . وقال الكلبى : خلفا من الكفار ينزلون أرضهم ، وطاعة الله بعد كفرهم . ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ على جهة التوبيخ ، كأنه قال أمع الله ويلكم إله ، فـ « إله » مرفوع بـ « مع » .

ويجوز أن يكون مرفوعا بإضمار أإله مع الله يفعل ذلك فتعبدوه . والوقف على « مع الله » حسن . ﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ قرأ أبو عمرو وهشام ويعقوب « يذّكّرون » بالياء على الخبر؛ كقوله : « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » و « تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » فأخبر فيما قبلها وبعدها؛ واختاره أبو حاتم . الباقون بالتاء خطابا لقوله : « وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ » .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ ﴾ أي يرشدكم الطريق ﴿ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ إذا سافرتم إلى البلاد التي تتوجهون إليها بالليل والنهار . وقيل : وجعل مفاوز البراري لا أعلام لها؛ ولجج البحار كأنها ظلمات؛ لأنه ليس لها علم يهتدى به . ﴿ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشْرًا[1] بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي قدام المطر باتفاق أهل التأويل . ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ يفعل ذلك ويعينه عليه؛ ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ من دونه .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ كانوا يقرون أنه الخالق الرازق فألزمهم الإعادة؛ أي إذا قدر على الابتداء فمن ضرورته القدرة على الإعادة، وهو أهون عليه . ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ يخلق ويرزق ويبدئ ويعيد : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أي حجتكم أن لي شريكا، أو حجتكم في أنه صنع أحد شيئا من هذه الأشياء غير الله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

قوله تعالى : قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ . وعن بعضهم : أخفى غيبه على الخلق، ولم يطلع عليه أحدا لئلا يأمن أحد من عبيده مكره . وقيل : نزلت في المشركين حين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن قيام الساعة . و « من » في موضع رفع؛ والمعنى : قل لا يعلم أحد الغيب إلا الله؛ فإنه بدل من « مَن » قاله الزجاج .

(١) « نشرا » بالنون على قراءة نافع . وفيه سبع قراءات؛ راجع جـ ٧ ص ٢٢٩ طبعة أولى أو ثانية .

الفراء : وإنما رفع ما بعد « إلا » لأن ما قبلها جحد، كقوله : ما ذهب أحد إلا أبوك ؛ والمعنى واحد . قال الزجاج : ومن نصب نصب على الاستثناء ؛ يعنى فى الكلام . قال النحاس : وسمعته يحتج بهذه الآية على من صدّق منجما ؛ وقال : أخاف أن يكفر بهذه الآية .

قلت : وقد مضى هذا فى « الأنعام »[1] مستوفى . وقالت عائشة : من زعم أن محمدا يعلم ما فى غد فقد أعظم على الله الفرية ؛ والله تعالى يقول : « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ » خرجه مسلم . وروى أنه دخل على الحجاج منجّم فاعتقله الحجاج ، ثم أخذ حصيات فعدّهن ، ثم قال : كم فى يدى من حصاة ؟ فحسب المنجّم ثم قال : كذا ؛ فأصاب . ثم اعتقله فأخذ حصيات لم يعدّهن فقال : كم فى يدى ؟ فحسب فأخطأ ثم حسب فأخطأ ؛ ثم قال : أيها الأمير أظنك لا تعرف عددها ؛ قال : لا . قال : فإنى لا أصيب . قال : فما الفرق ؟ قال : إن ذلك أحصيته فخرج عن حدّ الغيب ، وهذا لم تحصه فهو غيب و « لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ » وقد مضى هذا فى « آل عمران »[2] والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ هذه قراءة أكثر الناس منهم عاصم وشيبة ونافع ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى . وقرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وحميد « بَلْ أَدْرَكَ » من الإدراك . وقرأ عطاء بن يسار وأخوه سليمان بن يسار والأعمش[3] « بَلِ ادَّرَكَ » غير مهموز مشدّدا . وقرأ ابن محيصن « بَلْ أَأَدْرَكَ » على الاستفهام . وقرأ ابن عباس « بَلَى » بإثبات الياء « أَدَّارَكَ » بهمزة قطع والدال مشدّدة وألف بعدها ؛ قال النحاس : وإسناده إسناد صحيح ، هو من حديث شعبة يرفعه إلى ابن عباس . وزعم هرون القارئ أن قراءة أبىّ « بَلْ تَدَارَكَ عِلْمُهُمْ » . القراءة الأولى والأخيرة معناهما واحد ؛ لأن أصل « ادَّارَكَ » تدارك ؛ أدغمت الدال فى التاء وجىء بألف الوصل ؛ وفى معناه قولان : أحدهما أن المعنى تكامل علمهم فى الآخرة ؛ لأنهم رأوا كل ما وعدوا به معاينة فتكامل علمهم

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٧ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) لم تذكر كتب التفسير الأخرى الأعمش فى هذه القراءة . ولعل هذه رواية أخرى عنه غير الرواية المتقدمة .

به . والقول الآخر أن المعنى : بل تتابع علمهم اليوم فى الآخرة ، فقالوا تكون وقالوا لا تكون .
القراءة الثانية فيها قولان : أحدهما أن معناه كمل فى الآخرة ، وهو مثل الأول ؛ قال مجاهد :
معناه يدرك علمهم فى الآخرة و يعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم ؛ لأنهم كانوا
فى الدنيا مكذِّبين . والقول الآخر أنه على معنى الإنكار ، وهو مذهب أبى إسحق ، وآستدل
على صحة هذا القول بأن بعده « بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ » أى لم يدرك علمهم علم الآخرة . وقيل :
بل ضل وغاب علمهم فى الآخرة فليس لهم فيها علم . القراءة الثالثة « بَلِ ٱدَّرَكَ » فهى بمعنى
« بَلِ ٱدَّارَكَ » وقد يجىء آفتعل وتفاعل بمعنى ؛ ولذلك صُحّح آزدوجوا حين كان بمعنى
تزاوجوا . القراءة الرابعة ليس فيها إلا قول واحد يكون فيه معنى الإنكار ، كما تقول : أأنا
قاتلتك ؟! فيكون المعنى لم يدرك ، وعليه ترجع قراءة آبن عباس ؛ قال آبن عباس :
« بَلَ ٱدَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ » أى لم يدرك . قال الفراء : وهو قول حسن كأنه وجهه إلى
الآستهزاء بالمكذّبين بالبعث ، كقولك لرجل تكذّبه : بلى لعمرى قد أدركتَ السَّلف فأنت
تَروى ما لا أروى ! وأنت تكذّبه . وقراءة سابعة : « بَلَ ادَّرَكَ » بفتح اللام ؛ عدل إلى
الفتحة لخفتها . وقد حكى نحو ذلك عن قطرب فى « قُمَ اللَّيْلَ » فإنه عدل إلى الفتح .
وكذلك و (بعَ الثوبَ) ونحوه . وذكر الزمخشرى فى الكتاب : وقرئ « بَلْ أَأَدْرَكَ » بهمزتين
« بَلْ آأَدْرَكَ » بألف بينهما « بَلَ أَأَدْرَكَ » « أَمْ تَدَارَكَ » « أَمْ أَدْرَكَ » فهذه ثنتا عشرة
قراءة ، ثم أخذ يعلّل وجوه القراءات وقال : فإن قلت فما وجه قراءة « بَلْ أَأَدْرَكَ » على الآستفهام ؟
قلت : هو آستفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم ، وكذلك من قرأ « أَمْ أَدْرَكَ » و « أَمْ
تَدَارَكَ » لأنها أم التى بمعنى بل والهمزة ، وأما من قرأ « بَلَى أَأَدْرَكَ » على الآستفهام فمعناه
بلى يشعرون متى يبعثون ، ثم أنكر علمهم بكونها ، و إذا أنكر علمهم بكونها لم يحصل لهم شعور
وقت كونها ؛ لأن العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن . « فِى الْآخِرَةِ » فى شأن الآخرة
ومعناها . ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْهَا﴾ أى فى الدنيا . ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ أى بقلوبهم واحدهم عمٍ .
وقيل : عمٍ ؛ وأصله عميون حذفت الياء لالتقاء الساكنين ولم يجز تحريكها لثقل الحركة فيها .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى مشركى مكة . ﴿ إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا آينَّا[1] لَمُخْرَجُونَ ﴾ هكذا يقرأ نافع هنا وفى سورة « العنكبوت » . وقرأ أبو عمرو باستفهامين إلا أنه خفّف الهمزة . وقرأ عاصم وحمزة أيضا باستفهامين إلا أنهما حققا الهمزتين ، وكل ما ذكرناه فى السورتين جميعا واحد . وقرأ الكسائى وابن عامر ورويس ويعقوب « أئذا » بهمزتين « إننا » بنونين على الخبر فى هذه السورة ؛ وفى سورة « العنكبوت » باستفهامين ؛ قال أبو جعفر النحاس : القراءة « إذا كنا ترابا وآباؤنا آينا لمخرجون » موافقة للخط حسنة ، وقد عارض فيها أبو حاتم فقال وهذا معنى كلامه : « إذا » ليس باستفهام و « آينا » استفهام وفيه « إنّ » فكيف يجوز أن يعمل ما فى حيز الاستفهام فيما قبله ؟! وكيف يجوز أن يعمل ما بعد « إنّ » فيما قبلها ؟ ! وكيف يجوز غدًا إن زيدا خارج ؟! فإذا كان فيه استفهام كان أبعد ، وهذا إذا سئل عنه كان مشكلا لما ذكره . وقال أبو جعفر : وسمعت محمد بن الوليد يقول : سألنا أبا العباس عن آية من القرآن صعبة مشكلة ، وهى قول الله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ » فقال : إن عمل فى « إذا » « ينبئكم » كان محالا ؛ لأنه لا ينبئهم ذلك الوقت ، وإن عمل فيه ما بعد « إنّ » كان المعنى صحيحا وكان خطأ فى العربية أن يعمل ما قبل « إنّ » فيما بعدها ؛ وهذا سؤال بيّن رأيت أن يذكر فى السورة التى هو فيها ؛ فأما أبو عبيد فمال إلى قراءة نافع وردّ على من جمع بين استفهامين ، واستدل بقوله تعالى : « أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ » وبقوله تعالى : « أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ » وهذا الردّ على أبى عمرو وعاصم وحمزة

---

(١) قال ابن عطية : (ممدود الألف) ومثله فى « البحر » و « روح المعانى » .

وطلحة والأعرج لا يلزم منه شيء، ولا يشبه ما جاء به من الآية شيئا؛ والفرق بينهما أن الشرط وجوابه بمنزلة شيء واحد؛ ومعنى « أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ » أفإن مت خلدوا . ونظير هـذا أزيد منطلق، ولا يقال : أزيد أمنطلق؛ لأنها بمنزلة شيء واحد وليس كذلك الآية؛ لأن الثاني جملة قائمة بنفسها فيصلح فيها الاستفهام، والأول كلام يصلح فيه الاستفهام؛ فأما من حذف الاستفهام من الثاني وأثبته في الأول فقرأ « أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا إِنَّا » فحذفه من الثاني؛ لأن في الكلام دليلا عليه بمعنى الإنكار.

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَـذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَـذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ تقدم في سورة « المؤمنين »[1] . وكانت الأنبياء يقربون أمر البعث مبالغة في التحذير؛ وكل ما هو آت فقريب .

قوله تعالى : قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي « قُلْ » لهؤلاء الكفار « سِيرُوا » في بلاد الشام والحجاز واليمن . ﴿ فَانْظُرُوا ﴾ أي بقلوبكم وبصائركم ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ المكذبين لرسلهم . ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على كفار مكة أن لم يؤمنوا ﴿ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ ﴾ في حرج ﴿ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ نزلت في المستهزئين الذين اقتسموا عقاب مكة وقد تقدم ذكرهم[2] . وقرئ « في ضِيقٍ » بالكسر وقد مضى في آخر « النحل »[3] . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَـذَا الْوَعْدُ ﴾ أي وقت يجيئنا العذاب بتكذيبنا ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٤٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ١٠ ص ٥٨ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ أى اقترب لكم ودنا منكم ﴿ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أى من العذاب؛ قاله ابن عباس. وهو من ردفه إذا تبعه وجاء فى أثره؛ وتكون اللام أدخلت لأن المعنى اقترب لكم ودنا لكم . أو تكون متعلقة بالمصدر . وقيل : معناه معكم . وقال ابن شجرة : تبعكم؛ ومنه رِدْف المرأة؛ لأنه تبع لها من خلفها؛ ومنه قول أبى ذُؤَيْب :

عاد السوادُ بياضًا فى مَفَارِقِه * لا مَرحبًا ببياض الشَّيْب إذ رَدِفا

قال الجوهرى : وأَرْدَفه أمرٌ لغةٌ فى رَدِفه، مثل تَبِعه وأتبعه بمعنى؛ قال خُزَيمة بن مالك بن نَهْد :

إذا الجوزاءُ أردفتِ الثُّرَيّا * ظَنَنتُ بآل فاطمةَ الظُّنونَا

يعنى فاطمة بنت يَذْكُر بن عَنَزة أحد القارظَيْن . وقال الفراء : « رَدِفَ لَكُمْ » دنا لكم ولهذا قال « لكم » . وقيل : رَدِفه ورَدِف له بمعنى فتزاد اللام للتوكيد؛ عن الفراء أيضا . كما تقول نقدته ونقدت له ، وكِلْته ووزنته ، وكِلْتُ له ووزنت له ؛ ونحو ذلك . « بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ » من العذاب فكان ذلك يوم بدر . وقيل : عذاب القبر . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ فى تأخير العقوبة و إدرار الرزق ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فضله ونعمه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أى تخفى صدورهم ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ يظهرون من الأمور . وقرأ ابن محيصن وحميد «مَا تَكُنُّ» من كَنَنتُ الشىء إذا سترته هنا . وفى « القصص » تقديره : ما تَكُنّ صدورهم عليه؛ وكأن الضمير الذى فى الصدور كالجسم الساتر . ومن قرأ « تُكِنُّ » فهو المعروف ؛ يقال : أكننت الشىء إذا أخفيته فى نفسك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ قال الحسن : الغائبة هنا القيامة . وقيل : ما غاب عنهم من عذاب السماء والأرض؛ حكاه النقاش . وقال ابن شجرة : الغائبة هنا جميع ما أخفى الله تعالى عن خلقه وغيبه عنهم ، وهذا عام . وإنما دخلت الهاء في «غَائِبَةٍ» إشارة إلى الجمع؛ أي ما من خصلة غائبة عن الخلق إلا والله عالم بها قد أثبتها في أم الكتاب عنده، فكيف يخفى عليه ما يسر هؤلاء وما يعلنونه . وقيل : أي كل شيء هو مثبت في أم الكتاب يخرجه للأجل المؤجل له ؛ فالذي يستعجلونه من العذاب له أجل مضروب لا يتأخر عنه ولا يتقدم عليه . والكتاب اللوح المحفوظ أثبت الله فيه ما أراد ليعلم بذلك من يشاء من ملائكته .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وذلك أنهم اختلفوا في كثير من الأشياء حتى لعن بعضهم بعضا فنزلت . والمعنى : إن هذا القرآن يبين لهم ما اختلفوا فيه لو أخذوا به ، وذلك ما حرّفوه من التوراة والإنجيل، وما سقط من كتبهم من الأحكام . ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ يعني القرآن ﴿ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خص المؤمنين لأنهم المنتفعون به . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ﴾ أي يقضي بين بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه في الآخرة، فيجازي المحق والمبطل . وقيل : يقضي بينهم في الدنيا فيظهر ما حرّفوه . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ المنيع الغالب الذي لا يرد أمره ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى فوض إليه أمرك وآعتمد عليه ؛ فإنه ناصرك . ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ أى الظاهر . وقيل : المظهر لمن تدبر وجه الصواب . ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ يعنى الكفار لتركهم التدبر؛ فهم كالموتى لا حسّ لهم ولا عقل . وقيل : هذا فيمن علم أنه لا يؤمن . ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ يعنى الكفار الذين هم بمنزلة الصم عن قبول المواعظ ؛ فإذا دعوا إلى الخير أعرضوا وولّوا كأنهم لا يسمعون ؛ نظيره «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ» كما تقدّم . وقرأ آبن محيصن وحميد وآبن كثير وآبن أبى إسحق وعباس عن أبى عمرو «وَلَا يَسْمَعُ» بفتح الياء والميم «الصُّمُّ» رفعا على الفاعل . الباقون «تُسْمِعُ» مضارع أسمعت «الصُّمَّ» نصبا .

مسـألة ــ وقد آحتجت عائشة رضى الله عنها فى إنكارها أن النبى صلى الله عليه وسلم أسمع موتى بدر بهذه الآية ؛ فنظرت فى الأمر بقياس عقلى ووقفت مع هذه الآية . وقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَا أَنتم بِأَسْمَعَ مِنهم" قال ابن عطية : فيشبه أن قصة بدر خرق عادة لمحمد صلى الله عليه وسلم فى أن رد الله إليهم إدراكا سمعوا به مقاله ولولا إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بسماعهم لحملنا نداءه إياهم على معنى التوبيخ لمن بقى من الكفرة، وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين .

قلت : روى البخارى رضى الله عنه ؛ حدّثنى عبد الله بن محمد سمع رَوْح بن عُبادة قال حدّثنا سعيد بن أبى عَرُوبة عن قتادة قال : ذكر لنا أنس بن مالك عن أبى طلحة ان نبىّ الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقُذفوا فى طَوِى من أطواء بدر خَبيث مُخْبِث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرْصة ثلاث ليال ، فلما كان ببدر اليومَ الثالث أمر براحلته فشدّ عليها رحلُها ثم مشى وتبعه أصحابُه ، قالوا : ما نُرَى ينطلق إلا لبعض حاجته ، حتى قام على شفير الرَّكِىّ ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلانُ بنَ فلان و يا فلانُ بنَ فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؛ فإنا قد وجدنا ما وَعَدنا ربُّنا حقًّا فهل وجدتم ما وَعَد ربُّكم حقًّا ؛ قال فقال عمر : يا رسول الله ! ما تُكلّم من أجساد لا أرواح لها ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم " والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم " قال قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخا وتصغيرا ونقمةً وحسرةً وندمًا . خرجه مسلم

أيضا . قال البخارى : حدّثنى عثمان قال حدّثنا عَبْدة عن هشام عن أبيه عن آبن عمر قال :
وقف النبي صلى الله عليه وسلم على قليب بدر فقال: "هل وجدتم ما وَعَد ربُّكم حقًّا" ثم قال،
"إنهم الآن ليعلمون أن الذى كنت أقول لهم هو الحق" ثم قرأتْ(١) « إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى »
حتى قرأت الآية . وقد عورضت هذه الآية بقصة بدر و بالسلام على القبور، و بما روى فى ذلك
من أن الأرواح تكون على شفير القبور فى أوقات، و بأن الميت يسمع قرع النعال إذا آنصرفوا
عنه، إلى غير ذلك؛ فلو لم يسمع الميت لم يُسلَّم عليه . وهذا واضح وقد بيناه فى كتاب «التذكرة» .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴾ أى كفرهم؛ أى ليس فى وسعك
خلق الإيمان فى قلوبهم . وقرأ حمزة « وَمَا أَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ » كقوله :
«أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ» . الباقون : « بِهَادِي الْعُمْيِ » وهى آختيار أبى عبيد وأبى حاتم
وفى « الروم » مثله . وكلهم وقف على « بِهَادِي » بالياء فى هذه السورة و بغير ياء فى «الروم»
آتباعا للمصحف إلا يعقوب فإنه وقف فيهما جميعا بالياء . وأجاز الفراء وأبو حاتم « وَمَا أَنْتَ
بِهَادِ الْعُمْيَ » وهى الأصل . وفى حرف عبد الله « وَمَا أَنْ تَهْدِي الْعُمْيَ » . ﴿ إِنْ تُسْمِعُ ﴾
أى ما تسمع . ﴿ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ قال آبن عباس : أى إلا من خلقته للسعادة
فهم مخلصون فى التوحيد .

قوله تعالى : وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ
تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ
أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ
أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ
الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا
اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦)

(١) أى عائشة رضى الله عنها .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ اختلف في معنى وقع القول وفي الدابة ؛ فقيل : معنى « وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ » وجب الغضب عليهم ؛ قاله قتادة . وقال مجاهد : أي حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون . وقال ابن عمر وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما : إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم . وقال عبد الله بن مسعود : وقع القول يكون بموت العلماء ، وذهاب العلم ، ورفع القرآن . قال عبدالله : أكثروا تلاوة القرآن قبل أن يُرفع ، قالوا هذه المصاحف تُرفع فكيف بما في صدور الرجال؟ قال : يُسرَى عليه ليلا فيصبحون منه قَفْرا ، وينسَوْن لا إله إلا الله ، ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم ، وذلك حين يقع القول عليهم .

قلت : أسنده أبو بكر البزار قال حدّثنا عبد الله بن يوسف الثّقفيّ قال حدّثنا عبد المجيد ابن عبد العزيز عن موسى بن عبيدة عن صفوان بن سليم عن ابن لعبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن أبيه أنه قال : أكثروا من زيارة هذا البيت من قبل أن يُرفع وينسى الناس مكانه ؛ وأكثروا تلاوة القرآن من قبل أن يُرفع ؛ قالوا : يا أبا عبد الرحمن هذه المصاحف تُرفع فكيف بما في صدور الرجال؟ قال : فيصبحون فيقولون كنا نتكلم بكلام ونقول قولا فيرجعون إلى شعر الجاهلية وأحاديث الجاهلية ، وذلك حين يقع القول عليهم . وقيل : القول هو قوله تعالى : « وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ » فوقوع القول وجوب العقاب على هؤلاء ، فإذا صاروا إلى حد لاتقبل توبتهم ولا يولد لهم ولد مؤمن فحينئذ تقوم القيامة ؛ ذكره القشيري . وقول سادس : قالت حفصة بنت سيرين سألت أبا العالية عن قول الله تعالى : « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ » فقال : أوحى الله إلى نوح « إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ » وكأنما كان على وجهي غطاء فكشف . قال النحاس : وهذا من حسن الجواب ؛ لأن الناس ممتحنون ومؤخَّرون لأن فيهم مؤمنين وصالحين ، ومن قد علم الله عز وجل أنه سيؤمن ويتوب ؛ فلهذا أمهلوا وأمرنا بأخذ الجزية ، فإذا زال هذا وجب القول عليهم ؛ فصاروا كقوم نوح حين قال الله تعالى : « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ » .

قلت : وجميع الأقوال عند التأمل ترجع إلى معنى واحد . والدليل عليه آخر الآية « إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » وقرئ « أَنَّ » بفتح الهمزة وسيأتي . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها [لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا](1) طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض" وقد مضى . واختلف في تعيين هذه الدابة وصفتها ومن أين تخرج اختلافا كثيرا؛ قد ذكرناه في كتاب « التذكرة » ونذكره هنا إن شاء الله تعالى مستوفى . فأول الأقوال أنه فصيل ناقة صالح وهو أصحها — والله أعلم — لما ذكره أبو داود الطيالسي في مسنده عن حذيفة قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال : "لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج في أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية — يعني مكة — ثم تكمن زمانا طويلا ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك فيفشو ذكرها في البادية ويدخل ذكرها القرية" يعني مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثم بينا الناس في أعظم المساجد على الله حرمة خيرها وأكرمها على الله المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فارفض الناس منها شتى ومعا وثبتت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لن يعجزوا الله فبدأت بهم فجلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدري وولت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يافلان الآن تصلي فتقبل عليه فتسمه في وجهه ثم تنطلق ويشترك الناس في الأموال ويصطلحون في الأمصار يعرف المؤمن من الكافر حتى إن المؤمن يقول يا كافر اقض حقي" وموضع الدليل من هذا الحديث أنه الفصيل قوله : "وهي ترغو" والرغاء إنما هو للإبل؛ وذلك أن الفصيل لما قتلت الناقة هرب فانفتح له حجر فدخل في جوفه ثم انطبق عليه ، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله عز وجل . وروى أنها دابة مزغبة شعراء، ذات قوائم طولها ستون ذراعا، ويقال إنها الجساسة؛ وهو قول عبد الله بن عمرو . وروى عن ابن عمر أنها على خلقة الآدميين؛ وهي في السحاب وقوائمها في الأرض . وروى أنها جمعت من خلق

(1) الزيادة من صحيح مسلم .

كل حيوان . وذكر المـاوردى والثعلبي رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيـل ، وقرنها قرن أيل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسـد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هر ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصل ومفصل اثنا عشر ذراعا ـ الزمخشري : بذراع آدم عليه السلام ـ ويخرج معها عصا موسى وخاتم سـليمان ، فتنكت في وجه المسلم بعصا موسى نكتة بيضاء فيبيض وجهه ، وتنكت في وجه الكافر بخاتم سليمان عليه السـلام فيسود وجهه ؛ قاله ابن الزبير رضى الله عنهـما . وفي كتاب النقاش عن ابن عباس رضى الله عنهـما : إن الدابة الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعتها العُقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة . وحكى المـاوردى عن محمد بن كعب عن على بن أبي طالب رضى الله عنـه أنه سئل عن الدابة فقال : أما والله ما لهـا ذَنَب وإن لها لحية . قال المـاوردى : وفي هذا القول منه إشارة إلى أنها من الإنس وإن لم يصرح به .

قلت : ولهذا ـ والله أعلم ـ قال بعض المتأخرين من المفسرين : إن الأقرب أن تكون هذه الدابة إنسانا متكلما يناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقطعوا ، فيهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيّ عن بينة . قال شيخنا الإمام أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي في كتاب المفهم له : وإنمـا كان عند هذا القائل الأقرب لقوله تعـالى : « تُكَلِّمُهُمْ » وعلى هذا فلا يكون في هذه الدابة آية خاصة خارقة للعادة ، ولا تكون من جملة العشر الآيات المذكورة في الحديث ؛ لأن وجود المناظرين والمحتجين على أهل البدع كثير ، فلا آية خاصة بها فلا ينبغي أن تذكر مع العشر ، وترتفع خصوصية وجودها إذا وقع القول ، ثم فيه العدول عن تسمية هذا الإنسان المناظر الفاضـل العالم الذى على أهـل الأرض أن يسمّوه بأسم الإنسان أو بالعالم أو بالإمام إلى أن يسمّى بداية ؛ وهـذا خروج عن عادة الفصحاء ، وعن تعظيم العلمـاء ، وليس ذلك دأب العقلاء ؛ فالأولى ما قاله أهل التفسير ، والله أعلم بحقائق الأمور .

قلت ـ قد رفع الإشكال في هـذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة فليعتمد عليه .

وآختلف من أى موضع تخرج ، فقال عبدالله بن عمر : تخرج من جبل الصّفا بمكة ؛ يتصدع فتخرج منه . قال عبد الله بن عمرو نحوه وقال : لو شئت أن أضع قدمي على موضع خروجها

لفعلت . وروى فى خبر عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الأرض تنشق عن الدابة وعيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون من ناحية المسعى وأنها تخرج من الصفا فتسم بين عيني المؤمن هو مؤمن سِمَةً كأنها كوكب درى وتسم بين عيني الكافر نكتة سوداء كافر" وذكر فى الخبر أنها ذات وبرووريش؛ ذكره المهدوى . وعن ابن عباس أنها تخرج من شِعْب فتمسّ رأسها السحاب ورجلاها فى الأرض لم تخرجا، وتخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام . وعن حُذَيفة : تخرج ثلاث خرجات؛ خرجة فى بعض البوادى ثم تكْمُن، وخرجة فى القرى يتقاتل فيها الأمراء حتى تكثر الدماء، وخرجة من أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها وأفضلها . الزمخشرى : تخرج من بين الركن حذاء دار بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسجد؛ فقوم يَهْرُبون، وقوم يقفون نَظّارة . وروى عن قتادة أنها تخرج فى تهامة . وروى أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فار تنّور نوح عليه السلام . وقيل : من أرض الطائف؛ قال أبو قبيل : ضرب عبد الله بن عمرو أرض الطائف برجله وقال : من هنا تخرج الدابة التى تكلّم الناس . وقيل : من بعض أودية تهامة؛ قاله ابن عباس . وقيل : من صخرة من شِعْب أجياد؛ قاله عبد الله بن عمرو . وقيل : من بحر سَدُوم؛ قاله وهب بن منبه . ذكر هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة الماوردى فى كتابه . وذكر البغوى أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال : حدّثنا علىّ بن الجعد عن فُضيل بن مرزوق الرقاشى الأغر — وسئل عنه يحيى بن مَعين فقال ثقة — عن عطية العوفى عن ابن عمر قال تخرج الدابة من صدع فى الكعبة كجرى الفرس ثلاثة أيام لا يخرج ثلثها .

قلت : فهذه أقوال الصحابة والتابعين فى خروج الدابة وصفتها ، وهى ترد قول من قال من المفسرين : إن الدابة إنما هى إنسان متكلّم يناظر أهل البدع والكفر . وقد روى أبو أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تخرج الدابة فتسم الناس على خراطيمهم " ذكره الماوردى . « تُكَلِّمُهُمْ » بضم التاء وشدّ اللام المكسورة — من الكلام — قراءة العامة؛ يدل عليه قراءة أبىّ « تُنَبِّئُهُمْ » . وقال السدى : تكلمهم ببطلان الأديان سوى

دين الإسلام . وقيل : تكلمهم بما يسوءهم . وقيل : تكلمهم بلسان ذلق فتقول بصوت يسمعه من قرب وبعد «إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ» أى بخروجى ؛ لأن خروجها من الآيات . وتقول : ألا لعنة الله على الظالمين . وقرأ أبو زرعة وابن عباس والحسن وأبو رجاء «تَكْلِمُهُمْ» بفتح التاء من الكَلْم وهو الجرح ؛ قال عكرمة : أى تَسِمُهم . وقال أبو الجوزاء : سألت ابن عباس عن هذه الآية : «تُكَلِّمُهُمْ» أو «تَكْلِمُهُمْ» ؟ فقال : هى والله تُكَلِّمهم وتَكْلِمهم ؛ تُكَلِّم المؤمن وتَكْلِم الكافر والفاجر أى تجرحه . وقال أبو حاتم : «تُكَلِّمُهُمْ» كما تقول تُجَرِّحهم ؛ يذهب إلى أنه تكثير من «تَكْلِمُهُمْ» . ﴿إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ وقرأ الكوفيون وابن أبى إسحق ويحيى «أَنَّ» بالفتح . وقرأ أهل الحرمين وأهل الشام وأهل البصرة «إِنَّ» بكسر الهمزة . قال النحاس : فى المفتوحة قولان وكذا المكسورة ؛ قال الأخفش : المعنى بأنّ وكذا قرأ ابن مسعود «بأَنَّ» وقال أبو عبيدة : موضعها نصب بوقوع الفعل عليها ؛ أى تخبرهم أن الناس . وقرأ الكسائى والفراء «إِنَّ النَّاسَ» بالكسر على الاستئناف . وقال الأخفش : هى بمعنى تقول إن الناس ؛ يعنى الكفار . «بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ» يعنى بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك حين لا يقبل الله من كافر إيمانا ، ولم يبق إلا مؤمنون وكافرون فى علم الله قبل خروجها ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أى زمرة وجماعة ﴿مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ يعنى بالقرآن وبأعلامنا الدالة على الحق . ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أى يُدفعون ويساقون إلى موضع الحساب . قال الشَّمَّاخ :

وكَمْ وَزَعْنَا من خَميس جَحفلٍ ✽ وكَمْ حَبَوْنا من رئيس مِسْحَلِ

وقال قتادة : «يُوزَعُونَ» أى يُرَدّ أولهم على آخرهم . ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ﴾ أى قال الله ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي﴾ التى أنزلتها على رسلى ، وبالآيات التى أقمتها دلالة على توحيدى . ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ أى ببطلانها حتى تعرضوا عنها ، بل كذبتم جاهلين غير مستدلين . ﴿أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تقريع وتوبيخ أى ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ولم تتفكروا

ما فيها . ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا﴾ أى وجب العذاب عليهم بظلمهم أى بشركهم . ﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ أى ليس لهم عذر ولا حجة . وقيل : يختم على أفواههم فلا ينطقون؛ قاله أكثر المفسرين .

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أى يستقرون فيناموت . ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أى يبصر فيه لسعى الرزق . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله . ذكر الدلالة على إلهيته وقدرته أى ألم يعلموا كمال قدرتنا فيؤمنوا .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أى واذكر يوم أو ذكرهم يوم ينفخ فى الصور . ومذهب الفراء أن المعنى : وذلكم يوم ينفخ فى الصور ؛ وأجاز فيه الحذف . والصحيح فى الصور أنه قرن من نور ينفخ فيه إسرافيل . قال مجاهد : كهيئة البوق . وقيل : هو البوق بلغة أهل اليمن . وقد مضى فى « الأنعام »(1) بيانه وما للعلماء فى ذلك . ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن الله لما فرغ من خلق السموات خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر بالنفخة" قلت : يا رسول الله ما الصور؟ قال :

---

(1) راجع ج ٧ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

"قرن والله عظيم والذى بعثنى بالحق إن عظم دارة فيـه كعرض السماء والأرض فينفخ فيـه ثلاث نفخات النفخة الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصَّعْق والثالثـة نفخة البعث والقيام لرب العالمين" وذكر الحديث . ذكره على بن معبـد والطبرى والثعلبى وغيرهم ، وصححه ابن العربى . وقد ذكرته فى كتاب « التذكرة » وتكلمنا عليه هنالك ، وأن الصحيح فى النفخ فى الصور أنهما نفختان لا ثلاث ، وأن نفخة الفزع إنما تكون راجعة إلى نفخة الصعق لأن الأمرين لازمان لهما ؛ أى فزعوا فزعا ماتوا منه ؛ أو إلى نفخة البعث وهو آختيار القشـيرى وغيره ؛ فإنه قال فى كلامه على هذه الآية : والمراد النفخة الثانية ؛ أى يحيون فزعين يقولون : « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا » ؛ ويعاينون من الأمر ما يهولهم ويفزعهم ؛ وهـذا النفخ كصوت البوق لتجتمع الخلق فى أرض الجزاء . وقال المـاوردى : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّـورِ » هو يوم النشور من القبور ، قال وفى هـذا الفزع قولان : أحدهمـا أنه الإسراع والإجابة إلى النداء من قولهم : فزعت إليك فى كذا إذا أسرعت إلى ندائك فى معونتك . والقول الثانى : إن الفزع هنا هو الفـزع المعهود من الخوف والحـزن ؛ لأنهم أزعجوا من قبورهم وخافوا . وهذا أشبه القولين .

قلت : والسنة الثابتة من حديث أبى هريرة وحديث عبـد الله بن عمرو يدل على أنهما نفختان لا ثلاث ؛ خرجهما مسـلم وقد ذكرناهمـا فى كتاب « التـذكرة » وهو الصحيح إن شاء الله تعالى أنهما نفختان ؛ قال الله تعـالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَـاءَ اللَّهُ » فآستثنى هنا كما آستثنى فى نفخة الفـزع فدل على أنهما واحدة . وقد روى آبن المبارك عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بين النفختين أربعون سـنة الأولى يميت الله بها كل حى والأخرى يحيى الله بها كل ميت" فإن قيـل فإن قوله تعالى : « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَـةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ » إلى أن قال : « فَإِنَّمَـا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ » وهذا يقتضى بظاهره أنها ثلاث . قيل له : ليس كذلك ، وإنما المراد بالزجرة النفخة الثانيـة التى يكون عنها خروج الخلق من قبورهم ؛ كذلك قال آبن عباس ومجاهـد

وعطاء وآبن زيد وغيرهم . قال مجاهد : هما صيحتان أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله، وأما الأخرى فتحيي كل شيء بإذن الله . وقال عطاء : « الراجفة » القيامة و « الرادفة » البعث . وقال آبن زيد : « الراجفة » الموت و « الرادفة » الساعة . والله أعلم . « إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » ثم آختلف في هـذا المستثنى من هم . ففي حديث أبي هريرة أنهم الشهداء عند ربهم يرزقون إنما يصل الفزع إلى الأحياء ؛ وهو قول سعيد بن جبير أنهم الشهداء متقلدو السيوف حول العرش . وقال القشيري : الأنبياء داخلون في جملتهم ؛ لأن لهم الشهادة مع النبوة . وقيل : الملائكة . قال الحسن : آستثنى طوائف من الملائكة يموتون بين النفختين . قال مقاتل : يعني جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . وقيل : الحور العين . وقيل : هم المؤمنون ؛ لأن الله تعالى قال عقيب هذا : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ » . وقال بعض علمائنا : والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح والكل محتمـل .

قلت : خفي عليه حديث أبي هريرة وقد صححه القاضي أبو بكر بن العربي فليعول عليه ؛ لأنه نص في التعيين وغيره آجتهاد . والله أعلم . وقيل : غير هذا على ما يأتي في « الزُّمَر » . وقوله « فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ » ماض و « يُنْفَخُ » مستقبل فيقال : كيف عطف ماض على مستقبل ؟ فزعم الفراء أن هذا محمول على المعنى ؛ لأن المعنى : إذا نفخ في الصور ففزع . « إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » نصب على الآسـتثناء . ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم والكسائي ونافع وآبن عامر وآبن كثير « آتُوهُ » جعلوه فعلا مستقبلا . وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة وحفص عن عاصم « وَكُلٌّ أَتَوْهُ » مقصورا على الفعل الماضي ، وكذلك قرأه آبن مسعود . وعن قتادة « وَكُلٌّ أَتَاهُ دَاخِرِينَ » . قال النحاس : وفي كتابي عن أبي إسحق في القراءات [من قرأ](١) « وَكُلٌّ أَتَوْهُ » وحده على لفظ « كُلّ » ومن قرأ « آتُوهُ » جمع على معناها ، وهـذا القول غلط قبيح ؛ لأنه إذا قال : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ » فلم يوحد وإنما جمع ،

(١) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

ولو وحّد لقال : « أتاه » ولكن من قال : « أتوه » جمع على المعنى وجاء به ماضيا لأنه رده إلى « ففزع » ومن قرأ « وكلٌّ آتوه » حمله على المعنى أيضا وقال « آتوه » لأنها جملة منقطعة من الأول . قال ابن نصر : قد حكى عن أبي إسحق رحمه الله مالم يقله ، ونص أبي إسحق : « وكُلٌّ أتَوْهُ دَاخِرِينَ » ويقرأ « آتوه » فمن وحّد فللفظ « كلّ » ومن جمع فلمعناها . يريد ما أتى في القرآن أو غيره من توحيد خبر « كلّ » فعلى اللفظ أو جمع فعلى المعنى ؛ فلم يأخذ أبو جعفر هذا المعنى . قال المهدوي : ومن قرأ « وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ » فهو فعل من الإتيان وحمل على معنى « كلّ » دون لفظها ، ومن قرأ « وَكُلٌّ آتُوهُ دَاخِرِينَ » فهو اسم الفاعل من أتى . يدلك على ذلك قوله تعالى : « وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا » . ومن قرأ « وَكُلٌّ أَتَاهُ » حمله على لفظ « كلّ » دون معناها وحمل « داخرين » على المعنى ؛ ومعناه صاغرين ؛ عن ابن عباس وقتادة . وقد مضى في «النحل»(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ قال ابن عباس : أي قائمة وهي تسير سيرا حثيثا . قال القتبي : وذلك أن الجبال تُجمع وتُسيَّر ، فهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير ؛ وكذلك كل شيء عظيم وجمع كثير يقصر عنه النظر ، لكثرته وبعد ما بين أطرافه ، وهو في حسبان الناظر كالواقف وهو يسير . قال النابغة في وصف جيش :

بأرْعَنَ مثل الطَّود تحسبُ أنّهمْ * وُقوفٌ لِحَاجٍ والرِّكَابُ تُهمْلِجُ

قال القشيري . وهذا يوم القيامة ؛ أي هي لكثرتها كأنها جامدة ؛ أي واقفة في مرأى العين وإن كانت في أنفسها تسير سير السحاب ، والسحاب المتراكم يظن أنها واقفة وهي تسير ؛ أي تمر مر السحاب حتى لا يبقى منها شيء ، فقال الله تعالى : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا » ويقال : إن الله تعالى وصف الجبال بصفات مختلفة ترجع كلها إلى تفريغ الأرض منها ؛ وإبراز ما كانت تواريه ؛ فأول الصفات الاندكاك وذلك قبل الزلزلة ، ثم تصير كالعهن المنفوش ؛ وذلك إذا صارت السماء كالمُهْل ، وقد جمع الله بينهما فقال : « يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٤٤ طبعة أولى أو ثانية .

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ » . والحالة الثالثة أن تصير كالهباء وذلك أن تنقطع بعد أن كانت كالعهن . والحالة الرابعة أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارة فى مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتنسف عنها لتبرز ؛ فإذا نسفت فبإرسال الرياح عليها . والحالة الخامسة أن الرياح ترفعها على وجه الأرض فتظهرها شعاعا فى الهواء كأنها غبار ؛ فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجسادا جامدة ، وهى بالحقيقة مارة إلا أن مرورها من وراء الرياح كأنها مندكة متفتتة . والحالة السادسة أن تكون سرابا فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئا منها كالسراب . قال مقاتل : تقع على الأرض فتسوّى بها . ثم قيل هذا مَثَلٌ . قال الماوردى : وفيما ضُرب له ثلاثة أقوال : أحدها أنه مَثَلٌ ضربه الله تعالى للدنيا يظن الناظر إليها أنها واقفة كالجبال ، وهى آخذة بحظها من الزوال كالسحاب ؛ قاله سهل بن عبد الله . الثانى : أنه مثلٌ ضربه الله للإيمان تحسبه ثابتا فى القلب وعمله صاعد إلى السماء : الثالث : أنه مثل ضربه الله للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش . ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أى هذا من فعل الله ، و[ما] هو فعل منه فهو متقن . و « تَرَى » من رؤية العين ولو كانت من رؤية القلب لتعدت إلى مفعولين . والأصل تَرْأَى فألقيت حركة الهمزة على الراء فتحركت الراء وحذفت الهمزة ؛ وهذا سبيل تخفيف الهمزة إذا كان قبلها ساكن ، إلا أن التخفيف لازم لتَرَى . وأهل الكوفة يقرءون « تَحْسَبُهَا » بفتح السين وهو القياس ؛ لأنه من حَسِب يَحْسَب إلا أنه قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم خلافها أنه قرأ بالكسر فى المستقبل ، فتكون على فَعِل يفعِل مثل نَعِم ينعِم وبَئِس يَبئِس وحكى يَئِس يَيئِس من السالم ، لا يعرف فى كلام العرب غير هذه الأحرف . « وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » تقديره مرًّا مثل مرّ السحاب ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف والمضاف مقام المضاف إليه ؛ فالجبال تُزال من أماكنها من على وجه الأرض ، وتُجمع وتُسيَّر كما تُسيَّر السحاب ، ثم تكسّر فتعود إلى الأرض كما قال : « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا » . « صُنْعَ اللَّهِ » عند الخليل وسيبويه منصوب على أنه مصدر ؛ لأنه لما قال عز وجل : « وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » دل على أنه قد صنع ذلك صنعا . ويجوز النصب على الإغراء ؛ أى انظروا صنع الله . فيوقف

على هـذا على « السحاب » ولا يوقف عليه على التقدير الأول . ويجوز رفعه على تقدير ذلك صنع الله . « الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ » أى أحكمه، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "رحم الله من عمل عملا فأتقنه" . وقال قتادة : معناه أحسن كل شىء . والإتقان الإحكام؛ يقال رجل تِقْن أى حاذق بالأشياء. وقال الزهري: أصله من آبن تِقْن، وهو رجل من عاد لم يكن يسقط له سهم فضرب به المثل ؛ يقال: أرمى من آبن تِقْن ثم يقـال لكل حاذق بالأشياء تقن . ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب قراءة الجمهور. وقرأ آبن كثير وأبو عمرو وهشام بالياء.

قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ قال آبن مسعود وآبن عباس رضى الله عنهما : الحسنة لا إله إلا الله . وقال أبو معشر : كان إبراهيم يحلف بالله الذى لا إله إلا هو ولا يستثنى أن الحسنة لا إله إلا الله محمد رسول الله . وقال على بن الحسين بن على رضى الله عنهم: غزا رجل فكان إذا خلا بمكان قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ فبينما هو فى أرض الروم فى أرض جلفاء وبردى رفع صوته فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له فخرج عليه رجل على فرس عليه ثياب بيض فقال له : والذى نفسى بيده إنها الكلمة التى قال الله تعالى « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » . وروى أبو ذر قال : قلت يا رسول الله أوصنى . قال : "آتق الله وإذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها" قال قلت : يا رسـول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال : "من أفضل الحسنات" وفى رواية قال: "نعم هى أحسن الحسنات" ذكره البيهقى. وقال قتادة: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ» بالإخلاص والتوحيد. وقيل: أداء الفرائض كلها.

قلت : إذا أتى بلا إله إلا الله على حقيقتها وما يجب لهـا ـ على ما تقدّم بيانه فى سورة إبراهيم ـ فقد أتى بالتوحيد والإخلاص والفرائض . « فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » قال آبن عبـاس : أى وصل إليه الخير منها؛ وقاله مجاهد . وقيل : فله الجزاء الجميل وهو الجنة . وليس « خير » للتفضيل . قال عكرمة وآبن جريج : أما أن يكون له خير منها يعنى من الإيمان فلا؛ فإنه ليس شىء خيرا ممن قال لا إله إلا الله ولكن له منها خير . وقيـل : « فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » للتفضيل أى ثواب الله خير من عمل العبد وقوله وذكره، وكذلك رضوان الله خير للعبد من فعل العبد؛

قاله ابن عباس . وقيل : يرجع هـذا إلى الإضعاف فإن الله تعـالى يعطيه بالواحدة عشرا ؛ وبالإيمان فى مدة يسيرة الثواب الأبدى؛ قاله محمد بن كعب وعبد الرحمن بن زيد. ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائى « فَزَعِ يَوْمَئِذٍ » بالإضافة . قال أبو عبيد : وهذا أعجب إلى لأنه أعم التأويلين أن يكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم ؛ وإذا قال : « مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ » صار كأنه فزع دون فزع دون فزع . قال القشيرى : وقرئ « مِنْ فَزَعٍ » بالتنوين ثم قيل يعنى به فزعا واحدا كما قال : « لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ » . وقيل عنى الكثرة لأنه مصدر والمصدر صالح للكثرة .

قلت : فعلى هذا تكون القراءتان بمعنى . قال المهدوى : ومن قرأ « مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ » بالتنوين انتصب « يومئذ » بالمصدر الذى هـو « فزع » . ويجوز أن يكون صفة لفزع ويكون متعلقا بمحذوف؛ لأن المصادر يخبر عنها بأسماء الزمان وتوصف بها، ويجوز أن يتعلق باسم الفاعل الذى هو « آمنون » . والإضافة على الاتساع فى الظروف . ومن حذف التنوين وفتح الميم بناه لأنه ظرف زمان ، وليس الإعراب فى ظرف الزمان متمكنا ، فلما أضيف إلى غير متمكن ولا معرب بنى . وأنشد سيبويه :

على حينَ أَلْهَى النَّاسَ جُلُّ أُمُورِهِمْ * فَنَدْلًا زُرَيْقُ المَالَ نَدْلَ الثَّعَالِبِ (١)

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أى بالشرك ؛ قاله ابن عباس والنخعى وأبو هريرة ومجاهد وقيس بن سعد والحسن، وهو إجماع من أهل التأويل فى أن الحسنة لا إله إلا الله، وأن السيئة الشرك فى هذه الآية . ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ قال ابن عباس : ألقيت . وقال الضحاك : طرحت ؛ يقال كببت الإناء أى قلبته على وجهه، واللازم منه أكب؛ وقلما يأتى هذا فى كلام العرب . ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أى يقال لهم هل تجزون . ثم يجوز أن يكون من قول الله، ويجوز أن يكون من قول الملائكة . ﴿إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى إلا جزاء أعمالكم .

(١) زريق : اسم قبيلة وهو منادى . والندل هنا الأخذ باليدين . والندل أيضا السرعة فى السير . «ندل الثعالب» : يقال فى المثل : (هو أكسب من ثعلب) لأنه يدخر لنفسه ، ويأتى على ما يعدو عليه من الحيوان إذا أمكنه . والبيت فى وصف تجار وقيل لصوص ، وقبله :

يمرون بالدهنا خفافا عيابهم * ويرجعن من دارين بجر الحقائب

قوله تعالى : إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ يعني مكة التي عظم الله حرمتها، أي جعلها حرما آمنا؛ لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصاد فيها صيد، ولا يعضد فيها شجر؛ على ما تقدم بيانه في غير موضع . وقرأ ابن عباس : «الَّتِي حَرَّمَهَا» نعتا للبلدة . وقراءة الجماعة « الذي » وهو في موضع نصب نعت لـ « رب » ولو كان بالألف واللام لقلت المحرِّمها ؛ فإن كانت نعتا للبلدة قلت المحرِّمها هو ؛ لا بد من إظهار المضمر مع الألف واللام؛ لأن الفعل جرى على غير من هو له ؛ فإن قلت الذي حرمها لم تحتج أن تقول هو . ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ خلقا وملكا . ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي من المنقادين لأمره، الموحِّدين له . ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ أي وأمرت أن أتلو القرآن، أي أقرأه . ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى ﴾ فله ثواب هدايته . ﴿ وَمَنْ ضَلَّ ﴾ فليس عليّ إلا البلاغ ؛ نسختها آية القتال . قال النحاس . « وَأَنْ أَتْلُوَ » نصب بأن . قال الفراء : وفي إحدى القراءتين « وَأَنِ اتْلُ » وزعم أنه في موضع جزم بالأمر فلذلك حذف منه الواو، قال النحاس : ولا نعرف أحدا قرأ هذه القراءة، وهي مخالفة لجميع المصاحف .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي على نعمه وعلى ما هدانا . ﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أي في أنفسكم وفي غيركم كما قال : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ » . ﴿ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أي دلائل قدرته ووحدانيته في أنفسكم وفي السموات وفي الأرض ؛ نظيره قوله تعالى : « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

قرأ أهل المدينة وأهل الشام وحفص عن عاصم بالتاء على الخطاب؛ لقوله : « سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا » فيكون الكلام على نسق واحد . الباقون بالياء على أن يرد إلى ما قبله « فَمَنِ اهْتَدَى » فأخبر عن تلك الآية . كملت السورة والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم .

سورة القصص

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء . وقال ابن عباس وقتادة إلا آية نزلت بين مكة والمدينة . وقال ابن سلام : بالجحفة في وقت هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وهي قوله عز وجل : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ » . وقال مقاتل : فيها من المدني « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ » إلى قوله : « لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ » . وهي ثمان وثمانون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ طسٓمٓ ﴾ تقدم الكلام فيه . ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ « تِلْكَ » في موضع رفع بمعنى هذه تلك و « آيَاتُ » بدل منها . ويجوز أن يكون في موضع نصب بـ« نَتْلُو » و « آيَاتُ » بدل منها أيضا؛ وتنصبها كما تقول : زيدا ضربت . و « الْمُبِينِ »

أي المبين بركته وخيره، والمبين الحقّ من الباطل ، والحلال من الحرام ، وقصص الأنبياء ، ونبوّة محمد صلى الله عليه وسلم . ويقال : بان الشيء وأبان [اتضح][1] . ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ذكر قصة موسى عليه السلام وفرعون وقارون ، واحتج على مشركي قريش ، وبين أن قرابة قارون من موسى لم تنفعه مع كفره ، وكذلك قرابة قريش لمحمد، وبين أن فرعون علا في الأرض وتجبّر، فكان ذلك من كفره، فليجتنب العلو في الأرض، وكذلك التعزز بكثرة المال، وهما من سيرة فرعون وقارون . «نَتْلُو عَلَيْكَ» أي يقرأ عليك جبريل بأمرنا « مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ » أي من خبرهما و «من» للتبعيض و « مِنْ نَبَإِ » مفعول «نتلو» أي نتلو عليك بعض خبرهما؛ كقوله تعالى : «تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ» . ومعنى « بِالْحَقِّ» أي بالصدق الذي لا ريب فيه ولا كذب . «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أي يصدقون بالقرآن ويعلمون أنه من عند الله؛ فأما من لم يؤمن فلا يعتقد أنه حق .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي استكبر وتجبر؛ قاله ابن عباس والسدي . وقال قتادة : علا في نفسه عن عبادة ربه بكفره وادعى الربوبية . وقيل : بملكه وسلطانه فصار عاليا على من تحت يده . « فِي الْأَرْضِ » أي أرض مصر . ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أي فرقا وأصنافا في الخدمة . قال الأعشى :

وبلدة يَرْهَبُ الجوّابُ دجلتَها * حتى تراه عليها يَبتغي الشِّيَعَا

﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ﴾ أي من بني إسرائيل . ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ تقدم القول في هذا في « البقرة »[2] عند قوله : « يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ » الآية ؛ وذلك لأن الكهنة قالوا له : إن مولودا يولد في بني إسرائيل يذهب ملكك على يديه ، أو قال المنجمون له ذلك ، أو رأى رؤيا فعبرت كذلك . قال

(١) في الأصل : « أفصح » وهو تحريف . والتصويب من كتب اللغة .

(٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

الزجاج : العجب من حمقه لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع ، وإن كذب فلا معنى للقتل . وقيل : جعلهم شيعا فاستسخر كل قوم من بنى إسرائيل فى شغل مفرد . «إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» أى فى الأرض بالعمل والمعاصى والتجبر .

قوله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى نتفضل عليهم وننعم . وهذه حكاية مضت . ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ قال ابن عباس : قادة فى الخير . مجاهد : دعاة إلى الخير . قتادة : ولاة وملوكا ؛ دليله قوله تعالى : « وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا » .

قلت : وهذا أعم فإن الملك إمام يؤتم به ويقتدى به . ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ لملك فرعون ؛ يرثون ملكه ، ويسكنون مساكن القبط . وهذا معنى قوله تعالى : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا » .

قوله تعالى : ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى نجعلهم مقتدرين على الأرض وأهلها حتى يُستولى عليها ؛ يعنى أرض الشام ومصر . ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا ﴾ أى ونريد أن نرى فرعون . وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة والكسائى وخلف « وَيَرَى » بالياء على أنه فعل ثلاثى من رأى « فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَجُنُودُهُمَا » رفعا لأنه الفاعل . الباقون « نُرِيَ » بضم النون وكسر الراء على أنه فعل رباعى من أرى يُرى ، وهى على نسق الكلام ؛ لأن قبله « ونريد » وبعده « ونمكن » . « فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا » نصبا بوقوع الفعل . وأجاز الفراء « وَيُرِيَ فِرْعَوْنَ » بضم الياء وكسر الراء وفتح الياء بمعنى ويرى الله فرعون ﴿ مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يدى رجل من بنى إسرائيل فكانوا على وجل « مِنْهُمْ » فأراهم الله « مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » . قال قتادة : كان حازيا لفرعون — والحازى المنجم — قال إنه سيولد فى هذه السنة مولود يذهب بملكك ؛ فأمر فرعون بقتل الولدان فى تلك السنة . وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ قد تقدم معنى الوحي ومحامله . وآختلف في هذا الوحي إلى أم موسى ؛ فقالت فرقة : كان قولا في منامها . وقال قتادة : كان إلهاما . وقالت فرقة : كان بملك يمثل لها . قال مقاتل : أتاها جبريل بذلك ؛ فعلى هذا هو وحي إعلام لا إلهام . وأجمع الكل على أنها لم تكن نبية ، وإنما إرسال الملك إليها على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى في الحديث المشهور ، خرجه البخاري ومسلم ، وقد ذكرناه في سورة « براءة »(١) . وغير ذلك مما روى من تكليم الملائكة للناس من غير نبوة ، وقد سلمت على عمران بن حصين فلم يكن بذلك نبيا . وآسمها أيارخا وقيل أيارخت فيما ذكر السهيلي . وقال الثعلبي : وآسم أم موسى لوحا(٢) بنت هاند بن لاوى بن يعقوب . « أَنْ أَرْضِعِيهِ » وقرأ عمر ابن عبد العزيز « أَنِ آرْضِعِيهِ » بكسر النون وألف وصل ؛ حذف همزة أرضع تخفيفا ثم كسر النون لالتقاء الساكنين . قال مجاهد : وكان الوحي بالرضاع قبل الولادة . وقال غيره بعدها . قال السدي : لما ولدت أم موسى موسى أمرت أن ترضعه عقيب الولادة وتصنع به ما في الآية ؛ لأن الخوف كان عقيب الولادة . وقال آبن جريج : أمرت بإرضاعه أربعة أشهر في بستان ، فإذا خافت أن يصيح — لأن لبنها لا يكفيه — صنعت به هذا . والأول أظهر إلا أن الآخر يعضده قوله : « فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ » و « إِذَا » لما يستقبل من الزمان ؛ فيروى أنها

(١) راجع ج ٨ ص ١٨٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) وقيل في آسمها أيضا : يوخابذ . وقيل : يوخابيل ؛ وقيل غير ذلك .

اتخذت له تابوتا من بَرْدى وقيّرته بالقار من داخله؛ ووضعت فيه موسى وألقته فى نيل مصر. وقد مضى خبره فى «طـه»[1]. قال ابن عباس: إن بنى إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصى؛ فسلط الله عليهم القبط، وساموهم سوء العذاب، إلى أن نجاهم الله على يد موسى. قال وهب: بلغنى أن فرعون ذبح فى طلب موسى سبعين ألف وليد. ويقال: تسعون ألفا. ويروى أنها حين اقتربت وضربها الطلق، وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها؛ فقالت: لينفعنى حُبُّك اليوم؛ فعالجتها فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه، وارتعش كل مَفْصِل منها، ودخل حبّه قلبها، ثم قالت: ما جئتك إلا لأقتل مولودك وأخبر فرعون، ولكنى وجدت لابنك حبًّا ما وجدت مثله قط، فاحفظيه؛ فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته فى خرقة ووضعته فى تنّور مسجور نارا لم تعلم ما تصنع لما طاش عقلها، فطلبوا فلم يلقوا شيئا، فخرجوا وهى لا تدرى مكانه، فسمعت بكاءه من التنّور، وقد جعل الله عليه النار بردا وسلاما.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ فيه وجهان: أحدهما — لا تخافى عليه الغرق؛ قاله ابن زيد. الثانى — لا تخافى عليه الضيعة؛ قاله يحيى بن سلّام. ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ فيه أيضا وجهان: أحدهما — لا تحزنى لفراقه؛ قاله ابن زيد. الثانى — لا تحزنى أن يقتل؛ قاله يحيى بن سلّام. فقيل: إنها جعلته فى تابوت طوله خمسة أشبار وعرضه خمسة أشبار، وجعلت المفتاح مع التابوت وطرحته فى اليم بعد أن أرضعته أربعة أشهر. وقال آخرون: ثلاثة أشهر. وقال آخرون: ثمانية أشهر؛ فى حكاية الكلبى. وحكى أنه لما فرغ النجار من صنعة التابوت نمّ إلى فرعون بخبره، فبعث معه من يأخذه، فطمس الله عينيه وقلبه فلم يعرف الطريق، فأيقن أنه المولود الذى يخاف منه فرعون، فآمن من ذلك الوقت؛ وهو مؤمن آل فرعون؛ ذكره الماوردى. وقال ابن عباس: فلما توارى عنها ندّمها الشيطان وقالت فى نفسها: لو ذبح عندى فكفنته وواريته لكان أحب إلىّ من إلقائه فى البحر؛

(١) راجع ج ١١ ص ١٩٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

فقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى إلى أهل مصر . حكى الأصمعى قال : سمعت جارية أعرابية تنشد وتقول :

أستغفر الله لذنبى كلِّه ۞ قبّلتُ إنسانًا بغير حِلِّه .
مثل الغزال ناعمًا فى دَلِّه ۞ فانتصف الليل ولم أُصلِّه

فقلت : قاتلك الله ما أفصحك ! فقالت : أو يعد هذا فصاحة مع قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ » الآية ؛ فجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ لما كان التقاطهم إياه يؤدّى إلى كونه لهم عدوّا وحزنا ؛ فاللام فى « ليكون » لام العاقبة ولام الصيرورة ؛ لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرّة عين ، فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدوّا وحزنا ، فذكر الحال بالمآل ؛ كما قال الشاعر :

وللمنايا تُربِّى كلُّ مُرضِعةٍ ۞ ودُورُنا لخراب الدهر نَبْنيها

وقال آخر :

فللموت تغذُو الوالداتُ سِخالَها ۞ كما لخراب الدهر تُبنَى المساكنُ

أى فعاقبة البناء الخراب وإن كان فى الحال مفروحا به . والالتقاط وجود الشىء من غير طلب ولا إرادة ، والعرب تقول لما وجدته من غير طلب ولا إرادة : التقطه التقاطا . ولقيت فلانا التقاطا . قال الراجز (1) :

۞ ومَنْهَلٍ وردتُه التقاطا ۞

ومنه اللقطة . وقد مضى بيان ذلك من الأحكام فى سورة « يوسف » (2) بما فيه كفاية . وقرأ الأعمش ويحيى والمفضل وحمزة والكسائى وخلف « وَحُزْنًا » بضم الحاء وسكون الزاى . الباقون بفتحهما واختاره أبو عبيد . وأبو حاتم قال التفخيم (3) فيه . وهما لغتان مثل العَدَم

---

(1) هو نقادة الأسدى ، كما فى اللسان مادة « لقط » . (2) راجع جـ ٩ ص ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (3) التفخيم فى اصطلاح القراء : الفتح .

والعُدْم، والسُّقم والسُّقْم، والرُّشَد والرُّشْد . ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ وكان وزيره من القبط . ﴿ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ أى عاصين مشركين آثمين .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ يروى أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم فى البحر، فأمرت بسوقه إليها وفتحه، فرأت فيه صبيا صغيرا فرحمته وأحبته؛ فقالت لفرعون : « قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » أى هو قرة عين لى ولك فـ « قُرَّةُ » خبر ابتداء مضمر؛ قاله الكسائى . وقال النحاس : وفيه وجه آخر بعيد ذكره أبو إسحق؛ [قال][1] : يكون رفعا بالابتداء والخبر « لَا تَقْتُلُوهُ » وإنما بَعُد لأنه يصير المعنى أنه معروف بأنه قرة عين . وجوازه أن يكون المعنى : إذا كان قرة عين لى ولك فلا تقتلوه . وقيل : تم الكلام عند قوله : « ولك » . النحاس : والدليل على هذا أن فى قراءة عبد الله بن مسعود « وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لَا تَقْتُلُوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » . ويجوز النصب بمعنى لا تقتلوا قرةَ عين لى ولك . وقالت : « لَا تَقْتُلُوهُ » ولم تقل لا تقتله فهى تخاطب فرعون كما يخاطَب الجبارون؛ وكما يخبرون عن أنفسهم . وقيل : قالت « لَا تَقْتُلُوهُ » فإن الله أتى به من أرض أخرى وليس من بنى إسرائيل . ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ فنصيب منه خيرا ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ وكانت لا تلد؛ فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها، وكان فرعون لما رأى الرؤيا وقصها على كهنته وعلمائه — على ما تقدّم — قالوا له : إن غلاما من بنى إسرائيل يفسد ملكك؛ فأخذ بنى إسرائيل بذبح الأطفال، فرأى أنه يقطع نسلهم، فعاد يذبح عاما ويستحيي عاما، فولد هرون فى عام الاستحياء، وولد موسى فى عام الذبح .

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ هذا ابتداء كلام من الله تعالى؛ أى وهم لا يشعرون أن هلاكهم بسببه . وقيل : هو من كلام المرأة؛ أى وبنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه، ولا يشعرون إلا أنه ولدنا . واختلف المتأولون فى الوقت الذى قالت فيه امرأة فرعون « قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » فقالت فرقة : كان ذلك عند التقاطه التابوت لما أشعرت فرعون به،

(١) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

ولما أعلمته سبق إلى فهمه أنه من بنى إسرائيل، وأن ذلك قصد به ليتخلص من الذبح فقال: علىّ بالذباحين ؛ فقالت آمرأته ما ذُكر ؛ فقال فرعون : أمّا لى فلا . قال النبى صلى الله عليه وسلم : " لو قال فرعون نعم لآمن بموسى ولكان قرة عين له " وقال السدى : بل ربّته حتى درّج ، فرأى فرعون فيه شهامة وظنه من بنى إسرائيل وأخذه فى يده ، فمد موسى يده ونتف لحية فرعون ، فهمّ حينئذ بذبحه ، وحينئذ خاطبته بهذا ، وجربته له فى الياقوتة والجمرة ، فاحترق لسانه وعلق العقدة على ما تقدم فى « طه »(1) . قال الفراء : سمعت محمد بن مروان الذى يقال له السدى يذكر عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنه قال : إنما قالت « قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا » ثم قالت : « تَقْتُلُوهُ » قال الفراء : وهو لحن ؛ قال آبن الأنبارى : وإنما حكم عليه باللحن ؛ لأنه لو كان كذلك لكان تقتلونه بالنون ؛ لأن الفعل المستقبل مرفوع حتى يدخل عليه الناصب أو الجازم ، فالنون فيه علامة الرفع . قال الفراء : ويقويك على رده قراءة عبد الله بن مسعود « وَقَالَتِ ٱمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لَا تَقْتُلُوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » بتقديم « لا تقتلوه » .

قوله تعالى : وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

---

(1) راجع جـ ١١ ص ١٩٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وأبو عمران الجونى وأبو عبيدة : « فَارِغًا » أى خاليا من ذكر كل شيء فى الدنيا إلا من ذكر موسى . وقال الحسن أيضا وابن إسحق وابن زيد : «فارغا» من الوحى إذ أوحى إليها حين أمرت أن تلقيه فى البحر « وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي » والعهد الذى عهده إليها أن يرده ويجعله من المرسلين؛ فقال لها الشيطان : يا أم موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى فغرقتيه أنت ! ثم بلغها أن ولدها وقع فى يد فرعون فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها . وقال أبو عبيدة : « فَارِغًا » من الغم والحزن لعلمها أنه لم يغرق ؛ وقاله الأخفش أيضا . وقال العلاء بن زياد : « فارغا » نافرا . الكسائى : ناسيا ذاهلا . وقيل : والها ؛ رواه سعيد بن جبير . ابن القاسم عن مالك : هو ذهاب العقل ؛ والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش ، ونحوه قوله تعالى : « وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ » أى جوف لا عقول لها كما تقدم فى سورة « إبراهيم »(1) . وذلك أن القلوب مراكز العقول ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : « فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا » ويدل عليه قراءة من قرأ « فَزِعًا » . النحاس : أصح هذه الأقوال الأول ، والذين قالوه أعلم بكتاب الله عز وجل ؛ فإذا كان فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحى . وقول أبى عبيدة فارغا من الغم غلط قبيح ؛ لأن بعده « إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا » . روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كادت تقول وا ابناه ! وقرأ فضالة ابن عبيد الأنصارى رضى الله عنه ومحمد بن السَّمَيْقَع وأبو العالية وابن محيصن « فَزِعًا » بالفاء والعين المهملة من الفزع ؛ أى خائفة عليه أن يقتل . ابن عباس : « قَرِعًا » بالقاف والراء والعين المهملتين ، وهى راجعة إلى قراءة الجماعة « فَارِغًا » ولذلك قيل للرأس الذى لا شعر عليه : أقرع ؛ لفراغه من الشعر . وحكى قطرب أن بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قرأ « فِرْغًا » بالفاء والراء والغين المعجمة من غير ألف ، وهو كقولك : هدرا وباطلا ؛ يقال :

(1) راجع جـ ٩ ص ٣٧٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

دماؤهم بينهم فَرْغ أى هدر ؛ والمعنى بطل قلبها وذهب وبقيت لا قلب لها من شدة ماورد عليها . وفى قوله تعالى « وَأَصْبَحَ » وجهان : أحدهما ــ أنها ألقته ليلا فأصبح فؤادها فى النهار فارغا . الثانى ــ أنها ألقته نهارا ومعنى « أصبح » أى صار ؛ كما قال الشاعر :

مضى الخلفاء بالأمر الرشيد * وأصبحت المدينة للوليد

إِنْ كَادَتْ ﴾ أى إنها كادت ، فلما حذفت الكناية سكنت النون ، فهى « إن » المخففة ولذلك دخلت اللام فى ﴿ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أى لتظهر أمره ؛ من بدا يبدو إذا ظهر . قال ابن عباس : أى تصيح عند إلقائه : وا ابناه . السدى : كادت تقول لما حملت لإرضاعه وحضانته هو ابنى . وقيل : إنه لما شبّ سمعت الناس يقولون موسى بن فرعون ، فشق عليها وضاق صدرها ، وكادت تقول هو ابنى . وقيل : الهاء فى « به » عائدة إلى الوحى تقديره : إن كادت لتبدى بالوحى الذى أوحيناه إليها أن نرده عليها . والأول أظهر . قال ابن مسعود : كادت تقول أنا أمه . وقال الفراء : إن كادت لتبدى باسمه لضيق صدرها . ﴿ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ﴾ قال قتادة : بالإيمان . السدى : بالعصمة . وقيل : بالصبر . والربط على القلب : إلهام الصبر . ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى من المصدقين بوعد الله حين قال لها : « إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ » . وقال « لَتُبْدِي بِهِ » ولم يقل : لتبديه ؛ لأن حروف الصفات قد تزاد فى الكلام ؛ تقول : أخذت الحبل وبالحبل . وقيل : أى لتبدى القول به .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أى قالت أم موسى لأخت موسى : اتبعى أثره حتى تعلمى خبره . واسمها مريم بنت عمران ؛ وافق اسمها اسم مريم أم عيسى عليه السلام ؛ ذكره السهيلى والثعلبى . وذكر الماوردى عن الضحاك : أن اسمها كلثمة . وقال السهيلى : كلثوم ؛ جاء ذلك فى حديث رواه الزبير بن بكار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : " أشعرت أن الله زوجنى معك فى الجنة مريم بنت عمران وكلثوم أخت موسى وآسية امرأة فرعون " فقالت : آلله أخبرك بهذا ؟ فقال : " نعم " فقالت بالرفاء والبنين . ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ﴾ أى بعد ؛ قاله مجاهد . ومنه الأجنبى .

قال الشاعر[(١)] :

فَلَا تَحْرِمَنِّى نَائِلًا عن جَنَابَةٍ * فإنِّى امرُؤٌ وسْطَ القِبَابِ غَرِيبُ

وأصله عن مكان جنب . وقال ابن عباس : « عَنْ جُنُبٍ » أى من جانب . وقرأ النعمان ابن سالم « عن جانبٍ » أى عن ناحية . وقيل : عن شوق؛ وحكى أبو عمرو بن العلاء أنها لغة لجذام ، يقولون : جنبت إليك أى اشتقت . وقيـل : « عن جنبٍ » أى عن مجانبة لها منه فلم يعرفوا أنها منه بسبيل . وقال قتادة : جعلت تنظر إليه بناحية [كأنها][(٢)] لا تريده ، وكان يقرأ « عَنْ جَنْبٍ » بفتح الجيم و إسكان النون . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنها أخته لأنها كانت تمشى على ساحل البحر حتى رأتهم قد أخذوه .

قوله تعـالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ أى منعناه من الارتضاع من قبل ؛ أى من قبـل مجىء أمه وأخته . و « المراضع » جمع مُرْضِع . ومن قال مراضيع . فهو جمع مِرضاع ، ومفعال يكون للتكثير ، ولا تدخل الهاء فيه فرقا بين المؤنث والمذكر لأنه ليس بجارٍ على الفعل ، ولكن من قال مِرضاعة جاء بالهاء للمبالغة ؛ كما يقال مِطرابة . قال ابن عباس : لا يؤتى بمرضع فيقبلها . وهذا تحريم منع لا تحريم شرع ؛ قال امرؤ القيس :

جَالَتْ لِتَصرعَنِى فقلتُ لها اقْصِرِى * إنّى امرُؤٌ صَرْعِى عليكِ حَرامُ[(٣)]

أى ممتنع . فلما رأت أخته ذلك قالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ الآية . فقالوا لها عند قولها : ﴿ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ وما يدريكِ ؟ لعلكِ تعرفين أهله ؟ فقالت : لا ؛ ولكنهم يحرصون على مَسرّة الملك ، و يرغبون فى ظئره . وقال السدى وابن جُرَيج : قيل لها لما قالت « وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ » قـد عرفتِ أهل هذا الصبى فدلينا عليهم ؛ فقالت : أردت وهم للملك ناصحون . فدلتهم على أم موسى ، فانطلقت إليهـا بأمرهم فجاءت بهـا ، والصبىّ على يد فرعون يعلله شفقة عليه ، وهو يبكى يطلب الرضاع ، فدفعه إليها ؛ فلما وجد الصبىّ

---

(١) هو علقمة بن عبدة ، قاله يخاطب به الحرث بن جبلة يمدحه ، وكان قد أسر أخاه شأسا — وأراد بالنائل إطلاق أخيه شأس من سجنه — فأطلق له أخاه شأسا ومن أسر معه من بنى تميم . (٢) الزيادة من كتب التفسير .

(٣) جالت : قلقت . يقول : ذهبت الناقة بقلقها ونشاطها لتصرعنى فلم تقدر على ذلك لحذق بالركوب ومعرفتى به .

ريح أمه قبل ثديها . وقال ٱبن زيد : ٱستـرابوها حين قالت ذلك فقالت وهم للملك ناصحون . وقيل : إنها لما قالت « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ » وكانوا يبالغون فى طلب مرضعة يقبل ثديها فقالوا : من هى ؟ فقالت : أمّى ؛ فقيل : لها لبن ؟ قالت : نعم ! لبن هرون ـــ وكان ولد فى سنة لا يقتل فيها الصبيان ـــ فقالوا صدقت والله . « وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ » أى فيهم شفقة ونصح ؛ فروى أنه قيل لأم موسى حين ٱرتضـع منها : كيف ٱرتضـع منك ولم يرتضع من غيرك ؟ فقـالت : إنى ٱمرأة طيبة الريح طيبة اللبن ، لا أكاد أوتى بصبىّ إلا ٱرتضع منى . قال أبو عمران الجونى : وكان فرعون يعطى أم موسى كل يوم دينـارا . قال الزمخشرى : فإن قلت كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها ؟ قلت : ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع ، ولكنه مال حربىّ تأخذه على وجه الاستباحة .

قوله تعـالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ ﴾ أى رددناه وقد عطّف الله قلب العدوّ عليه ، ووفينا لها بالوعد . ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَـا ﴾ أى بولدها . ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أى بفراق ولدها . ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى لتعلم وقوعه فإنها كانت عالمة بأن رده إليها سـيكون . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعنى أكثر آل فرعون لا يعلمون ؛ أى كانوا فى غفلة عن التقدير وسر القضاء . وقيل : أى أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله فى كل ما وعد حق .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ قـد مضى الكلام فى الأشد فى « الأنعام »(1) . وقول ربيعة ومالك أنه الحُلُم أولى ما قيل فيه ؛ لقوله تعالى : « حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ » وذلك أول الأشـد ، وأقصاه أربع وثلاثون سـنة ؛ وهو قول سـفيان الثورى . و « ٱستوى » قال ٱبن عباس : بلغ أربعين سنة . والحكم : الحكمة قبل النبوة . وقيـل : الفقه فى الدين . وقد مضى بيانها فى « البقرة »(2) وغيرها . والعلم الفهم قول السدى . وقيل : النبوة . وقال مجاهد : الفقه . محمد بن إسحق : أى العلم بما فى دينه ودين آبائه ؛ وكان له تسعة من بنى إسرائيل يسمعون منـه ، و يقتدون به ، ويجتمعون إليـه ، وكان هذا قبل النبوة .

---

(1) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (2) راجع جـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى كما جزينا أم موسى لما آستسلمت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر، وصدّقت بوعد الله؛ فرددنا ولدها إليها بالتحف والطرف وهي آمنة، ثم وهبنا له العقل والحكمة والنبوّة؛ وكذلك نجزي كل محسن .

قوله تعالى : وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا
رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن
شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ
عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى
فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ
عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ
فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ
أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ
جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ قيل : لما عرف موسى عليه السلام ما هو عليه من الحق في دينه، عاب ما عليه قوم فرعون؛ وفشا ذلك منه فأخافوه فخافهم، فكان لا يدخل مدينة فرعون إلا خائفا مستخفيا. وقال السدي : كان موسى في وقت هذه القصة على رسم التعلق بفرعون، وكان يركب مراكبه، حتى كان يدعى موسى آبن فرعون؛ فركب فرعون يوما وسار إلى مدينة من مدائن مصر يقال لها منف — قال مقاتل على رأس فرسخين من مصر — ثم علم موسى بركوب فرعون، فركب بعده ولحق بتلك القرية في وقت

القائلة، وهو وقت الغفلة ؛ قاله ابن عباس . وقال أيضا : هو بين العشاء والعتمة . وقال ابن إسحق : بل المدينة مصر نفسها، وكان موسى في هذا الوقت قد أظهر خلاف فرعون، وعاب عليهم عبادة فرعون والأصنام، فدخل مدينة فرعون يوما على حين غفلة من أهلها . قال سعيد بن جبير وقتادة: وقت الظهيرة والناس نيام . وقال ابن زيد : كان فرعون قد نابذ موسى وأخرجه من المدينة، وغاب عنها سنين، وجاء والناس على غفلة بنسيانهم لأمره، وبُعْد عهدهم به، وكان ذلك يوم عيد. وقال الضحاك: طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها ، فدخلها حين علم ذلك منهم، فكان منه من قتل الرجل من قبل أن يؤمر بقتله ، فاستغفر ربه فغفر له . ويقال في الكلام: دخلت المدينة حين غفل أهلها، ولا يقال: على حين غفل أهلها؛ فدخلت «على» في هذه الآية لأن الغفلة هي المقصودة؛ فصار هذا كما تقول: جئت على غفلة، وإن شئت قلت : جئت على حين غفلة ، وكذا الآية . ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِ﴾ والمعنى : إذا نظر إليهما الناظر قال هـذا من شيعته ؛ أي من بني إسرائيل . ﴿وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي من قوم فرعون. ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ﴾ أي طلب نصره وغوثه ، وكذا قال في الآية بعدها : «فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ» أي يستغيث به على قبطي آخر . وإنما أغاثه لأن نصر المظلوم دين في الملل كلها على الأمم ، وفرض في جميع الشرائع . قال قتادة : أراد القبطي أن يُسخّر الإسرائيلي ليحمل حطبا لمطبخ فرعون فأبى عليه ، فاستغاث بموسى . قال سعيد بن جبير : وكان خبازا لفرعون. ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ﴾ قال قتادة : بعصاه . وقال مجاهد : بكفه؛ أي دفعه . والوكز واللكز واللهز واللهد بمعنى واحد ، وهو الضرب بجُمْع الكف مجموعا كعقد ثلاثة وسبعين . وقرأ ابن مسعود « فَلَكَزَهُ » . وقيل : اللكز في اللحي والوكز على القلب. وحكى الثعلبي أن في مصحف عبد الله بن مسعود « فَنَكَزَهُ » بالنون والمعنى واحد . وقال الجوهري عن أبي عبيدة : اللكز الضرب بالجُمْع على الصدر . وقال أبو زيد : في جميع الجسد ، واللهز : الضرب بجُمْع اليد في الصدر مثل اللكز ؛ عن أبي عبيدة أيضا . وقال أبو زيد : هو بالجُمْع في اللهازم والرقبة ؛ والرجل مِلْهَز بكسر الميم .

وقال الأصمعي : نكزه؛ أي ضربه ودفعه . الكسائي : نهزه مثل نكزه ووكزه؛ أي ضربه ودفعه . ولهده لهدا أي دفعه لذلّه فهو ملهود؛ وكذلك لهّده؛ قال طرفة يذم رجلا :

بطيء عن الدّاعي سريع إلى الخنا (١) * ذَلُول بأَجْماع الرجالِ مُلَهَّدِ

أي مُدفّع وإنما شدّد للكثرة . وقالت عائشة رضي الله عنها : فلَهَدني — تعني النبي صلى الله عليه وسلم — لَهْدة أوجعني؛ خرجه مسلم . ففعل موسى عليه السلام ذلك وهو لا يريد قتله؛ إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه؛ وهو معنى « فَقَضَى عَلَيْهِ » . وكل شيء أتيت عليه وفرغت منه قضيت عليه . قال : (٢)

* قَدْ عَضَّهُ فَقَضَى عليه الأَشْجَعُ *

﴿ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ أي من إغوائه . قال الحسن : لم يكن يحل قتل الكافر يومئذ في تلك الحال؛ لأنها كانت حال كفّ عن القتال . ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ خبر بعد خبر . ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴾ ندم موسى عليه السلام على ذلك الوكز الذي كان فيه ذهاب النفس؛ فحمله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه . قال قتادة : عرف والله المخرج فاستغفر؛ ثم لم يزل صلى الله عليه وسلم يعدد ذلك على نفسه؛ مع علمه بأنه قد غفر له ، حتى أنه في القيامة يقول : إني قتلت نفسا لم أومر بقتلها . وإنما عدده على نفسه ذنبا . وقال : « ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي » من أجل أنه لا ينبغي لنبيّ أن يقتل حتى يؤمر ، وأيضا فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم . قال النقاش : لم يقتله عن عمد مريدا للقتل ، وإنما وكزه وكزة يريد بها دفع ظلمه . قال وقد قيل : إن هذا كان قبل النبوة . وقال كعب : كان إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة ، وكان قتله مع ذلك خطأ؛ فإن الوكزة واللكزة في الغالب لا تقتل . وروى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال : يا أهل العراق! ما أسألكم عن الصغيرة، وأركبكم للكبيرة! سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول سمعت

(١) ويروى . « عن الجلى » . والذلول ضد الصعب . ويروى : « ذليل » . وأجماع جمع (جمع) وهو ظهر الكف إذا جمعت أصابعك وضممتها . (٢) هو جرير . والأشجع يريد به الشجاع من الحيات . وصدر البيت :

* أيفايشون وقد رأوا حفاثهم *

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الفتنة تجيء من هاهنا — وأومأ بيده نحو المشرق — من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل : « وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا » ".

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى: « قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ » أي من المعرفة والحكمة والتوحيد « فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ » أي عونا للكافرين . قال القشيري : ولم يقل بما أنعمت علي من المغفرة ؛ لأن هذا قبل الوحي، وما كان عالما بأن الله غفر له ذلك القتل . وقال الماوردي : « بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ » فيه وجهان: أحدهما — من المغفرة؛ وكذلك ذكر المهدوي والثعلبي . قال المهدوي: « بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ » من المغفرة فلم تعاقبني. الوجه الثاني — من الهداية.

قلت : « فَغَفَرَ لَهُ » يدل على المغفرة؛ والله أعلم . قال الزمخشري قوله تعالى : « بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ » يجوز أن يكون قسما جوابه محذوف تقديره ؛ أقسم بإنعامك علي بالمغفرة لأتوبن « فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ » . وأن يكون استعطافا كأنه قال: رب اعصمني بحق ما أنعمت علي من المغفرة فلن أكون إن عصمتني ظهيرا للمجرمين . وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته، وتكثير سواده، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون؛ وإما بمظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم ، كمظاهرة الإسرائيلي المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له قتله . وقيل : أراد إني وإن أسأت في هذا القتل الذي لم أومر به فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين؛ فعلى هذا كان الإسرائيلي مؤمنا ونصرة المؤمن واجبة في جميع الشرائع . وقيل في بعض الروايات : إن ذلك الإسرائيلي كان كافرا ؛ وإنما قيل له إنه من شيعته لأنه كان إسرائيليا ولم يرد الموافقة في الدين ؛ فعلى هذا ندم لأنه أعان كافرا على كافر، فقال : لا أكون بعدها ظهيرا للكافرين . وقيل : ليس هذا خبرا بل هو دعاء ؛ أي فلا أكون بعد هذا ظهيرا ؛ أي فلا تجعلني يا رب ظهيرا للمجرمين . وقال الفراء :

المعنى؛ اللهم فلن أكون ظهيرا للمجرمين؛ وزعم أن قوله هذا هو قول ابن عباس. قال النحاس: وأن يكون بمعنى الخبر أولى وأشبه بنسق الكلام؛ كما يقال: لا أعصيك لأنك أنعمت علىّ؛ وهذا قول ابن عباس على الحقيقة لا ما حكاه الفراء؛ لأن ابن عباس قال: لم يستثن فابتلى من ثانى يوم؛ والاستثناء لا يكون فى الدعاء، لا يقال: اللهم اغفر لى إن شئت؛ وأعجب الأشياء أن الفراء روى عن ابن عباس هذا ثم حكى عنه قوله.

قلت: قد مضى هـذا المعنى ملخصا مبينا فى سورة «النمل» وأنه خبر لا دعاء. وعن ابن عبـاس: لم يستثن فابتلى به مرة أخرى؛ يعنى لم يقل فلن أكون إن شاء الله. وهـذا نحو قوله: «وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا».

الثانيـة — قال سلمة بن نُبَيط: بعث عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحاك بعطاء أهل بخارى وقال: أعطهم؛ فقال: أعفنى؛ فلم يزل يستعفيه حتى أعفاه. فقيل له ما عليك أن تعطيهم وأنت لا ترزؤهم شيئا؟ فقال: لا أحب أن أعين الظلمة على شيء من أمرهم. وقال عبد الله بن الوليد الوَصّافى قلت لعطاء بن أبى رَبَاح: إن لى أخا يأخذ بقلمه، وإنما يحسب ما يدخل ويخـرج، وله عيال ولو ترك ذلك لاحتـاج وادّان؟ فقال: مَن الرأس؟ قلت: خالد بن عبد الله القَسْرى؛ قال: أما تقرأ ما قال العبـد الصالح «رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ» قال ابن عباس: فلم يستثن فابتلى به ثانيـة فأعانه الله، فلا يعينهم أخوك فإن الله يعينه — قال عطـاء: فلا يحل لأحد أن يعين ظالمـا ولا يكتب له ولا يصحبه، وأنه إن فعل شيئا من ذلك فقد صار معينا للظالمين. وفى الحديث: "ينادى منادٍ يوم القيامة أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمـة حتى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلما فيُجمعون فى تابوت من حديد فيُرمى به فى جهنم". ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ثبّت الله قدميـه على الصراط يوم القيامة يوم تزل فيه الأقدام ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه أزل الله قدميه على الصراط يوم تدحض فيه الأقدام". وفى الحديث: "من مشى مع ظالم فقد أجرم" فالمشى مع الظالم لا يكون جرما

إلا إذا مشى معه ليعينه ، لأنه ٱرتكب نهى الله تعالى فى قوله سبحانه وتعالى : « وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » .

قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا ﴾ قد تقدم فى « طه » وغيرها أن الأنبياء صلوات الله عليهم يخافون ؛ ردًا على من قال غير ذلك ، وأن الخوف لا ينافى المعرفة بالله ولا التوكل عليه ؛ فقيل : أصبح خائفا من قتل النفس أن يؤخذ بها . وقيل : خائفا من قومه أن يسلموه . وقيل : خائفا من الله تعالى . ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ قال سعيد بن جبير : يتلفت من الخوف . وقيل : ينتظر الطلب ، وينتظر ما يتحدث به الناس . وقال قتادة : « يترقب » أى يترقب الطلب . وقيل : خرج يستخبر الخبر ولم يكن أحد علم بقتل القبطى غير الإسرائيلى . و « أصبح » يحتمل أن يكون بمعنى صار ؛ أى لما قتل صار خائفا . ويحتمل أن يكون دخل فى الصباح ؛ أى فى صباح اليوم الذى يلى يومه . و « خَائِفًا » منصوب على أنه خبر أصبح ، وإن شئت على الحال ، ويكون الظرف فى موضع الخبر . ﴿ فَإِذَا الَّذِي ٱسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ أى فإذا صاحبه الإسرائيلى الذى خلّصه بالأمس يقاتل قبطيا آخر أراد أن يسخره . والٱستصراخ الٱستغاثة . وهو من الصراخ ؛ وذلك لأن المستغيث يصرخ ويصوّت فى طلب الغَوْث . قال :[2]

كُنَّا إذا ما أتانا صارخٌ فَزِعٌ * كانَ الصُّراخُ له قرعَ الظَّنابِيبِ

قيل : كان هذا الإسرائيلىّ المستنصر السامرىّ ٱستسخره طباخ فرعون فى حمل الحطب إلى المطبخ ؛ ذكره القشيرى . و « الذى » رفع بالابتداء و « يستصرخه » فى موضع الخبر . ويجوز أن يكون فى موضع نصب على الحال . وأمس لليوم الذى قبل يومك ، وهو مبنى على الكسر لٱلتقاء الساكنين ، فإذا دخله الألف واللام أو الإضافة تمكن فأعرب بالرفع والفتح عند أكثر النحويين . ومنهم من يبنيه وفيه الألف واللام . وحكى سيبويه وغيره أن

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٠٢ طبعة أولى أو ثانية . (٢) هو سلامة بن جندل . والظنابيب (جمع ظنبوب) : وهو حرف العظم اليابس من الساق . والمراد سرعة الإجابة .

من العرب من يجرى أمس مجرى ما لا ينصرف فى موضع الرفع خاصة ، وربما آضطر الشاعر ففعل هذا فى الخفض والنصب ؛ قال الشاعر :

* لقد رأيتُ عجبًا مُذْ أَمْسَا *

يخفض بمذ ما مضى واللغة الجيدة الرفع ؛ فأجرى أمس فى الخفض مجراه فى الرفع على اللغة الثانية . ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ والغوىّ الخائب ؛ أى لأنك تشادّ من لا تطيقه . وقيل : مضلّ بيّن الضلالة ؛ قتلت بسببك أمس رجلا ، وتدعونى اليوم لآخر . والغوىّ فعيل من أغوى يُغوى ، وهو بمعنى مُغوٍ ؛ وهو كالوجيع والأليم بمعنى الموجع والمؤلم . وقيل : الغوىّ بمعنى الغاوى . أى إنك لغوىّ فى قتال من لا تطيق دفع شره عنك . وقال الحسن : إنما قال للقبطىّ « إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ » فى آستسخار هذا الإسرائيلىّ وهمّ أن يبطش به . يقال بَطَش يَبطُش ويبطِش والضم أقيس لأنه فعل لا يتعدى . ﴿ قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي ﴾ قال آبن جبير . أراد موسى أن يبطش بالقبطىّ فتوهم الإسرائيلىّ أنه يريده ؛ لأنه أغلظ له فى القول ؛ فقال : « أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ » فسمع القبطىّ الكلام فأفشاه . وقيل : أراد أن يبطش الإسرائيلىّ بالقبطىّ فنهاه موسى فخاف منه ؛ فقال : « أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ » . ﴿ إِنْ تُرِيدُ ﴾ أى ما تريد . ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى قتّالا ؛ قال عكرمة والشعبى : لا يكون الإنسان جبارا حتى يقتل نفسين بغير حق . ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ أى من الذين يصلحون بين الناس .

قوله تعالى : وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (٢٢)

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ ﴾ قال أكثر أهل التفسير: هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون؛ ذكره الثعلبي . وقيل : طالوت؛ ذكره السهيلي . وقال المهدوي عن قتادة : اسمه شمعون مؤمن آل فرعون . وقيل: شمعان؛ قال الدارقطني: لا يعرف شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون . وروى أن فرعون أمر بقتل موسى فسبق ذلك الرجل بالخبر؛ فـ﴿ قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أي يتشاورون في قتلك بالقبطي الذي قتلته بالأمس . وقيل : يأمر بعضهم بعضا . قال الأزهري : ائتمر القوم وتآمروا أي أمر بعضهم بعضا؛ نظيره قوله: «وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ» . وقال النمر بن تولب:

أرى الناس قد أحدثوا شيمةً * وفي كل حادثة يؤتمر

﴿ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ . فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أي ينتظر الطلب . ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ . وقيل: الجبار الذي يفعل ما يريده من الضرب والقتل بظلم، لا ينظر في العواقب، ولا يدفع بالتي هي أحسن . وقيل : المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ لما خرج موسى عليه السلام فارا بنفسه منفردا خائفا ، لا شيء معه من زاد ولا راحلة ولا حذاء نحو مدين، للنسب الذي بينه و بينهم؛ لأن مدين من ولد إبراهيم ، وموسى من ولد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ؛ ورأى حاله وعدم معرفته بالطريق ، وخلوه من زاد وغيره، أسند أمره إلى الله تعالى بقوله : «عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ» وهذه حالة المضطر.

قلت : روى أنه كان يتقوت ورق الشجر ، وما وصل حتى سقط خُفّ قدميه . قال أبو مالك : وكان فرعون وجّه في طلبه وقال لهم : اطلبوه في ثنيات الطريق ، فإن موسى لا يعرف الطريق . فجاءه ملك راكبا فرسا ومعه عَنَزة، فقال لموسى : اتبعني؛ فاتبعه فهداه إلى الطريق. فيقال: إنه أعطاه العَنَزة فكانت عصاه . ويروى أن عصاه إنما أخذها لرعية الغنم من مدين. وهو أكثر وأصح . وقال مقاتل والسدي : إن الله بعث إليه جبريل ؛ فالله أعلم . وبين مدين ومصر ثمانية أيام؛ قاله ابن جبير والناس . وكان مُلك مدين لغير فرعون.

قوله تعالى : وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

فيه أربع وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ مشى موسى عليه السلام حتى ورد ماء مدين أى بلغها . ووروده الماء معناه بلغه لا أنه دخل فيه . ولفظة الورود قد تكون بمعنى الدخول فى المورود، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل . فورود موسى هذا الماء كان بالوصول إليه؛ ومنه قول زهير :

فلمّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقًا جِمامُهُ * وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ (١)

---

(١) تقدم شرح هذا البيت فى هامش جـ ١١ ص ١٣٧ طبعة أولى أو ثانية .

وقد تقدمت هذه المعانى فى قوله : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » . ومدين لا تنصرف إذ هى بلدة معروفة .

قال الشاعر[1] :

رُهبانُ مدينَ لو رأوكِ تنزَّلوا * والعُصْمُ من شَعَفِ الجبالِ الفادرِ

وقيل : قبيلة من ولد مدين بن إبراهيم ؛ وقد مضى القول فيه فى « الأعراف »[2] . والأمة : الجمع الكثير . و﴿ يَسْقُونَ ﴾ معناه ماشيتهم . و﴿ مِنْ دُونِهِمُ ﴾ معناه ناحية إلى الجهة التى جاء منها ، فوصل إلى المرأتين قبل وصوله إلى الأمة ، ووجدهما تذودان ومعناه تمنعان وتحبسان ؛ ومنه قوله عليه السلام : "فَلَيُذَادَنَّ[3] رجالٌ عن حوضى" وفى بعض المصاحف : «آمرأتين حابستين تذودان» يقال : ذاد يذود إذا [حبس][4] . وذُدت الشىء حبسته ؛ قال الشاعر[5] :

أَبِيتُ على باب القَوَافِي كأنما * أَذُودُ بها سِرْبًا من الوحشِ نُزَّعَا

أى أحبس وأمنع . وقيل : « تَذُودَانِ » تطردان ؛ قال[6] :

لقد سَلبتْ عَصَاكَ بنو تميمٍ * فما تَدْرِى بأىِّ عصًا تَذُودُ

أى تطرد وتكفّ وتمنع . آبن سلام : تمنعان غنمهما لئلا تختلط بغنم الناس ؛ فحذف المفعول ؛ إما إيهاما على المخاطب ، و إما آستغناء بعلمه . قال آبن عباس : تذودان غنمهما عن الماء خوفا من السقاة الأقوياء . قتادة : تذودان الناس عن غنمهما ؛ قال النحاس : والأول أولى ؛ لأن بعده « قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ » ولو كانتا تذودان عن غنمهما الناس لم تخبرا عن سبب تأخير سقيهما حتى يصدر الرعاء . فلما رأى موسى عليه السلام ذلك منهما « قَالَ مَا خَطْبُكُمَا » أى شأنكما ؛ قال رُؤْبة :

* يا عَجبًا ما خَطْبُه وخَطْبِي *

---

(١) هو جرير . والعصم (جمع الأعصم) : وهو من الظباء الذى فى ذراعه بياض ، وقيل : فى ذراعيه ، والفادر : المسن منها . وقيل : العظيم . ويروى : « من شعف العقول » . وقبله :

يا أم طلحة ما لقينا مثلكم * فى المنجدين ولا بغور الغائر

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ طبعة أولى أو ثانية . (٣) فليذادن ، أى ليطردن . ويروى : "فلا تذادن" أى لا تفعلوا فعلا يوجب طردكم عنه ، قال ابن الأثير : والأول أشبه . (٤) فى الأصل : « إذا ذهب » وهو تحريف . (٥) هو سويد بن كراع يذكر تنقيحه شعره . (٦) هو جرير يهجو الفرزدق .

ابن عطية : وكان استعمال السؤال بالخَطْب إنما هو في مصاب ، أو مضطهد ، أو من يشفق عليه ، أو يأتي بمنكر من الأمر ، فكأنه بالجملة في شر ؛ فأخبرتاه بخبرهما ، وأن أباهما شيخ كبير ؛ فالمعنى : لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمه ، وأنهما لضعفهما وقلة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأقوياء ، وأن عادتهما التأني حتى يَصدر الناسُ عن الماء ويخلى ؛ وحينئذ تَرِدان . وقرأ ابن عامر وأبو عمرو : « يَصْدُرَ » من صَدَرَ ، وهو ضد وَرَد أي يرجع الرِّعاء . والباقون « يُصْدِرَ » بضم الياء من أصدر ؛ أي حتى يصدروا مواشيهم من وِرْدهم . والرِّعاء جمع راع ؛ مثل تاجر وتِجار ، وصاحب وصِحاب . قالت فرقة : كانت الآبار مكشوفة ، وكان زَحْم الناس يمنعهما ، فلما أراد موسى أن يسقي لهما زَحَم الناس وغلبهم على الماء حتى سقى ؛ فعن هذا الغَلَب الذي كان منه وصفته إحداهما بالقوة . وقالت فرقة : إنهما كانتا تتبعان فُضَالتهم في الصَّهاريج ، فإن وجدتا في الحوض بقية كان ذلك سقيهما ، وإن لم يكن فيه بقية عطشت غنمهما ، فرَقّ لهما موسى ، فعمد إلى بئر كانت مغطّاة والناس يسقون من غيرها ، وكان حَجَرها لا يرفعه إلا سبعة ؛ قاله ابن زيد . ابن جريج : عشرة . ابن عباس : ثلاثون . الزجاج : أربعون ؛ فرفعه . وسقى للمرأتين ؛ فعن رفع الصخرة وصفته بالقوة . وقيل : إن بئرهم كانت واحدة ، وأنه رفع عنها الحجر بعد انفصال السقاة ؛ إذ كانت عادة المرأتين شرب الفضلات . روى عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب أنه قال : لما استقى الرعاة غطوا على البئر صخرة لا يقلعها إلا عشرة رجال ، فجاء موسى فاقتلعها واستقى ذَنُوبا واحدا لم تحتج إلى غيره فسقى لهما .

الثانيــة — إن قيل كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب صلى الله عليه وسلم أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية ؟ قيل له : ليس ذلك بمحظور والدين لا يأباه ؛ وأما المروءة فالناس مختلفون في ذلك ، والعادة متباينة فيه ، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البدو غير مذهب الحضر ، خصوصا إذا كانت الحالة حالة ضرورة .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ﴾ إلى ظل سَمُرة [1] ؛ قاله ابن مسعود . وتعرض لسؤال ما يطعمه بقوله : ﴿ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ وكان لم يذق طعاما

(١) السمرة : شجرة صغيرة الورق ، قصيرة الشوك ، لها برمة صفراء يأكلها الناس .

سبعة أيام، وقد لصق بطنه بظهره؛ فعرض بالدعاء ولم يصرح بسؤال؛ هكذا روى جميع المفسرين أنه طلب فى هذا الكلام ما يأكله؛ فالخير يكون بمعنى الطعام كما فى هذه الآية ، ويكون بمعنى المال كما قال : « إِنْ تَرَكَ خَيْرًا » وقوله : « وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ » ويكون بمعنى القوة كما قال : « أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ » ويكون بمعنى العبادة كقوله : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ » قال ابن عباس : وكان قد بلغ به الجوع ، واخضر لونه من أكل البقل فى بطنه ، وإنه لأكرم الخلق على الله . ويروى أنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطن قدميه . وفى هذا معتبر وإشعار بهوان الدنيا على الله . وقال أبو بكر بن طاهر فى قوله : « إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » أى إنى لما أنزلت من فضلك وغناك فقير إلى أن تغنينى بك عمن سواك .

قلت : ما ذكره أهل التفسير أولى؛ فإن الله تعالى إنما أغناه بواسطة شعيب .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ فى هذا الكلام اختصار يدل عليه هذا الظاهر ؛ قدّره [ابن] إسحق (١) : فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء فى السقى ، فحدثتاه بما كان من الرجل الذى سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتيه ــ وقيل الصغرى ــ أن تدعوه له « فجاءت » على ما فى هذه الآية . قال عمرو بن ميمون : ولم تكن سلفعا (٢) من النساء، خرّاجة ولّاجة . وقيل : جاءته ساترة وجهها بكم درعها؛ قاله عمر بن الخطاب . وروى أن اسم إحداهما ليا والأخرى صفور يا ابنتا يثرون، ويثرون هو شعيب عليه السلام . وقيل : ابن أخى شعيب، وأن شعيبا كان قد مات . وأكثر الناس على أنهما ابنتا شعيب عليه السلام، وهو ظاهر القرآن؛ قال الله تعالى : « وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا » كذا فى سورة «الأعراف» وفى سورة الشعراء « كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ » قال قتادة : بعث الله تعالى شعيبا إلى أصحاب الأيكة وأصحاب مدين . وقد مضى فى « الأعراف » (٣) الخلاف فى اسم أبيه . فروى أن موسى عليه السلام لما جاءته بالرسالة قام يتبعها، وكان بين موسى وبين أبيها ثلاثة أميال ، فهبت ريح ضمت قميصها فوصفت عجيزتها، فتحرج موسى من النظر

---

(١) فى الأصل : أبو إسحق والتصويب عن تفسير ابن عطية والطبرى . (٢) السلفع من النساء : الجريئة على الرجال . (٣) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ طبعة أولى أو ثانية .

إليها فقال : ٱرجعي وأرشديني إلى الطريق بصوتك . وقيل : إن موسى قال ابتداء : كوني ورائي فإني رجل عبراني لا أنظر في أدبار النساء، ودليني على الطريق يمينا أو يسارا؛ فذلك سبب وصفها [له] بالأمانة؛ قاله ٱبن عباس . فوصل موسى إلى داعيه فقص عليه أمره من أوله إلى آخره فآنسه بقوله : ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وكانت مدين خارجة عن مملكة فرعون . وقرب إليه طعاما فقال موسى : لا آكل؛ إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهبا؛ فقال شعيب : ليس هذا عوض السقي ، ولكن عادتي وعادة آبائي قِرى الضيف، وإطعام الطعام؛ فحينئذ أكل موسى .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ﴾ دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة معلومة ، وكذلك كانت في كل ملة ،وهي من ضرورة الخليقة ، ومصلحة الخلطة بين الناس؛ خلافا للأصم حيث كان عن سماعها أصم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ﴾ الآية . فيه عرض الولي ٱبنته على الرجل؛ وهذه سنة قائمة؛ عرض صالح مدين ٱبنته على صالح بني إسرائيل، وعرض عمر ابن الخطاب ٱبنته حفصة على أبي بكر وعثمان، وعرضت الموهوبة نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم؛ فمن الحسن عرض الرجل وليته، والمرأة نفسها على الرجل الصالح، ٱقتداء بالسلف الصالح . قال ٱبن عمر : لما تأيمت حفصة قال عمر لعثمان : إن شئت أنكحك حفصة بنت عمر؛ الحديث ٱنفرد بإخراجه البخاري .

السابعة — وفي هذه الآية دليل على أن النكاح إلى الولي لا حظ للمرأة فيه؛ لأن صالح مدين تولاه، وبه قال فقهاء الأمصار . وخالف في ذلك أبو حنيفة . وقد مضى .

الثامنة — هذه الآية تدل على أن للأب أن يزوج ٱبنته البكر البالغ من غير ٱستئمار، وبه قال مالك وٱحتج بهذه الآية، وهو ظاهر قوي في الباب، وٱحتجاجه بها يدل على أنه كان يعوّل على الإسرائيليات ؛كما تقدم . وبقول مالك في هذه المسئلة قال الشافعي وكثير من العلماء . وقال أبو حنيفة : إذا بلغت الصغيرة فلا يزوّجها أحد إلّا برضاها؛ لأنها بلغت

حد التكليف؛ فأما إذا كانت صغيرة فإنه يزوجها بغير رضاها؛ لأنه لا إذن لها ولا رضا؛ بغير خلاف .

التاسعة — آستدل أصحاب الشافعي بقوله : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ» على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح . وبه قال ربيعة وأبو ثور وأبو عبيد وداود ومالك على آختلاف عنه . وقال علماؤنا في المشهور : ينعقد النكاح بكل لفظ . وقال أبو حنيفة : ينعقد بكل لفظ يقتضي التمليك على التأبيد؛ أما الشافعية فلا حجة لهم في الآية لأنه شرع من قبلنا وهم لا يرونه حجة في شيء في المشهور عندهم . وأما أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن ابن حيّ فقالوا : ينعقد النكاح بلفظ الهبة وغيره إذا كان قد أشهد عليه ؛ لأن الطلاق يقع بالصريح والكناية، قالوا : فكذلك النكاح . قالوا : والذي خص به النبي صلى الله عليه وسلم تعرى البُضْع من العوض لا النكاح بلفظ الهبة، وتابعهم ابن القاسم فقال : إن وهب آبنته وهو يريد إنكاحها فلا أحفظ عن مالك فيه شيئا ، وهو عندي جائز كالبيع . قال أبو عمر : الصحيح أنه لا ينعقد نكاح بلفظ الهبة ، كما لا ينعقد بلفظ النكاح هبة شيء من الأموال . وأيضا فإن النكاح مفتقر إلى التصريح لتقع الشهادة عليه، وهو ضد الطلاق فكيف يقاس عليه ! وقد أجمعوا أن النكاح لا ينعقد بقوله : أبحت لك وأحللت فكذلك الهبة . وقال صلى الله عليه وسلم : "آستحللتم فروجهن بكلمة الله" يعني القرآن ، وليس في القرآن عقد النكاح بلفظ الهبة، وإنما فيه التزويج والنكاح ، وفي إجازة النكاح بلفظ الهبة إبطال بعض خصوصية النبي صلى الله عليه وسلم .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ يدل على أنه عرض لا عقد؛ لأنه لو كان عقدا لعين المعقود عليها له ؛ لأن العلماء وإن كانوا قد آختلفوا في جواز البيع إذا قال : بعتك أحد عبديّ هذين بثمن كذا؛ فإنهم آتفقوا على أن ذلك لا يجوز في النكاح؛ لأنه خيار وشيء من الخيار لا يلصق بالنكاح .

الحادية عشرة — قال مكيّ : في هذه الآية خصائص في النكاح؛ منها أنه لم يعين الزوجة ولا حدّ أوّل الأمد، وجعل المهر إجارة، ودخل ولم ينقد شيئا .

قلت : فهذه أربع مسائل تضمنتها المسئلة الحادية عشرة .

الأولى من الأربع مسائل، قال علماؤنا : أما التعيين فيشبه أنه كان فى ثانى حال المراوضة، وإنما عرض الأمر مجملا، وعيّن بعد ذلك . وقد قيل : إنه زوّجه صفوريا وهى الصغرى . يروى عن أبى ذر قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن سئلت أى الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأوفاهما وإن سئلت أى المرأتين تزوج فقل الصغرى وهى التى جاءت خلفه وهى التى قالت « يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ » . قيل : إن الحكمة فى تزويجه الصغرى منه قبل الكبرى وإن كانت الكبرى أحوج إلى الرجال أنه توقع أن يميل إليها؛ لأنه رآها فى رسالته، وماشاها فى إقباله إلى أبيها معها، فلو عرض عليه الكبرى ربما أظهر له الآختيار وهو يضمر غيره . وقيل غير هذا ؛ والله أعلم . وفى بعض الأخبار أنه تزوج بالكبرى؛ حكاه القشيرى .

الثانية — وأما ذكر أول المدة فليس فى الآية ما يقتضى إسقاطه بل هو مسكوت عنه؛ فإمّا رسماه، وإلا فهو من أول وقت العقد .

الثالثة — وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية، وهو أمر قد قرّره شرعنا، وجرى فى حديث الذى لم يكن عنده إلا شىء من القرآن ؛ رواه الأئمة ؛ وفى بعض طرقه : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ماتحفظ من القرآن" فقال : سورة البقرة والتى تليها؛ قال: "فعلمها عشرين آية وهى آمرأتك" . وآختلف العلماء فى هذه المسئلة على ثلاثة أقوال : فكرهه مالك، ومنعه آبن القاسم ، وأجازه آبن حبيب ؛ وهو قول الشافعى وأصحابه ؛ قالوا : يجوز أن تكون منفعة الحرّ صداقا كالخياطة والبناء وتعليم القرآن. وقال أبو حنيفة : لا يصح؛ وجوز أن يتزوجها بأن يخدمها عبده سنة ، أو يسكنها داره سنة ؛ لأن العبد والدار مال، وليس خدمتها بنفسه مالا . وقال أبو الحسن الكرخى : إن عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز؛ لقوله تعالى: « فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ » . وقال أبو بكر الرازى: لا يصح لأن الإجارة عقد مؤقت، وعقد النكاح مؤبد، فهما متنافيان . وقال آبن القاسم : ينفسخ قبل البناء ويثبت بعده .

وقال أصبغ : إن نقد معــه شيئا ففيه ٱختلاف ، و إن لم ينقــد فهو أشــد ، فإن ترك مضى على كل حال بدليل قصــة شعيب ؛ قاله مالك وٱبن المــوّاز وأشهب . وعــوّل على هــذه الآية جمــاعة من المتأخرين والمتقدمين فى هــذه النازلة ؛ قال ٱبن خُوَيْزِ منداد . تضمنت هذه الآية النكاح على الإجارة والعقد صحيح ، و يكره أن تجعل الاجارة مهرا ، وينبغى أن يكون المهر مالا كما قال عز وجل : « أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ مُحْصِنِينَ » . هذا قول أصحابنا جميعا

الرابعة ــ وأما قوله : ودخل ولم ينقــد فقد ٱختلف الناس فى هــذا ؛ هل دخل حين عقد أم حين سافر ؟ فإن كان حين عقــد فماذا نقد ؟ وقد منع علماؤنا من الدخول حتى ينقد ولو ربع دينار ؛ قاله ابن القاسم . فإن دخل قبل أن ينقد مضى ، لأن المتأخرين من أصحابنا قالوا : تعجيل الصداق أو شيء منه مستحب . على أنه إن كان الصداق رعية الغنم فقد نقد الشروع فى الخدمة ، و إن كان دخل حين سافر فطول الآنتظار فى النكاح جائز و إن كان مدى العمر بغير شرط . [وأما إن كان بشرط](1) فلا يجوز إلا أن يكون الغرض صحيحا مثل التأهب للبناء وٱنتظار صلاحية الزوجة للدخول إن كانت صغيرة ؛ نص عليه علماؤنا

الثانية عشرة ــ فى هذه الآية ٱجتماع إجارة ونكاح ، وقد ٱختلف علماؤنا فى ذلك على ثلاثة أقوال : الأول ــ قال فى ثمانيــة أبى زيد : يكره ٱبتداء فإن وقع مضى . الثانى ــ قال مالك وٱبن القاسم فى المشهور : لا يجوز ويفسخ قبل الدخول و بعده ؛ لاختلاف مقاصدهما كسائر العقود المتباينــة . الثالث ــ أجازه أشهب وأصبغ . قال ٱبن العــربى : وهذا هو الصحيح وعليه تدل الآية ؛ وقد قال مالك النكاح أشــبه شيء بالبيوع ، فأى فرق بين إجارة وبيع أو بين بيع ونكاح .

فرع ــ و إن أصدقها تعليم شعر مباح صح ؛ قال المزنى : وذلك مثل قول الشاعر :

يقــول العبــد فائدتى ومالى * وتقوى الله أفضلُ ما ٱستفادا

و إن أصدقها تعليم شعر فيه هجو أو فحش كان كما لو أصدقها خمرا أو خنزيرا .

(1) الزيادة من « أحكام القرآن لابن العربى » .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ﴾ جرى ذكر الخدمة مطلقا وقال مالك : إنه جائز ويحمل على العرف، فلا يحتاج فى التسمية إلى الخدمة، وهو ظاهر قصة موسى، فإنه ذكر إجارة مطلقة . وقال أبو حنيفة والشافعى : لا يجوز حتى يسمى لأنه مجهول . وقد ترجم البخارى : «باب من استأجر أجيرا فبين له الأجل ولم يبين له العمل لقوله تعالى « عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ » . قال المهلب : ليس كما ترجم؛ لأن العمل عندهم كان معلوما من سقى وحرث ورعى وما شاكل أعمال البادية فى مهنة أهلها ، فهذا متعارف وإن لم يبين له أشخاص الأعمال ولا مقاديرها؛ مثل أن يقول له : إنك تحرث كذا من السنة، وترعى كذا من السنة، فهذا إنما هو على المعهود من خدمة البادية، وإنما الذى لا يجوز عند الجميع أن تكون المدّة مجهولة، والعمل مجهول غير معهود لا يجوز حتى يعلم . قال ابن العربى : وقد ذكر أهل التفسير أنه عين له رعية الغنم ، ولم يرو من طريق صحيحة، ولكن قالوا : إن صالح مدين لم يكن له عمل إلا رعية الغنم ، فكان ما علم من حاله قائما مقام التعيين للخدمة فيه .

الرابعة عشرة — أجمع العلماء على أنه جائز أن يستأجر الراعى شهورا معلومة ، بأجرة معلومة ، لرعاية غنم معدودة؛ فإن كانت معدودة معينة ، ففيها تفصيل لعلمائنا ؛ قال ابن القاسم : لا يجوز حتى يشترط الخلف إن ماتت ، وهى رواية ضعيفة جدا ؛ وقد استأجر صالح مدين موسى على غنمه ، وقد رآها ولم يشترط خلفا ؛ وإن كانت مطلقة غير مسماة ولا معينة جازت عند علمائنا . وقال أبو حنيفة والشافعى : لا تجوز لجهالتها؛ وعوّل علماؤنا على العرف حسبما ذكرناه آنفا ؛ وأنه يعطى بقدر ما تحتمل قوته . وزاد بعض علمائنا أنه لا يجوز حتى يعلم المستأجر قدر قوته ، وهو صحيح فإن صالح مدين علم قدر قوة موسى برفع الحجر .

الخامسة عشرة — قال مالك : وليس على الراعى ضمان وهو مصدّق فيما هلك أو سرق ؛ لأنه أمين كالوكيل . وقد ترجم البخارى : « باب إذا أبصر الراعى أو الوكيل شاة تموت أو شيئا يفسد فأصلح ما يخاف الفساد » وساق حديث كعب بن مالك عن أبيه أنه كانت

لهم غنم ترعى بسَلْع[1]، فأبصرت جارية لنا بشاة من غنمنا موتًا فكسرت حجرا فذبحتها به ، فقال لهم : لا تأكلوا حتى أسأل النبي — أو أرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من يسأله — وأنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم — أو أرسل إليه — فأمره بأكلها ؛ قال عبد الله : فيعجبني أنها أمة وأنها ذبحت . قال المهلب : فيه من الفقه تصديق الراعي والوكيل فيما أئتمنا عليه حتى يظهر عليهما دليل الخيانة والكذب ؛ وهذا قول مالك وجماعة . وقال ابن القاسم : إذا خاف الموت على شاة فذبحها لم يضمن ويصدق إذا جاء بها مذبوحة . وقال غيره : يضمن حتى يبين ما قال .

السادسة عشرة — واختلف ابن القاسم وأشهب إذا أنزى الراعي على إناث الماشية بغير إذن أربابها فهلكت ؛ فقال ابن القاسم : لا ضمان عليه ؛ لأن الإنزاء من إصلاح المال ونمائه . وقال أشهب : عليه الضمان؛ وقول ابن القاسم أشبه بدليل حديث كعب ، وأنه لا ضمان عليه فيما تلف عليه باجتهاده ، إن كان من أهل الصلاح ، وممن يعلم إشفاقه على المال ؛ وأما إن كان من أهل الفسوق والفساد وأراد صاحب المال أن يضمنه فعل ؛ لأنه لا يصدق أنه رأى بالشاة موتًا لما عرف من فسقه .

السابعة عشرة — لم ينقل ما كانت أجرة موسى عليه السلام؛ ولكن روى يحيى بن سلّام أن صالح مدين جعل لموسى كل سخلة توضع خلاف لون أمها ، فأوحى الله إلى موسى أن ألق عصاك بينهن يلدن خلاف شبههن كلّهن . وقال غير يحيى : بل جعل له كل بلقاء تولد له ، فولدن له كلهن بُلْقا . وذكر القشيري أن شعيبا لما استأجر موسى قال له : ادخل بيت كذا وخذ عصا من العصيّ التي في البيت ، فأخرج موسى عصا، وكان أخرجها آدم من الجنة ، وتوارثها الأنبياء حتى صارت إلى شعيب ، فأمره شعيب أن يلقيها في البيت ويأخذ عصا أخرى ، فدخل وأخرج تلك العصا ؛ وكذلك سبع مرات كل ذلك لا تقع بيده غير تلك ، فعلم شعيب أن له شأنا، فلما أصبح قال له : سق الأغنام إلى مفرق الطريق، فخذ عن يمينك

(١) سلع : جبل بالمدينة .

وليس بها عشب كثير، ولا تأخذ عن يسارك فإن بها عشبا كثيرا وتنّينا كبيرا لا يقبل المواشى، فساق المواشى إلى مفرق الطريق، فأخذت نحو اليسار ولم يقدر على ضبطها، فنام موسى وخرج التنّين، فقامت العصا وصارت شعبتاها حديدا وحاربت التنين حتى قتلته، وعادت إلى موسى عليه السلام، فلما انتبه موسى رأى العصا مخضوبة بالدم، والتنّين مقتولا؛ فعاد إلى شعيب عشاء، وكان شعيب ضريرا فمس الأغنام، فإذا أثر الخصب باد عليها، فسأله عن القصة فأخبره بها، ففرح شعيب وقال: كل ما تلد هذه المواشى هذه السنة قالب لون — أى ذات لونين — فهو لك؛ فجاءت بجميع السخال تلك السنة ذات لونين، فعلم شعيب أن لموسى عند الله مكانة. وروى عُيَيْنة بن حِصْن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أجر موسى نفسه بشبع بطنه وعفّة فرجه" فقال له شعيب لك منها — يعنى من نتاج غنمه — ما جاءت به قالِب لون ليس فيها عَزُوزٌ ولا فَشُوشٌ ولا كَمُوشٌ ولا ضَبُوبٌ ولا ثَعُولٌ. قال الهروى: العزوز البكيئة؛ مأخوذ من العَزاز وهى الأرض الصلبة، وقد تعزّزت الشاة. والفَشُوش التى يَنْفَشّ لبنُها من غير حلب وذلك لسعة الإحليل، ومثله الفَتوح والثَّرُور. ومن أمثالهم: (لَأُفُشَّنَّكَ فَشَّ الْوَطْبِ) أى لأخرجن غضبك وكبرك من رأسك. ويقال: فَشَّ السِّقاءَ إذا أخرج منه الريح. ومنه الحديث: "إن الشيطان يَفُشّ بين أَلْيَتَيْ أحدكم حتى يُخَيَّلَ إليه أنه أحدث" أى ينفخ نفخا ضعيفا. والكَمُوش: الصغيرة الضرع، وهى الكميشة أيضا؛ سميت بذلك لانكماش ضرعها وهو تقلصه؛ ومنه يقال: رجل كميش الإزار. والكَشُود مثل الكَموش. والضَّبُوبُ الضيقة ثقب الإحليل. والضَّبُّ الحَلْب لشدّة العصر. والثَّعُولُ الشاة التى لها زيادة حلمة وهى الثعل. والثعل زيادة السنّ، وتلك الزيادة هى [الرَّاءُول][1]. ورجل أثعل. والثعل [ضيق][2] مخرج اللبن. قال الهروى: وتفسير قالب لون فى الحديث أنها جاءت على غير ألوان أمهاتها.

---

(١) الزيادة من اللسان؛ وفى الأصل: «هى الثعل» ولعله تحريف؛ إذ أن عبارة اللسان «وتلك السن الزائدة يقال لها الراءول».
(٢) زيادة يقتضيها المعنى.

الثامنة عشرة ـ الإجارة بالعوض المجهول لا تجوز ؛ فإن ولادة الغنم غير معلومة ، وإن من البلاد الخصبة ما يعلم ولاد الغنم فيها قطعا وعدّتها وسلامة سخالها كديار مصر وغيرها ، بيد أن ذلك لا يجوز فى شرعنا ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن الغَرَر ، ونهى عن المضامين والملاقيح . والمضامين ما فى بطون الإناث ، والملاقيح ما فى أصلاب الفحول وعلى خلاف ذلك قال الشاعر :

* مَلْقُوحَةً فى بطنِ نابٍ حامِلِ *

وقد مضى فى سورة « الحِجْر »(1) بيانه . على أن راشد بن معمر أجاز الإجارة على الغنم بالثلث والربع . وقال ابن سيرين وعطاء : ينسج الثوب بنصيب منه ؛ وبه قال أحمد .

التاسعة عشرة ـ الكفاءة فى النكاح معتبرة ؛ وآختلف العلماء هل فى الدين والمال والحسب ، أو فى بعض ذلك . والصحيح جواز نكاح الموالى للعربيات والقرشيات ؛ لقوله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » . وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريبا طريدا خائفا وحيدا جائعا عريانا فأنكحه آبنته لما تحقق [من دينه](2) ورأى من حاله ، وأعرض عما سوى ذلك . وقد تقدّمت هذه المسئلة مستوعبةً والحمد لله .

الموفية عشرين ـ قال بعضهم : هذا الذى جرى من شعيب لم يكن ذكرا لصداق المرأة ، وإنما كان آشتراطا لنفسه على ما يفعله الأعراب ؛ فإنها تشترط صداق بناتها ، وتقول : لى كذا فى خاصة نفسى ، وترك المهر مفوّضا ؛ ونكاح التفويض جائز . قال آبن العربى : هذا الذى تفعله الأعراب هو حلوان وزيادة على المهر ، وهو حرام لا يليق بالأنبياء ؛ فأمّا إذا آشترط الولىّ شيئا لنفسه ، فقد آختلف العلماء فيما يخرجه الزوج من يده ولا يدخل فى يد المرأة على قولين : أحدهما ـ أنه جائز . والآخر ـ لا يجوز . والذى يصح عندى التقسيم ؛ فإن المرأة لا تخلو أن تكون بكرا أو ثيبا ؛ فإن كانت ثيبا جاز ؛ لأن نكاحها

(1) راجع جـ ١٠ ص ١٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(2) الزيادة من « أحكام القرآن لابن العربى » .

بيدها ، وإنمـا يكون للولىّ مباشرة العقد ، ولا يمتنع أخذ العوض عليه كما يأخذه الوكيل على عقد البيع . وإن كانت بكرا كان العقد بيـده ، وكأنه عوض فى النكاح لغـير الزوج وذلك باطل؛ فإن وقع فُسِخ قبل البناء، وثبت بعده على مشهور الرواية . والحمد لله .

الحادية والعشرون — لمـا ذكر الشرط وأعقبه بالطوع فى العشر خرج كل واحد منهما على حكمه، ولم يلحق الآخر بالأول ، ولا آشترك الفرض والطوع ؛ ولذلك يكتب فى العقود الشروط المتفق عليها، ثم يقال وتطوع بكذا، فيجرى الشرط على سبيله ، والطوع على حكمه، وآنفصل الواجب من التطوع . وقيـل : ومن لفظ شعيب حسن فى لفظ العقود فى النكاح أنكحه إياها أولى من أنكحها إياه على ما يأتى بيانه فى « الأحزاب » . وجعل شعيب الثمانية الأعوام شرطا، ووكل العاشرة إلى المروءة .

الثانيـــة والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ لمـا فرغ كلام شـعيب قرّره موسى عليـه السلام وكرر معناه على جهـة التوثق فى أن الشرط إنمـا وقع فى ثمان حِجج . و « أيمـا » آستفهام منصوب بـ « قَضَيْتُ » و « الْأَجَلَيْنِ » مخفوض بإضافة « أى » إليهما و « ما » صلة للتأكيد وفيـه معنى الشرط وجوابه « فلا عُدْوَانَ » وأن « عدوان » منصوب بـ « لا » . وقال آبن كيسان : « ما » فى موضع خفض بإضافة « أى » إليها وهى نكرة و « الأجلين » بدل منها . وكذلك قوله : « فَبِمَا رَحْمَـةٍ مِنَ اللَّهِ » أى رحمة بدل من ما ؛ قال مكى : وكان يتلطف فى ألا يجعل شيئا زائدا فى القرآن، ويخرج له وجها يخرجه من الزيادة . وقرأ الحسن « أَيْمَا » بسكون الياء . وقرأ آبن مسعود « أَيَّ الْأَجَلَيْنِ ما قَضَيْتُ » . وقرأ الجمهور « عُدْوَانَ » بضم العين . وأبو حَيْوة بكسرها ؛ والمعنى : لا تبعة علىّ ولا طلب فى الزيادة عليـه . والعدوان التجاوز فى غير الواجب، والحجج السنون . قال الشاعر[(1)] :

لمن الديار بِقُنـة الحِجر ۞ أقوين من حِجج ومن دهر

(١) هو زهير بن أبى سلمى . ويروى : ومن شهر .

الواحدة جِجة بكسر الحاء . ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ قيل : هو من قول موسى . وقيل : هو من قول والد المرأة . فاكتفى الصالحان صلواتُ الله عليهما فى الإشهاد عليهما بالله ولم يشهدا أحدا من الخلق ، وقد ٱختلف العلماء فى وجوب الإشهاد فى النكاح؛ وهى :

الثالثة والعشرون ــ على قولين : أحدهما أنه لا ينعقد إلا بشاهدين . وبه قال أبو حنيفة والشافعى . وقال مالك : إنه ينعقد دون شهود؛ لأنه عقد معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح، وفرق ما بين النكاح والسفاح الدُّفّ . وقد مضت هذه المسئلة فى « البقرة » (1) مستوفاة . وفى البخارى عن أبى هريرة : أن رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يُسلفه ألف دينار فقال ٱيتنى بالشهداء أشهدهم؛ فقال كفى بالله شهيدا ؛ فقال ٱيتنى بكفيل ؛ فقال كفى بالله كفيلا . قال صدقت فدفعها إليه ؛ وذكر الحديث .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ قال سعيد بن جبير : سألنى رجل من النصارى أى الأجلين قضى موسى . فقلت : لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله ــ يعنى ٱبن عباس ــ فقدمت عليه فسألته ؛ فقال : قضى أكملهما وأوفاهما . فأعلمت النصرانى فقال : صدق والله هذا العالم . وروى عن ٱبن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل فى ذلك جبريل فأخبره أنه قضى عشر سنين . وحكى الطبرىّ عن مجاهد أنه قضى عشرا وعشرا بعدها؛ قال ٱبن عطية : وهذا ضعيف .

---

(1) راجع جـ ٣ ص ٧٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ قيل فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهـله حيث شاء؛ لمـاله عليها من فضل القوامية وزيادة الدرجة إلا أن يلتزم لهـا أمرا فالمؤمنون عند شروطهم ، وأحق الشروط أن يوفى به ما ٱستحللتم به الفروج .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ الآية . تقدّم القولُ في ذلك في « طه » . والجذوة بكسر الجيم قراءة العامة ، وضمها حمزة ويحيى ، وفتحها عاصم والسُّلَمِى وزِرّ بن حُبيش . قال الجوهرى : الجِذوة والجُذوة والجَذوة الجمرة الملتهبة والجمع جِذًا وجُذًا وجَذًا . قال مجاهد في قوله تعـالى : ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾ أى قطعة من الجمر؛ قال : وهى بلغة جميع العرب . وقال أبو عبيدة : والجذوة مثل الجذمة وهى القطعة الغليظة من الخشب كان في طرفها نار أولم يكن . قال آبن مقبل :

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَـا * جَزْلَ الجِذَا غَيْرَ خَوَّارٍ وَلَا دَعِرِ (1)

وقـــال :

وَأَلْقَى عَلَى قَبْسٍ مِنَ النَّارِ جِذْوَةً * شـديدًا عليهـا حَمْيُهـا ولهيبُـها (2)

قوله تعـالى : فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ يعني الشجرة قدم ضميرها عليها . ﴿ نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ ﴾ « من » الأولى والثانية لابتداء الغاية ، أى أتاه النداء من شاطئ الوادى من قبل الشجرة . و « مِنَ الشَّجَرَةِ » بدل من قوله « مِنْ شَـاطِئِ الْوَادِ » بدل الاشتمال ؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ ، وشاطئ الوادى وشطه جانبه ، والجمع شُطّان وشواطئ ، ذكره القشيرى . وقال الجوهرى : ويقال شاطئ الأودية ولا يجمع . وشاطأت الرجل إذا مشيت على شاطئ

---

(1) الخوار هنا العود الذى يتقصف والدعر الذى إذا وضع على النار لم يستوقد ودخن .

(2) ويروى : * شديدا عليها حرها والتهابها *

ومشى هو على شاطئ آخر . ﴿ الْأَيْمَنِ ﴾ أى عن يمين موسى . وقيل عن يمين الجبل . ﴿ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ ﴾ وقرأ الأشهب العقيلى « فِي الْبَقْعَةِ » بفتح الباء . وقولهم بِقاع يدل على بَقْعة؛ كما يقال جَفْنة وجِفَان . ومن قال بُقْعة قال بُقَع مثل غُرْفة وغُرَف . ﴿ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ أي من ناحية الشجرة . قيل كانت شجرة العلّيق . وقيل سَمُرة وقيل عَوْسج . ومنها كانت عصاه؛ ذكره الزمخشرى . وقيل : عُنّاب ، والعَوْسج إذا عظم يقال له الغَرْقَد . وفى الحديث: إنه من شجر اليهود فإذا نزل عيسى وقتل اليهود الذين مع الدّجال فلا يختفى أحد منهم خلف شجرة إلا نطقت وقالت يا مسلم هذا يهودى ورائى تعال فاقتله إلا الغَرْقَد فإنه من شجر اليهود فلا ينطق . خرجه مسلم . قال المهدوى : وكلم الله تعالى موسى عليه السلام من فوق عرشه وأسمعه كلامه من الشجرة على ما شاء . ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالانتقال والزوال وشبه ذلك من صفات المخلوقين . قال أبو المعالى : وأهل المعانى وأهل الحق يقولون من كلمه الله تعالى وخصه بالرتبة العليا والغاية القصوى ، فيدرك كلامه القديم المتقدس عن مشابهة الحروف والأصوات والعبارات والنغمات وضروب اللغات ، كما أن مَن خصه الله بمنازل الكرامات وأكمل عليه نعمته ، ورزقه رؤيته يرى الله سبحانه منزها عن مماثلة الأجسام وأحكام الحوادث، ولا مثل له سبحانه فى ذاته وصفاته ، وأجمعت الأمة على أن الرب تعالى خصص موسى عليه السلام وغيره من المصطفين من الملائكة بكلامه . قال الأستاذ أبو إسحق : آتفق أهل الحق على أن الله تعالى خلق فى موسى عليه السلام معنى من المعانى أدرك به كلامه كان آختصاصه فى سماعه ، وأنه قادر على مثله فى جميع خلقه . وآختلفوا فى نبينا عليه السلام هل سمع ليلة الإسراء كلام الله ، وهل سمع جبريل كلامه على قولين ؛ وطريق أحدهما النقل المقطوع به وذلك مفقود، وآتفقوا على أن سماع الخلق له عند قراءة القرآن على معنى أنهم سمعوا العبارة التى عرفوا بها معناه دون سماعه له فى عينه . وقال عبد الله آبن سعد بن كلاب : إن موسى عليه السلام فهم كلام الله القديم من أصوات مخلوقة أثبتها الله تعالى فى بعض الأجسام . قال أبو المعالى : وهذا مردود ؛ بل يجب آختصاص موسى

عليه السلام بإدراك كلام الله تعالى خرقا للعادة ، ولو لم يُقل ذلك لم يكن لموسى عليه السلام اختصاص بتكليم الله إياه . والرب تعالى أسمعه كلامه العزيز، وخلق له علما ضروريا، حتى علم أن ماسمعه كلام الله، وأن الذي كلمه وناداه هو الله رب العالمين . وقد ورد في الأقاصيص أن موسى عليه السلام قال : سمعت كلام ربي بجميع جوارحي ، ولم أسمعه من جهة واحدة من جهاتي . وقد مضى هذا المعنى في « البقرة »(١) مستوفى . ﴿ أَنْ يَا مُوسَى ﴾ «أن» في موضع نصب بحذف حرف الجر أي بـ « بأن يا موسى » . ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ نفي لربوبية غيره سبحانه . وصار بهذا الكلام من أصفياء الله عز وجل لا من رسله ؛ لأنه لا يصير رسولا إلا بعد أمره بالرسالة، والأمر بها إنما كان بعد هذا الكلام .

قوله تعالى : وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ عطف على « أن يا موسى » وتقدم الكلام في هذا في « النمل » و « طه » . و ﴿ مُدْبِرًا ﴾ نصب على الحال وكذلك موضع قوله : ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ نصب على الحال أيضا . ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ﴾ قال وهب : قيل له ارجع إلى حيث كنت . فرجع فلفّ دُرّاعته(٢) على يده ، فقال له الملك : أرأيت إن أراد الله أن يصيبك بما تحاذر أينفعك لفّك يدك ؟ قال : لا ولكني ضعيف خلقت من ضعف . وكشف يده فأدخلها في فم الحية فعادت عصا . ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ أي مما تحاذر .

قوله تعالى : ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا

(١) راجع جـ ١ ص ٣٠٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) الدراعة : ضرب من الثياب التي تلبس . وقيل جبة مشقوقة المقدم .

فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ الآية ؛ تقدم القول فيه . ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ « من » متعلقة بـ « وَلَّى » أى ولى مدبرا من الرهب . وقرأ حفص والسُّلَمىّ وعيسى بن عمر وابن أبى إسحق « مِنَ الرَّهْبِ » بفتح الراء وإسكان الهاء . وقرأ ابن عامر والكوفيون إلا حفص بضم الراء وجزم الهاء . الباقون بفتح الراء والهاء . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لقوله تعالى : « وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً » وكلها لغات وهو بمعنى الخوف . والمعنى إذا هالك أمر يدك وشعاعها فأدخلها فى جيبك واردها إليه تعد كما كانت . وقيل : أمره الله أن يضم يده إلى صدره فيذهب عنه خوف الحية . عن مجاهد وغيره ورواه الضحاك عن ابن عباس ؛ قال فقال ابن عباس : ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام ، ثم يدخل يده فيضمها على صدره إلا ذهب عنه الرعب . ويحكى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن كاتبا كان يكتب بين يديه ، فانفلتت منه فلتة ريح فخجل وانكسر ، فقام وضرب بقلمه الأرض . فقال له عمر : خذ قلمك واضمم إليك جناحك ، وليفرخ روعك فإنى ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسى . وقيل : المعنى اضمم يدك إلى صدرك ليذهب الله ما فى صدرك من الخوف . وكان موسى يرتعد خوفا إما من آل فرعون وإما من الثعبان . وضم الجناح هو السكون ؛ كقوله تعالى : « وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ » يريد الرفق . وكذلك قوله : « وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى ارفق بهم . وقال الفراء : أراد بالجناح عصاه . وقال بعض أهل المعانى : الرهب الكُمّ بلغة حمير وبنى حنيفة . قال مقاتل : سألتنى أعرابية شيئا وأنا آكل فملأت الكف وأومأت إليها

فقالت : ها هنا فى رهبى . تريد فى كمّى . وقال الأصمعى : سمعت أعرابيا يقول لآخر أعطنى رهبك . فسألته عن الرهب فقال : الكم ؛ فعلى هـذا يكون معناه آضمم إليك يدك وأخرجها من الكم ؛ لأنه تناول العصا ويده فى كمه وقوله : « آسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ » يدل على أنها اليد اليمنى ؛ لأن الجيب على اليسار . ذكره القشيرى .

قلت : وما فسروه من ضمّ اليـد إلى الصدر يدل على أن الجيب موضعه الصدر . وقد مضى فى سورة « النور »(١) بيانه . الزمخشرى : ومن بدع التفاسير أن الرهب الكم بلغة حمير وأنهم يقولون أعطنى ممـا فى رهبك ، وليت شـعرى كيف صحته فى اللغـة ! وهل سمع من الأثبات الثقات الذين ترتضى عربيتهم ، ثم ليت شعرى كيف موقعه فى الآية ، وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمـات التنزيل ؛ على أن موسى صلوات الله عليـه ما كان عليـه ليلة المناجاة إلا زُرْمَانِقَة(٢) من صوف لا كمين لهـا . قال القشيرى : وقوله « وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » يريد اليدين إن قلنا أراد الأمن من فزع الثعبان . وقيل : « وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » أى شمر وآستعد لتحمل أعباء الرسالة .

قلت : فعلى هـذا قيل « إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ » أى من المرسلين ؛ لقوله تعـالى : « إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ » . قال آبن بحر : فصار على هذا التأويل رسولا بهذا القول . وقيـل إنمـا صار رسـولا بقوله : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ والبرهان اليد والعصا . وقرأ آبن كثير بتشديد النون وخففها الباقون . وروى أبو عمارة عن أبى الفضل عن أبى بكر عن آبن كثير ، « فَذَانِّيكَ » بالتشـديد والياء . وعن أبى عمرو أيضا قال لغـة هذيل « فَذَانِيكَ » بالتخفيف والياء . ولغة قريش « فَذَانِّكَ » كما قرأ أبو عمرو وآبن كثير . وفى تعليله خمسة أقوال : قيل شدّد النون عوضا من الألف الساقطة فى ذانك الذى هو تثنية ذا المرفوع ، وهو رفع بالابتدا ، وألف ذا محذوفة لدخول ألف التثنية عليها ، ولم يلتفت إلى التقاء الساكنين ؛ لأن أصله فذاانك فحذف الألف الأولى عوضا من النون الشديدة . وقيل :

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٣١ طبعـة أولى أو ثانيـة .

(٢) الزرمانقة : جبة من صوف ، وهى عجمية معربة .

التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام فى ذلك . مكى : وقيل إن من شدّد إنما بناه على لغة من قال فى الواحد ذلك ، فلما بنى أثبت اللام بعد نون التثنية، ثم أدغم اللام فى النون على حكم إدغام الثانى فى الأول، والأصل أن يدغم الأول أبدا فى الثانى، إلا أن يمنع من ذلك علة فيدغم الثانى فى الأول ، والعلة التى منعت فى هذا أن يدغم الأول فى الثانى أنه لو فعل ذلك لصار فى موضع النون التى تدل على التثنية لام مشدّدة فيتغير لفظ التثنية فأدغم الثانى فى الأول لذلك، فصار نونا مشددة . وقد قيل : إنه لما تنافى ذلك أثبت اللام قبل النون ثم أدغم الأول فى الثانى على أصول الإدغام فصار نونا مشدّدة . وقيل : شدّدت فرقا بينها وبين الظاهر التى تسقط الإضافة نونه؛ لأن ذان لا يضاف . وقيل : للفرق بين الاسم المتمكن وبينها . وكذلك العلة فى تشديد النون فى « اللذانّ » و « هذانّ » . قال أبو عمرو : إنما آختص أبو عمرو هذا الحرف بالتشديد دون كل تثنية من جنسه لقلة حروفه فقرأه بالتثقيل . ومن قرأ « فَذَانِيكَ » بياء مع تخفيف النون فالأصل عنده « فَذَانّك » بالتشديد فأبدل من النون الثانية ياء كراهية التضعيف ، كما قالوا : لا أملاه فى لا أمَلّه فأبدلوا اللام الثانية ألفا ومن قرأ بياء بعد النون الشديدة فوجهه أنه أشبع كسرة النون فتولدت عنها الياء .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا ﴾ يعنى معينا مشتق من أردأته أى أعنته . والردء العون . قال الشاعر :

ألم ترأنّ أَصْرَمَ كانَ رِدْئى * وخيرَ الناسِ فى قُلٍّ ومالِ

النحاس : وقد أردأه ورداه أى أعانه؛ وترك همزه تخفيفا . وبه قرأ نافع وهو بمعنى المهموز . قال المهدوى : ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم أَردى على المائة أى زاد عليها ، وكأن المعنى أرسله معى زيادة فى تصديق . قاله مسلم بن جندب . وأنشد قول الشاعر :

وأسمر خَطِّيًّا كأنّ كُعوبَه * نوى القَسْبِ قد أردَى ذراعا على العَشْر

كذا أنشد الماوردى هذا البيت : قد أردى . وأنشده الغزنوى والجوهرى فى الصحاح قد أرمى (١) ؛ قال : والقسب الصلب ، والقسْب تمر يابس يتفتت فى الفم صلب النواة . قال

(١) أرمى وأربى لغتان .

يصف رمحا : وأسمر . البيت . قال الجوهرى : ردؤ الشىء يردؤ رداءة فهو ردىء أى فاسد، وأردأته أفسدته ، وأردأته أيضا بمعنى أعنته ؛ تقول : أردأته بنفسى أى كنت له ردءا وهو العون . قال الله تعالى : « فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي » . قال النحاس : وقد حكى ردأته : ردءا وجمع ردء أرداء . وقرأ عاصم وحمزة « يُصَدِّقُنِي » بالرفع . وجزم الباقون ؛ وهو آختيار أبى حاتم على جواب الدعاء . وآختار الرفع أبو عبيد على الحال من الهاء فى « أرسله » أى أرسله ردءا مصدقا حالة التصديق ؛ كقوله : « أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ » أى كائنة ؛ حال صرف إلى الآستقبال . ويجوز أن يكون صفة لقوله : « ردءا » . ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ إذا لم يكن لى وزير ولا معين؛ لأنهم لا يكادون يفقهون عنى ، فـ ﴿ قَالَ ﴾ الله جل وعز له : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أى نقويك به ؛ وهذا تمثيل ؛ لأن قوة اليد بالعضد . قال طرفة :

بَنِى لُبَيْنَى لستُمُ بيـد * إلا يدًا ليست لها عضد

ويقال فى دعاء الخير : شدّ الله عضدك ، وفى ضدّه : فتّ الله فى عضدك . ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أى حجة وبرهانا . ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ بالأذى ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أى تمتنعان منهم « بآياتنا » فيجوز أن يوقف على « إِلَيْكُمَا » ويكون فى الكلام تقديم وتأخير . وقيل : التقدير « أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ » بآياتنا . قاله الأخفش والطبرى . قال المهدوى : وفى هذا تقديم الصلة على الموصول ، إلا أن يقدر أنتما غالبان بآياتنا أنتما ومن آتبعكما الغالبون . وعنى بالآيات سائر معجزاته .

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم

مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أى ظاهرات واضحات ﴿ قَالُوا مَا هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى ﴾ مكذوب مختلق ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ . وقيل : إن هذه الآيات ما احتج به موسى فى إثبات التوحيد من الحجج العقلية . وقيل : هى معجزاته .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ قراءة العامة بالواو . وقرأ مجاهد وابن كثير وابن محيصن « قالَ » بلا واو ؛ وكذلك هو فى مصحف أهل مكة . ﴿ رَبِّى أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى ﴾ أى بالرشاد . ﴿ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ ﴾ قرأ الكوفيون إلا عاصما « يكون » بالياء والباقون بالتاء . وقد تقدّم هذا . ﴿ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ أى دار الجزاء . ﴿ إِنَّهُ ﴾ الهاء ضمير الأمر والشأن ﴿ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ قال ابن عباس : كان بينها وبين قوله « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » أربعون سنة ، وكذب عدوّ الله بل علم أن له ثمّ ربًّا هو خالقه وخالق قومه « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » . قال : ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ ﴾ أى اطبخ لى الآجرّ ؛ عن ابن عباس رضى الله عنه . وقال قتادة : هو أوّل من صنع الآجرّ وبنى به . ولما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان العمال ـ قيل خمسين ألف بناء سوى الأتباع والأجراء ـ وأمر بطبخ الآجرّ والجصّ ، ونشر الخشب ،

وضرب المسامير ، فبنوا ورفعوا البناء وشيدوه بحيث لم يبلغه بنيان منذ خلق الله السموات والأرض، فكان البانى لا يقدر أن يقوم على رأسه ، حتى أراد الله أن يفتنهم فيه . فحكى السدى أن فرعون صعد السطح ورمى بنُشّابة نحو السماء، فرجعت متلطخة بدماء ، فقال قد قتلت إله موسى . فروى أن جبريل عليه السلام بعثه الله تعالى عند مقالته ، فضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع ؛ قطعة على عسكر فرعون قتلت منهم ألف ألف، وقطعة فى البحر، وقطعة فى الغرب، وهلك كل من عمل فيه شيئا . والله أعلم بصحة ذلك . ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ الظن هنا شك ، فكفر على الشك؛ لأنه قد رأى من البراهين ما لا يُخيل(١) على ذى فطرة .

قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ أى تعظم ﴿ هُوَ وَجُنُودُهُ ﴾ أى عن الإيمان بموسى . ﴿ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى بالعدوان ، أى لم تكن له حجة تدفع ما جاء به موسى . ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى توهموا أنه لا معاد ولا بعث . وقرأ نافع وابن محيصن وشيبة وحميد ويعقوب وحمزة والكسائى « لَا يَرْجِعُونَ » بفتح الياء وكسر الجيم على أنه مسمى الفاعل . الباقون « يُرْجَعُونَ » على الفعل المجهول . وهو اختيار أبى عبيد ، والأول اختيار أبى حاتم . ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ﴾ وكانوا ألفى ألف وستمائة ألف . ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ ﴾ أى طرحناهم فى البحر المالح . قال قتادة : بحر من وراء مصر يقال له إساف أغرقهم الله فيه . وقال وهب والسدى : المكان الذى أغرقهم الله فيه بناحية القُلْزُم يقال له بطن مُرَيْرة، وهو إلى اليوم غضبان . وقال مقاتل : يعنى نهر النيل . وهذا ضعيف والمشهور الأول . ﴿ فَانْظُرْ ﴾ يا محمد ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى آخر أمرهم . ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أى جعلناهم زعماء يتبعون على الكفر، فيكون عليهم وزرهم ووزر من اتبعهم حتى يكون عقابهم أكثر. وقيل : جعل الله الملأ من قومه رؤساء السفلة منهم، فهم يدعون إلى جهنم . وقيل : أئمة يأتم بهم ذوو العبر ويتعظ بهم أهل البصائر . ﴿ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ أى إلى عمل أهل

(١) لا يخيل : أى لا يشكل .

النار ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ . ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَـةً ﴾ أى أمرنا العباد بلعنهم فمن ذكرهم لعنهم . وقيل : أى ألزمناهم اللعن أى البعد عن الخير . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ أى من المهلكين الممقوتين . قاله ابن كيسان وأبو عبيـدة . وقال ابن عباس : المشوهين الخلقة بسواد الوجوه وزرقة العيون . وقيل من المبعدين . يقال قبحه الله أى نحاه من كل خير ، وقبحه وقبّحه إذا جعـله قبيحا . وقال أبو عمرو قبحت وجهـه بالتخفيف معناه قبّحت . قال الشاعر :

ألا قبّـح الله البراجمَ كلَّها * وقبّح يربوعا وقبّح دارما

وانتصب يوما على الحمل على موضع « فِي هذهِ الدُّنْيَا » واستغنى عن حرف العطف فى قوله : « مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » كما استغنى عنه فى قوله : « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ » . ويجوز أن يكون العامل فى « يوم » مضمرا يدل عليه قوله : « هم مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » فيكون كقوله . « يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِـذٍ لِلْمُجْرِمِينَ » . ويجوز أن يكون العـامل فى « يوم » قوله : « هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » وإن كان الظرف متقدما . ويجوز أن يكون مفعولا على السعة ، كأنه قال : وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ولعنة يوم القيامة .

قوله تعـالى : وَلَقَـدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْـدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يعنى التوراة ؛ قاله قتادة . قال يحيى بن سلام : هو أول كتاب ــ يعنى التوراة ــ نزلت فيه الفرائض والحدود والأحكام . وقيل : الكتاب هنا ستّ من المثانى السبع التى أنزلهـا الله على رسوله محمد صـلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عباس ، ورواه مرفوعا . ﴿ مِنْ بَعْـدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ قال أبو سعيد الخدرى قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل الله التوراة على موسى غير القرية التى مسخت قردة ألم تر إلى قوله تعـالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى » "

اى من بعد قوم نوح وعاد وثمود . وقيل : أي من بعد ما أغرقنا فرعون وقومه وخسفنا بقارون . ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أى آتيناه الكتاب بصائر . أى ليتبصروا ﴿ وَهُدًى ﴾ أى من الضلالة لمن عمل بها ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لمن آمن بها . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى ليذكروا هذه النعمة فيقيموا على إيمانهم فى الدنيا، ويثقوا بثوابهم فى الآخرة .

قوله تعالى : وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ ﴾ أى ماكنت يا محمد ﴿ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ﴾ أى بجانب الجبل الغربي- قال الشاعر :

أعطاكَ من أعطى الهُدَى النبيَّا * نُورًا يَزِينُ المنـبرَ الغربيَّـا

﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ إذ كلفناه أمرنا ونهينا، وألزمناه عهدنا . وقيل : أى إذ قضينا الى موسى أمرك وذكرناك بخير ذكر . وقال ابن عباس : « إِذْ قَضَيْنَا » أى أخبرنا أن أمة محمد خير الأمم . ﴿ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أى من الحاضرين .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا ﴾ أى من بعد موسى ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ حتى نسوا ذكر الله أى عهده وأمره . نظيره : « فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ » . وظاهر هذا يوجب أن يكون جرى لنبينا عليه السلام ذكر فى ذلك الوقت، وأن الله سيبعثه، ولكن طالت المدّة، وغلبت القسوة، فنسى القوم ذلك . وقيل : آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهود، ثم تطاول العهد فكفروا، فأرسلنا محمدا مجدّدا للدين وداعيا الخلق إليه . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ أى مقيما كمقام موسى وشعيب بينهم . قال العجّاج : * فباتَ حيث يدخلُ الثَّويُّ *

أى الضيف المقيم . وقوله : ﴿ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أى تذكرهم بالوعد والوعيد . ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أى أرسلناك فى أهل مكة، وآتيناك كتابا فيه هذه الأخبار، ولولا ذلك لما علمتها .

قوله تعالى : وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أى كما لم تحضر جانب المكان الغربى إذ أرسل الله موسى إلى فرعون ، فكذلك لم تحضر جانب الطور إذ نادينا موسى لما أتى الميقات مع السبعين . وروى عمرو بن دينار يرفعه قال : " نودى يا أمة محمد أجبتكم قبل أن تدعونى وأعطيتكم قبل أن تسألونى " فذلك قوله : « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا » . وقال أبو هريرة — وفى رواية عن ابن عباس — إن الله قال : « يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعونى وأعطيتكم قبل أن تسألونى وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى ورحمتكم قبل أن تسترحمونى » قال وهب : وذلك أن موسى لما ذكر الله له فضل محمد وأمته قال : يا رب أرنيهم . فقال الله : « إنك لن تدركهم وإن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم » قال : بلى يارب . فقال الله تعالى : « يا أمة محمد » فأجابوا من أصلاب آبائهم . فقال : « قد أجبتكم قبل أن تدعونى » ومعنى الآية على هذا ماكنت بجانب الطور إذ كلمنا موسى فنادينا أمتك وأخبرناه بما كتبناه لك ولأمتك من الرحمة إلى آخر الدنيا . ﴿ وَلَكِنْ ﴾ فعلنا ذلك ﴿ رَحْمَةً ﴾ منا بكم . قال الأخفش : « رَحْمَةً » نصب على المصدر أى ولكن رحمناك رحمة . وقال الزجاج : هو مفعول من أجله أى فعل ذلك بك لأجل الرحمة . النحاس : أى لم تشهد قصص الأنبياء ، ولا تليت عليك ، ولكنا بعثناك وأوحيناها إليك للرحمة . وقال الكسائى : على خبر كان ؛ التقدير : ولكن كان رحمة . قال : ويجوز الرفع بمعنى هى رحمة . الزجاج : الرفع بمعنى ولكن فعل ذلك رحمة . ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يعنى العرب ؛ أى لم تشاهد تلك الأخبار ، ولكن أوحيناها إليك رحمة بمن أرسلت إليهم لتنذرهم بها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ ﴾ يريد قريشا . وقيل : اليهود . ﴿ مُصِيبَةٌ ﴾ أى عقوبة ونقمة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من الكفر والمعاصى . وخص الأيدى بالذكر ؛ لأن الغالب من الكسب إنما يقع بها . وجواب « لَوْلَا » محذوف أى لولا أن يصيبهم عذاب بسبب معاصيهم المتقدمة ﴿ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا ﴾ أى هلا ﴿ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ لما بعثنا الرسل . وقيل : لعاجلناهم بالعقوبة . وبعث الرسل إزاحة لعذر الكفار كما تقدم فى « سبحان » وآخر « طه » . ﴿ فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾ نصب على جواب التحضيض . ﴿ وَنَكُونَ ﴾ عطف عليه . ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من المصدقين . وقد احتج بهذه الآية من قال : إن العقل يوجب الإيمان والشكر ؛ لأنه قال : « بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » وذلك موجب للعقاب إذ تقرر الوجوب قبل بعثة الرسل ، وإنما يكون ذلك بالعقل . قال القشيرى : والصحيح أن المحذوف لولا كذا لما احتيج إلى تجديد الرسل . أى هؤلاء الكفار غير معذورين إذ بلغتهم الشرائع السابقة والدعاء إلى التوحيد ، ولكن تطاول العهد ، فلو عذبناهم فقد يقول قائل منهم طال العهد بالرسل ، و يظن أن ذلك عذر ولا عذر لهم بعد أن بلغهم خبر الرسل ، ولكن أكملنا إزاحة العذر ، وأكملنا البيان فبعثناك يا محمد إليهم . وقد حكم الله بأنه لا يعاقب عبدا إلا بعد إكمال البيان والحجة و بعثه الرسل .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿ قَالُوا ﴾ يعنى كفار مكة ﴿ لَوْلَا ﴾ أى هلا ﴿ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾ من العصا واليد البيضاء ،

وأنزل عليه القرآن جملة واحدة كالتوراة ، وكان بلغهم ذلك من أمر موسى قبل محمد ؛ فقال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سَاحِرَانِ(١) تَظَاهَرَا ﴾ أى موسى ومحمد تعاونا على السحر . قال الكلبي : بعثت قريش إلى اليهود وسألوهم عن بعث محمد وشأنه فقالوا : إنا نجده في التوراة بنعته وصفته . فلما رجع الجواب إليهم « قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا » . وقال قوم : إن اليهود علّموا المشركين ، وقالوا قولوا لمحمد لولا أوتيت مثل ما أوتى موسى ؛ فإنه أوتى التوراة دفعة واحدة . فهذا الاحتجاج وارد على اليهود ، أى أولم يكفر هؤلاء اليهود بما أوتى موسى حين قالوا في موسى وهرون هما ساحران و ﴿ إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾ أى وإنا كافرون بكل واحد منهما . وقرأ الكوفيون « سِحْرَانِ » بغير ألف ؛ أى الإنجيل والقرآن . وقيل : التوراة والفرقان ؛ قاله الفراء . وقيل : التوراة والإنجيل . قاله أبو رزين . الباقون « سَاحِرَانِ » بألف . وفيه ثلاثة أقاويل : أحدها — موسى ومحمد عليهما السلام . وهذا قول مشركي العرب . وبه قال ابن عباس والحسن . الثانى — موسى وهرون . وهذا قول اليهود لهما في ابتداء الرسالة . وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد . فيكون الكلام احتجاجا عليهم . وهذا يدل على أن المحذوف في قوله : «وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ» لما جدّدنا بعثة الرسل ؛ لأن اليهود اعترفوا بالنبوات ولكنهم حرفوا وغيروا واستحقوا العقاب ، فقال : قد أكملنا إزاحة عذرهم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم . الثالث — عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم . وهذا قول اليهود اليوم . وبه قال قتادة . وقيل : أولم يكفر جميع اليهود بما أوتى موسى في التوراة من ذكر المسيح ، وذكر الإنجيل والقرآن ، فرأوا موسى ومحمدا ساحرين والكتابين سحرين .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١)

(١) قراءة نافع : « ساحران تظاهرا » . وعليها المصنف

قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ ﴾ أى قل يا محمد إذ كفرتم معاشر المشركين بهذين الكتابين « فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ » ليكون ذلك عذرا لكم فى الكفر ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى أنهما سحران . أوفأتوا بكتاب هو أهدى من كتابى موسى ومحمد عليهما السلام . وهذا يقوى قراءة الكوفيين « سِحْرَانِ » . « أَتَّبِعُهُ » قال الفرّاء : بالرفع ؛ لأنه صفة للكتاب وكتاب نكرة . قال : وإذا جزمت — وهو الوجه — فعلى الشرط .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ يامحمد أن يأتوا بكتاب من عند الله ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى آراء قلوبهم وما يستحسنونه ويحببه لهم الشيطان ، وأنه لاحجة لهم . ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ أى لا أحد أضل منه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ أى أتبعنا بعضه بعضا ، وبعثنا رسولا بعد رسول . وقرأ الحسن « وَصَلْنَا » مخففا . وقال أبو عبيدة والأخفش : معنى « وَصَّلْنَا » أتممنا كصلتك الشيء . وقال ابن عيينة والسدّى : بيّنا . وقاله ابن عباس . وقال مجاهد : فصلنا . وكذلك كان يقرؤها . وقال ابن زيد : وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم فى الآخرة فى الدنيا . وقال أهل المعانى : والينا وتابعنا وأنزلنا القرآن تبع بعضه بعضا : وعدا ووعيدا وقصصا وعبرا ونصائح ومواعظ إرادة أن يتذكروا فيفلحوا . وأصلها من وصل الحبال بعضها ببعض . قال الشاعر :

فقل لبنى مروان ما بال ذِمَّةٍ * وحبلٍ ضعيف مايزال يُوَصَّلُ (١)

وقال امرؤ القيس :

دَرِيرٍ كخُذروفِ الوليد أَمَرَّهُ * تَقَلُّبُ كفَّيه بخيطٍ مُوَصَّلِ (٢)

(١) رواية البحر وروح المعانى : ما بال ذمتى * بحبل ... الخ

(٢) درير : مستدر فى العدو ؛ يصف سرعة جرى فرسه . والخذروف شيء يدوّره الصبي فى يده ويسمع له صوت ويسمى الخرارة . وأمره أحكم فتله .

والضمير في « لهم » لقريش ؛ عن مجاهد . وقيل : هو لليهود . وقيل : هو لهم جميعا .
والآية رد على من قال هلا أوتي محمد القرآن جملة واحدة . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ قال ابن عباس :
يتذكرون محمدا فيؤمنوا به . وقيل : يتذكرون فيخافوا أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم ؛ قاله
علي بن عيسى . وقيل لعلهم يتعظون بالقرآن عن عبادة الأصنام . حكاه النقاش .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾
وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ
مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ أخبر أن قوما ممن أوتوا
الكتاب من بني إسرائيل من قبل القرآن يؤمنون بالقرآن ؛ كعبد الله بن سلام وسلمان .
ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى ، وهم أربعون رجلا ، قدموا مع جعفر بن أبي طالب
المدينة ، اثنان وثلاثون رجلا من الحبشة ، وثمانية نفر أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى :
منهم بحيراء الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع . كذا سماهم الماوردي .
وأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية والتي بعدها « أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » قاله
قتادة . وعنه أيضا : أنها نزلت في عبد الله بن سلام وتميم الداري والجارود العبدي وسلمان
الفارسي ، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية . وعن رفاعة القرظي : نزلت في عشرة أنا أحدهم .
وقال عروة بن الزبير : نزلت في النجاشي وأصحابه ووجه باثني عشر رجلا فجلسوا مع النبي
صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو جهل وأصحابه قريبا منهم ، فآمنوا بالنبي صلى الله عليه
وسلم ، فلما قاموا من عنده تبعهم أبو جهل ومن معه ، فقال لهم : خيبكم الله من ركب ،
وقبحكم من وفد ، لم تلبثوا أن صدقتموه ، وما رأينا ركبا أحمق منكم ولا أجهل ؛ فقالوا :
« سلام عليكم » لم نأل أنفسنا رشدا « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم » وقد تقدم هذا في « المائدة »(1)

---

(1) راجع جـ ٦ ص ٢٥٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

عند قوله : « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ » مستوفى ، وقال أبو العالية : هؤلاء قوم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وقد أدركه بعضهم . ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل القرآن . وقيل : من قبل محمد عليه السلام ﴿ هُمْ بِهِ ﴾ أى بالقرآن أو بمحمد عليه السلام ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ . ﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ﴾ أى إذا قرئ عليهم القرآن قالوا صدقنا بما فيه ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل نزوله ، أو من قبل بعثة محمد عليه السلام ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ أى موحدين ، أو مؤمنين بأنه سيبعث محمد وينزل عليه القرآن .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ ثبت فى صحيح مسلم عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبيّ ــ صلى الله عليه وسلم ــ فآمن به وآتبعه وصدّقه فله أجران وعبد مملوك أدى حق الله عز وجل وحق سيده فله أجران ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ثم أدّبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران" قال الشعبى للخراسانى : خذ هذا الحديث بغير شىء ، فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة . وخرجه البخارى أيضا . قال علماؤنا : لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطبا بأمرين من جهتين آستحق كل واحد منهم أجرين ؛ فالكتابى كان مخاطبا من جهة نبيه ، ثم إنه خوطب من جهة نبينا فأجابه وآتبعه فله أجر الملتين ، وكذلك العبد هو مأمور من جهة الله تعالى ومن جهة سيده ، ورب الأمة لما قام بما خوطب به من تربيته أمته وأدبها فقد أحياها إحياء التربية ، ثم إنه لما أعتقها وتزوجها أحياها إحياء الحرية التى ألحقها فيه بمنصبه ، فقد قام

بما أمر فيها ، فآجر كل واحد منهما أجرين . ثم إن كل واحد من الأجرين مضاعف في نفسه ، الحسنة بعشر أمثالها فتتضاعف الأجور . ولذلك قيل: إن العبد الذي يقوم بحق سيده وحق الله تعالى أفضل من الحر ، وهو الذي آرتضاه أبو عمر بن عبد البر وغيره . وفي الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " للعبد المملوك المصلح أجران " والذي نفس أبي هريرة بيده لولا الجهاد في سبيل الله والحج وبر أمي لأحببت أن أموت وأنا مملوك . قال سعيد بن المسيّب : وبلغنا أن أبا هريرة لم يكن يحج حتى ماتت أمه لصحبتها . وفي الصحيح أيضا عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نعمّا للمملوك أن يُتوفّى يحسن عبادة الله وصحابة سيده نعمّا له " .

الثانية ــ قوله تعالى : ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ عام في صبرهم على ملتهم، ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقونه من الكفار وغير ذلك .

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أي يدفعون . درأت إذا دفعت ، والدرء الدفع . وفي الحديث " آدرءوا الحدود بالشبهات " . قيل : يدفعون بالآحتمال والكلام الحسن الأذى . وقيل: يدفعون بالتوبة والآستغفار الذنوب؛ وعلى الأول فهو وصف لمكارم الأخلاق ؛ أي من قال لهم سوءا لاينوه وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه . فهذه آية مهادنة ، وهي من صدر الإسلام ، وهي مما نسختها آية السيف وبقي حكمها فيما دون الكفر يتعاطاه أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة . ومنه قوله عليه السلام لمعاذ " وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحها وخالِق الناس بخلق حسن " ومن الخلق الحسن دفع المكروه والأذى ، والصبر على الجفا بالإعراض عنه ولين الحديث .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أثنى عليهم بأنهم ينفقون من أموالهم في الطاعات وفي رسم الشرع ، وفي ذلك حض على الصدقات . وقد يكون الإنفاق من الأبدان بالصوم والصلاة ؛ ثم مدحهم أيضا على إعراضهم عن اللغو ؛ كما قال تعالى: « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا » أي إذا سمعوا ما قال لهم المشركون من الأذى والشتم أعرضوا

عنه ؛ أى لم يشتغلوا به ﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى متاركة؛ مثل قوله : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » أى لنا ديننا ولكم دينكم . « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » أى أمنا لكم منا فإنا لا نحاربكم، ولا نسابكم ، وليس من التحية فى شىء . قال الزجاج : وهذا قبل الأمر بالقتال . ﴿ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أى لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة .

قوله تعالى : إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ قال الزجاج : أجمع المسلمون على أنها نزلت فى أبى طالب .

قلت : والصواب أن يقال أجمع جل المفسرين على أنها نزلت فى شأن أبى طالب عم النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وهو نص البخارى ومسلم، وقد تقدّم ذلك فى « براءة »[1] . وقال أبو روق قوله : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ إشارة إلى العباس . وقاله قتادة . ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ قال مجاهد : لمن قدّر له أن يهتدى . وقيل : معنى « مَنْ أَحْبَبْتَ » أى من أحببت أن يهتدى . وقال جبير بن مطعم: لم يسمع أحد الوحى يلقى على النبىّ صلى الله عليه وسلم إلا أبا بكر الصدّيق فإنه سمع جبريل وهو يقول : يا محمد اقرأ « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

قوله تعالى : وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ هذا قول مشركي مكة . قال ابن عباس : قائل ذلك من قريش الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشي ، قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا لنعلم أن قولك حق ، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ، ونؤمن بك ، مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا ـ يعني مكة ـ لاجتماعهم على خلافنا ، ولا طاقة لنا بهم . وكان هذا من تعللاتهم ، فأجاب الله تعالى عما اعتل به فقال : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾ أي ذا أمن . وذلك أن العرب كانت في الجاهلية يغير بعضهم على بعض ، و يقتل بعضهم بعضا ، وأهل مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم ، فأخبر أنه قد أمنهم بحرمة البيت ، ومنع عنهم عدوهم ، فلا يخافون أن تستحل العرب حرمة في قتالهم . والتخطف الانتزاع بسرعة ؛ وقد تقدم . قال يحيى بن سلام يقول : كنتم آمنين في حرمي ، تأكلون رزقي ، وتعبدون غيري ، أفتخافون إذا عبدتموني وآمنتم بي . ﴿ يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي يجمع إليه ثمراتُ كل أرض و بلد ؛ عن ابن عباس وغيره . يقال جبى الماء في الحوض أي جمعه . والجابية الحوض العظيم . وقرأ نافع « تُجْبَى » بالتاء ؛ لأجل الثمرات . الباقون بالياء ؛ لقوله : « كُلِّ شَيْءٍ » واختاره أبو عبيد . قال : لأنه حال بين الاسم المؤنث و بين فعله حائل ، وأيضا فإن الثمرات جمع ، وليس بتأنيث حقيق . ﴿ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ﴾ أي من عندنا . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعقلون ؛ أي هم غافلون عن الاستدلال ، وأن من رزقهم وأمنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا ، و يمنع الكفار عنهم في إسلامهم . و « رِزْقًا » نصب على المفعول من أجله . و يجوز نصبه على المصدر بالمعنى ؛ لأن معنى « تُجْبَى » ترزق . وقرئ « يُجْنَى » بالنون من الجنا . وتعديته بإلى كقولك يجنى إلى فيه ويجنى إلى الخافة (١) .

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ بين لمن توهم أنه لو آمن لقاتلته العرب أن الخوف في ترك الإيمان أكثر ؛ فكم من قوم كفروا ثم حل بهم البوار ، والبطر

(١) الخافة العيبة ومنه الحديث " المؤمن كمثل خافة الزرع " .

الطغيان بالنعمة ؛ قاله الزجاج « مَعِيشَتَهَا » أي في معيشتها فلما حذف (في) تعدّى الفعل ؛ قاله المازني . الزجاج كقوله : « وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا » . الفراء : هو منصوب على التفسير . قال كما تقول : أبطرت مالك و بطرته . ونظيره عنده « إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ » وكذا عنده « فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا » ونصب المعارف على التفسير محال عند البصريين ؛ لأن معنى التفسير والتمييز أن يكون واحدا نكرة يدل على الجنس . وقيل : انتصب بـ « بَطِرَتْ » ومعنى « بَطِرَتْ » جهلت ؛ فالمعنى : جهلت شكر معيشتها . ﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي لم تُسكَن بعد إهلاك أهلها إلا قليلا من المساكن وأكثرها خراب . والاستثناء يرجع إلى المساكن أي بعضها يسكن ؛ قاله الزجاج . واعترض عليه ؛ فقيل : لو كان الاستثناء يرجع إلى المساكن لقال إلا قليل ؛ لأنك تقول : القوم لم تضرب إلا قليل ؛ ترفع إذا كان المضروب قليلا ، وإذا نصبت كان القليل صفة للضرب ؛ أي لم تضرب إلا ضربا قليلا ، فالمعنى إذًا : فتلك مساكنهم لم يسكنها إلا المسافرون ومن مرّ بالطريق يوما أو بعض يوم ، أي لم تُسكن من بعدهم إلا سكونا قليلا . وكذا قال ابن عباس : لم يسكنها إلا المسافر أو مارّ الطريق يوما أو ساعة . ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ أي لما خلفوا بعد هلاكهم .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى ﴾ أي القرى الكافرة . ﴿ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا ﴾ قرئ بضم الهمزة وكسرها لإتباع الجر يعني مكة و﴿ رَسُولًا ﴾ يعني محمدا صلى الله

عليه وسلم . وقيل : « فِى أُمِّهَا » يعنى فى أعظمها « رَسُولًا » ينذرهم . وقال الحسن : فى أوائلها .

قلت : ومكة أعظم القرى لحرمتها وأولها، لقوله تعالى : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ » وخصت بالأعظم لبعثة الرسول فيها ؛ لأن الرسل تبعث إلى الأشراف وهم يسكنون المدائن وهى أم ما حولها . وقد مضى هذا المعنى فى آخر سورة « يوسف » (١) . ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ « يتلو » فى موضع الصفة أى تاليا أى يخبرهم أن العذاب ينزل بهم إن لم يؤمنوا . ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى الْقُرَى ﴾ وسقطت النون للإضافة مثل « ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ » . ﴿ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ أى لم أهلكهم إلا وقد آستحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم . وفى هذا بيان لعدله وتقدسه عن الظلم . أخبر تعالى أنه لا يهلكهم إلا إذا آستحقوا الإهلاك بظلمهم ، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل ، ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم . ونزه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين ، كما قال عز من قائل : «وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ» فنص فى قوله « بِظُلْمٍ» على أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلما لهم منه،وأن حاله فى غناه وحكمته منافية للظلم ، دل على ذلك بحرف النفى مع لامه كما قال تعالى : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَىْءٍ ﴾ يأهل مكة ﴿ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾ أى تتمتعون بها مدة حياتكم ، أو مدة فى حياتكم ،فإما أن تزولوا عنها أو تزول عنكم . ﴿ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أى أفضل وأدوم ؛ يريد الدار الآخرة وهى الجنة . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أن الباقى أفضل من الفانى . قرأ أبو عمرو « يعقلون » بالياء . الباقون بالتاء على الخطاب وهو الاختيار لقوله تعالى : « وَمَا أُوتِيتُمْ » . قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ ﴾ يعنى الجنة وما فيها من الثواب ﴿ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فأعطى منها بعض ما أراد . ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ أى فى النار . ونظيره قوله : «وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ

(١) أنظر جـ ٩ ص ٢٧٤ طبعة أولى أو ثانية .

مِنَ الْمُحْضَرِينَ » قال ابن عباس : نزلت فى حمزة بن عبد المطلب، وفى أبى جهل بن هشام. وقال مجاهد : نزلت فى النبى صلى الله عليه وسلم وأبى جهل . وقال محمد بن كعب . نزلت فى حمزة وعلىّ، وفى أبى جهل وعمارة بن الوليد . وقيل : فى عمار والوليد بن المغيرة ؛ قاله السدى . قال القشيرى : والصحيح أنها نزلت فى المؤمن والكافر على التعميم . الثعلبى : و بالجملة فإنها نزلت فى كل كافر متع فى الدنيا بالعافية والغنى وله فى الآخرة النار، وفى كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله فى الآخرة الجنة .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ (٦٧)

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ أى ينادى الله يوم القيامة هؤلاء المشركين ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِىَ ﴾ بزعمكم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم . ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ أى حقت عليهم كلمة العذاب وهم الرؤساء؛ قاله الكلبى. وقال قتادة : هم الشياطين. ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا ﴾ أى دعوناهم إلى الغىّ . فقيل لهم : أغويتموهم؟ قالوا : ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ . يعنون أضللناهم كما كنا ضالين . ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى تبرأ بعضنا من بعض، والشياطين يتبرءون ممن أطاعهم ، والرؤساء يتبرءون ممن قبل منهم؛ كما قال تعالى : « الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ ﴾ أى للكفار ﴿ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أى آستغيثوا بآلهتكم التى عبدتموها فى الدنيا لتنصركم وتدفع عنكم . ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ أى آستغاثوا بهم . ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ أى فلم يجيبوهم ولم ينتفعوا بهم . ﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ قال الزجاج : جواب « لَوْ » محذوف، والمعنى : لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم الهدى ، ولما صاروا إلى العذاب . وقيل : أى لو أنهم كانوا يهتدون ما دعوهم . وقيل المعنى : ودّوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا إذا رأوا العذاب يوم القيامة . ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى يقول الله لهم ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتى . ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى خفيت عليهم الحجج؛ قاله مجاهد؛ لأن الله قد أعذر إليهم فى الدنيا فلا يكون لهم عذر ولا حجة يوم القيامة . و « الْأَنْبَاءُ » الأخبار ؛ سمّى حججهم أنباء لأنها أخبار يخبرونها . ﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أى لا يسأل بعضهم بعضا عن الحجج ؛ لأن الله تعالى أدحض حججهم؛ قاله الضحاك . وقال آبن عباس : « لَا يَتَسَاءَلُونَ » أى لا ينطقون بحجة . وقيل : « لَا يَتَسَاءَلُونَ » فى تلك الساعة ، ولا يدرون ما يجيبون به من هول تلك الساعة ، ثم يجيبون بعد ذلك كما أخبر عن قولهم : « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » . وقال مجاهد : لا يتساءلون بالأنساب . وقيل : لا يسأل بعضهم بعضا أن يحمل من ذنوبه شيئا ؛ حكاه بن عيسى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ ﴾ أى من الشرك ﴿ وَآمَنَ ﴾ أى صدّق ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أدى الفرائض وأكثر من النوافل ﴿ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ أى من الفائزين بالسعادة . وعسى من الله واجبة .

قوله تعالى : وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ هذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم واختاروهم للشفاعة؛ أى الاختيار إلى الله تعالى فى الشفعاء لا إلى المشركين . وقيل هو جواب الوليد بن المغيرة حين قال : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » يعنى نفسه زعم؛ وعروة بن مسعود الثقفى من الطائف . وقيل : هو جواب اليهود إذ قالوا لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنا به . قال ابن عباس : والمعنى؛ وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار منهم من يشاء لطاعته . وقال يحيى بن سلّام : والمعنى؛ وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار من يشاء لنبوّته . وحكى النقاش : أن المعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم، ويختار الأنصار لدينه .

قلت : وفى كتاب البزّار مرفوعا صحيحا عن جابر " إن الله تعالى اختار أصحابى على العالمين سوى النبيين والمرسلين واختار لى من أصحابى أربعة — يعنى أبا بكر وعمر وعثمان وعليا — فجعلهم أصحابى وفى أصحابى كلهم خير واختار أمّتى على سائر الأمم واختار لى من أمتى أربعة قرون" . وذكر سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن وهب بن منبه عن أبيه فى قوله عز وجل : « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ » قال من النعم الضأن، ومن الطير الحمام . والوقف التام « وَيَخْتَارُ » . وقال علىّ بن سليمان : هذا وقف التمام ولا يجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ « يَخْتَارُ » لأنها لو كانت فى موضع نصب لم يعد عليها شىء . قال وفى هذا رد على القدرية . قال النحاس : التمام « وَيَخْتَارُ » أى ويختار الرسل . ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ أى ليس يرسل من اختاروه هم . قال أبو إسحق : « وَيَخْتَارُ » هذا الوقف التام المختار، ويجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ« يَخْتَارُ » ويكون المعنى ويختار الذى كان لهم فيه الخيرة . قال القشيرى : الصحيح الأول لإطباقهم [على] الوقف على قوله « وَيَخْتَارُ » . قال المهدوى : وهو أشبه بمذهب أهل السنة و « ما » من قوله : « مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ » نفى عام لجميع الأشياء أن يكون للعبد فيها شىء سوى اكتسابه بقدرة الله عز وجل . الزمخشرى : « مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ » بيان لقوله « ويختار »؛ لأن معناه يختار ما يشاء؛ ولهذا لم يدخل العاطف، والمعنى؛ إن الخيرة لله تعالى فى أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها أى ليس لأحد

من خلقه أن يختار عليه . وأجاز الزجاج وغيره أن تكون « ما » منصوبة بـ«يَخْتَارُ» . وأنكر الطبرى أن تكون « ما » نافية؛ لئلا يكون المعنى إنهم لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهى لهم فيما يستقبل، ولأنه لم يتقدّم كلام بنفى . قال المهدوى : ولا يلزم ذلك؛ لأن « ما » تنفى الحال والاستقبال كليس ولذلك عملت عملها ؛ ولأن الآى كانت تنزل على النبى صلى الله عليه وسلم على ما يسأل عنه ، وعلى ما هم مصرون عليه من الأعمال وإن لم يكن ذلك فى النص . وتقدير الآية عند الطبرى : ويختار لولايته الخيرة من خلقه ؛ لأن المشركين كانوا يختارون خيار أموالهم فيجعلونها لآلهتهم ، فقال الله تبارك وتعالى : « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ » للهداية من خلقه من سبقت له السعادة فى علمه ، كما اختار المشركون خيار أموالهم لآلهتهم ، فـ « مَا » على هذا لمن يعقل وهى بمعنى الذى و « الْخِيَرَةُ » رفع بالابتداء و « لَهُمْ » الخبر والجملة خبر « كان » . وشبهه بقولك : كان زيد أبوه منطلق وفيه ضعف ؛ إذ ليس فى الكلام عائد يعود على اسم كان إلا أن يقدر فيه حذف فيجوز على بعد . وقد روى معنى ما قاله الطبرى عن ابن عباس . قال الثعلبى : و « مَا » نفى أى ليس لهم الاختيار على الله . وهذا أصوب كقوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » . قال محمود الوراق :

توكّل على الرحمن فى كل حاجة * أردتّ فإن الله يقضى ويقدر

إذا ما يرِدْ ذو العرش أمرا بعبده * يصبْه وما للعبد ما يتخير (١)

وقد يهلك الإنسانُ من وجه حِذْره * وينجو بحمد الله من حيث يحذر (٢)

وقال آخر :

العبدُ ذو ضَجَرٍ والربُّ ذو قَدَرٍ * والدّهرُ ذو دُوَلٍ والرزقُ مقسومُ

والخيرُ أجمعُ فيما اختار خالقُنا * وفى اختيار سواه اللّومُ والشُّومُ

قال بعض العلماء : لا ينبغى لأحد أن يقدم على أمر من أمور الدنيا حتى يسأل الله الخيرة فى ذلك ؛ بأن يصلى ركعتين صلاة الاستخارة ، يقرأ فى الركعة الأولى بعد الفاتحة « قُلْ يَا أَيُّهَا

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : وما للعبد لا يتخير . والتصحيح من النسخة الخيرية .

(٢) لعل صواب البيت : وينجو بحمد الله من ليس يحذر . وهذا ما يفيده معنى التوكل .

ٱلْكَافِرُونَ » وفى الركعة الثانية « قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ » . وٱختار بعض المشايخ أن يقرأ فى الركعة الأولى « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ » الآية، وفى الركعة الثانية « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » وكلٌّ حسن . ثم يدعو بهذا الدعاء بعد السلام، وهو ما رواه البخارى فى صحيحه عن جابر بن عبد الله قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن؛ يقول : "إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين غير الفريضة ثم ليقل اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى — أو قال فى عاجل أمرى وآجله — فٱقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه اللهم وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى — أو قال فى عاجل أمرى وآجله — فٱصرفه عنى وٱصرفنى عنه وٱقدر لى الخير حيث كان ثم رضّنى به" قال : ويسمى حاجته . وروت عائشة عن أبى بكر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أمرا قال : "اللهم خِرْ لى وٱختر لى". وروى أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له "يا أنس إذا هممت بأمر فٱستخر ربك فيه سبع مرات ثم ٱنظر إلى ما يسبق قلبك فإن الخير فيه". قال العلماء : وينبغى له أن يفرغ قلبه من جميع الخواطر حتى لا يكون مائلا إلى أمر من الأمور، فعند ذلك ما يسبق إلى قلبه يعمل عليه، فإن الخير فيه إن شاء الله . وإن عزم على سفر فيتوخى بسفره يوم الخميس أو يوم الاثنين ٱقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم نزه نفسه سبحانه بقوله الحق؛ فقال : ﴿ سُبْحَانَ ٱللهِ ﴾ أى تنزيها . ﴿ وَتَعَالَى ﴾ أى تقدس وتمجد ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ . وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ يظهرون . وقرأ ٱبن محيصن وحميد « تَكُنُّ » بفتح التاء وضم الكاف . وقد تقدم هذا فى « النمل » . تمدح سبحانه بأنه عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شىء ﴿ وَهُوَ ٱللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ تقدم معناه، وأنه المنفرد بالوحدانية، وأن جميع المحامد إنما تجب له، وأن لا حكم إلا له وإليه المصير .

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾ أى دائما ؛ ومنه قول طَرَفة ،

لعمرُك ما أمرى علىّ بغُمّة * نهارى ولا ليلى علىّ بسَرْمَد[(١)]

بين سبحانه أنه مهد أسباب المعيشة ليقوموا بشكر نعمه . ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾ أى بنور تطلبون فيه المعيشة . وقيل : بنهار تبصرون فيه معايشكم وتصلح فيه الثمار والنبات . ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ سماع فهم وقبول . ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ أى تستقرون فيه من النصَب . ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ما أنتم فيه من الخطإ فى عبادة غيره ؛ فإذا أقررتم بأنه لا يقدر على إيتاء الليل والنهار غيره فلِمَ تشركون به . ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أى فيهما . وقيل : الضمير للزمان وهو الليل والنهار . ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى لتطلبوا من رزقه فيه أى فى النهار فحذف . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله على ذلك .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

(١) الغمة : الأمر الذى لا يهتدى له ؛ والمعنى ؛ لا أتحير فى أمرى نهارا وأقوده ليلا فيطول على الليل .

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أعاد هذا الضمير لاختلاف الحالين ، ينادون مرة فيقال لهم : « أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ » فيدعون الأصنام فلا يستجيبون ، فتظهر حيرتهم[1] ، ثم ينادون مرة أخرى فيسكتون . وهو توبيخ وزيادة خزى . والمناداة هنا ليست من الله ؛ لأن الله تعالى لا يكلم الكفار لقوله تعالى : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » لكنه تعالى يأمر من يوبخهم ويبكتهم ، ويقيم الحجة عليهم فى مقام الحساب . وقيل : يحتمل أن يكون من الله ، وقوله : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ » حين يقال لهم « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » وقال : « شُرَكَائِيَ » لأنهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ أى نبيا ؛ عن مجاهد . وقيل : هم عدول الاخرة يشهدون على العباد بأعمالهم فى الدنيا . والأول أظهر ؛ لقوله تعالى : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا » وشهيد كل أمة رسولها الذى يشهد عليها . والشهيد الحاضر . أى أحضرنا رسولهم المبعوث إليهم . ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أى حجتكم . ﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ أى علموا صدق ما جاءت به الأنبياء . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أى ذهب عنهم وبطل . ﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى يختلقونه من الكذب على الله تعالى من أن معه آلهة تعبد .

قوله تعالى : إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

---

(١) فى نسخة : فيظهر حزنهم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾ لما قال تعالى : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا » بيّن أن قارون أوتيها واغتر بها ولم تعصمه من عذاب الله كما لم تعصم فرعون ، ولستم أيها المشركون بأكثر عددا ومالا من قارون وفرعون ، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله ، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه . قال النخعى وقتادة وغيرهما : كان ابن عم موسى لحاً ؛ وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ، وموسى بن عمران بن قاهث . وقال ابن إسحق : كان عم موسى لأب وأم . وقيل : كان ابن خالته . ولم ينصرف للعجمة والتعريف . وما كان على وزن فاعول أعجميا لا يحسن فيه الألف واللام لم ينصرف فى المعرفة وانصرف فى النكرة ، فإن حسنت فيه الألف واللام انصرف إن كان اسما لمذكر نحو طاوس وراقود . قال الزجاج : ولو كان قارون من قرنت الشيء لانصرف . ﴿ فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾ بغيه أنه زاد فى طول ثوبه شبرا ؛ قاله شهر بن حوشب . وفى الحديث "لا ينظر الله إلى من جرّ إزاره بطرا" وقيل : بغيه كفره بالله عز وجل ؛ قاله الضحاك . وقيل : بغيه استخفافه بهم بكثرة ماله وولده ؛ قاله قتادة . وقيل : بغيه نسبته ما أتاه الله من الكنوز إلى نفسه بعلمه وحيلته ؛ قاله ابن بحر . وقيل : بغيه قوله إذا كانت النبوة لموسى والمذبح والقربان فى هرون فمالى ! فروى أنه لما جاوز بهم موسى البحر وصارت الرسالة لموسى والحبورة لهرون ؛ يقرب القربان ويكون رأسا فيهم ، وكان القربان لموسى فجعله موسى إلى أخيه ، وجد قارون فى نفسه وحسدهما . فقال لموسى : الأمر لكما وليس لى شيء إلى متى أصبر . قال موسى : هذا صنع الله . قال : والله لا أصدقنك حتى تأتى بآية ؛ فأمر رؤساء بنى إسرائيل أن يجيء كل واحد منهم بعصاه ، فحزمها وألقاها فى القبة التى كان الوحى ينزل عليه فيها ، وكانوا يحرسون عصيهم بالليل ، فأصبحوا وإذا بعصا هرون تهتز ولها ورق أخضر — وكانت من شجر اللوز — فقال قارون : ما هو بأعجب مما تصنع من السحر . « فَبَغَى عَلَيْهِمْ » من البغى وهو الظلم . وقال يحيى بن سلام وابن المسيّب : كان قارون غنيا عاملا لفرعون على بنى إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم وكان منهم . وقول سابع : روى عن ابن عباس قال : لما أمر الله

تعالى برجم الزانى عمد قارون إلى آمرأة بغى وأعطاها مالا، وحملها على أن آدعت على موسى أنه زنى بها وأنه أحبلها؛ فعظم على موسى ذلك وأحلفها بالله الذى فلق البحر لبنى إسرائيل، وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت. فتداركها الله فقالت: أشهد أنك برىء، وأن قارون أعطانى مالا، وحملنى على أن قلت ما قلت، وأنت الصادق وقارون الكاذب. فجعل الله أمر قارون إلى موسى وأمر الأرض أن تطيعه. فجاءه وهو يقول للأرض: يا أرض خذيه؛ وهى تأخذه شيئا فشيئا وهو يستغيث ياموسى! إلى أن ساخ فى الأرض هو وداره وجلساؤه الذين كانوا على مذهبه. وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى: آستغاث بك عبادى فلم ترحمهم، أما أنهم لو دعونى لوجدونى قريبا مجيبا. آبن جريج: بلغنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة، فلا يبلغون إلى أسفل الأرض إلى يوم القيامة. وذكر آبن أبى الدنيا فى كتاب الفرج: حدّثنى إبراهيم بن راشد قال حدّثنى داود بن مهران، عن الوليد بن مسلم، عن مروان آبن جناح، عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس قال: لقى قارون يونس فى ظلمات البحر، فنادى قارون يونس، فقال يا يونس: تب إلى الله فإنك تجده عند أول قدم ترجع بها إليه. فقال يونس: ما منعك من التوبة. فقال: إن توبتى جعلت إلى آبن عمى فأبى أن يقبل منى. وفى الخبر: إذا وصل قارون إلى قرار الأرض السابعة نفخ إسرافيل فى الصور. والله أعلم. قال السدى: وكان آسم البغى سبرتا، وبذل لها قارون ألفى درهم. قتادة: وكان قطع البحر مع موسى وكان يسمى المنوّر من حسن صورته فى التوراة، ولكن عدوّ الله نافق كما نافق السامرى.

قوله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ قال عطاء: أصاب كثيرا من كنوز يوسف عليه السلام. وقال الوليد بن مروان: إنه كان يعمل الكيمياء. ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ «إن» وآسمها وخبرها فى صلة «ما» و«ما» مفعولة «آتينا». قال النحاس: وسمعت على بن سليمان يقول ما أقبح ما يقول الكوفيون فى الصلات؛ إنه لا يجوز أن تكون صلة الذى وأخواته «إن» وما عملت فيه، وفى القرآن «مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ». وهو جمع مِفتح بالكسر وهو ما يفتح

به . ومن قال مفتاح قال مفاتيح . ومن قال هى الخزائن فواحدها مَفتح بالفتح . ﴿ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾ أحسن ما قيل فيه أن المعنى لتنيء العصبة أى تميلهم بثقلها ، فلما انفتحت التاء دخلت الباء ، كما قالوا هو يذهب بالبؤس ويُذهِب البؤسَ . فصار « لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ » فجعل العصبة تنوء أى تنهض متثاقلة ؛ كقولك قم بنا أى اجعلنا نقوم . يقال : ناء ينوء نوءا إذا نهض بثقل . قال الشاعر (١) :

تَنُوءُ بأخراها فَلَأْيًا قِيامُها * وتَمشِي الهُوَيْنَى عن قريبٍ فتَبْهَرُ

وقال آخر :

أخذتُ فلم أملك ونُؤْتُ فلم أَقُمْ * كأنِّيَ من طول الزمان مقيَّدُ

وأناءنى إذا أثقلنى ؛ عن أبى زيد . وقال أبو عبيدة : قوله « لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ » مقلوب والمعنى لتنوء بها العصبة أى تنهض بها . أبو زيد : نؤت بالحمل إذا نهضت . قال الشاعر :

إنا وجدنا خَلَفا بئس الخلَفْ * عبدًا إذا ما ناء بالحمل وقف

والأول معنى قول ابن عباس وأبى صالح والسدى . وهو قول الفراء واختاره النحاس . كما يقال ذهبت به وأذهبته وجئت به وأجأته ونؤت به وأَنَأْتُهُ ؛ فأما قولهم : له عندى ما ساءه وناءه فهو إتباع كان يجب أن يقال وأناءه . ومثله هنأنى الطعام ومرأنى ، وأخذه ما قدُم وما حدُث . وقيل : هو مأخوذ من النأى وهو البعد . ومنه قول الشاعر :

يَنْأَوْنَ عنا وما تَنْأَى مودّتُهم * فالقلبُ فيهم رهينٌ حيثما كانوا

وقرأ بديل بن ميسرة « لَيَنُوءُ » بالياء ؛ أى لينوء الواحد منها أو المذكور حمل على المعنى . وقال أبو عبيدة : قلت لرؤبة بن العجّاج فى قوله :

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَق * كأنّه فى الجِلْدِ تَوْليعُ البَهَقْ

إن كنت أردت الخطوط فقل كأنها ، وإن كنت أردت السواد والبلق فقل كأنهما . فقال: أردت كل ذلك . واختلف فى العصبة وهى الجماعة التى يتعصب بعضهم لبعض على أحد عشر قولا : الأول ــ ثلاثة رجال ؛ قاله ابن عباس . وعنه أيضا من الثلاثة إلى العشرة .

(١) هو ذو الرمة . يريد تنيها عجيزتها إلى الأرض لضخامتها وكثرة لحمها فى أردافها .

وقال مجاهد : العصبة هنا ما بين العشرين إلى خمسة عشر . وعنه أيضا : ما بين العشرة إلى الخمسة عشر . وعنه أيضا : من عشرة إلى خمسة . ذكر الأوّل الثعلبي، والثاني القشيرى والماوردى، والثالث المهدوى . وقال أبو صالح والحكم بن عُتَيبة وقتادة والضحاك : أربعون رجلا . السدّى ما بين العشرة إلى الأربعين . وقاله قتادة أيضا . وقال عكرمة : منهم من يقول أربعون، ومنهم من يقول سبعون . وهو قول أبى صالح إن العصبة سبعون رجلا ؛ ذكره الماوردى . والأوّل ذكره عنه الثعلبي . وقيل : ستون رجلا . وقال سعيد بن جبير : ست أو سبع . وقال عبد الرحمن بن زيد : ما بين الثلاثة والتسعة وهو النفر . وقال الكلبي: عشرة لقول إخوة يوسف « وَنَحْنُ عُصْبَةٌ » وقاله مقاتل . وقال خيثمة : وجدت فى الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقر ستين بغلا غراء محجلة، وأنها لتنوء بها من ثقلها، ما يزيد مفتح منها على إصبع، لكل مفتح منها كنز مال ، لو قسم ذلك الكنز على أهل البصرة لكفاهم . قال مجاهد : كانت المفاتيح من جلود الإبل . وقيل : من جلود البقر لتخف عليه ، وكانت تحمل معه إذا ركب على سبعين بغلا فيما ذكره القشيرى . وقيل : على أربعين بغلا . وهو قول الضحاك . وعنه أيضا : إن مفاتحه أوعيته . وكذا قال أبو صالح : إن المراد بالمفاتح الخزائن ؛ فالله أعلم . ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴾ أى المؤمنون من بنى إسرائيل ؛ قاله السدّى . وقال يحيى بن سلّام : القوم هنا موسى . وقاله الفراء . وهو جمع أريد به واحد كقوله : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ » وإنما هو نعيم بن مسعود على ما تقدّم . ﴿ لَا تَفْرَحْ ﴾ أى لا تأشر ولا تبطر . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ أى البطرين ؛ قاله مجاهد والسدّى . قال الشاعر:

واستُ بمِفْراحٍ إذا الدهرُ سَرَّنِى * ولا ضارعٌ فى صرفه المتقلب (١)

وقال الزجاج : المعنى لا تفرح بالمال فإنّ الفَرِح بالمال لا يؤدّى حقّه (٢) . وقال مبشر بن عبد الله : لا تفرح لا تفسد . قال الشاعر (٣) :

إذا أنتَ لم تبرح تؤدّى أمانةً * وتحملُ أخرى أفرحتك الودائعُ

(١) ويروى : ولا جازع من صرفه المتحوّل . (٢) التصحيح من النسخة الخيرية .
(٣) أنشده أبو عبيدة لبيهس العذرى .

أى أفسدتك . وقال أبو عمرو : أفرحه الدين أثقله . وأنشده : إذا أنت ... البيت . وأفرحه سره فهو مشترك . قال الزجاج : والفرحين والفارحين سـواء . وفرق بينهما الفراء فقال : معنى الفرحين الذين هم فى حال فرح ، والفارحين الذين يفرحون فى المستقبل . وزعم أن مثله طمع وطامـع وميت ومائت . ويدل على خلاف ما قال قول الله عز وجل :[« إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَيِّتُونَ » ولم يقل مائت . وقال مجاهـد أيضا : معنى « لَا تَفْرَحْ » لا تبغ « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » أى الباغين . وقال آبن بحر : لا تبخل إن الله لا يحب الباخلين .

قوله تعالى : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أى اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهى الجنة ؛ فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه فى الآخرة لا فى التجبر والبغى .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ آختلف فيه ؛ فقال آبن عباس والجمهور : لا تضيع عمرك فى ألا تعمل عمـلا صالحا فى دنياك ؛ إذ الآخرة إنمـا يعمل لها ، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها . فالكلام على هذا التأويل شدّة فى الموعظة . وقال الحسن وقتادة : معناه لا تضيع حظك من دنيـاك فى تمتعك بالحلال وطلبك إياه ، ونظرك لعاقبـة دنياك . فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به و إصلاح الأمر الذى يشتهيه . وهذا ممـا يجب آستعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدّة ؛ قاله ابن عطية .

قلت : وهذان التأويلان قد جمعهما آبن عمر فى قوله : آحرث لدنياك كأنك تعيش أبدا ، وآعمل لآخرتك كأنك تموت غدا . وعن الحسن : قدّم الفضل ، وأمسك ما يبلغ . وقال مالك : هو الأكل والشرب بلا سرف . وقيل : أراد بنصيبه الكفن . فهذا وعظ متصل ؛ كأنهم قالوا : لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك هذا الذى هو الكفن . ونحو هذا قول الشاعر :

نَصِيبُك ممـا تجمَـعُ الدهرَ كلَّه * رداءان تُلْوَى فيهمـا وحَنُوط

وقال آخر: وهى القناعة لا تبغى بهـا بدلا * فيهـا النعيم وفيهـا راحة البدن

آنظر لمن ملك الدنيـا بأجمعها * هل راح منها بغير القطن والكفن

قال آبن العربى : وأبدع ما فيه عندى قول قتادة : ولا تنس نصيبك الحلال ، فهو نصيبك من الدنيا ويا ما أحسن هذا . ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أى أطع الله وآعبده كما أنعم عليك .

ومنه الحديث: ما الإحسان؟ قال: "أن تعبد الله كأنك تراه" وقيل: هو أمر بصلة المساكين.
قال ابن العربي: فيه أقوال كثيرة جماعها استعمال نعم الله في طاعة الله. وقال مالك: هو الأكل والشرب من غير سرف. قال ابن العربي: أرى مالكا أراد الرد على الغالين في العبادة والتقشف؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الحلواء، ويشرب العسل، ويستعمل الشواء، ويشرب الماء البارد. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع. ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي لا تعمل بالمعاصي ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

قوله تعالى: قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ يعني علم التوراة. وكان فيما روى من أقرأ الناس لها، ومن أعلمهم بها. وكان أحد العلماء السبعين الذين اختارهم موسى للميقات. وقال ابن زيد: أي إنما أوتيته لعلمه بفضلي ورضاه عني. فقوله «عندي» معناه إن عندي أن الله تعالى آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي إياها لفضل فيّ. وقيل: أوتيته على علم من عندي بوجوه التجارة والمكاسب؛ قاله علي بن عيسى. ولم يعلم أن الله لو لم يسهل له اكتسابها لما اجتمعت عنده. وقال ابن عباس: على علم عندي بصنعة الذهب. وأشار إلى علم الكيمياء. وحكى النقاش: أن موسى عليه السلام علمه الثلث من صنعة الكيمياء، ويوشع الثلث، وهرون الثلث، فخدعهما قارون — وكان على إيمانه — حتى علم ما عندهما وعمل الكيمياء، فكثرت أمواله. وقيل: إن موسى علم الكيمياء ثلاثة؛ يوشع بن نون، [وكالب[1] بن يوفنا]، وقارون، واختار الزجاج القول الأول، وأنكر قول من قال إنه يعمل الكيمياء. قال: لأن الكيمياء باطل لا حقيقة له. وقيل: إن موسى علّم أخته علم الكيمياء، وكانت زوجة قارون، وعلّمت أخت موسى قارون؛ والله أعلم.

(١) في الأصول « طالوت » وهو تحريف. والتصويب من كتب التفسير.

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى بالعذاب . ﴿ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ أى الأمم الخالية الكافرة . ﴿ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ أى للمال، ولو كان المال يدل على فضل لما أهلكهم . وقيل : القوة الآلات، والجمع الأعوان والأنصار، والكلام خرج مخرج التقريع من الله تعالى لقارون؛ أى « أَوَلَمْ يَعْلَمْ » قارون « أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ » . ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى لا يسألون سؤال استعتاب كما قال : « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » « وَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ » وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ لقوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » قاله الحسن . وقال مجاهد : لا تسأل الملائكة غدا عن المجرمين؛ فإنهم يعرفون بسيماهم ، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العيون . وقال قتادة : لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها ، بل يدخلون النار بلا حساب . وقيل : لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية الذين عذبوا فى الدنيا . وقيل : أهلك من أهلك من القرون عن علم منه بذنوبهم فلم يحتج إلى مسئلتهم عن ذنوبهم .

قوله تعالى : فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ ﴾ أى على بنى إسرائيل فيما رآه زينة من متاع الحياة الدنيا؛ من الثياب والدواب والتجمل فى يوم عيد . قال الغزنوى : فى يوم السبت . « فِى زِينَتِهِ » أى مع زينته ، قال الشاعر :

إذا ما قلوبُ القــومِ طارت مخافةً * من الموت أرسوا بالنفوس المواجد (١)

أى مع النفوس . كان خرج فى سبعين ألفا من تبعه ، عليهم المعصفرات ، وكان أول من صُبغ له الثياب المعصفَرة . قال السدّى : مع ألف جوار بيض على بغال بيض بسروج من

(١) فى نسخة : أرموا بالنفوس . وفى نسخة أخرى أرسوا بالنفوس النواجذ . ولم نعثر عليه .

ذهب على قُطُف الأُرْجُوان . قال ابن عباس : خرج على البغال الشهب . مجاهد : على براذين بيض عليها سروج الأُرْجُوان ، وعليهم المعصفَرات، وكان ذلك أول يوم رؤى فيه المعصفَر . قال قتادة : خرج على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر، منها ألف بغل أبيض عليها قُطُف حمر . قال ابن جريج : خرج على بغلة شهباء عليها الأُرْجُوان، ومعه ثلثمائة جارية على البغال الشهب عليهن الثياب الحمر . وقال ابن زيد : خرج فى سبعين ألفا عليهم المعصفَرات . الكلبى : خرج فى ثوب أخضر كان الله أنزله على موسى من الجنة فسرقه منه قارون . وقال جابر بن عبد الله رضى الله عنه : كانت زينته القِرمِز .

قلت : القِرمِز صبغ أحمر مثل الأُرْجُوان، والأُرْجوان فى اللغة صبغ أحمر؛ ذكره القشيرى . ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى نصيب وافر من الدنيا . ثم قيل : هذا من قول مؤمنى ذلك الوقت، تمنوا مثل ماله رغبة فى الدنيا . وقيل : هو من قول أقوام لم يؤمنوا بالآخرة ولا رغبوا فيها، وهم الكفار .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ وهم أحبار بنى إسرائيل للذين تمنوا مكانه ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ يعنى الجنة . ﴿ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ أى لا يؤتى الأعمال الصالحة، أو لا يؤتى الجنة فى الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله . وجاز ضميرها لأنها المعنية بقوله : « ثَوَابُ اللَّهِ » .

قوله تعالى : فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ قال مقاتل : لما أمر موسى الأرض فابتلعته قالت بنو إسرائيل : إنما أهلكه ليرث ماله؛ لأنه كان ابن عمه؛ أخى أبيه، فخسف

الله تعالى به وبداره الأرض وبجميع أمواله بعد ثلاثة أيام، فأوحى الله إلى موسى إنى لا أعيد طاعة الأرض إلى أحد بعدك أبدا . يقال : خَسَف المكانُ يخسِف خُسوفا ذهب فى الأرض وخَسَف اللهُ به الأرض خَسْفا أى غاب به فيها . ومنه قوله تعالى : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » وخَسَف هو فى الأرض وخُسِف به . وخسوف القمر كسوفه . قال ثعلب : كَسَفت الشمسُ وخَسَف القمرُ؛ هذا أجود الكلام . والخسف النقصان؛ يقال : رضى فلان بالخسف أى بالنقيصة . ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ ﴾ أى جماعة وعصابة . ﴿ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴾ لنفسه أى الممتنعين فيما نزل به من الخسف . فيروى أن قارون يَسفُل كلّ يوم بقدر قامة، حتى إذا بلغ قعر الأرض السفلى نفخ إسرافيل فى الصور؛ وقد تقدّم؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ ﴾ أى صاروا يتندمون على ذلك التمنى و﴿ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ ﴾ [وى] حرف تندّم . قال النحاس : أحسن ما قيل فى هذا قول الخليل وسيبويه ويونس والكسائى إن القوم تنبّهوا أو نُبِّهوا؛ فقالوا وَىْ، والمتندم من العرب يقول فى خلال تندمه وَىْ . قال الجوهرى : وَىْ . كلمة تعجب، ويقال : وَيْكَ ووَىْ لعبد الله . وقد تدخل وَىْ على كأن المخففة والمشددة تقول : ويكأن الله . قال الخليل : هى مفصولة؛ تقول « وَىْ » ثم تبتدئ فتقول « كَأَنَّ » . قال الثعلبى : وقال الفراء هى كلمة تقرير؛ كقولك : أما ترى إلى صنع الله وإحسانه؛ وذكر أن أعرابية قالت لزوجها : أين ٱبنكَ وَيْلك؟ فقال : وَىْ كأنّه وراءَ البيت؛ أى أما ترينه . وقال ٱبن عباس والحسن : ويك كلمة ٱبتداء وتحقيق تقديره : إن الله يبسط الرزق . وقيل : هو تنبيه بمنزلة ألا فى قولك ألا تفعل وأمّا فى قولك أما بعد . قال الشاعر(1) :

سَألتَانِى الطَّلاقَ إذ رَأَتَانِى ✱ قَلَّ مالِى قد جِئْتُمانِى بِنُكْرِ
وَىْ كَأَنْ مَنْ يَكنْ له نَشَبٌ يُحْبَ ✱ بْ ومَنْ يَفتقرْ يَعشْ عيشَ ضُرِّ

(1) هو زيد بن عمرو بن نفيل .

وقال قُطْرُب : إنما هو ويلك وأسقطت لامه وضمت الكاف التى هى للخطاب إلى وَىْ .
قال عنترة :

ولقد شَفَى نفسى وأَبرأَ سُقْمَها * قَولُ الفوارِس وَيْكَ عَنْتَرُ أَقْدِمِ

وأنكره النحاس وغيره، وقالوا : إن المعنى لايصح عليه؛ لأن القوم لم يخاطبوا أحدا فيقولوا له ويلك، ولو كان كذلك لكان إنه بالكسر . وأيضا فإن حذف اللام من ويلك لا يجوز . وقال بعضهم : التقدير ويلك اعلم أنه؛ فأضمر اعلم . ابن الأعرابى : «وَيْكَأَنَّ اللَّهَ» أى أعلم . وقيل : معناه ألم تر أن الله . وقال القتبى : معناه رحمة لك بلغة حِمْير . وقال الكسائى : وَىْ فيه معنى التعجب . ويروى عنه أيضا الوقف على وَىْ وقال كلمة تفجّع . ومن قال : ويك فوقف على الكاف فمعناه أعجب لأن الله يبسط الرزق وأعجب لأنه لا يفلح الكافرون . وينبغى أن تكون الكاف حرف خطاب لا اسما؛ لأن وى ليست مما يضاف . وإنما كتبت متصلة؛ لأنها لما كثر استعمالها جعلت مع ما بعدها كشىء واحد . ﴿ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ بالإيمان والرحمة وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البغى والبطر ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ . وقرأ الأعمش « لَوْلَا مَنُّ اللهِ عَلَيْنَا » . وقرأ حفص « لَخَسَفَ بِنَا » مسمّى الفاعل . الباقون : على ما لم يسم فاعله وهو اختيار أبى عبيد . وفى حرف عبد الله « لَانْخُسِفَ بِنَا » كما تقول انطُلِق بنا . وكذلك قرأ الأعمش وطلحة بن مُصَرِّف . واختار قراءة الجماعة أبو حاتم لوجهين : أحدهما قوله : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ . والثانى قوله : « لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا » فهو بأن يضاف إلى الله تعالى لقرب اسمه منه أولى . ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ عند الله .

قوله تعالى : تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ ﴾ يعنى الجنة . وقال ذلك على جهة التعظيم لها والتفخيم لشأنها . يعنى تلك التى سمعت بذكرها ، وبلغك وصفها ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ ﴾ أى رفعة وتكبرا على الإيمان والمؤمنين ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ عملا بالمعاصى . قاله ابن جريج ومقاتل . وقال عكرمة ومسلم البَطين : الفساد أخذ المال بغير حق . وقال الكلبي الدعاء إلى غير عبادة الله . وقال يحيى بن سلّام : هو قتل الأنبياء والمؤمنين . ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال الضحاك : الجنّة . وقال أبو معاوية : الذى لا يريد علوّا هو من لم يجزع من ذلّها ، ولم ينافس فى عزّها ، وأرفعهم عند الله أشدّهم تواضعا ، وأعزّهم غدا ألزمهم لذلّ اليوم . وروى سفيان بن عيينة عن إسمعيل بن أبى خالد قال : مرّ علىّ بن الحسين وهو راكب على مساكين يأكلون كِسَرا لهم ، فسلّم عليهم فدعوه إلى طعامهم ، فتلا هذه الآية «تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَادًا» ثم نزل وأكل معهم . ثم قال : قد أجبتكم فأجيبونى . فحملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وصرفهم . خرّجه أبو القاسم الطبرانى سليمان بن أحمد قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال حدّثنى أبى ، قال حدّثنا سفيان بن عيينة . فذكره . وقيل : لفظ الدار الآخرة يشمل الثواب والعقاب . والمراد إنما ينتفع بتلك الدار من اتقى ، ومن لم يتق فتلك الدار عليه لا له ؛ لأنها تضره ولا تنفعه .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ تقدّم فى « النمل » . وقال عكرمة : ليس شىء خيرا من لا إله إلا الله . وإنما المعنى من جاء بلا إله إلا الله فله منها خير . ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ أى بالشرك ﴿ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى يعاقب بما يليق بعمله .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ الْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا

لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ ختم السورة ببشارة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بردّه إلى مكة قاهرا لأعدائه . وقيل : هو بشارة له بالجنّة . والأول أكثر . وهو قول جابر بن عبد الله وآبن عباس ومجاهد وغيرهم . قال القتبي : معاد الرجل بلده؛ لأنه ينصرف ثم يعود . وقال مقاتل : خرج النبي صلى الله عليه وسلم من الغار ليلا مهاجرا إلى المدينة فى غير الطريق مخافة الطلب ، فلما رجع إلى الطريق ونزل الجُحْفة عرف الطريق إلى مكة فآشتاق إليها ، فقال له جبريل إن الله يقول : « إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ » أى إلى مكة ظاهرا عليها . قال آبن عباس : نزلت هذه الآية بالجُحْفة ليست مكية ولا مدنية . وروى سعيد بن جبير عن آبن عباس « إِلَىٰ مَعَادٍ » قال : إلى الموت . وعن مجاهد أيضا وعكرمة والزهرى والحسن : إن المعنى لرادّك إلى يوم القيامة ؛ وهو آختيار الزجاج . يقال بينى و بينك المعاد ؛ أى يوم القيامة ؛ لأن الناس يعودون فيه أحياء . و « فَرَضَ » معناه أنزل . وعن مجاهد أيضا وأبى مالك وأبى صالح « إِلَىٰ مَعَادٍ » إلى الجنة . وهو قول أبى سعيد الخدرى وآبن عباس أيضا؛ لأنه دخلها ليلة الإسراء . وقيل : لأن أباه آدم خرج منها . ﴿قُل رَّبِّى أَعْلَمُ﴾ أى قل لكفار مكة إذا قالوا إنك لفى ضلال مبين ﴿رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أنا أم أنتم .

قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أى ما علمت أننا نرسلك إلى الخلق وننزل عليك القرآن . ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ قال الكسائى : هو آستثناء منقطع بمعنى لكن . ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ أى عونا لهم ومساعدا . وقد تقدّم فى هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ يعني أقوالهم وكذبهم وأذاهم ، ولا تلتفت نحوهم وآمض لأمرك وشأنك . وقرأ يعقوب « يَصُدُنَّكَ » مجزوم النون . وقرئ « يُصِدُّنَّكَ » من أصده بمعنى صده وهى لغة فى كلب . قال الشاعر(1) :

أُنَاسٌ أصدّوا الناسَ بالسيف عنهم * صُدُودَ السَّوَاقِي عن أنوفِ الحَوَائِمِ(2)

﴿ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أى إلى التوحيد . وهذا يتضمن المهادنة والموادعة . وهذا كله منسوخ بآية السيف . وسبب هذه الآية ما كانت قريش تدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تعظيم أوثانهم ، وعند ذلك ألقى الشيطان فى أمنيته أمر الغَرانيق(3) على ما تقدم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ أى لا تعبد معه غيره فإنه لا إله إلا هو . نفى لكل معبود وإثبات لعبادته . ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ قال مجاهد : معناه إلا هو . وقال الصادق : دينه . وقال أبو العالية وسفيان : أى إلا ما أريد به وجهه ؛ أى ما يقصد إليه بالقربة . قال :

أَستغفرُ اللهَ ذنبًا لستُ مُحْصِيَه * ربَّ العبادِ إليه الوَجْهُ والعملُ

وقال محمد بن يزيد : حدثنى الثورى قال سألت أبا عبيدة عن قوله تعالى « كل شيء هالك إلا وجهه » فقال : إلا جاهه ، كما تقول لفلان وجه فى الناس أى جاه . ﴿ لَهُ الْحُكْمُ ﴾ فى الأولى والآخرة ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ : قال الزجاج : « وجهه » منصوب على الاستثناء ، ولو كان فى غير القرآن كان إلا وجهه بالرفع ، بمعنى كل شيء غير وجهه هالك كما قال(4) :

وكُلُّ أخٍ مُفارِقُهُ أخـوه * لَعَمْرُ أبيكَ إلّا الفَرْقَدَانِ

والمعنى كل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه . « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » بمعنى ترجعون إليه .

تمت سورة القصص والحمد لله

---

(1) هو ذو الرمة . (2) ويروى : بالضرب ... من أنوف الخارم . (3) راجع جـ ١٢ ص ٧٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (4) هو عمرو بن معدى كرب ، ويروى لسوار بن المضرب شواهد سيبويه) .

